سلسلة نصوص تراثية للباحثين (٥٥٨)

وما تخفي الصدور

من خلال مصنفات التفسير

د/ يوسف بن حمود الحوشان

١٤٤٤هـ

نسخة أولية من غير ترتيب او مراجعة

ومتاح لكل أحد الاستفادة منها

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله اما بعد

فهذه نصوص جمعت باستخدام برنامج شاملة وورد من برمجيات الدكتور سعود العقيل بواسطة المكتبة الشاملة

معتمدة على توظيف الكلمة المفتاحية وتوفير النصوص للباحثين لتحريرها والاستفادة منها وهي مشاعة لمن يستفيد منها

وسيتبعها نصوص أخرى يسر الله نشرها والله الموفق

يوسف بن حمود الحوشان

yhoshan@gmail.com

تليجرام https://t.me/dralhoshan

"بمعنى واحد، والله أعلم.وقوله – عز وجل –: (فالحكم لله العلي الكبير).قال قتادة: لما خرج أهل حروراء قال علي بن أبي طالب – رضي الله عنه –: " من هؤلاء؟ قيل: المحكمون، قال قائل: هم القراء، قال – عليه السلام – ليسوا بالقراء، ولكنهم العيابون الخيابون، قال: إنهم يقولون " لا حكم إلا لله، قال علي – رضي الله عنه –: كلمة حق أريد بها باطل "، وذكر: " عني بها باطل ".* * *قوله تعالى: (هو الذي يريكم آياته وينزل لكم من السماء رزقا وما يتذكر إلا من ينيب (١٣) فادعوا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون (١٤) رفيع الدرجات ذو العرش يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده لينذر يوم التلاق (١٥) يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شيء لمن الملك اليوم لله الواحد القهار (١٦) اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب (١٧) وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع (١٨) يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور (١٩)وقوله: (هو الذي يريكم آياته).اختلف في قوله: (يريكم) هو ما أراهم بمكذبي رسله ومصدقهم من أوائلهم حيث استأصل هؤلاء بتكذيبهم رسله، وأنجى مصدقيهم بتصديقهم إياه؛ ليحذر هؤلاء عن تكذيب رسوله. وقال بعضهم: أراهم آيات وحدانيته وربوبيته وقدرته وسلطانه في السماوات والأرض ما لو تأملوا لعرفوا ذلك؛ وهو كقوله – تعالى –: (وكأين من آية في السماوات والأرض)، آيات وحدانيته وربوبيته، وذكر أنهم يمرون عليها، أي: يرونها – لكنهم يعرضون عنها، والله أعلم.وقال بعضهم في قوله: (هو الذي يريكم آياته): يا أهل مكة إذا سافرتم رأيتم آيات المتقدمين ومنازلهم وهلاكهم؛ وهو الأول بعينه.وقوله: (وينزل لكم من السماء رزقا).يخبر عن آيات وحدانيته أيضا: أنه ينزل رزقهم من السماء، وحيل الخلق تنقطع عن استنزال الرزق من السماء؛ ليعلموا أن منشئ الأرض والسماء واحد حيث اتصل منافع السماء بمنافع الأرض على بعد ما بينهما.ويحتمل أنه يذكر نعمه عليهم حيث يعلمون أنه هو الذي أنزل أرزاقهم من السماء دون من يعبدون من الأصنام، فكيف تصرفون عبادتكم وشكركم إلى غيره؟!وقوله: (وما يتذكر إلا من ينيب).." [١]

"وقوله – عز وجل –: (يعلم خائنة الأعين ... (١٩) والخيانة واحد، وهو ما قال عز وجل: (ولا تزال تطلع على خائنة منهم)، أي: خيانة منهم. وقال بعضهم: هي النظرة بعد النظرة: أما الأولى فليس فيها شيء، وأما الثانية فعليه مأثمها.وقوله: (وما تخفي الصدور).أي: ما لم يتكلم به المرء ولم يعمل، كل ذلك يعلمه الله تعالى.وقال بعضهم: خائنة الأعين: هي النظرة فيما لا يحل والغمزة بعينه؛ وهو مثل الأول.وقال بعضهم: خائنة الأعين: هي التي ينتظرها: غفلة الناس إذا غفلوا عنه، نظر إلى ما يهواه ويحبه، و (تخفي الصدور) هو ما ذكر – عز وجل –: (يعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون)، يذكر هذا ليكونوا أبدا مراقبين أنفسهم، حافظين لها عما لا يحل من السمع والبصر والفؤاد، وعلى ما ذكر في آية أخرى: (إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا)، ليكونوا أبدا على حذر من ذلك وخوف، والله أعلم.* * *قوله تعالى: (والله يقضي بالحق والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء إن الله هو السميع البصير (٢٠) أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم كانوا هم أشد منهم قوة وآثارا في الأرض فأخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله

---

(١) تفسير الماتريدي = تأويلات أهل السنة، أبو منصور المَاتُرِيدي ٩/١١

من واق (٢١) ذلك بأنهم كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فكفروا فأخذهم الله إنه قوي شديد العقاب (٢٢)وقوله – عز وجل –: (والله يقضي بالحق).قال أهل التأويل: أي: الحكم بالحق. والقضاء المذكور في الكتاب يخرج على وجوه: أحدها: (يقضي) أي: يأمر؛ كقوله تعالى: (وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه)؛ وكقوله: (إذا قضى الله ورسوله أمرا)، أي: إذا أمر أمرا، يقول: (والله يقضي بالحق) أي: يأمر بالحق، (والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء) أي: لا يملكون الأمر بالحق، فكيف تعبدون من دونه؟!والثاني: القضاء: الوحي والخبر؛ كقوله تعالى: (وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب)." (١)

"أي: أوحينا إليهم، فكأنه يقول: والله يوحي بالحق ويخبر به، والذين يدعون من دونه لا يملكون الوحي ولا الخبر، فكيف اخترتم عبادتهم على عبادة من يوحي بالحق ويخبر؟! والله أعلم.والثالث: القضاء هو الخلق والإنشاء؛ كقوله تعالى: (فقضاهن سبع سماوات) أي: خلقهن، فيكون قوله على هذا (والله يقضي بالحق)، أي: يخلق بالحق، والذين يدعون من دونه لا يخلقون شيئا، وقد يعلمون استحقاق العبادة إنما يجوز بالخلق والإنشاء؛ وهو كقوله تعالى: (أفمن يخلق كمن لا يخلق)، (خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم)، يقول: خلق من يدعون دونه كخلقه حتى تشابه ذلك عليهم فعبدوهم؛ إذ يعلمون أن من خلق ليس كمن لم يخلق، وقد تعلمون أنها لم تخلق شيئا، فكيف عبدتموها؟! والله أعلم.ثم أقول: أصل التأويل (يقضي بالحق) أي: يحكم بالحق في الدنيا بالآيات والحجج ما عرف كل أحد أنها حجج وآيات وبراهين، والحكم بما ذكرنا حكم بالحق، والله أعلم.والثاني: أي يحكم بالحق في الآخرة وهو الشفاعة، أي: لا يجعل الشفاعة لمن يعبدون على رجاء الشفاعة؛ كقولهم: (هؤلاء شفعاؤنا عند الله)، ولكن إنما يجعل لمن ارتضى؛ كقوله تعالى: (ولا يشفعون إلا لمن ارتضى)، والله أعلم.وقوله – عز وجل –: (إن الله هو السميع البصير).روي عن ابن عباس – رضي الله عنه – أنه قال: السميع للمؤمن، أي: المجيب للمؤمن، والبصير لعقاب أولئك.وقيل: السميع لأقوالهم، البصير بأفعالهم.وجائز أن يكون قوله – تعالى –: (إن الله هو السميع البصير) صلة ما تقدم من قوله: (يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور) يقول: السميع بما يكون منهم ظاهرا من قول أو فعل، والبصير بما أخفوا في قلوبهم وتكن صدورهم، يخبر بهذا؛ ليكونوا أبدا مراقبين حافظين أنفسهم ما ظهر وما خفي، والله أعلم.وقوله – عز وجل –: (أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم كانوا هم أشد منهم قوة وآثارا في الأرض فأخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق (٢١).هذا يخرج على وجهين:." (٢)

"قلت: والقول الأول ظاهر جدا، لأن المقصود إظهار انفراده تعالى بالملك عند انقطاع دعاوى المدعين وانتساب المنتسبين، إذ قد ذهب كل ملك وملكه ومتكبر وملكه وانقطعت نسبهم ودعاويهم، ودل على هذا قوله الحق عند قبض الأرض والأرواح وطي السماء:" أنا الملك أين ملوك الأرض" كما تقدم في حديث أبي هريرة وفي حديث ابن عمر، ثم يطوي الأرض بشماله والسموات بيمينه، ثم يقول: أنا الملك أين الجبارون أين المتكبرون. وعنه قوله سبحانه:" لمن الملك اليوم" هو انقطاع زمن الدنيا وبعده يكون البعث والنشر. قال محمد بن كعب قوله سبحانه:" لمن الملك اليوم" يكون بين النفختين حين فني الخلق وبقي الخالق فلا يرى غير نفسه مالكا ولا مملوكا فيقول:" لمن الملك اليوم" فلا يجيبه أحد، لأن الخلق أموات

---

(١) تفسير الماتريدي = تأويلات أهل السنة، أبو منصور المَاتُرِيدي ١٦/٩

(٢) تفسير الماتريدي = تأويلات أهل السنة، أبو منصور المَاتُرِيدي ١٧/٩

فيجيب نفسه فيقول:" لله الواحد القهار" لأنه بقي وحده وقهر خلقه. وقيل: إنه ينادي مناد فيقول:" لمن الملك اليوم" فيجيبه أهل الجنة:" لله الواحد القهار" فالله أعلم. ذكره الزمخشري. قوله تعالى:" اليوم تجزى كل نفس بما كسبت" أي يقال لهم إذا أقروا بالملك يومئذ لله وحده" اليوم تجزى كل نفس بما كسبت" من خير أو شر." لا ظلم اليوم" أي لا ينقص أحد شيئا مما عمله." إن الله سريع الحساب" أي لا يحتاج إلى تفكر وعقد يد كما يفعله الحساب، لأنه العالم الذي لا يعزب عن علمه شي فلا يؤخر جزاء أحد للاشتغال بغيره، وكما يرزقهم في ساعة واحدة يحاسبهم كذلك في ساعة واحدة. وقد مضى هذا المعنى في" البقرة" «١». وفي الخبر: ولا ينتصف النهار حتى يقيل أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار.[سورة غافر (٤٠): الآيات ١٨ الى ٢٢]وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع (١٨) يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور (١٩) والله يقضي بالحق والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء إن الله هو السميع البصير (٢٠) أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم كانوا هم أشد منهم قوة وآثارا في الأرض فأخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق (٢١) ذلك بأنهم كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فكفروا فأخذهم الله إنه قوي شديد العقاب (٢٢)ـــــــــــــــــ(١). راجع ج ٢ ص ٤٣٥ طبعه ثانيه. [.....]." [(١)]

"نفسه مثل مسجد الجامع وصلاة الأولى." ما للظالمين من حميم" أي من قريب ينفع" ولا شفيع يطاع" فيشفع فيهم. قوله تعالى:" يعلم خائنة الأعين" قال المؤرج: فيه تقديم وتأخير أي يعلم الأعين الخائنة وقال ابن عباس: هو الرجل يكون جالسا مع القوم فتمر المرأة فيسارقهم النظر إليها. وعنه: هو الرجل ينظر إلى المرأة فإذا نظر إليه أصحابه غض بصره، فإذا رأى منهم غفلة تدسس بالنظر، فإذا نظر إليه أصحابه غض بصره، وقد علم الله عز وجل منه أنه يود لو نظر إلى عورتها. وقال مجاهد هي مسارقة نظر الأعين إلى ما نهى الله عنه. وقال قتادة: هي الهمزة بعينه وإغماضه فيما لا يحب الله تعالى. وقال الضحاك: هي قول الإنسان ما رأيت وقد رأى أو رأيت وما رأى. وقال السدي: إنها الرمز بالعين. وقال سفيان: هي النظرة بعد النظرة. وقال الفراء:" خائنة الأعين" النظرة الثانية" وما تخفي الصدور" النظرة الأولى. وقال ابن عباس:" وما تخفي الصدور" أي هل يزني بها لو خلا بها أو لا. وقيل:" وما تخفي الصدور" تكنه وتضمره. ولما جئ بعبد الله بن «١» أبي سرح إلى رسول الله لي الله عليه وسلم، بعد ما اطمأن أهل مكة وطلب له الأمان عثمان رضي الله عنه، صمت رسول الله صلى الله عليه وسلم طويلا ثم قال:" نعم" فلما انصرف قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لمن حوله:" ما صمت إلا ليقوم إليه بعضكم فيضرب عنقه" فقال رجل من الأنصار فهلا أومأت إلي يا رسول الله، فقال:" إن النبي لا تكون له خائنة أعين"." والله يقضي بالحق" أي يجازي من غض بصره عن المحارم، ومن نظر إليها، ومن عزم على مواقعة الفواحش إذا قدر عليها." والذين يدعون من دونه" يعني الأوثان" لا يقضون بشيء" لأنها لا تعلم شيئا ولا تقدر عليه ولا تملك. وقراءة العامة بالياء على الخبر عن الظالمين وهي اختيار أبي عبيد وأبي حاتم. وقرأ نافع وشيبة وهشام:" تدعون" بالتاء." إن الله هو السميع البصير"" هو" زائدة فاصلة. ويجوز أن تكون في موضع رفع بالابتداء وما بعدها خبر والجملة خبر إن.ـــــــــــــــــ(١). عبد الله بن أبي سرح: كان يكتب الوحي لرسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم ارتد ولحق

---

(١) تفسير القرطبي، شمس الدين القرطبي ١٥/٣٠١

بالمشركين، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقتله يوم فتح مكة. راجع قصته في ج ٧ ص ٤٠ طبعه أولى أو ثانيه.." (١)

"قلت: قد استنبط بعض العلماء من قوله في حديث علقمة بن وائل عن أبيه: [فانطلق ليحلف] القيام- والله أعلم- أخرجه مسلم. الرابع- التغليظ باللفظ، فذهبت طائفة إلى الحلف بالله لا يزيد عليه، لقوله تعالى:" فيقسمان بالله" وقوله:" قل إي وربي" «١»] يونس: ٥٣] وقال:" وتالله لأكيدن أصنامكم" «٢»] الأنبياء: ٥٧] وقوله عليه السلام: [من كان حالفا فليحلف بالله أو ليصمت]. وقول الرجل: والله لا أزيد عليهن. وقال مالك: يحلف بالله الذي لا إله إلا هو ما له عندي حق، وما ادعاه علي باطل، والحجة له ما رواه أبو داود حدثنا مسدد قال حدثنا أبو الأحوص قال حدثنا عطاء بن السائب عن أبي يحيى عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال- يعني لرجل حلفه [احلف بالله الذي لا إله إلا هو ما له عندك شي] يعني للمدعي، قال أبو داود: أبو يحيى اسمه زياد «٣» كوفي ثقة ثبت. وقال الكوفيون: يحلف بالله لا غير، فإن اتهمه القاضي غلظ عليه اليمين، فيحلفه بالله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة الرحمن الرحيم الذي يعلم من السر ما يعلم من العلانية الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور. وزاد أصحاب الشافعي التغليظ بالمصحف. قال ابن العربي: وهو بدعة ما ذكرها أحد قط من الصحابة. وزعم الشافعي أنه رأى ابن مازن قاضي صنعاء يحلف بالمصحف ويأمر أصحابه بذلك] ويرويه [«٤» عن ابن عباس، ولم يصح. قلت: وفي كتاب (المهذب) وإن حلف بالمصحف وما فيه من القرآن فقد حكى الشافعي عن مطرف أن ابن الزبير كان يحلف على المصحف، قال: ورأيت مطرفا بصنعاء يحلف «٥» على المصحف، قال الشافعي: وهو حسن. قال ابن المنذر: وأجمعوا على أنه لا ينبغي للحاكم أن يستحلف بالطلاق والعتاق والمصحف «٦». قلت: قد تقدم في الأيمان: وكان قتادة يحلف بالمصحف. وقال أحمد وإسحاق: لا يكره ذلك، حكاه عنهما ابن المنذر.______________(١). راجع ج ٨ ص ٣٥١.(٢). راجع ج ١١ ص ٢٩٦.(٣). هو أبو يحيى زياد الأعرج مولى الأنصار. [.....](٤). من الأصول. وفي ابن العربي: ويأثر أصحابه ذلك عن ابن عباس.(٥). وفي ب وج وع وى وهـ: يستحلف.(٦). في ب وع وهـ وى: أو المصحف.." (٢)

"فالجواب: أن نفي الأخص هنا يستلزم نفي الأعم لأنه قال لهم (يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعا) فكذبوه في هذه المقالة فإذا كذبوه فيها فهم لم يصدقوه في نبوته لأن النبي لا يكذب.قوله تعالى: (قل كفى بالله شهيدا بيني وبينكم).هذا من كمال الاتصاف مثل (إنا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين) فمعنى الآية الله شهيد علي وعليكم فيعلم المحق من المبطل فيجازي كلا بفعله، وقوله (شهيدا) من باب المبالغة، والمبالغة فيه إما [...] متعلقة شهادته؛ لأنها عامة في كل أحد.قال تعالى: (يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور)والمبالغة في نفس الشهادة باعتبار استيفاء وجوهها وجميع شرائطها حتى لا يشذ عنه من حال المشهود عليه في نفس الشهادة هي، قوله تعالى: (شهيدا) يعم الدنيا والآخرة فالدنيا باعتبار ظهور المعجزات على يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم وهي تنزل منزلة قوله صدق عبدي فصار كالشهادة

---

(١) تفسير القرطبي، شمس الدين القرطبي ١٥/٣٠٣

(٢) تفسير القرطبي، شمس الدين القرطبي ٦/٣٥٤

لأحد الخصمين بالصدق في دعواه باعتبار آي القرآن.قال تعالى: (وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل) وأما الآخرة فباعتبار مجازاته إياهم وعقابهم على تكذيبهم قوله: (ومن عنده علم الكتاب) المصدر مضاف للمفعول أي ومن يعلم الكتاب والمراد بمن عنده إما الصحابة والكتاب القرآن أو الله تعالى واللوح المحفوظ، وقيل: المراد بها من أسلم من اليهود والنصارى كعبد الله بن سلام، والكتاب التوراة والإنجيل، قال ابن الخطيب: هذه السورة مكية وعبد الله بن سلام إنما أسلم بعد ذلك فكيف يقال إنه هو المراد بقوله: (ومن عنده علم الكتاب) لأنه لا يشهد حينئذ أو هو كافر، أجاب: باحتمال أن تكون هذه الآية خاصة منها مدنية وبالله تعالى التوفيق.* * *." (١)

"﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ الْأَعْيُنِ﴾ النظرة بعد النظرة الثَّانِيَة من الْخِيَانَة ﴿وَمَا تُخْفِي الصُّدُور﴾ مَا تضمر الْقُلُوب عِنْد النظرة الثَّانِيَة يعلم الله ذَلِك." (٢)

"يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور (١٩) والله يقضي بالحق والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء إن الله هو السميع البصير (٢٠) أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم كانوا هم أشد منهم قوة وآثارا في الأرض فأخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق (٢١) ذلك بأنهم كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فكفروا فأخذهم الله إنه قوي شديد العقاب (٢٢)." (٣)

"(والله يقضي بالحق) فيجازي كل أحد بما يستحقه من خير وشر.(والذين يدعون من دونه) أي يعبدونهم من دون الله، قرأ الجمهور بالتحتية يعني الظالمين، وقرىء بالفوقية على الخطاب لهم، وهما سبعيتان (لا يقضون بشيء) لأنهم لا يعلمون شيئا ولا يقدرون على شيء. فكيف يكونون شركاء لله، وهذا تهكم بهم لأن ما لا يوصف بالقدرة كالجماد لا يقال فيه يقضي أو لا يقضي.(إن الله هو السميع البصير) فلا يخفى عليه من المسموعات والمبصرات خافية؛ تقرير لقوله: (يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور) ولقضائه بالحق، ووعيد لهم بأنه يسمع ما يقولون، ويبصر ما يعملون، وأنه يعاقبهم عليه. وتعريض بما يدعون من دونه وأنها لا تسمع." (٤)

"الصدور، قال: إذا قدر عليها أيزني لها أم لا؟ ألا أخبركم بالتي تليها؟ والله يقضي بالحق، قادر على أن يجزي بالحسنة الحسنة، وبالسيئة السيئة.وأخرج أبو داود والنسائي وابن مردويه عن سعد قال لما كان يوم فتح مكة أمن النبي صلى الله عليه وسلم الناس إلا أربعة نفر وامرأتين وقال: اقتلوهم، وإن وجدتموهم متعلقين بأستار الكعبة منهم عبد الله بن سعد بن أبي سرح، فاختبأ عند عثمان بن عفان، فلما دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس إلى البيعة جاء به فقال: " يا رسول الله بايع عبد الله، فرفع رأسه فنظر إليه ثلاثا كل ذلك يأبى بيعته ثم بايعه، ثم أقبل على أصحابه فقال أما كان فيكم رجل رشيد يقوم إلى هذا حين رآني كففت يدي عن بيعته فيقتله، فقالوا ما يدرينا يا رسول الله ما في نفسك؟ هلا أومأت إلينا بعينك

---

(١) تفسير ابن عرفة النسخة الكاملة، ابن عرفة ٤٣٧/٢

(٢) تنوير المقباس من تفسير ابن عباس، الفيروزآبادي ص/٣٩٤

(٣) فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق حسن خان ١٧٥/١٢

(٤) فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق حسن خان ١٧٦/١٢

فقال إنه لا ينبغي لنبي أن تكون له خائنة الأعين ".(وما تخفي الصدور) أي القلوب من الضمائر، وتستره وتكنه، وتضمره عن معاصي الله أو من أمانة وخيانة أو النظرة الأولى، أو هل يزني بها لو خلا بها أو لا؟." [(١)]

"يقولون لي: لو فعلت كذا لكان خيرا!! أنا لو كنت عالما بما يصير إليه الأمر لفعلته من أول. فرب السماوات والأرض وحده لا يجري عليه: لو فعلت كذا لكان أحسن؛ لأنه عالم بعواقب الأمور، وما تصير إليه، وعالم بما كان وما يكون، فلا يضع أمرا إلا في موضعه، ومحال عن أن ينكشف الغيب عن أن ذلك الأمر على خلاف الصواب؛ لأنه عالم بعاقبة الأمر، وما يؤول إليه، كما بيناه مرارا.والعليم: صيغة مبالغة؛ لأن علم الله (جل وعلا) محيط بكل شيء، يعلم خطرات القلوب، وخائنة الأعين وما تخفي الصدور، حتى قدمنا أنه من إحاطة علمه: يعلم المعدوم الذي سبق في علمه أنه لا يوجد، هو عالم أن لو وجد كيف يكون؛ لشدة إحاطة علمه بالموجودات والمعدومات. وقد بيناه في هذه السورة الكريمة؛ لأن أهل النار لما عاينوا النار ورأوا الحقيقة وندموا تمنوا أن يردوا إلى دار الدنيا مرة أخرى ليصدقوا الرسل، وردهم ذلك الذي تمنوه: الله عالم أنه لا يكون، وقد صرح بأن ذلك الرد – الذي هو عالم أنه لا يكون – صرح بأنه عالم أن لو كان كيف يكون، حيث قال: ﴿ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين﴾ [الأنعام: آية ٢٧] هذا الرد الذي تمنوه هو عالم أنه لن يكون، ثم صرح بأنه عالم أن لو كان كيف يكون، حيث قال بعده: ﴿ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون﴾ [الأنعام: آية ٢٨] والمتخلفون عن غزوة تبوك لا يحضرونها أبدا؛ لما سبق في علم الله من تثبيطهم عنها، والله ثبطهم عنها بإرادته لحكمة: ﴿ولكن كره الله انبعاثهم فثبطهم وقيل اقعدوا مع القاعدين﴾ وخروجهم إلى." [(٢)]

"ونهى النبي عن (لو)، وبين أنها تفتح باب الشيطان، وقال الشاعر (رَحِمَهُ اللَّهُ١):ألام على (لو) ولو كنت عالما ... بأذناب (لو) لم تفتني أوائلهفالله وحده هو الذي لا يجري عليه: (ليتني لم أفعل) أو: (لو فعلت كذا لكان كذا) لأنه عالم بعواقب الأمور، وما تؤول إليه، فحكمته لا اختلال فيها. بخلاف المخلوقين، فقد يفعل الإنسان بوصف يظنه حكمة لجهله بما تنكشف عنه الغيوب؛ ولذا كان الحكيم الحكمة التامة هو وحده جل وعلا: ﴿إن ربك حكيم عليم (٨٣)﴾ قوله: ﴿عليم (٨٣)﴾ صيغة مبالغة؛ لأنه (جل وعلا) يحيط علمه بكل شيء.واعلموا أيها الإخوان أن وصف ربنا لنفسه بأنه عليم هو من أكبر المواعظ وأعظم الزواجر، فعلينا أن نتبعه، وهو واعظ أكبر، وزاجر أعظم، لا تكاد تخلو ورقة من المصحف منه، كأنه يقول: ﴿عليم (١٢٨)﴾ اعلموا يا عبادي أني حكيم في تشريعي، وأني ما أمرتكم إلا بما فيه الخير لكم، وما نهيتكم إلا عما فيه الشر لكم، وأنني تقتضي حكمتي أن أعذب من عصاني، وأدخل الجنة من أطاعني، واعلموا أني عليم لا يفوتني شيء مما تفعلون وما تقولون، وما تحدثون به أنفسكم ﴿يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور (١٩)﴾ [غافر: الآية ١٩]. وقد قال جل وعلا: ﴿ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد (١٦)﴾ [ق: الآية ١٦].رَحِمَهُ اللَّهُ__________(رَحِمَهُ اللَّهُ١) مضى عند تفسير الآية (٨٣) من سورة الأنعام.." [(٣)]

---

(١) فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق حسن خان ١٧٦/١٢

(٢) العذب النمير من مجالس الشنقيطي في التفسير، الشنقيطي، محمد الأمين ٤٤٩/١

(٣) العذب النمير من مجالس الشنقيطي في التفسير، الشنقيطي، محمد الأمين ٢٥٣/٢

"مطلع على ما يسره خلقه، ومع هذا فإنهم لا حياء عندهم ولا ماء في وجوههم، لا يستحون ممن خلقهم (جل وعلا) وهو معهم أينما كانوا، مراقب على خطرات قلوبهم وجميع أعمالهم. فعلى العاقل أن ينتبه لهذه الآيات، ويعلم أن ربه حكيم عليم، يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور. ﴿ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد (١٦)﴾ [ق: الآية ١٦] فيعلم أن ربه ناظر إليه مطلع عليه، فلا يفعل أمام ربه إلا ما يرضي ربه (جل وعلا)، أما أن يبارز ربه بالمعاصي بوجه لا حياء فيه ولا ماء فهذا مما لا ينبغي؛ ولذا يقول (جل وعلا) بعد كل أمر ونهي: ﴿عليم حكيم﴾ ﴿خبير بما تعملون﴾ ﴿بصير بما تعملون﴾ إلى غير ذلك من الآيات التي بمعناها.﴿إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك بعضهم أولياء بعض والذين آمنوا ولم يهاجروا ما لكم من ولايتهم من شيء حتى يهاجروا وإن استنصروكم في الدين فعليكم النصر إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق والله بما تعملون بصير (٧٢)﴾ [الأنفال: الآية ٧٢].قرأ هذا الحرف عامة القراء غير حمزة وحده: ﴿ما لكم من ولايتهم﴾ بفتح الواو، وقرأه من السبعة حمزة وحده: ﴿ما لكم من ولايتهم من شيء﴾ بكسر الواو (رحمه الله١). والتحقيق أن الولاية والولاية معنيان صحيحان، ولغتان فصيحتان، وقراءتان سبعيتان، فما يذكر عن الأصمعي من أنه يقول: «إن قراءة حمزة خطأ». هو الذي أخطأ فيه (رحمه الله٢)، أما قراءة حمزة فهي قراءة صحيحة، ولغة معروفة فصيحة،رحمه الله______________(رحمه الله١) انظر: المبسوط لابن مهران ص٢٢٤.(رحمه الله٢) انظر: الدر المصون (٥/ ٦٤٠).." (١)

"وقوله تعالى: (في الحياة الدنيا) إما أن يكون متعلقا بالقول، ويكون المعنى يعجبك قولهم الذي يكون موضوعه الحياة الدنيا، إذ يفهمون ما فيها ولا يدركون سواها؛ لأنها خلب أكبادهم، وغاية أمورهم، ومن أحب شيئا أحسن القول فيه، ومن كانت الدنيا همه أحسن حكاية أمورها، حتى إن قوله فيها ليكون عجيبا؛ أما الآخرة فلا يحسن القول فيها، لأنه لا يبتغيها، فإن تكلم في أمر يتعلق بها اعترته حبسة وعي وحصر.وإما أن يكون (في الحياة الدنيا) متعلقا بالإعجاب، أي أن قدرته على إثارة الإعجاب والاستحسان لبيانه إنما يكون ذلك في الدنيا فينتج ثمرته حيث يكون الحكم للظاهر، ولا ينقب عن القلوب والسرائر، كما قال عمر رضي الله عنه: أيها الناس إن الوحي قد انقطع، وإنما نأخذكم الآن بما ظهر لنا من أعمالكم هذا أمر الدنيا، أما الآخرة فالحكم فيها علام الغيوب الذي يعلم ما تخفي الصدور، فلا سبيل للخديعة بالقول، فالله يكشف مستور القلوب، ويحكم عليه بمقصده وغايته، لا بقوله وإجادته.ونحن نختار أن يكون متعلق الجار والمجرور لا القول؛ لأنه الذي يتفق مع السياق؛ إذ إن السياق في بيان الذين يخدعون الناس في الدنيا وقلوبهم مريضة لا بيان حال من يجيدون القول فيها، وإن بعض الذين يجيدون القول في الدنيا أخيار لا أشرار.هذا أول حال من أحوال الذين يظهرون ما لا يخفون، ويقولون ما لا يفعلون.أما الصفة الثانية فهي قوله تعالى: (ويشهد الله على ما في قلبه) أي أن هذا الذي يثير إعجاب الناس في الدنيا بخلابة لسانه وقوله الحلو المعجب المطرب، إن رأى الناس يتشككون في قوله أقسم بصدقه؛ لأنه

---

(١) العذب النمير من مجالس الشنقيطي في التفسير، الشنقيطي، محمد الأمين ٥/٢٠١

قد يبدو من فحوى بيانه ما يدل على جنانه كما قال تعالى سبحانه في شأن المنافقين ومن في قلوبهم مرض: (ولتعرفنهم في لحن القول. . .)، فإذا لمح المخادع من النظرات التي." (١)

"والتذكير بالكتاب والسنة هو تذكير بأمرين يجب أن يكونا في ذاكرة كل مؤمن، فهو تذكير زاجر، ولذا قال سبحانه وتعالى: (يعظكم) فالوعظ تذكير فيه زجر وتخويف؛ ولذلك قال الخليل بن أحمد في تعريف الوعظ: (. . . هو التذكير بالخير فيما يرق له القلب ". والضمير في (يعظكم) يعود على المذكور من الكتاب والسنة، وجعل الضمير واحدا؛ لأنهما في مؤداهما وغايتهما شيء واحد؛ وإن السنة ليست إلا تابعة للكتاب، منه أخذت قوتها وسلطانها، إذ قال تعالى: (وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا. . .).وقد قال تعالى في ختام الآية: (واتقوا الله واعلموا أن الله بكل شيء عليم) بعد أن بين سبحانه العواقب الوخيمة لمن يعبث بالحياة الزوجية، ويجعلها مضارة وعداوة، لا مودة فيها ولا خير، وذكر بنعمة الله عليه في أحكامه وشرعية الزواج، وبين مغبة العبث بالأحكام، بعد هذا كله حذر وأنذر، فأمر بتقوى الله سبحانه وتعالى بأن يجعل بينه وبين غضب الله سبحانه وتعالى وعذابه وقاية، وذلك باتباع أوامره واجتناب نواهيه؛ وإن تربية معاني التقوى في النفس تجعلها تدرك الخير والشر، وتمنعها من أن يتأشب إدراكها نوازع من الهوى والعبث؛ لأن التقوى تربي المهابة من الله والخوف منه، وتجعلها تذكر عقابه.ثم وصل سبحانه بالتهديد إلى أقصى الغاية ببيان علمه الكامل بكل شيء فقال: (واعلموا أن الله بكل شيء عليم) فإنه سبحانه يعلم ما تخفي الصدور، وما تطويه النيات، وما تكنة السرائر، ثم إن التذكير بعلم الله فوق أنه إنذار أي إنذار، فيه بيان أن المصلحة فيما يشرع من أحكام، وما يبين من نظم، لأنه على قدر العلم يكون الإحكام، وعلى قدر الإحاطة يكون الإتقان، فهذا التنزيل فيه حث على الطاعة، كما أن فيه إنذارا بالمخالفة؛ والله سبحانه الهادي إلى سواء السبيل.* * *(وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فلا تعضلوهن أن ينكحن أزواجهن إذا تراضوا بينهم بالمعروف (٢٣٢)بعد أن بين سبحانه العواقب الوبيلة التي تترتب على الإمساك ضرارا، وما فيه من ظلم للرجل والمرأة معا، أخذ يبين حكمه سبحانه في ظلم آخريقع بالنساء وعاقبته وبيلة للمجتمع، فقال سبحانه: (وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فلا تعضلوهن أن ينكحن أزواجهن).." (٢)

"ولذلك التذييل الكريم فوائد ثلاث:أولاها: تربية المهابة في قلوب المؤمنين؛ ليتذكروا الله سبحانه وتعالى في كل أعمالهم الصغيرة والكبيرة، وليعلموا أن شئون الحياة كلها سواء كان منها ما يتعلق بالأسرة أو ما يتعلق بالمجتمع، وما يتعلق بالآحاد، لا تستقيم إلا بمراقبة الله تعالى، والإحساس بتقواه، وأنه عليم بما تخفي الصدور وما تكنه القلوب، وأن من يعمل عملا يعمله كأنه يرى الله، فإن لم يكن يراه فإن الله سبحانه وتعالى يراه.وثانيها: بيان أن العلاقات بين الآباء وأولادهم وأمهاتهم لا يغفل الله عنها، وسيجزي المحسن إحسانا والمسيي سوءا، وإن استطاع الرجال أو النساء أن يستطيلوا ويظلموا في الدنيا، أو يخدعوا القضاء بزور من القول، فلن يخدعوا الله سبحانه وتعالى، وهو على كل شيء رقيب، وسيجزي كلا بما صنع، إن خيرا فخير، وإن شرا فشر.والثالثة: التذكير بأن شئون الأسرة تقوم على التدين، لا على الظواهر المادية، فإنه إذا صلحت القلوب

---

(١) زهرة التفاسير، محمد أبو زهرة ٢/٦٣٦

(٢) زهرة التفاسير، محمد أبو زهرة ٢/٧٩٩

استقامت العلاقة بين الرجل وأهله وأولاده، وإن تقطعت حبال المودة، وذهبت التقوى من القلوب، وأقفرت النفوس، فسيكون الظلم مهما تكن الأحكام، ومهما يكن القضاء.منحنا الله سبحانه رضوانه، ووهبنا عرفانه، وأصلح لنا في ذرياتنا، إنه سميع مجيب الدعاء.* * *." (١)

"أمرا ولو في نفسه قبل أن يجيء وقته؛ لأن المستقبل بيد الله ولا تدري نفس ماذا تكسب غدا، ولعل الله يحدث بعد ذلك أمرا.(واعلموا أن الله يعلم ما في أنفسكم فاحذروه واعلموا أن الله غفور حليم) في هذا الكلام الكريم الحكيم تحذير وتقريب، وتخويف ورحمة؛ إذ بين سبحانه أنه يعلم خلجات القلوب، وخطرات النفوس، وما تخفي الصدور وما يستكن فيها، وما يعلن؛ وإن للنفس هواجس وخواطر، فإذا همت النفس أو جالت فيها أمور تستهجن ولا تستحسن، كأن يجول بخاطره أن يكلم المعتدة من وفاة في أمر منكر لا يسوغ في الدين، ولا في العرف، ولا في الأخلاق، فليعلم أن الله عليه رقيب يعلم تلك الخواطر؛ فليحذره؛ لكيلا يبرزها إلى الوجود، فيندفع وراءها، وإنه إذا قمعها وقدع نفسه عنها، وجعلها في محيط قلبه لا تخرج منه، فإن ذلك يكون في عفو الله تعالى؛ ولذا قال سبحانه: (واعلموا أن الله غفور حليم) يغفر الله فلا يأخذ العبد إلا بما يفعل ولا يأخذه بما يجول بخاطره، ولا بما تحدثه به نفسه، ومن هم بسيئة فلم يفعلها لم يكتب عليه شيء، تبارك الله سبحانه هو المنتقم الجبار العفو القدير، الغفور الرحيم.* * *(لا جناح عليكم إن طلقتم النساء ما لم تمسوهن أو تفرضوا لهن فريضة ومتعوهن على الموسع قدره وعلى المقتر قدره متاعا بالمعروف حقا على المحسنين (٢٣٦) وإن طلقتموهن من قبل أن تمسوهن وقد فرضتم لهن فريضة فنصف ما فرضتم إلا أن يعفون أو يعفو الذي بيده عقدة النكاح وأن تعفوا أقرب للتقوى ولا تنسوا الفضل بينكم إن الله بما تعملون بصير (٢٣٧)* * *." (٢)

"والفضل في أصل معناه الزيادة في كل شيء، وأكثر ما يكون في الزيادة في الأشياء المحمودة؛ ولذا صار يطلق بمعنى العلو، فيقال: فضل هذا على ذاك كذا.ومنه الفضيلة؛ لما فيها من خير زائد، ولما فيها من علو نفسي وكمال وسمو.فالله سبحانه وتعالى، حين ذكر المطلقين بالفضل الذي أنساهم إياه الغضب، صرفهم إلى الاتجاه إلى الكمال، والتعالي عن سفساف المشاحنات والمنازعات؛ ليكونوا هم الأعلين دائما.ولقد كان أصحاب النبي - صلى الله عليه وسلم - يتجهون ذلك الاتجاه السامي؛ فيروى أن بعض الصحابة تزوج امرأة، وطلقها قبل أن يدخل بها، فأعطاها الصداق كاملا، فقيل له في ذلك، فقال: أنا أحق بالعفو منها.ويروى أن جبير بن مطعم تزوج ابنة سعد بن أبي وقاص، ثم طلقها قبل الدخول وبعث لها المهر كاملا؛ فقيل له: لم تزوجتها؟ فقال: عرضها علي فكرهت رده، قيل: فلم بعثت بالصداق؟ فقال: وأين الفضل؟.ولقد ذيل الله سبحانه وتعالى أوامره الحاسمة، وإرشاده الحكيم بقوله عز من قائل: (إن الله بما تعملون بصير) للإشارة إلى أنه مطلع على حركات الجوارح، وخلجات النفوس، ونيات القلوب، وما تخفي الصدور؛ فليعلموا ذلك، فإن العلم به يربي فيهم المهابة منه سبحانه وتعالى؛ إذ يشعرون برقابته، فيكفكفون (رحمه الله١) من غضبهم، وينهنهون (رحمه الله٢) من حدتهم وقتا الطلاق، حتى لا يذهب بهم فرط الغضب إلى نسيان المعروف، وتجاهل الفضل؛ فلا يسرحوا لإحسان بعد أن فات الإمساك

---

(١) زهرة التفاسير، محمد أبو زهرة ٨١٤/٢

(٢) زهرة التفاسير، محمد أبو زهرة ٨٢٥/٢

بمعروف.وقبل أن ننهي الكلام في معاني هذا النص الكريم لابد من الإشارة إلى أمرين:ﷺ__________(ﷺ١)
الكفكفة: كفك الشيء؛ أي ردك الشيء عن الشيء، وكفكفت دمع العين. [لسان العرب – الكاف – كفف].(ﷺ٢)
النهنهة: الكف. تقول: نهنهت فلانا إذا زجرته فتنهنه أي كففته فكف. [لسان العرب – باب النون – نهنه]..." (١)

"وبهذين الخبرين يتبين أن هذه الآية الكريمة نزلت لبيان أن الصدقة تسوغ على غير المسلم، بل تجب إذا كان غير المسلم في حاجة شديدة، ويخشى عليه إن لم يقدم له عطاء ينقذه.وإن هذه الآية وما يليها من آيات تبين من يستحقون الصدقات ومن يؤثرون، فصدرها سبحانه وتعالى بالإشارة إلى أنه يسوغ إعطاء غير المسلمين، بل يجب، وبذلك التصدير يتبين موضع الإسلام من احترام الإنسانية، والإخاء الإنساني العام؛ فإنه يدعو إلى التعاون والسلم العام، وما يحارب إلا لتقرير ذلك السلام؛ فقد قال تعالى: (يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة ...)، وقال تعالى: (وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله. . .).ومعنى قوله تعالى: (ليس عليك هداهم) أي أن الواجب المفروض عليك هو التبليغ والدعوة إلى ربك بالموعظة الحسنة؛ فليس عليك أن تهدي عاصيا، ولا تدخل الإيمان في قلب كافر، فلا تمنع صدقة لأجل الكفر، ولا تمنع عطية للحمل على الإيمان (ولكن الله يهدي من يشاء) فهو يهدي من يسير في طريق الهداية، ويفتح قلبه لنور الإيمان، فيوفقه المولى العلي القدير العليم بما تخفي الصدور إلى الحق فيدركه بعد أن يأخذ في الأسباب، ويسد عن قلبه مداخل الشيطان إليه.وعليك أنت أيها الرسول أن تبلغ ما أنزل إليك، وأن تعامل الناس بما يليق بأخلاق أهل الإيمان، وباحترام الإنسانية وسد حاجة المعوزين، ولو كانوا من المخالفين الذين يدينون بغير دينك، وأن تعاملهم بالتي هي أحسن.وبهذا المنهاج القويم أخذ السلف الصالح رضوان الله تبارك وتعالى عليهم مقتدين بالنبي – صلى الله عليه وسلم –.
وإنه يروى أنه في الموادعة التي كانت بين النبي – صلى الله عليه وسلم – والمشركين التي تمت في صلح الحديبية أصابت قريشا ضائقة، فأرسل النبي – صلى الله عليه وسلم – إلى أبي سفيان بن حرب زعيم الشرك في ذلك الإبان خمسمائة دينار يشتري بها قمحا يفرج به ضائقتهم، ويسد حاجة المعوزين منهم، وهم ما زالوا مشركين (ﷺ١).ﷺ__________(ﷺ١)
رواه أبو داود: الأدب – الحذر من الناس (٤٢١٩)، وأحمد (٢١٤٥٤).." (٢)

"أعمال القلب ليست معفاة من الإثم دائما، إنما الذي يعفى من العقاب ما يجول بخاطره ويتمناه من غير أن يكون له أثر في الجوارح، أما ما يعتزمه ويصمم عليه، ويتجه إليه، ولكن يفوت التمام لأمر خارج عن إرادته وليس له قبل به، كمن يعتزم قتل شخص ويذهب إليه ليفترسه، وقد عقد النية، واستحصد العزيمة، ولكن أفلت من يده، أفلا يكون ثمة إثم؛ وأحيانا تكون عزيمة القلب وحدها هي موضع المؤاخذة، وذلك إذا كان عمل القلب كف الجوارح عن العمل في موضع يجب فيه العمل، فترك الواجبات كلها موضع مؤاخذة، ومن ذلك ترك الشهادة. وفي الشرع الإسلامي جرائم تسمى جرائم الترك، وهي الجرائم التي يكون الجزاء فيها ليس على الفعل، ولكن على ترك واجب، كمن يرى شخصا يموت جوعا ومعه مال ولا يسد غائلة جوعه، وكمن يرى أعمى يتردى في بئر ويتركه قاصدا بالترك أن يموت، وهكذا؛ ومن ذلك النوع كتمان الشهادة،

---

(١) زهرة التفاسير، محمد أبو زهرة ٨٣٤/٢

(٢) زهرة التفاسير، محمد أبو زهرة ١٠٢٥/٢

فهو ترك الواجب، وهو إثم وجريمة بسبب ذلك الترك.(والله بما تعملون عليم) ختمت الآية الكريمة بهذه الجملة السامية، للوعد والوعيد، ببيان علم الله ذي الجلال والإكرام المنتقم الجبار علما دقيقا بما يعمله كل إنسان؛ يعلم الخير والشر، ويعلم ما تخفي الصدور، وما تكنه القلوب، وما يظهر على الجوارح، فيجازي على الإحسان إحسانا، وعلى السوء سوءا؛ فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره، ومن يأكل أموال الناس بالباطل إنما يأكلون في بطونهم نارا ويصلون سعيرا.* * *." (١)

"قوله: (إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب فأولئك يتوب الله عليهم وكان الله عليما حكيما (١٧). ومعنى قوله تعالى: (ذكروا الله) أي تذكروا أوامره ونواهيه وتذكروا عظمة الله تعالى وجلاله وقوته، ولذكر الله تعالى مرتبتان (إحداهما) ذكر أوامره ونواهيه وما أعده للمذنبين وما أعده للمتقين (والثانية) وهي العليا ذكر جلاله وعظمته وعلمه بما تخفي الصدور وهذه لا ينالها إلا الأبرار المقربون.وإن ذكر الله تعالى لابد أن يتبعه لا محالة الاستغفار والإنابة، ولذا عقبه سبحانه بقوله: (فاستغفروا لذنوبهم) فهو ثمرة ملازمة ونتيجة محتمة للذكر.(ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون) الكلام موصول بالكلام السابق، وقوله تعالى: (ومن يغفر الذنوب إلا الله) فيه بيان إجابة الاستغفار وفيه بيان أنه لا مفزع من الله إلا إليه، ولذا يقول الزمخشري في قوله تعالى: (ومن يغفر الذنوب إلا الله) " وصف لذاته بسعة الرحمة وقرب المغفرة، وإن التائب من الذنب عنده كمن لا ذنب له، وإنه لا مفزع للمذنبين إلا فضله، وأن عدله يوجب المغفرة للتائب لأن العبد إذا جاء في الاعتذار والتنصل بأقصى ما يقدر عليه وجب العفو والتجاوز، وفيه تطييب لنفوس العباد وتنشيط للتوبة وبعث عليها، وردع عن اليأس والقنوط، وإن الذنوب وإن جلت فإن عفوه أجل وكرمه أعظم ". وذلك كلام مستقيم لولا أنه أوجب المغفرة حيث التوبة، والله تعالى لا يجب عليه شيء، وإن رحمة الله بعباده مع علمه بطبيعة تكوينهم الذي يتنازعه الخير والشر جعلت المغفرة قريبة، ولذا ورد عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قال: " والذي نفسي بيده لو لم تذنبوا لذهب الله بكم ولجاء بقوم يذنبون ويستغفرون فيغفر لهم " (ﷺ١) وشرط الاستغفار المجاب ألا يصر المذنب على ذنبه، ولذا قال تعالى: (ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون) أي لم يصروا على الفعل الذي فعلوه بأن تكونﷺ__________(ﷺ١) رواه مسلم: التوبة - سقوط الذنوب بالاستغفار توبة (٩ ٢٧٤)، وأحمد: باقي مسند المكثرين (٧٧٣٦).عن أبي هريرة رضي الله عنه.." (٢)

"أن يكون عند الزوجين نية إزالة الخلاف أو على الأقل لا يمانعان فيه، ولذا قال تعالى: (إن يريدا إصلاحا يوفق الله بينهما) أي إذا كان كلا الزوجين مع وجود النفرة يرغب في إزالتها. فإن الله موفق بينهما، بأن يجعل كل قلب يلتقي مع الآخر، والتوفيق يقتضي أن يفتح كل واحد جزءا من قلبه ليدخل فيه أو يلتحم معه القلب الثاني.والأمر الثاني التفريق بينهما، وقد كان الخلاف بين الفقهاء في جوازه، فقال أبو حنيفة والشافعي؛ لا يجوز ذلك إلا بتوكيل من الزوج، لأن النص بين أن عملهما في الإصلاح، فإن عجزا عنه فقد انتهت مهمتهما، ولأن الطلاق حق الزوج وحده، ولا يتولاه غيره إلا

---

(١) زهرة التفاسير، محمد أبو زهرة ١٠٨٢/٢

(٢) زهرة التفاسير، محمد أبو زهرة ١٤١٦/٣

بالنيابة عنه، وقال مالك وأحمد: لهما التفريق إن عجزا عن الإصلاح؛ لأن الله تعالى سماهما حكمين، والحكم هو الذي يحسم الخلاف، فإن عجزا عن الإصلاح حسما الخلاف بالتفريق، ولأن عليا – رضي الله عنه – عندما بعث حكمان لحسم الخلاف بين عقيل بن أبي طالب وامرأته قال: أتدريان ما عليكما؟ إن عليكما إن رأيتما أن تفرقا فرقتما، وإن رأيتما أن تجمعا جمعتما. وعلي أحق من فسر القرآن. وبعث الحكمين يكون بأمر القاضي، والبعث يكون عند خوف الشقاق؛ لأن الشقاق يكون بالانفصال التام، والخوف قبله. وقد ذيل الله الآية الكريمة بقوله تعالت كلماته: (إن الله كان عليما خبيرا) أي أنه متصف بصفة العلم الدقيق المحيط الذي يعلم أحوال النفوس وطرف علاجها، ويعلم ما يقوم به الناس، ويعلم ما تخفي الصدور، وعنده الجزاء والعقاب وهو على كل شيء قدير.* * *(واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانا وبذي القربى واليتامى والمساكين والجار ذي القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب." (١)

"(والله أعلم بأعدائكم وكفى بالله وليا وكفى بالله نصيرا (٤٥)* * *في هذا النص السادس تحذير للمؤمنين من هؤلاء الذين أوتوا حظا من الكتاب، وهم يطلبون الضلالة ويبتغونها لأنفسهم وللمؤمنين، لأنهم يحسدونهم، ولأنهم يريدون لهم الخذلان والضلال وأن يكونوا قوما بورا،! وقد أشار بالنص الكريم إلى أنهم أعداء المؤمنين، وإن كانوا يخفون ما لا يبدون، ولذا قال سبحانه وتعالى: (والله أعلم بأعدائكم) أي أن الله جلت قدرته أعلم منكم بأعدائكم، لأنكم تعلمون ما يبدو من أفعالهم وما يظهر على ألسننهم، والله سبحانه وتعالى يعلم ما تخفي الصدور، وقد قال تعالى في آية أخرى: (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالا ودوا ما عنتم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر قد بينا لكم الآيات إن كنتم تعقلون (١١٨) ها أنتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم وتؤمنون بالكتاب كله وإذا لقوكم قالوا آمنا وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ قل." (٢)

"(ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم وكان الله شاكرا عليما (١٤٧)* * *الاستفهام هنا للنفي، والمعنى ما الذي يفعله الله تعالى راضيا به محبا له بعذابكم وآلامكم إن شكرتم نعمته، وأديتم حقها حق الأداء فآمنتم به، ومن الإيمان به تصديق رسله وإجابتهم وإطاعتهم؟! أي أنه سبحانه لا يفعل بكم شيئا من العذاب ولا الإيلام في الآخرة إن كان منكم الشكر والإيمان، بل إنه سبحانه وتعالى مجازيكم شاكرا لكم توبتكم بعد الكفر، وطاعتكم بعد العصيان، ولذا قال سبحانه:(وكان الله شاكرا عليما) أي أنه من صفات الله تعالى، وشأنه الدائم أنه مثيب الطائع، عليم بموضع طاعمه، وما تخفي الصدور، فالآية ذيلت بما يدل على الثواب والنعيم لأهل الإيمان، ومن ينضم إليهم من التائبين، وفي الآية الكريمة ثلاث إشارات بيانية:الأولى – التعبير بالاستفهام للإشارة إلى أن الله تعالى رتب الجزاء على العمل، وأنه يجب على عباده أن يعرفوا ذلك ويدركوه، وأنه ليس من المعقول مع حكمته تعالى، وكريم وعده ألا يعطي عاملا عملا طيبا جزاء عمله.الثانية – تقديم الشكر على الإيمان، في قوله تعالى: (إن شكرتم وآمنتم).ذلك أن الرجل الذي يتجه إلى الخير تكون نفسه مدركة للنعم التي أنعم الله بها على عباده، شاكرا لأنعمه، قادرا لها حق قدرها، فيكون ذلك سبيلا لطلب الحقيقة فيكون الإيمان،

---

(١) زهرة التفاسير، محمد أبو زهرة ١٦٧٢/٣

(٢) زهرة التفاسير، محمد أبو زهرة ١٦٩٩/٤

فالشكر يؤدي إلى الإيمان، والإيمان يؤدي إلى أعظم الشكر.الثالثة – أن الله تعالت عظمته سمى ثواب الطائعين شكرا منه، وذلك إجلال للطاعة، وتشريف للمطيع، ومنة وفضل منه سبحانه فوق منته وفضله، وأن هذا تعليم لنا لنشكر للمحسن فضل الله، اللهم اهدنا إلى أن نشكر لك في ضرائنا وسرائنا، إنك نعم المولى ونعم النصير.* * *." (١)

"أولها – أنه هو الذي أمر ربه، ولم يؤمر بغيره، وهو رسول من عند الله، ولا يمكن أن يكون الرسول قد أدى الرسالة على وجهها إلا إذا بلغ ما أمر به دون سواه، ولذا قال عليه السلام: (ما قلت لهم إلا ما أمرتني به).ما أمرتني أن أقوله وأبلغه، وإلا أكن غير مؤد للرسالة.ثانيها – أنه لم يكتف ببيان أنه أدى ما أمر به إجمالا، بل ذكر حقيقة ما دعا مفسرا غير مجملا، إذ قال: (أن اعبدوا الله). فإن هي المفسرة، فهو يفسر ما أمر به وهو بين لا إبهام فيه.وثالثها – أنه أقام الدليل على استحقاقه وحده للعباده سبحانه: (ربي وربكم). أي أنه هو المستحق للعبادة لأنه هو وحده الذي خلقني، فأنا مخلوق، فكيف أكون إلها، وهو الذي خلقكم وحده فكيف تعبدون غيره؟!، وفي هذا التعبير أثبت وحدانية الخلق والتكوين ووحدانية الذات، كما أثبت تصريح اللفظ وحدانية العبادة.وقد أكد عليه السلام أنه بلغهم تلك الحقائق، فقال كما حكى عنه ربه: (وكنت عليهم شهيدا ما دمت فيهم). أي كنت مشاهدا لهم رقيبا عليهم تعلم ما حاولوه من الزيغ والتحريف مدة بقائي فيهم، فما تركت تنبيههم إلى التوحيد في العبادة والذات والصفات والتكوين مدة إقامتي بينهم، ولما تركت الدنيا كنت أنت الرقيب.(فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شيء شهيد) في النص الكريم السابق ذكر – عليه السلام – شهادته عليهم وهو حي، قائم برسالته مؤد لها على وجهها، وفي هذا النص يذكر انتهاء مهمته بوفاته، ويفوض أمرهم إلى ربهم في ألطف تعبير وأدق إشارة.والفاء للتفصيل كما تدل على الحالية والبعد به، والمعنى عند حد وفاتي ومن قبلها، ومن بعد كنت أنت وحدك الرقيب عليهم العالم بحالهم وأنت على كل شيء عالم بحالهم تعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور.وفقنا الله لما يحب ويرضى.* * *." (٢)

"(وهو الله في السماوات وفي الأرض يعلم سركم وجهركم ويعلم ما تكسبون (٣)* * *بعد أن أشار سبحانه وتعالى أنه الخالق لكل شيء أشار سبحانه إلى البعث وذكر من قبل ذلك أنه الخالق ذو السلطان المطلق في هذا الوجود يسيطر عليه بجلاله، وألوهيته، واستحقاقه للألوهية وحده، وهو العالم فيه بكل شيء، فلفظ الجلالة يتضمن معنى الألوهية الحق، ومعنى الوحدانية والعلم والقدرة والإرادة، والسلطان الكامل الذي لا يدانيه سلطان، فمعنى قوله: (وهو الله في السماوات وفي الأرض) يتضمن خضوع كل من فيهن له سبحانه، وسيطرته الكاملة وقدرته وعلمه، واستحقاقه للعبودية؛ والألوهية وحده.والضمير في قوله: (وهو) يعود على المستحق للحمد الذي خلق السماوات والأرض وجعل الظلمات والنور، والذي خلق الإنسان من طين، وإنه بذلك يكون مستحقا للحمد، ويكون هو المسيطر في الكون الذي أنشأه وفي الإنسان الذي صوره من طين، وسخر له ما في السماء والأرض.وقد ذكر وصفان جليلان فيهما تذكير وتبشير وإنذار.أولهما – أنه يعلم (سركم وجهركم) فإنه يعلم ما تظهره الجوارح وما تخفيه السرائر، يعلم ما يجري على الإنسان وما تخفي الصدور، فإن حاسب

---

(١) زهرة التفاسير، محمد أبو زهرة ٤/١٩٢٨

(٢) زهرة التفاسير، محمد أبو زهرة ٥/٢٤٠٩

على ما يفعلون، فحسابه حساب اللطيف الخبير الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء أنى يكون، وهو مجاز على ذلك إن خيرا فخير، وإن شرا فشر، وهو من بعد الغفور الرحيم.الوصف الثاني – أنه يعلم ما يكسبون من خير أو شر، ولكل ذلك حسابه من هنا إلى يوم القيامة.* * *." (١)

"(وأن أقيموا الصلاة واتقوه وهو الذي إليه تحشرون (٧٢)* * *حكى النبي – صلى الله عليه وسلم – أمر الله تعالى بالصيغة التي أمره الله تعالى بها، فقال: (وأن أقيموا الصلاة) وهذا عطف على معنى (لنسلم)، أي أمرنا سبحانه بأن نسلم لله رب العالمين، وأمرنا أن نقيم الصلاة، وكان الأمر بإقامة الصلاة بصيغة قول الله تعالى، لا قول النبي – صلى الله عليه وسلم – لمكانة الصلاة في الدين، فإنه لا دين من غير صلاة، فهي عموده، وهي لبه، وهي مظهره ودلالته، والوحدانية أظهر ما تكون في الصلاة فهي عبادة الله وحده لا يشرك به شيئا فيها، إلا أن يرائي، فهذه ليست صلاة.وطلب الله تعالى من المؤمن إقامة الصلاة بأن يأتي بها مقومة كاملة في أركانها الظاهرة، ومعانيها من خشوع وخضوع، يتحقق فيها قوله تعالى: (. . . إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر. . .).وأورد سبحانه وتعالى إقامة الصلاة بالأمر بالتقوى فقال تعالى: (واتقوه) أي اجعلوا بينكم وبين الله تعالى وقاية بينكم وبين غضبه بإطاعته حق الطاعة فيما يأمر وينهى، وأن يملأ نفسه بتقواه دائما، فيذكره في سره وعلانيته، ويملأ قلبه بخشيته، ويحس بأنه يراه دائما، ويعلم خائنة الاعين وما تخفي الصدور، يحس بأنه مع الله دائما، وبذلك يتربى فيه معنى الربوبية.وذكر تعالى ما يربي التقوى في النفس، فقال: (وهو الذى إليه تحشرون) أي وآمنوا بأنكم إليه تحشرون وهذا التعبير السامي يتضمن ثلاث حقائق يجب الإيمان بها:الحقيقة الأولى – البعث وأن الناس يجتمعون بين يديه سبحانه وتعالى، وأن الإيمان بالبعث هو سر الإيمان وهو علو بالنفس الإنسانية إلى المرتبة السامية فلا يكون آكلا شاربا فقط يقول: (إن هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين)، بل يعلو بإنسانيته يفعل الخير، ويرجو الجزاء.." (٢)

"(فلنقصن عليهم بعلم وما كنا غائبين).الفاء عاطفة ما قبلها على ما بعدها، واللام لام القسم دالة هي والنون والقاف على التوكيد. و " نقص ": معناها نخبر خبر من يتقصى ويتتبع لا يترك صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، والضمير في " عليهم " يعود على من أرسل إليهم، ويحتمل أن يعود إليهم وإلى المرسلين معا، فيعلم المرسلون من الله ما كان يقع عليهم ويدركون أن الله كان عليما بالعنت الذي أعنتوه، يعلمون ذلك عند الحساب، كما علموه في الدنيا بإطلاع الله تعالى عليه، فعلمهم في الدنيا بالحساب والعقاب، كان علم إيمان بالغيب، ويقين من خبر الله، وعلمهم الآن بالحساب والعقاب والثواب علم معاينة. أما الكفار الذين أرسل إليهم فعلمهم يقيني بما أنكروا من قبل وهو علم بما جهلوا علم معاينة أو علم عقاب أنكروه، وبعث ونشر، وقد كابروا فيه.وأكد الله تعالى قصصه الحق المتتبع بأمرين:أولهما: قوله تعالى: (بعلم)، أي أنه قصص لأعمالهم وأعمال رسلهم بعلم صادق ليس فيه حدس وتخمين. كما كانوا يدعون من علم من يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، فهو يعلم الظاهر والباطن والأول والآخر.ثانيهما: أنه علم من عاين وشاهد، وإذا قال تعالى: (وما كنا غائبين)

---

(١) زهرة التفاسير، محمد أبو زهرة ٢٤٣٥/٥

(٢) زهرة التفاسير، محمد أبو زهرة ٢٥٥٦/٥

أي كنا حاضرين حضورا مستمرا ما كنا غائبين فأخبرنا، ولكن كنا شاهدين، فعاينا، وليس علم الخبر، كعلم المعاينة والمشاهدة في الصدق واليقين.." (١)

"وفى الكلام السامي إظهار في موضع الإضمار؛ لأنه سبحانه وتعالى قال عز من قائل: (وستردون إلى عالم الغيب والشهادة) ولم يقل – ولكلامه المثل الأعلى – (وستردون إليه) وذلك للإشارة إلى أن الأمر سيرجع إلى من لا تخفى عليه خافية في السماء والأرض، والغيب ما غاب عن الحس، أو ما أخفته الصدور، وما أسروه في نفوسهم، فهو يعلم خائنة الأعين، وما تخفي الصدور، والشهادة هي الأمر المعلن الذي تشاهده الجوارح مبصرة أو سامعة، أو باطنة، يعلم سبحانه كل شيء ما يسر وما يعلن، وما يظهر وما يختفى، سبحانه علام الغيوب.وقد أشار سبحانه وتعالى إلى الجزاء الواقع لا محالة فقال تعالت كلماته:(فينبئكم بما كنتم تعملون) (الفاء) للإفصاح عن شرط مقدر، أي إذا كنتم ستردون إليه سبحانه فإنه ينبئكم أي يخبركم إخبار فعل وجزاء بما كنتم تعملون، فترون أعمالكم عيانا، تنطق بها جوارحكم، وكتابا منشورا قد سجل كل ما عملتم، لا يدع صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، فتجزى كل نفس بما كسبت. وإن هذا فيه تبشير للمؤمن، وإنذار للمشرك والمنافق، وأعمالهم كلها في كتاب.وقد فتح الله سبحانه وتعالى باب التوبة لمن تخلف، وعصا، بعد ذلك ذكر أناس ممن تخلفوا لم يكتب عليهم الشقوة بل لا يزال الباب مفتوحا للتوبة، فإما يتوبون، وإما يعذبهم الله على نفاقهم وتخلفهم، فقال تعالى:." (٢)

"عميق يغوص فيه الغواصون على الحقائق، وإنه محدد المعاني، تزيد المعاني في نفس القارئ بمقدار ما يزداد إدراكه، وهو واضح لكل إنسان بمقدار إدراكه، فالأمي يدرك منه بمقدار ما تتسع له طاقته العلمية، والعالم بالكون تتسع له المعاني بمقدار طاقته، ولذا وصفه العربي البليغ بقوله: إن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق، وإنه ليعلو، ولا يعلى عليه.ولا يصح أن يدعى لأحد أنه ترجم القرآن، وأن ترجمته قرآن يتعبد بتلاوته، ويسجد له سجدة تلاوة ولا يمسه إلا وهو طاهر، وقد أجمع على ذلك العلماء؛ السلف والخلف على سواء، إلا من ران الله على قلبه وعقله، وإذا كان قد روي عن أبي حنيفة أنه أجاز الفاتحة بالفارسية، فإن الراجح أنه رجع عن ذلك، عندما لانت ألسنة الأعاجم، بقراءة القرآن (﵀١)، وقانا الله تعالى شر البدعة والمبتدعين.وقال تعالى: (لعلكم تعقلون)، أي رجاء أن تعقلوا معانيه، وما يدعو إليه وما يتضمنه من بلاغة معجزة وما فيه من بلا ع للناس، والرجاء من الناس لا من الله، أي لعلكم تكونون في وضع من يرجو الإدراك السليم، والله عليم بما تخفي الصدور.وقد مهد الله سبحانه وتعالى لقصة يوسف، التي كان الخبر عن يوسف الصديق عليه السلام هو قطبها الذي دارت عليه أخبارها، عليه وعلى نبينا أفضل السلام وأتم التسليم، فقال:﵀ـــــــــــــــــ(﵀١) راجع كتاب " أبو حنيفة " للإمام محمد أبو زهرة.." (٣)

---

(١) زهرة التفاسير، محمد أبو زهرة ٢٧٨٨/٥

(٢) زهرة التفاسير، محمد أبو زهرة ٣٤٣٩/٧

(٣) زهرة التفاسير، محمد أبو زهرة ٣٧٩٦/٧

"تفسير قوله تعالى: (ومن كفر فلا يحزنك كفره إلينا مرجعهم)قال تعالى: ﴿ومن كفر فلا يحزنك كفره إلينا مرجعهم فننبئهم بما عملوا إن الله عليم بذات الصدور﴾ [لقمان:٢٣].فنبينا عليه الصلاة والسلام كان حريصا على هداية الناس، ولكن الله لم يكلفه بالهداية، وليست الهداية هي رسالة الأنبياء والرسل، وإنما رسالتهم أن يبلغوا الناس ما أمرهم الله بتبليغه.وأما الهداية فهي على الله، قال تعالى: ﴿ليس عليك هداهم ولكن الله يهدي من يشاء﴾ [البقرة:٢٧٢]، وقال تعالى: ﴿إنك لا تهدي من أحببت﴾ [القصص:٥٦].وكان نبينا عليه الصلاة والسلام يجهد نفسه أحيانا في سبيل هداية الناس، فقال الله له: ﴿لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين﴾ [الشعراء:٣]، أي: لعلك مهلكها ومؤذيها، وهذا لم يكن الأمر ولا الرسالة التي ابتعثت بها، وهذه الآية كتلك، ﴿ومن كفر فلا يحزنك كفره﴾ [لقمان:٢٣].أي: من كفر بعد البلاغ والرسالة، وبعد وحي الله الذي سمعه، وبلغه حلالا وحراما، وعقائد وآدابا، وقصصا ورقائق، في هذه الحالة إن بقوا على كفرهم، وأصروا على شركهم، فلا يحزنك ذلك، فلهم عذابهم، ولهم كفرهم، وهم لم يضروا أحدا إلا أنفسهم، وليس عليك الهداية وإنما عليك البلاغ.﴿ومن كفر فلا يحزنك كفره﴾ [لقمان:٢٣]، أي: من كفر بعد البلاغ والتبليغ وبعد إسماعه كتاب الله وما أرسلت به فلا تحزن عليه، ولا تكرب من أجله، ولا تحمل نفسك ما لم تؤمر به مما لا طاقة لها به.﴿إلينا مرجعهم فننبئهم بما عملوا﴾ [لقمان:٢٣]، أي: إلينا مرجع هؤلاء ومآبهم، فهم سيحيون بعد الموت، ويبعثون إلى الله، ويعرضون عليه، فيجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته، وسيعلمون عند ذاك ما قدمت أيديهم، وما أسوأ فعالهم، فلكل نفس عملها وما سعت إليه، فسيعلمون عند ذلك من المحق من المبطل، وماذا كنت تأمرهم به، وهل كنت تدعوهم إلى صلاحهم وإلى جنتهم وإلى رحمة الله بهم أم إلى غير ذلك.قال تعالى: ﴿إن الله عليم بذات الصدور﴾ [لقمان:٢٣]، الله جل جلاله العليم بما تخفي الصدور، وهو عليم بالضمائر، وبما لم ينطق به لسان، وبما ينوي به إنسان، فالله يعلم المعلن ويعلم السر وأخفى من السر، فالسر هو ما أسررت به لواحد، والأخفى من ذلك ما لم تنطق به وأضمرته فالله يعلم ما أسررت به لواحد أو أكثر أو أعلنت به بين الملأ، أو كتمته في نفسك فلم يسمع به أحد.وهذا إنذار من الله وتهديد ووعيد للذين كفروا، وأن مآلهم إلى الله، ورجوعهم إلى الله، فسيعلمون أن أعمالهم قد سجلت عليهم، فمن أوتي كتابه بيمينه فقد اهتدى، ومن أوتي كتابه بيساره فقد ضل، وكان قد أبى الهداية وهو لا يزال حيا في دار الدنيا، والله عالم بأسرارهم، وعالم بضمائرهم، وعالم بما تخفي الصدور وبذوات الصدور.." (١)

"تفسير قوله تعالى: (يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور)قال تعالى: ﴿يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور﴾ [غافر:١٩].ربنا جل جلاله يعلم العين الخائنة، العين التي تنظر إلى الحرام خلسة، أو بالنظر والغمز واللمز، حتى تلك العين يعرفها ويراها ويحاسب عليها.." (٢)

"تفسير قوله تعالى: (يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور)قال الله جل جلاله: ﴿يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور﴾ [غافر:١٩].إن ربنا جل جلاله لا يخفى عنه شيء، ويعلم ما تسر الأنفس وما تعلن، وهو جل جلاله يذكر هنا

---

(١) تفسير المنتصر الكتاني، الكتاني، محمد المنتصر ٥/١٨٤

(٢) تفسير المنتصر الكتاني، الكتاني، محمد المنتصر ٦/٢٨٤

أنه: ﴿يعلم خائنة الأعين﴾ أي: يعلم الأعين الخائنة، وهي التي تسارق النظر فيما حرم الله، كأن تمر امرأة فيحاول أن ينظر إليها حراما، فإذا انتبه له غض بصره، وإذا غض الناس عنه رفع بصره يتتبع عورات النساء.فالعين الخائنة هي التي تنظر إلى ما حرم الله من عورات الرجال والنساء، ومن الإشراف على ما لا يحل له أن ينظر إليه، والنبي عليه الصلاة والسلام طرق بابه أحد يوما في المدينة المنورة فجعل ينظر من خلل الباب، فكان النبي صلى الله عليه وسلم يبحث عن شيء ليفقأ به عينه، ثم خرج إليه وقال: (لو وجدتك تنظر لفقأت عينك) ولذلك يقول الأئمة: إن جزاء من ينظر إلى ما حرم الله أو إلى عورات ما يكون عادة مخفيا في البيت -وما جعلت الأبواب إلا لستر ذلك- أن تفقأ عينه من صاحب البيت أو صاحب الشأن، فيكون قد عاقبه بما أمر به الشرع.والنبي عليه الصلاة والسلام عند فتح مكة أهدر دم أربعة عشر إنسانا: ثمانية رجال وست نساء وقال: (اقتلوهم ولو وجدتموهم متعلقين بأستار الكعبة) فقتل من قتل، وفر من فر، وإذا بـ عثمان بن عفان رضي الله عنه يأتي بواحد -وهو قريب له نسبا- ممن أهدر النبي عليه الصلاة والسلام دمه واسمه عبد الله بن سعد بن أبي سرح فقال: (يا رسول الله! اقبل من ابن أخيك توبته وإيمانه، فسكت عنه النبي عليه الصلاة والسلام ولم يلتفت إليه زمنا من الوقت، وبعد إلحاح عثمان قبل توبته)، وكان النبي عليه الصلاة والسلام يحترم عثمان ويستحيي منه؛ إذ كان قد خرج عن قومه بني أمية وقد ظاهروا النبي عليه الصلاة والسلام بالعداوة والحرب على وتيرة واحدة، كما هو شأنهم في الجاهلية، وتولى حرب رسول الله والمسلمين كبيرهم أبو سفيان بن حرب، فخرج عثمان عنهم وآمن برسول الله وكان من السابقين الأولين صلى الله عليه وعلى آله وسلم، فعندما جاء شفيعا لـ عبد الله بن أبي سرح سكت عنه النبي زمنا، وبعد ذلك الزمن قبل منه عليه الصلاة والسلام، ومد يده إليه فجدد توبته وإيمانه، ثم التفت للحاضرين فقال لهم: (ألم يكن منكم أحد يقوم إليه فيقتله؟ قالوا: يا رسول الله! ألا أشرت إلينا بعينك لنقتله؟! قال: ما كان لنبي أن تكون له خائنة الأعين) أي: ما يجوز وما ينبغي من نبي معصوم أن يقابل الناس بوجه وأن يكتم عنهم وجها، ففي هذه الحالة يكون ذلك تغرير لا يليق برسول الله، بل ولا يليق بالمؤمن الفاضل، فإما أن يقتل علنا ويجدد الأمر بقتله، أو يتركه كما قد فعل، أما أن يوهمه بأنه سيتركه ثم يغمز بعينه ليقتل فهي خائنة الأعين.والعين الخائنة: هي التي أظهرت شيئا وأبطنت شيئا آخر، وهو ما يقول الله تعالى عنه: ﴿يعلم خائنة الأعين﴾ [غافر:١٩].وعبد الله بن أبي سرح كان قد أسلم قبل وكتب الوحي، ثم ارتد عن الإسلام، فأهدر النبي دمه، ولكن الله أراد شيئا وأراد النبي غيره، وما يريده الله هو الأصلح والأكمل؛ لأنه خالق العباد، وهو أدرى بمصالحهم، فـ ابن أبي سرح هذا أخذ يكذب عندما ارتد، وقال: كان يأمرني أن أكتب (شديد العقاب)، فأكتب (غفور رحيم)، فيبدل ويغير، فلو قتل لقال أعداء الإسلام: ها هو رجل كان يكتب الوحي، فلما كشف السر قتله النبي عليه الصلاة والسلام، ولكن الله أبقى ابن أبي سرح إلى أن أسلم، فلما حسن إسلامه جعل يكذب نفسه في المجالس ويقول: لا والله، ما غيرت كلمة مما أمرني رسول الله صلى الله عليه وسلم في كتابتها، ولكن الشيطان تلاعب به وأغراه، فأخذ يكذب على الله ورسوله، فهو تائب إلى الله ولن يعود، وهو الذي كان قائد الجيش في فتح طرابلس وبرقة التي أصبحت تسمى أخيرا باسم: ليبيا.قوله تعالى: ﴿يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور﴾ أي: يخبر جل جلاله بأنه العالم بكل شيء، حتى بغمزة العين، وما يريد صاحبها أن يقول، كما يعلم ما تسره الضمائر، وما تبطنه النفوس مما لا يتكلم ولا ينطق به؛ ولذلك فالله جل جلاله لا تخفى عليه خافية، فمن حاول أن يكتم شروره وآثامه فإن لم يعلمها البشر فالله جل جلاله

يعلمها، وهو لا تخفى عليه خافية، حتى إذا جاء يوم القيامة وجده معروضا على الله للحساب: كل ما كان يعمله في الحياة الدنيا من جرائم وذنوب وآثام، فإما أن يغفر الله له وقد جاء موحدا مؤمنا، وإما أن يأتي مشركا فلا توبة ولا رحمة لمشرك إن مات على شركه.." (١)

" صفحة رقم ١٤٩ (غافر : (١٨ - ٢٠) وأنذرهم يوم الآزفة . . . . . " وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور والله يقضي بالحق والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء إن الله هو السميع البصير " (قوله عز وجل :) وأنذرهم يوم الآزفة (فيه قولان: أحدهما : يوم حضور المنية ، قاله قطرب .الثاني : يوم القيامة وسميت الآزفة لدنوها ، وكل آزف دان ، ومنه قوله تعالى) أزفت الآزفة (" [النجم : ٥٧] أي دنت القيامة.) إذ القلوب لدى الحناجر (فيه قولان: أحدهما : أن القلوب هي النفوس بلغت الحناجر عند حضور المنية ، وهذا قول من تأول يوم الآزفة بحضور المنية ، قاله قتادة . ووقفت في الحناجر من الخوف فهي لا تخرج ولا تعود في أمكنتها .) كاظمين (فيه أربعة أوجه: أحدها : مغمومون قاله الكلبي .الثاني : باكون ، قاله ابن جريج .الثالث : ممسكون بحناجرهم ، ماخوذ من كظم القربة وهو شد رأسها .الرابع : ساكتون ، قاله قطرب ، وأنشد قول الشماخ :فظلت كأن الطير فوق رؤوسهاصيام تنائي الشمس وهي كظوم) ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع (في الحميم قولان :أحدهما : انه القريب ، قاله الحسن .الثاني : الشفيق ، قاله مجاهد ، ومعنى الكلام : ما لهم من حميم ينفع ولا شفيع يطاع أي يجاب إلى الشفاعة ، وسميت الإجابة طاعة لموافقتها إرادة المجاب .قوله عز وجل :) يعلم خائنة الأعين (فيه خمسة أوجه :." (٢)

" صفحة رقم ١٥٠ أحدها : أنه الرمز بالعين ، قاله السدي .الثاني : هي النظرة بعد النظرة ، قاله سفيان .الثالث : مسارقة النظر ، قاله ابن عباس .الرابع : النظر إلى ما نهى عنه ، قاله مجاهد .الخامس : هو قول الإنسان ما رأيت وقد رأى ، أو رأيت وما رأى ، قاله الضحاك .وفي تسميتها خائنة الأعين وجهان :أحدهما : لأنها أخفى الإشارات فصارت بالاستخفاء كالخيانة .الثاني : لأنها باستراق النظر إلى المحظور خيانة .) وما تخفي الصدور (فيه ثلاثة تأويلات :أحدها : الوسوسة ، قاله السدي .الثاني : ما تضمره [عندما ترى امرأة] إذا أنت قدرت عليها أتزني بها أم لا ، قاله ابن عباس .الثالث : ما يسره الإنسان من أمانة أو خيانة ، وعبر عن القلوب بالصدور لأنها مواضع القلوب .(غافر : (٢١ - ٢٢) أولم يسيروا في . . . . . " أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم كانوا هم أشد منهم قوة وآثارا في الأرض فأخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق ذلك بأنهم كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فكفروا فأخذهم الله إنه قوي شديد العقاب " (قوله عز وجل :) . . . كانوا هم أشد منهم قوة (فيه وجهان :أحدهما : يعني بطشا ، قاله

---

(١) تفسير المنتصر الكتاني، الكتاني، محمد المنتصر ٢/٢٨٥

(٢) النكت والعيون ـ موافق للمطبوع، المؤلف غير معروف ١٤٩/٥

يحيى .الثاني : قدرة ، قاله ابن عيسى .) وآثارا في الأرض (فيه خمسة أوجه :أحدها : أنها آثارهم من الملابس والأبنية ، قاله يحيى .." (١)

"ثم ختم – سبحانه – تلك الآية الجامعة لأنواع من الأدب السامى ، بدعوة المؤمنين إلى التوبة الصادقة . فقال – تعالى – : ﴿ وتوبوا إِلَى الله جَمِيعاً أَيُّهَ المؤمنون لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ .أى : وتوبوا إلى الله جميعا أيها المؤمنون والمؤمنات ، توبة صادقة نصوحا تجعلكم تخشونه – سبحانه – فى السر والعلن ، لكى تنالوا الفلاح والنجاح فى دنياكم وأخراكم .قال القرطبى : " ليس فى القرآن الكريم آية أكثر ضمائر من هذه الآية . جمعت خمسة وعشرين ضميرا للمؤمنات ما بين مرفوع ومجرور . . . " .هذا ، ومن الأحكام والآداب التى اشتملت عليها هاتان الآيتان ما يأتى : ١ – وجوب غض البصر وحفظ الفرج ، لأن الإسلام يهدف إلى مجتمع طاهر من الدنس ، نظيف من الخنا ، مجتمع لا تمنع فيه الشهوات الحلال وإنما تمنع منه الشهوات الحرام ، مجتمع لا تختلس فيه العيون النظرات السيئة ولا تتطلع فيه الأبصار إلى مالا يحل لها التطلع إليه ، فالله – تعالى – يقول : ﴿ إِنَّ السمع والبصر والفؤاد كُلُّ أولئك كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً ﴾ ويقول : ﴿ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ الأعين وَمَا تُخْفِي الصدور ﴾ وقد وردت أحاديث متعددة فى الأمر بغض البصر ، وحفظ الفرج ، ومن ذلك ما أخرجه الشيخان عن أبى هريرة أن رسول الله A قال : "كتب على ابن آدم نصيبه من الزنا مدرك ذلك لا محالة ، العينان زناهما النظر ، والأذنان زناهما الاستماع ، واللسان زناهما الكلام ، واليد زناها البطش ، والرجل زناها الخطا ، والقلب يهوى ويتمنى ، ويصدق ذلك الفرج أو يكذبه " .وروى الإمام مسلم فى صحيحه عن جرير بن عبد الله قال : " سألت رسول الله A عن نظر الفجأة – أى البغتة من غير قصد – فقال : " اصرف بصرك "؟ "٢ – أنه لا يحل للمرأة أن تبدى زينتها لأجانب ، إلا ما ظهر منها ، لأن الله – تعالى – يقول : ﴿ وَلاَ يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ مَا ظَهَرَ مِنْهَا ﴾ .قال الإمام القرطبى ما ملخصه : " أمر الله – تعالى – النساء بالا يبدين زينتهن للناظرين ، إلا ما استثناه من الناظرين فى باقى الآية ، حذارا من الافتتان ، ثم استثنى ما يظهر من الزينة ، واختلف الناس فى قدر ذلك .فقال ابن مسعود : طاهر الزينة هو الثياب . . . وقال سعيد بن جبير والأوزاعى : الوجه والكفان والثياب . . . وقال ابن عباس وقتادة : ظاهر الزينة هو الكحل والسوار والخضاب . . ونحو هذا ، فمباح أن تبديه لكل من ظهر عليها من الناس .وقال ابن عطية : ويظهر لى بحكم ألفاظ الآية ، بأن المرأة مأمورة بأن لا تبدى ، وأن لا تجتهد فى الإخفاء لكل ما هو زينة ، ووقع الاستثناء فيما يظهر ، بحكم ضرورة حركة فيما لا بد منه ، أو إصلاح شأن ونحو ذلك ، " فما ظهر " على هذا الوجه مما تؤدى إليه الضرورة فى النساء فهو المعفو عنه .." (٢)

"ثم يوجه الله – تعالى أمره إلى النبى A بأن يحذر كفار قريش من أهوال هذا اليوم فيقول : ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الأزفة إِذِ القلوب لَدَى الحناجر كَاظِمِينَ . . ﴾ .والآزفة : القيامة . وأصل معنى الأزفة : القريبة ، وسميت القيامة بذلك لقربها ، يقال : أزف – بزنة فرح – يوم الرحيل : إذا دنا وقرب .والحناجر : جمع حنجرة وهى الحلقوم .وكاظمين : حال من أصحاب القلوب على المعنى . فإن ذكر القلوب يدل على ذكر أصحابها .وأصل الكظم : الحبس والإمساك للشئ . يقال : كظم

---

(١) النكت والعيون ـ موافق للمطبوع، المؤلف غير معروف ١٥٠/٥

(٢) الوسيط لسيد طنطاوي، المؤلف غير معروف ص/٣٠٧٥

القربة إذا ملأها بالماء ، وسد فاها ، حتى لا يخرج منها شئ من الماء .والمعنى : وأنذر – أيها الرسول الكريم – الناس ، وحذرهم من أهوال يوم عظيم قريب الوقوع ، هذا اليوم تكون قلوبهم فيه مرتفعة عن مواضعها من صدورهم . ومتشبثة بحناجرهم ، ويكونون كاظمين عليها وممسكين بها حتى لا يخرج مع أنفساهم . كما يمسك صاحب القربة فمها لكى لا يتسرب منها الماء .فالآية الكريمة تصوير يديع لما يكون عليه الناس فى هذا اليوم من فزع شديد ، وكرب عظيم . وخوف ليس بعده خوف .والحديث عن قرب يوم القيامة قد جاء فى آيات كثيرة منها قوله – تعالى – : ﴿ اقتربت الساعة وانشق القمر . . ﴾ وقوله – سبحانه – ﴿ اقترب لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴾ والظاهر أن قوله هنا ﴿ يَوْمَ الأزفة ﴾ هو المفعول الثانى للإنذار . لأن الإنذار والتخويف من أهوال يوم القيامة واقع فى دار الدنيا .وقوله : ﴿ إِذِ القلوب ﴾ بدل من يوم الآزفة .قال صاحب الكشاف : فإن قلت " كاظمين " بم انتصب؟ قلت : هو حال من أصحاب القلوب على المعنى ، لأن المعنى : إذ قلوبهم لدى حناجرهم كاظمين عليها . ويجوز أن يكون حالا من القلوب ، وأن القلوب ، كاظمة على غم وكرب فيها مع بلوغها الحناجر .وإنما جُمِع السلامة ، لأنه وصفها بالكظم الذى هو من أفعال العقلاء ، كما قال – تعالى – : ﴿ والشمس والقمر رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ . . . ﴾ وقوله – تعالى – : ﴿ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلاَ شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴾ نفى لكون هؤلاء الظالمين يوجد فى هذا اليوم من ينفعهم أو يدافع عنهم .والحميم : هو الإنسان الذى يحبك ويشفق عليك ويهتم بأمرك ، ومنه قيل لخاصة الرجل : حَامَّتهُ .والشفيع : من الشفع ، بمعنى الانضمام ، يقال شفع فلان لفلان إذا انضم إليه ليدافع عنه .أى : ليس للظالمين فى هذا اليوم قريب أو محب يعطف عليهم ، ولا شفيع يطيعهم فى الشفاعة لهم ، لأنهم فى هذا اليوم يكونون محل غضب الجميع ونقمتهم ، بسبب ظلمهم وإصرارهم على كفرهم .فالآية الكريمة نفت عنهم الصديق الذى يهتم بأمرهم ، والشفيع الذى يشفع لهم ، والإنسان الذى تكون له أية كلمة تسمع فى شأنهم .ثم أكد – سبحانه – شمول علمه لكل شئ فقال : ﴿ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ الأعين وَمَا تُخْفِي الصدور ﴾ .." [1]

"فلا هي تخرج ولا تعود في أمكنتها.و ﴿ لدى ﴾ ، بمعنى : عند.﴿ كاظمين ﴾ : مفتاظين لا شيء يزيل غيظهم.﴿ ما للظالمين من حميم ﴾ ، أي : من قريب (ولا صديق) يحتج عنهم فيزيل عظيم ما نزل بهم.﴿ ولا شفيع ﴾ يشفع لهم عند ربهم D فيما يشفع فيه.قال الحسن : استكثروا من الأصدقاء المؤمنين ، فإذا الرجل منهم يشفع في صديقه وقريبه ، فإذا رأى الكافر ذلك قال : ما لنا من شافعين ولا صديق حميم.ثم قال تعالى : ﴿ يعلم خآئنة الأعين وما تخفي الصدور ﴾ ، أي : يعلم الله جل ذكره خائنة أعين عباده وما أخفته صدورهم ، لا يخفى عليه شيء من أمورهم حتى يتحدث به في نفسه ويضمره في قلبه.ومعنى " خائنة الأعين " هو أن الله تعالى يعلم ما أراد بنظره إذا نظر وما ينوي بذلك في قلبه .." [2]

"قال ابن عباس : ﴿ يعلم خآئنة الأعين وما تخفي الصدور ﴾ : يعلم إذا نظرت إلى المرأة أتريد بذلك الخيانة أم لا . " وما تخفي الصدور " ، أي : إذا قدرت عليها أتزني أم لا.وقوله : ﴿ والله يقضي بالحق ﴾ ، أي : يقدر أن يجزي بالحسنة الحسنة وبالسيئة السيئة.وروى ابن وهب عن رجاله عن ابن عباس أنه قال : هو الرجل تمر به المرأة فيرى القوم أنه

---

(١) الوسيط لسيد طنطاوي، المؤلف غير معروف ص/٣٦٩١

(٢) الهداية الى بلوغ النهاية، المؤلف غير معروف ٦٤١٦/١٠

يغض بصره ، فإذا أغفلوا نظر إليها : ويريهم (أنه يغض) بصره ويود لو أنه يطلع على عورتها ويقدر عليها.وعن ابن عباس أنه قال في " خائنة الأعين " : إنه الرجل ينظر إلى المرأة فإذا نظر أصحابه إليه غض بصره ، (وقد علم الله D منه أنه يود لو نظر إلى عورتها ، فإذا رأى منهم غفلة تدسس النظر ، فإذا نظر إليه أصحابه غض بصره).قال مجاهد : خائنة الأعين : نظر العين إلى ما نهى الله D عنه .." (١)

"وقال قتادة : يعلم همزه بعينه ، وإغماضه فيما لا يحب الله جل ذكره ولا يرضى به.قال الفراء : " خائنة الأعين " : النظرة الثانية و ﴿ وما تخفي الصدور ﴾ النظرة الأولى " ﴿ والله يقضي بالحق ﴾ ، أي : يجازي من غض بصره عن محارمه حذر الموقف بين يديه ، ومن ردد النظر وعزم قلبه على مواقعة الفواحش إذا قدر عليها.قال الزجاج : " خائنة الأعين " نظر ونيته الخيانة.ثم قال : ﴿ والذين يدعون من دونه ﴾ ، أي : والأوثان التي يدعو هؤلاء (المشركون) من قومك من دون الله.﴿ لا يقضون بشيء ﴾ ، أي لا تقدر على شيء ولا تعلم شيئا ، فاعبدوا الله الذي هو ﴿ السميع ﴾ لما تنطق به ألسنتكم ﴿ البصير ﴾ بما تعملون من الأفعال ، المحيط بكل ذلك.قوله تعالى : ﴿ أولم يسيروا في الأرض ﴾ – إلى قوله – ﴿ إلا سبيل الرشاد ﴾ ، ." (٢)

"ومن هنا كانت إيحاءات الدارونية والفرويدية والماركسية هي أبشع ما تبتلى به الفطرة البشرية والتوجيه الإنساني ، فتوحي إلى البشر بأن كل سفالة وكل قذارة وكل حقارة هي أمر طبيعي متوقع ، ليس فيه ما يستغرب ، ومن ثم ليس فيه ما يخجل . . وهي جناية على البشرية تستحق المقت والازدراء!ونظافة المشاعر تجيء نتيجة مباشرة للشعور بكرامة الإنسان على الله . ثم برقابة الله على الضمائر واطلاعه على السرائر . وإن الإنسان السوي الذي لم تمسخه إيحاءات فرويد وكارل ماركس وأمثالهما ، ليستحيي أن يطلع إنسان مثله على شوائب ضميره وخائنة شعوره . والمؤمن يحس وقع نظر الله سبحانه في أطواء حسه إحساساً يرتعش له ويهتز . فأولى أن يطهر حسه هذا وينظفه!والحاسة الأخلاقية ثمرة طبيعية وحتمية للإيمان بإله عادل رحيم عفو كريم ودود حليم ، يكره الشر ويحب الخير . ويعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور .وهناك التبعة المترتبة على حرية الإرادة وشمول الرقابة ، وما تثيره في حس المؤمن من يقظة وحساسية ، ومن رزانة وتدبر . وهي ليست تبعة فردية فحسب ، إنما هي كذلك تبعة جماعية ، وتبعة تجاه الخير في ذاته ، وإزاء البشرية جميعاً . . أمام الله . . وحين يتحرك المؤمن حركة فهو يحس بهذا كله ، فيكبر في عين نفسه ، ويقدر نتيجة خطوه قبل أن يمد رجله . . إنه كائن له قيمة في الوجود ، وعليه تبعة في نظام هذا الوجود ..والارتفاع عن التكالب على أعراض الحياة الدنيا وهو بعض إيحاءات الإيمان واختيار ما عند الله ، وهو خير وأبقى . ﴿ وفي ذلك فليتنافس المتنافسون ﴾ والتنافس على ما عند الله يرفع ويطهر وينظف . . يساعد على هذا سعة المجال الذي يتحرك فيه المؤمن . . بين الدنيا والآخرة ، والأرض والملأ الأعلى . مما يهدئ في نفسه القلق على النتيجة والعجلة على الثمرة . فهو يفعل الخير لأنه الخير ، ولأن الله يريده ، ولا عليه ألا يدرّ الخير خيراً على مشهد من عينيه في عمره الفردي المحدود . فالله الذي يفعل الخير ابتغاء وجهه لا يموت سبحانه – ولا ينسى ، ولا

---

(١) الهداية الى بلوغ النهاية، المؤلف غير معروف ٦٤١٧/١٠

(٢) الهداية الى بلوغ النهاية، المؤلف غير معروف ٦٤١٨/١٠

يغفل شيئاً من عمله . والأرض ليست دار جزاء . والحياة الدنيا ليست نهاية المطاف . ومن ثم يستمد القدرة على مواصلة الخير من هذا الينبوع الذي لا ينضب . وهذا هو الذي يكفل أن يكون الخير منهجاً موصولاً ، لا دفعة طارئة ، ولا فلتة مقطوعة . وهذا هو الذي يمد المؤمن بهذه القوة الهائلة التي يقف بها في وجه الشر . سواء تمثل في طغيان طاغية ، أو في ضغط الاعتبارات الجاهلية ، أو في اندفاع نزواته هو وضغطها على إرادته . هذا الضغط الذي ينشأ أول ما ينشأ من شعور الفرد بقصر عمره عن استيعاب لذائذه وتحقيق أطماعه ، وقصره كذلك." (١)

" غافر ١٨ ٢١ فيه او سريع مجيئا فيكون تعليلا للانذار وانذرهم يوم الازفة أي القيامة سميت بها لازوفها وهو القرب غير ان فيه اشعارا بضيق الوقت وقيل الخطة الآزفة وهي مشارفة اهل النار دخولها وقيل وقت حضور الموت كما في قوله تعالى فلولا اذا بلغت الحلقوم وقوله كلا اذا بلغت التراقي وقوله تعالى اذ القلوب لدى الحناجر بدل من يوم الآزفة فإنها ترتفع من أماكنها فتلتصق بحلوقهم فلا تعود فيتروحوا ولاتخرج فيستريحوا بالموت كاظمين على الغم حال من اصحاب القلوب على المعنى اذ الاصل قلوبهم او من ضميرها في الظرف وجمع السلامة باعتبار ان الكظم من احوال العقلاء كقوله تعالى فظلت اعناقهم لها خاضعين او من مفعول انذرهم على انها حال مقدرة أي انذرهم مقدرا كظمهم او مشارفين الكظم ما للظالمين من حميم أي قريب مشفق ولا شفيع يطاع أي لا شفيع مشفع على معنى نفي الشفاعة والطاعة معا على طريقة قوله على لا حب لا يهتدى بمناره والضمائر ان عادت الى الكفار وهو الظاهر فوضع الظالمين موضع ضميرهم للتسجيل عليهم بالظلم وتعليل الحكم به يعلم خائنة الاعين النظرة الخائنة كالنظرة الثانية الى غير المحرم واستراق النظر اليه او خيانة الاعين على انها مصدر كالعافية وما تخفي الصدور من الضمائر والاسرار والجملة خبر آخر مثل يلقى الروح للدلالة على انه ما من خفي الا وهو متعلق العلم والجزاء والله يقضي بالحق لانه المالك الحاكم على الاطلاق فلا يقضي بشيء الا وهو حق وعدل والذين يدعون يعبدونهم من دونه تعالى لا يقضون بشيء تهكم بهم لان الجماد لا يقال في حقه يقضي اولا يقضي وقرىء تدعون على الخطاب التفاتا او على اضمار قل ان الله هو السميع البصير تقرير لعلمه تعالى بخائنة الاعين وقضائه بالحق ووعيد لهم على ما يقولون ويفعلون وتعريض بحال ما يدعون من دونه أو لم يسيروا في الارض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم أي مآل حال من قبلهم من الامم المكذبة لرسلهم كعاد وثمود واضرابهم كانوا هم اشد منهم قوة قدرة وتمكنا من التصرفات وانما جيء بضمير الفصل مع ان حقه التوسط بين معرفتين لمضاهاة افعل من للمعرفة في امتناع دخول اللام عليه وقرىء اشد منكم بالكاف وآثارا في الارض مثل القلاع الحصينة والمدائن المنينة وقيل المعنى واكثر اثارا كقوله متقلدا سيفا ورمحا فأخذهم الله بذنوبهم اخذا وبيلا وما كان لهم من الله ." (٢)

" صفحة رقم ٤٩٦ بميزان قسط لا يخيس شعيرة له شاهد من نفسه غير عائلضافت النفوس من خوف الطول ، فخفف عنها بقوله معلما أن أموره على غير ما يعهدونه ، ولذلك أكد وعظم باظهار الاسم الأعظم : (إن الله) أي التام القدرة الشامل العلم) سريع الحساب) أي بليغ السرعة فيه ، لا يشغله حساب أحدج عن حساب غيره في وقت حساب

---

(١) المهذب في تفسير جزء عم، المؤلف غير معروف ص/٩٨٤

(٢) تفسير أبي السعود، المؤلف غير معروف ٧/٢٧٢

ذلك الغير ، ولا يشغله شأن من شأن لأنه لا يحتاج إلى تكلف عد ، ولا يفتقر إلى مراجعة كتاب ، ولا شيء ، فكان في ذلك ترجية للفريقين وتخويف ، لأن الظالم يخشى إسراع الأخذ بالعذاب ، والمؤمن يرجو إسراع البسط بالثواب .غافر : (١٨ - ٢٠) وأنذرهم يوم الآزفة. .. . . .) وأنذرهم يوم الأزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع يعلم خآئنة الأعين وما تخفي الصدور والله يقضي بالحق والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء إن الله هو السميع البصير (( )ولما تم هذا على هذا الوجه المهول ، وكان يوم القيامة له أسماء تدل على أهواله باعتبار مواقفه وأحواله ، منها يوم البعث وهو ظاهر ، ومنه يوم التلاق لما تقدم ، ومنها يوم التغابن لغبن أكثر من فيه خسارته ، ومنها يوم الآزفة لقربه وسرعة أخذه ، وكان كأنه قيل خطابا للنبي (صلى الله عليه وسلم) : وأمن ممن ألقينا هذا الروح الأعظم من أمرنا فأنذرهم ما مضى من يوم التلاقي وما عقبناه به ، عطف عليه قوله زيادة في بيان هوله إعلاما بأنه مع ثبوته وثبوت التلاقي فيه قريب تحذيرا من تزيين إبليس للشهوات وتقريره بالتسويف بالتوبة : (وأنذرهم) أي هؤلاء المعرضين إعراض من لا يجوز الممكن) يوم الآزفة) أي الحالة الدائبة العاجلة السريعة جدا مع الضيق في الوقت وسوء العيش لأكثر الناس ، وهي القيامة ، كرر ذكرها الإنذار منها تصريحا وتلويحا تهويلا لها وتعظيما لشأنها .ولما ذكر اليوم ، هول أمره بما يحصل فيه من المشاق فقال : (إذ القلوب) أي من كل من حضره .ولما كان هذا الرعب على وجه غريب باطن ، عبر ب (لدى) فقال : (لدى الحناجر) أي حناجر المجموعين فيه إلا من شاء الله ، وهي جمع حنجور وهي الحلقوم وزنا ومعنى ، يعني أنها زوالت عن أمكانها صاعدة من كثرة الرعب حتى كادت تخرج وصارت مواضعها من الافئدة هواء ، وكانت الأفئدة معترضة كالشجا لا هي ترجع إلى مقارها فيستريحوا ولا تخرج فيموتوا .ولما كان الحديث - وإن كان في الظاهر عن القلوب - إنما هو عن أصحابها ، جمع على طريقة جمع العقلاء ، وزاده حسنا أن القلوب محل الكظم ، وبها صلاح الجملة وفسادها ، وقد أسند إليها ما يسند للعقلاء فقال : (كاظمين) أي ممتلئين خوفا ورعبا." (١)

" صفحة رقم ٤٩٧ وحزنا ، ساكتين مكروبين ، قد انسدت مجاري أنفاسهم وأخذ بجميع إحساسهم .ولما كان من المعلوم أن ذلك الكرب إنما هو للخوف من ديان ذلك اليوم ، وكان من المعهود أن الصداقات تنفع في مثل ذلك اليوم والشفاعات ، قال مستانفا : (ما للظالمين) أي العريقين في الظلم منهم) من حميم) أي قريب صادق في مودتهم مهتم بأمورهم مزيل لكروبهم ، قال ابن برجان : والحميم : الماء الحار الناهي في الحرارة ، سمي القريب به لأنه يحمي لقريبه غضبا ، والغضب حرارة تعرض في القلب تخرج إلى الوجه فيحمر وتنتفخ الأوداج فيستشيط غيظا) ولا شفيع يطاع) أي ليس شفيع أصلا لأن الشفيع يعلم أنه لو شفع ما أطيع فهو لا ينفع ، وقد يشفع في بعضهم بعض المقربين لعلامة فيهم يحصل بها اشتباه يظن بهم أنهم ممن يستحق الشفاعة فينبه على أنهم ليسوا بذلك ، فيبرأ منهم .ولما كانت الشفاعة إنما تقع وتنفع بشرط براءة المشفوع له من الذنب إما بالاعتراف بما نسب إليه والإقلاع عنه ، وإما بالاعتذار عنه ، وكان ذلك إنما يجري عند المخلوقين على الظاهر ، ولذلك كانوا ربما وقع لهم الغلط فيمن لو عملوا باطنه لما قبلوا الشفاعة فيه ، علل تعالى ما تقدم بعلمه أن المشفوع له ليس بأهل لقبول الشفاعة فيه لإحاطة علمه فقال : (يعلم خائنة (ولما كان السياق هنا للابلا غ

---

(١) نظم الدرر . (موافق للمطبوع - ت: عبدالرزاق غالب)، المؤلف غير معروف ٤٩٦/٦

في أن علمه تعالى محيط بكل كلي وجزئي ، فكان من المعلوم أن الحال يقتضي جمع الكثرة ، وأنه ما عدل عنه إلى جميع القلة إلا للإشارة إلى أن علمه تعالى بالكثير كعلمه بالقليل الكل ، عليه هين ، فالكثير عنده في ذلك قليل فلذا قال : (الأعين) أي خيانتها التي هي أخفى ما يقع من أفعال الظاهر ، جعل الخيانة مبالغة في الوصف وهي الإشارة بالعين ، قال أبو حيان : من كسر وغمز ونظر يفهم منه ما يراد – انتهى .وذلك يفعل بفعل ما يخالف الظاهر ، ولما ذكر أخفى أفعال الظاهر ، أتبعه أخفى ما في الباطن فقال : (وما تخفي الصدور) أي عن المشفوع عنده وغير ذلك .ولما كان العفو عن الظالم الذي لا يرجع عن ظلمه نقصا ، لكونه لا حكمة فيه ، عبر بالاسم الأعظم في جملة حالية فقال : (والله) أي والحال أن المتصف بجميع صفات الكمال) يقضي بالحق) أي الثابت الذي لا يصح أصلا نفيه ، فلو قضى ذلك الكمال) والذين يدعون) أي الظالمون – على قراءة الجماعة ، وأيها الظالمون – على قراءة نافع وابن عامر بخلاف عن ابن ذكوان بالخطاب للمواجهة بالأزراء .ولما كانت المراتب جون عظمته سبحانه لا تنحصر ولا يحتوي عليها كلها شيء ، أثبت الجار فقال :." (١)

" صفحة رقم ٥٣٨ نظرهم لأنفسهم بانيا للمفعول لأن المنكئ هذا القول مطلقا لا لكونه من قائل معين : (ثم قيل لهم) أي بعد أن طال عذابهم ، وبلغ منهم كل مبلغ ، ولم يجدوا ناصرا يخلصهم ولا شافعا يخصصهم : (أين (والتعبير عنهم بأداة ما لا يعقل في أحكم مواضعه في قوله : (ما كنتم) أي دائما) تشركون) أي بدعائكم لهم في مهماتكم دعاء عبادة مع تجديده في كل وقت ؛ ثم بين سفولهم بقوله لافتا القول عن مظهر العظمة إلى أعظم منه فقال : (من دون الله) أي المحيط بجميع العز وكل العظمة ، لتطلبوا منهم تخليصكم مما أنتم فيه أو تخفيفه : (قالوا) أي مسترسلين مع الفطرة وهي الفطرة الأولى على الصدق : (ضلوا عنا (فلا نراهم كما ضللنا نحن في الدنيا عما ينفعنا .ولما رأوا أن صدقهم قد أوجب اعترافهم بالشرك ، دعتهم رداءة المكر ورذالة الطباع إلى الكذب ، فاسترسلوا معها فبادروا أن أظهروا الغلظ فقالوا ملبسين على من يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور ظانين أن ذلك ينفعهم كما كان ينفعهم عند المؤمنين في دار الدنيا : (بل لم نكن ندعو) أي لم يكن ذلك في طباعنا .ولما كان مرادهم نفي دعائهم أصلا ورأسا في لحظة فما فوقها ، لا النفي المقيد بالاستغراق ، فإنه لا ينفي ما دونه ، أثبتوا الجار فقالوا : (من قبل) أي قبل هذه الإعادة) شيئا (لنكون قد أشركنا به ، فلا يقدرهم بعضا بحيث لا يزالون في ندم كما كان حالهم في الدنيا٧٧ ( ) انظر كيف كذبوا على أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون ( ) ٧[الأنعام : ٢٤] فالآية من الاحتباك : ذكر الإشراك أولا دليلا على نفيهم له ثانيا ، والدعاء ثانيا دليلا على تقديره أولا .ولما كان في غاية الإعجاب من ضلالهم ، كان كأنه قيل : هل يضل أحد من الخلق ضلال هؤلاء ، فأجيب بقوله : (كذلك) أي نعم مثل هذا الضلال البعيد عن الصواب) يضل الله) أي المحيط علما وقدرة ، على القصد النافع عن حجة وغيرها) الكافرين) أي الذين ستروا مرائي بصائرهم لئلا يتجلى فيها ثم صار لهم ذلك ديدنا .ولما تم جواب السؤال عن التعجب من هذا الضلال ، رجع إلى خطاب الضلال فقال معظما لما ذكر من جزائهم بأداة البعد وميم الجمع نصا على تقريع كل منهم : (ذلكم) أي الجزاء العظيم المراتب ، الضخم المواكب) بما كنتم) أي دائما) تفرحون

---

(١) نظم الدرر . (موافق للمطبوع – ت: عبدالرزاق غالب)، المؤلف غير معروف ٤٩٧/٦

) أي تبالغون في السرور وتستغرقون فيه وتضعفون عن حمله للإعراض عن العواقب .ولما كانت الأرض سجنا ، فهي في الحقيقة دار الأحزان ، حسن قوله : (في الأرض) أي ففعلتم فيها ضد ما وضعت له ، وزاد ذلك حسنا قوله :." (١)

"ولما كانت الشفاعة إنما تقع وتنفع بشرط براءة المشفوع له من الذنب إما بالاعتراف بما نسب إليه والإقلاع عنه ، وإما بالاعتذار عنه ، وكان ذلك إنما يجري عند المخلوقين على الظاهر ، ولذلك كانوا ربما وقع لهم الغلط فيمن لو عملوا باطنه لما قبلوا الشفاعة فيه ، علل تعالى ما تقدم بعلمه أن المشفوع له ليس بأهل لقبول الشفاعة فيه لإحاطة علمه فقال : ﴿يعلم خائنة﴾ ولما كان السياق هنا للابلاغ في أن علمه تعالى محيط بكل كلي وجزئي ، فكان من المعلوم أن الحال يقتضي جمع الكثرة ، وأنه ما عدل عنه إلى جميع القلة إلا للإشارة إلى أن علمه تعالى بالكثير كعلمه بالقليل الكل ، عليه هين ، فالكثير عنده في ذلك قليل فلذا قال : ﴿الأعين﴾ أي خيانتها التي هي أخفى ما يقع من أفعال الظاهر ، جعل الخيانة مبالغة في الوصف وهي الإشارة بالعين ، قال أبو حيان : من كسر وغمز ونظر يفهم منه ما يراد - انتهى.وذلك يفعل بفعل ما يخالف الظاهر ، ولما ذكر أخفى أفعال الظاهر ، أتبعه أخفى ما في الباطن فقال : ﴿وما تخفي الصدور*﴾ أي عن المشفوع عنده وغير ذلك.ولما كان العفو عن الظالم الذي لا يرجع عن ظلمه نقصا ، لكونه لا حكمة فيه ، عبر بالاسم الأعظم في جملة حالية فقال : ﴿والله﴾ أي والحال أن المتصف بجميع صفات الكمال ﴿يقضي بالحق﴾ أي الثابت الذي لا يصح أصلا نفيه ، فلو قضى ذلك الكمال ﴿والذين يدعون﴾ أي الظالمون - على قراءة الجماعة ، وأيها الظالمون - على قراءة نافع وابن عامر بخلاف عن ابن ذكوان بالخطاب للمواجهة بالأزراء.ولما كانت المراتب جون عظمته سبحانه لا تنحصر ولا يحتوي عليها كلها شيء ، أثبت الجار فقال : ٤٩٧ ﴿من دونه﴾ أي سواه ، ومن المعلوم أنهم خلقه فهم دون رتبته لأنهم في قهره ﴿لا يقضون بشيء﴾ من الأشياء أصلا ، فضلا عن أن يقضوا بما يعارض حكمه ، فلا مانع له من القضاء بالحق ، فلا مقتضى لقبول الشفاعة فيمن يعلم عراقته في الظلم أنه لا ينفك عنه.." (٢)

"نظرهم لأنفسهم بانيا للمفعول لأن المنكء هذا القول مطلقا لا لكونه من قائل معين : ﴿ثم قيل لهم﴾ أي بعد أن طال عذابهم ، وبلغ منهم كل مبلغ ، ولم يجدوا ناصرا يخلصهم ولا شافعا يخصصهم : ﴿أين﴾ والتعبير عنهم بأداة ما لا يعقل في أحكم مواضعه في قوله : ﴿ما كنتم﴾ أي دائما ﴿تشركون*﴾ أي بدعائكم لهم في مهماتكم دعاء عبادة مع تجديده في كل وقت ؛ ثم بين سفولهم بقوله لافتا القول عن مظهر العظمة إلى أعظم منه فقال : ﴿من دون الله﴾ أي المحيط بجميع العز وكل العظمة ، لتطلبوا منهم تخليصكم مما أنتم فيه أو تخفيفه : ﴿قالوا﴾ أي مسترسلين مع الفطرة وهي الفطرة الأولى على الصدق : ﴿ضلوا عنا﴾ فلا نراهم كما ضللنا نحن في الدنيا عما ينفعنا.ولما رأوا أن صدقهم قد أوجب اعترافهم بالشرك ، دعتهم رداءة المكر ورذالة الطباع إلى الكذب ، فاسترسلوا معها فبادروا أن أظهروا الغلظ فقالوا ملبسين على من يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور ظانين أن ذلك ينفعهم كما كان ينفعهم عند المؤمنين في دار الدنيا : ﴿بل لم نكن ندعو﴾ أي لم يكن ذلك في طباعنا.ولما كان مرادهم نفي دعائهم أصلا ورأسا في لحظة فما فوقها ، لا النفي المقيد بالاستغراق ،

---

(١) نظم الدرر . (موافق للمطبوع - ت: عبدالرزاق غالب)، المؤلف غير معروف ٦/٥٣٨

(٢) نظم الدرر . موافق للمطبوع، المؤلف غير معروف ٦/٧٣٨

فإنه لا ينفي ما دونه ، أثبتوا الجار فقالوا : ﴿من قبل﴾ أي قبل هذه الإعادة ﴿شيئا﴾ لنكون قد أشركنا به ، فلا يقدرهم بعضا بحيث لا يزالون في ندم كما كان حالهم في الدنيا ﴿انظر كيف كذبوا على أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون﴾ [الأنعام : ٢٤] فالآية من الاحتباك : ذكر الإشراك أولا دليلا على نفيهم له ثانيا ، والدعاء ثانيا دليلا على تقديره أولا.ولما كان في غاية الإعجاب من ضلالهم ، كان كأنه قيل : هل يضل أحد من الخلق ضلال هؤلاء ، فأجيب بقوله : ﴿كذلك﴾ أي نعم مثل هذا الضلال البعيد عن الصواب ﴿يضل الله﴾ أي المحيط علما وقدرة ، على القصد النافع عن حجة وغيرها ﴿الكافرين*﴾ أي الذين ستروا مرائي بصائرهم لئلا يتجلى فيها ثم صار لهم ذلك ديدنا.." (١)

"حدثنا محمد بن غالب الدقاق، حدثنا عبيد بن عبيدة، حدثنا معتمر، عن أبيه، حدثنا أبو نضرة، عن ابن عباس، قال:"ينادي مناد بين يدي الساعة، يا أيها الناس: أتتكم الساعة فيسمعها الأحياء والأموات، قال: وينزل الله إلى سماء الدنيا، ويقول: " لمن الملك اليوم لله الواحد القهار " ".قوله تعالى: " يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور " عن ابن عباس، رضي الله عنهما، في قوله:" يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور " ، قال: الرجل يكون في القوم فتمر بهم المرأة فيريهم فيريهم أنه يغض بصره عنها، وإذا غفلوا لحظ إليها، وإذا نظروا غض بصره عنها، وقد اطلع الله من قلبه أنه ود أنه ينظر إلى عورتها"عن ابن عباس، رضي الله عنهما، في قوله:" يعلم خائنة الأعين " ، قال: نظرت إليها أتريد الخيانة أم لا؟ إلا أخبركم " والله يقضي بالحق " ، قادر على أن يجزي بالحسنة الحسنة، وبالسيئة السيئة".قوله تعالى: " أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله... الآية " ." (٢)

"قوله تعالى : ﴿ وأنذرهم يوم الآزفة ﴾ فيه قولان :أحدهما : أنه يوم القيامة ، قاله الجمهور . قال ابن قتيبة : وسميت القيامة بذلك لقربها . يقال : أزف شخوص فلان ، أي : قرب .والثاني : أنه يوم حضور المنية ، قاله قطرب .قوله تعالى : ﴿ إذ القلوب لدى الحناجر ﴾ وذلك أنها ترتقي إلى الحناجر فلا تخرج ولا تعود ، هذا على القول الأول . وعلى الثاني : القلوب هي النفوس تبلغ الحناجر عند حضور المنية؛ قال الزجاج : و ﴿ كاظمين ﴾ منصوب على الحال ، والحال محمولة على المعنى؛ لأن القلوب لا يقال لها : كاظمين ، وإنما الكاظمون أصحاب القلوب؛ فالمعنى : إذ قلوب الناس لدى الحناجر في حال كظمهم . قال المفسرون : « كاظمين » أي : مغمومين ممتلئين خوفا وحزنا ، والكاظم : الممسك للشيء على ما فيه؛ وقد أشرنا إلى هذا عند قوله : ﴿ والكاظمين الغيظ ﴾ [آل عمران : ١٣٤] .﴿ ما للظالمين ﴾ يعني الكافرين ﴿ من حميم ﴾ أي : قريب ينفعهم ﴿ ولا شفيع يطاع ﴾ فيهم فتقبل شفاعته .﴿ يعلم خائنة الأعين ﴾ قال ابن قتيبة : الخائنة والخيانة واحد . وللمفسرين فيها أربعة أقوال :أحدها : أنه الرجل يكون في القوم فتمر به المرأة فيريهم أنه يغض بصره ، فإذا رأى منهم غفلة لحظ إليها ، فإن خاف أن يفطنوا له غض بصره ، قاله ابن عباس .والثاني : أنه نظر العين إلى ما نهي عنه ، قاله مجاهد .والثالث : الغمز بالعين ، قاله الضحاك والسدي . قال قتادة : هو الغمز بالعين فيما لا يحبه الله ولا يرضاه .والرابع : النظرة بعد النظرة قاله ابن السائب .قوله تعالى : ﴿ وما تخفي الصدور ﴾ فيه ثلاثة أقوال :أحدها : ما تضمره

---

(١) نظم الدرر ـ موافق للمطبوع، المؤلف غير معروف ٨٠١/٦

(٢) تفسير ابن أبي حاتم، المؤلف غير معروف ١٧٩/١٢

من الفعل أن لو قدرت على ما نظرت إليه ، قاله ابن عباس .والثاني : الوسوسة ، قاله السدي .والثالث : ما يسره القلب من أمانة أو خيانة حكاه الماردي .." (١)

"﴿ ١٨٦ ﴾ ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ .هذا جواب سؤال، سأل النبي صلى الله عليه وسلم بعض أصحابه فقالوا: يا رسول الله، أقريب ربنا فنناجيه، أم بعيد فنناديه؟ فنزل: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ﴾ لأنه تعالى، الرقيب الشهيد، المطلع على السر وأخفى، يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، فهو قريب أيضا من داعيه، بالإجابة، ولهذا قال: ﴿ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ والدعاء نوعان: دعاء عبادة، ودعاء مسألة.والقرب نوعان: قرب بعلمه من كل خلقه، وقرب من عابديه وداعيه بالإجابة والمعونة والتوفيق.فمن دعا ربه بقلب حاضر، ودعاء مشروع، ولم يمنع مانع من إجابة الدعاء، كأكل الحرام ونحوه، فإن الله قد وعده بالإجابة، وخصوصا إذا أتى بأسباب إجابة الدعاء، وهي الاستجابة لله تعالى بالانقياد لأوامره ونواهيه القولية والفعلية، والإيمان به، الموجب للاستجابة، فلهذا قال: ﴿ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ أي: يحصل لهم الرشد الذي هو الهداية للإيمان والأعمال الصالحة، ويزول عنهم الغي المنافي للإيمان والأعمال الصالحة. ولأن الإيمان بالله والاستجابة لأمره، سبب لحصول العلم كما قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا ﴾ .." (٢)

"﴿ ١٨ - ٢٠ ﴾ ﴿ وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلا شَفِيعٍ يُطَاعُ * يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ * وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ .يقول تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: ﴿ وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الآزِفَةِ ﴾ أي: يوم القيامة التي قد أزفت وقربت، وآن الوصول إلى أهوالها وقلاقلها وزلازلها، ﴿ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ ﴾ أي: قد ارتفعت وبقيت أفئدتهم هواء، ووصلت القلوب من الروع والكرب إلى الحناجر، شاخصة أبصارهم. ﴿ كَاظِمِينَ ﴾ لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا وكاظمين على ما في قلوبهم من الروع الشديد والمزعجات الهائلة.﴿ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ ﴾ أي: قريب ولا صاحب، ﴿ وَلا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴾ لأن الشفعاء لا يشفعون في الظالم نفسه بالشرك، ولو قدرت شفاعتهم، فالله تعالى لا يرضى شفاعتهم، فلا يقبلها.﴿ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ ﴾ وهو النظر الذي يخفيه العبد من جليسه ومقارنه، وهو نظر المسارقة، ﴿ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴾ مما لم يبينه العبد لغيره، فالله تعالى يعلم ذلك الخفي، فغيره من الأمور الظاهرة من باب أولى وأحرى.﴿ وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ ﴾ لأن قوله حق، وحكمه الشرعي حق، وحكمه الجزائي حق وهو المحيط علمًا وكتابة وحفظا بجميع الأشياء، وهو المنزه عن الظلم والنقص وسائر العيوب، وهو الذي يقضي قضاءه القدري، الذي إذا شاء شيئًا كان وما لم يشأ لم يكن، وهو الذي يقضي بين عباده المؤمنين والكافرين في الدنيا، ويفصل بينهم بفتح ينصر به أولياءه وأحبابه.﴿ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ ﴾ وهذا شامل لكل ما عبد من دون الله ﴿ لا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ ﴾ لعجزهم وعدم إرادتهم للخير واستطاعتهم لفعله. ﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ ﴾ لجميع الأصوات، باختلاف اللغات، على تفنن الحاجات. ﴿ الْبَصِيرُ ﴾ (١) بما كان وما يكون،

---

(١) زاد المسير في علم التفسير، المؤلف غير معروف ٥/٢٨٧

(٢) تفسير السعدي، المؤلف غير معروف ص/٨٧

وما نبصر وما لا نبصر، وما يعلم العباد وما لا يعلمون.قال في أول هاتين الآيتين ﴿ وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الآزِفَةِ ﴾ ثم وصفها بهذه الأوصاف المقتضية للاستعداد لذلك اليوم العظيم، لاشتمالها على الترغيب والترهيب.ـــــــــــــــــــ(١) في النسختين (العليم) وهو خطأ فالوارد في الآية: (البصير).." (١)

"﴿ لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ ﴾ أي: نعاس ﴿ وَلا نَوْمٌ ﴾ ؛ لأن السنة والنوم، إنما يعرضان للمخلوق، الذي يعتريه الضعف، والعجز، والانحلال، ولا يعرضان لذي العظمة والكبرياء والجلال.وأخبر أنه مالك جميع ما في السماوات والأرض فكلهم عبيد لله مماليك، لا يخرج أحد منهم عن هذا الطور، ﴿ إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ إِلا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا ﴾ فهو المالك لجميع الممالك، وهو الذي له صفات الملك والتصرف، والسلطان، والكبرياء.ومن تمام ملكه أنه لا ﴿ يَشْفَعُ عِنْدَهُ ﴾ أحد ﴿ إِلا بِإِذْنِهِ ﴾ فكل الوجهاء والشفعاء عبيد له مماليك، لا يقدمون على شفاعة حتى يأذن لهم. ﴿ قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ والله لا يأذن لأحد أن يشفع إلا فيمن ارتضى، ولا يرتضي إلا توحيده، واتباع رسله، فمن لم يتصف بهذا، فليس له في الشفاعة نصيب.ثم أخبر عن علمه الواسع المحيط، وأنه يعلم ما بين أيدي الخلائق، من الأمور المستقبلة، التي لا نهاية لها ﴿ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾ من الأمور الماضية التي لا حد لها، وأنه لا تخفى عليه خافية ﴿ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴾وأن الخلق لا يحيط أحد بشيء من علم الله ومعلوماته ﴿ إِلا بِمَا شَاءَ ﴾ منها وهو ما أطلعهم عليه من الأمور الشرعية والقدرية، وهو جزء يسير جدا مضمحل في علوم الباري ومعلوماته، كما قال أعلم الخلق به، وهم الرسل والملائكة: ﴿ سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلا مَا عَلَّمْتَنَا ﴾ثم أخبر عن عظمته وجلاله، وأن كرسيه، وسع السماوات والأرض، وأنه قد حفظهما ومن فيهما من العوالم بالأسباب والنظامات، التي جعلها الله في المخلوقات.ومع ذلك فـ ﴿ لا يَئُودُهُ ﴾ أي: يثقله حفظهما، لكمال عظمته، واقتداره، وسعة حكمته في أحكامه.﴿ وَهُوَ الْعَلِيُّ ﴾ بذاته، على جميع مخلوقاته، وهو العلي بعظمة صفاته، وهو العلي الذي قهر المخلوقات، ودانت له الموجودات، وخضعت له الصعاب، وذلت له الرقاب.﴿ الْعَظِيمُ ﴾ الجامع، لجميع صفات العظمة والكبرياء، والمجد والبهاء، الذي تحبه القلوب، وتعظمه الأرواح، ويعرف العارفون أن عظمة كل شيء، وإن جلت عن الصفة، فإنها مضمحلة في جانب عظمة العلي العظيم.فآية احتوت على هذه المعاني التي هي أجل المعاني، يحق أن تكون أعظم آيات القرآن، ويحق لمن قرأها، متدبرا متفهما، أن يمتلئ قلبه من اليقين والعرفان والإيمان، وأن يكون محفوظا بذلك من شرور الشيطان.﴿٢٥٦﴾ ﴿ لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ هذا بيان لكمال هذا الدين الإسلامي، وأنه لكمال براهينه، واتضاح آياته، وكونه هو دين العقل والعلم، ودين الفطرة والحكمة، ودين الصلاح والإصلاح، ودين الحق والرشد، فلكماله وقبول الفطرة له، لا يحتاج إلى الإكراه عليه؛ لأن الإكراه إنما يقع على ما تنفر عنه القلوب، ويتنافى مع الحقيقة والحق، أو لما تخفى براهينه وآياته، وإلا فمن جاءه هذا الدين، ورده ولم يقبله، فإنه لعناده.فإنه قد تبين الرشد من الغي، فلم يبق لأحد عذر ولا حجة، إذا رده ولم يقبله، ولا منافاة بين هذا المعنى، وبين الآيات الكثيرة الموجبة للجهاد، فإن الله أمر بالقتال ليكون الدين كله لله، ولدفع اعتداء المعتدين على الدين.وأجمع المسلمون على أن

---

(١) تفسير السعدي، المؤلف غير معروف ص/٧٣٥

الجهاد ماض مع البر والفاجر، وأنه من الفروض المستمرة الجهاد القولي والجهاد الفعلي.فمن ظن من المفسرين أن هذه الآية تنافي آيات الجهاد، فجزم بأنها منسوخة فقوله ضعيف، لفظا ومعنى، كما هو واضح بين لمن تدبر الآية الكريمة، كما نبهنا عليه.ثم ذكر الله انقسام الناس إلى قسمين: قسم آمن بالله وحده لا شريك له، وكفر بالطاغوت- وهو كل ما ينافي الإيمان بالله من الشرك وغيره-، فهذا قد استمسك بالعروة الوثقى، التي لا انفصام لها، بل هو مستقيم على الدين الصحيح، حتى يصل به إلى الله؛ وإلى دار كرامته.ويؤخذ القسم الثاني من مفهوم الآية، أن من لم يؤمن بالله، بل كفر به، وآمن بالطاغوت، فإنه هالك هلاكا أبديا، ومعذب عذابا سرمديا.وقوله: ﴿ وَاللَّهُ سَمِيعٌ ﴾ أي: لجميع الأصوات، باختلاف اللغات، على تفنن الحاجات، وسميع لدعاء الداعين، وخضوع المتضرعين.﴿ عَلِيمٌ ﴾ بما أكنته الصدور، وما خفي من خفايا الأمور، فيجازي كل أحد بحسب ما يعلمه، من نياته وعمله.﴿٢٥٧﴾ ﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ هذه الآية مترتبة على الآية التي قبلها، فالسابقة هي الأساس، وهذه هي الثمرة.فأخبر تعالى أن الذين آمنوا بالله، وصدقوا إيمانهم، بالقيام بواجبات الإيمان، وترك كل ما ينافيه، أنه وليهم، يتولاهم بولايته الخاصة، ويتولى تربيتهم، فيخرجهم من ظلمات الجهل والكفر والمعاصي والغفلة والإعراض، إلى نور العلم واليقين والإيمان، والطاعة والإقبال الكامل على ربهم، وينور قلوبهم بما يقذفه فيها من نور الوحي والإيمان، وييسرهم لليسرى، ويجنبهم العسرى.وأما الذين كفروا، فإنهم لما تولوا غير وليهم، ولّاهم الله ما تولوا لأنفسهم، وخذلهم، ووكلهم إلى رعاية من تولاهم، ممن ليس عنده نفع ولا ضر، فأضلوهم وأشقوهم، وحرموهم هداية العلم النافع والعمل الصالح وحرموهم السعادة، وصارت النار مثواهم، خالدين فيها مخلدين.اللهم تولنا فيمن توليت.﴿٢٥٨﴾ ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ يقص الله علينا من أنباء الرسل والسالفين، ما به تتبين الحقائق، وتقوم البراهين المتنوعة على التوحيد.." (١)

"١٩٣" لله الواحد القهار "قال بعضهم إن ذلك لأهل الجمع يوم القيامةيقول " لمن الملك اليوم " فأقر الخلائق كلهم وقالوا " لله الواحد القهار "سورة غافر ١٧ - ١٩يقول الله تعالى " اليوم تجزى كل نفس بما كسبت " يعني ما عملت في الدنيا من خير أو شر " لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب " وقد ذكرناهقوله عز وجل " وأنذرهم يوم الأزفة " يعني خوفهم بيوم القيامة فسمي الأزفة لقربهويقال أزف شخوص فلان يعني قرب كما قال " أزفت الآزفة "ثم قال " إذ القلوب لدى الحناجر " من الخوف لا تخرج ولا تعود إلى مكانها "كاظمين " يعني مغمومين يتردد خوفهم في أجوافهم " ما للظالمين " يعني المشركين " من حميم " يعني من قريب " ولا شفيع يطاع " أي له الشفاعة فيهم" يعلم خائنة الأعين " هذا موصول بقوله " لا يخفى على الله منهم شيء " وهو " يعلم خائنة الأعين "وقال أهل اللغة الخائنة والخيانة واحدة كقوله " ولا تزال تطلع على خائنة " [المائدة ١٣]وقال مجاهد " خائنة الأعين " يعني نظر العين إلى ما نهى الله عنه وقال مقاتل الغمزة فيما لا يحل له والنظرة إلى المعصيةويقال النظرة بعد النظرةوقال قتادة " يعلم خائنة الأعين " يعني يعلم غمزه بعينه وإغماضه فيما

---

(١) تفسير السعدي، المؤلف غير معروف ص/٩٥٤

لا يحب الله تعالى " وما تخفي الصدور "سورة غافر ٢٠ثم قال تعالى " والله يقضي بالحق " يحكم بالحق ويقال يأمر بما يجب الثواب به وينهى عما يجب به العقاب" والذين يدعون من دونه " يعني يعبدون من الآلهةقرأ نافع وابن عامر " تدعون " بالتاء على معنى المخاطبة والباقون بالياء على معنى الخبر عنهم" لا يقضون بشيء " يعني ليس لهم قدرة ولا يحكمون بشيء " إن الله هو السميع البصير " يعني " السميع " لمقالة الكفار " البصير " بأعمالهمسورة غافر ٢١ – ٢٢قوله تعالى " أو لم يسيروا في الأرض فينظروا " يعني فيعتبروا "كيف كان عاقبة "." (١)

"وعيني إذا استحسنت غيركم أمرت الدموع بتأديبهالأن البكاء من خشية الله يطهر المساويء «وما تخفي الصدور ١٩» يعلمه أيضا وما هو أخفى لاستواء السر والعلانية عنده ، فكل ما تضمره القلوب من خيانة أو غل أو غش أو حسد أو غيره يعلمه الله ، فافعلوا ما شئتم أيها الناس فهو لكم بالمرصاد «والله يقضي بالحق» بينكم وبينه وبينكم وبين عباده وأعدائه ، لا رجاء ولا رشاء ولا مودة ولا مكانة ولا مال ولا جاه ولا منصب ولا عشيرة «والذين يدعون من دونه» أوثانا ويعبدونها بدله أو يشركونها معه بالعبادة «لا يقضون بشي ء» لدعاتهم ولا لعبادهم في ذلك اليوم وقد كانوا في الدنيا يقضون بينهم بحق وباطل بحسب ما تهواه أنفسهم ، أما اليوم فالحكم كله لله ولا يكون إلا بالحق وهذا من قبيل التهكم فيهم ، لأن من لا يوصف بالقدرة لا يقال له يقضي أو لا يقضي ، وهذا أبلغ من جعل يقضي هنا من باب المشاكلة لأن القصد السخرية بهم لا الاستدلال على صلاحيتهم للإلهية والقضاء.واعلم أنا قد نأتي بالضمائر في مثل هذا كضمائر العقلاء موافقة لزعم عابديها ، لأن القرآن العظيم أتى بمثل ذلك لهذا الفرض «إن الله هو السميع» لأقوال خلقه «البصير ٢٠» بأفعالهم فيكافيء كلا بما يستحقه بمقتضى عمله ، وفي الآية تعريض بأن أصنامهم لا تبصر ولا تسمع ولا تعلم ولا تقدر على شي ء ،قال تعالى «أ ولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم» وكيف أهلكناهم وبقيت ديارهم خاوية «كانوا هم أشد منهم» من قومك يا سيد الرسل «قوة» على تحمل المشاق والقتال وغيره «وآثارا في الأرض» أيضا أكثر منهم لأنهم مكثوا فيها وعمروا أكثر منهم كما يعلم من المعالم المتروكة عنهم وأطلال ديارهم ،(٥٧٦/٣)بيان المعاني ، ج ٣ ، ص : ٥٧٧." (٢)

"بيان المعاني ، ج ٣ ، ص : ٥٧٦و اعلموا أيها الناس أن ذلك الإله الجليل الذي ستعرضون عليه في ذلك اليوم «يعلم خائنة الأعين» استراق النظر من أحدنا إلى ما لا يحل ، فكل نظرة لما نهى الله عنه تسمى خائنة يحاسب عليها العبد ، ألا فليتق الله الإنسان وليصرف نظره عن المحارم إلى ما أحل الله والتفكر في ملكوته والتملي من كتابه ، ولا يستحسن إلا الحسن الجائز له أن يستحسنه ، قال بعض العارفين : وعيني إذا استحسنت غيركم أمرت الدموع بتأديبهالأن البكاء من خشية الله يطهر المساويء «وما تخفي الصدور ١٩» يعلمه أيضا وما هو أخفى لاستواء السر والعلانية عنده ، فكل ما تضمره القلوب من خيانة أو غل أو غش أو حسد أو غيره يعلمه الله ، فافعلوا ما شئتم أيها الناس فهو لكم بالمرصاد «والله يقضي بالحق» بينكم وبينه وبينكم وبين عباده وأعدائه ، لا رجاء ولا رشاء ولا مودة ولا مكانة ولا مال ولا جاه ولا منصب

---

(١) بحر العلوم ـ موافق للمطبوع، المؤلف غير معروف ١٩٣/٣

(٢) بيان المعاني، المؤلف غير معروف ٥١/١

ولا عشيرة «والذين يدعون من دونه» أوثانا ويعبدونها بدله أو يشركونها معه بالعبادة «لا يقضون بشي ء» لدعاتهم ولا لعبادهم في ذلك اليوم وقد كانوا في الدنيا يقضون بينهم بحق وباطل بحسب ما تهواه أنفسهم ، أما اليوم فالحكم كله لله ولا يكون إلا بالحق وهذا من قبيل التهكم فيهم ، لأن من لا يوصف بالقدرة لا يقال له يقضي أو لا يقضي ، وهذا أبلغ من جعل يقضي هنا من باب المشاكلة لأن القصد السخرية بهم لا الاستدلال على صلاحيتهم للإلهية والقضاء. واعلم أنا قد نأتي بالضمائر في مثل هذا كضمائر العقلاء موافقة لزعم عابديها ، لأن القرآن العظيم أتى بمثل ذلك لهذا الفرض «إن الله هو السميع» لأقوال خلقه «البصير ٢٠» بأفعالهم فيكافيء كلا بما يستحقه بمقتضى عمله ، وفي الآية تعريض بأن أصنامهم لا تبصر ولا تسمع ولا تعلم ولا تقدر على شي ء ، قال تعالى «أ ولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم» وكيف أهلكناهم وبقيت ديارهم خاوية «كانوا هم أشد منهم» من قومك يا سيد الرسل «قوة» على تحمل المشاق والقتال وغيره «وآثارا في الأرض» أيضا أكثر منهم لأنهم مكثوا فيها وعمروا أكثر منهم كما يعلم من المعالم المتروكة عنهم وأطلال ديارهم ، ." (١)

"وليعلم أن المراد بالغيب مما هو من جانب العبد لا سيده، كما في الحديث في الإحسان "أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك" وهذا الإحساس هو أقوى عامل على اكتساب خشية الله سبحانه. قوله تعالى؟: ﴿وأسروا قولكم أو ؟جهروا به إنه عليم بذات ؟لصدور﴾. فيه دلالة على أن السر والجهر عند الله وفي علم الله على حد سواء، لأنه عليم بذات الصدور يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور.وقوله تعالى؟: ﴿سوآء منكم من أسر ؟لقول ومن جهر به﴾.وقوله: ﴿وإن تجهر ب؟لقول فإنه يعلم ؟لسر وأخفى﴾.وتقدم الشيخ عند كل من الآيتين بيان هذه الآية.وقد تقدم قوله تعالى؟: ﴿قد سمع ؟لله قول ؟لتى تجادلك فى زوجها وتشتكى؟ إلى ؟لله﴾.وقوله تعالى؟: ﴿ولقد خلقنا ؟لإنس؟ن ونعلم ما توسوس به نفسه﴾.وتقدم في سورة التحريم قبل هذه السورة مباشرة قوله تعالى؟: ﴿وإذ أسر ؟لنبى إلى؟ بعض أزو؟جه حديثا فلما نبأت به وأظهره ؟لله عليه﴾، ففيه بيان عملي مشاهد بأنه تعالى يعلم السر وأخفى، ولذا قال تعالى هنا ﴿ألا يعلم من خلق وهو ؟للطيف ؟لخبير﴾.كما قال في سورة التحريم: ﴿قالت من أنبأك ه؟ذا قال نبأنى ؟لعليم ؟لخبير﴾.." (٢)

"فالجمهور: لا يحلف، ورجح ابن القيم جوازه فيما تقبل شهادته للضرورة كالمرأة الواحدة، والكافر في السفر، ومدار قبول الشهادة على الطمأنينة لصدق الشاهد، وذلك يدور على أصلين:الأول: هو الضابط كما في قوله تعالى؟: ﴿أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما ؟لاخرى؟﴾.والثانية: العدالة كما في قوله تعالى؟ ﴿إن جآءكم فاسق بنبإ فتبينو؟ا﴾ والعلم عند الله تعالى.وللشهادة مباحث عديدة اكتفينا بما أوردنا.وقد بحث ابن القيم رحمه الله مباحث الشهادة من حيث العدد والموضوع في كتاب الطرق الحكمية.تنبيهللشهادة علاقة باليمين في الحكم، وذلك في قوله صلى الله عليه وسلم "شاهدان أو يمينه".فما هي تلك العلاقة، وبين هذه العلاقة قوله تعالى؟: ﴿قل أى شىء أكبر شه؟دة قل ؟لله شهيد بينى وبينكم﴾، وقوله ﴿أولم يكف بربك أنه على؟ كل شىء شهيد﴾، وقوله: ﴿وكنا لحكمهم ش؟هدين﴾، وقوله: ﴿هو أعلم بما تفيضون فيه كفى؟ به

---

(١) بيان المعاني، المؤلف غير معروف ٥٧٦/٣

(٢) تتمة أضواء البيان للشيخ عطية محمد سالم، المؤلف غير معروف ٣٣٢/١

شهيدا بيني وبينكم﴾ ونحو ذلك من الآيات، لأنه تعالى: شاهد ومطلع على أحوال العباد لا تخفى عليه خافية، يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، فإذا أعوز المدعي شاهدا حلف مع الشاهد كأنه قال: أستشهد بالله الذي يعلم مني صدق دعواي.وكذلك المدعى عليه إذا عجز المدعي عن البينة وكانت الدعوى متوجهة، ومما يشبه، كما يقول المالكية: فإن المدعى عليه يقول لدى البينة والشهادة على عدم ثبوت ما ادعى به على ألا، وهو خير الشاهدين.من هو أكبر شهادة مما عجز عنها المدعي ألا وهو الاستشهاد بالله تعالى،فيحلف على براءة ذمته مما ادعى به عليه.تنبيه." (١)

"﴿ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ الأعين وَمَا تُخْفِي الصدور ﴾ [غافر : ١٩] .ثم أكد تعالى الأمر للمؤمنات بغض البصر وحفظ الفرج وزادهنّ في التكليف على الرجال بالنهي عن إبداء الزينة إلا للمحارم والأقرباء فإن ذلك أولى بهن وأجمل إلا إذا ظهرت هذه الزينة بدون قصد ولا نية سيئة فلا إثم عليهن فالله غفور رحيم .وقد كانت المرأة في الجاهلية كما هي اليوم – في الجاهلية الحديثة – تمر بين الرجال مكشوفة الصدر ، بادية النحر ، حاسرة الذراعين ، وربما أظهرت مفاتن جسمها وذوائب شعرها لتغري الرجال ، وكنَّ يسدلن الخمر من ورائهن فتبقى صدورُهنّ مكشوفة عارية فأمرت المؤمنات بأن يسدلنها من قدامهن حتى يغطينها ويدفعن عنهن شر الأشرار ، وأمرن بألاّ يضربن بأرجلهن الأرض لئلا يسمع الرجال صوت الخلخال فيطمع الذي في قلبه مرض .ثم ختم تعالى تلك الأوامر والنواهي بالأمر (للرجال والنساء) جميعاً بالإنابة والرجوع إلى الله لينالوا درجة السعداء ، ويكونوا عند الله من الفائزين الأبرار .سبب النزولأولاً : أخرج ابن مردويه عن علي بن أبي طالب B قال : مر رجل على عهد رسول الله A في طريق من طرقات المدينة ، فنظر إلى امرأة ونظرت إليه ، فوسوس لهما الشيطان أنه لم ينظر أحدهما إلى الآخر إلا إعجاباً به ، فبينما الرجل يمشي إلى جانب حائط ينظر إليها إذ استقبله الحائط (صُدم به) فشق أنفه ، فقال : والله لا أغسل الدم حتى آتي رسول الله A فأعلمه أمري؟ فأتاه فقصّ عليه قصته ، فقال النبي A (هذا عقوبة ذنبك) وأنزل الله : ﴿ قُلْ لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَارِهِمْ . . . ﴾ الآية .ثانياً : وروى ابن كثير C ، عن مقاتل بن حيان ، عن جابر بن عبد الله الأنصاري قال : (بلغنا – والله أعلم – أن جابر بن عبد الله الأنصاري حدّث أن أسماء بنت مرثد كانت في نخل لها في بني حارثة ، فجعل النساء يدخلن عليها غير مؤتزرات فيبدو ما في أرجلهن يعني الخلاخل ، ويبدوا صدروهن وذوائبهن ، فقالت أسماء : ما أقبح هذا؟ فأنزل الله في ذلك ﴿ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ . . . ﴾ الآية .لطائف التفسيراللطيفة الأولى : السر في تقديم غض البصر على حفظ الفروج هو أن النظر بريد الزنى ورائد الفجور وهو مقدمة للوقوع في المخاطر كما قال الحماسي :." (٢)

"ما هم عليه من الدين بعد نسخه وتحريفه.وقوله: ﴿وأنتم شهداء﴾ حال أيضا توازن الحال في قوله قبلها: ﴿والله شهيد على ما تعملون﴾ ومعناه وأنتم عالمون أنها سبيل الله. وقد أحالهم في هذا الكلام على ما في ضمائرهم مما لا يعلمه إلا الله لأن ذلك هو المقصود من وخز قلوبهم، وانثنائهم باللائمة على أنفسهم، ولذلك عقبه بقوله: ﴿وما الله بغافل عما تعملون ﴾ وهو وعيد وتهديد وتذكير لأنهم يعلمون أن الله يعلم ما تخفي الصدور وهو بمعنى قوله في موعظتهم السابقة ﴿والله

---

(١) تتمة أضواء البيان للشيخ عطية محمد سالم، المؤلف غير معروف ١/٤٠٩

(٢) تفسير آيات الأحكام، المؤلف غير معروف ص/٣٦٥

شهيد على ما تعملون﴾ إلا أن هذا أغلظ في التوبيخ لما فيه من إبطال اعتقاد غفلته سبحانه، لأن حالهم كانت بمنزلة حال من يعتقد ذلك.﴿يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين[١٠٠] وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله ومن يعتصم بالله فقد هدي إلى صراط مستقيم﴾ [١٠١].إقبال على خطاب المؤمنين لتحذيرهم من كيد أهل الكتاب وسوء دعائهم المؤمنين، وقد تفضل الله على المؤمنين بأن خاطبهم بغير واسطة خلاف خطابه أهل الكتاب إذ قال ﴿قل يا أهل الكتاب﴾ [آل عمران: ٩٨] ولم يقل: قل يا أيها الذين آمنوا.والفريق: الجماعة من الناس، وأشار به هنا إلى فريق من اليهود وهم شاس ابن قيس وأصحابه، أو أراد شاسا وحده، وجعله فريقا كما جعل أبا سفيان ناسا في قوله ﴿إن الناس قد جمعوا لكم﴾ وسياق الآية مؤذن بأنها جرت على حادثة حدثت وأن لنزولها سببا. وسبب نزول هذه الآية: أن الأوس والخزرج كانوا في الجاهلية قد تخاذلوا وتحاربوا حتى تفانوا، وكانت بينهم حروب وآخرها يوم بعاث التي أنتهت قبل الهجرة بثلاث سنين، فلما اجتمعوا على الإسلام زالت تلك الأحقاد من بينهم وأصبحوا عدة لإسلام، فساء ذلك يهود يثرب فقام شاس بن قيس اليهودي، وهو شيخ قديم منهم، فجلس إلى الأوس والخزرج، أو أرسل إليهم من جلس إليهم يذكرهم حروب بعاث، فكادوا أن يقتتلوا، ونادى كل فريق: يا للأوس ويا للخزرج وأخذوا السلاح، فجاء النبي صلى الله عليه وسلم فدخل بينهم وقال: "أتدعون الجاهلية وأنا بين أظهركم؟" وفي رواية: "أبدعوى الجاهلية؟" أي أتدعون بدعوى الجاهلية وقرأ هذه الآية، فما فرغ منها حتى ألقوا السلاح، وعانق بعضهم بعضا، قال جابر بن عبد الله: ما كان طالع أكره إلينا من طلوع رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما أصلح الله بيننا." (١)

"بخيل إلا سيذهب ويترك ماله، والمتصرف في ذلك كله هو الله،فهو يرث السماوات والأرض، أي يستمر ملكه عليهما بعد زوال البشر كلهم المنتفعين ببعض ذلك، وهو يملك ما في ضمنها تبعا لهما، وهو عليم بما يعمل الناس من بخل وصدقة، فالآية موعظة ووعيد ووعد لأن المقصود لازم قوله: ﴿خبير﴾ .﴿لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء سنكتب ما قالوا وقتلهم الأنبياء بغير حق ونقول ذوقوا عذاب الحريق[١٨١] ذلك بما قدمت أيديكم وأن الله ليس بظلام للعبيد﴾ [١٨٢].استئناف جملة ﴿لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء﴾ لمناسبة ذكر البخل لأنهم قالوه في معرض دفع الترغيب في الصدقات، والذين قالوا ذلم هم اليهود، كما هو صريح آخر الآية في قوله: ﴿وقتلهم الأنبياء بغير حق﴾ ، وقائل ذلك: قيل هو حيي بن أخطب اليهودي، حبر اليهود، لما سمع قوله تعالى: ﴿من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا﴾ [البقرة: ٢٤٥] فقال حيي: إنما يستقرض الفقير الغني، وقيل: قاله فنحاص بن عازوراء لأبي بكر الصديق بسبب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أرسل أبا بكر إلى يهود يدعوهم، فأتى بيت المدراس فوجد جماعة منهم قد اجتمعوا على فنحاص حبرهم، فدعاهم أبو بكر، فقال فنحاص: ما بنا إلى الله من حاجة، وإنه إلينا لفقير ولم كان غنيا لما استقرضنا أموالنا كما يزعم صاحبكم، فغضب أبو بكر ولطم فنحاص وهم بقتله، فنزلت الآية. وشاع قولهما في اليهود.وقوله: ﴿لقد سمع الله﴾ تهديد، وهو يؤذن بأن هذا القول جراءة عظيمة، وإن كان القصد منها التعريض ببطلان كلام القرآن، لأنهم أتوا بهاته العبارة بدون محاشاة، ولأن الاستخفاف بالرسول وقرآنه إثم عظيم وكفر على كفر، ولذلك قال تعالى: ﴿لقد سمع﴾

---

(١) التحرير والتنوير، المؤلف غير معروف ١٧١/٣

المستعمل في لازم معناه، وهو التهديد على كلام فاحش، إذ قد علم أهل الأديان أن الله يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، فليس المقصود إعلامهم بأن الله علم ذلك لازمه وهو مقتضى قوله: ﴿سنكتب ما قالوا﴾ . والمراد بالكتابة إما كتابته في صحائف آثامهم إذ لا يخطر ببال أحد أن يكتب في صحائف الحسنات، وهذا بعيد، لأن وجود علامة الاستقبال يؤذن بأن الكتابة أمر يحصل فيما بعد. فالظاهر أنه أريد من الكتابة عدم الصفح عنه ولا العفو بل سيثبت لهم ويجاوزون عنه فتكون الكتابة كناية عن المحاسبة. فعلى الأول يكون وعيدا وعلى الثاني يكون تهديدا.." (١)

"ليشفعوا لهم عند الله فلا يلفون صديقا ولا شفيعا. والحميم: المحب المشفق.والتعريف في ﴿الظالمين﴾ للاستغراق ليعم كل ظالم، أي مشرك فيشمل الظالمين المنذرين، ومن مضى من أمثالهم فيكون بمنزلة التذييل ولذلك فليس ذكر الظالمين من الإظهار في مقام الإضمار.ووصف ﴿شفيع﴾ بجملة ﴿يطاع﴾ وصف كاشف إذ ليس أن المراد لهم شفعاء لا تطاع شفاعتهم لظهور قلة جدوى ذلك ولكن لما كان شأن من يتعرض للشفاعة أن يثق بطاعة المشفوع عنده له.وأتبع ﴿شفيع﴾ بوصف ﴿يطاع﴾ لتلازمهما عرفا فهو من إيراد نفي الصفة اللازمة للموصوف. والمقصود: نفي الموصوف بضرب من الكناية التمليحية كقول ابن أحمر:ولا ترى الضب بها ينجحر١أي لا ضب فيها فينجر، وذلك يفيد مفاد التأكيد.والمعنى: إن الشفيع إذا لم يطع فليس بشفيع. والله لا يجترىء أحد على الشفاعة عنده إلا إذا أذن له فلا يشفع عنده إلا من يطاع.[١٩] ﴿يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور﴾يجوز أن تكون جملة ﴿يعلم خائنة الأعين﴾ خبرا عن مبتدأ محذوف هو ضمير عائد إلى أسم الجلالة من قوله: ﴿إن الله سريع الحساب﴾ [غافر: ١٧]على نحو ما قرر قبله في قوله: ﴿رفيع الدرجات﴾ [غافر: ١٥]. ومجموع الظاهر والمقدر استئناف للمبالغة في الإنذار لأنهم إذا ذكروا بأن الله يعلم الخفايا كان إنذار بالغا يقتضي الحذر من كل اعتقاد أو عمل نهاهم الرسول صلى الله عليه وسلم عنه، فبعد أن أيأسهم من أن يتوهموا أنهم يستطيعون إخفاء شيء من نواياهم أو أدنى حركات أعمالهم على ربهم.ويجوز أن تكون خبرا ثانيا عن اسم. ويجوز أن تكون خبرا ثانيا عن اسم ﴿إن﴾ في قوله: ﴿إن الله سريع الحساب﴾ [غافر: ١٧]، وما بينهما اعتراض كما مر على كلا التقديرين.ـ١ أوله: لا تفزع الأرنب أهوالهايصف مفازة قاحلة لا ضب فيها ولا أرنب.." (٢)

"و ﴿خائنة الأعين﴾ مصدر مضاف إلى فاعله فالخائنة مصدر على وزن اسم الفاعل مثل العافية للمعافاة، والعاقبة، والكاذبة في قوله تعالى: ﴿ليس لوقعتها كاذبة﴾ [الواقعة: ٢]ويجوز إبقاء ﴿خائنة﴾ على ظاهر اسم الفاعل فيكون صفة لموصف محذوف دل عليه ﴿الأعين﴾ ، أي يعلم نظرة الأعين الخائنة.وحقيقة الخيانة: عمل من أؤتمن على شيء بضد ما أؤتمن لأجله بدون علم صاحب الأمانة، ومن ذلك نقض العهد بدون إعلان بنبده. ومعنى ﴿خائنة الأعين﴾ خيانة النظر، أي مسارقة النظر لشيء بحضرة من لا يحب النظر إليه. فإضافة ﴿خائنة﴾ إلى ﴿الأعين﴾ من إضافة الشيء إلى آلته كقولهم: ضرب السيف.والمراد بـ ﴿خائنة الأعين﴾ النظرة المقصودة منها إشعار المنظور إليه بما يسوء غيرها الحاضر استهزاء به أو إغراء به. وإطلاق الخائنة بمعنى الخيانة على هذه النظرة استعارة مكنية، شبه الجليس بالحليف في أنه لما جلس إليك أو

---

(١) التحرير والتنوير، المؤلف غير معروف ٢٩٧/٣

(٢) التحرير والتنوير، المؤلف غير معروف ١٧٣/٢٤

جلست إليه فكأنه عاهدك على السلامة، ألا ترى أن المجلسة يتقدمها السلام وهو في الأصل إنباء بالمسالمة فإذا نظرت إلى آخر غيركما نظرا خفيا لإشارة إلى ما لا يرضي الجليس من استهزاء أو إغراء فكأنك نقضت العهد المدخول عليه بينكما، فإطلاق الخيانة على ذلك تفظيع له، ويتفاوت قرب التشبيه بمقدار تفاوت ما وقعت النظرة لأجله في الإساءة وآثار المضرة. ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم: "مايكون لنبي أن تكون له خائنة الأعين" ، أي لا تصدر منه.و ﴿ وما تخفي الصدور﴾ النوايا والعزائم التي يضمرها صاحبها في نفسه، فأطلق الصدر على ما يكن الأعضاء الرئيسية على حسب اصطلاح أصحاب اللغة.[٢٠] ﴿والله يقضي بالحق والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء إن الله هو السميع البصير﴾ كان مقتضى الظاهر أن يؤتى بجملة ﴿يقضي بالحق﴾ معطوفة بالواو على جملة ﴿يعلم خائنة الأعين﴾ [غافر: ١٩]فيقال: ويقضي بالحق ولكن عدل عن ذلك لما في الاسم العلم لله تعالى من الإشعار بما يقتضيه المسمى به من صفات الكمال التي منها العدل في القضاء، ونظيره في الإظهار في مقام الإضمار قوله تعالى: ﴿أولم يروا أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها والله يحكم لا معقب لحكمه﴾ [الرعد: ٤١]. وليحصل من تقديم المسند إليه على المسند الفعلي تقوي المعنى، ومنه قوله تعالى: ﴿إن الذين كفروا." (١)

"ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون والذين كفروا إلى جهنم يحشرون﴾ [الأنفال: ٣٦]أعيد الموصول ولم يؤت بضميره ﴿الذين كفروا﴾ ليفيد تقديم الاسم على الفعل تقوي الحكم.والجملة من تمام الغرض الذي سيقت إليه جملة ﴿يعلم خائنة الأعين ﴾ [غافر: ١٩]كما تقدم، وكلتاهما ناظرة إلى قوله: ﴿ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع ﴾ [غافر: ١٨]أي أن ذلك من القضاء بالحق.وأما جملة ﴿والذين تدعون من دونه لا يقضون بشيء﴾ فناظرة إلى جملة ﴿ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع﴾ [غافر: ١٨]فبعد أن نفي عن أصنامهم الشفاعة، نفي عنها القضاء بشيء ما بالحق أو بالباطل وذلك إظهار لعجزها.ولا تحسبن جملة ﴿والذين تدعون من دونه لا يقضون بشيء﴾ مسوقة ضميمة إلى جملة ﴿والله يقضي بالحق﴾ ليفيد مجموع الجملتين قصر القضاء بالحق على الله تعالى قصر قلب، أي دون الأصنام، كما أفيد القصر من ضم الجملتين في قول السموأل أو عبد الملك الحارثي:تسيل على حد الظبات نفوسنا ... وليست على غير الظبات تسيلالأن المنفى عن آلهتهم أعم من المثبت لله تعالى، وليس مثل ذلك مما يضاد صيغة القصر لكفى في إفادته تقديم المسند إليه على الخبر الفعلي بحمله على إرادة الاختصاص في قوله: ﴿والله يقضي بالحق﴾ . فالمراد من قوله: ﴿والذين تدعون من دونه لا يقضون بشيء﴾ التذكير بعجز الذين يدعونهم وأنهم غير أهل للإلهية وهذه طريقة في إثبات صفة لموصوف ثم تعقيب ذلك بإظهار نقيضه فيما يعد مساويا له كما في قول أمية بن أبي الصلت:تلك المكارم لا قعبان من لبن ... شيبا بماء فصار فيما بعد أبوالاوإلا لما كان لعطف قوله: لا قعبان من لبن، مناسبة.والدعاء يجوز أن يكون بمعنى النداء وأن يكون بمعنى العبادة كما تقدم آنفا.وجملة ﴿إن الله هو السميع البصير﴾ مقررة لجمل ﴿يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور﴾ إلى قوله: ﴿لا يقضون بشيء﴾ [غافر: ٢٠,١٩]. فتوسط ضمير الفصل مفيد للقصر وهو تعريض بأن آلهتهم لا تسمع ولا تبصر فكيف ينسبون إليها الإلهية، واثبات المبالغة في السمع والبصر لله تعالى يقرر معنى ﴿يقضي

(١) التحرير والتنوير، المؤلف غير معروف ١٧٤/٢٤

بالحق﴾ لأن العالم بكل شيء تتعلق حكمته بإرادة الباطل ولا تخطيء أحكامه بالعثار في الباطل، وتأكيد الجملة بحرف." (١)

"يقول الحق جل جلاله : ﴿قل للمؤمنين﴾ ، ويندرج فيهم المستأذنون بعد دخولهم البيوت اندراجا أوليا ، أي : قل لهم : ﴿يغضوا من أبصارهم﴾ ، و " من " : للتبعيض ، والمراد : غض البصر عما يحرم ، والاقتصار على ما يحل. ووجه المرأة وكفاها ليس بعورة ، إلا خوف الفتنة ، فيحل للرجل الصالح أن يرى وجه الأجنبية بغير شهوة. وفي الموطأ : هل تأكل المرأة مع غير ذي محرم ، أو مع غلامها ؟ قال مالك : لا بأس بذلك ، على وجه ما يعرف للمرأة أن تأكل معه من الرجال ، وقد تأكل المرأة مع زوجها ومع غيره ممن يؤاكله. هـ. وقال ابن القطان : فيه إباحة إبداء المرأة وجهها ويديها للأجنبي ، إذ لا يتصور الأكل إلا هكذا ، وقد أبقاه الباجي على ظاهره ، وقال عياض : ليس بواجب أت تستر المرأة وجهها ، وإنما ذلك استحباب أو سنة لها ، وعلى الرجل غض بصره. ثم قال في الإكمال : ولا خلاف أن فرض ستر الوجه مما اختص به أزواج النبي صلى الله عليه وسلم. هـ.﴿و﴾ قل لهم أيضا : ﴿يحفظوا فروجهم﴾ ، إلا على أزواجهم ، أو ما ملكت إيمانهم ، وتقييد الغض بمن التبعيضية ، دون حفظ الفروج ؛ لما في النظر من السعة ، فيجوز النظر إلى وجه الأجنبية وكفيها وقدميها ، وإلى رأس المحارم والصدور والساقين والعضدين. قاله النسفي. قلت : ومذهب مالك : حرمة نظر الساقين والعضدين من المحرم ، فإن تعذر التحرر منه ، كشغل البنات في الدار ، باديات الأرجل ، فليتمسك بقول الحنفي ، إن لم يقدر على غض بصره. قاله شيخنا الجنوي.﴿جزء : ٥ رقم الصفحة : ٦٧ذلك أزكى لهم﴾ أي : أطهر لهم من دنس الإثم أو الريبة ، ﴿إن الله خبير بما يصنعون﴾ ، وفيه ترغيب وترهيب ، يعني : أنه خبير بأحوالهم وأفعالهم ، فكيف يجيلون أبصارهم ، وهو يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور ؟ ! فعليهم ، إذا عرفوا ذلك ، أن يكونوا منه على حذر.." (٢)

"﴿يعلم خائنة الأعين﴾ أي : النظرة الخائنة ، كاستراق النظر إلى ما لا يحل. قيل : فيه تقديم وتأخير ، أي : الأعين الخائنة ، وقيل : مصدر ، كالعافية ، أي : خيانة الأعين. قال ابن عباس رضي الله عنه : هو الرجل يكون جالسا مع القوم ، فتمر المرأة ، فيسارقهم النظر إليها. هـ. وقال ابن عطية : متصل بقوله : ﴿سريع الحساب﴾ ، فيحاسب على خيانة الأعين ، وقالت فرقة : متصل بقوله : ﴿لا يخفى على الله منهم شيء﴾ ، وهذا حسن ، يقويه تناسب المعنيين ، ويبعده بعد الآية من الآية ، وكثرة الحائل. والحاصل : أنه متصل بما تقدم من ذكر الله ووصفه ، واعترض في أثناء ذلك بوصف القيامة لما استطرد إليه من قوله : ﴿لينذر يوم التلاق﴾ الآية. قاله المحشي. ﴿و﴾ يعلم ﴿ما تخفي الصدور﴾ أي : ما تكنه من خيانة وأمانة. وقيل : هو أن ينظر إلى أجنبية بشهوة مسارقة ، ثم يتفكر بقلبه في جمالها ، ولا يعلم بنظرته وفكرته من حضره ، والله يعلم ذلك كله.﴿جزء : ٦ رقم الصفحة : ٢٩٨." (٣)

"والله يقضي بالحق﴾ أي : ومن هذه صفاته لا يقضي إلا بالعدل ، فيجازي كلا بما يستحقه ؛ إذ لا يخفى عليه خفي ولا جلي ، ﴿والذين يدعون﴾ ؛ يعبدونهم ﴿من دونه﴾ من الآلهة ﴿لا يقضون بشيء﴾ ، وهذا تهكم بهم ؛ لأن

---

(١) التحرير والتنوير، المؤلف غير معروف ١٧٥/٢٤

(٢) البحر المديد . موافق للمطبوع، المؤلف غير معروف ١٠٥/٥

(٣) البحر المديد . موافق للمطبوع، المؤلف غير معروف ٤٥٢/٦

الجماد الذي لا يعقل لا يقال فيه : يقضي ولا يقضي ، وقرأ نافع بالخطاب ؛ أو : على إضمار " قل " ، ﴿إن الله هو السميع البصير﴾ ؛ تقرير لقوله : ﴿يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور﴾ ووعيد لهم ؛ لأنه يسمع ما يقولون ، ويبصر ما يعملون ، وأنه يعاقبهم عليه ، وتعريض بما يدعون من دون الله ، بأنها لا تسمع ولا تبصر. الإشارة : قال القشيري : قيامة الكل مؤجلة ، وقيامة المحبين معجلة ، في كل نفس من العتاب والعذاب ، والبعاد والاقتراب ، ما لم يكن في حساب ، وشهادة الأعضاء بالدمع تشهد ، وخفقان القلب ينطق ، والنحول يخبر ، واللون يفضح ، والعبد يستر ، ولكن البلاء يظهر ، قال : يا من تغير صورتي لما بداالجميع ما ظنوا بنا تحقيقوقوله تعالى : ﴿إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين﴾ ، هو في حق من فاته التأهب والترقي في هذه الدار ، فتحسر حين يعاين مقامات الرجال ، وليس له شفيع يرقيه ، ولا حميم يصافيه. وقوله تعالى : ﴿يعلم خائنة الأعين﴾ هو في حق العارفين : النظر إلى السوى بعين الاستحسان. قال القشيري : خائنة الأعين هي من المحبين استحسانهم شيئا . أي : من السوى . وأنشدوا : ٢٩٩يا قرة العين : سل عيني هل اكتحلتبمنظر حسن مذ غبت عن عيني ؟ وأنشد أيضا : وعيني إذا استحسنت غيركمأمرت الدمع بتأديبهاقلت : ومثله قول الشاعر : وناظر في سوى معناك حق لهيقتص من جفنه بالدمع وهو دم>> والسمع إن حال فيه ما يحدثهسوى حديثك ، أمسى وقره الصمم." (١)

"٨٧٢- من هدي القرآن للتي هي أقوم: ذكر أوصاف هائلة في يوم القيامة تصطك منها المسامع وتشيب من هولها الولدان، يوم يعظم فيه الخوف تصل القلوب فيه إلى الحناجر من الروع والفزع والكرب والدهشة، وهم كاظمون لأنفاسهم وآلامهم ومخاوفهم، والكظم يكربهم ويثقل صدورهم، قال الله جل وعلا: ﴿ يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والأبصار ﴾ ، وقال الله تعالى: ﴿ وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع ﴾ ، وقال جل وعلا: ﴿ فكيف تتقون إن كفرتم يوما يجعل الولدان شيبا * السماء منفطر به كان وعده مفعولا ﴾ ، وقال: ﴿ إنا نخاف من ربنا يوما عبوسا قمطريرا ﴾ ، وقال: ﴿ فإذا نقر في الناقور * فذلك يومئذ يوم عسير ﴾ .٨٧٣- من هدي القرآن للتي هي أقوم: ذكر الأدلة والبراهين على شمول علم الله بالدقيق والجليل والتنبيه على مقام المراقبة، فيكون على حذر من المعاصي، وللاجتهاد فيما يرضي الله، قال الله تعالى: ﴿ يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور ﴾ ، وقال: ﴿ وأن الله قد أحاط بكل شيء علما ﴾ ، وقال: ﴿ أن الله بكل شيء عليم ﴾ ، وقال: ﴿ وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين ﴾ .٨٧٤، ٨٧٥، ٨٧٦- من هدي القرآن للتي هي أقوم: الحث على السير في الأرض؛ للاعتبار، والتذكير، والانزجار عن المعاصي.ثانيا: بيان السبب في أخذ الله الأمم المتقدمة، وذلك لكفرهم وتكذيبهم للرسل.." (٢)

"قال الله تعالى: ﴿ يمنون عليك أن أسلموا قل لا تمنوا علي إسلامكم بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان إن كنتم صادقين * إن الله يعلم غيب السموات والأرض والله بصير بما تعملون ﴾ ، وقال: ﴿ يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور

---

(١) البحر المديد . موافق للمطبوع، المؤلف غير معروف ٤٥٣/٦

(٢) الأنوار الساطعات لآيات جامعات، المؤلف غير معروف ٢٠٤/٣

۞ .١١٥٣، ١١٥٤– من هدي القرآن للتي هي أقوم: التنبيه على قدرة الله العظيمة وحكمته وعلمه المحيط بكل شيء.ثانيا: الحث على النظر في آيات الله الأفقية، السماء والأرض، والتأمل في إتقانهما وإحكامهما لا ترى فيهما عيبا ولا فروجا ولا خللا.والاستدلال بها على صدق ما أخبرت به رسل الله من البعث و الحساب والجزاء على الأعمال.." [١]

"تعليق على آية فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَ لَوْ كَرِهَ الْكافِرُونَ (١٤)و في الآية [١٤] تكرار للأوامر الربانية التي تكررت في السورة السابقة بعبادة الله وحده و إخلاص الدين له مع زيادة ذات مغزى و هي حث النبي صلى الله عليه و سلم و المؤمنين على ذلك و لو أغاظ الكفار و كرهوه. حيث قد يفيد هذا أن الأوامر الربانية الأولى قد أغاظت الكفار و جعلتهم ييأسون من تراجع النبي صلى الله عليه و سلم عن موقفه تجاه شركهم و تقاليدهم. و حيث قد يكون قرينة أخرى على صحة ترتيب نزول هذه السورة بعد السورة السابقة.و لقد أورد ابن كثير في سياق هذه الآية حديثا رواه الإمام أحمد عن عبد الله بن الزبير أنه كان يقول دبر كلّ صلاة حين يسلّم: لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك و له الحمد و هو على كلّ شي ء قدير لا حول و لا قوة إلّا بالله، لا إله إلا الله، و لا نعبد إلّا إيّاه، له النعمة و له الفضل و له الثناء الحسن، لا إله إلّا الله مخلصين له الدين و لو كره الكافرون. و كان يقول: إنّ رسول الله صلى الله عليه و سلم كان يهلّل بهذه الكلمات دبر كلّ صلاة. حيث ينطوي في الحديث صورة من صور التعليم النبوي المستلهم من الآيات القرآنية بسبيل إعلان الإخلاص له وحده.التفسير الحديث، ج ٤، ص: ٣٦١[سورة غافر (٤٠): الآيات ١٨ الى ٢٠]وَ أَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَناجِرِ كاظِمِينَ ما لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَ لا شَفِيعٍ يُطاعُ (١٨) يَعْلَمُ خائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَ ما تُخْفِي الصُّدُورُ (١٩) وَ اللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لا يَقْضُونَ بِشَيْ ءٍ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (٢٠). (١) الآزفة: القريبة أو التي تسوق الناس و تزفهم بالسرعة. و هي كناية عن الساعة أو يوم القيامة.(."[٢]

"و قوله تعالى : « فالحكم لله العلي الكبير » إشارة إلى أن الحكم المسلط عليهم الآن ، هو حكم الله ، العلى الكبير ، الذي لا يشاركه أحد فى علوه ، ومقامه ، وسلطانه .. فإذا كان لآلهتهم التي أضافوها إلى الله ، وأشركوها معه . إذا كان لهذه الآلهة شى ء مع الله ، فليطلبوا إليها هذا الذي يطلبون اليوم من الله .. وإنه لضلال فى منطقهم أن يشركوا آلهتهم مع الله فى الدنيا ، ثم لا يشركوهم معه فى الآخرة ، لينفذوهم من النار التي يساقون إليها .. التفسير القرآني للقرآن ، ج ١٢ ، ص : ١٢١٣الآيات : (١٣ ـ ٢٠) [سورة غافر (٤٠) : الآيات ١٣ الى ٢٠]هو الذي يريكم آياته و ينزل لكم من السماء رزقا و ما يتذكر إلا من ينيب (١٣) فادعوا الله مخلصين له الدين و لو كره الكافرون (١٤) رفيع الدرجات ذو العرش يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده لينذر يوم التلاق (١٥) يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شي ء لمن الملك اليوم لله الواحد القهار (١٦) اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب (١٧)و أنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ما للظالمين من حميم و لا شفيع يطاع (١٨) يعلم خائنة الأعين و ما تخفي

---

(١) الأنوار الساطعات لآيات جامعات، المؤلف غير معروف ٣/٢٦٤

(٢) التفسير الحديث، المؤلف غير معروف ص/٢٥٦٥

الصدور (١٩) و الله يقضي بالحق و الذين يدعون من دونه لا يقضون بشي ء إن الله هو السميع البصير (٢٠)التفسير : قوله تعالى : «هو الذي يريكم آياته و ينزل لكم من السماء رزقا و ما يتذكر إلا من ينيب » ..." [1]

"إذ » ، ظرف .. بدل من يوم الآزفة .. والحناجر : جمع حنجرة ، وهى الغلصمة فى أعلى الزور ، والكاظم : المأخوذ من كظمه ، أي منمخنقه .. يقال كظم القربة أي ربط فمها ، ومنه كظم الغيظ : أي حبسه فى الصدر.والمعنى : وأنذر الناس ـ أيها النبي ـ وحذرهم يوم القيامة وقد أزف ، وهو يوم عظيم ، تختنق فيه الأنفاس ، وتضيق الصدور ، وتجف القلوب وتضطرب ، حتى لتبلغ القلوب الحناجر فى خفقها واضطرابها ..وقوله « كاظمين » حال من أصحاب القلوب.وقوله تعالى : « ما للظالمين من حميم و لا شفيع يطاع » .. أي ليس للظالمين فى هذا اليوم العظيم ، من صاحب أو صديق يعين ، أو من شفيع تقبل شفاعته فيهم ..قوله تعالى : «يعلم خائنة الأعين و ما تخفي الصدور .. و الله يقضي بالحق و الذين يدعون من دونه لا يقضون بشي ء .. إن الله هو السميع البصير » .خائنة الأعين : أي نظرة العين تكون عن خلسة ، لا يراها الناس ، ولا يعلم بها المنظور إليه.وقوله تعالى : « يعلم خائنة الأعين و ما تخفي الصدور » هو تعليل لما فى الآية السابقة من وعيد للظالمين الذين أنذروا بيوم القيامة ، وما فيه من أهوال ، وأن الذي سيحاسبهم هناك هو الله سبحانه ، الذي يعلم ما يبدون وما يكتمون ، لا تخفى عليهم منهم خافية ، ولا يرد عنهم بأسه أحد ، ولا تقبل فيهم عنده شفاعة من أحد ..وقوله تعالى : « و الله يقضي بالحق » أي أنه سبحانه ـ مع بأسه ، وسلطانه التفسير القرآني للقرآن ، ج ١٢ ، ص : ١٢١٨لم يظلمهم ، بل وفاهم جزاء أعمالهم ، ولم يظلموا مثقال ذرة ، لأن الذي قضى بهذا الحكم فيهم ، هو الله ، والله لا يقضى إلا بالحق ..قوله تعالى : «و الذين يدعون من دونه لا يقضون بشي ء » أي أن هؤلاء الذين يعبدهم المشركون من دون الله ، لا يقضون بشى ء ، أي لا يحكمون بحق أو باطل ..." [2]

"و لكن أين يذهب هؤلاء الذين أخفوا مكرهم السي ء عن الناس؟ إنهم إن استخفوا من الناس فلن يستخفوا من الله ، الذي لا يخفى عليه شى ء فى الأرض ولا فى السماء .. فهو ـ سبحانه ـ « يعلم خائنة الأعين و ما تخفي الصدور » ..وهو سبحانه : « معهم إذ يبيتون ما لا يرضى من القول » ! إنهم فى سكرة يعمهون .. يحسبون أنهم ـ وقد استخفوا عن الناس ـ قد غاب أمرهم عن الله ، وأنهم وقد أفلتوا من يد الناس ـ لن تمسك بهم يد الله! وكلا ، فإن عين الله لا تغفل ، وإن ما بيتوه من سوء قد سجله الله عليهم ، وسيأخذهم به .. « و كان الله بما يعملون محيطا » .وقوله تعالى : « ها أنتم هؤلاء جادلتم عنهم في الحياة الدنيا فمن يجادل الله عنهم يوم القيامة أم من يكون عليهم وكيلا » هو استدعاء لأولئك الذين يتولون الظالمين ، ويمكنون لهم من إمضاء مكرهم السي ء ، وتغطية ما ينكشف عنه ، وذلك بالدفاع عنهم ، وتبرير أعمالهم المنكرة ، والتماس التأويلات الكاذبة لها .. التفسير القرآني للقرآن ، ج ٣ ، ص : ٨٩٢فهؤلاء الذين يقومون وراء الظالمين هم شركاء لهم فى هذا الجرم .. وهم مدعوون معهم إلى ساحة المحاكمة والقصاص بين يدى أحكم الحاكمين! وفى هذا

---

(١) التفسير القرآني للقرآن، المؤلف غير معروف ٢/٢١٤

(٢) التفسير القرآني للقرآن، المؤلف غير معروف ٢/٢١٨

الموقف تخرس ألسنة هؤلاء الأولياء المدافعين عن الظلم والظالمين .. ويتعرى أولئك الظالمون من كل قوة تدفع عنهم سوء ما عملوا.الآيات : (١١٠ - ١١٢) [سورة النساء (٤) : الآيات ١١٠ الى ١١٢]." [(١)]

"سركم وجهركم ويعلم ما تكسبون﴾ من خير وشر فهو تعالى فوق عرشه بائن من خلقه ويعلم سر عباده وجهرهم ويعلم أعمالهم وما يكتسبون بجوارحهم يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، لذا وجبت الرغبة فيما عنده من خير، والرهبة مما لديه من عذاب، ويحصل ذلك لهم بالإنابة إليه وعبادته والتوكل عليه.هداية الآياتمن هداية الآيات:١- وجوب حمد الله تعالى والثناء عليه بما هو أهله.٢- لا يصح حمد أحد بدون ما يوجد لديه من صفات الكمال ما يحمد عليه.٣- التعجب من حال من يسوون المخلوقات بالخالق عز وجل في العبادة.٤- التعجب من حال من يرى عجائب صنع الله ومظاهر قدرته ثم ينكر البعث والحياة الآخرة.٥- صفة العلم لله تعالى وأنه تعالى لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء يعلم السر وأخفى.وما تأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين(٤) فقد كذبوا بالحق لما جاءهم فسوف يأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزؤون(٥) ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن مكناهم في الأرض ما لم نمكن لكم وأرسلنا السماء عليهم مدرارا وجعلنا الأنهار تجري من تحتهم فأهلكناهم بذنوبهم وأنشأنا من بعدهم قرنا آخرين(٦)." [(٢)]

"معنى الآيات:سبق أن ذكرنا أنه لقبح وفساد الزنى وسوء أثره على النفس والحياة البشرية وضع الشارع عدة أسباب واقية من الوقوع فيه ومنها الأمر بغض البصر للرجال والنساء فقوله تعالى: ﴿قل للمؤمنين يغضوا١ فن أبصارهم ويحفظوا فروجهم﴾ أي مر يا رسولنا المؤمنين بأن يغضوا من٢ أبصارهم أي بأن يخفضوا أجفانهم على أعينهم حتى لا ينظروا إلى الأجنبيات عنهم من النساء ويحفظوا فروجهم عن النظر إليها فلا يكشفوها لأحد إلا ما كان من الزوج لزوجه فلا حرج وعدم النظر أولى وأطيب، وقوله: ﴿ذلك أزكى لهم﴾ أي أطهر لنفوسهم من نوافل العبادات، وقوله: ﴿إن الله خبير بما يصنعون﴾ فليراقبوه تعالى في ذلك المأمور به من غض البصر وحفظ الفرج إنه يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور.وقوله تعالى: ﴿وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن٣﴾ إذ شأنهن شأن الرجال في كل ما أمر به الرجال من غض البصر وحفظ الفرج وقوله تعالى: ﴿ولا يبدين زينتهن﴾ أي مرهن بغض البصر وحفظ الفرج وعدم إظهار الزينة ﴿إلا ما ظهر منها﴾ مما لا يمكنها ستره وإخفاؤه كالكفين عند تناول شيء أو إعطائه أو العينين تنظر بهما وإن كان في اليد خاتم وحناء وفي العينين كحل وكالثياب الظاهرة من خمار على الرأس وعباءة تستر الجسم فهذا معفو عنه إذ لا يمكنها ستره.وقوله تعالى: ﴿وليضربن بخمرهن على جيوبهن﴾ كانت المرأة تضع خمارها على رأسها مسبلا على كتفيها فأمرت أن تضرب به على فتحات درعها حتى تستر العنق والصدر سترا كاملا وقوله: ﴿ولا يبدين زينتهن٤﴾ أعاد اللفظ ليرتب عليه ما بعده من المحارم الذي يباح للمؤمنة أن تبدي زينتها إليهم وهم الزوج، والأب والجد وان علا وأب الزوج وإن علا وابنها لان سفل وأبناء الزوج وإن نزلوا، والأخ لأب أو الشقيق أو لأم وأبناؤه وأن نزلوا، وابن الأخ______________١ غض البصر واحترام النساء بعدم النظر إليهن معروف في الجاهلية وهذا عنترة بن شداد يقول:وأغض طرفي ما بدت لي جارتيحتى يواري جارتي مأواها؟لم يذكر الله

---

(١) التفسير القرآني للقرآن، المؤلف غير معروف ٣٨٧/٢

(٢) أيسر التفاسير للجزائري، المؤلف غير معروف ٣٦/٢

تعالى ما يغض البصر من أجله للعلم به وهو: وجود النساء الأجنبيات، وكذا ما يحفظ منه الفرج، وهو: النظر إليه والزنى واللواط.٢ ﴿من﴾ جائز أن تكون زائدة في يغضوا أبصارهم، وجائز أن تكون للتبعيض لجواز النظر إلى المحارم.٣ ورد في الأمر بغض البصر في السنة قوله صلى الله عليه وسلم "إياكم والجلوس في الطرقات فقالوا يا رسول الله ما لنا من مجالسنا بد نتحدث فيها فقال: فإذا أبيتم إلا المجلس فأعطوا الطريق حقه قالوا: وما حق الطريق يا رسول الله؟ قال: غض البصر وكف الأذى ورد السلام، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر" وقال لعلي رضي الله عنه "لا تتبع النظرة النظرة فإنما لك الأولى وليست لك الثانية".٤ قال ابن عطية: ويظهر لي بحكم ألفاظ الآية: أن المرأة مأمورة بأن لا تبدي وأن تجتهد في الإخفاء لكل ما هو زينة، ووقع الاستثناء فيما يظهر لحكم ضرورة حركة فيما لابد منه، أو إصلاح شأن ونحو ذلك فيما ظهر على هذا الوجه مما تؤدي إليه الضرورة في النساء فهو المعفو عنه.." (١)

"هداية الآياتمن هداية الآيات:١- عدم جدوى الاعتذار يوم القيامة هذا فيما لو أذن للعبد أن يعتذر فلا ينفعه اعتذار.٢- تقرير التوحيد وإبطال الشرك والتنديد.٣- بيان إفضال الله على العباد إذ يريهم آياته لهدايتهم ويرزقهم وهم يكفرون به.٤- وجوب إخلاص الدعاء وسائر العبادات لله وحد ولو كره ذلك المشركون.٥- تقرير النبوة، وبيان الحكمة فيها وهي إنذار الناس من عذاب يوم القيامة حيث الناس بارزون لله لا يخفى على الله منهم شيء فيحاسبهم بعلمه وعدله فلا ينقضي نهار إلا وقد استقر أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار اللهم أعذنا من نار جهنم.وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع(١٨) يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور(١٩) والله يقضي بالحق والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء إن الله هو السميع البصير(٢٠)شرح الكلمات:يوم الآزفة : أي يوم القيامة.إذ القلوب لدى الحناجر: أي من شدة الخوف تكون القلوب قد ارتفعت حتى وصلت عند الحناجر.كاظمين : أي لقلوبهم يريدون ردها فلم يقدروا.ما لظالمين من حميم : أي ليس للمشركين من محب قريبا كان أو بعيدا.يعلم خائنة الأعين: أي الله تعالى يعلم العين إذا سرقت النظر إلى محرم.والله يقضي بالحق : أي لكمال قدرته وعلمه يحكم بالحق.والذين يدعون من دونه: أي والذين يدعوهم مشركو قريش من أصنام لا يقضون بشيء عدلا كان أو جورا لأنهم أصنام لا تسمع ولا تبصر.." (٢)

"معنى الآيات:بعد بيان الموقف الصعب في عرصات القيامة في الآيات السابقة قال تعالى لرسوله ﴿وأنذرهم﴾ يا رسولنا أي خوف قومك ﴿يوم الآزفة﴾(١) وهي يوم القيامة القريبة والتي قد قربت فعلا وكل ما هو آت قريب أنذرهم قربها حتى لا يوافوها بالشرك والمعاصي فيخسروا خسرانا مبينا، أنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب(٢) من شدة الخوف ترتفع إلى الحناجر(٣) وهم يكظمونها فلا هي تخرج فيموتوا ولا هي تعود إلى أماكنها فيستريحوا.﴿ما للظالمين﴾ وهم أهل الشرك والمعاصي ﴿من حميم﴾ قريب أو حبيب يدفع عنهم العذاب ﴿ولا شفيع﴾ يشفع لهم وتقبل شفاعته ويطاع فيها لا ذا ولا ذاك يا لفظاعة الحال وقوله تعالى: ﴿يعلم خائنة الأعين(٤)﴾ يخبر تعالى عن سعة علمه وواسع اطلاعه أنه يعلم خائنة

---

(١) أيسر التفاسير للجزائري، المؤلف غير معروف ٥٦٦/٣

(٢) أيسر التفاسير للجزائري، المؤلف غير معروف ٥٢٢/٤

الأعين وهي العين تسترق النظر إلى المحارم، ويعلم ﴿وما تخفي الصدور(٥)﴾ أي وما تكتمه صدور العباد وما تضمره من خير وشر، ولذا فسوف يكون الحساب دقيقا ومن نوقش الحساب عذب. ﴿والله يقضي بالحق﴾ أي يحكم بالعدل، ﴿والذين يدعون من(٦) دونه﴾ أي والذين يعبدهم المشركون من أصنام وأوثان ﴿لا يقضون بشيء(٧)﴾ لأنهم لا يسمعون ولا يبصرون.وقوله ﴿إن الله هو السميع البصير﴾ السميع لأقوال عباده البصير بأعمالهم وأحوالهم فلذا إذا حكم يحكم بالحق ويقدر على إنفاذ الحكم فيجزي السيئة بالسيئة والحسنة بعشر أمثالها.هداية الآياتمن هداية الآيات:١- بيان هول يوم القيامة وصعوبة الموقف فيه.______________١- يقال أزف فلان يأزف أزفا قال النابغة:أزف الترحل غير أن ركابنالما تزل برحالنا وكأن قد٢- القلوب: جمع قلب وهو البضعة الصنوبرية الشكل التي تتحرك دائما ما دام الجسم حيا تدفع الدم إلى الشرايين التي بها حياة الجسم.٣- الحناجر جمع حنجرة بفتح الحاء والجيم وهي الحلقوم.٤- أي الله جل جلاله يعلم الأعين الخائنة قال ابن عباس رضي الله عنهما هو الرجل يكون جالسا مع القوم فتمر المرأة فيسارقهم النظر إليها.٥- قال ابن عباس وما تخفي الصدور أي هل يزني بها من سرق النظر إليها لو خلا بها أو لا.٦- قرأ نافع تدعون بالتاء وقرأ حفص بالياء يدعون.٧- من جملتي والله يقضي بالحق وجملة والذين يدعون من دونه قبلها تألف قصر القضاء على الله تعالى قصر قلب أي دون الأصنام. كما أفيد القصر من ضم الجملتين في قوله الشاعر:تسيل على حد الظبات نفوساوليست على غير الظبات تسيل." (١)

"٢- انعدام الحميم والشفيع للظالمين يوم القيامة.٣- بيان سعة علم الله تعالى حتى إنه يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور.٤- قضاء الله عدل وحكمه نافذ وذلك لكمال علمه وقدرته.أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم كانوا هم أشد منهم قوة وآثارا في الأرض فأخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق(٢١) ذلك بأنهم كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فكفروا فأخذهم الله إنه قوي شديد العقاب(٢٢)شرح الكلمات:أو لم يسيروا في الأرض : أي أغفل كفار قريش ولم يسيروا في الأرض.فينظروا : أي بأعينهم.كيف كان عاقبة الذين من قبلهم : إنها كانت دمارا وخسارا ووبالا عليهم.كانوا هم أشد منهم قوة وآثارا في الأرض : ولم يغن ذلك عنهم من الله شيئا.فأخذهم الله بذنوبهم : أي عاقبهم بذنوبهم فدمرهم وأهلكهم.وما كان لهم من الله من واق : أي ولم يوجد لهم من عقاب الله من واق يقيهم منه.ذلك بأنهم كانت تأتيهم رسلهم بالبينات : أي بالحجج والبراهين والأدلة والمعجزات.فكفروا : أي بتلك الحجج والآيات.فأخذهم الله : أي لما كفروا أخذهم بكفرهم.إنه قوي شديد العقاب : هذا تعليل لأخذه إياهم." (٢)

"﴿ البلاغ ﴾ (٩٩) - الرَّسُولُ مُكَلَّفٌ مِنْ رَبِّهِ بِإِبْلاغِ النَّاسِ أَوَامِرَ رَبِّهِ وَرِسَالاتِهِ ، وَحِسَابُ النَّاسِ عَلَى اللهِ ، وَهُوَ تَعَالَى يَعْلَمُ السَّرَائِرَ وَالعَلَنَ ، وَهُوَ يَعْلَمُ مَا تُخْفِي الصُّدُورُ ، وَمَا يُبَيِّتُهُ الإِنْسَانُ فِي سِرِّهِ ، وَسَيُحَاسَبُ كُلَّ إِنْسَانٍ عَلَى جَمِيعِ أَعْمَالِهِ فِي الدُّنْيا .." (٣)

---

(١) أيسر التفاسير للجزائري، المؤلف غير معروف ٥٢٣/٤

(٢) أيسر التفاسير للجزائري، المؤلف غير معروف ٥٢٤/٤

(٣) أيسر التفاسير لأسعد حومد، المؤلف غير معروف ص/٧٦٩

"(٦٢) – قَالَ رَجُلٌ مِنَ الْمُنَافِقِينَ عَنْ رُؤَسَاءِ الْمُنَافِقِينَ ، الذِينَ تَخَلَّفُوا عَنْ غَزْوَةِ تَبُوك ، فَنَزَلَ فِيهِمْ مَا نَزَلَ مِنَ القُرْآنِ : (إنَّ هَؤُلاَءِ لَخِيَارُنَا وَأَشْرَافُنَا ، وَإذَا كَانَ مَا يَقُولُهُ مُحَمَّدٌ حَقّاً ، لَهُمْ شَرٌّ مِنَ الْحَمِيرِ) . فَسَمِعَهُ رَجُلٌ مُسْلِمٌ فَقَالَ : إنَّ مُحَمَّداً لاَ يَقُولُ إلاَّ حَقّاً ، وَلأَنْتَ شَرٌّ مِنَ الحِمَارِ) . ثُمَّ ذَهَبَ الْمُسْلِمُ إلَى رَسُولِ اللهِ يُحَدِّثُهُ بِمَا جَرَى . فَأَرْسَلَ النَّبِيُّ إلَى الْمُنَافِقِ وَسَأَلَهُ ، وَقَالَ مَا حَمَلَكَ عَلَى مَا قُلْتَ؟ فَأَخَذَ الْمُنَافِقُ يَحْلِفُ بِاللهِ إنَّهُ مَا قَالَ ذَلِكَ . وَقَالَ الرَّجُلُ الْمُسْلِمُ : اللَّهُمَّ صَدِّقِ الصَّادِقَ ، وَكَذِّبْ الكَاذِبَ . فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ الْكَرِيمَةَ .فَهَؤُلاَءِ الْمُنَافِقُونَ يَحْلِفُونَ لَكُمْ عَلَى أَنَّهُمْ مَا قَالُوا مَا نُقِلَ عَنْهُمْ مِمَّا يُورِثُ أَذَى النَّبِيِّ لِيُرْضُوكُمْ ، فَلاَ تُخْبِرُوا النَّبِيَّ ، مَعْ أَنَّ اللهَ وَرَسُولَهُ أَحَقُّ بِالإِرْضَاءِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ، لأنَّ اللهَ لاَ يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ ، وَيَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ . وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ .." (١)

"لم ينج لما رأى من شدة الحساب.الآية ١٨.أخرج عبد الرزاق ، وعبد بن حميد عن قتادة رضي الله عنه ﴿وأنذرهم يوم الآزفة﴾ قال : الساعة ﴿إذ القلوب لدى الحناجر﴾ قال : وقعت في حناجرهم من المخافة فلا تخرج ولا تعود إلى أماكنها.وأخرج عبد بن حميد ، وابن المنذر عن مجاهد رضي الله عنه ﴿وأنذرهم يوم الآزفة﴾ قال : يوم القيامة.وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج رضي الله عنه ﴿إذ القلوب لدى الحناجر﴾ قال : إذا عاين أهل النار النار حتى تبلغ حناجرهم فلا تخرج فيموتون ولا ترجعإلى أماكنها من أجوافهم ، وفي قوله ﴿كاظمين﴾ قال : باكين.الآيات ١٩ – ٢٠.أخرج سعيد بن منصور ، وابن أبي شيبة ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور﴾ قال : الرجل يكون في القوم فتمر بهم المرأة فيريهم أنه يغض بصره عنها وإذا غفلوا لحظ إليها وإذا نظروا غض بصره عنها وقد اطلع الله من قلبه أنه ود أنه ينظر إلى." (٢)

"عورتها.وأخرج أبو نعيم في الحلية ، وابن أبي حاتم والطبراني في الأوسط والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿يعلم خائنة الأعين﴾ قال : نظرت إليها لتريد الخيانة أم لا ﴿وما تخفي الصدور﴾ قال : إذا قدرت عليها أتزني بها أم لا ألا أخبركم ﴿والله يقضي بالحق﴾ قادر على أن يجزي بالحسنة الحسنة وبالسيئة السيئة.وأخرج عبد بن حميد وأبو الشيخ في العظمة عن قتادة رضي الله عنه ﴿يعلم خائنة الأعين﴾ قال : يعلم همزه واضمامه بعينيه فيما لا يحب الله تعالى.وأخرج عبد بن حميد ، وابن المنذر عن مجاهد رضي الله عنه ﴿يعلم خائنة الأعين﴾ قال : نظر العين إلى ما نهي عنه.وأخرج عبد بن حميد عن أبي الجوزاء رضي الله عنه ﴿يعلم خائنة الأعين﴾ قال : كان الرجل يدخل على القوم في البيت وفي البيت امرأة فيرفع رأسه فيلحظ." (٣)

"إليها ثم ينكس.وأخرج أبو داود والنسائي ، وابن مردويه عن سعد رضي الله عنه قال : لما كان يوم فتح مكة أمن رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس إلا أربعة نفر وامرأتين وقال : أقتلوهم وإن وجدتموهم متعلقين بأستار الكعبة منهم عبد الله بن سعد بن أبي سرح ، فأختبأ عند عثمان بن عفان رضي الله عنه فلما دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس إلى

---

(١) أيسر التفاسير لأسعد حومد، المؤلف غير معروف ص/١٢٩٨

(٢) الدر المنثور في التفسير بالمأثور للسيوطي، المؤلف غير معروف ٣١/١٣

(٣) الدر المنثور في التفسير بالمأثور للسيوطي، المؤلف غير معروف ٣٢/١٣

البيعة جاء بهفقال : يا رسول الله بايع عبد الله ، فرفع رأسه فنظر إليه ثلاثا كل ذلك يأبى يبايعه ثم أقبل على أصحابه فقال : أما كان فيكم رجل رشيد يقوم إلى هذا حين رآني كففت يدي عن بيعته فيقتله فقالوا : ما يدرينا يا رسول الله ما في نفسك هلا أومأت إلينا بعينك قال : أنه لا ينبغي لنبي أن يكون له خائنة الأعين.وأخرج الخطيب في تاريخه والحكيم الترمذي عن أم معبد رضي الله عنها قالت : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : اللهم طهر قلبي من النفاق وعملي من الرياء ولساني من الكذب وعيني من الخيانة فإنك تعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور.وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج رضي الله عنه في قوله ﴿والله يقضي بالحق﴾ قال : قادر على أن يقضي بالحق !." (١)

"للخلق إنما هي بعلمه الذي لا يحتاج معه إلى روية وفكرة ولا لشيء مما يحتاجه الحاسبون وقالت فرقة " يعلم " متصل بقوله " لا يخفى على الله منهم شيء " [غافر : ١٦] وهذا قول حسن يقويه تناسب المعنيين ويضعفه بعد الآية وكثرة الحائل والخائنة مصدر كالخيانة ويحتمل في الآية أن يكون " خائنة " اسم فاعل كما تقول ناظرة الأعين إذا خانت في نظرها وهذه الآية عبارة عن علم الله تعالى بجميع الخفيات فمن ذلك كسر الجفون والغمز بالعين أو النظرة التي تفهم معنى أو يريد بها صاحبها معنى ومن هذا قول النبي صلى الله عليه وسلم حين جاءه عبد الله بن أبي سرح ليسلم بعد ردته بشفاعة عثمان فتلكأ عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم بايعه ثم قال عليه السلام لأصحابه هلا قام إليه رجل حين تلكأت عليه فضرب عنقه فقالوا يا رسول الله ألا أومأت إلينا فقال عليه السلام ما ينبغي لنبي أن تكون له خائنة الأعين وفي بعض الكتب المنزلة من قول الله عز وجل أنا مرصاد الهمم أنا العالم بمجال الفكر وكسر الجفون وقال مجاهد " خائنة الأعين " مسارقة النظر إلى ما لا يجوز ثم قوى تعالى هذه الأخبار بأنه يعلم ما تخفي الصدور مما لم يظهر على عين ولا غيرها ومثل المفسرون في هذه الآية بنظر رجل إلى امرأة هي حرمة لغيره فقالوا " خائنة الأعين " هي النظرة الثانية " وما تخفي الصدور " أي عند النظرة الأولى التي لا يمكن المرء دفعها وهذا المثال جزء من " خائنة الأعين "ثم قدح في جهة الأصنام فأعلم أنه لا رب غيره " يقضي بالحق " أي يجازي الحسنة بعشر والسيئة بمثل وينصف المظلوم من الظالم إلى غير ذلك من أقضية الحق والعدل والأصنام لا تقضي بشيء ولا تنفذ أمرا و " يدعون " معناه يعبدونوقرأ جمهور القراء يدعون بالياء على ذكر الغائب وقرأ نافع بخلاف عنه وأبو جعفر وشيبة تدعون بالتاء على معنى قل لهم يا محمد والذين تدعون أنتمثم ذكر تعالى لنفسه صفتين بين عرو الأوثانعنهما وهي في جهة الله تعالى عبارة عن الإدراك على إطلاقه ثم أحال كفار قريش وهم أصحاب الضمير في " يسيروا " على الاعتبار بالأمم القديمة التي كذبت أنبياءها فأهلكها الله تعالىوقوله " فينظروا " يحتمل أن يجعل في موضع نصب جواب الاستفهام ويحتمل أن يكون مجزوما عطفا على " يسيروا " و "كيف " في قوله "كيف كان عاقبة " خبر "كان " مقدم وفي "كيف " ضمير وهذا مع أن تكون "كان " الناقصة وأما إن جعلت تامة بمعنى حدث ووقع ف "كيف " ظرف ملغى لا ضمير فيهوقرأ ابن عامر وحده أشد منكم بالكاف وكذلك هي في مصاحف الشام وذلك على الخروج من غيبة إلى الخطاب وقرأ الباقون أشد منهم وكذلك هي في سائر المصاحف وذلك أوفق لتناسب ذكر الغيب." (٢)

---

(١) الدر المنثور في التفسير بالمأثور للسيوطي، المؤلف غير معروف ٣٣/١٣

(٢) المحرر الوجيز ـ موافق للمطبوع، المؤلف غير معروف ٦٢٠/٤

"" " صفحة رقم ٢٧ " " الأول : أنه تعالى بين أن هذا النداء إنما يحصل يوم التلاق يوم هم بارزون ، ويوم تجزى كل نفس ما كسبت ، والناس في ذلك الوقت أحياء فبطل قولهم إنما ينادى هذا النداء حين يهلك كل من في السموات ومن في الأرض . الثاني : أن الكلام لا بد فيه من فائدة ؛ لأن الكلام إما أن يذكر حال حضور الغير أو حال ما لا يحضر الغير ، والأول باطل ههنا ؛ لأن القوم قالوا : إنه تعالى إنما يذكر هذا الكلام عند فناء الكل . والثاني أيضا باطل لأن الرجل إنما يحسن تكلمه حال كونه وحده إما لأن يحفظ به شيئا كتكريره على الدرس وذلك على الله تعالى محال أو لأجل أن يعدي الله بذلك الذكر وهذا ايضا على الله تعالى محال فثبت (أن) قولهم : إن الله تعالى يذكر هذا النداء حال هلاك جميع المخلوقات باطل ، وقال بعض المفسرين : إنه في يوم التلاق إذا حضر الأولون والآخرون وبرزوا لله نادى مناد : لمن الملك اليوم ؟ فيقول كل الحاضرين في محفل القيامة : لله الواحد القهار ، فالمؤمنون يقولونه تلذذا بهذا اللكلام حيث نالوا بهذا الذكر المنزلة الرفيعة ، والكفار يقولونه تحسرا وصغارا وندامة على تفويتهم هذا الذكر في الدنيا ، وقال القائلون بهذا القول الأول عن ابن عباس وغير إن هذا النداء بعد هلاك البشر لم يمنع أن يكون هناك ملائكة يسمعون ذلك النداء ويجيبون بقولهم : لله الواحد القهار . وقال ابن الخطيب : أيضا على هذا القول لا يبعد أن يكون السائل والمجيب هو الله تعالى ، ولا يعبد أيضا أن يكون السائل جمعا من الملائكة والمجيب جمع آخرون وليس على التعهيين دليل .قوله : (اليوم تجزى كل نفس بما كسبت (يجزى المحسن بإحسانه ، والمسيء بإساءته) لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب) .(/ ٠ وأنذرهم يوم الأزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع يعلم خآئنة الأعين وما تخفي الصدور والله يقضي بالحق والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء إن الله هو السميع البصير (قوله تعالى : (وأنذرهم يوم الأزفة . . .(والمقصود بها وصف يوم القيامة ، ويوم الآزفة يجوز أن يكون مفعولا به اتساعا ، وأن يكون ظرفا ، والمفعول محذوف ، والآزفة فاعلة من أزف الأمر إذا دنا وحضر ، كقوله في صفة القيامة) أزفت الآزفة (."[١]

"" " صفحة رقم ٣٤ " " وفيه نظر ؛ إذ لقائل أن يقول لا نسلم أن " ما " في قوله) وما تخفي الصدور (مصدرية حتى يلزم ما ذكره ، بل يجوز أن يكون بمعنى الذي وهو عبارة عن نفس ذلك الشيء المخفي فيكون قد قابل الاسم غير المصدر بمثله ، والمراد بقوله : (وما تخفي الصدور (أي تضمر القلوب .واعلم أن الأفعال قسمان : أفعال الجوارح ، وأفعال القلوب ، وأما أفعال الجوارح فأخفاها خائنة الأعين والله بهات فكيف الحال في سائر الأعمال ، وأما أفعال القلوب فهي معلومة لله تعالى لقوله) وما تخفى لصدور (فدل هذا على كونه عالما بجميع أفعالهم . قوله) والله يقضي ب الحق (وهذا أيضا يوجب عظم الخوف لأن الحاكم إذا كان عالما بجميع الأحوال وثبت أنه لا يقضي إلا بالحق في كل ما دق وجل كان خوف المذنب منه في الغاية القصوى .قوله : " والذين يدعون " ، قرأ نافع وهشام تدعون بالخطاب للمشركين والباقون بالغيبة ، إخبارا عنهم بذلك .واعلم أن الكفار إنما عولوا في دفع العقاب عن أنفسهم على شفاعة هذه الأصنام فبين الله تعالى أنه لا فائدة فيها البتة ، فقال : (الذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء (ثم قال : (إن الله هو السميع البصير (أي يسمع من الكفار ثناءهم على الأصنام ، ولا يسمع ثناءهم على الله ويبصر خضوعهم وسجودهم ، ولا يبصر خضوعهم

---

(١) اللباب في علوم الكتاب، المؤلف غير معروف ٢٧/١٧

وتواضعهم لله .(س / ٢ أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم كانوا هم أشد منهم قوة وآثارا في الأرض فأخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق ذلك بأنهم كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فكفروا فأخذهم الله إنه قوي شديد العقاب (ولما بالغ في تخويفهم بأحوال أهل الآخرة أردفه بيان تخويفهم بأحوال أهل الدنيا فقال) أولم يسيروا فى لأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم (والمعنى أن العال من اعتبر بغيره ، فإن الذين مضوا من الكفار كانوا أشد قوة من هؤلاء الحاضرين من الكفار ، وأقوى آثارا في الأرض أي حصونهم وقصورهم وعساكرهمخ ، فملا كذبوا رسلهم أهلكهم الله عاجلا حتى إن هؤلاء الجاحدين من الكفار شاهدوا تلك الآثار." (١)

"" صفحة رقم ٢٧١ " أي : قرب ، ونظيرها هذه الآية قوله تعالى :) أزفت الآزفة (أي قربت القيامة .) إذ القلوب لدى الحناجر (من الخوف قد زالت وشخصت من صدورهم ، فتعلقت بحلوقهم فلا هي تعود إلى أماكنها ولا هي تخرج من أفواههم فيموتوا فليسوا سواء نظيره قوله :) وأفئدتهم هواء ( ) كاظمين (مكروبين ممتلئين خوفا وحزنا ، والكاظم الممسك للشيء على مافيه ، ومنه كظم قربته إذا شد رأسها ، فهم قد أطبقوا أفواههم على مافي قلوبهم من شدة الخوف ، والكظم تردد الغيظ والخوف والحزن في القلب حين يضيق به .يقول العرب للبئر الضيقة وللسقاية المملؤة : ماء كظامة وكاظمة ، ومنه الحديث : كيف بكم (إذا) بعجت مكة كظائم .قال الشاعر :يخرجن من كاظمة العصن الغربيحملن عباس بن عبد المطلبونصب كاظمين على الحال والقطع .) ما للظالمين من حميم (قريب وصديق ، ومنه قيل للأقرباء والخاصة حامة) ولا شفيع يطاع (فيشفع فيهمغافر : (١٩) يعلم خائنة الأعين . . . . .) يعلم خائنة الأعين (.وقال المؤرخ : فيه تقديم وتأخير مجازه أي الأعين الخائنة قال ابن عباس : هو الرجل يكون جالسا مع القوم ، فتمر المرأة فيسارقهم النظر إليها .وقال مجاهد : هي نظر الأعين إلى ما نهى الله تعالى عنه .قتادة : هي همزة بعينه وإغماضه فيما لايحب الله تعالى ولايرضاه .) وما تخفي الصدور (غافر : (٢٠) والله يقضي بالحق . . . . .) والله يقضي بالحق والذين يدعون من دونه (يعني الأوثان) لا يقضون بشيء (لأنها لاتعلم شيء ولا تقدر على شي .وقرأ أهل المدينة وأيوب : تدعون بالتاء ، ومثله روى هشام عن أهل الشام والباقون : بالياء .) إن الله هو السميع البصير (غافر : (٢١) أولم يسيروا في . . . . .) أو لم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم كانوا هم أشد منهم قوة (.." (٢)

"الفواتح الإلهية والمفاتح الغيبية ، ج ٢ ، ص : ٢٥٩و عكوس أسمائه من عالم أمره بمقتضى حبه الذاتي على من يشاء من عباده أى على استعدادات مظاهره المستظلين تحت ظلال أسمائه وصفاته الممدودة المنبسطة عليهم وبعد القائه ومده إياهم قد كلفهم بما كلفهم من الأوامر والنواهي المصححة للعبودية اللازمة للالوهية والربوبية وانما كلفهم بما كلفهم لينذر يوم التلاق أى ليخوفهم ويحذرهم عن خجالة زمان الوصول والرجوع إلى ربهم في النشأة الاخرى والطامة الكبرى التي ترد فيها الأمانات إلى أهلها على وجهها إذ هويوم هم بارزون خارجون عن أجداث اجسادهم منخلعون عن خلعة تعيناتهم راجعون إلى الله جميعا بأرواحهم محشورون عنده معروضون عليه بحيث لا يخفى على الله المحيط بهم منهم شي ء لا من أعيانهم

---

(١) اللباب في علوم الكتاب، المؤلف غير معروف ٣٤/١٧

(٢) الكشف والبيان . موافق للمطبوع، المؤلف غير معروف ٢٧١/٨

وذواتهم ولا من أعمالهم وأحوالهم ونياتهم وبعد ما قد برزوا لله ورجعوا نحوه صائرين اليه فانين فيه قيل حينئذ من قبل الحق بعد فناء الكل فيه إظهارا لكمال قدرته واستقلاله في حوله وقوته وسطوة سلطنته وبسطته حسب وحدته لمن الملك أى ملك الوجود والتحقق والثبوت فأجيب أيصا من قبله بعد ما تحقق ان اليوم لا موجود فيه سواه ولا شي ء غيره حتى يجيب لله الواحد الأحد من كل الوجوه القهار المعدم المحياء لنقوش السوى والأغيار وعكوس عموم الاظلال والأمثال عن دفتر الوجود ومشهد الشهود وبعد ما قد استقر واستوى سبحانه على الملك المطلق بالأصالة والاستحقاق وعلى عروش عموم ما قد كان ويكون في أزل الآزال وابد الآباد أشار إلى سرائر ما ظهر منه من الأوامر والنواهي في النشأة الأولى فقااليوم أى يوم الجزاء والنشأة الاخرى تجزى كل نفس بما كسبت أى طبق ما كسبت واقترفت في النشأة الأولى التي هي نشأة التكليف والاختبار بلا ازدياد عليه ولا تنقيص عنه إذ لا ظلم اليوم أى يوم الجزاء لأنه انما وضع لتظهر فيه العدالة الإلهية والقسط الحقيقي بل تجزى فيه كل من النفوس حسب ما صدر عنها خيرا وشرا نفعا وضرا إن الله المطلع على عموم ما ظهر وبطن من احوال عباده سريع الحساب عليهم بلا فترة وتلبس إذ لا يشغله شأن عن شأن ولا يطرأ عليه سهو ونسيانو بالجملة أنذرهم وحذرهم يا أكمل الرسل يعنى عموم المكلفين يوم الآزفة أى القرب والمشارفة على العذاب الأبدي حين احضروا على شفير جهنم للطرح فيها إذ القلوب أى قلوب أولئك المحضرين ترتفع وتعلو حينئذ لدى الحناجر يعنى تلتصق يومئذ قلوبهم بحلاقيمهم من شدة هولهم واضطرابهم وقد كانوا حينئذ كاظمين مملوين من الكآبة والحزن المفرط وانواع الغموم والخذلان وبالجملة ما للظالمين المفسدين المسرفين حينئذ من حميم قريب قرين يدركهم ويتولى أمرهم ويسعى في استخلاصهم ولا شفيع لهم يطاع أى يسمع شفاعته لأجلهم ويقبل منه مع انه سبحانهيعلم منهم بعلمه الحضوري خائنة الأعين أى خيانتهم التي يتغامزون بعيونهم نحو محارم الله بلا خيانة صدرت عنهم ظاهرا فكيف بما أتوا بها جهرا وعلانية وبالجملة يعلم سبحانه منهم عموم ما تخفي الصدور أى صدورهم من ميل الشهوات المحرمة بلا مباشرة الآلاتو بالجملة الله المطلع بظواهرهم وضمائرهم يقضي ويحكم بهم ويجازى عليهم بمقتضى علمه وخبرته من أعمالهم وأحوالهم بالحق على الوجه الأعدل الاقسط بلا حيف وميل إظهارا لكمال عدالته والذين يدعون من دونه سبحانه من الأصنام والأوثان لا يقضون ولا يحكمون لا لهم ولا عليهم يعنى آلهتهم بشي ء من نفع وضر وخير وشر إذ هي جمادات هلكى لا شعور لها إن الله القادر المقتدر." (١)

"ونظافة المشاعر تجيء نتيجة مباشرة للشعور بكرامة الإنسان على الله. ثم برقابة الله على الضمائر واطلاعه على السرائر. وإن الإنسان السوي الذي لم تمسخه إيحاءات فرويد وكارل ماركس وأمثالهما ، ليستحيي أن يطلع إنسان مثله على شوائب ضميره وخائنة شعوره. والمؤمن يحس وقع نظر الله – سبحانه – في أطواء حسه إحساسا يرتعش له ويهتز. فأولى أن يطهر حسه هذا وينظفه! والحاسة الأخلاقية ثمرة طبيعية وحتمية للإيمان بإله عادل رحيم عفو كريم ودود حليم ، يكره الشر ويحب الخير. ويعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور.وهناك التبعة المترتبة على حرية الإرادة وشمول الرقابة ، وما تثيره في حس المؤمن من يقظة وحساسية ، ومن رزانة وتدبر. وهي ليست تبعة فردية فحسب ، إنما هي كذلك تبعة جماعية ، وتبعة تجاه الخير في ذاته ، وإزاء البشرية جميعا .. أمام الله .. وحين يتحرك المؤمن حركة فهو يحس بهذا كله ، فيكبر في عين نفسه ،

(١) الفواتح الإلهية والمفاتح الغيبية، المؤلف غير معروف ٢٥٩/٢

ويقدر نتيجة خطوه قبل أن يمد رجله .. إنه كائن له قيمة في الوجود ، وعليه تبعة في نظام هذا الوجودوالارتفاع عن التكالب على أعراض الحياة الدنيا – وهو بعض إيحاءات الإيمان – واختيار ما عند الله ، وهو خير وأبقى. «وَفِي ذلِكَ فَلْيَتَنافَسِ الْمُتَنافِسُونَ» .. والتنافس على ما عند الله يرفع ويطهر وينظف .. يساعد على هذا سعة المجال الذي يتحرك فيه المؤمن .. بين الدنيا والآخرة ، والأرض والملأ الأعلى. مما يهدئ في نفسه القلق على النتيجة والعجلة على الثمرة. فهو يفعل الخير لأنه الخير ، ولأن الله يريده ، ولا عليه ألا يدرّ الخير خيرا على مشهد من عينيه في عمره الفردي المحدود. فالله الذي يفعل الخير ابتغاء وجهه لا يموت – سبحانه – ولا ينسى ، ولا يغفل شيئا من عمله. والأرض ليست دار جزاء. والحياة الدنيا ليست نهاية المطاف. ومن ثم يستمد القدرة على مواصلة الخير من هذا الينبوع الذي لا ينضب. وهذا هو الذي يكفل أن يكون الخير منهجا موصولا ، لا دفعة طارئة ، ولا فلتة مقطوعة. وهذا هو الذي يمد المؤمن بهذه القوة الهائلة التي يقف بها في وجه الشر. سواء تمثل في طغيان طاغية ، أو في ضغط الاعتبارات الجاهلية ، أو في اندفاع نزواته هو وضغطها على إرادته. هذا الضغط الذي ينشأ أول ما ينشأ من شعور الفرد بقصر عمره عن استيعاب لذائذه وتحقيق أطماعه ، وقصره كذلك عن رؤية النتائج البعيدة للخير ، وشهود انتصار الحق على الباطل! والإيمان يعالج هذا الشعور علاجا أساسيا كاملا «١».إن الإيمان هو أصل الحياة الكبير ، الذي ينبثق منه كل فرع من فروع الخير ، وتتعلق به كل ثمرة من ثماره ، وإلا فهو فرع مقطوع من شجرته ، صائر إلى ذبول وجفاف. وإلا فهي ثمرة شيطانية ، وليس لها امتداد أو دوام! وهو المحور الذي تشد إليه جميع خيوط الحياة الرفيعة. وإلا فهي مفلتة لا تمسك بشي ء ، ذاهبة بددا مع الأهواء والنزوات ..." (١)

" إلى أماكنها من أجوافهم

وفي قوله كاظمين قال : باكين

الآيات ١٩ – ٢٠ أخرج سعيد بن منصور وابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور قال : الرجل يكون في القوم فتمر بهم المرأة فيريهم أنه يغض بصره عنها وإذا غفلوا لحظ إليها وإذا نظروا غض بصره عنها وقد اطلع الله من قلبه أنه ود أنه ينظر إلى عورتها

وأخرج أبو نعيم في الحلية وابن أبي حاتم والطبراني في الأوسط والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله يعلم خائنة الأعين قال : نظرت إليها لتريد الخيانة أم لا ؟ وما تخفي الصدور قال : إذا قدرت عليها أتزني بها أم لا ؟ ألا أخبركم والله يقضي بالحق قادر على أن يجزي بالحسنة الحسنة وبالسيئة السيئة

وأخرج عبد بن حميد وأبو الشيخ في العظمة عن قتادة رضي الله عنه يعلم خائنة الأعين قال : يعلم همزه واضمامه بعينيه فيما لا يحب الله تعالى

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن مجاهد رضي الله عنه يعلم خائنة الأعين قال : نظر العين إلى ما نهي عنه

وأخرج عبد بن حميد عن أبي الجوزاء رضي الله عنه يعلم خائنة الأعين قال : كان الرجل يدخل على القوم في البيت وفي البيت امرأة فيرفع رأسه فيلحظ إليها ثم ينكس

---

(١) المفصل في موضوعات سور القرآن، المؤلف غير معروف ص/١٥٨٤

وأخرج أبو داود والنسائي وابن مردويه عن سعد رضي الله عنه قال : لما كان يوم فتح مكة أمن رسول الله صلى الله عليه و سلم الناس إلا أربعة نفر وامرأتين وقال : " أقتلوهم وإن وجدتموهم متعلقين بأستار الكعبة منهم عبد الله بن سعد بن أبي سرح

فأختبأ عند عثمان بن عفان رضي الله عنه فلما دعا رسول الله صلى الله عليه و سلم الناس إلى البيعة جاء به ." (١)

" فقال : يا رسول الله بايع عبد الله

فرفع رأسه فنظر إليه ثلاثا كل ذلك يأبى يبايعه ثم أقبل على أصحابه فقال : أما كان فيكم رجل رشيد يقوم إلى هذا حين رآني كففت يدي عن بيعته فيقتله ؟ فقالوا : ما يدرينا يا رسول الله ما في نفسك هلا أومأت إلينا بعينك ؟ ! قال : أنه لا ينبغي لنبي أن يكون له خائنة الأعين "

وأخرج الخطيب في تاريخه والحكيم الترمذي عن أم معبد رضي الله عنها قالت : سمعت رسول الله صلى الله عليه و سلم يقول : " اللهم طهر قلبي من النفاق وعملي من الرياء ولساني من الكذب وعيني من الخيانة فإنك تعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور "

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج رضي الله عنه في قوله والله يقضي بالحق قال : قادر على أن يقضي بالحق والذين يدعون من دونه لا يقدرون على أن يقضوا بالحق

من آية ٢١ - ٢٢ أخرج عبد بن حميد عن قتادة رضي الله عنه وما كان لهم من الله من واق قال : من واق يقيهم ولا ينفعهم

من آية ٢٣ - ٢٧ ." (٢)

"التفسير الوسيط للقرآن الكريم ، ج ١٠ ، ص : ١١٩نظيف من الخنا ، مجتمع لا تمنع فيه الشهوات الحلال وإنما تمنع منه الشهوات الحرام ، مجتمع لا تختلس فيه العيون النظرات السيئة ولا تتطلع فيه الأبصار إلى ما لا يحل لها التطلع إليه ، فالله - تعالى - يقول : إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤلا « ١ » ويقول : يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور « ٢ ».وقد وردت أحاديث متعددة في الأمر بغض البصر ، وحفظ الفرج ، ومن ذلك ما أخرجه الشيخان عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : كتب على ابن آدم نصيبه من الزنا مدرك ذلك لا محالة ، العينان زناهما النظر ، والأذنان زناهما الاستماع ، واللسان زناه الكلام ، واليد زناها البطش ، والرجل زناها الخطا ، والقلب يهوى ويتمنى ، ويصدق ذلك الفرج أو يكذبه.وروى الإمام مسلم في صحيحه عن جرير بن عبد الله قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن نظر الفجأة - أى البغتة من غير قصد - فقال : « اصرف بصرك » « ٣ ».٢ - أنه لا يحل للمرأة أن تبدى زينتها لأجانب ، إلا ما ظهر منها ، لأن الله - تعالى - يقول : ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها.قال الإمام

---

(١) الدر المنثور، المؤلف غير معروف ٢٨٢/٧

(٢) الدر المنثور، المؤلف غير معروف ٢٨٣/٧

القرطبي ما ملخصه : « أمر الله – تعالى – النساء بألا يبدين زينتهن للناظرين ، إلا ما استثناه من الناظرين في باقى الآية ، حذارا من الافتتان ، ثم استثنى ما يظهر من الزينة ، واختلف الناس في قدر ذلك.فقال ابن مسعود : ظاهر الزينة هو الثياب .. وقال سعيد بن جبير والأوزاعى : الوجه والكفان والثياب .. وقال ابن عباس وقتادة : ظاهر الزينة هو الكحل والسوار والخضاب ..ونحو هذا ، فمباح أن تبديه لكل من ظهر عليها من الناس.وقال ابن عطية : ويظهر لي بحكم ألفاظ الآية ، بأن المرأة مأمورة بأن لا تبدى ، وأن لا تجتهد في الإخفاء لكل ما هو زينة ، ووقع الاستثناء فيما يظهر ، بحكم ضرورة حركة فيما لا بد منه ، أو إصلاح شأن ونحو ذلك ، « فما ظهر » على هذا الوجه مما تؤدى إليه الضرورة في النساء فهو المعفو عنه.قلت : أى القرطبي – : وهذا قول حسن ، إلا أنه لما كان الغالب من الوجه والكفين ظهورهما ، عادة وعبادة ، صح أن يكون الاستثناء راجعا إليهما.______________(١) سورة الإسراء الآية ٣٦.(٢) سورة غافر الآية ١٩.(٣) راجع كتاب « رياض الصالحين » ص ٥٨٦ للإمام النووي. [.....]."[١]

"التفسير الوسيط للقرآن الكريم ، ج ١٢ ، ص : ٢٦٨و المقصود من هذا كله أن الكفار يسألون الرجعة وهم وقوف بين يدي الله ، كما قال – تعالى – ولو ترى إذ المجرمون ناكسوا رؤسهم عند ربهم ، ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحا إنا موقنون « ١ ».ثم بين – سبحانه – أن تذللهم هذا لن يجديهم ، وأن ما هم فيه من عذاب سببه إعراضهم عن دعوة الحق في الدنيا ، فقال : ذلكم بأنه إذا دعي الله وحده كفرتم ، وإن يشرك به تؤمنوا ، فالحكم لله العلي الكبير.أى : ذلكم الذي نزل بكم من عذاب سببه ، أنكم كنتم في الدنيا إذا عبد الله – تعالى – وحده ، وطلب منكم ذلك كفرتم به – عز وجل – ، وإن يشرك به غيره من الأصنام أو غيرها آمنتم ، ومادام هذا حالكم في الدنيا ، فاخسئوا في النار ولا تؤملوا في الخروج منها ، بحال من الأحوال ، فالحكم لله وحده دون غيره ، وهو سبحانه الذي حكم عليكم بما حكم ..وهو – سبحانه – العلي أى : المتعالي عن أن يكون له مماثل في ذاته أو صفاته الكبير أى : العظيم الذي هو أعظم وأكبر من أن يكون له شريك أو صاحبة أو ولد.وجمع – سبحانه – لذاته بين هذين الوصفين للدلالة على كبريائه وعظمته.ثم ساق – سبحانه – بعد ذلك ما يدل على فضله ورحمته بعباده ، وعلى وحدانيته وكمال قدرته ، وعلى أن يوم القيامة آت لا ريب فيه ، وعلى أن كل نفس ستجازى في هذا اليوم بما كسبت بدون ظلم أو محاباة ، لأن القضاء فيه لله الواحد القهار. فقال – تعالى – : [سورة غافر (٤٠) : الآيات ١٣ الى ٢٢]هو الذي يريكم آياته وينزل لكم من السماء رزقا وما يتذكر إلا من ينيب (١٣) فادعوا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون (١٤) رفيع الدرجات ذو العرش يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده لينذر يوم التلاق (١٥) يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شيء لمن الملك اليوم لله الواحد القهار (١٦) اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب (١٧)وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع (١٨) يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور (١٩) والله يقضي بالحق والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء إن الله هو السميع البصير (٢٠) أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم كانوا هم أشد منهم قوة وآثارا في الأرض فأخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق (٢١) ذلك

---

(١) التفسير الوسيط للقرآن الكريم، المؤلف غير معروف ١١٩/١٠

بأنهم كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فكفروا فأخذهم الله إنه قوي شديد العقاب (٢٢)ـــــــــــــــــــ(١) راجع تفسير ابن كثير ج ٧ ص ١٢٢.." (١)

"التفسير الوسيط للقرآن الكريم ، ج ١٢ ، ص : ٢٧٥و الشفيع : من الشفع ، بمعنى الانضمام ، يقال شفع فلان لفلان إذا انضم إليه ليدافع عنه.أى : ليس للظالمين في هذا اليوم قريب أو محب يعطف عليهم ، ولا شفيع يطيعهم في الشفاعة لهم ، لأنهم في هذا اليوم يكونون محل غضب الجميع ونقمتهم ، بسبب ظلمهم وإصرارهم على كفرهم.فالآية الكريمة نفت عنهم الصديق الذي يهتم بأمرهم ، والشفيع الذي يشفع لهم ، والإنسان الذي تكون له أية كلمة تسمع في شأنهم.ثم أكد - سبحانه - شمول علمه لكل شيء فقال : يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور.والمراد بخائنة الأعين : النظرة الخائنة التي يتسلل بها المتسلل ليطلع على ما حرم الله الاطلاع عليه.والجملة خبر لمبتدأ محذوف. والإضافة في قوله خائنة الأعين على معنى من ، وخائنة : نعت لمصدر محذوف.أى : هو - سبحانه - يعلم النظرة الخائنة من الأعين ، وهي التي يوجهها صاحبها في تسلل وخفية إلى محارم الله - تعالى - كما يعلم - سبحانه - الأشياء التي يخفيها الناس في صدورهم ، وسيجازيهم على ذلك في هذا اليوم بما يستحقون.قال القرطبي : ولما جيء بعبد الله بن أبى سرح إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ما اطمأن أهل مكة ، وطلب له الأمان عثمان بن عفان ، صمت رسول الله صلى الله عليه وسلم طويلا ، ثم قال : « نعم ».فلما انصرف قال صلى الله عليه وسلم لمن حوله : « ما صمت إلا ليقوم إليه بعضكم فيضرب عنقه ».فقال رجل من الأنصار : فهلا اومأت إلى يا رسول الله؟ فقال : « إن النبي لا تكون له خائنة أعين » « ١ ».ثم بين - سبحانه - أن القضاء الحق في هذا اليوم مرده إليه وحده فقال : والله يقضي بالحق ....أى : والله - تعالى - يقضى بين عباده قضاء ملتبسا بالحق الذي لا يحوم حوله باطل.و الذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء .. أى : والآلهة الذين يعبدهم الكفار منـــــــــــــــــــ(١) تفسير القرطبي ج ١٥ ص ٣٠٣.." (٢)

"ج ٣ ، ص : ٢٩٥للحساب ، ويخوفونهم يوما يبرزون فيه أمام الحق - تبارك وتعالى - ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة [الأنعام ٩٤] بروزا أمام الله لا حول لهم ولا قوة ولا ساتر ولا وقاية من عذابه لا يخفى على الله منهم شيء.يا حسرتا على القوم الكافرين!! يقول الله - تعالى - بعد فناء الخلق أجمعين ، أى : بعد النفخة الأولى : لمن الملك اليوم ؟ فيجيب الله : لله الواحد القهار ، فالسائل والمجيب هو الله ، أو هو على لسان ملك ، أو حال الخلائق ناطقة بذلك.اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب فهو لا يشغله حساب عن حساب.تخويف الكفار وترويعهم [سورة غافر (٤٠) : الآيات ١٨ الى ٢٢]وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع (١٨) يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور (١٩) والله يقضي بالحق والذين يدعون من دونه لا يقضون بشي ء إن الله هو السميع البصير (٢٠) أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم كانوا

---

(١) التفسير الوسيط للقرآن الكريم، المؤلف غير معروف ٢٦٨/١٢

(٢) التفسير الوسيط للقرآن الكريم، المؤلف غير معروف ٢٧٥/١٢

هم أشد منهم قوة وآثارا في الأرض فأخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق (٢١) ذلك بأنهم كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فكفروا فأخذهم الله إنه قوي شديد العقاب (٢٢)." [١]

"ج ٣ ، ص : ٦١٠هو الأول فليس قبله شيء ، إذ هو السابق على جميع الموجودات لأنه مصدرها ، وهو الآخر لأنه الباقي بعد فناء خلقه ، وهو الظاهر وجوده لكثرة الدلائل المادية والمعنوية عليه ، وهو الباطن فلا تعرف العقول ذاته على حقيقتها ، ولا تدركها الأوهام وهو بكل شيء عليم ،روى في صحيح مسلم من حديث أبي هريرة : « اللهم أنت الأول فليس قبلك شيء ، وأنت الآخر فليس بعدك شيء ، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء ، وأنت الباطن فليس دونك شيء ، اقض عنا الدين وأغننا من الفقر! ». هو الذي خلق السموات والأرض « ١ » في ستة أيام ، الله أعلم بمقدارها ، وهو القادر على خلقها في لحظة إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون « ٢ » لكنه ذكر هذه المدة ليعلم العباد التأني والتثبت في الأمور ، وليعلمهم أن خلق السموات والأرض أكبر من خلقهم ، وليس هو بالهين لخلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس « ٣ » .ثم استوى على عرشه ، واستقام أمره ، واستقر على حسب ما يريده مما لا يعلم ذلك إلا هو ، وهذا هو رأى السلف ، وأما الخلف فيؤولون قائلين : استوى على عرشه بعد تكوين خلقه بمعنى أنه يدبر الأمر ويفصل الآيات ، يعلم ما يلج في الأرض ويدخل فيها من نبات وبذور ، وإنسان ومعادن وكنوز ، وما يخرج منها من زروع وثمار ، ومياه وجثث وغيرها ، وهو يعلم ما ينزل من السماء من مطر أو شهب أو ملك أو آيات ، وما يعرج فيها ويصعد إليها من عمل أو ملك أو غيره ، وهو معكم بعلمه وقدرته أينما كنتم ، والله بما تعملون بصير.له ملك السموات والأرض ، لا راد لقضائه ولا معقب لحكمه ، وإلى الله وحده ترجع الأمور ، يولج الليل في النهار ، ويولج النهار في الليل ، بمعنى أنه يدخل هذا في زمن ذاك ، وبالعكس ، ونحن في مصر نرى الليل في الشتاء طويلا بينما يكون النهار في الصيف قصيرا ، وفي الصيف يكون العكس ، وفي الربيعين يتساوى الليل والنهار ، سبحانه من قادر حكيم! وهو العليم بذات الصدور ومكنوناتها التي لا تفارقها يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور « ٤ » سبحانه وتعالى عما يشركون ؟______________(١) - الظاهر والله أعلم أن هذه الجمل بيان وتفسير لتمام ملكه ولذا فصلت عن سابقتها.(٢) - سورة يس آية ٨٢.(٣) - سورة غافر آية ١٩.(٤) - سورة غافر آية ٥٧.." [٢]

"﴿ ها أنتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم وتؤمنون بالكتاب كله وإذا لقوكم قالوا آمنا وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ قل موتوا بغيظكم إن الله عليم بذات الصدور (١١٩) ﴾ها هوذا الدليل على خطئكم في محبتهم، فأنتم تحبونهم وتحسنون إليهم، وهم لا يحبونكم ويحملون لكم العداوة والبغضاء، وأنتم تؤمنون بالكتب المنزلة كلها ومنها كتابهم، وهم لا يؤمنون بكتابكم، فكيف تحبونهم؟ وإذا لقوكم قالوا -نفاقا- : آمنا وصدقنا، وإذا خلا بعضهم إلى بعض بدا عليهم الغم والحزن، فعضوا أطراف أصابعهم من شدة الغضب، لما يرون من ألفة المسلمين واجتماع كلمتهم، وإعزاز الإسلام، وإذلالهم

---

(١) التفسير الواضح ـ موافقا للمطبوع، المؤلف غير معروف ٣/٢٩٥

(٢) التفسير الواضح ـ موافقا للمطبوع، المؤلف غير معروف ٣/٦١١

به. قل لهم -أيها الرسول- : موتوا بشدة غضبكم. إن الله مطلع على ما تخفي الصدور، وسيجازي كلا على ما قدم من خير أو شر.." (١)

"﴿ إن تكفروا فإن الله غني عنكم ولا يرضى لعباده الكفر وإن تشكروا يرضه لكم ولا تزر وازرة وزر أخرى ثم إلى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم تعملون إنه عليم بذات الصدور (٧) ﴾إن تكفروا- أيها الناس- بربكم ولم تؤمنوا به، ولم تتبعوا رسله، فإنه غني عنكم، ليس بحاجة إليكم، وأنتم الفقراء إليه، ولا يرضى لعباده الكفر، ولا يأمرهم به، وإنما يرضى لهم شكر نعمه عليهم. ولا تحمل نفس إثم نفس أخرى، ثم إلى ربكم مصيركم، فيخبركم بعملكم، ويحاسبكم عليه. إنه عليم بأسرار النفوس وما تخفي الصدور.." (٢)

"﴿ يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور (١٩) ﴾يعلم الله سبحانه ما تختلسه العيون من نظرات، وما يضمره الإنسان في نفسه من خير أو شر.." (٣)

"و يتناجون أو يتحدثون به فيما بينهم من المطاعن في الدين ، وأنه أعلم بضمائرهم ، فإنهم إن قالوا : ليتصدقن بشيء من أموالهم ، فإن الله أعلم بهم من أنفسهم ، وأنه علام الغيوب ، يعلم كل غيب وشهادة ، وكل سر ونجوى ، ويعلم ما ظهر وما بطن ، يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور ، يعلم الله كل ذلك وما أسروه من النفاق والعزم على إخلاف ما وعدوه ، فكيف يكذبون على الله فيما يعاهدونه به ، وعلى الناس فيما يحلفون عليه باسمه ؟ ! والفرق بين السر والنجوى والغيب : أن السر : ما ينطوي عليه صدورهم ، والنجوى : ما يتحدث به الناس فيما بينهم. والغيب : ما كان غائبا عن الخلق.فقه الحياة أو الأحكام : دلت الآيات على الأحكام التالية : ١- المعاهدة مع الله توجب الوفاء بالعهد ، وهل من شرط المعاهدة التلفظ بها باللسان أو لا حاجة إلى التلفظ ، وإنما تكفي النية في القلب ؟ خلاف بين العلماء ، قال المالكية : العهد والطلاق وكل حكم ينفرد به المرء ، ولا يفتقر إلى غيره فيه ، فإنه يلزمه منه ما يلتزمه بقصده ، وإن لم يتلفظ به. سئل مالك : إذا نوى الرجل الطلاق بقلبه ولم يلفظ به بلسانه ، فقال : يلزمه كما يكون مؤمنا بقلبه ، وكافرا بقلبه. وروي عنه غير ذلك كما سيأتي.وقال الشافعي وأبو حنيفة : لا يلزم أحدا حكم إلا بعد أن يلفظ به ، وذلك يشمل النذور والأيمان والطلاق ونحوها. ودليلهما رواه مسلم والترمذي عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « إن الله تجاوز لأمتي عما حدثت به أنفسها ، ما لم تعمل أو تتكلم به » قال ابن عبد البر : هذا هو الأشهر عن مالك ، وقال القرطبي : وهذا هو الأصح في النظر وطريق الأثرلقول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فيما رواه أصحاب الكتب الستة عن أبي هريرة : « إن الله تعالى تجاوز لأمتي عما حدثت به أنفسها ، ما لم تتكلم به أو تعمل به » .." (٤)

"و سبب الأمر بغض البصر هو سد الذرائع إلى الفساد ، ومنع الوصول إلى الإثم والذنب ، فإن النظر بريد الزنى ، وقال بعض السلف : النظر سهم سم إلى القلب ، ولذلك جمع الله في الآية بين الأمر بحفظ الفروج ، والأمر بحفظ الأبصار

---

(١) التفسير الميسر، المؤلف غير معروف ٤١٨/١

(٢) التفسير الميسر، المؤلف غير معروف ٢٣٢/٨

(٣) التفسير الميسر، المؤلف غير معروف ٣١٢/٨

(٤) التفسير المنير فى العقيدة والشريعة والمنهج، المؤلف غير معروف ٣٢٧/١٠

التي هي بواعث إلى المحظور الأصلي وهو الزنى ، فقال : ويحفظوا فروجهم أي من ارتكاب الفاحشة كالزنى واللواط ومن نظر أحد إليها ، كماروى أحمد وأصحاب السنن : « احفظ عورتك إلا من زوجتك ، أو ما ملكت يمينك » .وقال تعالى مبينا حكمة الأمر بالحكمين : ذلك أزكى لهم أي إن غض البصر وحفظ الفرج خير وأطهر لقلوبهم ، وأنقى لدينهم ، كما قيل : من حفظ بصره أورثه الله نورا في بصيرته ، أو في قلبه. وروى الإمام أحمد عن أبي أمامة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « ما من مسلم ينظر إلى محاسن امرأة ، ثم يغض بصره ، إلا أخلف الله له عبادة يجد حلاوتها » وروى الطبراني عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن النظر سهم من سهام إبليس مسموم ، من تركه مخافتي أبدلته إيمانا يجد حلاوته في قلبه » .وأزكى الذي هو أفعل التفضيل للمبالغة في أن ج ١٨ ، ص : ٢١٥غض البصر وحفظ الفرج يطهران النفوس من دنس الرذائل. والمفاضلة على سبيل الفرض والتقدير ، أو باعتبار ظنهم أن في النظر نفعا.إن الله خبير بما يصنعون أي إن الله عليم علما تاما بكل ما يصدر عنهم من أفعال ، لا تخفى عليه خافية ، وهذا تهديد ووعيد ، كما قال تعالى : يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور [غافر ٤٠/ ١٩] فهو يعلم استراق النظر وسائر الحواس ، والخبرة : العلم القوي الذي يصل إلى بواطن الأشياء.أخرج البخاري في صحيحة تعليقا ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : ." (١)

"و لما علم الله المؤمنين أدب الدخول إلى البيوت وصون الأذن والعين من النظر المحرم ، أكده بما يحملهم على محافظته ، فقال : ٤- وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ، ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أي ما صح وما ينبغي لكم أن تكونوا سببا في إيذاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أو تفعلوا فعلا يضايقه ويكرهه ، كالمكث في منزله والاشتغال بالحديث ، فكل ما منعتم عنه مؤذ ، فامتنعوا عنه ، فإنه صلى الله عليه وسلم حريص على ما فيه إسعادكم وخيركم في الدنيا والآخرة ، ومن أشد أنواع الأذى ومما هو حرام عليكم أن تتزوجوا أبدا بنسائه بعد مفارقتهن بموت أو طلاق ، تعظيما له ، ولأنهن أمهات المؤمنين ، ولأنه ذنب عظيم كما قال تعالى : إن ذلكم كان عند الله عظيما أي إن إيذاء الرسول صلى الله عليه وسلم ونكاح أزواجه من بعده ذنب عظيم وإثم كبير. وفي هذا تعظيم الأمر ، وتشديد فيه وتوعد عليه ، ثم أكد ذلك بالبعد عن الإيذاء في الباطن والظاهر فقال : إن تبدوا شيئا أو تخفوه ، فإن الله كان بكل شيء عليما أي إن تظهروا شيئا من الأذى أو تكتموه ، فإن الله عليم علما تاما دقيقا به ، يعلم ما تكنه ضمائركم ، وتنطوي عليه سرائركم ، ولا تخفى عليه خافية : يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور [غافر ٤٠/ ١٩] وهو مجاز كل إنسان بحسب ذلك العلم.ثم استثنى الله تعالى من حكم حجاب أزواج النبي على الأجانب المحارم ونساء المؤمنين والأرقاء ، فقال : ." (٢)

"ج ٢٤ ، ص : ٩٦في ساعة واحدة.جاء في الخبر : « و لا ينتصف النهار حتى يقيل أهل الجنة في الجنة ، وأهل النار في النار » .والخلاصة : ذكر الله تعالى ست صفات ليوم القيامة : وهي كونه يوم التلاق ، وكون الخلق بارزين ظاهرين فيه ، ولا يخفى على الله منهم شيء ، ويظهر فيه الملك التام لله الواحد القهار ، وتجزى فيه كل نفس بما كسبت من خير

---

(١) التفسير المنير فى العقيدة والشريعة والمنهج، المؤلف غير معروف ٢١٧/١٨

(٢) التفسير المنير فى العقيدة والشريعة والمنهج، المؤلف غير معروف ٩٥/٢٢

أو شر ، ولا ظلم في الحساب الذي هو سريع الإجراء والتنفيذ وتحقيق المطلوب.أوصاف أخرى هائلة رهيبة ليوم القيامة [سورة غافر (٤٠) : الآيات ١٨ الى ٢٢]وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع (١٨) يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور (١٩) والله يقضي بالحق والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء إن الله هو السميع البصير (٢٠) أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم كانوا هم أشد منهم قوة وآثارا في الأرض فأخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق (٢(١) ذلك بأنهم كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فكفروا فأخذهم الله إنه قوي شديد العقاب (٢٢)الإعراب : وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ، ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع إذ بدل من يوم الآزفة الذي هو مفعول به ل أنذرهم لا ظرف ، لأن الإنذار لا يكون يوم الآزفة. والقلوب مبتدأ ، ولدى الحناجر خبر. وكاظمين ج ٢٤ ، ص : ٩٧." (١)

"يعلم الله خائنة الأعين أي النظرة الخائنة ، كالنظرة الثانية إلى الحرام ، واستراق النظر إليه ، فالمراد الأعين الخائنة : وهي التي تختلس النظر إلى المحرم وتسارقه وما تخفي الصدور القلوب ، أي ما تكتمه الضمائر. والجملة خبر خامس للقلوب ، للدلالة على أنه ما من خفي إلا وهو متعلق العلم والجزاء. ج ٢٤ ، ص : ٩٨و الله يقضي بالحق لأنه المالك الحاكم على الإطلاق ، فلا يقضي بشيء إلا وهو حقه والذين يدعون يعبدون ، أي كفار مكة من دونه أي الأصنام لا يقضون بشيء فكيف يكونون شركاء لله ؟ وهذا تهكم بهم ، لأن الجماد لا يقال فيه : إنه يقضي أو لا يقضي إن الله هو السميع البصير السميع لأقوالهم البصير بأفعالهم ، وهذا تعليل وتقرير لعلمه بخائنة الأعين وقضائه بالحق ، ووعيد لهم على ما يقولون ويفعلون ، وتعريض بحال ما يدعونه من دونه.عاقبة الذين كانوا من قبلهم مآل حال الذين كذبوا الرسل قبلهم كعاد وثمود كانوا هم أشد منهم قوة قدرة وتمكنا وآثارا في الأرض من قلاع ومصانع وقصور ومدائن حصينة فأخذهم الله أهلكهم واق حافظ يدفع عنهم السوء أو العذاب.بالبينات بالمعجزات الظاهرات والأحكام الواضحة إنه قوي متمكن مما يريده غاية التمكن شديد العقاب ليس هناك عقاب أشد منه.المناسبة : بعد بيان كون الأنبياء ينذرون الناس يوم التلاق ، أتى بأوصاف هائلة رهيبة أخرى ليوم القيامة ، لتخويف الكفار بعذاب الآخرة ، ثم خوفهم بعذاب الدنيا المماثل لإهلاك الأمم السابقة الذين كذبوا الرسل.التفسير والبيان : ." (٢)

"يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور أي إن الله يعلم النظرة الخائنة التي ينظرها العبد إلى المحرم ، ويعلم ما تسره الضمائر من أمور خيرة أو شريرة ، حتى حديث النفس أو خواطر النفس. وهذا يعني أن علم الله تام محيط بجميع الأشياء جليلها وحقيرها ، صغيرها وكبيرها ، دقيقها ولطيفها ، ليحذر الناس علمه فيهم ، فيستحيوا من الله حق الحياء ، ويتقوه حق تقواه ، ويراقبوه مراقبة من يعلم أنه يراه ، فإنه تعالى يعلم العين الخائنة ، وإن أبدت أمانة ، ويعلم ما تنطوي عليه خبايا الصدور من الضمائر والسرائر ، أي مضمرات القلوب.قال ابن عباس رضي الله عنهما في هذه الآية : هو الرجل يدخل على أهل البيت بيتهم ، وفيهم المرأة الحسناء ، أو تمر به وبهم المرأة الحسناء ، فإذا غفلوا لحظ إليها ، فإذا فطنوا غض بصره

---

(١) التفسير المنير فى العقيدة والشريعة والمنهج، المؤلف غير معروف ٩٣/٢٤

(٢) التفسير المنير فى العقيدة والشريعة والمنهج، المؤلف غير معروف ٩٥/٢٤

عنها ، فإذا غفلوا لحظ ، فإذا فطنوا غض ، وقد اطلع الله تعالى من قلبه أنه ود أن لو اطلع على فرجها « ١ »

.ــــــــــــــــــ(١) رواه ابن أبي حاتم وابن أبي شيبة وابن المنذر.ج ٢٤ ، ص : ١٠٠و الله يقضي بالحق أي والله يحكم بالحكم العادل ، فيجازي بالحسنة الحسنة ، وبالسيئة السيئة ، ويجازي كل أحد بما يستحقه من خير أو شر.والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء ، إن الله هو السميع البصير أي والذين يعبدونه من الأصنام من غير الله ، لا يتمكنون من القضاء بشيء ، أي فلا يحكمون بشيء ، ولا يملكون شيئا ، لأنهم لا يعلمون شيئا ، ولا يقدرون على شيء ، فالذي تجب عبادته هو القادر على كل شيء ، ولا يخفى عليه شيء ، فإن الله سميع لأقوال خلقه ، بصير بأفعالهم ، فيجازيهم عليه يوم القيامة.." (١)

"٥- حذر الله تعالى من مخالفة نهيه عن موالاة الأعداء بأمرين : أولهما- أنه سبحانه الأعلم بما تخفي الصدور ، وما تظهر الألسن من الإقرار بالله وتوحيده.وثانيهما- أن من يوالي الكفار ويسر إليهم ويكاتبهم من المسلمين ، فقد ضل سواء السبيل ، أي أخطأ قصد الطريق.٦- قوله سبحانه : تسرون إليهم بالمودة أي بالنصيحة في الكتاب إليهم ، هو معاتبة لحاطب ، وهو يدل على فضله وكرامته ونصيحته لرسول الله صلى الله عليه وسلم وصدق إيمانه ، فإن المعاتبة لا تكون إلا من محب لحبيبه.٧- الذي يفيد الإنسان يوم القيامة هو الإيمان الصحيح والعمل الصالح ، أما الأهل والأولاد أو أصحاب القرابات أو الأنساب ، فلا ينفعون شيئا يوم ج ٢٨ ، ص : ١٢٥القيامة ، إن عصي الله عز وجل من أجل ذلك ، والله بصير بأعمال عباده ، ويجازيهم عليها إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر.والله سبحانه يفرق أو يفصل بين الأقارب وغيرهم يوم القيامة ، فيدخل المؤمنين الجنة ، ويدخل الكافرين النار.التأسي بإبراهيم عليه السلام والذين آمنوا معه [سورة الممتحنة (٦٠) : الآيات ٤ الى ٧]." (٢)

"و الله بما تعملون عليم ودليل على إحاطة علم الله بالأشياء لأن من ملك شيئا وخلقه ، فلا بد من أن يعلمه ، كقوله تعالى : ألا يعلم من خلق ، وهو اللطيف الخبير [الملك ٦٧/ ١٤] ، وكذلك من ملك شيئا فله حسابه على أفعاله وما يخفيه صدره ، ومنها كتمان الشهادة ، وصاحب السلطة المطلقة في شيء وهو الحساب ، له الإرادة المطلقة في العفو عمن شاء ممن أخطأ ، وعقاب من شاء ، وذلك كله مقترن بالقدرة المطلقة على كل شي ء.وللآية أمثال كثيرة في القرآن الكريم نحو : قل : إن تخفوا ما في صدوركم أو تبدوه يعلمه الله ، ويعلم ما في السماوات وما في الأرض ، والله على كل شيء قدير [آل عمران ٣/ ٢٩] ونحو : فإنه يعلم السر وأخفى [طه ٢٠/ ٧] يعلم خائنة الأعين ، وما تخفي الصدور [غافر ٤٠/ ١٩].التفسير والبيان : يخبر الله تعالى في هذه الآية أن له ملك السموات والأرض وما فيهن وما بينهن ، وأنه المطلع على ما فيهن ، لا تخفى عليه الظواهر والسرائر والضمائر وإن دقت وخفيت ، وأنه سيحاسب عباده على ما فعلوه وما أخفوه في صدورهم ، كما قال ابن كثير فلله ما في السموات وما في الأرض ملكا وخلقا وتصريفا وعلما ، وهو العليم

---

(١) التفسير المنير فى العقيدة والشريعة والمنهج، المؤلف غير معروف ٩٧/٢٤

(٢) التفسير المنير فى العقيدة والشريعة والمنهج، المؤلف غير معروف ١٢٨/٢٨

بكل شيء ، فإن تظهروا ما في قلوبكم من السوء والعزم عليه ، أو تكتموه عن الناس وتخفوه ، فالله يحاسبكم عليه ويجازكم به ، إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر.." (١)

"و جاء في الخبر أن هذه الآية لما نزلت نزل معها اثنا عشر ألف ملك.وفي صحيح مسلم عن عائشة قالت : من زعم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يخبر بما يكون في غد ، فقد أعظم على الله الفرية ، والله تعالى يقول : قل : لا يعلم من في السماوات والأرض الغيب إلا الله [النمل ٢٧/ ٦٥].وفي معناها أيضا قوله تعالى : عالم الغيب ، فلا يظهر على غيبه أحدا إلا من ارتضى من رسول [الجن ٧٢/ ٢٦- ٢٧].ويعلم سبحانه حديث النفس ، ويعلم السر وأخفى ، فقال : وإن ربك ليعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون. وما من غائبة في السماء والأرض إلا في كتاب مبين [النمل ٢٧/ ٧٤- ٧٥] وقال : يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور [غافر ٤٠/ ١٩]. ج ٧ ، ص : ٢٢٩و جملة لا يعلمها إلا هو توكيد للجملة السابقة.ثم فصل تعالى ما أجمل ، وعدد بعض نواحي العلم التي يحيط بها فقال : ويعلم ما في البر والبحر .. أي يعلم الأشياء المشاهدة لكم ، كما يعلم المغيبات ، فيعلم كل ما هو كائن في البر والبحر ، فعلمه محيط بجميع الموجودات بريها وبحريها ، لا يخفى عليه من ذلك شيء ، ولا مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء.ويعلم سقوط أي ورقة من أوراق الشجر في أي مكان وزمان ، في البر والبحر ، ويعلم الحركات حتى من الجمادات ، وبالأولى الحيوانات ، ولا سيما المكلفون منهم من الجن والإنس ، ويعلم الأحوال المتعلقة بالذوات إذ سقوط الورق حال من الأحوال.." (٢)

"و التوفيق أو الجمع بين قوله : فلنسئلن الذين أرسل إليهم ولنسئلن المرسلين وبين قوله : فيومئذ لا يسئل عن ذنبه إنس ولا جان [الرحمن ٥٥/ ٣٩] وقوله : ولا يسئل عن ذنوبهم المجرمون [القصص ٢٨/ ٧٨] : هو أن ليوم القيامة مواقف وأحوالا متعددة ، فقد يكون السؤال والجواب في بعضها دون بعض ، وقد يكون السؤال لأجل الاسترشاد والاستفادة ، وقد يكون لأجل التوبيخ والإهانة.وقال الرازي : إن القوم لا يسألون عن الأعمال لأن الكتب مشتملة عليها ، ولكنهم يسألون عن الدواعي التي دعتهم إلى الأعمال ، وعن الصوارف التي صرفتهم عنها « ١ » ، أي الموانع التي حالت بينهم وبين التزام الأحكام الشرعية.فلنخبرن عن علم ومعرفة وإحاطة تامة الرسل وأقوامهم بكل ما حدث منهم ، فلا يغيب عنا شيء قليل أو كثير ، وإن كان مثقال ذرة من خردل في صخرة أو في السموات أو في الأرض. قال ابن عباس في آية : فلنقصن عليهم بعلم : يوضع الكتاب يوم القيامة ، فيتكلم بما كان يعملون.وما كنا غائبين عنهم في وقت أو حال ، بل كنا معهم نسمع قولهم ، ونبصر فعلهم ، ونعلم ما يسرون وما يعلنون ، ونخبر العباد يوم القيامة بمنا قالوا وبما عملوا من قليل وكثير ، وجليل وحقير لأنه تعالى الشهيد على كل شيء لا يغيب عنه شيء ، ولا يغفل عن شيء ، بل هو العالم بخائنة الأعين وما تخفي الصدور ، كما قال : وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ، ولا حبة في ظلمات_______________(١)

(١) التفسير المنير فى العقيدة والشريعة والمنهج، المؤلف غير معروف ١٣٣/٣

(٢) التفسير المنير فى العقيدة والشريعة والمنهج، المؤلف غير معروف ٢٣٧/٧

تفسير الرازي : ١٤/ ٢٣ [.....]ج ٨ ، ص : ١٤٥الأرض ، ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين [الأنعام ٦/ ٥٩] فقوله : وما كنا غائبين يعني كنا شاهدين لأعمالهم.." (١)

"﴿ما للظالمين﴾ ؛ أي : الكافرين ﴿من حميم﴾ ؛ أي : قريب مشفق ، يعني : (هيج خويشى مشفق ويار مهربان عذاب ايشان را دفع كند). ﴿ولا شفيع يطاع﴾ : وشفيع مشفع على معنى نفي الشفاعة والطاعة معا ، وعلى أن يطاع مجاز عن يجاب وتقبل شفاعته ؛ لأن المطيع في الحقيقة يكون أسفل حالا من المطاع ، وليس في الوجود من هوأعلى حالا من الله تعالى حتى يكون مطاعا له تعالى. وفي الآية بيان أن لا شفاعة في حق الكفار ؛ لأنها وردت في ذمهم ، وإنما قيل للظالمين موضع للكافرين ، وإن كان أعم منهم ومن غيرهم من العصاة ، بحسب لظاهر تسجيلا لهم بالظلم ، ودلالة على اختصاص انتفاء كل واحد من الحميم والشفيع المشفع بهم فثبت أن لعصاة المسلمين حميما وشفيعا ومشفعا ، وهو النبي عليه السلام ، وسائر الأنبياء والمرسلين والأولياء المقربين والملائكة أجمعين.﴿وأنذرهم يوم الازفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمينا ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع * يعلم خآئانة الاعين وما تخفى الصدور * والله يقضى بالحقا والذين يدعون من دونه لا يقضون بشىءا إن الله هو السميع البصير﴾ .﴿يعلم﴾ : (ميداند خداى تعالى). ﴿خآئانة الاعين﴾ ؛ أي : النظرة الخائنة للأعين وإسناد الخيانة إلى النظرة مجاز لأن الخائن هو الناظر أو يعلم خائنة الأعين على أنها مصدر كالعافية كقوله تعالى : ﴿ولا تزال تطلع على خآئانة منهم﴾ (المائدة : ١٣). والخيانة مخالفة الحق بنقض العهد في السر ونقيضها الأمانة. والمراد هنا : استراق النظر إلى غير المحرم كفعل أهل الريب. والنظرة الثانية إليه. وفي الخبر "يا ابن آدم لك النظرة الأولى" معفوة لوقوعها مفاجأة دون الثانية لكونها مقارنة للقصد ، وهي من قبيل زنا النظر. وفي المثنوي : جزء : ٨ رقم الصفحة : ١٤٨كرزناى جشم حظى مى بربنى كباب از بهلوى خود ميخوربوذلك لأن النظر سهم مسموم من سهام إبليس. والنظرة تزرع في القلب شهوة وكفى بها فتنة. قال الكاشفي : جشم نظر بانجة حرامستيا غمز كرده بمعايب مردمأي : الرمز بالعين على وجه العيب : دو جشم از بى صنع باري نكوستزعيب برادر فروكير ودوست(يا كذب در رؤيت وعدم رؤيت). يعني : يدعي الرؤية كذابا ، أو ينكرها.وفي "التأويلات النجمية" : خائنة أعين المحبين استحسانهم شيئا غير المحبوب ، والنظر إلى غير المحبوب. وفي معناها قيل : ()فعيني إذا استحسنت غيركمأمرت الدموع بتأديبهاحكي : أن بعضهم مر بدكان. وفيه نطاق معلق فتعلق به نظره ، فاستحسنه ، ثم لما تباعد عن الدكان.١٧٠فقد النطاق من محله ، فاتبعه صاحب الدكان ، ففتش عنه ، فوجده على وسطه. وكان ذلك عقوبة من الله عليه لاستحسانه ذلك النطاق حتى اتهم بسرقته وعوقب عليه.قال أبو عثمان : خيانة العين ، هو أن لا يغضها عن المحارم ويرسلها إلى الهوى والشهوات.وقال أبو بكر الوارق : يعلم من يمد عينيه إلى الشيء معتبرا ، ومن يمد عينيه لإرادة الشهوة. وقال أبو جعفر النيسابوري : زنا العارف نظره بالشهوة إمام قشيري : (فر مود كه خيانت جشمهاى محبان آنست كه در أوقات مناجات خواب را بيرا من آن كذا رند خيانكه در زبور آمده كه دروغ كويد هركه دعوى محبت من كند وجون شب در آيد جشم از بخواب رود (ع) ومن نام عينا نام عنه وصالنا) : خواب رابا ديده عاشق جه كارجشم او جون شمع باشد اشكبارجشمهاى عاشقا نرا خواب نيستبك

---

(١) التفسير المنير فى العقيدة والشريعة والمنهج، المؤلف غير معروف ١٤٥/٨

نفس ان جشمهابى آب نيست﴿وما تخفى الصدور﴾ : من الضمائر والأسرار مطلقا خيرا كانت أو شرا ، ثبت بهذا أن أفعال القلوب معلومةتعالى. وكذا أفعال الجوارح تكون ؛ لأن أخفاها ، وهي خائنة الأعين إذا كانت معلومةتعالى ، فعلمه تعالى سائر أفعال الجوارح يكون أولى ، والحاكم إذا بلغ في العلم إلى هذا الحد ، ويجب أن يكون خوف المجرم منه أشد وأقوى ، فقوله تعالى : يعلم. إلخ. في قوة التعليل للأمر بالإنذار.وفي "التأويلات النجمية" : وما تخفي الصدور من متمنيات النفوس ومستحسنات القلوب ومرغوبات الأرواح ، فالحق به خبير ، ويكون السالك موقوفا بها ، حتى يخرج من تعلقها.جزء : ٨ رقم الصفحة : ١٤٨." (١)

"وقال بعضهم : خيانته في الصدور أن لا يصير في مقام القبض ليجري عليه أحكام الحقيقة ، ثم ينكشف له عالم البسط ، فقد وصف الله خيانة العيون وخفايا الصدور. وقال : لا يخفى عليه شيء من ذلك ، وذلك أن العين باب من أبواب القلب ، فإذا رأت شيئا يكون حظ القلب منه يعلم ذلك نفسه ، فيطلب الحظ منه ، ومن القلب إلى العين باب يجري عليها حركة هواجس النفس تحثها على النظر إلى شيء فيه لها نصيب ، فإذا تحققت ذلك علمت أن خيانة الأعين متعلقة بما تخفي الصدور ، وإذا كان العارف عارفا بنفسه وراضها برياضات طويلة وطهرها بمجاهدات كثيرة وزمها بزمام الخوف وآداب الشريعة ، صارت صافية من حظوظها ، ولكن بقيت في سرها جبلتها على الشهوات ، ففي كل لحظة يجري في سرها طلب حظوظها ، ولكنها سترتها عن العقل وأخفتها عن الروح من خوفها ، فإذا وجدت الفرصة خرجت إلى رؤية العين ، فتنظر إلى مرادها ، فتسرق حظها من النظر إلى المحارم ، وذلك النظر خفي ، وتلك الشهوة خفية وصفهما الله سبحانه في هذه الآية ، واستعاذ منهما النبي عليه السلام ، حيث قال : أعوذ بك من شهوة خفية ، ثم إن الروح العاشق إذا احتجب عن مشاهدة جمال الأزل ينقبض ويطلب حظه ، ولا يقدر أن ينظر إلى الحق ، فيطلب ذلك من الصورة الإنسانية التي فيها آثار الروحانية ، فينظر من منظره إلى منظر العقل ، ومن منظر العقل إلى منظر القلب ، ومن منظر القلب إلى منظر النفس ، ومن منظر النفس إلى منظر الصورة ، وينظر من العين إلى جمال المستحسنات ، لينكشف له ما استتر١٧١عنه من شواهد الحق ، فتذهب النفس معه وتسرق بحثه حظها ، من النظر بالشهوة ، فذلك النظر منها غير مرضي في الشرع ، والطريقة والحقيقة ، وكذا نظر الروح إلى الحق بالوسائط خيانة ، فيلزم عليه أن يصبر على الانقباض إلى أن يتجلى له جمال الحق بغير واسطة. قال الشيخ سعدي : جرا طفل يك روزه هو شش نبردكه در صنع ديدن جه بالغ جه بلغ جه خردمحقق همي بيند اندر ابلكه درخو برويان جبن وجكلومن الله التوفيق لنظر التحقيق.﴿والله يقضى﴾ يحكم. ﴿بالحق﴾ ؛ أي : بالصدق والعدل في حق كل محسن ومسيء ؛ لأنه المالك الحاكم على الإطلاق ، فلا يقضي بشيء إلا وهو حق وعدل يستحقه المكلف ، ويليق به ففيه تشديد لخوف المكلف. ﴿والذين يدعون﴾ ؛ أي : يعبدونهم.﴿من دونه﴾ تعالى ، وهم : الأصنام. وبالفارسية : (وآنانهم راكه مى برستند مشركان بدون خدا). ﴿لا يقضون بشيء﴾ : (حكمى نمى كنند ايشان بجيزى زيراكه اكر جماداند ايشانرا قدرت بدان نيست واكر حيوانند مخلوق ومملوك اند ومخلوق راقوت حكم وفرمان نيست).جزء : ٨ رقم الصفحة : ١٤٨وفي "الإرشاد" : هذا تهكم بهم ؛ لأن جمادا ، لا يقال في حقه يقضي ولا

---

(١) تفسير روح البيان ـ موافق للمطبوع، المؤلف غير معروف ١٢٨/٨

يقضى. ﴿إن الله هو السميع البصير﴾ : تقرير لعلمه تعالى بخائنة الأعين وقضائه بالحق ، فإن من يسمع ما يقولون ، ويبصر ما يفعلون إذا قضى قضى بالحق ووعيد لهم على ما يفعلون ، ويقولون وتعريض بحال ما يدعون من دونه ، فإنهم عريانون عن التلبس بهاتين الصفتين ، فكيف يكونون معبودين.وفي الآية إشارة إلى أن الله تعالى يقضي للأجانب بالبعاد والوصال لأهل الوداد ، ويخرج السالكين من تعلقات أوصافهم على ما قضى به ، وقدر في الأزل ، وإن كان بواسطة إيمانهم وأعمالهم الصالحة ، أن الله قد سمع سؤال الحوائج في الأزل ، وهم بعد في العدم ، وكذا سمع أنين نفوس المذنبين وحنين قلوب المحبين وأبصر بحاجاتهم ، ثم إنه لما بالغ في تخويف الكفار بأحوال الآخرة أردفه بالتخويف بأحوال الدنيا ، فقال : ﴿والله يقضى بالحقا والذين يدعون من دونه لا يقضون بشىءا إن الله هو السميع البصير * أولم يسيروا فى الارض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم كانوا هم أشد منهم قوة وءاثارا فى الارض فأخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق * ذالك بأنهم كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فكفروا فأخذهم الله إنه قوى شديد العقاب﴾ .﴿أولم يسيروا فى الأرض﴾ : (آيا سفر نميكنند مشركان مكه درزمين ويمن براى تجارت).﴿فينظروا﴾ : يجوز أن يكون منصوبا بالعطف على أن يسيروا ، وأن يكون منصوبا على أنه جواب الاستفهام. ﴿كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم﴾ ؛ أي : مآل حال من قبلهم من الأمم المكذبة لرسلهم كعاد وثمود وأضرابهم ، وكانت ديارهم ممر تجار قريش. ﴿كانوا هم أشد منهم قوة﴾ ، قدرة وتمكنا من التصرفات ، وإنما جيء بضمير الفصل مع أن حقه التوسط بين معرفتين كقوله : أولئك هم المفلحون لمضاهاة أفعل من للمعرفة في امتناع دخول اللام عليه.." (١)

"" صفحة رقم ١٩ "سورة المؤمن(سورة المؤمن وهي مكية إلا آية قوله إن الذين يجادلون حروفها أربعة آلاف وتسعمائة وسبعون كلمها ألف ومائتان غير كلمة آياتها خمس وثمانون) بسم الله الرحمن الرحيم(غافر : (١ – ٢٢) حم" حم تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذي الطول لا إله إلا هو إليه المصير ما يجادل في آيات الله إلا الذين كفروا فلا يغررك تقلبهم في البلاد كذبت قبلهم قوم نوح والأحزاب من بعدهم وهمت كل أمة برسولهم ليأخذوه وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق فأخذتهم فكيف كان عقاب وكذلك حقت كلمة ربك على الذين كفروا أنهم أصحاب النار الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلما فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم ربنا وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم إنك أنت العزيز الحكيم وقهم السيئات ومن تق السيئات يومئذ فقد رحمته وذلك هو الفوز العظيم إن الذين كفروا ينادون لمقت الله أكبر من مقتكم أنفسكم إذ تدعون إلى الإيمان فتكفرون قالوا ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين فاعترفنا بذنوبنا فهل إلى خروج من سبيل ذلكم بأنه إذا دعي الله وحده كفرتم وإن يشرك به تؤمنوا فالحكم لله العلي الكبير هو الذي يريكم آياته وينزل لكم من السماء رزقا وما يتذكر إلا من ينيب فادعوا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون رفيع الدرجات ذو العرش يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده لينذر يوم التلاق يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شيء لمن الملك اليوم لله الواحد القهار اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم إن الله

---

(١) تفسير روح البيان ـ موافق للمطبوع، المؤلف غير معروف ١٢٩/٨

سريع الحساب وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور والله يقضي بالحق والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء إن الله هو السميع البصير أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم كانوا هم أشد منهم قوة وآثارا في." (١)

"" صفحة رقم ٢٩ " أمارات الموت يعظم خوفه ، فلو جعلنا كون القلوب لدى الحناجر كناية عن شدة الخوف جاز ، ولو حملناه على ظاهره فلا بأس . وقوله (كاظمين (أي مكروبين .والكاظم الساكت حال امتلائه غما وغيظا قال عز من قائل) والكاظمين الغيظ ( ) آل عمران : ١٣٤ (وانتصابه على أنه حال عن أصحاب القلوب كأنه قيل : إذ قلوبهم لدى حناجرهم كاظمين عليها ، أو عن القلوب .وجمع جمع السلامة بناء على أن الكظم من أفعال العقلاء كقوله) فظلت أعناقهم لها خاضعين) [الشعراء : ٤] أو عن ضمير المفعول في) وأنذرهم (أي وأنذرهم مقدرين أو مشارفين الظم فيكون حالا مقدرة .وفي قوله) ما للظالمين من حميم ولا شفيع (بحث بين الأشاعرة والمعتزلة حيث حمله الأولون على أهل الشرك ، والآخرون على معنى أعم حتى يشمل أصحاب الكبائر .وقد مر مرارا ولا سيما في قوله) وما للظالمين من أنصار ( ) آل عمران : ١٩٢ (ومعنى قوله) يطاع (يجاب أي لا شفاعة ولا إجابة كقوله :ولا ترى الضب بها ينجحروذلك أنه لا يشفع أحد في ذلك اليوم إلا بإذن الله ، فإن أذن له أجيب وإلا فلا يوجد شيء من الأمرين .والفائدة في ذكر هذه الصفة أن يعلم أن الغرض من الشفيع منتف في حقهم وإن فرض شفيع على ما يزعم أهل الشرك من أن الأصنام يشفعون لهم . وقوله (يعلم خائنة الأعين (خبر آخر لقوله) هو الذي يريكم آياته (إلا أنه فصل بالتعليل وهو قوله) لينذر (وذكر وصف القيامة استطرادا ، قال جار الله : هي صفة للنظرة أو مصدر بمعنى الخيانة كالعافية ، والمراد استراق النظر إلى ما لا يحل كما يفعل أهل الريب .قال : ولا يحسن أن تكون الخائنة صفة للأعين مضافة إليها نحو (جرد قطيفة) أي يعلم العين الخائنة لأن قوله) وما تخفي الصدور (لا يساعد عليه .قلت : يعني أن عطف العرض على الجوهر والمعنى على العين غير مناسب .وقيل : هي قول الإنسان رأيت ولم ير وما رأيت ورأى .ومضمرات الصدرو أي القلوب فيها لأنها فيها .قيل : هي ما يستره الإنسان من أمانة وخيانة .وقيل : الوسوسة .وقال ابن عباس : ما تخفي الصدور بعد النظر إليها أيزني بها أم لا .أقول : والحاصل أنه تعالى أراد أن يصف نفسه بكمال العلم فإن المجازاة تتوقف على ذلك .ففي قوله) يعلم خائنة الأعين (إشارة إلى أنه عالم بجميع أفعال الجوارح ، وفي قوله) وما تخفى الصدور (دلالة على أنه عالم بجميع أفعال القلوب .وإذا علمت هذه الصفة وقد عرفت من الأصناف السابقة كمال قدرته واستغنائه لم يبق شك في حقية قضائه فلذلك قال) والله يقضى بالحق (ثم وبخهم على عبادة من لا قضاء له ولا سمع ولا بصر." (٢)

"لطائف الإشارات ، ج ٣ ، ص : ٣٠٢قيامه الكل مؤجلة ، وقيامة المحبين معجلة فلهم في كل نفس قيامة من العقاب والعذاب والثواب ، والبعاد والاقتراب ، وما لم يكن لهم في حساب «١» ، وتشهد عليهم الأعضاء فالدمع يشهد ، وخفقان القلب ينطق ، والنحول يخبر ، واللون يفصح ... والعبد يستر ولكن البلاء يظهر :يا من تغير صورتى لما بدا

---

(١) غرائب القرآن ورغائب الفرقان، المؤلف غير معروف ١٩/٦

(٢) غرائب القرآن ورغائب الفرقان، المؤلف غير معروف ٢٩/٦

لجميع ما ظنوا بنا تصديقا «٢»و أنشدوا :لى في محبته شهود أربع وشهود كل قضية اثنانذوبان جسمى وارتعاد مفاصلى وخفوق قلبي واعتقال لسانو قلوبهم – إذا أزف الرحيل بلغت الحناجر ، وعيونهم شرقت بدموعها إذا نودى بالرحيل وشدت الرواحل.قوله جل ذكره :[سورة غافر (٤٠) : آية ١٩]يعلم خائنة الأعين و ما تخفي الصدور (١٩)فحائنة أعين المحبين استحسانهم شيئا ، ولهذا قالوا :يا قرة العين : سل عيني هل اكتحلت بمنظر حسن مذ غبت عن بصرى؟و لذلك قالوا :فعيني إذا استحسنت غيركم أمرت السهاد بتعذيبها______________(١) أي وما لم يخطر لهم ببال.(٢) معنى الشاهد الشعرى فيما نظن : يا أيها الذي تتغير صورتى عند تجليه علي ، فينكشف أمرى رغم محاولتى ستر حالى ، وبذا تصدق ظنون العاذلين واللائمين. [.....]."(١)

"لطائف الإشارات ، ج ٣ ، ص : ٣٠٣و من خائنة أعينهم أن تأخذهم السنة والسبات في أوقات المناجاة وقد جاء في قصة داود عليه السلام : كذب من ادعى محبتى ، فإذا جنة الليل نام عنى! ومن خائنة أعين العارفين أن يكون لهم خبر بقلوبهم عما تقع عليه عيونهم.ومن خائنة أعين الموحدين أن تخرج منها قطرة دمع تأسفا على مخلوق يفوت في الدنيا والآخرة ، ولا على أنفسهم.ومن خائنة أعين المحبين النظر إلى غير المحبوب بأى وجه كان ، ففى الخبر : «حبك الشيء يعمى ويضم».«وما تخفي الصدور» : فالحق به خبير «١».قوله جل ذكره :[سورة غافر (٤٠) : آية ٢٠]والله يقضي بالحق و الذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء إن الله هو السميع البصير (٢٠)يقضى للأجانب بالبعاد ، ولأهل الوصال بالوداد ، ويقضى يوم القدوم بعزل عمال الصدود ، وإذا ذبح الموت غدا بين الجنة والنار على صورة كبش أملح فلا غرابة أن يذبح الفراق على رأس سكة «٢» الأحباب في صورة شخص منكر ويصلب على جذوع العبرة لينظر إليه أهل الحضرة.قوله جل ذكره :[سورة غافر (٤٠) : آية ٢١]أ و لم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم كانوا هم أشد منهم قوة و آثارا في الأرض فأخذهم الله بذنوبهم و ما كان لهم من الله من واق (٢١)______________(١) كان عبد الله بن أبي سرح يكتب الوحى لرسول الله (ص) ثم ارتد ولحق بالمشركين فأمر رسول الله (ص) بقتله يوم فتح مكة.و يروى أنه لما جيء به إلى الرسول (ص) بعد ما اطمأن أهل مكة ، وطلب عثمان رضى الله عنه له الأمان صمت الرسول طويلا ثم قال : «نعم» ، فلما انصرف قال الرسول (ص) لمن حوله : «ما صمت إلا ليقوم إليه بعضكم فيضرب عنقه» فقال رجل من الأنصار : فهلا أو مأت إلى يا رسول الله؟ فقال : إن النبي لا تكون له خائنة أعين»(٢) السكة الطريق المستوي.." (٢)

" ثم وصف سبحانه شمول علمه لكل شيء وإن كان في غاية الخفاء فقال : ١٩ – ﴿ يعلم خائنة الأعين ﴾ وهي مسارقة النظر إلى ما لا يحل النظر إليه والجملة خبر آخر لقوله : ﴿ هو الذي يريكم ﴾ قال المؤرج : فيه تقديم وتأخير : أي يعلم الأعين الخائنة وقال قتادة : خائنة الأعين : الهمز بالعين فيما لا يحب الله وقال الضحاك : هو قول الإنسان ما

---

(١) لطائف الإشارات موافقا للمطبوع، المؤلف غير معروف ٣٠٢/٣

(٢) لطائف الإشارات موافقا للمطبوع، المؤلف غير معروف ٣٠٣/٣

رأيت وقد رأى ورأيت وما رأى وقال سفيان : هي النظرة بعد النظرة والأول أولى وبه قال مجاهد ﴿ وما تخفي الصدور ﴾ من الضمائر وتسره من معاصي الله ." (١)

" ٢٠ – ﴿ والله يقضي بالحق ﴾ فيجازي كل أحد بما يستحقه من خير وشر ﴿ والذين تدعون من دونه ﴾ أي تعبدونهم من دون الله ﴿ لا يقضون بشيء ﴾ لأنهم لا يعلمون شيئا ولا يقدرون على شيء : قرأ الجمهور ﴿ يدعون ﴾ بالتحتية يعني الظالمين واختار هذه القراءة أبو عبيد وأبو حاتم وقرأ نافع وشيبة وهشام بالفوقية على الخطاب لهم ﴿ إن الله هو السميع البصير ﴾ فلا يخفى عليه من المسموعات والمبصرات خافية

وقد أخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه عن ابن مسعود في قوله : ﴿ أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين ﴾ قال : هي مثل التي في البقرة ﴿ كنتم أمواتا فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ﴾ كانوا أمواتا في صلب آبائهم ثم أخرجهم فأحياهم ثم أماتهم ثم يحييهم بعد الموت وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس في الآية قال : كنتم ترابا قبل أن يخلقكم فهذه ميتة ثم أحياكم فخلقكم فهذه حياة ثم يميتكم فترجعون إلى القبور فهذه ميتة أخرى ثم يبعثكم يوم القيامة فهذه حياة فهما موتتان وحياتان كقوله : ﴿ كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم ﴾ الآية وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس في قوله : ﴿ يوم التلاق ﴾ قال : يوم القيامة يلتقي فيه آدم وآخر ولده وأخرج عنه أيضا قال : ﴿ يوم التلاق ﴾ يوم الآزفة ونحو هذا من أسماء يوم القيامة عظمه الله وحذره عباده وأخرج عبد الله بن أحمد في زوائد الزهد وابن أبي حاتم والحاكم وصححه وأبو نعيم في الحلية عنه أيضا قال : ينادي مناد بين يدي الساعة : يا أيها الناس أتتكم الساعة فيسمعها الأحياء والأموات وينزل الله إلى السماء الدنيا فيقول : ﴿ لمن الملك اليوم لله الواحد القهار ﴾ وأخرج ابن أبي الدنيا في البعث والديلمي عن أبي سعد عن النبي صلى الله عليه و سلم مثله وأخرج عبد بن حميد عن ابن مسعود قال [يجمع الله الخلق يوم القيامة بصعيد واحد بأرض بيضاء كأنها سبيكة فضة لم يعص الله فيها قط فأول ما يتكلم أن ينادي مناد ﴿ لمن الملك اليوم لله الواحد القهار ﴾ ﴿ اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب ﴾ فأول ما يبديه من الخصومات الدماء] وأخرج سعيد بن منصور وابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور ﴾ قال : الرجل يكون في القوم فتمر بهم المرأة فيريهم أنه يغض بصره عنها وإذا غفلوا لحظ إليها وإذا نظروا غض بصره عنها وقد اطلع الله من قلبه أنه ود أن ينظر إلى عورتها وأخرج ابن أبي حاتم والطبراني في الأوسط وأبو نعيم في الحلية والبيهقي في الشعب عنه في الآية قال : إذا نظر إليها يريد الخيانة أم لا ﴿ وما تخفي الصدور ﴾ قال : إذا قدر عليها أيزني بها أم لا ؟ ألا أخبركم بالتي تليها ﴿ والله يقضي بالحق ﴾ قادر على أن يجزي بالحسنة الحسنة وبالسيئة السيئة وأخرج أبو داود والنسائي وابن مردويه عن سعد قال : [لما كان يوم فتح مكة أمن النبي صلى الله عليه و سلم الناس إلا أربعة نفر وامرأتين وقال : اقتلوهم وإن وجتموهم متعلقين بأستار الكعبة منهم عبد الله بن سعد بن أبي سرح فاختبأ عند عثمان بن عفان فلما دعا رسول الله صلى الله عليه و سلم الناس إلى البيعة جاء به فقال : يا رسول الله بايع عبد الله فرفع رأسه فنظر إليه ثلاثا كل ذلك يأبى بيعته ثم أقبل على أصحابه فقال : أما كان فيكم

(١) فتح القدير، المؤلف غير معروف ٤/٦٩٢

رجل رشيد يقول إلى هذا حين رآني كففت يدي عن بيعته فيقتله ؟ فقالوا : ما يدرينا يا رسول الله ما في نفسك هلا أومأت إلينا بعينك ؟ فقال : إنه لا ينبغي لنبي أن يكون له خائنة الأعين] ." (١)

"يَعْلَمُ خائِنَةَ الْأَعْيُنِ أى النظرة الخائنة كالنظرة إلى من حرم النظر إليها واستراق النظر إليها أو مصدر بمعنى الخيانة كالعافية بمعنى المعافاة يعنى يعلم خيانة الأعين الجملة خبر اخر لهو فى قوله هو الّذى يريكم آياته وَما تُخْفِي الصُّدُورُ (١٩) من الضمائر قيل يعنى ما يتفكر الرجل بقلبه فى جمال امراة اجنبية بعد ما ينظر إليها بشهوة مسارقة.وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ لأنه المالك على الإطلاق والحكيم والعليم بما ظهر وما بطن فلا يقضى الا بما يقتضيه علمه وحكمته ولا يقضى الا وهو حقه والجملة عطف على يعلم وَالَّذِينَ يَدْعُونَ قرأ نافع وهشام بالتاء للخطاب على الالتفات أو بإضمار قل والباقون بالياء للغيبة مِنْ دُونِهِ من الأوثان والشياطين والملوك الجبابرة لا يَقْضُونَ بِشَيْ ءٍ لعدم قدرتهم على القضاء إِنَّ اللَّهَ هُوَ التفسير المظهري ج ٨ ، ص : ٢٥١السَّمِيعُ الْبَصِيرُ(٢٠) تقرير لعلمه بخائنة الأعين وقضائه بالحق ووعيد لهم على ما يقولون ويفعلون وتعريض بحال ما يدعون من دونه بانها لا تسمع ولا تبصر.أَ وَلَمْ يَسِيرُوا عطف على محذوف تقديره ا ينكرون وبال الكفر ولم يسيروا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ أى مال إليه امر الَّذِينَ كانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ من الأمم المكذبة للرسل كعاد وثمود كانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً قدرة وتمكنا جئ بالفصل لمشابهة افعل من بالمعرفة فى امتناع دخول اللام عليه قرأ ابن عامر أشدّ منكم على الالتفات وَآثاراً فِي الْأَرْضِ من القلاع والمدائن الحصينة وقيل المعنى اكثر اثارا كقوله متقلدا سيفا ورمحا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ فاهلكهم بالريح أو الصيحة أو نحو ذلك وَما كانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ واقٍ (٢١) يمنع عنهم من العذاب حيث لم يلتجئوا إليه الجملة عطف أو حال ذلك الاخذ.." (٢)

"وفي الطبراني من طريق عبيد الله بن يزيد عن علي بن يزيد عن القاسم عن أبي أمامة مرفوعا " لتغضن أبصاركم ولتحفظن فروجكم ولتقيمن وجوهكم أو لتكسفن وجوهكم" وقال الطبراني : حدثنا أحمد بن زهير التستري قال : قرأنا على محمد بن حفص بن عمر الضرير المقري حدثنا يحي بن أبي بكير حدثنا هريم بن سفيان عن عبد الرحمن بن إسحاق عن القاسم بن عبد الرحمن عن أبيه عن عبد الله بن مسعود " قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إن النظر سهم من سهام إبليس مسموم من تركها مخافتي أبدلته إيمانا يجد حلاوتها في قلبه " وقوله تعالى " إن الله خبير بما يصنعون " كما قال تعالى " يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور " وفي الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " كتب على ابن آدم حظه من الزنا أدرك ذلك لا محالة فزنا العينين النظر وزنا اللسان النطق وزنا الأذنين الاستماع وزنا اليدين البطش وزنا الرجلين الخطى والنفس تمنى وتشتهي والفرج يصدق ذلك أو يكذبه " رواه البخاري تعليقا ومسلم مسندا من وجه آخر بنحو ما ذكر .وقد قال كثير من السلف إنهم كانوا ينهون أن يحد الرجل نظره إلى الأمرد وقد

---

(١) فتح القدير، المؤلف غير معروف ٦٩٢/٤

(٢) تفسير المظهرى، المؤلف غير معروف ص/٥٧٤٣

شدد كثير من أئمة الصوفية في ذلك وحرمه طائفة من أهل العلم لما فيه من الافتتان وشدد آخرون في ذلك كثيرا جدا .وقال ابن أبي الدنيا حدثنا أبو سعيد المدني حدثنا عمر بن سهل المازني٢١٦@@@." (١)

"ذلكم كان عند الله عظيما " قال ابن أبي حاتم حدثنا علي بن الحسين حدثنا محمد بن أبي حماد حدثنا مهران عن سفيان عن داود بن هند عن عكرمة عن ابن عباس في قوله تعالى " وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله " قال نزلت في رجل هم أن يتزوج بعض نساء النبي صلى الله عليه وسلم بعده قال رجل لسفيان أهي عائشة ؟ قال قد ذكروا ذلك وكذا قال مقاتل بن حيان وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وذكر بسنده عن السدي أن الذي عزم على ذلك طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه حتى نزل التنبيه على تحريم ذلك ولهذا أجمع العلماء قاطبة على أن من توفي عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم من أزواجه أنه يحرم على غيره تزوجها من بعده لأنهن أزواجه في الدنيا والآخرة وأمهات المؤمنين كما تقدم واختلفوا فيمن دخل بها ثم طلقها في حياته هل يحل لغيره أن يتزوجها ؟ على قولين مأخذهما هل دخلت هذه في عموم قوله" من بعده " أم لا فأما من تزوجها ثم طلقها قبل أن يدخل بها فما نعلم في حلها لغيره والحالة هذه نزاعا والله أعلم وقالابن جرير حدثني محمد بن المثنى حدثنا عبد الوهاب حدثنا داود عن عامر أن نبي الله صلى الله عليه وسلم مات وقد ملك قيلة ابنة الأشعث يعني ابن قيس فتزوجها عكرمة بن أبي جهل بعد ذلك فشق ذلك على أبي بكر مشقة شديدة فقال له عمر يا خليفة رسول الله إنها ليست من نسائه إنها لم يخيرها رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يحجبها وقد برأها الله منه بالردة التي ارتدت مع قومها قال فاطمأن أبو بكر رضي الله عنه وسكن وقد عظم الله تبارك وتعالى ذلك وشدد فيه وتوعد عليه بقوله " إن ذلكم كان عند الله عظيما " .إن تبدوا شيئا أو تخفوه فإن الله كان بكل شيء عليما (٥٤)إن تبدوا شيئا أو تخفوه فإن الله كان بكل شيء عليماثم قال " إن تبدوا شيئا أو تخفوه فإن الله كان بكل شيء عليما " أي مهما تكنه ضمائركم وتنطوي عليه سرائركم فإن الله يعلمه فإنه لا تخفى عليه خافية " يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور " .لا جناح عليهن في آبائهن ولا أبنائهن ولا إخوانهن ولا أبناء إخوانهن ولا أبناء أخواتهن ولا نسائهن ولا ما ملكت أيمانهن واتقين الله إن الله كان على كل شيء شهيدا (٥٥)لا جناح عليهن في آبائهن ولا أبنائهن ولا إخوانهن ولا أبناء إخوانهن ولا أبناء أخواتهن ولا نسائهن ولا ما ملكت أيمانهن واتقين الله إن الله كان على٢٠٩@@@." (٢)

".وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع (١٨)وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاعيوم الآزفة اسم من أسماء يوم القيامة وسميت بذلك لاقترابها كما قال تعالى " أزفت الآزفة ليس لها من دون الله كاشفة " وقال عز وجل " اقتربت الساعة وانشق القمر " وقال جل وعلا " اقترب للناس حسابهم " وقال " أتى أمر الله فلا تستعجلوه " وقال جل جلاله " فلما رأوه زلفة سيئت وجوه الذين كفروا " الآية .وقوله تبارك وتعالى " إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين " قال قتادة وقفت القلوب في الحناجر من الخوف فلا تخرج ولا تعود إلى أماكنها وكذا قال عكرمة والسدي وغير واحد ومعنى كاظمين أي ساكتين لا يتكلم أحد إلا

(١) تفسير ابن كثير – ط قرطبة، المؤلف غير معروف ١٠/٢١٥

(٢) تفسير ابن كثير – ط قرطبة، المؤلف غير معروف ١١/٢٠٨

بإذنه " يوم يقوم الروح والملائكة صفا لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا " وقال ابن جريج "كاظمين " أي باكين .وقوله سبحانه وتعالى " ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع " أي ليس للذين ظلموا أنفسهم بالشرك بالله من قريب منهم ينفعهم ولا شفيع يشفع فيهم بل قد تقطعت بهم الأسباب من كل خير .يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور (١٩)يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدوريخبر عز وجل عن علمه التام المحيط بجميع الأشياء جليلها وحقيرها صغيرها وكبيرها دقيقها ولطيفها ليحذر الناس علمه فيهم فيستحيوا من الله تعالى حق الحياء ويتقوه حق تقواه ويراقبوه مراقبة من يعلم أنه يراه فإنه عز وجل يعلم العين الخائنة وإن أبدت أمانة ويعلم ما تنطوي عليه خبايا الصدور من الضمائر والسرائر .قال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى " يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور " هو الرجل يدخل على أهل البيت بيتهم وفيهم المرأة الحسناء أو تمر به وبهم المرأة الحسناء فإذا غفلوا لحظ إليها فإذا فطنوا غض بصره عنها فإذا غفلوا لحظ فإذا فطنوا غض وقد اطلع الله تعالى من قلبه١٨٢@@@." (١)

"أنه ود أن لو اطلع على فرجها رواه ابن أبي حاتم وقال الضحاك " خائنة الأعين " هو الغمز وقول الرجل رأيت ولم ير .أو لم أر وقد رأى وقال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما يعلم الله تعالى من العين في نظرها هل تريد الخيانة أم لا ؟ وكذا قال مجاهد وقتادة وقال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى " وما تخفي الصدور " يعلم إذا أنت قدرت عليها هل تزني بها أم لا ؟ وقال السدي " وما تخفي الصدور " أي من الوسوسة .والله يقضي بالحق والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء إن الله هو السميع البصير (٢٠)والله يقضي بالحق والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء إن الله هو السميع البصيروقوله عز وجل " والله يقضي بالحق " أي يحكم بالعدل قال الأعمش عن سعيد بن جبير عن ابن عباس في قوله تعالى " والله يقضي بالحق " قادر على أن يجزي بالحسنة الحسنة وبالسيئة السيئة " إن الله هو السميع البصير " وهذا الذي فسر به ابن عباس رضي الله عنهما هذه الآية كقوله تبارك وتعالى " ليجزي الذين أساءوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى " وقوله جل وعلا " والذين يدعون من دونه " أي من الأصنام والأوثان والأنداد " لا يقضون بشيء " أي لا يملكون شيئا ولا يحكمون بشيء " إن الله هو السميع البصير " أي سميع لأقوال خلقه بصير بهم فيهدي من يشاء ويضل من يشاء وهو الحاكم العادل في جميع ذلك .أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم كانوا هم أشد منهم قوة وآثارا في الأرض فأخذهم الله بذنوبهم وما كان١٨٣@@@." (٢)

".وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع (١٨)وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاعيوم الآزفة اسم من أسماء يوم القيامة وسميت بذلك لاقترابها كما قال تعالى " أزفت الآزفة ليس لها من دون الله كاشفة " وقال عز وجل " اقتربت الساعة وانشق القمر " وقال جل وعلا " اقترب للناس حسابهم " وقال " أتى أمر الله فلا تستعجلوه " وقال جل جلاله " فلما رأوه زلفة سيئت وجوه الذين كفروا " الآية .وقوله تبارك وتعالى " إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين " قال قتادة وقفت القلوب في الحناجر من

---

(١) تفسير ابن كثير – ط قرطبة، المؤلف غير معروف ١٨١/١٢

(٢) تفسير ابن كثير – ط قرطبة، المؤلف غير معروف ١٨٢/١٢

الخوف فلا تخرج ولا تعود إلى أماكنها وكذا قال عكرمة والسدي وغير واحد ومعنى كاظمين أي ساكتين لا يتكلم أحد إلا بإذنه " يوم يقوم الروح والملائكة صفا لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا " وقال ابن جريج "كاظمين " أي باكين .وقوله سبحانه وتعالى " ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع " أي ليس للذين ظلموا أنفسهم بالشرك بالله من قريب منهم ينفعهم ولا شفيع يشفع فيهم بل قد تقطعت بهم الأسباب من كل خير .يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور (١٩)يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدوريخبر عز وجل عن علمه التام المحيط بجميع الأشياء جليلها وحقيرها صغيرها وكبيرها دقيقها ولطيفها ليحذر الناس علمه فيهم فيستحيوا من الله تعالى حق الحياء ويتقوه حق تقواه ويراقبوه مراقبة من يعلم أنه يراه فإنه عز وجل يعلم العين الخائنة وإن أبدت أمانة ويعلم ما تنطوي عليه خبايا الصدور من الضمائر والسرائر .قال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى " يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور " هو الرجل يدخل على أهل البيت بيتهم وفيهم المرأة الحسناء أو تمر به وبهم المرأة الحسناء فإذا غفلوا لحظ إليها فإذا فطنوا غض بصره عنها فإذا غفلوا لحظ فإذا فطنوا غض وقد اطلع الله تعالى من قلبه١٨٢@@@." (١)

"أنه ود أن لو اطلع على فرجها رواه ابن أبي حاتم وقال الضحاك " خائنة الأعين " هو الغمز وقول الرجل رأيت ولم ير .أو لم أر وقد رأى وقال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما يعلم الله تعالى من العين في نظرها هل تريد الخيانة أم لا ؟ وكذا قال مجاهد وقتادة وقال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى " وما تخفي الصدور " يعلم إذا أنت قدرت عليها هل تزني بها أم لا ؟ وقال السدي " وما تخفي الصدور " أي من الوسوسة .والله يقضي بالحق والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء إن الله هو السميع البصير (٢٠)والله يقضي بالحق والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء إن الله هو السميع البصيروقوله عز وجل " والله يقضي بالحق " أي يحكم بالعدل قال الأعمش عن سعيد بن جبير عن ابن عباس في قوله تعالى " والله يقضي بالحق " قادر على أن يجزي بالحسنة الحسنة وبالسيئة السيئة " إن الله هو السميع البصير " وهذا الذي فسر به ابن عباس رضي الله عنهما هذه الآية كقوله تبارك وتعالى " ليجزي الذين أساءوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى " وقوله جل وعلا " والذين يدعون من دونه " أي من الأصنام والأوثان والأنداد " لا يقضون بشيء " أي لا يملكون شيئا ولا يحكمون بشيء " إن الله هو السميع البصير " أي سميع لأقوال خلقه بصير بهم فيهدي من يشاء ويضل من يشاء وهو الحاكم العادل في جميع ذلك .أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم كانوا هم أشد منهم قوة وآثارا في الأرض فأخذهم الله بذنوبهم وما كان١٨٣@@@." (٢)

"وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع (١٨)وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاعيوم الآزفة اسم من أسماء يوم القيامة وسميت بذلك لاقترابها كما قال تعالى " أزفت الآزفة ليس لها من دون الله كاشفة " وقال عز وجل " اقتربت الساعة وانشق القمر " وقال جل وعلا " اقترب للناس حسابهم " وقال " أتى أمر الله فلا تستعجلوه " وقال جل جلاله " فلما رأوه زلفة سيئت وجوه

(١) تفسير ابن كثير – ط قرطبة، المؤلف غير معروف ٥٥٠/١٢

(٢) تفسير ابن كثير – ط قرطبة، المؤلف غير معروف ٥٥١/١٢

الذين كفروا " الآية .وقوله تبارك وتعالى " إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين " قال قتادة وقفت القلوب في الحناجر من الخوف فلا تخرج ولا تعود إلى أماكنها وكذا قال عكرمة والسدي وغير واحد ومعنى كاظمين أي ساكتين لا يتكلم أحد إلا بإذنه " يوم يقوم الروح والملائكة صفا لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا " وقال ابن جريج "كاظمين " أي باكين .وقوله سبحانه وتعالى " ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع " أي ليس للذين ظلموا أنفسهم بالشرك بالله من قريب منهم ينفعهم ولا شفيع يشفع فيهم بل قد تقطعت بهم الأسباب من كل خير .يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور (١٩)يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدوريخبر عز وجل عن علمه التام المحيط بجميع الأشياء جليلها وحقيرها صغيرها وكبيرها دقيقها ولطيفها ليحذر الناس علمه فيهم فيستحيوا من الله تعالى حق الحياء ويتقوه حق تقواه ويراقبوه مراقبة من يعلم أنه يراه فإنه عز وجل يعلم العين الخائنة وإن أبدت أمانة ويعلم ما تنطوي عليه خبايا الصدور من الضمائر والسرائر .قال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى " يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور " هو الرجل يدخل على أهل البيت بيتهم وفيهم المرأة الحسناء أو تمر به وبهم المرأة الحسناء فإذا غفلوا لحظ إليها فإذا فطنوا غض بصره عنها فإذا غفلوا فطنوا غض وقد اطلع الله تعالى من قلبه١٨٢@@@." (١)

"أنه ود أن لو اطلع على فرجها رواه ابن أبي حاتم وقال الضحاك " خائنة الأعين " هو الغمز وقول الرجل رأيت ولم ير .أو لم أر وقد رأى وقال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما يعلم الله تعالى من العين في نظرها هل تريد الخيانة أم لا ؟ وكذا قال مجاهد وقتادة وقال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى " وما تخفي الصدور " يعلم إذا أنت قدرت عليها هل تزني بها أم لا ؟ وقال السدي " وما تخفي الصدور " أي من الوسوسة .والله يقضي بالحق والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء إن الله هو السميع البصير (٢٠)والله يقضي بالحق والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء إن الله هو السميع البصيروقوله عز وجل " والله يقضي بالحق " أي يحكم بالعدل قال الأعمش عن سعيد بن جبير عن ابن عباس في قوله تعالى " والله يقضي بالحق " قادر على أن يجزي بالحسنة الحسنة وبالسيئة السيئة " إن الله هو السميع البصير " وهذا الذي فسر به ابن عباس رضي الله عنهما هذه الآية كقوله تبارك وتعالى " ليجزي الذين أساءوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى " وقوله جل وعلا " والذين يدعون من دونه " أي من الأصنام والأوثان والأنداد " لا يقضون بشيء " أي لا يملكون شيئا ولا يحكمون بشيء " إن الله هو السميع البصير " أي سميع لأقوال خلقه بصير بهم فيهدي من يشاء ويضل من يشاء وهو الحاكم العادل في جميع ذلك .أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم كانوا هم أشد منهم قوة وآثارا في الأرض فأخذهم الله بذنوبهم وما كان١٨٣@@@." (٢)

"وقوله تعالى " وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو " قال البخاري : حدثنا عبد العزيز بن عبد الله حدثنا إبراهيم بن سعد عن ابن شهاب عن سالم بن عبد الله عن أبيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال مفاتح الغيب خمس لا يعلمهن إلا الله " إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما في الأرحام وما تدري نفس ماذا تكسب غدا وما تدري

---

(١) تفسير ابن كثير – ط قرطبة، المؤلف غير معروف ٩١٩/١٢

(٢) تفسير ابن كثير – ط قرطبة، المؤلف غير معروف ٩٢٠/١٢

نفس بأي أرض تموت إن الله عليم خبير " وفي حديث عمر أن جبريل حين تبدى له في صورة أعرابي فسأل عن الإيمان والإسلام والإحسان فقال له النبي صلى الله عليه وسلم فيما قال له " خمس لا يعلمهن إلا الله " ثم قرأ " إن الله عنده علم الساعة " الآية .وقوله " ويعلم ما في البر والبحر " أي يحيط علمه الكريم بجميع الموجودات بريها وبحريها لا يخفى عليه من ذلك شيء ولا مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء وما أحسن ما قال الصرصري :فلا يخفى عليه الذر ... إما تراءى للنواظر أو تواريوقوله " وما تسقط من ورقة إلا يعلمها " أي ويعلم الحركات حتى من الجمادات فما ظنك بالحيوانات ولا سيما المكلفون منهم من جنهم وإنسهم كما قال تعالى " يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور " .وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي حدثنا الحسن بن الربيع حدثنا أبو الأحوص عن سعيد بن مسروق حدثنا حسان النمري عن ابن عباس في قوله " وما تسقط من ورقة إلا يعلمها" قال ما من شجرة في بر ولا بحر إلا وملك موكل بها يكتب ما يسقط منها رواه ابن أبي حاتم وقوله" ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين " قال ابن أبي حاتم : حدثنا عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن المسور الزهري حدثنا مالك بن سعير حدثنا الأعمش عن يزيد بن أبي زياد عن عبد الله بن الحارث قال : ما في الأرض من شجرة ولا مغرز إبرة إلا وعليها ملك موكل يأتي الله بعلمها رطوبتها إذا رطبت ويبوستها إذا يبست وكذا رواه ابن جرير عن أبي الخطاب زياد بن عبد الله الحساني عن مالك بن سعير به .ثم قال ابن أبي حاتم ذكر عن أبي حذيفة حدثنا سفيان عن عمرو بن قيس عن رجل عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : خلق الله النون وهي الدواة وخلق الألواح فكتب فيها أمر الدنيا حتى ينقضي ما كان من خلق مخلوق أو رزق حلال أو حرام أو عمل بر أو فجور وقرأ هذه الآية " وما تسقط من ورقة إلا يعلمها" إلى آخر الآية قال محمد بن إسحاق عن يحي بن النضر عن أبيه سمعت عبد الله بن عمرو بن العاص يقول إن تحت الأرض الثالثة وفوق الرابعة من الجن ما لو أنهم ظهروا يعني لكم لم تروا معهم نورا على كل زاوية من زوايا الأرض خاتم من خواتيم الله عز وجل على كل خاتم ملك من الملائكة يبعث الله عز وجل إليه في كل يوم ملكا من عنده أن احتفظ بما عندك .وهو الذي يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار ثم يبعثكم فيه ليقضى أجل مسمى ثم إليه مرجعكم ثم ينبئكم بما كنتم تعملون (٦٠)وهو الذي يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار ثم يبعثكم فيه ليقضى أجل مسمى ثم إليه مرجعكم ثم ينبئكم بما كنتم تعملونيقول تعالى إنه يتوفى عباده في منامهم بالليل وهذا هو التوفي الأصغر كما قال تعالى " إذ قال الله يا عيسى إني متوفيك ورافعك إلي " وقال تعالى" الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى " فذكر في هذه الآية الوفاتين الكبرى والصغرى وهكذا ذكر في هذا المقام حكم الوفاتين الصغرى ثم الكبرى فقال " وهو الذي يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار " أي ويعلم ما كسبتم من الأعمال بالنهار وهذه جملة معترضة دلت على إحاطة علمه تعالى بخلقه في ليلهم ونهارهم في حال سكونهم وحال حركتهم كما قال " سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار " وكما قال تعالى " ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه " أي في الليل " ولتبتغوا من فضله " أي في النهار كما قال " وجعلنا الليل لباسا وجعلنا النهار معاشا " ولهذا قال تعالى ههنا " وهو الذي يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار " أي ما كسبتم من الأعمال فيه " ثم يبعثكم فيه" أي في النهار قاله مجاهد وقتادة والسدي وقال ابن جريج عن عبد الله بن كثير أي في المنام والأول أظهر وقد روى ابن مردويه بسنده عن الضحاك عن ابن عباس عن النبي صلى الله

عليه وسلم قال " مع كل إنسان ملك إذا نام أخذ نفسه ويرده إليه فإن أذن الله في قبض روحه قبضه وإلا رد إليه " فذلك قوله " وهو الذي يتوفاكم بالليل" .وقوله " ليقضى أجل مسمى " يعني به أجل كل واحد من الناس " ثم إليه مرجعكم " أي يوم القيامة" ثم ينبئكم " أي فيخبركم " بما كنتم تعملون" أي ويجزيكم على ذلك إن خيرا فخيرا وإن شرا فشرا .وهو القاهر فوق عباده ويرسل عليكم حفظة حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون (٦١)وهو القاهر فوق عباده ويرسل عليكم حفظة حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطونوقوله " وهو القاهر فوق عباده " أي وهو الذي قهر كل شيء وخضع لجلاله وعظمته وكبريائه كل شيء " ويرسل عليكم حفظة " أي من الملائكة يحفظون بدن الإنسان كقوله " له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله " وحفظة يحفظون عمله ويحصونه كقوله " وإن عليكم لحافظين" الآية وكقوله " عن اليمين وعن الشمال قعيد ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد " وقوله " إذ يتلقى المتلقيان " الآية وقوله " حتى إذا جاء أحدكم الموت " أي احتضر وحان أجله " توفته رسلنا " أي ملائكة موكلون بذلك قال ابن عباس وغير واحد : لملك الموت أعوان من الملائكة يخرجون الروح من الجسد فيقبضها ملك الموت إذا انتهت إلى الحلقوم وسيأتي عند قوله تعالى " يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت " الأحاديث المتعلقة بذلك الشاهدة لهذا المروي عن ابن عباس وغيره بالصحة وقوله " وهم لا يفرطون " أي في حفظ روح المتوفى بل يحفظونها وينزلونها حيث شاء الله عز وجل إن كان من الأبرار ففي عليين وإن كان من الفجار ففي سجين عياذا بالله من ذلك.ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق ألا له الحكم وهو أسرع الحاسبين (٦٢)ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق ألا له الحكم وهو أسرع الحاسبينوقوله " ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق " قال ابن جرير " ثم ردوا " يعني الملائكة " إلى الله مولاهم الحق " ونذكر ههنا الحديث الذي رواه الإمام أحمد حيث قال : حدثنا حسين بن محمد حدثنا ابن أبي ذئب عن محمد بن عمرو بن عطاء عن سعيد بن يسار عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال " إن الميت تحضره الملائكة فإذا كان الرجل الصالح قالوا اخرجي أيتها النفس الطيبة كانت في الجسد الطيب اخرجي حميدة وأبشري بروح وريحان ورب غير غضبان فلا تزال يقال لها ذلك حتى تخرج ثم يعرج بها إلى السماء فيستفتح لها فيقال من هذا فيقال فلان فيقال مرحبا بالنفس الطيبة كانت في الجسد الطيب ادخلي حميدة وأبشري بروح وريحان ورب غير غضبان فلا تزال يقال لها ذلك حتى ينتهى بها إلى السماء التي فيها الله عز وجل وإذا كان الرجل السوء قالوا اخرجي أيتها النفس الخبيثة كانت في الجسد الخبيث اخرجي ذميمة وأبشري بحميم وغساق وآخر من شكله أزواج فلا تزال يقال لها ذلك حتى تخرج ثم يعرج بها إلى السماء فيستفتح لها فيقال من هذا فيقال فلان فيقال لا مرحبا بالنفس الخبيثة كانت في الجسد الخبيث ارجعي ذميمة فإنه لا يفتح لك أبواب السماء فترسل من السماء ثم تصير إلى القبر فيجلس الرجل الصالح فيقال له مثل ما قيل في الحديث الأول ويجلس الرجل السوء فيقال له مثل ما قيل في الحديث الثاني " وهذا حديث غريب ويحتمل أن يكون المراد بقوله " ثم ردوا " يعني الخلائق كلهم إلى الله يوم القيامة فيحكم فيهم بعدله كما قال " قل إن الأولين والآخرين لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم " وقال " وحشرناهم فلم نغادر منهم أحدا " إلى قوله " ولا يظلم ربك أحدا " ولهذا قال " مولاهم الحق ألا له الحكم وهو أسرع الحاسبين" .قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر تدعونه تضرعا وخفية لئن أنجانا من هذه لنكونن من الشاكرين (٦٣)قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر تدعونه تضرعا وخفية لئن أنجانا من هذه لنكونن من الشاكرينيقول تعالى ممتنا على عباده في إنجائه المضطرين منهم

من ظلمات البر والبحر أي الحائرين الواقعين في المهامة البرية وفي اللجج البحرية إذا هاجت الرياح العاصفة فحينئذ يفردون الدعاء له وحده لا شريك له كقوله " وإذا مسكم الضر في البحر ضل من تدعون إلا إياه " الآية .وقوله" هو الذي يسيركم في البر والبحر حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين " الآية .وقوله " أمن يهديكم في ظلمات البر والبحر ومن يرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته أإله مع الله تعالى الله عما يشركون " وقال في هذه الآية الكريمة" قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر تدعونه تضرعا وخفية " أي جهرا وسرا " لئن أنجانا " أي من هذه الضائقة " لنكونن من الشاكرين " أي بعدها .قل الله ينجيكم منها ومن كل كرب ثم أنتم تشركون (٦٤)قل الله ينجيكم منها ومن كل كرب ثم أنتم تشركونقال الله " قل الله ينجيكم منها ومن كل كرب ثم أنتم " أي بعد ذلك " تشركون " أي تدعون معه في حال الرفاهية آلهة أخرى .قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم أو من تحت أرجلكم أو يلبسكم شيعا ويذيق بعضكم بأس بعض انظر كيف نصرف الآيات لعلهم يفقهون (٦٥)قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم أو من تحت أرجلكم أو يلبسكم شيعا ويذيق بعضكم بأس بعض انظر كيف نصرف الآيات لعلهم يفقهونوقوله " قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم أو من تحت أرجلكم " لما قال ثم أنتم تشركون عقبه بقوله " قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا " أي بعد إنجائه إياكم كقوله في سورة سبحان " ربكم الذي يزجي لكم الفلك في البحر لتبتغوا من فضله إنه كان بكم رحيما وإذا مسكم الضر في البحر ضل من تدعون إلا إياه فلما نجاكم إلى البر أعرضتم وكان الإنسان كفورا أفأمنتم أن يخسف بكم جانب البر أو يرسل عليكم حاصبا ثم لا تجدوا لكم وكيلا أم أمنتم أن يعيدكم فيه تارة أخرى فيرسل عليكم قاصفا من الريح فيغرقكم بما كفرتم ثم لا تجدوا لكم علينا به تبيعا " قال ابن أبي حاتم ذكر عن مسلم بن إبراهيم حدثنا هارون الأعور عن جعفر بن سليمان عن الحسن في قوله " قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم أو من تحت أرجلكم " قال هذه للمشركين .وقال ابن أبي نجيح عن مجاهد في قوله " قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم أو من تحت أرجلكم " لأمة محمد صلى الله عليه وسلم وعفى عنهم ونذكر هنا الأحاديث الواردة في ذلك والآثار وبالله المستعان وعليه التكلان وبه الثقة .قال البخاري رحمه الله تعالى في قوله " قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم أو من تحت أرجلكم أو يلبسكم شيعا ويذيق بعضكم بأس بعض انظر كيف نصرف الآيات لعلهم يفقهون " يلبسكم يخلطكم من الالتباس يلبسوا يخلطوا شيعا فرقا حدثنا أبو النعمان حدثنا حماد بن زيد عن عمرو بن دينار عن جابر بن عبد الله قال لما نزلت هذه الآية " قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " أعوذ بوجهك " " أو من تحت أرجلكم" قال " أعوذ بوجهك " " أو يلبسكم شيعا ويذيق بعضكم بأس بعض " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه أهون – أو – أيسر .وهكذا رواه أيضا في كتاب التوحيد عن قتيبة عن حماد به ورواه النسائي أيضا في التفسير عن قتيبة ومحمد بن النضر بن مساور ويحي بن حبيب بن عدي أربعتهم عن حماد بن زيد به وقد رواه الحميدي في مسنده عن سفيان بن عيينة عن عمرو بن دينار سمع جابرا عن النبي صلى الله عليه وسلم به .ورواه ابن حبان في صحيحه عن أبي يعلى الموصلي عن أبي خيثمة عن سفيان بن عيينة به ورواه ابن جرير في تفسيره عن أحمد بن الوليد القرشي وسعيد بن الربيع وسفيان بن وكيع كلهم عن سفيان بن عيينة به ورواه

أبو بكر بن مردويه من حديث آدم بن أبي إياس ويحيى بن عبد الحميد وعاصم بن علي عن سفيان بن عيينة به ورواه سعيد بن منصور عن حماد بن زيد وسفيان بن عيينة كلاهما عن عمرو بن دينار به ." طريق آخر" قال الحافظ أبو بكر بن مردويه في تفسيره حدثنا سليمان بن أحمد حدثنا مقدام بن داود حدثنا عبد الله بن يوسف حدثنا عبد الله بن لهيعة عن خالد بن يزيد عن أبي الزبير عن جابر قال لما نزلت" قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " أعوذ بالله من ذلك أو من تحت أرجلكم " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " أعوذ بالله من ذلك " " أو يلبسكم شيعا " قال " هذا أيسر " وإن استعاذه لأعاذه .ويتعلق بهذه الآية أحاديث كثيرة ." أحدها " قال الإمام أحمد بن حنبل في مسنده حدثنا أبو اليمان حدثنا أبو بكر يعني ابن أبي مريم عن راشد هو ابن سعد المقرائي عن سعد بن أبي وقاص قال سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن هذه الآية " قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم أو من تحت أرجلكم " فقال " أما إنها كائنة ولم يأت تأويلها بعد " .وأخرجه الترمذي عن الحسن بن عرفة عن إسماعيل بن عياش عن أبي بكر بن أبي مريم به ثم قال هذا حديث غريب.." (١)

"قال سعيد بن جبير "كتاب أنزل إليك " أي هذا كتاب أنزل إليك أي من ربك" فلا يكن في صدرك حرج منه " قال مجاهد وقتادة والسدي شك منه وقيل لا تتحرج به في إبلاغه والإنذار به " فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل " ولهذا قال " لتنذر به " أي أنزلناه إليك لتنذر به الكافرين " وذكرى للمؤمنين " .اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء قليلا ما تذكرون (٣)اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء قليلا ما تذكرونقال تعالى مخاطبا للعالم " اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم " أي اقتفوا آثار النبي الأمي الذي جاءكم بكتاب أنزل إليكم من رب كل شيء ومليكه " ولا تتبعوا من دونه أولياء " أي لا تخرجوا عما جاءكم به الرسول إلى غيره فتكونوا قد عدلتم عن حكم الله إلى حكم غيره " قليلا ما تذكرون "كقوله " وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين " وقوله " وإن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله " الآية .وقوله " وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون" .وكم من قرية أهلكناها فجاءها بأسنا بياتا أو هم قائلون (٤)وكم من قرية أهلكناها فجاءها بأسنا بياتا أو هم قائلونيقول الله تعالى " وكم من قرية أهلكناها " أي بمخالفة رسلنا وتكذيبهم فأعقبهم ذلك خزي في الدنيا موصولا بذل الآخرة كما قال تعالى " ولقد استهزئ برسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزئون " وكقوله" فكأين من قرية أهلكناها وهي ظالمة فهي خاوية على عروشها وبئر معطلة وقصر مشيد " وقال تعالى" وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلا وكنا نحن الوارثين" وقوله " فجاءها بأسنا بياتا أو هم قائلون " أي فكان منهم من جاءه أمر الله وبأسه ونقمته بياتا أي ليلا أو هم قائلون من القيلولة وهي الاستراحة وسط النهار وكلا الوقتين وقت غفلة ولهو كما قال " أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتا وهم نائمون أوأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحى وهم يلعبون " وقال " أفأمن الذين مكروا السيئات أن يخسف الله بهم الأرض أو يأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون أو يأخذهم في تقلبهم فما هم بمعجزين أو يأخذهم على تخوف فإن ربكم لرءوف رحيم " .فما كان دعواهم إذ جاءهم بأسنا إلا أن قالوا إنا كنا ظالمين (٥)فما كان دعواهم إذ

(١) تفسير ابن كثير – ط قرطبة، المؤلف غير معروف ٥/٤٣٩

جاءهم بأسنا إلا أن قالوا إنا كنا ظالمينإنا كنا ظالمين " قوله " فما كان دعواهم إذ جاءهم بأسنا إلا أن قالوا إنا كنا ظالمين " أي فما كان قولهم عند مجيء العذاب إلا أن اعترفوا بذنوبهم وأنهم حقيقون بهذا كقوله تعالى " وكم قصمنا من قرية كانت ظالمة – إلى قوله – خامدين " قال ابن جرير : في هذه الآية الدلالة الواضحة على صحة ما جاءت به الرواية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قوله " ما هلك قوم حتى يعذروا من أنفسهم" حدثنا بذلك ابن حميد حدثنا جرير عن أبي سنان عن عبد الملك بن ميسرة الزراد قال : قال عبد الله بن مسعود قال رسول الله صلى الله عليه وسلم" ما هلك قوم حتى يعذروا من أنفسهم " قال : قلت لعبد الملك كيف يكون ذاك قال فقرأ هذه الآية" فما كان دعواهم إذ جاءهم بأسنا إلا أن قالوا إنا كنا ظالمين " .فلنسألن الذين أرسل إليهم ولنسألن المرسلين (٦)فلنسألن الذين أرسل إليهم ولنسألن المرسلينقوله " فلنسألن الذين أرسل إليهم " الآية .كقوله " ويوم يناديهم فيقول ماذا أجبتم المرسلين" وقوله " يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم قالوا لا علم لنا إنك أنت علام الغيوب " فيسأل الله الأمم يوم القيامة عما أجابوا رسله فيما أرسلهم به ويسأل الرسل أيضا عن إبلاغ رسالاته ولهذا قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في تفسير هذه الآية " فلنسألن الذين أرسل إليهم ولنسألن المرسلين " قال عما بلغوا وقال ابن مردويه حدثنا محمد بن أحمد بن إبراهيم حدثنا إبراهيم بن محمد بن الحسن حدثنا أبو سعيد الكندي حدثنا المحاربي عن ليث عن نافع عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته فالإمام يسأل عن رعيته والرجل يسأل عن أهله والمرأة تسأل عن بيت زوجها والعبد يسأل عن مال سيده " .قال الليث وحدثني ابن طاوس مثله ثم قرأ " فلنسألن الذين أرسل إليهم ولنسألن المرسلين " وهذا الحديث مخرج في الصحيحين بدون هذه الزيادة .فلنقصن عليهم بعلم وما كنا غائبين (٧)فلنقصن عليهم بعلم وما كنا غائبينقال ابن عباس في قوله " فلنقصن عليهم بعلم وما كنا غائبين " يوضع الكتاب يوم القيامة فيتكلم بما كانوا يعملون " وما كنا غائبين " يعني أنه تعالى يخبر عباده يوم القيامة بما قالوا وبما عملوا من قليل وكثير وجليل وحقير لأنه تعالى الشهيد على كل شيء لا يغيب عنه شيء ولا يغفل عن شيء بل هو العالم بخائنة الأعين وما تخفي الصدور" وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين " .والوزن يومئذ الحق فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون (٨)والوزن يومئذ الحق فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحونيقول تعالى " والوزن " أي للأعمال يوم القيامة " الحق " أي لا يظلم تعالى أحدا كقوله" ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين " وقال تعالى " إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجرا عظيما " وقال تعالى " فأما من ثقلت موازينه فهو في عيشة راضية وأما من خفت موازينه فأمه هاوية وما أدراك ما هيه نار حامية " .وقال تعالى " فإذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم في جهنم خالدون " ." فصل " والذي يوضع في الميزان يوم القيامة قيل الأعمال وإن كانت أعراضا إلا أن الله تعالى يقلبها يوم القيامة أجساما قال البغوي يروى نحو هذا عن ابن عباس كما جاء في الصحيح من أن البقرة وآل عمران يأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان أو غيابتان أو فرقان من طير صواف .ومن ذلك في الصحيح قصة القرآن وإنه يأتي صاحبه في صورة شاب شاحب اللون فيقول من أنت فيقول أنا القرآن الذي أسهرت ليلك وأظمأت نهارك .وفي حديث البراء في قصة سؤال القبر " فيأتي المؤمن شاب حسن اللون طيب الريح فيقول من أنت ؟ فيقول أنا

عملك الصالح " وذكر عكسه في شأن الكافر والمنافق وقيل يوزن كتاب الأعمال كما جاء في حديث البطاقة في الرجل الذي يؤتى به ويوضع له في كفة تسعة وتسعون سجلا كل سجل مد البصر ثم يؤتى بتلك البطاقة فيها لا إله إلا الله فيقول يا رب وما هذه البطاقة مع هذه السجلات ؟ فيقول الله تعالى إنك لا تظلم .فتوضع تلك البطاقة في كفة الميزان قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " فطاشت السجلات وثقلت البطاقة " رواه الترمذي بنحو من هذا وصححه وقيل يوزن صاحب العمل كما في الحديث " يؤتى يوم القيامة بالرجل السمين فلا يزن عند الله جناح بعوضة " ثم قرأ " فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا" وفي مناقب عبد الله بن مسعود أن النبي صلى الله عليه وسلم قال " أتعجبون من دقة ساقيه والذي نفسي بيده لهما في الميزان أثقل من أحد" وقد يمكن الجمع بين هذه الآثار بأن يكون ذلك كله صحيحا فتارة توزن الأعمال وتارة توزن محالها وتارة يوزن فاعلها والله أعلم .ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم بما كانوا بآياتنا يظلمون (٩)ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم بما كانوا بآياتنا يظلمونيقول تعالى " والوزن" أي للأعمال يوم القيامة " الحق " أي لا يظلم تعالى أحدا كقوله " ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين " وقال تعالى" إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجرا عظيما " وقال تعالى " فأما من ثقلت موازينه فهو في عيشة راضية وأما من خفت موازينه فأمه هاوية وما أدراك ما هيه نار حامية " .وقال تعالى " فإذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم في جهنم خالدون " ." فصل" والذي يوضع في الميزان يوم القيامة قيل الأعمال وإن كانت أعراضا إلا أن الله تعالى يقلبها يوم القيامة أجساما قال البغوي يروى نحو هذا عن ابن عباس كما جاء في الصحيح من أن البقرة وآل عمران يأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان أو غيابتان أو فرقان من طير صواف .ومن ذلك في الصحيح قصة القرآن وإنه يأتي صاحبه في صورة شاب شاحب اللون فيقول من أنت فيقول أنا القرآن الذي أسهرت ليلك وأظمأت نهارك .وفي حديث البراء في قصة سؤال القبر " فيأتي المؤمن شاب حسن اللون طيب الريح فيقول من أنت ؟ فيقول أنا عملك الصالح" وذكر عكسه في شأن الكافر والمنافق وقيل يوزن كتاب الأعمال كما جاء في حديث البطاقة في الرجل الذي يؤتى به ويوضع له في كفة تسعة وتسعون سجلا كل سجل مد البصر ثم يؤتى بتلك البطاقة فيها لا إله إلا الله فيقول يا رب وما هذه البطاقة مع هذه السجلات ؟ فيقول الله تعالى إنك لا تظلم.فتوضع تلك البطاقة في كفة الميزان قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " فطاشت السجلات وثقلت البطاقة " رواه الترمذي بنحو من هذا وصححه وقيل يوزن صاحب العمل كما في الحديث " يؤتى يوم القيامة بالرجل السمين فلا يزن عند الله جناح بعوضة " ثم قرأ " فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا" وفي مناقب عبد الله بن مسعود أن النبي صلى الله عليه وسلم قال " أتعجبون من دقة ساقيه والذي نفسي بيده لهما في الميزان أثقل من أحد" وقد يمكن الجمع بين هذه الآثار بأن يكون ذلك كله صحيحا فتارة توزن الأعمال وتارة توزن محالها وتارة يوزن فاعلها والله أعلم .ولقد مكناكم في الأرض وجعلنا لكم فيها معايش قليلا ما تشكرون (١٠)ولقد مكناكم في الأرض وجعلنا لكم فيها معايش قليلا ما تشكرونيقول تعالى ممتنا على عبيده فيما مكن لهم من أنه جعل الأرض قرارا وجعل فيها رواسي وأنهارا وجعل لهم فيها منازل وبيوتا وأباح لهم منافعها وسخر لهم السحاب لإخراج أرزاقهم منها وجعل لهم فيها معايش أي مكاسب وأسبابا يكسبون بها ويتجرون فيها ويتسببون أنواع الأسباب وأكثرهم مع هذا قليل الشكر على ذلك

كقوله " وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الإنسان لظلوم كفار " وقد قرأ الجميع معايش بلا همز إلا عبد الرحمن بن هرمز الأعرج فإنه همزها والصواب الذي عليه الأكثرون بلا همز لأن معايش جمع معيشة من عاش يعيش عيشا ومعيشة أصلها معيشة فاستثقلت الكسرة على الياء فنقلت إلى العين فصارت معيشة فلما جمعت رجعت الحركة إلى الياء لزوال الاستثقال فقيل معايش ووزنه مفاعل لأن الياء أصلية في الكلمة بخلاف مدائن وصحائف وبصائر جمع مدينة وصحيفة وبصيرة من مدن وصحف وأبصر فإن الياء فيها زائدة ولهذا تجمع على فعائل وتهمز لذلك والله أعلم .ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين (١١)ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس لم يكن من الساجدينينبه تعالى بني آدم في هذا المقام على شرف أبيهم آدم ويبين لهم عداوة عدوهم إبليس وما هو منطو عليه من الحسد لهم ولأبيهم آدم ليحذروه ولا يتبعوا طرائقه فقال تعالى " ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا" وهذا كقوله تعالى " وإذ قال ربك للملائكة إني خالق بشرا من صلصال من حمإ مسنون فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين " وذلك أنه تعالى لما خلق آدم عليه السلام بيده من طين لازب وصوره بشرا سويا ونفخ فيه من روحه أمر الملائكة بالسجود له تعظيما لشأن الله تعالى وجلاله فسمعوا كلهم وأطاعوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين وقد تقدم الكلام على إبليس في أول سورة البقرة .وهذا الذي قررناه هو اختيار ابن جرير أن المراد بذلك كله آدم عليه السلام .وقال سفيان الثوري عن الأعمش عن منهال بن عمرو عن سعيد بن جبير عن ابن عباس " ولقد خلقناكم ثم صورناكم " قال خلقوا في أصلاب الرجال وصوروا في أرحام النساء .رواه الحاكم .وقال صحيح على شرطهما ولم يخرجاه ونقل ابن جرير عن بعض السلف أيضا أن المراد بخلقناكم ثم صورناكم الذرية.وقال الربيع بن أنس والسدي وقتادة والضحاك في هذه الآية " ولقد خلقناكم ثم صورناكم " أي خلقنا آدم ثم صورنا الذرية وهذا فيه نظر لأنه قال بعده " ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم " فدل على أن المراد بذلك آدم وإنما قيل ذلك بالجمع لأنه أبو البشر كما يقول الله تعالى لبني إسرائيل الذين كانوا في زمن النبي صلى الله عليه وسلم " وظللنا عليكم الغمام وأنزلنا عليكم المن والسلوى " والمراد بالآباء آباؤهم الذين كانوا في زمن موسى ولكن لما كان ذلك منة على الآباء الذين هم أصل صار كأنه واقع على الأبناء وهذا بخلاف قوله " ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين " الآية .فإن المراد منه آدم المخلوق من السلالة وذريته مخلوقون من نطفة وصح هذا لأن المراد من خلقنا الإنسان الجنس لا معينا والله أعلم .قال ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين (١٢)قال ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طينقال بعض النحاة في توجيه قوله تعالى " ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك" لا هنا زائدة وقال بعضهم زيدت لتأكيد الجحد كقول الشاعر : ما إن رأيت ولا سمعت بمثله .فأدخل" أن " وهي للنفي على ما النافية لتأكيد النفي قالوا وكذا هنا " ما منعك ألا تسجد " مع تقدم قوله " لم يكن من الساجدين " حكاهما ابن جرير وردهما واختار أن منعك مضمن معنى فعل آخر تقديره ما أحرجك وألزمك واضطرك ألا تسجد إذ أمرتك ونحو هذا .وهذا القول قوي حسن والله أعلم .." (١)

---

(١) تفسير ابن كثير – ط قرطبة، المؤلف غير معروف ٤٦٠/٥

"وقوله " وما تسقط من ورقة إلا يعلمها " أي ويعلم الحركات حتى من الجمادات فما ظنك بالحيوانات ولا سيما المكلفون منهم من جنهم وإنسهم كما قال تعالى " يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور " .وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي حدثنا الحسن بن الربيع حدثنا أبو الأحوص عن سعيد بن مسروق حدثنا حسان النمري عن ابن عباس في قوله " وما تسقط من ورقة إلا يعلمها" قال ما من شجرة في بر ولا بحر إلا وملك موكل بها يكتب ما يسقط منها رواه ابن أبي حاتم وقوله" ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين " قال ابن أبي حاتم : حدثنا عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن المسور الزهري حدثنا مالك بن سعير حدثنا الأعمش عن يزيد بن أبي زياد عن عبد الله بن الحارث قال : ما في الأرض من شجرة ولا مغرز إبرة إلا وعليها ملك موكل يأتي الله بعلمها رطوبتها إذا رطبت ويبوستها إذا يبست٥٤@@@." (١)

"الحسن حدثنا أبو سعيد الكندي حدثنا المحاربي عن ليث عن نافع عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته فالإمام يسأل عن رعيته والرجل يسأل عن أهله والمرأة تسأل عن بيت زوجها والعبد يسأل عن مال سيده " .قال الليث وحدثني ابن طاوس مثله ثم قرأ " فلنسألن الذين أرسل إليهم ولنسألن المرسلين " وهذا الحديث مخرج في الصحيحين بدون هذه الزيادة .فلنقصن عليهم بعلم وما كنا غائبين (٧)فلنقصن عليهم بعلم وما كنا غائبينقال ابن عباس في قوله " فلنقصن عليهم بعلم وما كنا غائبين " يوضع الكتاب يوم القيامة فيتكلم بما كانوا يعملون " وما كنا غائبين " يعني أنه تعالى يخبر عباده يوم القيامة بما قالوا وبما عملوا من قليل وكثير وجليل وحقير لأنه تعالى الشهيد على كل شيء لا يغيب عنه شيء ولا يغفل عن شيء بل هو العالم بخائنة الأعين وما تخفي الصدور" وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين " .والوزن يومئذ الحق فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون (٨)والوزن يومئذ الحق فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحونيقول تعالى " والوزن " أي للأعمال يوم القيامة " الحق " أي لا يظلم تعالى أحدا كقوله" ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين " وقال تعالى " إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجرا عظيما " وقال تعالى " فأما من ثقلت موازينه فهو في عيشة راضية وأما من خفت موازينه فأمه هاوية وما أدراك ما هيه نار حامية " .وقال تعالى " فإذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم في جهنم خالدون " .٢٦١@@@." (٢)

"من هلك أي يستمر في الكفر من استمر فيه على بصيرة من أمره أنه مبطل لقيام الحجة عليه " ويحيى من حي " أي يؤمن من آمن " عن بينة " أي حجة وبصيرة والإيمان هو حياة القلوب قال الله تعالى " أومن كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشي به في الناس " وقالت عائشة في قصة الإفك فهلك في من هلك أي قال فيها ما قال من البهتان والإفك وقوله " وإن الله لسميع " أي لدعائكم وتضرعكم واستغاثتكم به " عليم " أي بكم وأنكم تستحقون النصر على أعدائكم

---

(١) تفسير ابن كثير – ط قرطبة، المؤلف غير معروف ٥٤/٦

(٢) تفسير ابن كثير – ط قرطبة، المؤلف غير معروف ٢٦٠/٦

الكفرة المعاندين .إذ يريكهم الله في منامك قليلا ولو أراكهم كثيرا لفشلتم ولتنازعتم في الأمر ولكن الله سلم إنه عليم بذات الصدور (٤٣)إذ يريكهم الله في منامك قليلا ولو أراكهم كثيرا لفشلتم ولتنازعتم في الأمر ولكن الله سلم إنه عليم بذات الصدورقال مجاهد أراهم الله إياه في منامه قليلا وأخبر النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه بذلك فكان تثبيتا لهم وكذا قال ابن إسحاق وغير واحد وحكى ابن جرير عن بعضهم أنه رآهم بعينه التي ينام بها وقد روى ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا يوسف بن موسى حدثنا أبو قتيبة عن سهل السراج عن الحسن في قوله " إذ يريكهم الله في منامك قليلا " قال بعينك وهذا القول غريب وقد صرح بالمنام ههنا فلا حاجة إلى التأويل الذي لا دليل عليه وقوله " ولو أراكهم كثيرا لفشلتم " أي لجبنتم عنهم واختلفتم فيما بينكم " ولكن الله سلم " أي من ذلك بأن أراكهم قليلا " إنه عليم بذات الصدور " أي بما تجنه الضمائر وتنطوي عليه الأحشاء " يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور " .وإذ يريكموهم إذ التقيتم في أعينكم قليلا ويقللكم في أعينهم ليقضي الله أمرا كان مفعولا وإلى الله ترجع الأمور (٤٤)وإذ يريكموهم إذ التقيتم في أعينكم قليلا ويقللكم في أعينهم ليقضي الله أمرا كان مفعولا وإلى الله ترجع الأمور٩٥@@@." (١)

"جزء : ٣ رقم الصفحة : ٢٩٢ولو راعى الخبر ، لقال : " مَا يَرَوْنَ القَتْلَ ". وفي قوله : " عَنِّي " و " إِنِّي " التفاتٌ من غيبة إلى تكلُّم ؛ لأنَّ قبله : " وِلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ " والاسمُ الظاهرُ في ذلك كالضميرِ الغائبِ ، والكافُ في " سَأَلَكَ " للنبيِّ – صلى الله عليه وسلم – وإنْ لم يجر له ذكرٌ ، إلاَّ أنَّ قوله : ﴿أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ [البقرة : ١٨٥] يَدُلُّ عليه ؛ لأنَّ تقديره : " أُنْزِلَ فيه القرآنُ عَلَى الرَّسُولِ – صلى الله عليه وسلم – " وفي قوله : فَإِنِّي قَرِيبٌ " مجازٌ عن سرعةِ أجابته لدعوةِ داعيه ، وإلا فهو متعالٍ عن القُرْبِ الحِسِّيِّ ، لتعاليه عن المَكَان. قال أبو حَيَّان : والعامِلِ في " إِذَا " قوله : " أُجِيبُ " يعني " إِذَا " الثانية ، فيكون التقديرُ : أُجِيبُ دعوَتهُ وقتَ دعائِه ، فيُحْتَملُ أنْ تكونَ لُمجَرَّد الظرفية ، وأَنْ تكونَ شرطيةً ، وحذف جوابها ؛ لدلالةِ " أُجِيبُ " عليه ؛ وحينئذٍ لا يكونُ " أُجِيبُ " هذا الملفوظ به هو العامل فيها ، بل ذلك المحذوفَ ، أو يكونُ هو الجوابَ عند مَنْ يُجِيزُ تقديمهُ على الشَّرط ، وأمَّا " إِذَا " الأولى ، فإنَّ العاملَ فيها ذلك القولُ المقدَّرُ ، والهاء في " دَعْوَة " ليست الدالَّة على المَرَّة ، نحو : ضَرْبَةٍ وقَتْلَةٍ ، بل التي بُنِيَ عليها المصدرُ ، نحو : رحمة ونجدة ؛ فلذلك لم تَدُلَّ على الوَحْدَة. والياءان من قوله : " الدَّاع – دَعَان " من الزوائد عند القُرَّاءِ ، ومعنى ذلك أنَّ الصحابة لم تُثْبِت لها صورةً في المُصحَف ، فمن القُرَّاءِ مَنْ أَسْقَطَها تَبَعاً للرسل وَقْفاً ووَصْلاً. ومنهم مَنْ يُثْبِتُها في الحالَين ، ومنهم مَنْ يُثْبِتُها وَصْلاً ويحذِفُها وَقْفاً ، وجملةُ هذه الزوائد اثنتان وستُّون ياءً ، فأثبَتَ أبو عمرو وقَالُونُ هاتَين الياءَيْنِ وَصْلاً وحَذَفَاهَا وَقْفاً. فصل في بيان حقيقة الدُّعاء قال أبو سليمان الخطَّابيُّ : والدُّعاء مصدر من قولك : دعَوتُ الشَّيءَ أَدعوه دُعاءً ، ثم أقامُوا المَصدرَ مقام الاسم ؛ تقول : سمعتُ الدعاء ؛ كما تقولُ : سمعتُ الصَّوتَ ، وقد٢٩٥يوضعُ المصدر موضع الاسم ؛ كقولك : رَجُلٌ عدلُ ، وحقيقةُ الدعاء : استدعاءُ العبدِ ربَّهُ جلَّ جلالهُ العناية ، واستمدادُهُ إيَّاه المعونَةَ. والإجابةُ في اللُّغة : الطاعةُ وإعطاءُ ما سُئِلَ ، فالإجابةُ من الله العطاءُ ، ومن العبدِ الطاعةُ. وقال ابنُ الأنبارِيّ " أُجِيبَ " ههنا بمعنى " أَسْمَعُ ؛ لأنَّ بين السماع والإجابةِ نَوْعَ ملازمةٍ. فصل في الجواب على من ادَّعى أن لا فائدة في الدُّعاء قال بعضهم : الدعاء لا فائدة فيه لوجوهٍ :

---

(١) تفسير ابن كثير – ط قرطبة، المؤلف غير معروف ٩٤/٧

أحدها : أنَّ المطلوب بالدُّعاء ، إنْ كان معلوم الوقُوع عند الله تعالى ، كان وقوعهُ واجباً ؛ فلا حاجة إلى الدُّعاء ، وإن كان معلوم الانتفاءِ واجبَ العَدَمِ ، فلا حاجة إلى الدُّعاء. وثانيها : أنَّ وقوع الحَوَادِث في هذا العالم إنْ كان لا بُدَّ لها منْ مُؤَثِّر قديم اقتضى وجودَها اقتضاءً قديماً ، كانت واجبةَ الوُقُوع ، وكلُّ ما لم يقتض المؤثِّر القديمُ وجودَهُ اقتضاءً أزليّاً ، كان ممتنعَ الوقُوع ، وإذا كانت هذه المقدِّمة ثابتةً في الأَزَلِ ، لم يكُن للدعاءِ ألبتَّة أثر ، وربَّما عبَّروا عن هذا الكلام بأنْ قالوا : الأقدَارُ سابقةٌ ، والأقضيةُ متقدِّمةٌ ، فالإلحاح في الدُّعاء لا يزيد فيها وتركُه لاَ ينقُصُ منها شيئاً ، فأيُّ فائدةٍ في الدعاء ، وقال عليه الصلاة والسلام : " أَرْبَعٌ قَدْ فُرِغَ منها : الخَلْقُ والخُلُقُ وَالرِّزْقُ وَالأَجَلُ " وثالثها : أنَّه سبحانه وتعالى قال : ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ [غافر : ١٩] وإذا كان يعلمُ ما في الضمير ، فأيُّ حاجةٍ إلى الدُّعاء. ورابعها : أنَّ المطلوب بالدعاء ، إنْ كان من مصالح العَبْد ، فالجواد المطلق لا يهملُهُ ، وإن لم يكُنْ من مصالحه ، لم يَجُزْ طلبه. وخامسها : أنَّه ثبت أنَّ أجلَّ مقامات الصِّدِّيقين وأعلاها الرِّضا بقضاء الله تعالى والدعاءُ ينافي ذلك ؛ لأنه اشتغالٌ بالالتماس ، وترجيحٌ لمراد النَّفسِ على مُرَاد الله. وسادسها : أنَّ الدعاء يُشبهُ الأمر والنَّهي ، وذلك من العبد في حقِّ المولى الكريم سُوءُ أَدَب.٢٩٦." (١)

"فصل لما ذكر قصص الأنبياء لمحمد – عليه السلام – أتبعه بما يدل على نبوته فقال : ﴿وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ لأنه لفصاحته معجز فيكون من رب العالمين. وأيضاً فلأنه إخبار عن الأمم الماضية من غير تعلم ألبتة ، وذلك إلاَّ بوحي من الله تعالى. وأيضاً فقوله ﴿وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الأَوَّلِينَ﴾ مؤكد لما ذكرنا ، لأن ذكر هذه القصص على ما هي في زبر الأولين من غير تفاوت أصلاً مع أنه لم يشتغل بالتعلم والاستفادة دليل على أنه ليس إلا من عند الله ، ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ﴾ عَلَى قَلْبِكَ يا محمد ، أي : فهمك إياه وأثبته في قلبك كي لا تنساه كقوله : ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلاَ تَنسَى ﴾ [الأعلى : ٦] ﴿لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ﴾ : المخوّفين. وسمي جبريل روحاً ، لأنه خلق من الروح. وقيل : لأنه نجاة الخلق في باب الدين ، فهو كالروح التي تستتبع الحياة. وقيل : لأنه روح كله ، لا كالناس في أبدانهم روح. وسماه أميناً لأنه مؤتمن على ما يؤديه للأنبياء – (عليهم السلام) – . فصل روي أنَّ جبريل – عليه السلام – نزل على آدم – عليه السلام – اثنا عشرة مرة ، وعلى إدريس أربع مرات ، وعلى نوح خمسين مرة ، وعلى إبراهيم اثنتين وأربعين مرة ، وعلى موسى أربعمائة مرة ، وعلى عيسى عشر مرات وعلى محمد – عليه السلام – أربع عشرة ألف مرة. فإن قيل : لم قال : " عَلَى قَلْبِكَ " وهو إنما أنزل عليه ؟ فالجواب : ليؤكد أنّ ذلك المنزل محفوظ للرسول متمكن من قبله لا يجوز عليه التغيير ، ولأنَّ القلب هو المخاطب في الحقيقة لأنه موضع التمييز والاختيار ، وأما سار الأعضاء فمسخّرة له ، ويدل على ذلك القرآن والحديث والمعقول ، أما القرآن فقوله تعالى : ﴿نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ﴾ [البقرة : ٩٧] ، ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ﴾ ، ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾ [ق : ٣٧] واستحقاق الجزاء ليس إلاَّ على ما في القلب ، قال تعالى : ﴿لاَّ يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِ أَيْمَانِكُمْ وَلَـاكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ [البقرة : ٢٢٥] ﴿لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلاَ دِمَآؤُهَا وَلَـاكِن يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنكُمْ﴾ [الحج : ٣٧] والتقوى في القلب لقوله تعالى : ﴿أُوْلَـائِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى ﴾ [الحجرات : ٣]

(١) تفسير اللباب لابن عادل . موافق للمطبوع، المؤلف غير معروف ص/٥٦٥

وقوله : ﴿وَحُصِّلَ مَا فِي٧٩الصُّدُورِ﴾ [العاديات : ١٠]. وحكى عن أهل النار قولهم : ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [الملك : ١٠] والعقل في القلب ، والسمع منفذٌ إليه ، وقال : ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً﴾ [الإسراء : ٣٦] والسمع والبصر لا يستفاد منهما إلا ما يؤديانه إلى القلب ، وقال : ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ [غافر : ١٩] ولم تخن الأعين إلا بما تضمر القلوب إلى غير ذلك من الآيات. وأما الحديث فقوله – عليه السلام – : " أَلاَ وَإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ ، وَإِذَا فَسَدَتْ فسد الجَسَدُ كُلُّهُ ، أَلاَ وَهِيَ القَلْبُ " وأما المعقول فإنَّ القلب إذا غشي عليه ، فإذا قطع سائر الأعضاء لم يحصل به الشعور ، وإذا أفاق القلب شعر بجميع ما ينزل بالأعضاء من الآفات. وأيضاً فإذا فرح القلب أو حزن فإنه يتغير حال الأعضاء عند ذلك. وأيضاً فإن القلب منبع المشيئات الباعثة على الأفعال الصادر عن سار الأعضاء. قوله : " بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ ". يجوز أن يتعلق بـ " المُنْذِرِينَ " أي : لتكون من الذين أنذروا بهذا اللسان العربي ، وهم : هود ، وصالح ، وشعيب ، وإسماعيل ، ومحمد – صلى الله عليه وسلّم – (و) يجوز أن يتعلق بـ " نَزَلَ " أي : نزل باللسان العربي لتنذر به ، لأنه لو نزل بالأعجمي لقالوا : لم نزل علينا ما لا نفهمه ؟ وجوز أبو البقاء أن يكون بدلاً من " بِهِ " بإعادة العامل ، قال : أي نزل بلسان عربي ، أي : برسالة أو لغة. قال ابن عباس : بلسان قريش ليفهموا ما فيه. قوله : ﴿وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الأَوَّلِينَ﴾. أي : وإن القرآن. وقيل : وإن محمداً ونعته ﴿لَفِي زُبُرِ الأَوَّلِينَ﴾ أي : كتب الأولين. وقيل : المراد وجوه التخويف ، لأن ذكر هذه الأشياء بأسرها قد تقدم ، وفيه التفات ، إذ لو جرى على ما تقدم لقيل : " وإنك لفي زبر ". وقرأ الأعمش : " زُبْرِ " بسكون الباء ، وهي مخففة من المشهورة.٨٠جزء : ١٥ رقم الصفحة : ٧٨." [(١)]

"" هو " في قوله ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ﴾ [غافر : ١٣] مثل " يُلْقِي الرُّوحَ " ولكن " يلقي الروح " قد علل بقوله " لِيُنْذِرَ " ثم استطرد لذكر أحوال يوم التلاق إلى قوله " ولا شفيع يطاع " فبعد لذلك عن أخواته. الثاني : أنه متصل بقوله " وأَنْذِرْهُمْ " لما أمر بإنذاره يوم الآزمة وما يعرض فيه من شدة الغمّ والكَرْبِ وأن الظالم لا يجد من يحميه ولا شفيع له ، ذكر اطِّلاعَهُ على جميع ما يصدر من الخلق سِرًّا وجهراً إذ المعنى أنه تعالى عالم لا يخفى عليه مثقالُ ذرة في السموات والأرض ، والحاكم إذا بلغ في العلم إلى هذا الحد كان خوف المذنب شديداً جداً وعلى هذا فهذه الجملة لا محل لها لأنها في قوة التعليل للأمر بالإنذار. الثالث : أنها متصلة بقوله : " سَرِيعِ الحِسَابِ ". الرابع : أنها متصلة بقوله : ﴿لاَ يَخْفَى عَلَى اللَّهِ﴾ [غافر : ١٦] وعلى هذين الوجهين فيحتمل أن تكون جارية مجرى العلة ، وأن تكون في محل نصب على الحال. و " خَائِنَةَ الأَعْيُنِ " فيه وجهان : أحدهما : أنها مصدر بمعنى الخيانة كالعافية بمعنى المعافاة (والعافية) أي يعلم خيانة الأعين أي استراق النظر إلى ما لا يحل كما يفعل أهل الريب. والثاني : أنها صفة على بابها وهو من باب إضافة الصفة للموصوف والأصل الأعينُ الخائنة كقوله : ٤٣٣٠.............................وإنْ سَقَيْتِ كِرَامَ النَّاسِ فاسْقِينَاجزء : ١٧ رقم الصفحة : ٢٧وقد رده الزمخشري وقال : لا يحسن أن يراد الخائنةَ من الأعين لأن قوله : ﴿وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ لا يساعد عليه يعنهي أنه لا يناسب أن يقابل المعنى إلا بالمعنى.٣٣وفيه نظر ؛ أذ لقائل أن يقول لا نسلم أن " ما " في قوله ﴿وما

(١) تفسير اللباب لابن عادل . موافق للمطبوع، المؤلف غير معروف ص/٣٩٣٧

تخفي الصدور﴾ مصدرية حتى يلزم ما ذكره ، بل يجوز أن يكون بمعنى الذي وهو عبارة عن نفس ذلك الشيء المخفي فيكون قد قابل الاسم غير المصدر بمثله ، والمراد بقوله : ﴿وما تخفي الصدور﴾ أي تضمر القلوب. واعلم أن الأفعال قسمان : أفعال الجوارح ، وأفعال القلوب ، وأما أفعال الجوارح فأخفاها خائنة الأعين والله بها فكيف الحال في سائر الأعمال ، وأما أفعال القلوب فهي معلومة لله تعالى لقوله ﴿وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ فدل هذا على كونه عالماً بجميع أفعالهم. قوله ﴿وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ﴾ وهذا أيضاً يوجب عظم الخوف لأن الحاكم إذا كان عالماً بجميع الأحوال وثبت أنه لا يقضي إلا بالحق في كل ما دق وجل كان خوف المذنب منه في الغاية القُصْوَى. قوله : " وَالَّذِينَ يَدْعُونَ " ، قرأ نافعٌ وهشامٌ تَدْعَونَ بالخطاب للمُشْرِكِين والباقون بالغيبة ، إخباراً عنهم بذلك. واعلم أن الكفار إنما عولوا في دفع العقاب عن أنفسهم على شفاعة هذه الأصنام فبين الله تعالى أنه لا فائدة فيها البتة ، فقال : ﴿الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لاَ يَقْضُونَ بِشَيْءٍ﴾ ثم قال : ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ أي يسمع من الكفار ثناءهم على الأصنام ، ولا يسمع ثناءهم على الله ويبصر خضوعهم وسجودهم ، ولا يبصر خضوعهم وتواضعهم لله.جزء : ١٧ رقم الصفحة : ٢٧ولما بالغ في تخويفهم بأحوال أهل الآخرة أردفه بيان تخويفهم بأحوال أهل الدنيا فقال ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُواْ مِن قَبْلِهِمْ﴾ والمعنى أن العال من اعتبر بغيره ، فإن الذين مَضَوْا من الكفار كانوا أشد قوة من هؤلاء الحاضرين من الكفار ، وأقوى آثاراً في الأرض أي حصونهم وقصورهم وعساكرهمخ ، فملا كذبوا رسلهم أهلكهم الله عاجلاً حتى إن هؤلاء الجاحدين من الكفار شاهدوا تلك الآثار٣٤فحذرهم الله من مثل ذلك وقال ﴿وَمَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ﴾ [الرعد : ٣٤] أي لما نزل العذاب بهم لم يجدوا مُعِيناً يخلصهم. قوله " فَيَنْظُرُوا " يجوز أن يكون منصوباً في جواب الاستفهام ، وأن يكون مجزوماً نَسَقاً على ماقبله كقوله : ٤٣٣١. أَلَمْ تَسْأَلْ فَتُخْبِرْكَ الرُّسُومُ......................رواه بعضهم بالجزم ، والنصب. قوله " مِنْهُمْ " قُوَّةً " قرأ ابن عامر " مِنْكُمْ " على سبيل الالتفات ، وكذلك هو في مصاحفهم ، والباقون " منهم " بمضير الغيبة جرياً على ما سبق من الضمائر الغائبة. قوله : " وَآثاراً " عطف على " قوة " وهو في قوة قوله " وَتَنْحِتُونَ مِنَ الجِبَالِ بُيُوتاً آمِنِينَ ". وجعله الزمخشري منصوباً بمقدر ، قال : أو أراد أكثر آثاراً كقوله : " مُتَقَلِّداً سَيْفاً وَرُمْحاً " (يعني وَمُعْتَقِلاً رُمْحًا) ؟ ولا حاجة إلى هذا مع الاستغناء عنه. قوله " ذَلِكَ " أي ذلك العذاب الذي نزل بهم ﴿بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُواْ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ وهو مبالغة في التخويف والتحذير.." (١)

"جاءت هذا الآية متممة لقوله تعالى : ﴿ والله بكل شيء عليم ﴾ لأن كل شيء له ، وهو خالقه ، فهو العليم به ، له ما في السموات وما في الارض ، وان تظهروا أيها المؤمنون ما في قلوبكم او تكتموه عن الناس يجازكم به الله يوم القيامة ، فهو ﴿ يعلم خآئنة الأعين وما تخفي الصدور ﴾ [غافر : ١٩] والمعول عليه في مرضاته تزكية النفوس وتطهير السرائر .روى الامام أحمد ومسلم والنسائي عن ابن عباس Bه قال : لما نزلت هذه الآية ﴿ وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله ﴾ اشتد ذلك على أصحاب رسول الله ، فأتوا النبي وقالوا : لقد كلفنا من الاعمال ما نطيق كالصلاة والصيام والجهاد والصدقة ، وقد أنزلت هذه الآية ولا نطيقها . فقال النبي : « قولوا سمعنا وأطعنا وسلمنا » فألقى الله

(١) تفسير اللباب لابن عادل . موافق للمطبوع، المؤلف غير معروف ص/٤٣٩٤

الإيمان في قلوبهم وأنزل ﴿ لا يكلف الله نفسا إلا وسعها . . . ﴾ الآية . فكانت الوسوسة مما لا طاقة للمسلمين به . وصار الأمر الى ان قضى الله تعالى ان للنفس ما اكتسبت من « القول والعمل » .وهذا هو نهج الاسلام الصحيح العادل .﴿ فيغفر لمن يشآء ويعذب من يشآء ﴾ يغفر بفضله لمن يشاء أن يغفر له ، ويعذب من يشاء ، وهو تعالى على كل شيء قدير .قراءات :قرأ ابن عامر وعاصم ويعقوب ﴿ فيغفر لمن يشآء ويعذب من يشآء ﴾ برفع يغفر ويعذب كما هو هنا : وجزمهما الباقون عطفا على جواب الشرط .." (١)

"يوم الآزفة : يوم القيامة ، ومعنى الآزفة : القريبة . الحناجر : جمع حنجرة ، الحلقوم . كاظمين : ممسكين ، محزونين . حميم : صديق . خائنة الأعين : الأعين التي تزوغ وتنظر بخبث . وما تخفي الصدور : ما تكتمه الضمائر . من واق : من حافظ .أنذر أيها الرسول مشركي قومك عذاب يوم القيامة وهوله ، حين تصير القلوب عند الحناجر من شدة الخوف . يومئذ ليس لهم صديق ينفعهم ، ولا شفيع تقبل شفاعته لهم ، والله تعالى لا يخفى عليه شيء ، يعلم النظرة الخائنة ، والسر المستور الذي تخفيه الصدور . وهو تعالى يقضي بالعدل والحق ، فلا يظلم احدا ولا ينسى شيئا ، والآلهة المزعومة لا يستطيعون عمل شيء ، ﴿ إن الله هو السميع البصير ﴾ .ألم يسافر المشركون في الأرض ، فيروا كيف كان مآل الأمم الماضية!! كانوا أشد منهم قوة وتركوا آثارا عظيمة في الأرض ، فاستأصلهم الله بذنوبهم .﴿ وما كان لهم من الله من واق ﴾لم يكن لهم من ينصرهم ويحفظهم من عذاب الله .وقد تكرر هذا المعنى في أكثر من آية ، ولكن بأسلوب مختلف .ولقد نزل بهم ذلك العذاب لأنهم كذبوا رسلهم وجحدوا آيات الله ﴿ فأخذهم الله إنه قوي شديد العقاب ﴾قراءات :قرأ نافع وهشام : والذين تدعون : بالتاء . والباقون : يدعون : بالياء .." (٢)

"قلت: قد استنبط بعض العلماء من قوله في حديث علقمة بن وائل عن أبيه: [فانطلق ليحلف] القيام - والله أعلم - أخرجه مسلم.الرابع - التغليظ باللفظ، فذهبت طائفة إلى الحلف بالله لا يزيد عليه، لقوله تعالى: " فيقسمان بالله " وقوله: " قل إي وربي " (١) [يونس: ٥٣] وقال: " وتالله لاكيدن أصنامكم " (٢) [الانبياء: ٥٧] وقوله عليه السلام: [من كان حالفا فليحلف بالله أو ليصمت].وقول الرجل: والله لا أزيد عليهن.وقال مالك: يحلف بالله الذي لا إله إلا هو ما له عندي حق، وما ادعاه علي باطل، والحجة له ما رواه أبو داود حدثنا مسدد قال حدثنا أبو الأحوص قال حدثنا عطاء بن السائب عن أبي يحيى عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال - يعني لرجل حلفه [احلف بالله الذي لا إله إلا هو ما له عندك شئ] يعني للمدعي، قال أبو داود: أبويحيى اسمه زياد (٣) كوفي ثقة ثبت.وقال الكوفيون: يحلف بالله لا غير، فإن اتهمه القاضي غلظ عليه اليمين، فيحلفه بالله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة الرحمن الرحيم الذي يعلم من السر ما يعلم من العلانية الذي يعلم خائنة الاعين وما تخفي الصدور.وزاد أصحاب الشافعي التغليظ بالمصحف.قال ابن العربي: وهو بدعة ما ذكرها أحد قط من الصحابة.وزعم الشافعي أنه رأى ابن مازن قاضي صنعاء يحلفبالمصحف ويأمر أصحابه بذلك [ويرويه] (٤) عن ابن عباس، ولم يصح.قلت: وفي كتاب (المهذب) وإن حلف

---

(١) تفسير القطان، المؤلف غير معروف ١٧٢/١

(٢) تفسير القطان، المؤلف غير معروف ١٨٤/٣

بالمصحف وما فيه من القرآن فقد حكى الشافعي عن مطرف أن ابن الزبير كان يحلف على المصحف، قال: ورأيت مطرفا بصنعاء يحلف (٥) على المصحف، قال الشافعي: وهو حسن.قال ابن المنذر: وأجمعوا على أنه لا ينبغي للحاكم أن يستحلف بالطلاق والعتاق والمصحف (٦).قلت: قد تقدم في الايمان: وكان قتادة يحلف بالمصحف.وقال أحمد وإسحق: لا يكره ذلك، حكاه عنهما ابن المنذر.____________(١) راجع ج ٨ ص ٣٥١ (٢) راجع ج ١١ ص ٢٩٦ (٣) هو أبويحيى زياد الاعرج مولى الانصار.(٤) من الاصول.وفي ابن العربي: ويأثر أصحابه ذلك عن ابن عباس.(٥) وفي ب وج وع وى وه: يستحلف.(٦) في ب وع وه وى: أو المصحف.(*)."[1]

"نفسه مثل مسجد الجامع وصلاة الأولى." ما للظالمين من حميم " أي من قريب ينفع " ولا شفيع يطاع " فيشفع فيهم.قوله تعالى: " يعلم خائنة الاعين " قال المؤرج: فيه تقديم وتأخير أي يعلم الأعين الخائنة وقال ابن عباس: هو الرجل يكون جالسا مع القوم فتمر المرأة فيسارقهم النظر إليها.وعنه: هو الرجل ينظر إلى المرأة فإذا نظر إليه أصحابه غض بصره، فإذا رأى منهم غفلة تدسس بالنظر، فإذا نظر إليه أصحابه غض بصره، وقد علم الله عز وجل منه أنه يود لو نظر إلى عورتها.وقال مجاهد هي مسارقة نظر الأعين إلى ما نهى الله عنه.وقال قتادة: هي الهمزة بعينه وإغماضه فيما لا يحب الله تعالى.وقال الضحاك: هي قول الإنسان ما رأيت وقد رأى أو رأيت وما رأى.وقال السدي: إنها الرمز بالعين.وقال سفيان: هي النظرة بعد النظرة.وقال الفراء: " خائنة الأعين " النظرة الثانية " وما تخفي الصدور " النظرة الأولى.وقال ابن عباس: " وما تخفي الصدور " أي هل يزني بها لو خلا بها أو لا.وقيل: " وما تخفي الصدور " تكنه وتضمره.ولما جئ بعبدالله بن أبي سرح إلى رسول الله لى الله عليه وسلم،بعد ما اطمأن أهل مكة وطلب له الأمان عثمان رضي الله عنه، صمت رسول الله صلى الله عليه وسلم طويلا ثم قال: " نعم " فلما انصرف قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لمن حوله: " ما صمت إلا ليقوم إليه بعضكم فيضرب عنقه " فقال رجل من الأنصار فهلا أومأت إلي يا رسول الله، فقال: " إن النبي لا تكون له خائنة أعين "." والله يقضى بالحق " أي يجازي من غض بصره عن المحارم، ومن نظر إليها، ومن عزم على مواقعة الفواحش إذا قدر عليها." والذين يدعون من دونه " يعني الأوثان " لا يقضون بشى " لأنها لا تعلم شيئا ولا تقدر عليه ولا تملك.وقراءة العامة بالياء على الخبر عن الظالمين وهي اختيار أبي عبيد وأبي حاتم.وقرأ نافع وشيبة وهشام: " تدعون " بالتاء." إن الله هو السميع البصير " " هو " زائدة فاصلة.ويجوز أن تكون في موضع رفع بالابتداء وما بعدها خبر والجملة خبر إن.____________(١) عبد الله بن أبي سرح: كان يكتب الوحى لرسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم ارتد ولحق بالمشركين، فامر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقتله يوم فتح مكة.راجع قصته في ج ٧ ص ٤٠ طبعة أولى أو ثانيه.(*)."[2]

"وقوله ﴿ كاظمين ﴾ أي مكروبين . والكاظم الساكت حال امتلائه غما وغيظا قال عز من قائل ﴿ والكاظمين الغيظ ﴾ [آل عمران : ١٣٤] وانتصابه على أنه حال عن أصحاب القلوب كأنه قيل : إذ قلوبهم لدى حناجرهم كاظمين عليها ، أو عن القلوب . وجمع جمع السلامة بناء على أن الكظم من أفعال العقلاء كقوله ﴿ فظلت أعناقهم لها خاضعين

(١) تفسير القرطبي، المؤلف غير معروف ٣٥٤/٦

(٢) تفسير القرطبي، المؤلف غير معروف ٣٠٣/١٥

﴾ [الشعراء : ٤] أو عن ضمير المفعول في ﴿ وأنذرهم ﴾ أي وأنذرهم مقدرين أو مشارفين الكظم فيكون حالا مقدرة . وفي قوله ﴿ ما للظالمين من حميم ولا شفيع ﴾ بحث بين الأشاعرة والمعتزلة حيث حمله الأولون على أهل الشرك ، والآخرون على معنى أعم حتى يشمل أصحاب الكبائر . وقد مر مرارا ولا سيما في قوله ﴿ وما للظالمين من أنصار ﴾ [آل عمران : ١٩٢] ومعنى قوله ﴿ يطاع ﴾ يجاب أي لا شفاعة ولا إجابة كقوله :ولا ترى الضب بها ينجحر ... وذلك أنه لا يشفع أحد في ذلك اليوم إلا بإذن الله ، فإن أذن له أجيب وإلا فلا يوجد شيء من الأمرين . والفائدة في ذكر هذه الصفة أن يعلم أن الغرض من الشفيع منتف في حقهم وإن فرض شفيع على ما يزعم أهل الشرك من أن الأصنام يشفعون لهم . وقوله ﴿ يعلم خائنة الأعين ﴾ خبر آخر لقوله ﴿ هو الذي يريكم آياته ﴾ إلا أنه فصل بالتعليل وهو قوله ﴿ لينذر ﴾ وذكر وصف القيامة استطرادا ، قال جار الله : هي صفة للنظرة أو مصدر بمعنى الخيانة كالعافية ، والمراد استراق النظر إلى ما لا يحل كما يفعل أهل الريب . قال : ولا يحسن أن تكون الخائنة صفة للأعين مضافة إليها نحو « جرد قطيفة » أي يعلم العين الخائنة لأن قوله ﴿ وما تخفي الصدور ﴾ لا يساعد عليه . قلت : يعني أن عطف العرض على الجوهر والمعنى على العين غير مناسب . وقيل : هي قول الإنسان رأيت ولم ير وما رأيت ورأى . ومضمرات الصدرو أي القلوب فيها لأنها فيها . قيل : هي ما يستره الإنسان من أمانة وخيانة . وقيل : الوسوسة . وقال ابن عباس : ما تخفي الصدور بعد النظر إليها أيزني بها أم لا . أقول : والحاصل أنه تعالى أراد أن يصف نفسه بكمال العلم فإن المجازاة تتوقف على ذلك . ففي قوله ﴿ يعلم خائنة الأعين ﴾ إشارة إلى أنه عالم بجميع أفعال الجوارح ، وفي قوله ﴿ وما تخفي الصدور ﴾ دلالة على أنه عالم بجميع أفعال القلوب . وإذا علمت هذه الصفة وقد عرفت من الأصناف السابقة كمال قدرته واستغنائه لم يبق شك في حقية قضائه فلذلك قال ﴿ والله يقضى بالحق ﴾ ثم وبخهم على عبادة من لا قضاء له ولا سمع ولا بصر بقوله ﴿ والذين يدعون ﴾ الخ . ثم وعظهم بالنظر في أحوال الأمم السالفة وقد مر نظير الآية في مواضع . وإنما قال في هذه السورة ﴿ ذلك بأنهم كانت ﴾ وفي « التغابن »." (١)

"ثم أخبر عن علمه الواسع المحيط ، وأنه يعلم ما بين أيدي الخلائق من الأمور المستقبلة التي لا نهاية لها ﴿ وما خلفهم ﴾ [البقرة : ٢٥٥] ، من الأمور الماضية التي لا حد لها ، وأنه لا تخفى عليه خافية ، يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور ، ﴿ وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يا بس إلا في كتاب مبين ﴾ ، وأن الخلق لا يحيط أحد منهم بشيء من علم الله ، ولا معلوماته إلا بما شاء منهما ، وهو ما أطلعهم عليه من الأمور الشرعية والقدرية ، وهو جزء يسير جدا بالنسبة إلى علم الباري ، تضمحل العلوم كلها في علم الباري ومعلوماته ، كما قال أعلم المخلوقات ، وهم الرسل والملائكة : ﴿ سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا ﴾ [البقرة : ٣٢] .." (٢)

---

(١) تفسير النيسابوري، المؤلف غير معروف ٦/٤٢٧

(٢) تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن، المؤلف غير معروف ١/٢٧

" لا يستترون منه بجبل ولا مدر قاله قتادة والثالث أن المعنى أبرزهم جميعا لأنه لا يخفى عليه منهم شيء حكاه الماوردي

قوله تعالى لمن الملك اليوم اتفقوا على أن هذا يقوله الله عز و جل بعد فناء الخلائق واختلفوا في وقت قوله له على قولين

أحدهما أنه يقوله عند فناء الخلائق إذا لم يبق مجيب فيرد هو على نفسه فيقول لله الواحد القهار قاله الأكثرون

والثاني أنه يقوله يوم القيامة

وفيمن يجيبه حينئذ قولان أحدهما أنه يجيب نفسه وقد سكت الخلائق لقوله قاله عطاء والثاني أن الخلائق كلهم يجيبونه فيقولون لله الواحد القهار قاله ابن جريج

وأنذرهم يوم الآزفة إذا القلوب لدى الحناجر كاظمين ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور

قوله تعالى وأنذرهم يوم الآزفة فيه قولان

أحدهما أنه يوم القيامة قاله الجمهور قال ابن قتيبة وسميت القيامة بذلك لقربها يقال أزف شخوص فلان أي قرب

والثاني أنه يوم حضور المنية قاله قطرب ." (١)

" قوله تعالى إذا القلوب لدى الحناجر وذلك أنها ترتقي إلى الحناجر فلا تخرج ولا تعود هذا على القول الأول وعلى الثاني القلوب هي النفوس تبلغ الحناجر عند حضور المنية قال الزجاج و كاظمين منصوب على الحال والحال محمولة على المعنى لأن القلوب لا يقال لها كاظمين وإنما الكاظمون أصحاب القلوب فالمعنى إذ قلوب الناس لدى الحناجر في حال كظمهم قال المفسرون كاظمين أي مغمومين ممتلئين خوفا وحزنا والكاظم الممسك للشيء على ما فيه وقد أشرنا إلى هذا عند قوله والكاظمين الغيظ آل عمران ١٣٤

ما للظالمين يعني الكافرين من حميم أي قريب ينفعهم ولا شفيع يطاع فيهم فتقبل شفاعته

يعلم خائنة الأعين قال ابن قتيبة الخائنة والخيانة واحد وللمفسرين فيها أربعة أقوال

أحدها أنه الرجل يكون في القوم فتمر به المرأة فيريهم أنه يغض بصره فإذا رأى منهم غفلة لحظ إليها فان خاف أن يفطنوا له غض بصره قاله ابن عباس

والثاني أنه نظر العين إلى ما نهي عنه قاله مجاهد

والثالث الغمز بالعين قاله الضحاك والسدي قال قتادة هو الغمز بالعين فيما لا يحبه الله ولا يرضاه

والرابع النظرة بعد النظرة قاله ابن السائب

---

(١) زاد المسير، المؤلف غير معروف ٢١٢/٧

قوله تعالى وما تخفي الصدور فيه ثلاثة أقوال أحدها ما تضمره من الفعل أن لو قدرت على ما نظرت إليه قاله ابن عباس والثاني الوسوسة ." (١)

" من أول الأمر بتأييد وليه له في المحاجة فان التربية نوع من الولاية أن ءاته الله الملك أي لأن آتاه الله تعالى ذلك فالكلام على حذف اللام وهو مطرد في أن وإن وليس هناك مفعول لأجله منصوب لعدم إتحاد الفاعل والتعليل فيه على وجهين : إما أن إيتاء الملك حملة على ذلك لأنه أورثه الكبر والبطر فنشأت المحاجة عنهما وإما أنه من باب العكس في الكلام بمعنى أنه وضع المحاجة وضع الشكر إذ كان من حقه أن يشكر على ذلك فعلى الأول العلة تحقيقية وعلى الثاني تهكمية كما تقول عاداني فلان لأني أحسنت اليه وجوز أن يكون آتاه الخ واقعا موقع الظرف بدون تقدير أو بتقدير مضاف أي حاج وقت أن آتاه الله وأورد عليه أن المحاجة لم تقع وقت إيتاء الملك بل الإيتاء سابق عليها وبأن النحاة نصوا على أنه لا يقوم مقام الظرف الزماني إلا المصدر الصريح بلفظة كجئتت خفوف النجم وصياح الديك ولا يجوز إن خفف وإن صاح

وأجيب باعتبار الوقت ممتدا وبأن النص معارض بأنهم نصوا على أن ما المصدرية تنوب عن الزمان وليست بمصدر صريح والذى جوز ذلك ابن جني والصفار في شرح الكتاب والحق أن التعليل لما أمكن وهو متفق عليه خال عما يقال لا ينبغي أن يعدل عنه لا سيما وتقدير المضاف مع القول بالإمتداد وإلتزام قول ابن جني والصفار مع مخالفته لكلام الجمهور في غاية من التعسف والآية حجة على من منع إيتاء الله الملك لكافر وحملها على إيتاء الله تعالى ما غلب به وتسلط من المال والخدام والأتباع أو على أن الله تعالى ملكه إمتحانا لعباده كما فعل المانع القائل بوجوب رعاية الأصلح ليس بشئ إذ من له مسكة من الإنصاف يعلم أنه لا معنى لإيتاء الملك والتسليط إلا إيتاء الأسباب ولو سلم ففي إيتاء الأسباب يتوجه السؤال ولو سلم فما من قبيح إلا ويمكن أن يعتبر فيه غرض صحيح كالإمتحان ولقوة هذا الإعتراض إلتزم بعضهم جعل ضمير آتاه لإبراهيم عليه السلام لأنه تعالى قال : لا ينال عهدي الظالمين وقال سبحانه : فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكا عظيما وهو المحكي عن أبي قاسم البلخي ولا يخفى أنه خلاف المنساق إلى الذهن وخلاف التفسير المأثور عن السلف الصالح والواقع مع هذا يكذبه إذ ليس لإبراهيم عليه السلام إذ ذاك ملك ولا تصرف ولا نفوذ أمر

وذهب بعض الإمامية إلى أن الملك الذي لا يؤتيه الله للكافر هو ما كان بتمليك الأمر والنهي وإيجاب الطاعة على الخلق وأما ما كان بالغلبة وسعة المال ونفوذ الكلمة قهرا كملك نمروذ فهو مما لا ينبغي أن ينتطح فيه كبشان أو تكون فيه كلمتان والقول : بأن هذا المارد أعطى الملك بالإعتبار الأول خارج عن الإنصاف بل الذي أوتي ذلك في الحقيقة إبراهيم عليه الصلاة و السلام إلا أنه قد عورض في ملكه وغولب على ما من الله تعالى به عليه إلى أن قضى الله تعالى ما قضى ومضى من مضى وللباطل جولة ثم يزول وهو كلام أقرب ما يكون إلى الصواب لكنى أشم منه ريح الضلال ويلوح لي أنه تعريض بالأصحاب والله تعالى يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور وفي العدول عن الإضمار إلى الإظهار في هذا المقام ما لا يخفى إذ قال إبراهيم ظرف لحاج وجؤز أن يكون بدلا من آتاه بناءا على القول الذي علمت وإعترضه أبو حيان بأن الظرفين مختلفان إذ وقت إيتائه الملك ليس وقت إبراهيم عليه السلام ربي الذي يحي ويميت فانه على ما روى قاله أن سجن

---

(١) زاد المسير، المؤلف غير معروف ٢١٣/٧

لكسره الأصنام وإثر قول نمروذ له وقد كان أوتي قبل الملك : من ربك الذي تدعو إليه وأجاب السفاقسي بالتجوز في آتاه وعدم إرادة إبتداء الإتيان منه بل زمان الملك وهو ممتد يسع قولين بل أقوالا واعترض أبو البقاء أيضا بأن المصدر غير الظرف فلو كان ." (١)

" والمراد إيصاء الكمل من الشيوخ أن يخلفوا ويأذنوا بالإرشاد من يصلح لذلك من المريدين السالكين على ايديهم ولا تأكلوها أي تنتفعوا بتلك الأموال دونهم إسرافا وبدارا أن يكبروا بالتصدي للأرشاد فإن ذلك من أعظم أدواء النفس والسموم القاتلة ومن كان منكم غنيا بالله لا يلتفت إلى ضرورات الحياة أصلا فليستعفف عما للمريد ومن كان فقيرا لا يتحمل الضرورة فليأكل أي فلينتفع بما للمريد بالمعروف وهو ما كان بقدر الضرورة فإذا دفعتم إليهم أموالهم فأشهدوا عليهم الله تعالى وأرواح أهل الحضرة وخذوا العهد عليهم برعاية الحقوق مع الحق والخلق وكفى بالله حسيبا لأنه الموجود الحقيقي والمطلع الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور وهو حسبنا ونعم الوكيل للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون شروع في بيان أحكام المواريث بعد بيان أموال اليتامى المنتقلة إليهم بالإرث والمراد من الرجال الأولاد الذكور أو الذكور أعم من أن يكون كبارا أو صغارا ومن الأقربين الموروثون ومن الوالدين مالم يكن بواسطة والجد والجدة داخلان تحت الأقربين وذكر الولدان مع دخولهما أيضا إعتناءا بشأنهما وجوز أن يراد من الوالدين ما هو أعم من أن يكون بواسطة أو بغيرها فيشمل الجد والجدة وأعترض بأنه يلزم توريث أولاد الأولاد مع وجود الأولاد

وأجيب بأن عدم التوريث في هذه الصورة معلوم من أمر آخر لا يخفى والنصيب الحظ كالنصب بالكسر ويجمع على أنصباء وأنصبة ومنفي مما متعلقة بمحذوف وقع صفة للنكرة قبله أي نصيب كائن مما ترك وجوز تعلقه بنصيب

وللنسآء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون المراد من النساء البنات مطلقا أو الإناث كذلك وإيراد حكمهم على الإستقلال دون الدرج في تضاعيف أحكام السالفين بأن يقال للرجال والنساء نصيب إلخ للإعتناءكما قال شيخ الإسلامبأمرهن والإيذان بأصالتهن في إستحقاق الأرث والإشارة من أول الأمر إلى تفاوت ما بين نصيبي الفريقين والمبالغة في إبطال حكم الجاهلية فإنهم ما كانوا يورثون النساء والأطفال ويقولون : إنما يرث من يحارب ويذب عن الحوزة وللرد عليهم نزلت هذه الآيةكما قال إبن جبير وغيرهوروى أن أوس بن ثابت وقيل : أوس بن مالك وقيل : ثابت بن قيس وقيل : أوس بن الصامتوهو خطألأنه توفى في زمن خلافة عثمان رضي الله تعالى عنه مات وترك إبنتين وإبنا صغيرا وزوجته أم كحة وقيل : بنت كحة وقيل : أم كحلة وقيل : أم كلثوم فجاء أبناء عمه خالد أو سويد وعرفطة أو قتادة وعرفجة فأخذا ميراثه كله فقالت أمرأته لهما : تزوجا بالإبنتين وكانت بهما دمامة فأبيا فأتت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فأخبرته الخبر فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : ما أدري ما أقول فنزلت للرجال نصيب الآية فأرسل صلى الله تعالى عليه وسلم إلى إبني العم فقال : لا تحركا من الميراث شيئا فإنه قد أنزل علي فيه شيء أخبرت فيه أن للذكر والأنثى نصيبا ثم نزل بعد ذلك ويستفتونك في النساء إلى قوله : عليما ثم نزل يوصيكم الله في أولادكم إلى قوله : والله عليم حكيم فدعى بالميراث

---

(١) روح المعاني، المؤلف غير معروف ١٦/٣

فأعطى المرأة الثمن وقسم ما بقى بين الأولاد للذكر مثل حظ الأنثيين ولم يعط إبني العم شيئا وفي بعض طرقهأن الميت خلف زوجة وبنتين وإبني عم فأعطى الزوجة الثمن والبنتين الثلثين وإبني العم الباقي

وفي الخبر دليل على جواز تأخير البيان عن الخطاب ومن عمم الرجال والنساء وقال : إن الأقربين عام لذوي القرابة النسبية والسببية جعل الآية متضمنة لحكم الزوج والزوجة وإستحقاق كل منهما الإرث من صاحبه ." (١)

" لفساد المعنى والحاجة إلى تقدير محذوف مع الغنى عنه وكذلك على قراءة كاظمون للأول فقط فيتعين كون لدى الحناجر خبرا و كاظمون خبرا آخر وبذلك يترجح كون الحال من القلوب وقدر الكواشي هم كاظمون ليوافق وجه الحالية من الأصحاب وجوز كونه حالا من مفعوا أنذرهم أي أنذرهم مقدرا كظمهم أو مشارفين الكظم

ما للظالمين من حميم أي قريب مشفق من احتم فلان لفلان احتد فكأنه الذي يحتد حماية لذويه ويقال لخاصة الرجل حامته ومن هنا فسر الحميم بالصديق ولا شفيع يطاع

١٨

– أي ولا شفيع يشفع فالجملة في محل جر أو رفع صفة شفيع والمراد نفي الصفة والموصوف لا الصفة فقط ليدل على أن ثم شفيعا لكن لا يطاع فالكلام من باب

لا ترى الضب بها ينجحر

ولم يقتصر على نفع الشفيع بل ضم إليه ما ضم ليقام انتفاء الموصوف مقام الشاهد على انتفاء الصفة فيكون ذلك الضم إزالة لتوهم وجود الموصوف حيث جعل انتفاؤه أمرا مسلما مشهورا لا نزاع فيه لأن الدليل ينبغي أن يكون أوضح من المدلول وهذا كما تقول لمن عاتبك على القعود عن الغزو مالي فرس أركبه وما معي سلاح أحارب به فليفهم والضمائر المذكورة من قوله تعالى : وأنذرهم إلى هنا إن كانت للكفار كما هو للظاهر فوضع الظالمين موضع ضميرهم للتسجيل عليهم بالظلم وتعليل الحكم وإن كانت عامة لهم ولغيرهم فليس هذا من باب وضع الظاهر موضع الضمير وإنما هو بيان حكم للظالمين بخصوصهم والمراد بهم الكاملون في الظلم وهم الكافرون لقوله تعالى : إن الشرك لظلم عظيم يعلم خائنة الأعين أي النظرة الخائنة كالنظرة إلى غير المحرم واستراق النظر إليه وغير ذلك فخائنة صفة لموصوف مقدر وجعل النظرة خائنة إسناد مجازي أو استعارة مصرحة أو مكنية وتخييلية ويجعل النظر بمنزلة شيء يسرق من المنظور إليه ولذا عبر فيه بالإستراق ويجوز أن يكون خائنة مصدرا كالكاذبة والعاقبة والعافية أي يعلم سبحانه خيانة الأعين وقيل وصف مضاف إلى موصوفه كما في قوله :

سيقت كرام الناس فأسقينا

أي يعلم سبحانه الأعين الخائنة ولا يحسن ذلك لقوله تعالى : وما تخفي الصدور

١٩

(١) روح المعاني، المؤلف غير معروف ٤/٢١٠

– أي والذي تخفيه الصدور من الضمائر أو إخفاء الصدور لما تخفيه من ذلك لأن الملاءمة واجبة الرعاية في علم البيان وملائم الأعين الخائنة الصدور المخفية وما قيل في عدم حسن ذلك من أن مقام المبالغة يقتضي أن يراد استراق العين ضم إليه هذه القرينة أولا فغير قادح في التعليل المذكور إذ لا مانع من أن يكون على مطلوب دلائل ثم لولا القرينة لجاز أن تجعل الأعين تمهيدا للوصف فالقرينة هي المانعة وهذه الجملة على ما في الكشاف متصلة بأول الكلام خبر من أخبار هو في قوله تعالى : هو الذي يريكم على معنى هو الذي يريكم الخ وهو يعلم خائنة الأعين ولم يجعله تعليلا لنفي الشفاعة على معنى ما لهم من شفيع لأن الله تعالى يعلم منهم الخيانة سرا وعلانية قيل : لأنه لا يصلح تعليلا لنفيها بل لنفي قبولها فإن الله تعالى هو العالم لا الشفيع والمقصود نفي الشفاعة ووجه تقرير هذا الخبر في هذا الموضع ما فيه من التخلص إلى ذم آلهتهم مع أن تقديمه على الذي يريكم لا وجه له لتعلقه بما قبله أشد التعلق كما أشير إليه وكذلك على رفيع الدرجات لاتصاله بالسابق وأمر المنيبين بالإخلاص ولما فيه من النبو من توسيط المنكر الفعلي بين المبتدأ وخبره المعرف الإسمي وأما توسيطه بين القرائن الثلاث فبين العصا ." (١)

" ولحائها فلا موضع له أحق من هذا ولا يضر البعد اللفظي في مثل ذلك كما لا يخفى وظن بعضهم ضرره فمنهم من قال : الجملة متصلة بمجموع قوله عز و جل : وأنذرهم يوم الآزفة إلى آخره وذلك أنه سبحانه لما أمر بإنذار ذلك اليوم وما يعرض فيه من شدة الكرب والغم وذكر تعالى أن الظالم لا يجد من يحميه من ذلك ولا من يشفع له ذكر جل وعلا إطلاعه على جميع ما يصدر من العبد وأنه مجازي بما عمل ليكون على حذر من ذلك اليوم إذا علم أن الله تعالى مطلع على أعماله وإلى هذا ذهب أبو حيان

وقال ابن عطية : هي متصلة بقوله تعالى : سريع الحساب لأن سرعة حسابه تعالى للخلق إنما هي لعلمه تعالى الذي لا يحتاج معه إلى روية وفكر ولا لشيء مما يحتاجه المحاسبون وحكى رحمه الله تعالى عن فرقة أنها متصلة بقوله تعالى : لا يخفى على الله منهم شيء ثم قال : وهذا قول حسن يقويه تناسب المعنيين ويضعفه البعد وكثرة الحائل وجعلها بعض متصلة بنفي قبول الشفاعة الذي تضمنه قوله تعالى : ولا شفيع يطاع فإن يطاع المنفي بمعنى تقبل شفاعته على أنها تعليل لذلك أي لا تقبل شفاعة شفيع لهم لأن الله تعالى يعلم منه الخيانة سرا وعلانية وليست تعليلا لنفي ليرد ما قيل ولا يخفى ما فيه ولعمري أن جار الله في مثل هذا المقام لا يجارى

والله يقضي بالحق أي والذي هذه صفاته يقضي قضاء ملتبسا بالحق لا بالباطل لاستغنائه سبحانه عن الظلم وتقديم المسند إليه للتقوى وجوز أن يكون للحصر وفائدة العدول عن المضمر إلى المظهر والإتيان بالاسم الجامع عقيب ذكر الأوصاف ما أشير إليه من إرادة الموصوف بتلك الصفات

والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء تهكم بآلهتهم لأن الجماد لا يقال فيه يقضى أو لا يقضى وجعله بعضهم من باب المشاكلة وأصله لا يقدرون على شيء واختير الأول قيل لأن التهكم أبلغ لأنه ليس المقصود الإستدلال على عدم صلاحيتهم للإلهية

---

(١) روح المعاني، المؤلف غير معروف ٥٩/٢٤

وقرأ أبو جعفر وشيبة ونافع بخلاف عنه وهشام تدعون بتاء الخطاب على الإلتفات وجوز أن يكون على إضمار قل فلا يكون التفاتا وإن عبر عنه بالغيبة قبله لأنه ليبس على خلاف مقتضى الظاهر إذ هو ابتداء كلام مبني على خطابهم إن الله هو السميع البصير

٢٠

– تقرير لعلمه تعالى بخائنة الأعين وما تخفي الصدور وقضاؤه سبحانه بالحق ووعيد لهم على ما يقولون ويغفلون وتعريض بحال ما يدعون من دونه عز و جل وفيه إشارة إلى أن القاضي ينبغي أن يكون سميعا بصيرا أو لم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم أي مآل حال الذين كذبوا الرسل عليهم السلام قبلهم كعاد وثمود و ينظروا مجزوم على أنه معطوف على يسيروا وجوز أبو حيان كونه منصوبا في جواب النفي كما في قوله :

ألم تسأل فتخبرك الرسوم

وتعقب بأنه لا يصح تقديره بأن لم يسيروا ينظروا وأجيب بأن الإستفهام إنكاري وهو في معنى النفي فيكون جواب نفي النفي كانوا هم أشد منهم قوة قدرة وتمكنا من التصرفات والضمير المنفصل تأكيد للضمير المتصل قبله وجوز كونه ضمير فصل ولا يتعين وقوعه بين معرفتين فقد أجاز الجرجاني وقوع المضارع بعده كما في قوله تعالى إنه هو يبديء ويعيد نعم الأصل الأكثر فيه ذلك على أن أفعل التفضيل الواقع بعده من الداخلة على المفضل عليه مضارع للمعرفة لفظا في عدم دخول أل عليه ومعنى لأن المراد به الأفضل باعتبار أفضلية معينة ." (١)

" فما بعدها عطف على آمنوا دلالة على أن عدم نفع إيمانهم ورده عليهم تابع للإيمان عند رؤية العذاب كأنه قيل : فلما رأوا بأسنا آمنوا فلم ينفعهم إيمانهم إذ النافع إيمان الإختيار سنت الله التي قد خلت في عباده أي سن الله تعالى ذلك أعني عدم نفع الإيمان عند رؤية البأس سنة ماضية في البعاد وهي من المصادر المؤكدة كوعد الله وصبغة الله وجوز انتصابها على التحذير أي احذروا يا أهل مكة سنة الله تعالى في أعداء الرسل

وخسر هنا لك الكافرون

٨٥

– أي وقت رؤيتهم في البأس على أنه اسم مكان قد استعير للزمان كما سلف آنفا وهذا الحكم خاص بإيمان البأس وأما توبة البأس فهي مقبولة نافعة بفل الله تعالى وكرمه والفرق ظاهر

وعن بعض الأكابر أن إيمان البأس مقبول أيضا ومعنى فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا أن نفس إيمانهم لم ينفعهم وإنما نفعهم الله تعالى حقيقة به ولا يخفى عليك حال هذا التأويل وما كان من ذلك القبيل والله تعالى أعلم

ومن باب الإشارة في بعض الآيات على ما أشار إليه بعض السادات حم إشارة إلى ما أفيض على قلب محمد صلى الله تعالى عليه وسلم من الرحمن فإن الحاء والميم من وسط الاسمين الكريمين وفي ذلك أيضا سر لا يجوز كشفه ولما

---

(١) روح المعاني، المؤلف غير معروف ٦٠/٢٤

صدرت السورة بما أشار إلى الرحمة وأنها وصف المدعو إليه والداعي ذكر بعض من صفات المدعو إليه وهو الله عز و جل ما يدل على عظم الرحمة وسبقها وفي ذلك من بشارة المدعو ما فيه

الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا الخ فيه إشارة إلى شرف الإيمان وجلالة قدر المؤمنين وإلى أنه ينبغي للمؤمنين من بني آدم أن يستغفر بعضهم لبعض وفي ذلك أيضا من تأكيد الدلالة على عظم رحمة الله عز و جل ما لا يخفى فادعو الله مخلصين له الدين بأن يكون غير مشوب بشيء من مقاصد الدنيا والآخرة يلقى الروح من أمره على من يشاء من عباده قيل : في إطلاق الروح إشارة إلى روح النبوة وهو يلقى على الأنبياء وروح الولاية ويلقى على العارفين وروح الدراية ويلقى على المؤمنين الناكسين لينذر يوم التلاق قيل التلاقي مع الله تعالى ولا وجود لغيره وتعالى وهو مقام الفناء المشار إليه بقوله سبحانه : يوم هم بارزون من قبور وجودهم لا يخفى على الله منهم شيء لمن الملك اليوم لله الواحد القهار إذ ليس في الدار غيره ديار اليوم تجزى كل نفس من التجلي بما كسبت في بذال الوجود للمعبود لا ظلم اليوم فتنال كل نفس من التجلي بقدر بذلها من الوجود لا أقل من ذلك

وأنذرهم يوم الآفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين هذه قيامة العوام المؤجلة ويشير إلى قيامة الخواص المعجلة لهم فقد قيل : إن لهم في كل نفس قيامة من العتاب والعقاب والثواب والبعاد والإقتراب وما لم يكن لهم في حساب وخفقان القلب ينطق والنحول يخبر واللون يفصح والمشوق يستر ولكن البلاء يظهر وإذا أزف فناء الصفات بلغت القلوب الحناجر وشهدت العيون بما تخفى الضمائر يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور خائنة أعين المحبين استحسانهم تعمد النظر إلى غير المحبوب باستحسان واستلذاذ وما تخفيه الصدور من متمنيات النفوس ومستحسنات القلوب ومرغوبات الأرواح وقال ربكم ادعوني أستجب لكم قيل أي اطلبوني مني أجبكم فتجدوني ومن وجدني وجد كل شيء فالدعاء الذي لا يرد هو هذا الدعاء ففي بعض الأخبار من طلبني وجدني إن الذين يستكبرون عن عبادتي دعائي وطلبي سيدخلون جهنم الحرمان ." [1]

"﴿ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ الأعين وَمَا تُخْفِي الصدور ﴾ [غافر : ١٩] .ثم أكد تعالى الأمر للمؤمنات بغض البصر وحفظ الفرج وزادهنّ في التكليف على الرجال بالنهي عن إبداء الزينة إلا للمحارم والأقرباء فإن ذلك أولى بهن وأجمل إلا إذا ظهرت هذه الزينة بدون قصد ولا نية سيئة فلا إثم عليهن فالله غفور رحيم .وقد كانت المرأة في الجاهلية كما هي اليوم – في الجاهلية الحديثة – تمر بين الرجال مكشوفة الصدر ، بادية النحر ، حاسرة الذراعين ، وربما أظهرت مفاتن جسمها وذوائب شعرها لتغري الرجال ، وكنَّ يسدلن الخمر من ورائهن فتبقى صدورُهنّ مكشوفة عارية فأمرت المؤمنات بأن يسدلنها من قدامهن حتى يغطينها ويدفعن عنهن شر الأشرار ، وأمرن بألاّ يضربن بأرجلهن الأرض لئلا يسمع الرجال صوت الخلخال فيطمع الذي في قلبه مرض .ثم ختم تعالى تلك الأوامر والنواهي بالأمر (للرجال والنساء) جميعاً بالإنابة والرجوع إلى الله لينالوا درجة السعداء ، ويكونوا عند الله من الفائزين الأبرار .سبب النزولأولاً : أخرج ابن مردويه عن علي بن أبي طالب Bه قال : مر رجل على عهد رسول الله A في طريق من طرقات المدينة ، فنظر إلى امرأة ونظرت إليه ، فوسوس لهما الشيطان أنه لم ينظر أحدهما إلى الآخر إلا إعجاباً به ، فبينما الرجل يمشي إلى جانب حائط ينظر إليها إذ استقبله الحائط (صُدم به)

---

(١) روح المعاني، المؤلف غير معروف ٩٣/٢٤

فشق أنفه ، فقال : والله لا أغسل الدم حتى آتي رسول الله A فأعلمه أمري؟ فأتاه فقصّ عليه قصته ، فقال النبي A (هذا عقوبة ذنبك) وأنزل الله : ﴿ قُلْ لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَارِهِمْ . . . ﴾ الآية .ثانياً : وروى ابن كثير C ، عن مقاتل بن حيان ، عن جابر بن عبد الله الأنصاري قال : (بلغنا – والله أعلم – أن جابر بن عبد الله الأنصاري حدّث أن أسماء بنت مرثد كانت في نخل لها في بني حارثة ، فجعل النساء يدخلن عليها غير مؤتزرات فيبدو ما في أرجلهن يعني الخلاخل ، ويبدوا صدروهن وذوائبهن ، فقالت أسماء : ما أقبح هذا؟ فأنزل الله في ذلك ﴿ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ . . . ﴾ الآية .لطائف التفسيراللطيفة الأولى : السر في تقديم غض البصر على حفظ الفروج هو أن النظر بريد الزنى ورائد الفجور وهو مقدمة للوقوع في المخاطر كما قال الحماسي :." (١)

"تفسير قوله تعالى: (قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم .)باسم الله والحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله.

وبعد: فقد سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن نظر الفجاءة فقال: (اصرف بصرك) وقد ورد في الباب حديث علي وفي إسناده كلام: (يا علي ! لا تتبع النظرة النظرة، فإنما لك الأولى وليست لك الآخرة) وهو حديث ضعيف لا يثبت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وقال عليه الصلاة والسلام في معرض بيان غض البصر : (لا ينظر الرجل إلى عورة الرجل، ولا تنظر المرأة إلى عورة المرأة)، ومن الجهل والقبح والعار أن ترى رجالا ونساء عراة، أو رجالا يسبحون في البحر عراة كما ولدتهم أمهاتهم، وفي الأنهار والترع كالبهائم والعياذ بالله.

قال الله سبحانه: ﴿ قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ﴾ [النور:٣٠] قد يقول قائل: إن حفظ الفرج آكد من غض البصر؛ لأن عدم حفظ الفرج كبيرة، أما إطلاق البصر ليس من الكبائر عند كثير من العلماء، لأن ابن عباس فسر اللمم بحديث أبي هريرة : (كتب على ابن آدم نصيبه من الزنا مدرك ذلك لا محالة: فالعين تزني وزناها النظر) فقال: ما رأيت أشبه باللمم المذكور في قوله تعالى: ﴿ الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم ﴾ [النجم:٣٢] مما قال أبو هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: (كتب على ابن آدم نصيبه من الزنا مدرك ذلك لا محالة ...) الحديث، فلماذا قدم الأمر بغض البصر على الأمر بحفظ الفرج، مع أن حفظ الفرج أهم من غض البصر؟! صحيح أن حفظ الفرج أهم من غض البصر، لكن النظر هو الوسيلة إلى المحرم.

فالفرج لا يتحرك إلا بعد نظر، وكما قال الشاعر: ومعظم النار من مستصغر الشرر فالأمر بغض البصر أمر بسد الذريعة إلى الوصول إلى المحرم، فالزنا جعل له حمى حتى لا يقع شخص فيه، فلا تدخل بيت شخص إلا إذا استأذنت، ولا تنظر إلا إلى الذي أبيح لك، وقد قدمنا أن من الحمى الذي وضع للزنا: مصافحة المرأة الأجنبية، فإنها لا يجوز، والخلوة بالمرأة الأجنبية لا تجوز، سفر المرأة بدون محرم لا يجوز، والغناء الذي يثير الكامن ويهيج على الفاحشة لا يجوز، فللزنا حمى فليبتعد عنه الشخص، ومنه غض البصر.

---

(١) روائع البيان في تفسير آيات الأحكام، المؤلف غير معروف ص/٣٦٥

﴿ قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ﴾ [النور:٣٠] فيه أن ذكر الرجل يطلق عليه الفرج خلافا لمن كره ذلك من العلماء، فمن أهل العلم من كره أن يقال عن عورة الرجل فرج، وقال: الفرج هو ما انفرج، أي: ما فتح، كما قال تعالى: ﴿ أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج ﴾ [ق:٦] فقال: إن الفرج مختص بالمرأة، لكن هذه الآية ترد عليه، لأن الله جل ذكره قال: ﴿ قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ﴾ [النور:٣٠].

والمقصود أن يحفظوها عن الزنا، وعن اللواط، وعن الاستمناء، وعن نظر الأجانب إليها، وعن نظر من لا يحل له النظر إليها، وبالجملة عن كل ما حرمه الله سبحانه وتعالى عليهم، قال النبي عليه الصلاة والسلام فيما تقدم: (لا ينظر الرجل إلى عورة الرجل).

وقد ورد في الباب حديث محمول على الاستحباب، ألا وهو حديث بهز بن حكيم عن أبيه عن جده قال: (يا رسول الله! إن الله لا يستحي من الحق -وذكر الحديث وفيه:- عوراتنا ما نأتي منها وما نذر؟) يعني: ما هو الشيء الذي يرى، وما الشيء الذي يترك؟ قال: (احفظ عورتك إلا من زوجتك أو ما ملكت يمينك، قال: الرجل يغتسل عاريا يا رسول الله؟! قال: الله أحق أن يستحيا منه من الناس) فمن العلماء من قال: وإن كنت وحدك استحب لك أن تستتر ولا تباشر السماء بفرجك، ولا تكن مكشوفا، وحمل هذا على الاستحباب لا على الإيجاب؛ لأن نبي الله موسى اغتسل عريانا، ولأن نبي الله أيوب اغتسل عريانا، وهذا حيث لا يراهما الناس، لكن الكلام على الاستحباب في شريعتنا، والله تعالى أعلم.

﴿ قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم إن الله خبير بما يصنعون ﴾ [النور:٣٠]، هذا التعقيب بقوله: ((إن الله خبير بما يصنعون))[النور:٣٠] لأن للأعين خائنة لا يعلمها إلا الله سبحانه وتعالى، فقد تكون ماشيا مع شخص في طريق ولعينه خائنة وأنت لا تشعر بها، ولا تستطيع أن تضبطه بحال، يسارق النظر وأنت لا تشعر، كما قال سبحانه: ﴿ يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور ﴾ [غافر:١٩] فختمت الآية بقوله تعالى: ﴿ إن الله خبير بما يصنعون ﴾ [النور:٣٠] فمهما أخطأت على الناس فإن الله يعلم حالك ويطلع عليك .." (١)

"ثبوت صفة السمع والبصر لله، وتعزيز مبدأ المراقبة له سبحانه

قال تعالى: ﴿ قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها ﴾ [المجادلة:١]، الآية أثبتت كغيرها ما هو من بدهيات الإسلام: صفة السمع لله سبحانه وتعالى، ﴿ إن الله سميع بصير ﴾ [المجادلة:١]، ﴿ قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها ﴾ [المجادلة:١]، فهذه الآية مع غيرها من الآيات تعزز مبدأ مراقبة الله عز وجل، وعليك أن تعبد الله على هذا النحو، تعبده عبادة المحسنين، إن لم تكن تراه فإنه يراك، قال تعالى: ﴿ الذي يراك حين تقوم * وتقلبك في الساجدين * إنه هو السميع العليم ﴾ [الشعراء:٢١٨-٢٢٠]، وقال سبحانه: ﴿ قد يعلم ما أنتم عليه ﴾ [النور:٦٤]، وقال جل شأنه: ﴿ ألا إنهم يثنون صدورهم ليستخفوا منه ألا حين يستغشون ثيابهم ﴾ [هود:٥] أي: وهم متغطون بثيابهم.

﴿ يعلم ما يسرون وما يعلنون إنه عليم بذات الصدور ﴾ [هود:٥] .

---

(١) سلسلة التفسير لمصطفى العدوي، المؤلف غير معروف ٢/٣٥

وهذا المعنى قد لقنه لقمان لولده: ﴿ يا بني إنها إن تك مثقال حبة من خردل فتكن في صخرة أو في السموات أو في الأرض يأت بها الله إن الله لطيف خبير ﴾ [لقمان:١٦]، وأيضا: ﴿ وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين ﴾ [يونس:٦١]، والآيات في باب الحث على مراقبة الله سبحانه وتعالى لا تكاد تنتهي، قال تعالى: ﴿ يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور ﴾ [غافر:١٩]، ﴿ إنه عليم بذات الصدور ﴾ [الملك:١٣]، آيات لا تحصى ولا تنتهي، تفيد أنك مراقب بدقة وأي دقة، مراقب مراقبة دقيقة من كل صوب ومن كل اتجاه، وكل الحركات منك محسوبة عليك، بل ما بداخلك مطلع عليه ربك سبحانه وتعالى، قال جل جلاله: ﴿ ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد ﴾ [ق:١٦]، فأنت يا ابن آدم ضعيف كما قال ربك سبحانه، وكما قال النبي صلى الله عليه وسلم، وأنت عجول، ومع هذا كله فأنت مراقب مراقبة صارمة ودقيقة في غاية الدقة.

قال الله سبحانه: ﴿ قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله والله يسمع تحاوركما ﴾ [المجادلة:١]، والمحاورة: هي إرجاع الكلام إلى الطرف الآخر، هو يتكلم وأنت تحاوره، أي: ترد الكلام عليه، كما قال الشاعر في وصف فرسه: لو كان يدري ما المحاورة اشتكى ولكان لو علم الكلام مكلمي قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ والله يسمع تحاوركما إن الله سميع بصير ﴾ [المجادلة:١]، (وقد تلا النبي صلى الله عليه وسلم آية ختامها يشابه هذا الختام: ﴿ إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل إن الله نعما يعظكم به إن الله كان سميعا بصيرا ﴾ [النساء:٥٨]ولما تلاها النبي عليه الصلاة والسلام وضع إبهامه على أذنه وسبابته على عينه)، فاستنبط بعض العلماء من هذا الحديث: إثبات السمع والبصر لله سبحانه وتعالى، ﴿ إن الله سميع بصير ﴾ [المجادلة:١].." [١]

"حكم لبس النظارة الشمسية بدون حاجة

Q نرجو إلقاء الضوء على حكم لبس النظارة الشمسية بدون داع، هل فيه تشبه أو تغيير للخلق؟ A ليست تشبها وليست تغييرا للخلق، لكن إذا كنت تلبسها حتى تتابع بها النساء ولا يراك أحد فربك يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، إذا كنت تلبسها لحاجة شر فهي شر، لكن الأصل أنها جائزة لا شيء فيها أبدا ﴿ قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق ﴾ [الأعراف:٣٢].." [٢]

"وقوله تعالى : ﴿ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الغيب لاَ يَعْلَمُهَآ إِلاَّ هُوَ ﴾ قال البخاري عن سالم بن عبد الله عن أبيه أن رسول الله A قال : « مفاتح الغيب خمس لا يعلمهن إلاّ الله » ثم قرأ : ﴿ إِنَّ الله عِندَهُ عِلْمُ الساعة وَيُنَزِّلُ الغيث وَيَعْلَمُ مَا فِي الأرحام وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَداً وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ الله عَلَيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [لقمان : ٣٤] ، وفي حديث عمر أن جبريل حين تبدى له في صورة أعرابي ، فسأل عن الإيمان والإسلام والإحسان . فقال له النبي A فيما قال له : « خمس لا يعلمهن إلاّ الله » ثم قرأ : ﴿ إِنَّ الله عِندَهُ عِلْمُ الساعة ﴾ الآية . وقوله : ﴿ وَيَعْلَمُ مَا فِي البر والبحر ﴾

---

(١) سلسلة التفسير لمصطفى العدوي، المؤلف غير معروف ٣/٥٤

(٢) سلسلة التفسير لمصطفى العدوي، المؤلف غير معروف ٢١/٨٧

أي يحيط علمه الكريم بجميع الموجودات بريها وبحريها لا يخفى عليه من ذلك شيء ولا مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ، وما أحسن ما قاله الصرصري : فلا يخفى عليه الذر إما ... تراءى للنواظر أو تواريوقوله تعالى : ﴿ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا ﴾ أي ويعلم الحركات حتى من الجمادات ، فما ظنك بالحيوانات ولا سيما بالمكلفون منهم من جنهم وإنسهم ،كما قال تعالى : ﴿ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ الأعين وَمَا تُخْفِي الصدور ﴾ [غافر : ١٩] . وقال ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا ﴾ قال : ما من شجرة في بر ولا بحر إلاّ وملك موكل بها يكتب ما يسقط منها ، وقوله : ﴿ وَلاَ حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأرض وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ قال عبد الله بن الحارث : ما في الأرض من شجرة ولا مغرز إبرة إلاّ وعليها ملك موكل يأتي الله بعلمها رطوبتها إذا رطبت ويبوستها إذا يبست .." (١)

"يقول الله تعالى : ﴿ وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا ﴾ أي بمخالفة رسلنا وتكذيبهم فأعقبهم ذلك خزي الدنيا موصولاً بذل الآخرة كما قال تعالى : ﴿ وَلَقَدِ استهزىء بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بالذين سَخِرُواْ مِنْهُمْ مَّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ [الأنعام : ١٠] ، وكقوله : ﴿ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ على عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴾ [الحج : ٤٥] ، وقال تعالى : ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّن بَعْدِهِمْ إِلاَّ قَلِيلاً وَكُنَّا نَحْنُ الوارثين ﴾ [القصص : ٥٨] ، وقوله : ﴿ فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتاً أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ ﴾ أي فكان منهم من جاءه أمر الله وبأسه ونقمته ﴿ بَيَاتاً ﴾ أي ليلاً ﴿ أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ ﴾ من القيلولة وهي الاستراحة وسط النهار ، وكلا الوقتين وقت غفلة ولهو ، كما قال : ﴿ أَفَأَمِنَ أَهْلُ القرى أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتاً وَهُمْ نَآئِمُونَ * أَوَ أَمِنَ أَهْلُ القرى أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴾ [الأعراف : ٩٧-٩٨] ، وقال ﴿ أَفَأَمِنَ الذين مَكَرُواْ السيئات أَن يَخْسِفَ الله بِهِمُ الأرض أَوْ يَأْتِيَهُمُ العذاب مِنْ حَيْثُ لاَ يَشْعُرُونَ * أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴾ [النحل : ٤٥-٤٦] ، وقوله : ﴿ فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَآءَهُمْ بَأْسُنَآ إِلاَّ أَن قالوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾ أي فما كان قولهم عند مجيء العذاب إلا أن اعترفوا بذنوبهم وأنهم حقيقون بهذا ، كقوله تعالى : ﴿ وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً ﴾ [الأنبياء : ١١] إلى قوله ﴿ خَامِدِينَ ﴾ [الأنبياء : ١٥] ، قال ابن جرير : في هذه الآية الدالة الواضحة على صحة ما جاءت به الرواية عن رسول الله A قال : « ما هلك قوم حتى يعذروا من أنفسهم » ، وقوله : ﴿ فَلَنَسْأَلَنَّ الذين أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ ﴾ الآية ، كقوله : ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ المرسلين ﴾ [القصص : ٦٥] ، وقوله : ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ الله الرسل فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ قَالُواْ لاَ عِلْمَ لَنَآ إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الغيوب ﴾ [المائدة : ١٠٩] فيسأل الله الأمم يوم القيامة عما أجابوا رسله فيما أرسلهم به ، ويسأل الرسل أيضاً عن إبلاغ رسالاته ، ولهذا قال ابن عباس في تفسير هذه الآية ﴿ فَلَنَسْأَلَنَّ الذين أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ المرسلين ﴾ قال : عما بلغوا .وعن ابن عمر قال ، قال رسول الله A : « كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته فالإمام يسأل عن رعيته والرجل يسأل عن أهله والمرأة تسأل عن بيت زوجها والعبد يسأل عن مال سيده » ، ثم قرأ : ﴿ فَلَنَسْأَلَنَّ الذين أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ المرسلين ﴾ ، وقال ابن عباس في قوله ﴿ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴾ : يوضع الكتاب يوم القيامة فيتكلم بما كانوا يعملون ، ﴿ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴾ يعني أنه تعالى يخبر عباده يوم القيامة بما قالوا وبما عملوا من قليل وكثير

(١) تيسير العلي القدير لاختصار تفسير ابن كثير، المؤلف غير معروف ص/٧٣٩

وجليل وحقير ، لأنه تعالى الشهيد على كل شيء لا يغيب عنه شيء ، ولا يغفل عن شيء بل هو العالم بخائنة الأعين وما تخفي الصدور ﴿ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلاَ حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأرض وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ [الأنعام : ٥٩] .." (١)

"قال مجاهد : أراهم الله إياه في منامه قليلاً ، وأخبر النبي A أصحابه بذلك فكان تثبيتاً لهم ، وقوله : ﴿ وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيراً لَّفَشِلْتُمْ ﴾ أي لجبنتم عنهم واختلفتم فيما بينكم ﴿ ولكن الله سَلَّمَ ﴾ أي من ذلك بأن رأاكهم قليلاً ، ﴿ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصدور ﴾ أي بما تجنه الضمائر وتنطوي عليه الأحشاء ، ﴿ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ الأعين وَمَا تُخْفِي الصدور ﴾ [غافر : ١٩] ، وقوله : ﴿ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ التقيتم فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً ﴾ وهذا أيضاً من لطفه تعالى بهم إذ أراهم إياهم قليلاً في رأي العين فيجزؤهم عليهم ويطمعهم فيهم . قال ابن مسعود Bه : لقد قللوا في أعيننا يوم بدر حتى قلت لرجل إلى جنبي تراهم سبعين؟ قال : لا ، بل هم مائة ، حتى أخذنا رجلاً منهم ، فسألناه فقال : كنا ألفاً ، وقوله : ﴿ وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ ﴾ ، قال عكرمة : حضض بعضهم على بعض ، ﴿ لِيَقْضِيَ الله أَمْراً كَانَ مَفْعُولاً ﴾ أي ليلقي بينهم الحرب للنقمة ممن أراد الانتقام منه ، والإنعام على من أراد تمام النعمة عليه من أهل ولايته ، ومعنى هذا أنه تعالى أعزى كلاً من الفريقين بالآخر ، وقلّله في عينه ليطمع فيه ، وذلك عند المواجهة ، فلما التحم القتال وأيد الله المؤمنين بألف من الملائكة مردفين ، بقي حزب الكفار يرى حزب الإيمان ضعيفه ، كما قال تعالى : ﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ التقتا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ الله وأخرى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ العين ﴾ [آل عمران : ١٣] وهذا هو الجمع بين هاتين الآيتين ، فإن كلاً منها حق وصدق ولله الحمد والمنة .." (٢)

"هذا أمر من الله تعالى لعباده المؤمنين ، أن يغضوا من أبصارهم عما حرم عليهم ، فلا ينظروا إلاّ لما أباح لهم النظر إليه ، وأن يغمضوا أبصارهم عن المحارم ، فإن اتفق أن وقع البصر على محرم من غير قصد فليصرف بصره عنه سريعاً ، كما روي عن جرير بن عبد الله البجلي Bه قال : « سألت النبي A عن نظرة الفجأة فأمرني أن أصرف بصري . وقال رسول الله A لعلي : » لا يا علي لا تتبع النظرة النظرة ، فإن لك الأولى وليس لك الآخرة « وفي الصحيح عن أبي سعيد قال ، قال رسول الله A : » إياكم والجلوس على الطرقات « قالوا : يا رسول الله لا بد لنا من مجالسنا نتحدث فيها ، فقال رسول الله A : » إن أبيتم فأعطو الطريق حقه « قالوا : وما حق الطريق يا رسول الله؟ قال : غض البصر ، وكف الأذى ، ورد السلام ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر » ، ولما كان النظر داعية إلى فساد القلب ، لذلك أمر الله بحفظ الفروج ، كما مر بحفظ الأبصار التي هي بواعث إلى ذلك ، فقال تعالى : ﴿ قُلْ لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُواْ فُرُوجَهُمْ ﴾ وحفظ الفرج تارة يكون بمنعه من الزنا كما قال تعالى : ﴿ والذين هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴾ [المؤمنون : ٥] الآية ، وتارة يكون بحفظه من النظر إليه كما جاء في الحديث : « احفظ عورتك إلاّ من زوجتك أو ما ملكت يمينك » ﴿ ذلك أزكى لَهُمْ ﴾ أي أطهر لقلوبهم وأنقى لدينهم ، كما قيل : من حفظ بصره أورثه الله نوراً في بصيرته ، وروى الإمام أحمد عن أبي

---

(١) تيسير العلي القدير لاختصار تفسير ابن كثير، المؤلف غير معروف ص/٨٢٧

(٢) تيسير العلي القدير لاختصار تفسير ابن كثير، المؤلف غير معروف ص/٩٨٤

أمامة Bه عن النبي A قال : « ما من مسلم ينظر إلى محاسن امرأة ثم يغض بصره إلاّ أخلف الله له عبادة يجد حلاوتها » وعن عبد الله بن مسعود Bه قال ، قال رسول الله A : « إن النظر سهم من سهام إبليس مسموم من تركه مخافتي أبدلته إيماناً يجد حلاوته في قلبه » وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الله خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾ ، كما قال تعالى : ﴿ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ الأعين وَمَا تُخْفِي الصدور ﴾ [غافر : ١٩] . وفي « الصحيح » عن أبي هريرة Bه أنه قال ، قال رسول الله A : « كتب على ابن آدم حظه من الزنا أدرك ذلك لا محالة ، فزنا العينين النظر ، وزنا اللسان النطق ، وزنا الأذنين الاستماع ، وزنا اليدين البطش ، وزنا الرجلين الخطى ، والنفس تمنّي وتشتهي ، والفرج يصدق ذلك أو يكذبه » ، وقد قال كثير من السلف : إنهم كانوا ينهون أن يحدّ الرجل نظره إلى الأمرد ، وقد شدّد كثير من أئمة الصوفية في ذلك ، وحرمه طائفة من أهل العلم ، لما فيه من الافتتان ، وشدد آخرون في ذلك كثيراً جداً . وفي الحديث : « كل عين باكية يوم القيامة إلاّ عيناً غضت عن محارم الله ، وعيناً سهرت في سبيل الله ، وعيناً يخرج منها مثل رأس الذباب من خشية الله » عزَّ وجلَّ .." (١)

"﴿ ذلكم أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ﴾ أي هذا الذي أمرتكم به وشرعته لكم من الحجاب أطهر وأطيب ، وقوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تؤْذُواْ رَسُولَ الله وَلاَ أَن تنكحوا أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ أَبَداً إِنَّ ذلكم كَانَ عِندَ الله عَظِيماً ﴾ قال ابن عباس : نزلت في رجل همَّ أن يتزوج بعض نساء النبي A بعده ، قال رجل لسفيان : أهي عائشة؟ قال : قد ذكروا ذلك ، وقال السدي : إن الذي عزم على ذلك (طلحة بن عبيد الله) Bه ، حتى نزل التنبيه على تحريم ذلك ، ولهذا أجمع العلماء قاطبة على أن من توفي عنها رسول الله A من أزواجه أنه يحرم على غيره تزوجها من بعده ، لأنهم أزواجه في الدنيا والآخرة وأمهات المؤمنين كما تقدم ، وقد عظم الله تبارك وتعالى ذلك وشدد فيه وتوعد عليه بقوله : ﴿ إِنَّ ذلكم كَانَ عِندَ الله عَظِيماً ﴾ ، ثم قال تعالى : ﴿ إِن تُبْدُواْ شَيْئاً أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ الله كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً ﴾ أي مهما تكنه ضمائركم وتنطوي عليه سرائركم ، فإن الله يعلمه فإنه لا تخفى عليه خافية ﴿ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ الأعين وَمَا تُخْفِي الصدور ﴾ [غافر : ١٩] .." (٢)

"يوم الآزفة : اسم من أسماء يوم القيامة ، وسميت بذلك لاقترابها ، كما قال تعالى : ﴿ أَزِفَتِ الآزفة * لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ الله كَاشِفَةٌ ﴾ [النجم : ٥٧-٥٨] ، وقال عزّ وجلّ : ﴿ اقتربت الساعة وانشق القمر ﴾ [القمر : ١] ، وقال جل وعلا : ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيئَتْ وُجُوهُ الذين كَفَرُواْ ﴾ [الملك : ٢٧] الآية ، وقوله تبارك وتعالى : ﴿ إِذِ القلوب لَدَى الحناجر كَاظِمِينَ ﴾ . قال قتادة : وقفت القلوب في الحناجر من الخوف ، فلا تخرج ولا تعود إلى أماكنها ، ومعنى ﴿ كَاظِمِينَ ﴾ أي ساكتين لا يتكلم أحد إلا بإذنه ﴿ لاَّ يَتَكَلَّمُونَ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرحمن وَقَالَ صَوَاباً ﴾ [النبأ : ٣٨] ، وقال ابن جريج ﴿ كَاظِمِينَ ﴾ أي باكين ، وقوله سبحانه ﴿ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلاَ شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴾ ، أي ليس للذين ظلموا من قريب ينفعهم ، ولا شفيع يشفع فيهم ، بل قد تقطعت بهم الأسباب من كل خير ، وقوله تعالى : ﴿ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ الأعين وَمَا تُخْفِي الصدور ﴾ يخبر عزّ وجلّ عن علمه التام المحيط بجميع الأشياء ، جليلها وحقيرها ، صغيرها وكبيرها ،

---

(١) تيسير العلي القدير لاختصار تفسير ابن كثير، المؤلف غير معروف ص/١٧٧٠

(٢) تيسير العلي القدير لاختصار تفسير ابن كثير، المؤلف غير معروف ص/٢٠٥٠

دقيقها ولطيفها ليحذر الناس ربهم ، فيتقوه حق تقواه ، ويراقبوه من يعلم أنه يراه ، فإنه عزّ وجلّ يعلم العين الخائنة ، ويعلم ما تنطوي عليه خبايا الصدور من الضمائر والسرائر ، قال ابن عباس ﴿ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ الأعين وَمَا تُخْفِي الصدور ﴾ : هوا لرجل يدخل على أهل البيت بيتهم ، وفيهم المرأة الحسناء ، أو تمر به وبهم المرأة الحسنا ، فإذا غفلوا لحظ إليها ، فإذا فطنوا غض بصره عنها ، فإذا غفلوا لحظ ، فإذا فطنوا غض ، وقد اطلع الله تعالى من قلبه أنه ود لو اطلع على فرجها . وقال الضحّاك ﴿ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ الأعين ﴾ : هو الغمز ، وقول الرجل رأيت ولم ير ، وقال ابن عباس : يعلم الله تعالى من العين في نظرها هل تريد الخيانة أم لا؟ ﴿ وَمَا تُخْفِي الصدور ﴾ يعلم إذا أنت قدرت عليها هل تزوي بها أم لا؟ وقال السدي : ﴿ وَمَا تُخْفِي الصدور ﴾ أي من الوسوسة ، وقوله عزّ وجلّ ﴿ والله يَقْضِي بالحق ﴾ أي يحكم بالعدل . قال ابن عباس : قادر على أن يجزي بالحسنة الحسنة وبالسيئة السيئة ﴿ إِنَّ الله هُوَ السميع البصير ﴾ وهذا الذي فسر به ابن عباس Bهما هذه الآية ، كقوله تبارك وتعالى : ﴿ لِيَجْزِيَ الذين أَسَاءُواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيِجْزِيَ الذين أَحْسَنُواْ بالحسنى ﴾ [النجم : ٣١] ، وقوله جلّ وعلا : ﴿ والذين يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ﴾ أي من الأصنام والأوثان والأنداد ، ﴿ لاَ يَقْضُونَ بِشَيْءٍ ﴾ أي لا يملكون شيئاً ولا يحكمون بشيء ، ﴿ إِنَّ الله هُوَ السميع البصير ﴾ أي سميع لأقوال خلقه بصير بهم ، فيهدي من يشاء ويضل من يشاء ، وهو الحاكم العادل في جميع ذلك .." (١)

"جاءت هذا الآية متممة لقوله تعالى : ﴿ والله بكل شيء عليم ﴾ لأن كل شيء له ، وهو خالقه ، فهو العليم به ، له ما في السموات وما في الارض ، وان تظهروا أيها المؤمنون ما في قلوبكم او تكتموه عن الناس يجازكم به الله يوم القيامة ، فهو ﴿ يعلم خآئنة الأعين وما تخفي الصدور ﴾ [غافر : ١٩] والمعول عليه في مرضاته تزكية النفوس وتطهير السرائر .روى الامام أحمد ومسلم والنسائي عن ابن عباس Bه قال : لما نزلت هذه الآية ﴿ وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله ﴾ اشتد ذلك على أصحاب رسول الله ، فأتوا النبي وقالوا : لقد كلفنا من الاعمال ما نطيق كالصلاة والصيام والجهاد والصدقة ، وقد أنزلت هذه الآية ولا نطيقها . فقال النبي : « قولوا سمعنا وأطعنا وسلمنا » فألقى الله الإيمان في قلوبهم وأنزل ﴿ لا يكلف الله نفسا إلا وسعها . . . ﴾ الآية . فكانت الوسوسة مما لا طاقة للمسلمين به . وصار الأمر الى ان قضى الله تعالى ان للنفس ما اكتسبت من « القول والعمل » .وهذا هو نهج الاسلام الصحيح العادل .﴿ فيغفر لمن يشآء ويعذب من يشآء ﴾ يغفر بفضله لمن يشاء أن يغفر له ، ويعذب من يشاء ، وهو تعالى على كل شيء قدير .قراءات :قرأ ابن عامر وعاصم ويعقوب ﴿ فيغفر لمن يشآء ويعذب من يشآء ﴾ برفع يغفر ويعذب كما هو هنا : وجزمهما الباقون عطفا على جواب الشرط .." (٢)

"يوم الآزفة : يوم القيامة ، ومعنى الآزفة : القريبة . الحناجر : جمع حنجرة ، الحلقوم . كاظمين : ممسكين ، محزونين . حميم : صديق . خائنة الأعين : الأعين التي تزوغ وتنظر بخبث . وما تخفي الصدور : ما تكتمه الضمائر . من واق : من حافظ .أنذر أيها الرسول مشركي قومك عذاب يوم القيامة وهوله ، حين تصير القلوب عند الحناجر من شدة الخوف

---

(١) تيسير العلي القدير لاختصار تفسير ابن كثير، المؤلف غير معروف ص/٢٢٢٦

(٢) تيسير التفسير للقطان، المؤلف غير معروف ١٧٢/١

. يومئذ ليس لهم صديق ينفعهم ، ولا شفيع تقبل شفاعته لهم ، والله تعالى لا يخفى عليه شيء ، يعلم النظرة الخائنة ، والسر المستور الذي تخفيه الصدور . وهو تعالى يقضي بالعدل والحق ، فلا يظلم احدا ولا ينسى شيئا ، والآلهة المزعومة لا يستطيعون عمل شيء ، ﴿ إن الله هو السميع البصير ﴾ .ألم يسافر المشركون في الأرض ، فيروا كيف كان مآل الأمم الماضية!! كانوا أشد منهم قوة وتركوا آثارا عظيمة في الأرض ، فاستأصلهم الله بذنوبهم .﴿ وما كان لهم من الله من واق ﴾لم يكن لهم من ينصرهم ويحفظهم من عذاب الله .وقد تكرر هذا المعنى في أكثر من آية ، ولكن بأسلوب مختلف .ولقد نزل بهم ذلك العذاب لأنهم كذبوا رسلهم وجحدوا آيات الله ﴿ فأخذهم الله إنه قوي شديد العقاب ﴾قراءات :قرأ نافع وهشام : والذين تدعون : بالتاء . والباقون : يدعون : بالياء .." (١)

"وينزل لكم من السماء رزقا وما يتذكر إلا من ينيب (١٣) فادعوا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون (١٤) رفيع الدرجات ذو العرش يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده لينذر يوم التلاق (١٥) يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شيء لمن الملك اليوم لله الواحد القهار (١٦) اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب (١٧) وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع (١٨) يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور (١٩) والله يقضي بالحق والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء إن الله هو السميع البصير (٢٠) أو لم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم كانوا هم أشد منهم قوة وآثارا في الأرض فأخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق (٢١) ذلك بأنهم كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فكفروا فأخذهم الله إنه قوي شديد العقاب (٢٢) ؟ .* * *." (٢)

"قوله عز وجل ؟ هو الذي يريكم آياته وينزل لكم من السماء رزقا وما يتذكر إلا من ينيب (١٣) فادعوا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون (١٤) رفيع الدرجات ذو العرش يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده لينذر يوم التلاق (١٥) يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شيء لمن الملك اليوم لله الواحد القهار (١٦) اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب (١٧) وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع (١٨) يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور (١٩) والله يقضي بالحق والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء إن الله هو السميع البصير (٢٠) ؟ .عن السدي : ؟ إلا من ينيب ؟ ، قال : من يقبل إلى طاعة الله .وقوله تعالى : ؟ رفيع الدرجات ذو العرش ؟ ، قال ابن كثير : يقول تعالى مخبرا عن عظمته وكبريائه وارتفاع عرشه العظيم العالي على جميع مخلوقاته كالسقف لها ، كما قال تعالى : ؟ من الله ذي المعارج * تعرج الملائكة والروح إليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ؟ . وعن قتادة قوله : ؟ يلقي الروح من أمره ؟ ، قال : الوحي ، ؟ من أمره على من يشاء من عباده لينذر يوم التلاق ؟ ، قال : يوم تلتقي فيه أهل السماء وأهل الأرض ، والخالق والخلق .." (٣)

---

(١) تيسير التفسير للقطان، المؤلف غير معروف ١٨٤/٣

(٢) توفيق الرحمن / فيصل آل مبارك، المؤلف غير معروف ٢٥٦/٤

(٣) توفيق الرحمن / فيصل آل مبارك، المؤلف غير معروف ٢٦١/٤

"وقال ابن زيد في قوله : ؟ وأنذرهم يوم الآزفة ؟ ، قال : يوم القيامة ، وقرأ : ؟ أزفت الآزفة ليس لها من دون الله كاشفة ؟ .؟ إذ القلوب لدى الحناجر ؟ ، قال قتادة : قد وقعت القلوب في الحناجر من المخالفة ، فلا هي تخرج ولا تعود إلى أمكنتها . وعن السدي : ؟ إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ؟ ، قال : شخصت أفئدتهم عن أمكنتها ، فنشبت في حلوقهم فلم تخرج من أجوافهم فيموتوا ، ولم ترجع إلى أمكنتها فتستقر . ؟ ما للظالمين من حميم ولا شفيع ؟ ، قال : من يعنيه أمرهم ولا شفيع لهم .وقال ابن كثير : وقوله سبحانه وتعالى : ؟ ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع ؟ أي : ليس للذين ظلموا أنفسهم بالشرك بالله من قريب منهم ينفعهم ، ولا شفيع يشفع فيهم ، بل قد تقطعت بهم الأسباب من كل خير . وعن سعيد بن جبير عن ابن عباس : ؟ يعلم خائنة الأعين ؟ ، إذا نظرت إليها – يريد الخيانة – أم لا ، ؟ وما تخفي الصدور ؟ ، إذا قدرت عليها – أتزني بها – أم لا .وقوله تعالى : ؟ والله يقضي بالحق ؟ أي : بالعدل ، ؟ والذين يدعون من دونه ؟ ، من الأصنام ، والأوثان ، والأنداد ، ؟ لا يقضون بشيء ؟ ، أي : لا يملكون شيئا ولا يحكمون بشيء ، ؟ إن الله هو السميع البصير ؟ .قوله عز وجل : ؟ أو لم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم كانوا هم أشد منهم قوة وآثارا في الأرض فأخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق (٢١) ذلك بأنهم كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فكفروا فأخذهم الله إنه قوي شديد العقاب (٢٢) ؟ .." (١)

"﴿ وأنذرهم ﴾ خوفهم يا محمد ﴿ يوم الأزفة ﴾ من أهوال يوم الأزفة وهو يوم القيامة يزف بعضهم إلى بعض ويسرع ﴿ إذ القلوب لدى الحناجر ﴾ عند الحناجر ﴿ كاظمين ﴾ مغمومين محزونين يتردد الغيظ في أجوافهم ﴿ ما للظالمين ﴾ المشركين ﴿ من حميم ﴾ من قريب ينفعهم ﴿ ولا شفيع يطاع ﴾ فيهم بالشفاعة ﴿ يعلم خآئنة الأعين ﴾ النظرة بعد النظرة الثانية من الخيانة ﴿ وما تخفي الصدور ﴾ ما تضمر القلوب عند النظرة الثانية يعلم الله ذلك ﴿ والله يقضي بالحق ﴾ يحكم بالشفاعة لمن يشاء يوم القيامة ويقال يأمر بالعدل ﴿ والذين يدعون ﴾ يعبدون ﴿ من دونه ﴾ من دون الله من الأوثان ﴿ لا يقضون بشيء ﴾ لا يحكمون بشيء من الشفاعة يوم القيامة لأنه ليس لهم مقدرة على ذلك ويقال لا يقضون بشيء لا يأمرون بخير في الدنيا لأنهم صم بكم ﴿ إن الله هو السميع ﴾ لمقالتهم ﴿ البصير ﴾ بهم وبأعمالهم ﴿ أولم يسيروا ﴾ يسافروا كفار مكة ﴿ في الأرض فينظروا ﴾ فيتفكروا ﴿ كيف كان عاقبة ﴾ جزاء ﴿ الذين كانوا من قبلهم كانوا هم أشد منهم قوة ﴾ بالبدن ﴿ وآثارا في الأرض ﴾ أشد لها طلبا وأبعد ذهابا في طلبها ﴿ فأخذهم الله بذنوبهم ﴾ فعاقبهم الله بذنوبهم بتكذيبهم الرسل ﴿ وما كان لهم من الله ﴾ من عذاب الله ﴿ من واق ﴾ من مانع ﴿ ذلك ﴾ العذاب في الدنيا ﴿ بأنهم كانت تأتيهم رسلهم بالبينات ﴾ بالأمر والنهي والعلامات ﴿ فكفروا ﴾ بالرسل وبما جاؤوا به ﴿ فأخذهم الله ﴾ بالعقوبة ﴿ إنه قوي ﴾ بأخذه ﴿ شديد العقاب ﴾ لمن عاقبه ﴿ ولقد أرسلنا موسى بآياتنا ﴾ التسع ﴿ وسلطان مبين ﴾ حجة مبينة ﴿ إلى فرعون وهامان ﴾ وزير فرعون ﴿ وقارون ﴾ ابن عم موسى ﴿ فقالوا ﴾ لموسى هذا ﴿ ساحر ﴾ يفرق بين الاثنين ﴿ كذاب ﴾ يكذب على الله ﴿ فلما جآءهم ﴾ موسى ﴿ بالحق ﴾ بالكتاب ﴿ من عندنا قالوا اقتلوا أبنآء الذين آمنوا معه ﴾ أي أعيدوا عليهم القتل ﴿ واستحيوا نسآءهم ﴾ استخدموا نساءهم ولا تقتلوهن ﴿ وما كيد الكافرين ﴾ ما

(١) توفيق الرحمن / فيصل آل مبارك، المؤلف غير معروف ٢٦٢/٤

صنع فرعون وقومه ﴿ إلا في ضلال ﴾ في خطأ ﴿ وقال فرعون ذروني أقتل ﴾ أي اتركوني أقتل ﴿ موسى وليدع ربه ﴾ الذي يزعم أنه أرسله إلي ﴿ إني أخاف أن يبدل دينكم ﴾ الذي أنتم عليه ﴿ أو أن يظهر في الأرض الفساد ﴾ يقتل أبناءكم ويستخدم نساءكم كما قتلتم واستخدمتم ويقال أو أن يظهروا في الأرض الفساد بترك دينكم ودين آبائكم ويدخلكم في دينه إن قرأت بنصب الياء والهاء .." (١)

" صفحة رقم ١٤٦ غافر : (١٩) يعلم خائنة الأعين . . . . .) يعلم خائنة الأعين (يعني الغمزة فيما لا يحل بعينه والنظرة في المعصية) وما تخفي الصدور) [آية : ١٩] يعني وما تسر القلوب من الشرغافر : (٢٠) والله يقضي بالحق . . . . .) والله يقضي بالحق (يعنييحكم بالعدل) والذين يدعون من دونه لا يقضون (يعني لا يحكمون) بشيء (يعنيوالذين يعبدون من دونه لا يقضون بشئ ، يعني آلهة كفار مكة) إن الله هو السميع البصير) [آية : ٢٠] .تفسير سورة غافر من الآية (٢١) إلى الآية (٢٤) .غافر : (٢١) أولم يسيروا في . . . . .ثم خوفهم بمثل عذاب الأمم الخالية ليحذروا فيوحدو الرب تبارك وتعالى فقال :(أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم (من الأمم الخاليةعاد ، وثمود ، وقوم لوط) كانوا هم أشد منهم (يعني من كفار مكة) قوة (يعنيبطشا) وءاثارا في الأرض (يعني أعمالا وملكوا في الأرض) فأخذهم الله بذنوبهم (فعذبهم) وما كان لهم من الله من واق) [آية : ٢١] يقي العذاب عنهم .غافر : (٢٢) ذلك بأنهم كانت . . . . .يقول : (ذلك (العذاب إنما نزل بهم) بأنهم كانت تأتيهم رسلهم بالبينات (يعني بالبيان) فكفروا (بالتوحيد) فأخذهم الله (بالعذاب) إنه قوي (في أمره) شديد العقاب) [آية : ٢٢] إذا عاقب يعني عقوبة الأمم الخالية .غافر : (٢٣) ولقد أرسلنا موسى . . . . .قوله تعالى : (ولقد أرسلنا موسى بئايتنا (يعني اليد والعصا) وسلطان مبين ([آية : ٢٣] يعني وحجة بينةغافر : (٢٤) إلى فرعون وهامان . . . . .) إلى فرعون وهامان وقارون (فلما رأوا اليد والعصاقالوا ليستا من الله بل موسى ساحرن في اليد حين أخرجها بيضاء ، والعص حين صارتحية) فقالوا سحر كذاب) [آية : ٢٤] حين زعم أنه رسول رب العالمين .تفسير سورة غافر من الآية (٢٥) إلى الآية (٢٨) .." (٢)

"[فلنسألن الذين أرسل إليهم] أى لنسألن الأمم قاطبة : هل بلغكم الرسل وماذا أجبتم ؟ والمقصود من هذا السؤال التقريع ، والتوبيخ للكفار[ولنسألن المرسلين] أى ولنسألن الرسل أيضا هل بلغوا الرسالة وأدوا الامانة ؟ قال في البحر : وسؤال الأمم تقرير وتوبيخ يعقب الكفار والعصاة نكالا وعذابا ، وسؤال الرسل تأنيس يعقب الأنبياء كرامة وثوابا[فلنقصن عليهم بعلم] أى فلنخبرنهم بما فعلوا عن علم منا ، قال ابن عباس : يوضع الكتاب يوم القيامة فيتكلم بما كانوا يعملون[وما كنا غائبين] أى ما كنا غائبين عنهم حتى يخفى علينا شيء من أحوالهم ، قال ابن كثير : يخبر تعالى عباده يوم القيامة بما قالوا وبما عملوا ، من قليل وكثير ، وجليل وحقير ، لأنه تعالى الشهيد على كل شيء ، لا يغيب عنه شيء ، بل هو العالم بخائنة الأعين وما تخفي الصدور[والوزن يومئذ الحق] أى والوزن للأعمال يوم القيامة كائن بالعدل ، ولا يظلم ربك

---

(١) تنوير المقباس، المؤلف غير معروف ٤٨٩/١

(٢) تفسير مقاتل بن سليمان، المؤلف غير معروف ١٤٦/٣

أحدا[فمن ثقلت موازينه] أى فمن رجحت موازين أعماله بالإيمان وكثرة الحسنات[فأولئك هم المفلحون] أى الناجون غدا من العذاب ، الفائزون بجزيل الثواب[ومن خفت موازينه] أى ومن خفت موازين أعماله بسبب الكفر واجتراح السيئات[فأولئك الذين خسروا أنفسهم] أى خسروا أنفسهم وسعادتهم[بما كانوا بآياتنا يظلمون] أى بسبب كفرهم وجحودهم بآيات الله ، قال ابن كثير : والذي يوضع في الميزان يوم القيامة قيل : الأعمال وإن كانت إعراضا ، إلا أن الله تعالى يقلبها يوم القيامة أجساما ، يروى هذا عن ابن عباس ، وقيل : يوزن كتاب الأعمال كما جاء في حديث البطاقة ، وقيل : يوزن صاحب العمل كما في الحديث (يؤتى يوم القيامة بالرجل العظيم السمين فلا يزن عند الله جناح بعوضة) والكل صحيح فتارة توزن الأعمال ، وتارة محالها ، وتارة يوزن فاعلها والله أعلم أقول : لا غرابة في وزن الأعمال ، ووزن الحسنات والسيئات بالذات ، فإذا كان العلم الحديث قد كشف لنا عن موازين للحر ، والبرد ، واتجاه الرياح ، والأمطار ، أفيعجز القادر على كل شيء ، عن وضع (موازين) لأعمال البشر ؟[ولقد مكناكم في الأرض] أى جعلنا لكم أيها الناس في الأرض مكانا وقرارا ، قال البيضاوي : أى مكناكم من سكناها وزرعها والتصرف فيها[وجعلنا لكم فيها معايش] أى ما تعيشون به وتحيون ، من المطاعم والمشارب وسائر ما تكون به الحياة[قليلا ما تشكرون] أى ومع هذا الفضل والإنعام ، قليل منكم من يشكر ربه كقوله [وقليل من عبادي الشكور] [ولقد خلقناكم ثم صورناكم] أي خلقنا أباكم آدم طينا غير مصور ، ثم صورناه أبدع تصوير وأحسن تقويم ، وإنما ذكر بلفظ الجمع [صورناكم] تعظيما له لأنه أبو البشر[ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم] أى ثم أمرنا الملائكة بالسجود لآدم تكريما له ولذريته[فسجدوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين] أى سجد الملائكة كلهم أجمعون إلا إبليس امتنع من السجود تكبرا وعنادا ، والاستثناء منقطع لأنه استثناء من غير الجنس ، وقد تقدم قول الحسن البصري : لم يكن إبليس من الملائكة طرفة عين[قال ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك] أى قال تعالى لإبليس : أى شيء منعك أن تدع السجود لآدم ؟ والاستفهام للتقريع والتوبيخ[قال أنا خير منه] أي قال إبليس اللعين أنا أفضل من آدم وأشرف منه ، فكيف يسجد الفاضل للمفضول ؟ ثم ذكر اللعين العلة في الامتناع فقال." (١)

"[كاظمين] أي ممتلئين غما وحسرة شأن المكروب قال في التسهيل : معنى الآية أن القلوب قد صعدت من الصدور ، لشدة الخوف حتى بلغت الحناجر ، ويحتمل أن يكون ذلك مجازا ، عبر به عن شدة الخوف ، والحنجرة هي الحلق[ما للظالمين من حميم] أي ليس للظالمين صديق ينفعهم[ولا شفيع يطاع] أي ولا شفيع يشفع لهم لينقذهم من شدة العذاب[يعلم خائنة الأعين] أي يعلم جل وعلا العين الخائنة ، بمسارقتها النظر إلى محرم قال ابن عباس : هو الرجل يكون جالسا مع الناس ، فتمر المرأة فيسارقهم النظر إليها[وما تخفي الصدور] أي ويعلم السر المستور الذي تخفيه الصدور[والله يقضى بالحق] أي يقضي ويحكم بالعدل[والذين يدعون من دونه] أي والذين يعبدونهم من دون الله من الأوثان والأصنام[لا يقضون بشيء] أي لا حكم لهم أصلا فكيف يكونون شركاء لله ؟ قال أبو السعود : وهذا تهكم بهم ، لأن الجماد لا يقال في حقه يقضى أو لا يقضى[إن الله هو السميع البصير] أي هو السميع لأقوال العباد ، البصير بأفعالهم[

(١) صفوة التفاسير . للصابوني، المؤلف غير معروف ٢٨٩/١

أو لم يسيروا في الأرض] ؟ اي أو لم يعتبر هؤلاء المشركون في أسفارهم بما يرون من آثار المكذبين[فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم] أي فينظروا ما حل بالمكذبين من العذاب والنكال ؟ فإن العاقل من اعتبر بغيره[كانوا هم أشد منهم قوة] أي كانوا أشد قوة من هؤلاء الكفار من قومك[وآثارا في الأرض] أي وأقوى آثارا فى الأرض من الحصون والقصور والجند الأشداء ، ومع هذه القوة العظيمة والبأس الشديد ، أهلكهم الله لما كذبوا الرسل[فأخذهم الله بذنوبهم] أي أهلكهم الله إهلاكا فظيعا ، بسبب إجرامهم وتكذيبهم رسل الله[وما كان لهم من الله من واق] أي وما كان لهم أحد يدفع عنهم عذاب الله ، ولا يقيهم من عقابه . . ثم ذكر تعالى سبب عقابه لهم ، فقال سبحانه[ذلك بأنهم كانت تأتيهم رسلهم بالبينات] أي ذلك العذاب بسبب أنهم كانت تأتيهم رسلهم بالمعجزات الباهرات ، والآيات الساطعات الواضحات[فكفروا فأخذهم الله] أي فكفروا مع هذا البيان والبرهان ، فأهلكهم الله ودمرهم[إنه قوى] أي إنه تعالى قوي لا يقهر ، ذو قوة عظيمة وبأس شديد[شديد العقاب] أي عقابه شديد لمن عصاه ، وعذابه أليم وجيع لمن كفر به ، أعاذنا الله من عقابه ، وأجارنا من عذابه .قال الله تعالى : [ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين . .] إلى قوله [أدخلوا آل فرعون أشد العذاب] . من آية (٢٣) إلى نهاية آية (٤٦) .المناسبة : لما ذكر تعالى ما حل بالكفار من العذاب والدمار ، أردفه بذكر قصة موسى مع فرعون ، تسلية لرسول الله (ص) عما يلقاه من الأذى والتكذيب ، وبيانا لسنة الله تعالى في إهلاك الظالمين ، ثم ذكر موقف مؤمن آل فرعون ونصيحته لقومه ، وهي مواقف بطولية مشرفة في وجه الطغيان .اللغة : [استحيوا] استبقوا بناتهم على قيد الحياة[ضلال] ضياع وبطلان[يكتم] يخفي ، يقال : كتمت عنه الأمر أي أخفيته[عدت] اعتصمت وتحصنت والتجأت[ظاهرين] غالبين مستعلين[بأس الله] عذابه وانتقامه[دأب] عادة وشأن[التناد] يوم القيامة للنداء فيه إلى المحشر ، أو لمناداة بعضهم بعضا ، قال أمية بن الصلت : وبث الخلق فيها إذ دحاها فهم سكانها حتى التناد[عاصم] مانع ودافع[صرحا] قصرا وبناء عظيما عاليا[تباب] خسران وهلاك[لا جرم] حقا ولا محالة[حاق] نزل وأحاط .التفسير : [ولقد أرسلنا موسى باياتنا وسلطان مبين] اللام موطئة للقسم أي والله لقد بعثنا رسولنا موسى ، بالآيات البينات ، والدلائل الواضحات ، وبالبرهان البين الظاهر ، وهو معجزة اليد والعصا." [١]

"يعني : أن العامة يطلبون الستر في المعصية خوف اطلاع الناس عليهم فهم ﴿يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله وهو معهم﴾ [النساء ١٠٨]. قال ابن عباس في قوله تعالى : ﴿يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور﴾ غافر(١٩). هو الرجل يكون في القوم فتمر به المرأة فيريهم أنه يغض بصره عنها فإذا رأى من القوم غفلةلحظ إليها. وهذا شأن المرائين الذين يستخفون بنظر الجبار ويهابون الناس أن يطلعوا عليهم فيما يرتكبونه من الأوزار. وأما الخاصة فهم يطلبون من الله الستر عنها بأن يجعل بينهم وبينها حاجبا حتى لا تخطر بقلوبهم خشية سقوطهم من نظر الملك الحق. وإلى هذا المعنى أشار أبو الحسن الشاذلي في دعائه بقوله : اللهم إنا نسألك التوبة ودوامها ونعوذ بك من المعصية وأسبابها وذكرنا بالخوف منك قبل هجوم خطراتها واحملنا على النجاة منها ومن التفكر في طرائقها(١٣٤) من أكرمك فإنما أكرم فيك جميل ستره فالحمد لمن سترك ليس الحمد لمن أكرمك وشكركأي من أكرمك من العباد بعطاء أو محبة فإنما أكرم فيك جميل

(١) صفوة التفاسير . للصابونى، المؤلف غير معروف ١٤٩/٣

ستره تعالى أي ستره الجميل عليك فإنه لولا جميل ستره ما نظروا بعين الرضا إليك بل لو نظروا إلى ما فيك من العيوب لاستقذروك ونفروا منك وطرحوك. فلا تعبثك رؤية إكرام الخلق لك لجهلهم بعيبك على حمدهم على ذلك دون حمد ربك فتضع الحمد في غير موضعه فإن الحمد لا ينبغي أن يكون إلا لمن سترك ليس الحمد لمن أكرمك وشكرك. وإنما تحمده من حيث إجراء الخير على يديه فقط لا من حيث إنه المكرم الحقيقي إذ ليس ذلك إلا الله. قال تعالى : ﴿وما بكم من نعمة فمن الله﴾ النحل (٥٣)أهـ [شرح الحكم العطائية ص١٠٤]..." (١)

"كلام نفيس للعلامة السعدى فى الآية﴿ وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون ﴾.هذا جواب سؤال ، سأل النبي صلى الله عليه وسلم بعض أصحابه فقالوا : يا رسول الله ، أقريب ربنا فنناجيه ، أم بعيد فنناديه ؟ فنزل : ﴿وإذا سألك عبادي عني فإني قريب﴾ لأنه تعالى ، الرقيب الشهيد ، المطلع على السر وأخفى ، يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور ، فهو قريب أيضا من داعيه ، بالإجابة ، ولهذا قال : ﴿أجيب دعوة الداع إذا دعان﴾ والدعاء نوعان : دعاء عبادة ، ودعاء مسألة.والقرب نوعان : قرب بعلمه من كل خلقه ، وقرب من عابديه وداعيه بالإجابة والمعونة والتوفيق.فمن دعا ربه بقلب حاضر ، ودعاء مشروع ، ولم يمنع مانع من إجابة الدعاء ، كأكل الحرام ونحوه ، فإن الله قد وعده بالإجابة ، وخصوصا إذا أتى بأسباب إجابة الدعاء ، وهي الاستجابة لله تعالى بالانقياد لأوامره ونواهيه القولية والفعلية ، والإيمان به ، الموجب للاستجابة ، فلهذا قال : ﴿فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون﴾ أي : يحصل لهم الرشد الذي هو الهداية للإيمان والأعمال الصالحة ، ويزول عنهم الغي المنافي للإيمان والأعمال الصالحة. ولأن الإيمان بالله والاستجابة لأمره ، سبب لحصول العلم كما قال تعالى : ﴿يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانا ﴾. أ هـ ﴿تفسير السعدى صـ ٨٦﴾(بصيرة فى الدعاء)." (٢)

"وقوله : ﴿وأنتم شهداء﴾ حال أيضا توازن الحال في قوله قبلها ﴿والله شهيد على ما تعملون﴾ ومعناه وأنتم عالمون أنها سبيل الله.وقد أحالهم في هذا الكلام على ما في ضمائرهم مما لا يعلمه إلا الله لأن ذلك هو المقصود من وخز قلوبهم ، وانثنائهم باللائمة على أنفسهم ، ولذلك عقبه بقوله : ﴿وما الله بغافل عما تعملون﴾ وهو وعيد وتهديد وتذكير لأنهم يعلمون أن الله يعلم ما تخفي الصدور وهو بمعنى قوله في موعظتهم السابقة ﴿والله شهيد على ما تعملون﴾ إلا أن هذا أغلظ في التوبيخ لما فيه من إبطال اعتقاد غفلته سبحانه ، لأن حالهم كانت بمنزلة حال من يعتقد ذلك. أ هـ ﴿التحرير والتنوير حـ ٣ صـ ١٧١﴾وقال أبو حيان : ﴿وأنتم شهداء﴾ أي بالعقل نحو : ﴿وألقى السمع وهو شهيد﴾ أي عارف بعقله ، وتارة بالفعل.نحو قال : ﴿فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين﴾ وتارة بإقامة ذلك ، أي شهدتم بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم قبل بعثه على ما في التوراة من صفته وصدقه.وقال الزمخشري : وأنتم شهداء أنها سبيل الله التي لا يصد عنها إلا ضال مضل.أو وأنتم شهداء بين أهل دينكم عدول يثقون بأقوالكم ، ويستشهدون في عظام أمورهم ، وهم الأحبار انتهى.قيل : وفي قوله : ﴿وأنتم شهداء﴾ دلالة على أن شهادة بعضهم على بعض جائزة ، لأنه تعالى سماهم شهداء ، ولا

(١) جامع لطائف التفسير، المؤلف غير معروف ١/٢٨٣

(٢) جامع لطائف التفسير، المؤلف غير معروف ٤/٨٨

يصدق هذا الاسم إلا على من يكون له شهادة.وشهادتهم على المسلمين لا تجوز بإجماع ، فتعين وصفهم بأن تجوز شهادة بعضهم على بعض ، وهو قول أبي حنيفة وجماعة.والأكثرون على أن شهادتهم لا تقبل بحال ، وأنهم ليسوا من أهل الشهادة. أ هـ ﴿البحر المحيط حـ ٣ صـ ١٧﴾فصلقال ابن عادل : ." (١)

"فائدةقال ابن عاشور :وقوله : ﴿ لقد سمع الله ﴾ تهديد ، وهو يؤذن بأن هذا القول جراءة عظيمة ، وإن كان القصد منها التعريض ببطلان كلام القرآن ، لأنهم أتوا بهاته العبارة بدون محاشاة ، ولأن الاستخفاف بالرسول وقرآنه إثم عظيم وكفر على كفر ، ولذلك قال تعالى : ﴿ لقد سمع ﴾ المستعمل في لازم معناه ، وهو التهديد على كلام فاحش ، إذ قد علم أهل الأديان أن الله يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور ، فليس المقصود إعلامهم بأن الله علم ذلك بل لازمه وهو مقتضى قوله : ﴿ سنكتب ما قالوا ﴾. أ هـ ﴿التحرير والتنوير حـ ٣ صـ ٢٩٧﴾قوله تعالى : ﴿سنكتب ما قالوا﴾فصلقال الفخر :قرأ حمزة ﴿سيكتب﴾ بالياء وضمها على ما لم يسم فاعله ﴿الله وقتلهم الأنبياء﴾ برفع اللام على معنى سيكتب قتلهم ، والباقون بالنون وفتح اللام إضافة إليه تعالى.قال صاحب "الكشاف" : وقرأ الحسن والأعرج ﴿سيكتب﴾ بالياء وتسمية الفاعل. أ هـ ﴿مفاتيح الغيب حـ ٩ صـ ٩٦﴾قال الطبرى :وقرأ ذلك بعض قرأة الكوفيين : (" سيكتب ما قالوا وقتلهم الأنبياء بغير حق ") بالياء من"سيكتب" وبضمها، ورفع"القتل"، على مذهب ما لم يسم فاعله، اعتبارا بقراءة يذكر أنها من قراءة عبد الله في قوله : "ونقول ذوقوا"، يذكر أنها في قراءة عبد الله : "ويقال".." (٢)

"قال الله تعالى : ﴿واعلموا أن الله يعلم ما في أنفسكم فاحذروه﴾ [البقره : ٢٣٥] وقال تعالى ﴿وكان الله على كل شيء رقيبا﴾ [الأحزاب : ٥٢] وقال تعالى : ﴿وهو معكم أين ما كنتم﴾ [الحديد : ٤] وقال تعالى : ﴿ألم يعلم بأن الله يرى﴾ [العلق : ١٤] وقال تعالى : ﴿فإنك بأعيننا﴾ [الطور : ٤٨] وقال تعالى : ﴿يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور﴾ [غافر : ١٩] إلى غير ذلك من الآيات وفي حديث جبريل عليه السلام : أنه سأل النبي صلى الله عليه وسلم عن الإحسان فقال له : أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك المراقبة دوام علم العبد وتيقنه باطلاع الحق سبحانه وتعالى على ظاهره وباطنه فاستدامته لهذا العلم واليقين : هي المراقبة وهي ثمرة علمه بأن الله سبحانه رقيب عليه ناظر إليه سامع لقوله وهو مطلع على عمله كل وقت وكل لحظة وكل نفس وكل طرفة عين والغافل عن هذا بمعزل عن حال أهل البدايات فكيف بحال المريدين فكيف بحال العارفينقال الجريري : من لم يحكم بينه وبين الله تعالى التقوى والمراقبة : لم يصل إلى الكشف والمشاهدة وقيل : من راقب الله في خواطره عصمه في حركات جوارحهوقيل لبعضهم : متى يهش الراعي غنمه بعصاه عن مراتع الهلكة فقال : إذا علم أن عليه رقيبا وقال الجنيد : من تحقق في المراقبة خاف على فوات لحظة من ربه لا غير وقال ذو النون : علامة المراقبة إيثار ما أنزل الله وتعظيم ما عظم الله وتصغير ما صغر اللهوقيل : الرجاء يحرك إلى

---

(١) جامع لطائف التفسير، المؤلف غير معروف ١٥/٢٥١

(٢) جامع لطائف التفسير، المؤلف غير معروف ١٨/٣٥٤

الطاعة والخوف يبعد عن المعاصي والمراقبة تؤديك إلى طريق الحقائق وقيل : المراقبة مراعاة القلب لملاحظة الحق مع كل خطرة وخطوة." (١)

"تنبيه : الآزفة : نعت لمحذوف مؤنث كيوم القيامة الآزفة أو يوم المجازاة الآزفة ، قال القفال : وأسماء القيامة تجري على التأنيث كالطامة والحاقة لأنها مرجع معناها على الداهية ، ويوم القيامة له أسماء كثيرة تدل على أهواله باعتبار مواقفه وأحواله ، منها يوم البعث وهو ظاهر ومنها يوم التلاق لما مر ومنها يوم التغابن لغبن أكثر من فيه وخسرانه ، وقيل : المراد بيوم الآزفة مشارفتهم دخول النار فإن عند ذلك ترتفع قلوبهم عن مقارها من شدة الخوف ، وقال أبو مسلم : هو يوم حضور الأجل فإن يوم الموت بالقرب أولى من وصف يوم القيامة بالقرب.ولما ذكر تعالى اليوم هول أمره بما يحصل فيه من المشاق بقوله تعالى : ﴿إذ القلوب﴾ أي : من كل من حضره ترتفع ﴿لدى﴾ أي : عند ﴿الحناجر﴾ أي : حناجر المجموعين فيه وهو جمع حنجور وهو الحلقوم يعني أنها زالت عن أماكنها صاعدة من كثرة الرعب حتى كادت تخرج.ثم أسند إليها ما يسند للعقلاء فقال تعالى : ﴿كاظمين﴾ أي : ممتلئين خوفا ورعبا وحزنا مكروبين فقد استدت مجاري أنفاسهم وأخذ بجميع إحساسهم.ولما كان من المعهود أن الصداقات تنفع في مثل ذلك والشفاعات قال تعالى مستأنفا : ﴿ما للظالمين﴾ أي : العريقين في الظلم ﴿من حميم﴾ أي : قريب صادق في مودتهم مهتم بأمورهم مزيل لكروبهم ﴿ولا شفيع يطاع﴾ فيشفع لهم.٥٧٠تنبيه : احتج المعتزلة بهذه الآية على نفي الشفاعة عن المذنبين ، فقالوا : نفي حصول شفيع لهم يطاع يوجب أن لا يحصل لهم هذا الشفيع وأجيبوا بوجوه ؛ أولها : أنه تعالى نفى أن يحصل لهم شفيع يطاع وهذا لا يدل على نفي الشفيع كقولك ما عندي كتاب يباع ، لا يقتضي نفي الكتاب فهذا ينفي أن لهم شفيعا يطيعه الله تعالى ما من شفيع إلا من بعد إذنه ، ثانيها : أن المراد بالظالمين في هذه الآية ههنا الكفار لأنها وردت في زجر الكفار قال تعالى : ﴿إن الشرك لظلم عظيم﴾ (لقمان : ١٣) ، ثالثها : أن لفظ الظالمين إما أن يفيد الاستغراق أو لا ، فإن كان المراد : جميعهم فيدخل فيه الكفار ، وعندنا أنه ليس لهذا الجمع شفيعا لأن بعضه كفار وليس لهم شفيع ، فحينئذ لا يكون لهذا الجمع شفيع ، وإن لم يفد الاستغراق كان المراد من الظالمين بعض الموصوفين بهذه الصفة ليس لهم شفيع.جزء : ٣ رقم الصفحة : ٥٦٩ولما أمر الله تعالى بإنذار يوم الآزفة وما يعرض فيه من شدة الغم والكرب وأن الظالم لا يجد من يحميه ولا يشفع له ، ذكر اطلاعه على جميع ما يصدر من الخلق سرا وجهرا فقال تعالى : ﴿يعلم خائنة الأعين﴾ أي : خيانتها التي هي أخفى ما يقع من أفعال الظاهر ، جعل الخيانة مبالغة في الوصف وهو الإشارة بالعين ، قال أبو حيان : من كسر عين وغمز ونظر يفهم المراد.ولما ذكر أخفى أفعال الظاهر أتبعه أخفى أفعال الباطن فقال تعالى : ﴿وما تخفي الصدور﴾ أي : القلوب فعلم من ذلك أن الله تعالى عالم بجميع أفعالهم لأن الأفعال على قسمين أفعال الجوارح وأفعال القلوب ، فأما أفعال الجوارح فأخفاها خيانة الأعين والله تعالى عالم بها فكيف الحال في سائر الأعمال ، وأما أفعال القلوب فهي معلومة لله تعالى لقوله عز وجل : ﴿وما تخفي الصدور﴾ (غافر : ١٩)وقوله تعالى : ﴿والله﴾ أي : المتصف بجميع صفات الكمال ﴿يقضي بالحق﴾ أي : الثابت الذي لا ينتفي يوجب عظيم الخوف لأن الحاكم إذا كان عالما بجميع الأحوال وثبت أنه لا يقضي إلا

---

(١) جامع لطائف التفسير، المؤلف غير معروف ٤٠٣/١٩

بالحق في كل ما دق وجل كان خوف المذنب منه في الغاية القصوى. ولما عول الكفار في دفع العقاب عن أنفسهم على شفاعة هذه الأصنام بين الله تعالى أنه لا فائدة فيها البتة فقال تعالى : ﴿والذين يدعون﴾ أي : يعبدون ﴿من دونه﴾ وهم الأصنام ﴿لا يقضون﴾ لهم ﴿بشيء﴾ من الأشياء أصلا فكيف يكونون شركاء لله تعالى ، وقرأ نافع وهشام تدعون بتاء الخطاب للمشركين والباقون بياء الغيبة إخبارا عنهم بذلك.ولما أخبر تعالى أنه لا فعل لشركائهم وأن الأمر له وحده قال تعالى مؤكدا لأجل أن أفعالهم تقتضي إنكار ذلك ﴿إن الله﴾ أي : المنفرد بصفات الكمال ﴿هو﴾ أي : وحده ﴿السميع﴾ أي : لجميع أقوالهم ﴿البصير﴾ أي : بجميع أفعالهم ، ففي ذلك تقرير لعلمه تعالى بخائنة الأعين وقضائه بالحق ووعيد لهم على ما يقولون ويفعلون وتعريض بحال ما يدعون من دونه ، فثبت أن الأمر له وحده فما تنفعهم شفاعة الشافعين ولا تقبل فيهم من أحد شفاعة بعد الشفاعة العامة التي هي خاصة بنبينا محمد صلى الله عليه وسلم وهي المقام المحمود الذي يغبطه به الأولون والآخرون ، فإن كان أحد يحجم عنها حتى يصل الأمر إليه صلى الله عليه وسلم فيقول : أنا لها أنا لها ، ثم يذهب إلى المكان الذي أذن له فيه فيشفع فيشفعه الله تعالى ، فيفصل سبحانه وتعالى بين الخلائق ليذهب كل أحد إلى داره جنته أو ناره.ولما أوعدهم سبحانه بصادق الأخبار عن قوم نوح ومن تبعهم من الكفار وختمه بالإنذار بما يقع في دار القرار للظالمين الأشرار أتبعه الوعظ والتخويف بالمشاهدة ممن تتبع الديار ، والاعتبار ٥٧١." (١)

"عطف على قد أضلوا دعاء عليهم بعدما أعلمه الله تعالى أنهم لا يؤمنون بقوله تعالى : ﴿إنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن﴾ ، وكذلك دعا موسى وهارون عليهما السلام في الشد على قلوب فرعون وملئه لئلا يؤمنوا في حال ينفعهم فيه وما في قوله تعالى : ﴿مما خطيئاتهم﴾ أي : من أجل خطيئاتهم مزيدة للتأكيد والتفخيم ، وقرأ أبو عمرو بفتح الطاء وبعدها ألف وبعد الألف ياء وبعد الياء ألف وضم الهاء على وزن قضاياهم ، والباقون بكسر الطاء وبعدها ياء تحتية ساكنة ، وبعد الياء همزة مفتوحة بعدها ألف وبعد الألف تاء فوقية مكسورة وكسر الهاء على وزن قضياتهم ﴿أغرقوا﴾ أي : بالطوفان طاف عليهم جميع الأرض السهل والجبل فلم يبق منهم أحد ، وكذا الكلام فيما تسبب عنه وتعقبه في قوله : ﴿فأدخلوا﴾ في الآخرة التي أولها البرزخ يعرضون فيه على النار بكرة وعشيا ﴿نارا﴾ أي : عظيمة جدا أخفها ما يكون من مباديها في البرزخ. قال الملوي : عذبوا في الدنيا بالغرق وفي الآخرة بالحرق. وقال الضحاك : في حالة واحدة كانوا يغرقون من جانب ويحترقون في الماء من جانب بقدرة الله تعالى ﴿فلم يجدوا لهم﴾ أي : عندما أناخ الله بهم سطوته ، وأحل بهم نقمته ﴿من دون الله﴾ أي : الملك الأعظم الذي تضمحل المراتب تحت رتبة عظمته وتذل لعزه وجليل سطوته ﴿أنصارا﴾ تنصرهم على من أراد بهم ذلك ليمنعوه مما أراده سبحانه من إغراقهم من غير أن يتخلف منهم أحد على كثرتهم وقوتهم لكونهم أعداءه وإنجاء نبيه عليه السلام ومن آمن معه على ضعفهم وقلتهم لم يفقد منهم أحد لكونهم أولياءه كما أنه لم يسلم ممن أراد إغراقهم أحد على كثرتهم وقوتهم. قال البقاعي : فمن قال عن عوج ما تقوله القصاص فهو ضلال أشد ضلال ، قال : وقائل ذلك هو ابن عربي صاحب الفصوص الذي لم يرد بتصنيفه إلا هدم الشريعة ، وزاد في الحط عليه وعلى ابن الفارض وعلى الحلاج وعلى من شابههم ، وأمر هؤلاء إلى الله تعالى ، فإنه العالم بحقائق الأمور وما تخفي الصدور.جزء : ٤ رقم

---

(١) تفسير السراج المنير . موافق للمطبوع، المؤلف غير معروف ٣/٣٨١

الصفحة : ٤٣٤ ﴿وقال نوح﴾ وأسقط الأداة كما هو عادة أهل الحضرة فقال : ﴿رب لا تذر﴾ أي : لا تترك ﴿على الأرض﴾ أي : كلها ﴿من الكافرين﴾ أي : الراسخين في الكفر ﴿ديارا﴾ أي : أحدا يدور فيها وهو من ألفاظ العموم التي تستعمل في النفي فيعال من الدور أو الدار لا فعال وإلا لكان دوارا. قال قتادة : دعا عليهم بعد أن أوحى الله تعالى إليه أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن فأجاب الله تعالى دعوته وأغرق أمته وهذا كقول النبي صلى الله عليه وسلم "اللهم منزل الكتاب وهازم الأحزاب اهزمهم وزلزلهم". وقيل : سبب دعائه أن رجلا من قومه حمل ولدا صغيرا على كتفه فمر بنوح عليه السلام فقال : احذر هذا فإنه يضلك ، فقال : يا أبت أنزلني فأنزله فرماه فشجه فحينئذ غضب ودعا عليهم.٤٣٧فإن قيل : ما فعل صبيانهم حين أغرقوا ؟ أجيب : بأنهم أغرقوا معهم لا على وجه العقاب ولكن كما يموتون بالأنواع من أسباب الموت وكم منهم من يموت بالغرق والحرق وكان ذلك زيادة في عذاب الآباء والأمهات إذا أبصروا أطفالهم يغرقون ، ومنه قوله صلى الله عليه وسلم "يهلكون مهلكا واحدا ويصدرون مصادر شتى".وعن الحسن أنه سئل عن ذلك ؟ فقال : علم الله تعالى براءتهم فأهلكهم بغير عذاب. وقال محمد بن كعب ومقاتل : إنما قال هذا حين أخرج الله تعالى كل مؤمن من أصلابهم وأرحام نسائهم وأعقم أرحام أمهاتهم وأيبس أصلاب رجالهم قبل العذاب بأربعين سنة ، وقيل : بسبعين سنة فأخبر الله تعالى نوحا عليه السلام أنهم لا يؤمنون ولا يلدون مؤمنا كما قال تعالى : ﴿أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن﴾ (هود : ٣٦)فحينئذ دعا عليهم فأجاب الله تعالى دعاءه فأهلكهم كلهم ، ولم يكن فيهم صبي وقت العذاب لأن الله تعالى قال : ﴿وقوم نوح لما كذبوا الرسل أغرقناهم﴾ (الفرقان : ٣٧)ولم يوجد التكذيب من الأطفال. وقال ابن عربي : دعا نوح عليه السلام على الكافرين أجمعين ، ودعا النبي صلى الله عليه وسلم على من تحزب على المؤمنين وكفى بهذا أصلا في الدعاء على الكافرين في الجملة ، وأما كافر معين لم تعلم خاتمته فلا يدعى عليه ، لأن مآله عندنا مجهول ، وربما كان عند الله معلوم الخاتمة بالسعادة وإنما خص النبي صلى الله عليه وسلم عتبة وشيبة وأصحابه لعلمه بما لهم وما كشف الله له من الغطاء عن حالهم.جزء : ٤ رقم الصفحة : ٤٣٧ولما كان الرسل عليهم السلام لا يقولون ولا يفعلون إلا ما كان فيه مصلحة الدين علل دعاءه بقوله : ﴿إنك﴾ أي : يا رب ﴿إن تذرهم﴾ أي : تتركهم على أي حالة كانت في إبقائهم سالمين على وجه الأرض ولو كانت حالة دنيئة ﴿يضلوا عبادك﴾ أي : الذين آمنوا بك وبي والذين يولدون على الفطرة السليمة ﴿ولا يلدوا﴾ أي : إن قدرت بقاءهم ﴿إلا فاجرا﴾ أي : مارقا عن كل ما ينبغي الاعتصام به ﴿كفارا﴾ أي : بليغ الستر لما يجب إظهاره من آيات الله.فإن قيل : بم علم أن أولادهم يكفرون وكيف وصفهم بالكفر عند الولادة ؟ أجيب : بأنه لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما فعرف طباعهم وأحوالهم ، وكان الرجل ينطلق بابنه إليه ويقول : احذر من هذا فإنه كذاب ، وإن أبي حذرنيه ، فيموت الكبير وينشأ الصغير على ذلك ، وقد أخبر الله تعالى : ﴿أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن﴾. ومعنى : ﴿ولا يلدوا إلا فاجرا كفارا﴾ : لم يلدوا إلا من سيفجر ويكفر فوصفهم بما يصيرون إليه كقوله صلى الله عليه وسلم "من قتل قتيلا فله سلبه".ولما دعا على أعداء الله تعالى دعا لأوليائه وبدأ بنفسه فقال مسقط الأداة على عادة أهل الخصوص : ﴿رب﴾ أي : أيها المحسن إلي باتباع من اتبعني وتجنب من تجنبني ﴿اغفر لي﴾ أي : فإنه لا يسعني . وإن كنت معصوما . إلا حلمك وعفوك ومغفرتك ، ﴿ولوالدي﴾ وكانا مؤمنين يريد أبويه اسم أبيه لمك بن متوشلخ ، وأمه شمخا بنت أنوش. وعن ابن عباس : لم يكفر لنوح عليه٤٣٨السلام أب فيما بينه وبين آدم عليه السلام ،

وقيل : هما آدم وحواء وأعاد الجار إظهارا للاهتمام فقال : ﴿ولمن دخل بيتي﴾ أي : منزلي ، وقيل : مسجدي ، وقيل : سفينتي ﴿مؤمنا﴾ أي : مصدقا بالله تعالى فمؤمنا حال ، وعن ابن عباس : أي : دخل في ديني.فإن قيل : على هذا يصير قوله : ﴿مؤمنا﴾ تكرارا ؟ أجيب : بأن من دخل في دينه ظاهرا قد يكون مؤمنا وقد لا يكون ، فالمعنى ولمن دخل دخولا مع تصديق القلب. ﴿وللمؤمنين والمؤمنات﴾ خص نفسه أولا بالدعاء ، ثم من يتصل به لأنهم أولى وأحق بدعائه ، ثم عمم المؤمنين والمؤمنات إلى يوم القيامة ، قاله الضحاك. وقال الكلبي : من أمة محمد صلى الله عليه وسلم وقيل : من قومه والأول أولى وأظهر.ثم ختم الكلام مرة أخرى بالدعاء على الكافرين فقال : ﴿ولا تزد الظالمين﴾ أي : العريقين في الظلم في حال من الأحوال ﴿إلا تبارا﴾ أي : هلاكا مدمرا والمراد بالظالمين الكافرون ، فهي عامة في كل كافر ومشرك. وقيل : أراد مشركي قومه. وتبارا مفعول ثان والاستثناء مفرغ. وقيل : الهلاك الخسران.جزء : ٤ رقم الصفحة : ٤٣٧وقول البيضاوي تبعا للزمخشري : عن النبي صلى الله عليه وسلم "من قرأ سورة نوح كان من المؤمنين الذين تدركهم دعوة نوح عليه السلام" حديث موضوع.٤٣٩جزء : ٤ رقم الصفحة : ٤٣٧." [1]

"(الأعراف ٥٥) هو الحى لا إله إلا هو فادعوه مخلصين له الدين (غافر ٦٥) قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن (الإسراء ١١٠) واذكر ربك في نفسك تضرعا وخيفة (الأعراف ٢٠٥) وقال (صلى الله عليه وسلم) (ادعوا بياذا الجلال والإكرام) فبهذه الآيات عرفنا أن الدعاء عبادة قال بعض الجهال الدعاء على خلاف العقل من وجوه أحدها أنه علام الغيوب يعلم ما في الأنفس وما تخفي الصدور فأي حاجة بنا إلى الدعاء وثانيها أن المطلوب إن كان معلوم الوقوع فلا حاجة إلى الدعاء وإن كان معلوم اللاوقوع فلا فائدة فيه وثالثها الدعاء يشبه الأمر والنهي وذلك من العبد في حق المولى سوء أدب ورابعها المطلوب بالدعاء إن كان من المصالح فالحكيم لا يهمله وإن لم يكن من المصالح لم يجز طلبه وخامسها فقد جاء أن أعظم مقامات الصديقين الرضا بقضاء الله تعالى وقد ندب إليه والدعاء ينافي ذلك لأنه اشتغال بالالتماس والطلب وسادسها قال عليه السلام رواية عن الله تعالى (من شغله ذكري عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطى السائلين) فدل على أن الأولى ترك الدعاء والآيات التي ذكرتموها تقتضي وجوب الدعاء وسابعها أن إبراهيم عليه السلام لما ترك الدعاء واكتفى بقوله (حسبي من سؤالي علمه بحالي) استحق المدح العظيم فدل على أن الأولى ترك الدعاء والجواب عن الأول أنه ليس الغرض من الدعاء الأعلام بل هو نوع تضرع كسائر التضرعات وعن الثاني أنه يجري مجرى أن نقول للجائع والعطشان إن كان الشبع معلوم الوقوع فلا حاجة إلى الأكل والشرب وإن كان معلوم اللاوقوع فلا فائدة فيه وعن الثالث أن الصيغة وإن كانت صيغة الأمر إلا أن صورة التضرع والخشوع تصرفه عن ذلك وعن الرابع يجوز أن يصير مصلحة بشرط سبق الدعاء وعن الخامس أنه إذا دعا إظهارا للتضرع ثم رضي بما قدره الله تعالى فذاك أعظم المقامات وهو الجواب عن البقية إذا ثبت أنه من العبادات ثم إنه تعالى أمره بالعبادة وبالصلاة أمرا ورد مجملا لا جرم شرع في أجل العبادات وهو الدعاء الوجه الرابع في فضل الدعاء أنه سبحانه لم يقتصر في بيان فضل الدعاء على الأمر به بل بين في آية أخرى أنه يغضب إذا لم يسأل فقال فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا ولاكن قست قلوبهم وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون (الأنعام

---

(١) تفسير السراج المنير ـ موافق للمطبوع، المؤلف غير معروف ٢٨٧/٤

٤٣) وقال عليه السلام (لا يقولون أحدكم اللهم اغفر لي إن شئت) ولكن يجزم فيقول اللهم اغفر لي فلهذا السر جزم موسى عليه السلام بالدعاء وقال رب اشرح لي صدري الوجه الخامس في فضل الدعاء قوله تعالى وقال ربكم ادعوني أستجب لكم (غافر ٦٠) وفيه كرامة عظيمة لأمتنا لأن بني إسرائيل فضلهم الله تفضيلا عظيما فقال في حقهم وأني فضلتكم على العالمين (البقرة ٤٧) وقال أيضا وإذ قال موسى لقومه ياقوم اذكروا نعمة (المائدة ٢٠) ثم مع هذه الدرجة العظيمة قالوا لموسى عليه السلام ادع لنا ربك يبين لنا ما هي (البقرة ٦٨) وأن الحواريين مع جلالتهم في قولهم نحن أنصار الله (آل عمران ٥٢) سألوا عيسى عليه السلام أن يسأل لهم مائدة تنزل من السماء ثم إنه سبحانه وتعالى رفع هذه الواسطة في أمتنا فقال مخاطبا لهم من غير واسطة ادعوني أستجب لكم وقال واسألوا الله من فضله (النساء ٣٢) فلهذا السبب لما حصلت هذه الفضيلة لهذه الأمة وكان موسى عليه السلام قد عرفها لا جرم فقال (اللهم اجعلني من أمة محمد (صلى الله عليه وسلم)) فلا جرم رفع يديه ابتداء فقال." (١)

"ورابعها : أن الداعي ما دام يبقى خاطره مشغولاً بغير الله تعالى فإنه لا يكون داعياً لله تعالى فإذا فنى عن الكل وصار مستغرقاً بمعرفة الله الأحد الحق امتنع أن يبقى في مقام الفناء عن غير الله مع الالتفات إلى غير الله تعالى فلا جرم رفعت الواسطة من البين فما قال : فقل إني قريب بل قال : ﴿فَإِنِّي قَرِيبٌ ﴾ فثبت بما تقرر فضل الدعاء وأنه من أعظم القربات ثم من شأن العبد إذا أراد أن يتحف مولاه أن لا يتحفه إلا بأحسن التحف والهدايا فلا / جرم أول ما أراد موسى أن يتحف الحضرة الإلهية بتحف الطاعات والعبادات أتحفها بالدعاء فلا جرم قال : ﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾ . والوجه الثاني : في بيان فضل الدعاء قوله عليه السلام : "الدعاء مخ العبادة" ثم إن أول شيء أمر الله تعالى به موسى عليه السلام (العبادة) لأن قوله : ﴿إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ﴾ (طه : ١٤) إخبار وليس بأمر إنما الأمر قوله : ﴿فَاعْبُدْنِي﴾ (طه : ١٤) فلما كان أول ما أورد على موسى من الأوامر هو الأمر بالعبادة لا جرم أول ما أتحف به موسى عليه السلام حضرة الربوبية من تحف العبادة هو تحفة الدعاء فقال : ﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾ . والوجه الثالث : وهو أن الدعاء نوع من أنواع العبادة فكما أنه سبحانه وتعالى أمر بالصلاة والصوم فكذلك أمر بالدعاء ويدل عليه قوله تعالى : ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبًا أُجِيبُ﴾ (البقرة : ١٨٦). ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ (غافر : ٦٠). ﴿وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾ (الأعراف : ٥٦). ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ﴾ (الأعراف : ٥٥). ﴿هُوَ الْحَيُّ لا إِلَاهَ إِلا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ (غافر : ٦٥). ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَانَ ﴾ (الإسراء : ١١٠). ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً﴾ (الأعراف : ٢٠٥) وقال صلى الله عليه وسلّم : "ادعوا بياذا الجلال والإكرام" فبهذه الآيات عرفنا أن الدعاء عبادة قال بعض الجهال : الدعاء على خلاف العقل من وجوه : أحدها : أنه علام الغيوب يعلم ما في الأنفس وما تخفي الصدور ، فأي حاجة بنا إلى الدعاء. وثانيها : أن المطلوب إن كان معلوم الوقوع فلا حاجة إلى الدعاء وإن كان معلوم اللاوقوع فلا فائدة فيه. وثالثها : الدعاء يشبه الأمر والنهي وذلك من العبد في حق المولى سوء أدب. ورابعها : المطلوب بالدعاء إن كان من المصالح فالحكيم لا يهمله وإن لم يكن من المصالح لم يجز طلبه. وخامسها : فقد جاء أن أعظم مقامات الصديقين الرضا بقضاء الله

---

(١) تفسير الرازي: مفاتيح الغيب . موافق للمطبوع، المؤلف غير معروف ٣٣/٢٢

تعالى. وقد ندب إليه والدعاء ينافي ذلك لأنه اشتغال بالالتماس والطلب. وسادسها : قال عليه السلام رواية عن الله تعالى : "من شغله ذكري عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطى السائلين" فدل على أن الأولى ترك الدعاء والآيات التي ذكرتموها تقتضي وجوب الدعاء. وسابعها : أن إبراهيم عليه السلام لما ترك الدعاء واكتفى بقوله : "حسبي من سؤالي علمه بحالي" استحق المدح العظيم فدل على أن الأولى ترك الدعاء. والجواب عن الأول أنه ليس الغرض من الدعاء الأعلام بل هو نوع تضرع كسائر التضرعات. وعن الثاني : أنه يجري مجرى أن نقول للجائع والعطشان إن كان الشبع معلوم الوقوع فلا حاجة إلى الأكل والشرب وإن كان معلوم اللاوقوع فلا فائدة فيه. وعن الثالث : أن الصيغة وإن كانت صيغة الأمر إلا أن صورة التضرع والخشوع تصرفه عن ذلك. وعن الرابع : يجوز أن يصير مصلحة بشرط سبق الدعاء. وعن الخامس : أنه إذا دعا إظهاراً للتضرع ثم رضي بما قدره الله تعالى فذاك أعظم المقامات وهو الجواب عن البقية إذا ثبت أنه من العبادات ، ثم إنه تعالى أمره بالعبادة وبالصلاة أمراً ورد مجملاً لا جرم شرع في أجل العبادات وهو الدعاء. الوجه الرابع : في فضل الدعاء أنه سبحانه لم يقتصر في بيان فضل الدعاء على الأمر به بل بين في آية أخرى أنه يغضب إذا لم يسأل فقال : جزء : ٢٢ رقم الصفحة : ٤٦." (١)

" صفحة رقم ٩١ تعالى في الدنيا ثم أماتهم الموتة التي لا بد منها ثم أحياهم للبعث يوم القيامة فهذه موتتان وحياتان وقيل أميتوا في الدنيا ثم أحيوا في القبر للسؤال ثم أميتوا في قبورهم ثم أحيوا للبعث في الآخرة وذلك أنهم عدوا أوقات البلاء والمحنة وهي أربعة الموتة الأولى ثم الحياة في القبر ثم الموتة الثانية فيه ثم الحياة للبعث فأما الحياة الأولى التي هي من الدنيا فلم يعدوها لأنها ليست من أقسام البلاء وقيل ذكر حياتين وهي حياة الدنيا وحياة القيامة وموتتين وهي الموتة الأولى في الدنيا ثم الموتة الثانية في القبر بعد حياة السؤال ولم يعدوا حياة السؤال لقصر مدتها) فاعترفنا بذنوبنا (يعني إنكارهم البعث بعد الموت فلما شاهدوا البعث اعترفوا بذنوبهم ثم سألوا الرجعة بقولهم) فهل إلى خروج (يعني من النار) من سبيل (والمعنى فهلا إلى رجوع إلى الدنيا من سبيل لنصلح أعمالنا ونعمل بطاعتك وهذا كلام من غلب عليه اليأس والقنوط من الخروج وإنما قالوا ذلك تعللا وتحيرا والمعنى فلا خروج ولا سبيل إليه ولهذا جاء الجواب على حسب ذلك وهو قوله تعالى : (ذلكم بأنه إذا دعي الله وحده كفرتم (معناه فأجيبوا أن لا سبيل إلى الخروج وهذا العذاب والخلود في النار بأنكم إذا دعى الله وحده كفرتم يعني إذا قيل لا إله إلا الله أنكرتم ذلك) وإن يشرك به (أي غيره) تؤمنوا (أي تصدقوا ذلك الشرك) فالحكم لله العلي (أي الذي لا أعلى منه) الكبير (أي الذي لا أكبر منه.)غافر : (١٣ - ١٩) هو الذي يريكم..." هو الذي يريكم آياته وينزل لكم من السماء رزقا وما يتذكر إلا من ينيب فادعوا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون رفيع الدرجات ذو العرش يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده لينذر يوم التلاق يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شيء لمن الملك اليوم لله الواحد القهار اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور " (قوله عز وجل : (هو الذي يريكم آياته (أي عجائب مصنوعاته التي تدل على كمال قدرته) وينزل لكم من السماء رزقا (يعني المطر

(١) تفسير الرازي: دار إحياء التراث- موافق للمطبوع، المؤلف غير معروف ص/٣٠٣٩

الذي هو سبب الأرزاق) وما يتذكر (أي يتعظ بهذه الآيات) إلا من ينيب (أي يرجع إلى الله تعالى في جميع أموره) فادعوا الله مخلصين له الدين (أي الطاعة والعبادة) ولو كره الكافرون (.قوله تعالى : (رفيع الدرجات (أي رافع درجات الأنبياء والأولياء والعلماء في الجنة وقيل معناه المرتفع أي إنه سبحانه وتعالى هو المرتفع بعظمته في صفات جلاله وكماله ووحدانيته المستغني عن كل ما سواه وكل الخلق فقراء إليه) ذو العرش (أي خالقه ومالكه ، والفائدة في تخصيص العرش بالذكر لأنه أعظم الأجسام والمقصود بيان كمال التنبيه على كمال القدرة فكل ما كان أعظم كانت دلالته على كمال القدرة أقوى) يلقي الروح (يعني ينزل الوحي سماه روحا لأن به تحيا الأرواح كما تحيا الأبدان بالأرواح) من أمره (قال ابن عباس : من قضائه وقيل بأمره وقيل من قوله) على من يشاء من عباده (يعني الأنبياء) لينذر يوم التلاق (يعني لينذر النبي (صلى الله عليه وسلم) بالوحي يوم التلاق وهو يوم القيامة لأنه يلتقي فيه أهل السماء وأهل الأرض ، وقيل يلتقي الخلق والخالق وقيل يلتقي العابدون والمعبودون وقيل يلتقي المرء مع عمله وقيل يلتقي الظالم والمظلوم) يوم هم بارزون (أي خارجون من قبورهم ظاهرون لا يسترهم." (١)

" ١٩ - ﴿ يعلم ﴾ أي الله ﴿ خائنة الأعين ﴾ بمسارقتها النظر إلى محرم ﴿ وما تخفي الصدور ﴾ القلوب ." (٢)

"منه يوم العقبة، إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كلال، فلم يجبني إلى ما أردت، فانطلقت وأنا مهموم على وجهي، فلم أستفق إلا بقرن الثعالب، فرفعت رأسي، فإذا أنا بسحابة قد ظللتني، فنظرت فإذا فيها جبريل عليه السلام، فناداني فقال: أن الله قد سمع قول قومك لك، وما ردوا عليك، وقد بعث إليك ملك الجبال، لتأمره بما شئت فيهم، قال: فناداني ملك الجبال وسلم علي، ثم قال: يا محمد أن الله قد سمع قول قومك لك، وقد بعثني ربك إليك، لتأمرني بأمرك فيما شئت، أن شئت أطبقت عليهم الأخشبين، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم، من يعبد الله لا يشرك به شيئا" وهذا لفظ مسلم، فقد عرض عليهم عذابهم واستئصالهم، فاستأنى بهم، وسأل لهم التأخير، لعل الله أن يخرج من أصلابهم من لا يشرك به شيئا، فما الجمع بين هذا وبين قوله تعالى في هذه الآية الكريمة، ﴿قل لو أن عندي ما تستعجلون به لقضي الأمر بيني وبينكم والله أعلم بالظالمين﴾ فالجواب والله أعلم، أن هذه الآية دلت، على أنه لو كان إليه وقوع العذاب، الذي يطلبونه حال طلبهم له، لأوقعه بهم، وأما الحديث فليس فيه أنهم سألوه وقوع العذاب بهم، بل عرض عليه ملك الجبال أنه أن شاء أطبق عليهم الأخشبين، وهما جبلا مكة اللذان يكتنفانها جنوبا وشمالا، فلهذا استأنى بهم وسأل الرفق لهم. وقوله تعالى: ﴿وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو﴾ قال البخاري: حدثنا عبد العزيز بن عبد الله، حدثنا إبراهيم بن سعد، عن ابن شهاب عن سالم بن عبد الله، عن أبيه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "مفاتيح الغيب خمس لا يعلمهن إلا الله ﴿إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما في الأرحام وما تدري نفس ماذا تكسب غدا وما تدري نفس بأي أرض تموت إن الله عليم خبير﴾" وفي حديث عمر: أن جبريل حين تبدى له في صورة أعرابي، فسأل عن الإيمان والإسلام والإحسان، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم فيما قاله له: "خمس لا يعلمهن إلا الله" ثم قرأ

---

(١) تفسير الخازن . موافق للمطبوع، المؤلف غير معروف ٩١/٦

(٢) تفسير الجلالين، المؤلف غير معروف ص/٦٢٠

﴿إن الله عنده علم الساعة﴾ الآية. وقوله: ﴿ويعلم ما في البر والبحر﴾ أي محيط علمه الكريم بجميع الموجودات، بريها وبحريها، لا يخفى عليه من ذلك شيء، ولا مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، وما أحسن ما قال الصرصري:فلا يفخى عليه الذر إما ... تراءى للنواظر أو تواربوقوله: ﴿وما تسقط من ورقة إلا يعلمها﴾ أي ويعلم الحركات حتى من الجمادات، فما ظنك بالحيوانات، ولا سيما المكلفون منهم من جنهم وإنسهم، كما قال تعالى: ﴿يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور﴾ . وقال ابن أبي حاتم، حدثنا أبي، حدثنا الحسن بن الربيع، حدثنا أبو الأحوص، عن سعيد بن مسروق، حدثنا حسان النمري، عن ابن عباس، في قوله: ﴿وما تسقط من ورقة إلا يعلمها﴾ قال: ما من شجرة في بر ولا بحر إلا وملك موكل بها، يكتب ما يسقط منها، رواه ابن أبي حاتم، وقوله: ﴿ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين﴾ قال ابن أبي حاتم: حدثنا عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن المسور الزهري، حدثنا مالك بن سعير، حدثنا الأعمش، عن يزيد بن أبي زياد، عن عبد الله بن الحارث، قال: ما في الأرض من شجرة ولا مغرز إبرة، إلا وعليها ملك موكل، يأتي الله بعلمها، رطوبتها إذا رطبت، ويبوستها إذا يبست، وكذا رواه ابن جرير عن أبي الخطاب زياد بن عبد الله الحساني، عن مالك بن سعير به. ثم قال ابن أبي حاتم: ذكر عن أبي حذيفة، حدثنا سفيان عن عمرو بن قيس، عن رجل، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، قال: خلق الله النون وهي الدواة، وخلق الألواح، فكتب فيها أمر الدنيا، حتى ينقضي ما كان من خلق مخلوق، أو رزق حلال أو حرام، أو عمل بر أو فجور، وقرأ هذه الآية ﴿وما تسقط من ورقة إلا يعلمها﴾ إلى آخر الآية، قال." (١)

"لرؤوف رحيم﴾.وقوله: ﴿فما كان دعواهم إذ جاءهم بأسنا إلا أن قالوا إنا كنا ظالمين﴾ أي فما كان قولهم عند مجيء العذاب، إلا أن اعترفوا بذنوبهم وأنهم حقيقون بهذا، كقوله تعالى: ﴿وكم قصمنا من قرية كانت ظالمة – إلى قوله – خامدين ﴾ قال ابن جرير: في هذه الآية الدلالة الواضحة على صحة ما جاءت به الرواية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قوله: "ما هلك قوم حتى يعذروا من أنفسهم"، حدثنا بذلك ابن حميد، حدثنا جرير عن أبي سنان عن عبد الملك بن ميسرة الزراد، قال: قال عبد الله بن مسعود، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ما هلك قوم حتى يعذروا من أنفسهم" ، قال: قلت لعبد الملك: كيف يكون ذاك ؟ قال: فقرأ هذه الآية ﴿فما كان دعواهم إذ جاءهم بأسنا إلا أن قالوا إنا كنا ظالمين﴾. وقوله: ﴿فلنسألن الذين أرسل إليهم﴾ الآية. كقوله: ﴿ويوم يناديهم فيقول ماذا أجبتم المرسلين﴾ وقوله: ﴿يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم قالوا لا علم لنا إنك أنت علام الغيوب﴾ فيسأل الله الأمم يوم القيامة عما أجابوا رسله فيما أرسلهم به، ويسأل الرسل أيضا عن إبلاغ رسالاته، ولهذا قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في تفسير هذه الآية ﴿فلنسألن الذين أرسل إليهم ولنسألن المرسلين﴾ قال عما بلغوا.وقال ابن مردويه: حدثنا محمد بن أحمد بن إبراهيم بن محمد بن الحسن، حدثنا أبو سعيد الكندي، حدثنا المحاربي عن ليث عن نافع عن ابن عمر، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته، فالإمام يسأل عن رعيته والرجل يسأل عن أهله والمرأة تسأل عن بيت زوجها والعبد يسأل عن مال سيده" قال الليث: وحدثني ابن طاوس مثله، ثم قرأ ﴿فلنسألن الذين أرسل إليهم ولنسألن المرسلين﴾

---

(١) تفسير ابن كثير / دار الفكر، المؤلف غير معروف ٢/١٦٨

وهذا الحديث مخرج في الصحيحين بدون هذه الزيادة، وقال ابن عباس في قوله: ﴿فلنقصن عليهم بعلم وما كنا غائبين﴾ يوضع الكتاب يوم القيامة فيتكلم بما كانوا يعملون ﴿وما كنا غائبين﴾ يعني أنه تعالى يخبر عباده يوم القيامة بما قالوا وبما عملوا من قليل وكثير وجليل وحقير، لأنه تعالى الشهيد على كل شيء لا يغيب عنه شيء ولا يغفل عن شيء بل هو العالم بخائنة الأعين وما تخفي الصدور ﴿وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين﴾.﴿والوزن يومئذ الحق فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم بما كانوا بآياتنا يظلمون﴾يقول تعالى: ﴿والوزن﴾ أي للأعمال يوم القيامة ﴿الحق﴾ أي لا يظلم تعالى أحدا كقوله: ﴿ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين﴾ وقال تعالى: ﴿إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجرا عظيما﴾ وقال تعالى: ﴿فأما من ثقلت موازينه فهو في عيشة راضية وأما من خفت موازينه فأمه هاوية وما أدراك ماهيه نار حامية﴾ وقال تعالى: ﴿فإذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون﴾ ﴿فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم في جهنم خالدون﴾.(فصل) والذي يوضع في الميزان يوم القيامة قيل الأعمال وإن كانت أعراضا إلا أن الله تعالى يقلبها يوم القيامة أجساما، قال البغوي: يروى نحو هذا عن ابن عباس، كما جاء في الصحيح من "أن البقرة وآل عمران يأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان أو غيابتان أو فرقان من طير صواف". ومن ذلك في." (١)

"تخلفوا عنك، ويوازرونك وينصرونك. فأثنى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم خيرا، ودعا له به فبني له عريش، فكان فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر ما معهما غيرهما. قال ابن إسحاق: وارتحلت قريش حين أصبحت، فلما أقبلت ورآها رسول الله صلى الله عليه وسلم تصوب من العقنقل، وهو الكثيب، الذي جاءوا منه إلى الوادي، فقال: "اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها تحادك وتكذب رسولك اللهم أحنهم الغداة" وقوله: ﴿ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة﴾، قال محمد بن إسحاق: أي ليكفر من كفر بعد الحجة لما رأى من الآية والعبرة، ويؤمن من آمن على مثل ذلك، وهذا تفسير جيد. وبسط ذلك أنه تعالى يقول: إنما جمعكم مع عدوكم في مكان واحد، على غير ميعاد، لينصركم عليهم ويرفع كلمة الحق على الباطل، ليصير الأمر ظاهرا والحجة قاطعة والبراهين ساطعة، ولا يبقى لأحد حجة، ولا شبهة، فحينئذ يهلك من هلك أي يستمر في الكفر من استمر فيه، على بصيرة من أمره، إنه مبطل لقيام الحجة عليه، ﴿ويحيى من حي﴾ أي يؤمن من آمن ﴿عن بينة﴾ أي حجة وبصيرة، والإيمان هو حياة القلوب، قال الله تعالى: ﴿أومن كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشي به في الناس﴾ وقالت عائشة في قصة الإفك فهلك في من هلك، أي قال فيها ما قال من البهتان والإفك. وقوله: ﴿وإن الله لسميع عليم﴾ أي لدعائكم وتضرعكم واستغاثتكم به، ﴿عليم﴾ أي بكم، وأنكم تستحقون النصر على أعدائكم الكفرة المعاندين.﴿إذ يريكهم الله في منامك قليلا ولو أراكهم كثيرا لفشلتم ولتنازعتم في الأمر ولكن الله سلم إنه عليم بذات الصدور وإذ يريكموهم إذ التقيتم في أعينكم قليلا ويقللكم في أعينهم ليقضي الله أمرا كان مفعولا وإلى الله ترجع الامور﴾قال مجاهد: أراهم الله إياه في منامه قليلا، وأخبر النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه

---

(١) تفسير ابن كثير / دار الفكر، المؤلف غير معروف ٢٤٦/٢

بذلك، فكان تثبيتا لهم، وكذا قال ابن إسحاق وغير واحد، وحكى ابن جرير عن بعضهم، أنه رآهم بعينه التي ينام بها، وقد روى ابن أبي حاتم: حدثنا أبي حدثنا يوسف بن موسى، حدثنا أبو قتيبة، عن سهل السراج عن الحسن في قوله: ﴿إذ يريكهم الله في منامك قليلا﴾ قال بعينك، وهذا القول غريب، وقد صرح بالمنام ههنا، فلا حاجة إلى التأويل الذي لا دليل عليه، وقوله: ﴿ولو أراكهم كثيرا لفشلتم﴾ أي لجبنتم عنهم، واختلفتم فيما بينكم، ﴿ولكن الله سلم﴾ أي من ذلك، بأن أراكهم قليلا ﴿إنه عليم بذات الصدور﴾ أي بما تكنه الضمائر وتنطوي عليه الأحشاء، ﴿يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور﴾ وقوله: ﴿ وإذ يريكموهم إذ التقيتم في أعينكم قليلا﴾ وهذا أيضا من لطفه تعالى بهم، إذ أراهم إياهم قليلا في رأي العين، فيجرؤهم عليهم ويطمعهم فيهم، قال أبو إسحاق السبيعي: عن أبي عبيدة، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، قال: لقد قللوا في أعيننا يوم بدر، حتى قلت لرجل إلى جنبي تراهم سبعين ؟ قال: لا بل هم مائة، حتى أخذنا رجلا منهم فسألناه، فقال: كنا ألفا، رواه ابن أبي حاتم وابن جرير، وقوله: ﴿ويقللكم في أعينهم﴾ قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي حدثنا سليمان بن حرب، حدثنا حماد بن زيد، عن الزبير بن الحارث عن عكرمة ﴿وإذ يريكموهم إذ التقيتم﴾ الآية، قال: حض بعضهم على بعض، إسناد صحيح، وقال محمد بن إسحاق: حدثني يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير، عن أبيه في قوله تعالى: ﴿ليقضي الله أمرا كان مفعولا﴾ أي ليلقي بينهم الحرب للنقمة ممن أراد الانتقام منه، والإنعام على من أراد تمام النعمة عليه من أهل ولايته، ومعنى هذا أنه تعالى أغرى كلا من الفريقين بالآخر، وقلله في." (١)

"عنهم، ولكن في إسنادها ضعف إلا أنها في الترغيب، ومثله يتسامح فيه. وفي الطبراني من طريق عبيد الله بن زحر عن علي بن يزيد عن القاسم عن أبي أمامة مرفوعا "لتغضن أبصاركم، ولتحفظن فروجكم، ولتقيمن وجوهكم، أو لتكسفن وجوهكم".وقال الطبراني: حدثنا أحمد بن زهير التستري قال: قرأنا على محمد بن حفص بن عمر الضرير المقرى، حدثنا يحيى بن أبي بكير، حدثنا هريم بن سفيان عن عبد الرحمن بن إسحاق عن القاسم بن عبد الرحمن عن أبيه عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن النظرة سهم من سهام إبليس مسموم من تركها مخافتي أبدلته إيمانا يجد حلاوته في قلبه". وقوله تعالى: ﴿إن الله خبير بما يصنعون﴾ كما قال تعالى: ﴿يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور﴾. وفي الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "كتب على ابن آدم حظه من الزنا أدرك ذلك لا محالة، فزنا العينين النظر، وزنا اللسان النطق، وزنا الأذنين الاستماع، وزنا اليدين البطش، وزنا الرجلين الخطى، والنفس تمنى وتشتهي، والفرج يصدق ذلك أو يكذبه" رواه البخاري تعليقا، ومسلم مسندا من وجه آخر بنحو ما تقدم، وقد قال كثير من السلف: إنهم كانوا ينهون أن يحد الرجل بصره إلى الأمرد، وقد شدد كثير من أئمة الصوفية في ذلك، وحرمه طائفة من أهل العلم لما فيه من الافتتان، وشدد آخرون في ذلك كثيرا جدا. وقال ابن أبي الدنيا: حدثنا أبو سعيد المدني، حدثنا عمر بن سهل المازني، حدثني عمر بن محمد بن صهبان عن صفوان بن سليم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "كل عين باكية يوم القيامة إلا عينا غضت عن محارم الله، وعينا سهرت في سبيل الله، وعينا يخرج منها مثل رأس الذباب من خشية الله عز وجل".﴿ وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن

---

(١) تفسير ابن كثير / دار الفكر، المؤلف غير معروف ٢/ ٣٨٤

فروجهن ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها وليضربن بخمرهن على جيوبهن ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن أو آبآئهن أو آبآء بعولتهن أو أبنآئهن أو أبنآء بعولتهن أو إخوانهن أو بني إخوانهن أو بني أخواتهن أو نسآئهن أو ما ملكت أيمانهن أو التابعين غير أولي الإربة من الرجال أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النسآء ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن وتوبوا إلى الله جميعا أيها المؤمنون لعلكم تفلحون﴾هذا أمر من الله تعالى للنساء المؤمنات وغيرة منه لأزواجهن عباده المؤمنين وتمييز لهن عن صفة نساء الجاهلية وفعال المشركين وكان سبب نزول هذه الآية ما ذكره مقاتل بن حيان قال: بلغنا – والله أعلم – أن جابر بن عبد الله الأنصاري حدث أن أسماء بنت مرثد كانت في محل لها في بني حارثة، فجعل النساء يدخلن عليها غير متأزرات فيبدو ما في أرجلهن من الخلاخل وتبدو صدورهن وذوائبهن فقالت أسماء: ما أقبح هذا فأنزل الله تعالى: ﴿وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن﴾ الآية، فقوله تعالى: ﴿وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن﴾ أي عما حرم الله عليهن من النظر إلى غير أزواجهن، ولهذا ذهب كثير." (١)

"﴿إن تبدوا شيئا أو تخفوه فإن الله كان بكل شيء عليما﴾ أي مهما تكنه ضمائركم وتنطوي عليه سرائركم، فإن الله يعلمه، فإنه لا تخفى عليه خافية ﴿يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور﴾.﴿لا جناح عليهن في آبآئهن ولا أبنآئهن ولا إخوانهن ولا أبنآء إخوانهن ولا أبنآء أخواتهن ولا نسآئهن ولا ما ملكت أيمانهن واتقين الله إن الله كان على كل شيء شهيدا﴾لما أمر تبارك وتعالى النساء بالحجاب من الأجانب، بين أن هؤلاء الأقارب لا يجب الاحتجاب منهم، كما استثناهم في سورة النور عند قوله تعالى: ﴿ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن أو آبائهن أو آباء بعولتهن أو أبنائهن أو أبناء بعولتهن أو إخوانهن أو بني إخوانهن أو بني أخواتهن أو نسائهن أو ما ملكت أيمانهن أو التابعين غير أولي الأربة من الرجال أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء﴾ وفيها زيادات على هذه، وقد تقدم تفسيرها والكلام عليها بما أغنى عن إعادته ههنا.وقد سأل بعض السلف فقال: لم يذكر العم والخال في هاتين الآيتين ؟ فأجاب عكرمة والشعبي بأنهما لم يذكرا لأنهما قد يصفان ذلك لبنيهما. قال ابن جرير: حدثني محمد بن المثنى، حدثنا حجاج بن منهال، حدثنا حماد، حدثنا داود عن الشعبي وعكرمة في قوله تعالى: ﴿لا جناح عليهن في آبائهن﴾ الآية، قلت: ما شأن العم والخال لم يذكرا ؟ قال لأنهما ينعتانها لأبنائهما وكرها أن تضع خمارها عند خالها وعمها. وقوله تعالى: ﴿ولا نسائهن﴾ يعني بذلك عدم الاحتجاب من النساء المؤمنات. وقوله تعالى: ﴿ولا ما ملكت أيمانهن﴾ يعني به أرقاءهن من الذكور والإناث كما تقدم التنبيه عليه وإيراد الحديث فيه، قال سعيد بن المسيب: إنما يعني به الإماء فقط، رواه ابن أبي حاتم. وقوله تعالى: ﴿واتقين الله إن الله كان على كل شيء شهيدا﴾ أي واخشينه في الخلوة والعلانية، فإنه شهيد على كل شيء، لا تخفى عليه خافية فراقبن الرقيب.﴿إن الله وملائكته يصلون على النبي يأيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما﴾قال البخاري: قال أبو العالية: صلاة الله تعالى ثناؤه عليه عند الملائكة، وصلاة الملائكة الدعاء. وقال ابن عباس: يصلون يبركون، هكذا علقه البخاري عنهما، وقد رواه أبو جعفر الرازي عن الربيع بن أنس عن أبي العالية كذلك، وروي مثله عن الربيع أيضا، وروى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس كما قاله سواء، رواهما ابن أبي حاتم: وقال أبو عيسى الترمذي: وروي عن سفيان الثوري وغير واحد من أهل العلم،

---

(١) تفسير ابن كثير / دار الفكر، المؤلف غير معروف ٣٤٤/٣

قالوا: صلاة الرب الرحمة، وصلاة الملائكة الاستغفار.ثم قال ابن أبي حاتم: حدثنا عمرو الأودي، حدثنا وكيع عن الأعمش عن عمرو بن مرة، قال الأعمش أراه عن عطاء بن أبي رباح ﴿إن الله وملائكته يصلون على النبي﴾ قال: صلاته تبارك وتعالى سبوح قدوس، سبقت رحمتي غضبي والمقصود من هذه الآية أن الله سبحانه وتعالى أخبر عباده بمنزلة عبده ونبيه عنده في الملأ الأعلى بأنه يثني عليه عند الملائكة المقربين، وأن الملائكة تصلي عليه، ثم أمر تعالى أهل العالم السفلي بالصلاة والتسليم عليه، ليجتمع الثناء عليه من أهل العالمين: العلوي والسفلي جميعا.وقد قال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا أحمد بن عبد الرحمن، حدثني أبي عن أبيه عن أشعث بن إسحاق عن جعفر يعني ابن المغيرة، عن سعيد بن جبير عن ابن عباس أن بني إسرائيل قالوا لموسى عليه السلام: هل يصلي ربك ؟ فناداه ربه عز وجل: يا موسى سألوك هل يصلي ربك،." (١)

"ولا من شر بل يجزي بالحسنة عشر أمثالها وبالسيئة واحدة قال تبارك وتعالى: ﴿ لا ظلم اليوم ﴾ كما ثبت في صحيح مسلم عن أبي ذر رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يحكي عن ربه عز وجل أنه قال: "يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا – إلى أن قال – يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها عليكم ثم أوفيكم إياها، فمن وجد خيرا فليحمد الله تبارك وتعالى، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه" وقوله عز وجل: ﴿ إن الله سريع الحساب ﴾ أي يحاسب الخلائق كلهم كما يحاسب نفسا واحدة كما قال جل وعلا: ﴿ ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة ﴾ وقال جل جلاله: ﴿ وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر﴾﴿وأنذرهم يوم الأزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع يعلم خآئنة الأعين وما تخفي الصدور والله يقضي بالحق والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء إن الله هو السميع البصير﴾يوم الآزفة اسم من أسماء يوم القيامة وسميت بذلك لاقترابها كما قال تعالى: ﴿ أزفت الآزفة ليس لها من دون الله كاشفة ﴾ وقال عز وجل: ﴿ اقتربت الساعة وانشق القمر ﴾ وقال جل وعلا: ﴿ اقترب للناس حسابهم ﴾ وقال: ﴿ أتى أمر الله فلا تستعجلوه ﴾ وقال جل جلاله: ﴿فلما رأوه زلفة سيئت وجوه الذين كفروا﴾ الآية. وقوله تبارك وتعالى: ﴿ إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ﴾ قال قتادة وقفت القلوب في الحناجر من الخوف فلا تخرج ولا تعود إلى أماكنها، وكذا قال عكرمة والسدي وغير واحد، ومعنى كاظمين أي ساكتين لا يتكلم أحد إلا بإذنه ﴿ يوم يقوم الروح والملائكة صفا لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا ﴾ وقال ابن جريج ﴿ كاظمين ﴾ أي باكين. وقوله سبحانه وتعالى: ﴿ ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع ﴾ أي ليس للذين ظلموا أنفسهم بالشرك بالله من قريب منهم ينفعهم ولا شفيع يشفع فيهم بل قد تقطعت بهم الأسباب من كل خير. وقوله تعالى: ﴿ يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور ﴾ يخبر عز وجل عن علمه التام المحيط بجميع الأشياء جليلها وحقيرها، صغيرها وكبيرها، دقيقها ولطيفها ليحذر الناس علمه فيهم فيستحيوا من الله تعالى حق الحياء ويتقوه حق تقواه، ويراقبوه مراقبة من يعلم أنه يراه فإنه عز وجل يعلم العين الخائنة وإن أبدت أمانة ويعلم ما تنطوي عليه خبايا الصدور من الضمائر والسرائر. قال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿ يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور ﴾ هو الرجل يدخل على أهل البيت بيتهم

(١) تفسير ابن كثير / دار الفكر، المؤلف غير معروف ٦١١/٣

وفيهم المرأة الحسناء أو تمر به وبهم المرأة الحسناء فإذا غفلوا لحظ إليها فإذا فطنوا غض بصره عنها فإذا غفلوا لحظ فإذا فطنوا غض، وقد اطلع الله تعالى من قلبه أنه ود أن لو اطلع على فرجها. رواه ابن أبي حاتم، وقال الضحاك ﴿ خائنة الأعين ﴾ هو الغمز وقول الرجل رأيت ولم ير. أو لم أر وقد رأى. وقال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما يعلم الله تعالى من العين في نظرها هل تريد الخيانة أم لا ؟ وكذا قال مجاهد وقتادة، وقال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿ وما تخفي الصدور ﴾ يعلم إذا أنت قدرت عليها هل تزني بها أم لا ؟ وقال السدي ﴿ وما تخفي الصدور ﴾ أي من الوسوسة.وقوله عز وجل: ﴿ والله يقضي بالحق ﴾ أي يحكم بالعدل، قال الأعمش عن سعيد بن جبير عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿ والله يقضي بالحق ﴾ قادر على أن يجزي بالحسنة الحسنة وبالسيئة السيئة ﴿ إن الله هو السميع البصير ﴾ وهذا الذي فسر به ابن عباس رضي الله عنهما هذه الآية كقوله تبارك وتعالى: ﴿ ليجزي." (١)

"وفي حديث عمر [رضي الله عنه] (١) أن جبريل حين تبدى له في صورة أعرابي فسأل عن الإسلام والإيمان والإحسان، قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما قال له: "خمس لا يعلمهن إلا الله "، ثم قرأ: ﴿ إن الله عنده علم الساعة ﴾ الآية [لقمان: ٣٤].وقوله: ﴿ ويعلم ما في البر والبحر ﴾ أي: يحيط علمه الكريم (٢) بجميع الموجودات، بريها وبحريها (٣) لا يخفى عليه من ذلك شيء، ولا مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء. وما أحسن ما قال الصرصري:فلا يخفى عليه الذر إما ... تراءى للنواظر أو توارى ...وقوله: ﴿ وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ﴾ أي: ويعلم الحركات حتى من الجمادات، فما ظنك بالحيوانات، ولا سيما المكلفون منهم من جنهم وإنسهم، كما قال تعالى: ﴿ يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور ﴾ [غافر: ١٩].وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا الحسن بن الربيع، حدثنا أبو الأحوص، عن سعيد بن مسروق، عن حسان النمري، عن ابن عباس في قوله: ﴿ وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ﴾ قال: ما من شجرة في بر ولا بحر إلا وملك موكل بها، يكتب ما يسقط (٤) منها.وقوله: ﴿ ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين ﴾ قال محمد بن إسحاق، عن يحيي بن النضر، عن أبيه، سمعت عبد الله بن عمرو بن العاص يقول: إن تحت الأرض الثالثة وفوق الرابعة من الجن ما لو أنهم ظهروا -يعني لكم -لم تروا معهم نورا، على كل زاوية من زوايا الأرض (٥) خاتم من خواتيم الله، عز وجل، على كل خاتم ملك من الملائكة يبعث الله، عز وجل، إليه في كل يوم ملكا من عنده: أن احتفظ بما عندك.قال ابن أبي حاتم: حدثنا عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن المسور الزهري: حدثنا مالك بن سعير، حدثنا الأعمش، عن يزيد بن أبي زياد، عن عبد الله بن الحارث قال: ما في الأرض من شجرة ولا مغرز إبرة إلا عليها (٦) ملك موكل يأتي الله بعلمها: رطوبتها إذا رطبت، ويبسها إذا يبست.وكذا رواه ابن جرير عن أبي الخطاب زياد بن عبد الله الحساني، عن مالك بن سعير، به (٧)ثم قال ابن أبي حاتم: ذكر عن أبي حذيفة، حدثنا سفيان، عن عمرو بن قيس، عن رجل عن__________(١) زيادة من أ.(٢) في م، أ: "العظيم".(٣) في د: "بحرها وبرها".(٤) في أ: "ما سقط".(٥) في م، أ: "من زواياها".(٦) في أ: "إلا وعليها".(٧) تفسير الطبري (١١/٤٠٤).." (٢)

---

(١) تفسير ابن كثير / دار الفكر، المؤلف غير معروف ٤/٩٢

(٢) تفسير ابن كثير / دار طيبة، المؤلف غير معروف ٣/٢٦٥

"والرجل يسأل عن أهله (١) والمرأة تسأل عن بيت زوجها، والعبد يسأل عن مال سيده". قال الليث: وحدثني ابن طاوس، مثله، ثم قرأ: ﴿ فلنسألن الذين أرسل إليهم ولنسألن المرسلين ﴾ (٢) .وهذا الحديث مخرج في الصحيحين بدون هذه الزيادة (٣)وقال ابن عباس: ﴿ فلنقصن عليهم بعلم وما كنا غائبين ﴾ يوضع الكتاب يوم القيامة، فيتكلم بما كانوا يعملون، ﴿ وما كنا غائبين ﴾ يعني: أنه تعالى يخبر عباده يوم القيامة بما قالوا وبما عملوا، من قليل وكثير، وجليل وحقير؛ لأنه تعالى شهيد على كل شيء، لا يغيب عنه شيء، ولا يغفل عن شيء، بل هو العالم بخائنة الأعين وما تخفي الصدور، ﴿ وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين ﴾ [الأنعام: ٥٩] .﴿ والوزن يومئذ الحق فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون (٨) ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم بما كانوا بآياتنا يظلمون (٩) ﴾يقول [تبارك و] (٤) تعالى: ﴿ والوزن ﴾ أي: للأعمال (٥) يوم القيامة ﴿ الحق ﴾ أي: لا يظلم تعالى أحدا، كما قال تعالى: ﴿ ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين ﴾ [الأنبياء: ٤٧] وقال تعالى: ﴿ إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجرا عظيما ﴾ [النساء : ٤٠] وقال تعالى: ﴿ فأما من ثقلت موازينه فهو في عيشة راضية * وأما من خفت موازينه فأمه هاوية * وما أدراك ما هيه * نار حامية ﴾ [القارعة : ٦-١١] وقال تعالى: ﴿ فإذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون * فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون * ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم في جهنم خالدون ﴾ [المؤمنون : ١٠١ -١٠٣] .فصل:والذي يوضع في الميزان يوم القيامة (٦) قيل: الأعمال وإن كانت أعراضا، إلا أن الله تعالى يقلبها يوم القيامة أجساما.قال البغوي: يروى هذا عن ابن عباس (٧) كما جاء في الصحيح من أن "البقرة" و "آل عمران" يأتيان (٨) يوم القيامة كأنهما غمامتان -أو: غيايتان -أو فرقان من طير صواف. من ذلك في الصحيح قصة القرآن وأنه يأتي صاحبه في صورة شاب شاحب اللون، فيقول: من أنت؟ فيقول: أنا القرآن الذي______________(١) في أ: "أهل بيته".(٢) وفي إسناده عبد الرحمن بن محمد المحاربي، قال ابن معين: يروى المناكير عن المجهولين، ولكن روي من وجه آخر عن نافع عن ابن عمر وفي الصحيحين.(٣) صحيح البخاري برقم (٥١٨٨) وصحيح مسلم برقم (١٨٢٩).(٤) زيادة من أ.(٥) في ك: "الأعمال".(٦) في ك: "يوم القيامة في الميزان".(٧) معالم التنزيل للبغوي (٣/٢١٥).(٨) في أ: "تأتيان".." [1]

"كفر بعد الحجة، لما رأى من الآية والعبرة، ويؤمن من آمن على مثل ذلك.وهذا تفسير جيد. وبسط ذلك أنه (١) تعالى يقول: إنما جمعكم مع عدوكم في مكان واحد على غير ميعاد، لينصركم عليهم، ويرفع كلمة الحق على الباطل، ليصير الأمر ظاهرا، والحجة قاطعة، والبراهين ساطعة، ولا يبقى لأحد حجة ولا شبهة، فحينئذ ﴿ يهلك من هلك ﴾ أي: يستمر في الكفر من استمر فيه على بصيرة من أمره أنه مبطل، لقيام الحجة عليه، ﴿ ويحيى من حي ﴾ أي: يؤمن من آمن ﴿ عن بينة ﴾ أي: حجة وبصيرة. والإيمان هو حياة القلوب، قال الله تعالى: ﴿ أومن كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشي به في الناس ﴾ [الأنعام: ١٢٢]،وقالت عائشة في قصة الإفك: في هلك من هلك أي: قال فيها ما قال من الكذب والبهتان

---

(١) تفسير ابن كثير / دار طيبة، المؤلف غير معروف ٣٨٩/٣

والإفك.وقوله: ﴿ وإن الله لسميع ﴾ أي: لدعائكم وتضرعكم واستغاثتكم به ﴿ عليم ﴾ أي: بكم وأنكم تستحقون النصر على أعدائكم الكفرة المعاندين .﴿ إذ يريكهم الله في منامك قليلا ولو أراكهم كثيرا لفشلتم ولتنازعتم في الأمر ولكن الله سلم إنه عليم بذات الصدور (٤٣) وإذ يريكموهم إذ التقيتم في أعينكم قليلا ويقللكم في أعينهم ليقضي الله أمرا كان مفعولا وإلى الله ترجع الأمور (٤٤) ﴾قال مجاهد: أراه الله إياهم في منامه (٢) قليلا فأخبر النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه بذلك، فكان تثبيتا لهم.وكذا قال ابن إسحاق وغير واحد. وحكى ابن جرير عن بعضهم أنه رآهم بعينه التي ينام بها.وقد روى ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا يوسف بن موسى المدبر، حدثنا أبو قتيبة، عن سهل السراج، عن الحسن في قوله: ﴿ إذ يريكهم الله في منامك قليلا ﴾ قال: بعينك.وهذا القول غريب، وقد صرح بالمنام هاهنا، فلا حاجة إلى التأويل الذي لا دليل عليه (٣)وقوله: ﴿ ولوأراكهم كثيرا لفشلتم ﴾ أي: لجبنتم عنهم واختلفتم فيما بينكم، ﴿ ولكن الله سلم ﴾ أي: من ذلك: بأن أراكهم قليلا ﴿ إنه عليم بذات الصدور ﴾ أي: بما تجنه الضمائر، وتنطوي عليه الأحشاء، فيعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور.وقوله: ﴿ وإذ يريكموهم إذ التقيتم في أعينكم قليلا ﴾ وهذا أيضا من لطفه تعالى بهم، إذ أراهم إياهم قليلا في رأي العين، فيجرؤهم عليهم، ويطمعهم فيهم.______________(١) في أ: "أن الله".(٢) في جميع النسخ: "أراهم الله في منامه" والمثبت من الطبري.(٣) في أ: "له".." [(١)]

"احفظ عورتك، إلا من زوجتك أو ما ملكت يمينك" (١) .﴿ ذلك أزكى لهم ﴾ أي: أطهر لقلوبهم وأنقى لدينهم، كما قيل: "من حفظ بصره، أورثه الله نورا في بصيرته". ويروى: "في قلبه".وقد قال الإمام أحمد: حدثنا عتاب، حدثنا عبد الله بن المبارك، أخبرنا يحيى بن أيوب، عن عبيد الله بن زحر، عن علي بن يزيد، عن القاسم، عن أبي أمامة، رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "ما من مسلم ينظر إلى محاسن امرأة [أول مرة] (٢) ثم يغض بصره، إلا أخلف الله له عبادة يجد حلاوتها" (٣) .وروي هذا مرفوعا عن ابن عمر، وحذيفة، وعائشة، رضي الله عنهم (٤) ولكن في إسنادها ضعف، إلا أنها في الترغيب، ومثله يتسامح فيه.وفي الطبراني من طريق عبيد الله بن زحر، ، عن علي بن يزيد، عن القاسم، عن أبي أمامة مرفوعا: "لتغضن أبصاركم، ولتحفظن فروجكم، ولتقيمن وجوهكم -أو: لتكسفن وجوهكم" (٥) .وقال الطبراني: حدثنا أحمد بن زهير التستري قال: قرأنا على محمد بن حفص بن عمر الضرير المقرئ، حدثنا يحيى بن أبي بكير، حدثنا هريم بن سفيان، عن عبد الرحمن بن إسحاق، عن القاسم بن عبد الرحمن، عن أبيه، عن عبد الله بن مسعود، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن النظر سهم من سهام إبليس مسموم، من تركه مخافتي، أبدلته إيمانا يجد حلاوته في قلبه" (٦) .وقوله: ﴿ إن الله خبير بما يصنعون ﴾ ، كما قال تعالى: ﴿ يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور ﴾ [غافر:١٩] .وفي الصحيح، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "كتب على ابن آدم حظه من الزنى، أدرك ذلك لا محالة. فزنى العينين: النظر. وزنى اللسان: النطق. وزنى الأذنين: الاستماع. وزنى اليدين: البطش. وزنى الرجلين: الخطى. والنفس تمنى وتشتهي، والفرج يصدق ذلك أو يكذبه".______________(١) المسند (٥/ ٣ ، ٤) وسنن أبي داود برقم (٤٠١٧) وسنن ابن ماجه برقم (١٩٢٠) من حديث معاوية بن حيدة، رضي الله عنه.(٢)

---

(١) تفسير ابن كثير / دار طيبة، المؤلف غير معروف ٤/٦٩

زيادة من ف، أ.(٣) المسند (٥/٢٦٤). وفي إسناده عبيد الله بن زحر، قال ابن حبان: "يروي الموضوعات عن الأثبات وإذا روى عن علي بن يزيد أتى بالطامات، وإذا اجتمع في إسناد خبر عبيد الله بن زحر وعلي بن يزيد والقاسم أبو عبد الرحمن، لم يكن ذلك الخبر إلا مما عملته أيديهم".(٤) أما حديث حذيفة، فرواه الحاكم في المستدرك (٤/٣١٤) من طريق إسحاق القرشي، عن هشيم، عن عبد الرحمن، عن إسحاق، عن محارب، عن صلة بن زفر، عن حذيفة، رضي الله عنه، وصححه الحاكم، وتعقبه الذهبي. قلت: إسحاق واه وعبد الرحمن هو الواسطي ضعفوه. وأما حديث ابن عمر، فرواه أبو نعيم في الحلية (٦/١٠١) من طريق أبي اليمان، عن أبي المهدي، عن أبي الزاهرية، عن كثير بن مرة، عن ابن عمر، رضي الله عنهما، وإسناده ضعيف جدا.(٥) المعجم الكبير (٨/٢٤٦) وعبيد الله بن زحر وعلي بن يزيد والقاسم ضعفاء.(٦) المعجم الكبير (١٠/٢١٤) وقال الهيثمي في المجمع (٨/٦٣): "وفيه عبد الرحمن بن إسحاق الواسطي وهو ضعيف".." [(١)]

"مع قومها. قال: فاطمأن أبو بكر، رضي الله عنهما (١) وسكن (٢) .وقد عظم الله تبارك وتعالى ذلك، وشدد فيه وتوعد عليه بقوله: ﴿ إن ذلكم كان عند الله عظيما ﴾ ، ثم قال: ﴿ إن تبدوا شيئا أو تخفوه فإن الله كان بكل شيء عليما ﴾ أي: مهما تكنه ضمائركم وتنطوي عليه سرائركم، فإن الله (٣) يعلمه؛ فإنه لا تخفى (٤) عليه خافية، ﴿ يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور ﴾ [غافر: ١٩] .______________(١) في ت، ف: "عنه".(٢) تفسير الطبري (٢٢/٢٩).(٣) في ف: "فإنه".(٤) في ت، ف: "لا يخفى".." [(٢)]

"وقد يقال: إن يوم القيامة (١) هو يشمل هذا كله، ويشمل أن كل عامل سيلقى ما عمل من خير وشر. كما قاله آخرون.وقوله: ﴿ يوم هم بارزون ﴾ أي: ظاهرون بادون كلهم، لا شيء يكنهم ولا يظلهم ولا يسترهم. ولهذا قال: ﴿ يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شيء ﴾ أي: الجميع في علمه على السواء.وقوله: ﴿ لمن الملك اليوم لله الواحد القهار ﴾ قد تقدم في حديث ابن عمر: أنه تعالى (٢) يطوي السموات والأرض بيده، ثم يقول: أنا الملك، أنا الجبار، أنا المتكبر، أين ملوك الأرض؟ أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟ .وفي حديث الصور: أنه تعالى إذا قبض أرواح جميع خلقه، فلم يبق سواه وحده لا شريك له، حينئذ يقول: لمن الملك اليوم؟ ثلاث مرات، ثم يجيب نفسه قائلا ﴿ لله الواحد القهار ﴾ أي: الذي هو وحده قد قهر كل شيء وغلبه (٣) .وقد قال (٤) ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن غالب الدقاق، حدثنا عبيد بن عبيدة، حدثنا معتمر، عن أبيه، حدثنا أبو نضرة، عن ابن عباس [رضي الله عنهما] (٥) قال: ينادي مناد بين يدي الساعة: يا أيها الناس، أتتكم الساعة. فيسمعها الأحياء والأموات، قال: وينزل الله [عز وجل] (٦) إلى سماء الدنيا ويقول: ﴿ لمن الملك اليوم لله الواحد القهار ﴾ .وقوله: ﴿ اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب ﴾ يخبر تعالى عن عدله في حكمه بين خلقه، أنه لا يظلم مثقال ذرة من خير ولا من شر، بل يجزي بالحسنة عشر أمثالها، وبالسيئة واحدة؛ ولهذا قال: ﴿ لا ظلم اليوم ﴾ كما ثبت في صحيح مسلم (٧) ، عن أبي ذر، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم -فيما يحكي عن ربه عز وجل-أنه قال: "يا عبادي، إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا -إلى أن

---

(١) تفسير ابن كثير / دار طيبة، المؤلف غير معروف ٦/٤٣

(٢) تفسير ابن كثير / دار طيبة، المؤلف غير معروف ٦/٤٥٦

قال-: يا عبادي، إنما هي أعمالكم أحصيها عليكم (٨) ثم أوفيكم إياها، فمن وجد خيرا فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه" (٩) .وقوله: ﴿ إن الله سريع الحساب ﴾ أي: يحاسب الخلائق كلهم، كما يحاسب نفسا واحدة، كما قال: ﴿ ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة ﴾ [لقمان: ٢٨]، وقال [تعالى] (١٠) : ﴿ وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر ﴾ [القمر: ٥٠].﴿ وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع (١٨) يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور (١٩) والله يقضي بالحق والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء إن الله هو السميع البصير (٢٠) ﴾__________(١) في ت، س: "التلاق".(٢) في ت: "أن الله".(٣) انظر حديث الصور بتمامه عند تفسير الآية: ٧٣ من سورة الأنعام.(٤) في ت: "وروى ابن أبي حاتم".(٥) زيادة من أ.(٦) زيادة من ت، أ.(٧) في ت: "البخاري" وهو خطأ.(٨) في ت، س: "لكم".(٩) صحيح مسلم برقم (٢٥٧٧).(١٠) زيادة من س.." (١)

"يوم الآزفة هو: اسم من أسماء يوم القيامة، سميت بذلك لاقترابها، كما قال تعالى: ﴿ أزفت الآزفة . ليس لها من دون الله كاشفة ﴾ [النجم:٥٧، ٥٨] وقال ﴿ اقتربت الساعة وانشق القمر ﴾ [القمر: ١]، وقال ﴿ اقترب للناس حسابهم ﴾ [الانبياء:١] وقال ﴿ أتى أمر الله فلا تستعجلوه ﴾ [النحل:١] وقال ﴿ فلما رأوه زلفة سيئت وجوه الذين كفروا وقيل هذا الذي كنتم به تدعون ﴾ [الملك:٢٧] .وقوله: ﴿ إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ﴾ [أي ساكتين] (١) ، قال قتادة: وقفت القلوب في الحناجر من الخوف، فلا تخرج ولا تعود إلى أماكنها. وكذا قال عكرمة، والسدي، وغير واحد.ومعنى ﴿ كاظمين ﴾ أي: ساكتين، لا يتكلم أحد إلا بإذنه ﴿ يوم يقوم الروح والملائكة صفا لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا ﴾ [النبأ:٣٨].وقال ابن جريج (٢) : ﴿ كاظمين ﴾ أي: باكين.وقوله: ﴿ ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع ﴾ أي: ليس للذين ظلموا أنفسهم بالشرك بالله من قريب منهم ينفعهم، ولا شفيع يشفع فيهم، بل قد تقطعت بهم الأسباب من كل خير.وقوله: ﴿ يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور ﴾ يخبر تعالى عن علمه التام المحيط بجميع الأشياء، جليلها وحقيرها، صغيرها وكبيرها، دقيقها ولطيفها؛ ليحذر الناس علمه فيهم، فيستحيوا من الله حق الحياء، ويتقوه حق تقواه، ويراقبوه مراقبة من يعلم أنه يراه، فإنه تعالى يعلم العين الخائنة وإن أبدت أمانة، ويعلم ما تنطوي عليه خبايا الصدور من الضمائر والسرائر.قال ابن عباس في قوله: ﴿ يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور ﴾ وهو الرجل يدخل على أهل البيت بيتهم، وفيهم المرأة الحسناء، أو تمر به وبهم المرأة الحسناء، فإذا غفلوا لحظ إليها، فإذا فطنوا غض، فإذا غفلوا لحظ، فإذا فطنوا غض [بصره عنها] (٣) وقد اطلع الله من قلبه أنه ود أن لو اطلع على فرجها. رواه ابن أبي حاتم.وقال الضحاك: ﴿ خائنة الأعين ﴾ هو الغمز، وقول الرجل: رأيت، ولم ير؛ أو: لم أر، وقد رأى.وقال ابن عباس: يعلم [الله] (٤) تعالى من العين في نظرها، هل تريد الخيانة أم لا؟ وكذا قال مجاهد، وقتادة.وقال ابن عباس في قوله: ﴿ وما تخفي الصدور ﴾ يعلم إذا

---

(١) تفسير ابن كثير / دار طيبة، المؤلف غير معروف ١٣٦/٧

أنت قدرت عليها هل تزني بها أم لا؟.وقال السدي: ﴿ وما تخفي الصدور ﴾ أي: من الوسوسة .ـــــــــــــــــ(١)
زيادة من ت.(٢) في ت: "جرير".(٣) زيادة من س، أ.(٤) زيادة من س.." [1]

" ومنه قول النبي صلى الله عليه و سلم لأصحابه في شأن رجل ارتد ثم جاء ليسلم هلا قام اليه رجل منكم حين تلكأت عنه فضرب عنقه فقالوا يا رسول الله الا أومأت الينا فقال صلى الله عليه و سلم ما ينبغي لنبي أن تكون له خائنة الأعين وفي بعض الكتب المنزلة من قول الله عز و جل أنا مرصاد الهمم انا العالم بمجال الفكر وكسر الجفون وقال مجاهد خائنة الأعين مسارقة النظر الى ما لا يجوز ثم قوى تعالى هذا الاخبار بقوله وما تخفي الصدور بما لم يظهر على عين ولا غيرها واسند أبو بكر بن الخطيب عن مولى أم معبد الخزاعية عن النبي صلى الله عليه و سلم أنه كان يدعو اللهم طهر قلبي من النفاق وعملي من الرياء ولساني من الكذب وعيني من الخيانة فانك تعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور انتهى قال القشيري في التحبير ومن علم اطلاع الحق تعالى عليه يكون مراقبا لربه وعلامته أن يكون محاسبا لنفسه ومن لم تصح محاسبته لم تصح مراقبته وسئل بعضهم عما يستعين به العبد على حفظ البصر فقال يستعين عليه بعلمه ان نظر الله اليه سابق على نظره الى ما ينظر اليه انتهى وقوله سبحانه والله يقضي بالحق أي يجازي الحسنة بعشر والسيئة بمثلها وينصف المظلوم من الظالم الى غير ذلك من أقضية الحق والعدل والأصنام لا تقضي بشيء ولا تنفذ أمرا ويدعون معناه يعبدون وقوله سبحانه أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم كانوا هم أشد منهم قوة وآثارا في الأرض فأخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق الضمير في يسيروا لكفار قريش والآثار في الارض هي المباني والمآثر والصيت الدنيوي وذنوبهم كانت تكذيب الأنبياء والواقي الساتر المانع مأخوذ من الوقاية وباقي الآية بين وخص تعالى هامان وقارون بالذكر تنبيها على مكانهما من الكفر ولكونهما أشهر رجال فرعون وقيل أن قارون هذا ليس بقارون بني اسرائيل وقيل هو ذلك ولكنه كان ." [2]

"" صفحة رقم ٨٩ " إليه أو خيانة الأعين) وما تخفي الصدور (من الضمائر والجملة خبر خامس للدلالة على أنه ما من خفي إلا وهو متعلق العلم والجزاءغافر : (٢٠) والله يقضي بالحق . . . . .) والله يقضي بالحق (لأنه المالك الحاكم على الإطلاق فلا يقضي بشيء إلا وهو حقه) والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء (تهكم بهم لأن الجماد لا يقال فيه إنه يقضي أو لا يقضي وقرأ نافع وهشام بالتاء على الالتفات أو إضمار قل) إن الله هو السميع البصير (تقرير لعلمه ب) خائنة الأعين (وقضائه بالحق ووعيد لهم على ما يقولون ويفعلون وتعريض بحال ما) يدعون من دونه)غافر : (٢١) أولم يسيروا في . . . . .) أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم (مآل حال الذين كذبوا الرسل قبلهم كعاد وثمود) كانوا هم أشد منهم قوة (قدرة وتمكنا وإنما جيء بالفصل وحقه أن يقع بين معرفتين لمضارعة أفعل من للمعرفة في امتناع دخول اللام عليه وقرأ ابن عامر أشد منكم بالكاف) وآثارا في الأرض (مثل القلاع والمدائن الحصينة وقيل المعنى وأكثر آثارا كقوله متقلدا سيفا ورمحا) فأخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق

---

(١) تفسير ابن كثير / دار طيبة، المؤلف غير معروف ١٣٧/٧

(٢) تفسير الثعالبي، المؤلف غير معروف ٧١/٤

(يمنع العذاب عنهمغافر : (٢٢) ذلك بأنهم كانت . . . . .) ذلك (الأخذ) بأنهم كانت تأتيهم رسلهم بالبينات (بالمعجزات أو الأحكام الواضحة) فكفروا فأخذهم الله إنه قوي (متمكن مما يريده غاية التمكن) شديد العقاب (لا يؤبه بعقاب دون عقابهغافر : (٢٣) ولقد أرسلنا موسى . . . . .) ولقد أرسلنا موسى بآياتنا (يعني المعجزات) وسلطان مبين (وحجة قاهرة ظاهرة والعطف لتغاير الوصفين أو لإفراد بعض المعجزات كالعصا تفخيما لشأنهغافر : (٢٤) إلى فرعون وهامان . . . . .) إلى فرعون وهامان وقارون فقالوا ساحر كذاب (يعنون موسى عليه الصلاة والسلام وفيه تسلية لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) وبيان لعاقبة من هو أشد الذين كانوا من قبلهم بطشا وأقربهم زماناغافر : (٢٥) فلما جاءهم بالحق . . . . .) فلما جاءهم بالحق من عندنا قالوا اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه واستحيوا نساءهم (أي أعيدوا عليهم ما كنتم تفعلون بهم أولا كي يصدوا عن مظاهرة موسى عليه السلام) وما كيد الكافرين إلا في ضلال (في ضياع ووضع الظاهر فيه موضع الضمير لتعميم الحكم والدلالة على العلة." (١)

"ج ٢ ، ص : ٣٤٥بدليل قراءة لينذر يوم التلاق على البناء للمفعول ، ورفع «يوم» وسمي يوم القيامة بيوم التلاق ، لأن الأرواح متلاقية للأجساد ، ولأن الخلائق يتلاقون فيه ، فيقف بعضهم على حال بعض ، ولأنه يلتقي فيه أهل السماء وأهل الأرض ، ولأن كل أحد يصل إلى جزاء عمله ويلتقي فيه العابدون والمعبودون ويلتقي فيه الظالم والمظلوم ، يوم هم بارزون أي خارجون عن بواطن القبور ، وظاهرون لا يسترهم شيء من جبل وغيره ، وليس عليهم ثياب ، وتظهر أعمالهم وتنكشف أسرارهم ، لا يخفى على الله منهم شيء فيعلم ما فعله كل واحد منهم فيجازي كلا منهم بحسبه إن خيرا فخيرا ، وإن شرا فشر ، وينادي مناد : لمن الملك اليوم فيجيبه أهل المحشر : لله الواحد القهار (١٦) ، أي الذي قهر الخلق بالموت ، فالمؤمنون يقولونه تلذذا بهذا الكلام حيث نالوا المنزلة الرفيعة ، والكفار يقولونه على وجه التحسر والندامة على ما فاتهم في الدنيا ، اليوم تجزى كل نفس برة أو فاجرة ، بما كسبت من خير أو شر لا ظلم اليوم بنقص ثواب ، أو زيادة عذاب ، أي يقال لهم : إذا أقروا بالملك يومئذ لله وحده اليوم تجزى إلخ.إن الله سريع الحساب (١٧) ، إذ لا يشغله شأن عن شأن ، فيحاسب الخلائق قاطبة في أقرب زمان وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر ، ف «إذ» بدل من يوم الآزفة ، أي وأنذرهم يوم القرب من العذاب ، ومشارفتهم دخول النار ، فعند ذلك ترتفع قلوبهم من أماكنها ، فتلتصق بحلوقهم من شدة الخوف ، كاظمين أي مغمومين يتردد الغيظ في أجوافهم ، فلا يمكنهم أن ينطقوا ويبينوا خوفهم ، ما للظالمين من حميم أي قريب مشفق ، ولا شفيع يطاع (١٨) أي ولا شفيع مقبول شفاعته ، يعلم خائنة الأعين أي استراق النظر إلى ما لا يحل ، وما تخفي الصدور (١٩) أي مضمرات القلوب ، والله يقضي بالحق إذا علم المذنب أن الله لا يحكم إلا بالحق في كل ما دق وجل ، كان خوف المذنب من الله في الغاية القصوى. والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء أي والذين يعبدونهم من دون الله تعالى من الأوثان ، لا يصنعون شيئا من الشفاعة يوم القيامة ، ولا يأمرون بخير في الدنيا ، فإن الكفار إنما عولوا في دفع العقاب عن أنفسهم على شفاعة هذه الأصنام ، فلذلك بين الله تعالى أنه لا فائدة فيها ألبتة بهذه الآية.وقرأ نافع وهشام «تدعون» بتاء الخطاب إن الله هو السميع البصير (٢٠) أي يسمع من الكفار ثناءهم على الأصنام ، ويبصر

---

(١) تفسير البيضاوى . موافق للمطبوع، المؤلف غير معروف ٥/٨٩

سجودهم لهم ولا يسمع منهم ثناءهم على الله ، ولا يبصر خضوعهم وتواضعهم لله.أولم يسيروا في الأرض أي أغفلوا ولم يسافروا في الأرض فيعتبروا بمن قبلهم فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم من الأمم المكذبة لرسلهم كانوا هم أي الذين مضوا من الكفار أشد منهم أي من هؤلاء الحاضرين من الكفار قوة ، أي قدرة على التصرفات.." [١]
"

إن الحق سبحانه يكشف للرسول صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين به من الأميين لعبة إيمان بعض من أهل الكتاب بالإسلام وجه النهار والكفر به آخر النهار، لقد طالب المتآمرون بعضهم بعضا أن يظل الأمر سرا حتى لا يفقد المكر هدفه وهو بلبلة المسلمين من الأميين، ولذلك قال هؤلاء المتآمرون بعضهم لبعض: ﴿ وَلاَ تُؤْمِنُواْ إِلاَّ لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ ﴾ أي لا تكشفوا سر هذه الخدعة إلا لمن هو على شاكلتكم، لكن الحق يكشف هذا الأمر كله بنزول هذه الآية على رسول الله صلى الله عليه وسلم وبلاغه إياها للمؤمنين، وبذلك فسد أمر تلك البلبلة، وارتدت الحرب النفسية إلى صدور من أشعلوها، ويستمر القول الكريم في كشف خديعة هؤلاء البعض من أهل الكتاب فيقول سبحانه: ﴿ قُلْ إِنَّ الْهُدَىٰ هُدَى اللَّهِ أَن يُؤْتَىٰ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ ﴾.

إن الحق سبحانه يكشف فعل الماكرين من أهل الكتاب الذين أرادوا إعلان الإيمان أول النهار كلون من " هدى النفس " لكنه من صميم الضلال والإضلال وذريعة له، ولم يكن هدى من الله؛ لأن هدى الله إنما يوصل الإنسان إلى الغاية التي يريدها الله، وهؤلاء البعض من أهل الكتاب أرادوا بالخديعة أن يجعلوا سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم دون أتباع يؤمنون بالإسلام؛ لقد تواصي هؤلاء القوم من أهل الكتاب بأن يكتموا اتفاقهم على تمثيل الادعاء بالإيمان وجه النهار والكفر به في آخره، وألا يعلنوا ذلك إلا لأهل ديانتهم حتى لا يفقد المكر هدفه، وهو بلبلة المسلمين.

لقد أخذهم الخوف؛ لأن الناس إن أخذوا بدين محمد صلى الله عليه وسلم لأوتوا مثلما أوتي أهل الكتاب من معرفة بالمنهج، بل إن المنهج الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم هو المنهج الخاتم، وأهل المكر من أهل الكتاب إنما أرادوا أن يحرموا الناس من الإيمان، أو أنهم خافوا أن يدخل المسلمون معهم في المحاجة في أمر الإيمان، وكان كل ذلك من قلة الفطنة التي تصل إلى حد الغباء.

لماذا؟ لأنهم توهموا أن الله لا يعرف باطن ما كتموا وظاهر ما فعلوا، إنهم تناسوا أن الحق يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، وتطابق ذلك مع سابق فعلهم عندما خرجوا من مصر، وذهبوا إلى التيه أثناء عبور الصحراء، وادعوا أن الله قال لموسى عليه السلام: " علموا بيوتكم أيها الإسرائيليون، لأني سأنزل وأبطش بالبلاد كلها ". وكأنهم لو لم يضعوا العلامات على البيوت فلن يعرفها الله، إنه كلام خائب للغاية بل هو منتهى الخيبة والضلال، ويبلغ الحق رسوله الكريم: ﴿ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾.

وما دام الفضل بيد الله فلن تستطيعوا يا أهل المكر بالمسلمين أن تأخذوا أناسا كما تودون، وبعد ذلك تريدون أن تخدعوهم؛ لأن الفضل حين يؤتيه الله لمن آمن به فلن ينزعه إلا الله.

---

(١) مراح لبيد لكشف معنى القرآن مجييد، المؤلف غير معروف ٢/٣٤٥

فالحيلة لن تنزع فضل الإيمان بالله مادام قد أعطاه الله، والله واسع بمعنى أنه قادر على إعطاء الفضل لكل الخلق، ولن ينقص ذلك من فضله شيئا، والحق سبحانه عليم بمن يستحق هذا الفضل لأن قلبه مشغول بربه.

وبعد ذلك يقول الحق سبحانه: ﴿ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَآءُ... ﴾

" (١).

"

وما زال الحديث والكلام عن البطانة، وهو يدل على أن البطانة لم تستطع أن تلوي المؤمنين عن الإيمان، بل إن المؤمنين الذين ذاقوا حلاوة الإيمان حاولوا أن يغيروا من الكافرين. ولم يفلح الكافرون أن يغيروا من المؤمنين، وكذلك لم يفلح الكافرون أيضا أن يسيطروا على أنفسهم، ولم يكن أمام هؤلاء الكافرين إلا النفاق، لذلك قالوا: " آمنا ". إن الآية تدلنا على أن المؤمنون قد عقلوا آيات الحق. ولماذا – إذن – جاء الحق بقوله: " تحبونهم ولا يحبونكم "؟

لقد أحب المؤمنون الكافرين حين شرحوا لهم قضية الحق في منهج الإسلام، وأرادوا المؤمنون أن يجنبوا الكافرين متاعب الكفر في الدنيا والآخرة، وهذا هو الحب الحقيقي، فهل بَادَلَهُم الكافرون الحب؟ لا؛ لأن هؤلاء الكافرون أرادو أخذ المؤمنين إلى الكفر، وهذا دليل عدم المودة. ولم يستطع الكافرون تحقيق هذا المأرب، ولذلك قالوا: " آمنا " ومعنى قولهم: " آمنا " يدلنا على أن موقف المسلمين كان موقفا صُلبا قويا؛ لذلك لم يجد الكافرون بداً من نفاقهم ﴿ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُواْ آمَنَّا ﴾ قالوا ذلك على الرغم من ظهور البغضاء في أفواههم، ولم يكن سلوكهم مطابقا لما يقولون. وهنا بدأ المسلمون في تحجيم وتقليل مودتهم للكافرين؛ ولذلك قال أهل الكفر: لو استمر الأمر هكذا فسوف يتركنا هؤلاء المسلمون.. وحتى يتجنبوا هذا الموقف ادعوا الإيمان في الظاهر، وينقلب موقفهم إذا خلوا لأنفسهم، ويصور الحق هذا الموقف في قوله: ﴿ وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ الأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ ﴾ فما هو العض؟

إن العضَّ لغويا، هو التقاء الفكين على شيء ليقضماه. وما الأنامل؟ إنها أطراف الأصابع، والأنامل فيها شيء من الدقة، وشيء من خفة الحركة المأخوذة من خلية النمل، ويسمون الأنامل أيضا البنان، وعملية عض الأنامل عندما نراها نجدها عملية انفعالية قسرية. أي أن الفكر لا يرتبها؛ فليس هناك من يرضي أن يظل مرتكبا لعملية عض أصابعه، فعض الأصبع يسبب الألم، لكن الامتلاء بالغيظ يدفع الإنسان إلى عض الأصابع كمسألة قسرية نتيجة اضطراب وخلل في الانفعال.

ومن أين يجيء الغيظ؟.

لقد جاء الغيظ إلى الكافرين لأنهم لم يستطيعوا أن يزحزحوا المؤمنين قيد شعرة عن منهج الله، بل حدث ما هو العكس، لقد حاول المؤمنون أن يجذبوا الكافرين إلى نور الإيمان، وكان الكافرون يريدون أن يصنعوا من أنفسهم بطانة يدخلون منها إلى المؤمنين لينشروا مفاسدهم؛ ولذلك وقعوا في الغيظ عندما لم يمكنهم المؤمنون من شيء من مرادهم.

---

(١) تفسير الشعراوي، المؤلف غير معروف ص/٤٦٤

إن الإنسان يقع أحيانا فريسة للغيظ حين لا يتمكن من إعلان غضبه على خصمه؛ ولهذا إذا أراد إنسان من أهل الإيمان أن يواجه حسد واحد من خصومه فعليه أن يزيد في فضله على هذا الإنسان، وهنا يزداد هذا الخصم غيظا ومرارة، أيضا نجد أن من تعاليم الإسلام أن الإنسان المؤمن لا يقابل السيئة التي يصنعها فيه آخر بسيئة، وذلك حتى لا يرتكب الذنب نفسه، ولكن يتبع القول المأثور:

" إننا لا نكافئ من عصى الله فينا بأكثر من أن نطيع الله فيه "

إنهم بإحسان المسلمين إليهم يزدادون خصومة، وغيظا وحقدا على الإسلام وكان المسلمون الأوائل يتصرفون بذلك الأسلوب لقد كانوا جبالا إيمانية راسخة.

فخصوم الإسلام يعصون الله بسوء معاملتهم للمسلمين، لكنْ المسلمون يردون على سوء المعاملة بحسن المعاملة، وساعة يرى خصوم الإسلام أن كيدهم لا يحقق هدفه فإنهم يقعون في بئر وحمأة الغيظ. وعندما يخلون الكافرون لأنفسهم فأول أعمالهم هو عض الأصابع من الغيظ، وهو كما أوضحت نتيجة الانفعال القسري التابع للغضب والعجز عن تحقيق المأرب؛ ذلك أن كل تأثير إدراكي في النفس البشرية إنما يطرق مجالا وجدانيا فيها.

والمجال الوجداني لا بد أن يعبر عن نفسه بعملية نزوعية تظهر بالحركة؛ فالإنسان عندما يسبب لواحد يعرفه لونا من الغضب فهو ينفعل بسرعة ويثور بالكلمات، هذا دليل على طيبة الإنسان الغاضب. أمّا الذي لا يظهر انفعاله فيجب الحذر منه؛ لأنه يخزن انفعالاته، ويسيطر عليها، فلا تعرف متى تظهر ولا على أية صورة تبدو؛ ولذلك يقول الأثر: " اتقوا غيظ الحليم " فعندما تتجمع انفعالات جديدة فوق انفعالات قديمة متراكمة في قلب الحليم فلا أحد يعرف متى يفيض به الكيل.

إذن فالإدراك ينشأ عنه وجدان، فينفعل الإنسان بالنزوع الحركي. والتشريع الإسلامي لا يريد من الإنسان أن يكون حجرا أصم لا ينفعل، لكنه يطلب من المسلم أن ينفعل انفعالا مهذبا؛ ولذلك يضع الحق للمؤمن منهجا، فيقول سبحانه:﴿ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾[آل عمران: ١٣٤]

إن القرآن يعترف بأن هناك من الأحداث ما يستدعي غيظ الإنسان، والذي لا يغضب على الإطلاق إنما يسلك طريقا لا يتوافق مع طبيعة البشر السوية، والله يريد من الإنسان أن يكون إنساناً، له عواطفه وشعوره وانفعالاته، ولكن الله المربي الحق يهذب انفعالات هذا الإنسان، ولنا في النبي صلى الله عليه وسلم القدوة الحسنة، فحين مات ولده إبراهيم:

قال عليه الصلاة والسلام: " إن العين تدمع والقلب يحزن ولا نقول إلا ما يرضي ربنا، وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون ".

إن النبي صلى الله عليه وسلم يمزج بين العاطفة والإيمان، فالعين تدمع، والقلب يحزن، والإنسان لا يكون أصمَّ أمام الأحداث، إنما على الإنسان أن يكون منفعلا انفعالا مهذبا.

وعندما يعبّر القرآن عن الإنسان السويّ فهو لا يضع المؤمن في قالب حديدي بحيث لا يستطيع أن يتغير فيقول سبحانه:﴿ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾

[المائدة: ٥٤]

إذن فليس المؤمن مطبوعا على الذلة، ولا مطبوعا على العزة، لكنه ينفعل للمواقف المختلفة، فهذا موقف يتطلب ذلة وتواضعا للمؤمنين فيكون المؤمن ذليلا، وهناك موقف آخر يتطلب عزة على الكافرين المتكبرين فيكون المؤمن عزيزا، والحق سبحانه يقول عن المؤمنين:﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّآءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً ﴾[الفتح: ٢٩]

إن الرحمة ليست خلقا ثابتا، ولا الشدة خلقا ثابتا ولكنَّ المؤمنين ينفعلون للأحداث، فحين يكون المؤمن مع المؤمنين فهو رحيم، وحين يكون في مواجهة الكفار فهو قوي وشديد. والله سبحانه لا يريد المؤمن على قالب واحد متجمد، لذلك يقول الحق:﴿ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾[آل عمران: ١٣٤]

وهو سبحانه القائل:﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ ﴾[النحل: ١٢٦]

إذن فالحق لم يمنع المؤمن من أن يعاقب أحدا على خطأ، وذلك لأنه خلق الخلق وعليم بهم، ولا يمكن أن يصادم طباعهم، وذلك حتى لا يتهدد المؤمن في إيمانه فيما بعد، فالمؤمن لو ترك حقوقه فإن الكفار سيصولون ويجولون في حقوق المسلمين؛ ولهذا فالمؤمن يتدرب على توقيع العقاب حتى على المؤمن المخطئ، وذلك ليعرف المؤمن كيف يعاقب أي مجترئ على حق من حقوق الله. والمؤمن أيضا مطالب بأن يرتقي بعقابه، فهو إما أن يعاقب بمثل ما عوقب به، وإما أن يرتقي أكثر، ويستمع لقول الحق:﴿ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرينَ ﴾[النحل: ١٢٦]

لقد وضع الحق منهج الارتقاء بعد أن أعطى المؤمن الحق في توقيع العقاب قصاصا، وهكذا لم يقسر الله طبع الإنسان ولو أراد سبحانه ذلك لما خلق هذا الطبع إنه سبحانه يوضح لنا أن هناك انفعالا بالغيظ، وأن المؤمن عليه أن يحاول كظم الغيظ أي لا يعبر عن الغيظ نزوعيا، فإن أخرج المؤمن هذا الأمر من قلبه فمعناه أنه قد برئ وشُفِيَ منه وارتقى.

إذن فكظم الغيظ هو ألا يعبر المؤمن عن الغيظ نزوعيا، فإن سبّك أحدٌ فأنت لا تسبّه، وهذا الكظم يعني كتمان الانفعال في القلب، فإذا ارتقى المؤمن أكثر وتجاهل حتى الانفعال بذلك، فإنه يُخرج الغيظ من قلبه، وهو بذلك يرتقي ارتقاء أعلى، ويصفه الحق بأنه دخول إلى مرتبة الإحسان، فهو القائل: ﴿ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ وهكذا يحسن المؤمن إلى المسبب للغيظ بكلمة طيبة.

فماذا يكون موقف الذي تسبب في غيظك أيها المؤمن وأنت قد كظمت الغيظ في المرحلة الأولى وعفوت في المرحلة الثانية وإن أخرجت الانفعال من قلبك، وصلت إلى المرحلة الثالثة وهي التي تمثل قمة الإيمان إنها الإحسان.. ﴿ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ لا بد أن يراجع المسبب للغيظ نفسه ويندم على ما فعل.

إن الإسلام لم يتجاهل المشاعر الإنسانية عندما طالب المؤمنين أن يحسنوا لمن أساء إليهم، فالذي يمعن النظر ويدقق الفهم يعرف أن الإسلام قد أعطى المؤمن الحق في الطبع البشرى حين قال: ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ ﴾ ولكنه ارتقى بالمؤمن.

وعندما ننظر إلى هذا الأمر كقضية اقتصادية وتحسبها بـ " منه " و " له " فسنجد أنّ المؤمن قد كسب.. ومثال ذلك – ولله المثل الأعلى – ساعة يجد الأب ابنا من أبنائه قام بظلم أخ له فإن قلب الأب يكون مع المظلوم، فهب أن إنسانا أساء لعبد من عباد الله فإن الله كربٌ مربٍّ يغار له ونحن نعرف أن واحد قال لعارف بالله:

أتحسن لمن أساء إليك؟ فقال العارف بالله: أفلا أحسن لمن جعل الله في جانبي؟

ولنعد الآن إلى غيظ الكافرين من المؤمنين، إن غيظ الكافر ناتج من أن خصمه المؤمن يحب له الإيمان وليس في قلبه ضغينة بينما الكافر يغلي من الحقد، وبسبب هذا الأمر يكاد يفقد صوابه؛ لذلك يقول الحق: ﴿ وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ الأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ ﴾.

و " خلوا " المقصود بها. أن الكافرين إذا ما أصبحوا في مجتمع كفرى وليس معهم مسلم أعلنوا الغيظ من المؤمنين، ولقد فعلوا هذا الأمر – عض الأنامل من الغيظ – في غيبة الإيمان والمؤمنين بالله، لو كان عند هؤلاء الكافرين ذرة من تعقل لفكروا كيف فضحهم القرآن، وهم الذين ارتكبوا هذا الفعل بعيدا عن المؤمنين؟

ألم يكن لتفكيرهم أن يصل إلى أن هناك ربًّا للمؤمنين يقول الخافيَ من الأمور لرسوله، ويبلغها الرسول للمؤمنين.

لكنهم مع ذلك لم يفهموا هذا الفضح لهم ﴿ وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ الأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ ﴾ وهنا ينبغي أنْ نفهم أنَّ هناك أمراً قد يغيظ، ولكن الإنسان قد يجبن أن ينفث غيظه، فإذا غاظك أحد فقد تذهب إليه وتنفعل عليه، أو قد تنفعل على نفسك وذلك هو ما يسمى بـ " تحويل النزوع ". فالغاضب يمتلئ بطاقة غضبية، ومن يغضب عليه قد يكون قويا وصاحب نفوذ، فيخاف أن ينفعل عليه، فينفث الغاضب طاقة غضبه على نفسه بأن يعض على أنامله، وما دامت المسألة هكذا، فقد قال الحق:

﴿ قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ [آل عمران: ١١٩]

ومعنى ذلك أن إغاظة المؤمنين لكم أيها الكافرون ستستمر إلى أن تموتوا من الغيظ؛ لذلك فلا طائل من محاولتكم جذب المؤمنين إلى الكفر: ﴿ قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ ﴾.

ونحن قد عرفنا أنه ساعة يؤمر الإنسان بشيء ليس في اختياره – لأن الموت ليس في اختيارهم – وأن يختار بينه وبين شيء في اختياره كالغيظ، فمعنى ذلك أن الأمر قد صدر إليه ليظل أسير الأمر الذي يقدر عليه وهو الغيظ حتى يدركه الموت.

وعندما يقول الحق: ﴿ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ ﴾ فهذا يعني أن الكافرين لن يستطيعوا الموت، ولكن سيظلون في حالة الغيظ إلى أن يموتوا؛ لأنهم لايعرفون متى يموتون، وهكذا يظلون على حالهم من الغيظ من المؤمنين وما دام الكافرون في حالة غيظ من المؤمنين فهذا دليل على أن المؤمنين يطبقون منهجهم بأسلوب صحيح.

وفي هذه الآية بشارة طيبة للمؤمنين ونذارة مؤلمة للكافرين ﴿ قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ إن الحق يعلمنا أنه عليم بذات الصدور، أي بالأمور التي تطرأ على الفكر، ولم تخرج بعد إلى مجال القول. وهو سبحانه القائل: ﴿ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ﴾[آل عمران: ١١٨]

وما دام هو الحق العليم بما تخفي الصدور فهو قادر ليس فقط على الجزاء بما يفعلونه من عمل نزوعي ولكنه قادر على أن يجازيهم أيضا بأن يفضح الأعمال غير النزوعية الكامنة في صدروهم، وبعد ذلك يقول سبحانه: ﴿ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُواْ بِهَا وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لاَ يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً... ﴾

(١) ".

"

والحق سبحانه وتعالى يؤرخ للإيمان تأريخا صادقا أمينا، فالقرآن لم يتحامل على أهل الكتاب لأنهم عاندوا رسول الله وواجهوا دعوته وصنعوا معه كل ما يمكن أن يحبط الدعوة ويقضي عليها.

إن القرآن يقول: في شأن بعض منهم منصفا لهم: ﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ ﴾ وهذا اسمه - كما قلنا - صيانة الاحتمال. فساعة يقول الحق: ﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ ﴾ ، ساعة ينزل هذا الكلام، فيسمعه بعض من أهل الكتاب الذين انشغلوا في أعماقهم بتصديق الرسول، ويعرضون قضية الإيمان على نفوسهم، فإذا ما كانوا كذلك ماذا يكون موقفهم وهم الذين يفكرون في أمر الإيمان بما جاء به محمد؟ إنهم عندئذ يقولون لأنفسهم: هذه مسألة في أعماقنا، فمن الذي أطلع محمداً عليها؟ إن ذلك دليل على أن محمداً لا ينطق عن الهوى، وأن الله يعلمه بما في نفوسنا مما لم يبرز إلى حيز الوجود، وما دام الحق يخبره بما لم يخرج إلى حيز الوجود فلابد أنه صادق. فإن كانت الآية قد قيلت بعد أن آمنوا فلن يكون لها هذا الوقع.

إذن فلابد أن هذا القول تبشير بأن كثيراً من أهل الكتاب يفكرون في تصديق الرسول الله في البلاغ من الله، وهم بصدد أن يؤمنوا. فقول الله ذلك يجعل العملية الإيمانية في نفوسهم مصدقة، لأنهم يقولون: إنّ الرسول الذي يقول ذلك هو مبلغ عن إله يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور.

ويقول الحق من بعد ذلك: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ... ﴾.

(٢) ".

"

ونعرف أن هذا هو الحوار الذي سوف يدور بين الحق وبين عيسى ابن مريم عليه السلام يوم يجمع الحق سبحانه وتعالى الرسل:﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ قَالُواْ لاَ عِلْمَ لَنَآ إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ ﴾[المائدة: ١٠٩].

وقد يقول قائل: ولماذا جاء الحق سبحانه وتعالى بهذا الحوار في صيغة الفعل الماضي؟: ﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ ياعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ ﴾ [المائدة: ١١٦].

---

(١) تفسير الشعراوي، المؤلف غير معروف ص/٥١٠

(٢) تفسير الشعراوي، المؤلف غير معروف ص/٥٩٠

وكلنا يعرف أن لكل حدث زمناً ومكاناً. وزمان الحدث هو يوم القيامة. ومكان هذا الحدث في ساحة المشهد والحشر، وسبحانه هو خالق كل زمن وكل مكان، وله أن يتحدث عن أي أمر بأي صيغة شاء، سواء أكانت صيغة الماضي أم الحاضر أم المستقبل، فقد أوجد كل شيء من ماضٍ وحاضرٍ ومستقبل، وبيده أمر كل ما خلق ومن خلق. وهو أزلي قيوم، أما نحن بنو الإنسان فأمر الزمن يختلف، الزمن بالنسبة لأفعالنا هو واحد من ثلاثة؛ ماضٍ: أي أن يكون الحدث قد وقع قبل أن أتكلم؛ مثل قولي " قابلني زيد " ، ومعنى ذلك أن الفعل قد تم وصار محققاً.

وحاضر: أي أن يكون الحدث في حالة وقوعه، أي يحصل الآن مثل قولي: " يقابلني زيد " وأنت تقصد الحال أي أنه يقابلني الآن.

إن معنى ذلك أن العين ترى زيداً وليس مع العين أين. ومستقبل: أي أن يكون الحادث سوف يقع مقولي: " سيقابلني زيد ". وهنا لا يملك الإنسان نفسه أن يحدث منه الحدث، ولا يملك ألا يقع على الإنسان الذي سوف يقابله أمرٌ قد يمنعه من إتمام الحدث، ولا يملك الإنسان أن يظل السبب للمقابلة قائماً. إذن فمع المستقبل لا يصح للإنسان أن يحكم بشيء، لأنه لا يملك أي عنصر من عناصر الحدث. والذي يملك هذا هو الحق سبحانه وتعالى وحده. ولذلك يعلمنا القرآن شرف الصدق في الكلمة بقوله تعالى:﴿ وَلاَ تَقْولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذالِكَ غَداً * إِلاَّ أَن يَشَآءَ اللَّهُ ﴾[الكهف: ٢٣-٢٤].

وعلى الإنسان أن يحترم قدرته المحدودة، وان يتذكر دائماً قدرة الحق سبحانه وتعالى عليه. وهذا لا يعني أن الحق سبحانه يمنعنا من التخطيط للمستقبل، لا، بل يطلب منا أن نخطط وأن ندرس كل الاحتمالات، وعلينا أن نقول: " إن شاء الله "؛ لأننا بذلك نقدم مشيئة من يملك كل أمر وهو الله - سبحانه وتعالى-.

وقد حاول بعض المستشرقين من أعداء الإسلام أن ينفذوا بسمومهم إلى عقول المسلمين بالتساؤل عن عدم ترتيب الأفعال على نسق حدوثها في بعض من آيات القرآن، فقال قائل منهم: كيف يقول الحق - سبحانه -:

﴿ أَتَىا أَمْرُ اللَّهِ فَلاَ تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىا عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾[النحل: ١].

وهذا خبر عن يوم القيامة فكيف يأتي به الله على صيغة الماضي، ثم يقول بعد ذلك: ﴿ فَلاَ تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾؟ واستعجال الشيء لا يكون إلاّ إذا لم يكن قد حدث، فكأن في الكلام تناقضاً، ذلك لأنه يقول: أتى، ويقول بعد ذلك: فلا تستعجلوه؟

ونقول: إن الذي يتكلم هو الحق سبحانه وتعالى وليس إنساناً مثلك محكوماً بأزمانه. بل المتكلم هو صاحب كل الأزمان وخالقها. وعندما يقول سبحانه: ﴿ أَتَىا أَمْرُ اللَّهِ ﴾ فمعنى ذلك أن أمر الله آتٍ لا محالة، لأنه لا قدرة تخرج مراده على ألاّ يكون. وأي فعل من الحق سبحانه وتعالى إنما يتجرد عن ملابسات الزمان وعن ملابسات المكان، فإن كنا نقرأ على سبيل المثال قوله تعالى:﴿ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً ﴾[النساء: ١٠٠].

فليس معنى ذلك أن مغفرة الله ورحمته قد مضى زمانها وانقضى وقتها. ولكن لنقل: كان الله غفوراً رحيماً ولا يزال غفوراً رحيماً، فسبحانه وتعالى غفور ورحيم قبل أن يوجد من يغفر له ويرحمه، ومن باب أولى يكون غفورا رحيما بعد أن يوجد من يستحق المغفرة والرحمة. وسبحانه منزه عن أن تعتريه الأحداث فيتغير؛ لأن الزمن مخلوق من الله، فلا تقل متى أو

أين؛ لأنهما به وجدا. والحق يأتي بالماضي لأنه متحقق الوقوع، ليثبت حدوث أمر لم يحدث بعد، ذلك لأن الله إذا قال عن شيء إنه سيحدث فلا بد أن يحدث.

ويؤكد الحق سبحانه في أي كلام من عيسى ابن مريم على أنه " ابن مريم " وهنا يسأل الحق عيسى – عليه السلام -: ﴿ أَأَنتَ قُلتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ ﴾ ونعرف أن السؤال إنما يأتي دائماً على وجهين: إما سؤال يعرف به السائل ما كان يجهله فيريد أن يعلمه من المسئول، كقول القائل: أقابلك فلان أمس؟ وإما أن يأتي السؤال لا ليعلم السائل من المسئول، ولكن ليقرر السائل المسئولَ.

ومثال ذلك – ولله المثل الأعلى – يسأل التلميذ أستاذه ليتعلم منه وليخبره الأستاذ بعلم جديد وخبر جديد. وأيضاً يسأل الأستاذ التلميذ ليقرره بالحقيقة ويوافقه عليها لتستقر لدى التلميذ. وسؤال الله عيسى من النوع الأخير؛ ليكون ذلك حجة على من قال بألوهية عيسى أو بنوته لله. وحاول بعض المستشرقين أن يشككوا في القرآن فقالوا: إن هناك تناقضاً في القرآن – والعياذ بالله – واستندوا على ذلك بقول الحق:﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَّسْئُولُونَ ﴾[الصافات: ٢٤].

أي أن الحق يقرر أن كل كائن مسئول عما يفعل ويعتقد، ولكنه سبحانه يقول في موضع آخر من القرآن الكريم:﴿ فَيَوْمَئِذٍ لاَّ يُسْأَلُ عَن ذَنبِهِ إِنسٌ وَلاَ جَآنٌّ ﴾[الرحمن: ٣٩].

فهل معنى ذلك أنهم لن يُسألوا؟ لا، بل سوف يُسألون ليقرروا ما فعلوا لا ليعلم الله منهم ما فعلوا، فهو سبحانه عليم بكل شيء.

وهؤلاء المستشرقون لا يعلمون أن السؤال يرد عند العرب على وجهين، وجه ليعلم السائل، ووجه ليقرر المسئول، وسؤال الحق للناس يوم القيامة ليقرروا ما فعلوا وكان منهم؛ لأن الإقرار سيد الأدلة، وليس سؤال الحق سبحانه هو سؤال من يرغب في أن يعلم فسبحانه عليم بكل شيء، وعلى الإنسان أن يحتفظ بالمقام الذي وضعه فيه ربه، وكذلك كان عيسى ابن مريم. وكذلك يكون سؤال الله لعيسى، إنه لتقريع وتأنيب وتوبيخ من قالوا عن عيسى ما لم يبلغهم إياه.

إن عيسى عليه السلام لم يبلغهم ولم يطلب منهم أن يتخذوه هو وأمه إلهين من دون الله؛ لأن عيسى ابن مريم، إنما يبلغ ما أُوحي إليه من ربه فقط، ولهذا تأتي إجابة عيسى رداً على أي تَزَيُّد من الأتباع: ﴿ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ﴾ وساعة نسمع ﴿ سُبْحَانَكَ ﴾ فلنعرف أنها إجمال التنزيه لله، وهو تنزيه أن يشابهه خلق من خلق الله، فلله وجود، وللإنسان وجود، ولكن إياك أيها الإنسان أن تقول: إن وجودي كوجود الله؛ لأن وجود الله ذاتي، ووجودك غير ذاتي وكل ما فيك موهوب لك من الله؛ لذلك فلا غناك مثل غنى الله، بل غناه ذاتي وغناك موهوب منه سبحانه، ولا أي صفة من صفاتك كصفات الله، فله سبحانه مطلق القدرة والقوة، وعليك أن تأخذ كل شيء يتعلق بالله في نطاق " سبحانه " " وليس كمثله شيء ".

وكذلك يكون تنزيه عيسى لربه وخالقه: ﴿ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ﴾ فعيسى ابن مريم يعلم أن الرسول المصطفى من الله ليس له أن يقول إنه إله. ويرد عيسى على ذلك بقضية متفق عليها: ﴿ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ ﴾ لأن الكل متفق على أن الله يعلم كل ما يبدر من العباد من سلوك وأقوال وأفعال ﴿ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي

الصُّدُورُ ﴾. والكل يعلم ارتفاع الحق وتنزهه عن أن يوجد له معلوم جديد لم يعلمه من قبل. والكل يعلم – كذلك – أن الله يعلم خفايا الصدور؛ لذلك يقول عيسى: ﴿ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلاَ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ﴾ ويقرر أن الحق العليم بكل شيء يعلم أن ذلك لم يخطر له على بال، وهذه هي العلة في إيراد ثلاث صور في هذه الآية.

الصورة الأولى هي قوله سبحانه وتعالى: ﴿ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ﴾ وهذا تنزيه من عيسى لربه، والصورة الثانية هي قول عيسى: ﴿ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ ﴾ ، والصورة الثالثة هي: ﴿ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلاَ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ﴾. إذن فلا شيء من عند عيسى، وقد يسأل سائل: وماذا يكون في النفس؟ الذي يكون في النفس هو ما أَسِرُّ به ولم يظهر؛ لأن النفس تُطلق مرة ويراد بها الذات التي تضم الروح والجسد معا، وعندما تُطلق على ذات الله فنحن ننزهها عن أن تكون أبعاضاً، ولكنها ذاته المأخوذة في نطاق التنزيه.

والمثال هو قول الحق:﴿ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىا نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ﴾[الأنعام: ٥٤].

وهكذا يكون فهمنا لمجيء كلمة " نفس " منسوبة لله، إنه المنزه أن يكون مثلنا، فلله وجه ولنا وجه، ولكن وجه الله نفهمه في نطاق ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ وكذلك يد الله وكذلك كل صفات الله. ونعلم أن لله أسماء أعلمنا ببعضها، وعَلَّم بعضاً من خلقه بعضها، واستأثر ببعضها لذاته. وهناك بعض من الصفات لله تأتي لمجرد المشاكلة، كقول الحق:﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ ﴾[النساء: ١٤٢].

ولا نقول أبداً: إن الله مخادع، ولكن الصفة هنا جاءت للمشاكلة لذكرها في مقابلة يخادعون الله. ولذلك لا نأخذ منها اسماً لله، بل إنه جاء للرد على ما يبدو من أعداء الله.

ويختم عيسى ابن مريم قوله: ﴿ إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ ﴾ هي مبالغة في ذات الحدث، ومبالغة في تكرير الحدث، فهو سبحانه يعلم غيب كل واحد من خلقه وغيب كل ما في كونه، وهكذا جاء القرآن برد عيسى عليه السلام وهو رد يستوعب كل مجالات الإنكار على الذين قالوا مثل هذا القول:

ويتابع القرآن على لسان سيدنا عيسى عليه السلام ما يناقض ما قاله بعض من أتباعه فيقول: ﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ... ﴾

". (١)

"

وساعة ترى " هو " هذه فاعرف أنها تَرُدّ وتجيب على ما يمكن أن يقال، فهناك من يقول: أنا سوف أرى تصرفات فلان، ولأنك من البشر فمهما علمت عنه فأنت محدود الإدارك؛ لأنك سترى تصرفات فقط، ولن ترى انفعالات قلبه وتقلبات عقله، ولكن الحق سبحانه وتعالى هو الأعلم؛ لأن الميزان كله عنده، إنه يدرك الظاهر والباطن، وهو سبحانه يقول

---

(١) تفسير الشعراوي، المؤلف غير معروف ص/٧٧٨

هنا: " أعلم " وهناك " عليم " ، و " العليم " هو من يرى ظاهر الأمر ويحيط به، لا الخافي منه، أما الذي يرى الظاهر والخفي فهو أعلم.

ولذلك كان النبي صلى الله عليه وسلم في مسائل كثيرة يعامل الناس بعلانيتهم، ويترك سرائرهم إلى الله. " وعندما قتل مسلم رجلاً أعلن الإسلام، سأله صلى الله عليه وسلم لماذا؟، قال: لأنه أعلن الإسلام نفاقاً. فقال صلى الله عليه وسلم: أشققت عن قلبه؟! "

وسبحانه وتعالى " أعلم "؛ لأنه يعلم الظاهر والباطن، ويعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور.

ويقول الحق:

﴿ فَكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ * وَمَا لَكُمْ أَلاَّ تَأْكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلاَّ مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيراً لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ ﴾

ما الذي أدخل هذه المسألة في هذا السياق؟ لقد تكلم الحق عن أن هناك أعداء لكل نبي يلتمسون ثغرة في منهجه ليتكلموا فيها، وهذه هي مهمتهم التي هيأها الله لهم، فحين يقولون الاعتراضات نجد المنهج يرد عليهم وبذلك تنتفع الدعوة إلى أن تقوم الساعة.

مثال ذلك نجد الجماعة الذين عارضوا رسول الله صلى الله عليه وسلم في الإسراء والمعراج، فحين قال لهم: أنني أسرى بي إلى المسجد الأقصى وعرج بي إلى السماء في ليلة واحدة، التمسوا له ثغرة لينفذوا منها ويضللوا غيرهم وقالوا له: أتدّعي أنك أتيتنا في ليلة ونحن نضرب إليها أكباد الإبل شهراً؟!! لكنْ أبو بكر الصديق قال: إن كان قال فقد صدق، وهذا هو الإيمان الذي يحسن استقبال الأمر المخالف للنواميس. ويجادلون أبا بكر، فيقول: أنا صدقته في خبر السماء فكيف أكذبه في ذلك، مادام قال فقد صدق، وهذا كلام منطقي.

لكنَّ المعارضين لرسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا: أتدّعي أنك أتيتها في ليلة، ونحن نضرب إليها أكباد الإبل شهراً! فأعطى صلى الله عليه وسلم لهم الأمارات ووصف لهم العير التي في الطريق، وغير ذلك من العلامات التي تجعل من الأمر حجة إلى يوم القيامة، ولو مرّت مسألة الإسراء والمعراج من غير أن يعترض أحد من الأعداء، لما وجدنا الحرارة في تصديقها.

إننا نجد حالياً من يقول: وهل من المعقول أنه صلى الله عليه وسلم راح إلى بيت المقدس وجاء في ليلة؟ لابد أن ذلك كان حلماً. لو لم يقولوا هم هذا ما كنا عرفنا الرد؛ إنما هم قالوها حتى نعرف الرد ويظل الرد رادعاً إلى أن تقوم الساعة، وهذه هي المهمة التي جعلها الله للأعداء؛ لأنه صلى الله عليه وسلم لو قال لهم: إنني حلمت أني رحت بيت المقدس. أكان هناك من يعترض على أن يحلم النبي حتى ولو قال: إنه ذهب إلى آخر المعمورة إنه لا يجرؤ واحد أن يكذبه، لكنهم ما داموا قد كذبوه، ورفضوا تصديق الإسراء فهذا دليل على أنهم فهموا من الذهاب أنه ليس ذهاب رؤيا وإنما ذهاب قالب، لقد فهموا عنه أنه انتقل بجسده من مكة إلى بيت المقدس، ولذلك كذبوه، وهذا التكذيب منهم ينفعنا الآن، لنردَّ به على المكذبين المعاصرين.

إذن فوجد الأعداء يهيج القرائح التي يمكن أن نرد على أية شُبَهٍ يثيرها أي إنسان سواء أكان ماضياً أم معاصراً.

والحق هنا يقول: ﴿ فَكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ ﴾ [الأنعام ١١٨]

هذه الآية لها قصة توضح كيف يحاول الأعداء اصطياد الثغرات لينفذوا منها، وقالوا: يقول النبي لكم: إن الميتة لا يحل أن تأكلوا منها، وما تذبحونه بأيديكم كلوا منه، والذبح لون من الموت، هذه هي الشبهة التي قالوها، وهي أولاً مغالطة في الأساليب؛ لأن الميتة غير المذبوحة وغير المقتولة. فالمذبوحة إنما ذبحناها لنطهرها من الدم؛ لذلك فالمناقشة الفقهية أو العلمية تهزم قولهم؛ لأن هناك فرقاً بين الموت والقتل. فالموت هو أخذ للحياة بدون سلب للبنية، إنما القتل هو سلب للبنية أولاً فتزهق الروح ويبقى الدم في الجسم. ثم هل يأخذ المشرع وهو الرب الأعلى الحكمة منّا أو أن الحكمة عنده هو وحده؟.

وقد تبين لنا في عصرنا أن غير المؤمنين بدأوا في الاهتداء إلى أن الميتة فيها كل الفضلات الضارة، واهتدوا إلى إزالة كل الفضلات الضارة من الحيوانات التي يريدون أكلها؛ لأن تكوين جسم الحيوان يتشابه مع تكوين جسم الإنسان، فهو يأكل ويهضم ويمتص العناصر الغذائية ليتكون الدم والطاقة، وفي الجسد أجهزة تصفي وتنقي الجسم من السموم الضارة، فَالكُلْية مثلاً تصفّي الدم من البولينا وغيرها، ويسير الدم ليمر على الرئة ليأخذ الأوكسيجين، وكل ذلك لتخليص الجسد من الفضلات الضارة، وأوعية الدم في الإنسان والحيوان فيها الدم الصالح والدم الفاسد، والدم الفاسد هو الذي لم تتم تنقيته، وعندما نذبح الذبيحة ينزل منها الدم الفاسد وغيره، أي أننا ضحينا بالدم الصالح في سبيل وقايتنا من الدم الفاسد. لكنها إن ماتت دون ذبح؛ فآثار الدمين الاثنين موجودة. وكذلك آثار الفضلات التي كان يجب أن يتخلص منها، وهذا ما نفعله في هذا الأمر، لكن هل لنا مع الحق سبحانه وتعالى تعقل في شيء إلا في توثيق الحكم والاطمئنان إلى مجيئه منه جلت قدرته؟

كان جدلهم انهم قالوا: أنتم تأكلون ما قتلتم ولا تأكلون ما قتل الله، فأنتم تظنون أنفسكم أحسن من الله، وهذا افتراء منهم.

ثم إن الحيوان حين يموت لم يذكر عليه اسم الله، لكن الذبيحة التي نذبحها نذكر عليها اسم الله، فكأن الحق سبحانه وتعالى يوضح: فكلوا مما ذكر اسم الله عليه. أي غير الميتة وغير ما يذبح للأصنام. ﴿ فَكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ ﴾ [الأنعام ١١٨]

إنَّ تلقي أي حكم من الحق، لا يصح أبداً أن نبحث عن علته أولاً ثم نؤمن به، بل علينا بعد أن نثق بأنه من الله الذي آمنا به. علينا إذن أن نأخذ الحكم الذي أمر به الله.

﴿ وَمَا لَكُمْ أَلاَّ تَأْكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلاَّ مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيراً لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ ﴾ [الأنعام: ١١٩]

وللآيتين– كما علمنا– سبب نزلتا من أجله وهو أن بعض المعارضين لرسول الله الذين يقفون من الدعوة موقف التكذيب والعمل على إبطالها والقضاء عليها، كانوا يُشيعون عند المؤمنين إشاعات قد تفت في عضدهم العقدي فعرضوا هذه المسألة وهي في ظاهرها تشكيك. وهم قد عرضوا القضية بهذا الشكل غير المتسق؛ لأن من الذي قتل؟ لقد قالوا: إن

الميتة قتلها الله، فهل الله هو الذي قطع رقبتها؟ وهل ضربها الله على رأسها فأمات أصل إدارة الحياة وهو المخ؟ هل صوّب شيئاً إلى قلبها؟ سبحانه جل وعلا منزه عن مثل هذه الأفعال البشرية، فكيف يسمون الموت قتلاً؟ إن تسمية الموت قتلاً هو الخطأ، فقولهم: كيف تبيحون لأنفسكم ما قتلتموه أي بالذبح. ولا تبيحون ما قتله الله أي أماته، فيه مغالطة في عرض القضية، ويريد الله سبحانه وتعالى أن يضع عند المؤمنين مناعة من هذه الهواجس التي يثيرونها؛ فقال: ﴿ فَكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ ﴾ [الأنعام ١١٨]

وما معنى الذكر؟ إنّ عدم تحديد العلماء المعنى المقصود بالذكر، هو الذي أوجد بينهم خلافاً كبيراً. فسيدنا الإمام مالك يرى أنك إذا ذبحت ولم تذكر اسم الله سواء أكنت ناسياً أم عامداً فلا يصح لك ان تأكل من الذبيحة. ويرى الإمام أبو حنيفة: إذا كنت لم تسم ناسياً فكل مما ذبحت، لكن إن كنت عامداً فلا تأكل، والإمام الشافعي- رضي الله عنه- يرى: ما دمت مؤمناً ومقبلاً على الذبح وأنت مؤمن فَكُلْ مما لم تذكر اسم الله ناسياً أو عامداً لأن إيمانك ذكر لله.

ونقول: ما هو الذكر؟ هل الذكر أن تقول باللسان؟ أو الذكر أن يمر الشيء بالخاطر؟ إن كنتم تقولون إنّ الذكر باللسان فلنبحث في الحديث القدسي الذي قاله الله تعالى: " أنا عند ظن عبدي، وأنا معه إذا ذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم. "

إذن فقد سمّي ربنا الخاطر في النفس ذكراً وبذلك يصبح من حق الإمام الشافعي أن يقول ما قال.

لذلك أقول: يجب أن نحدد معنى الذكر أولاً حتى ننهي الخلاف حول هذه المسألة، فليس من المقبول أن نقيم معركة حول معنى " الذكر "؛ لأن الذكر وهو خطور الأمر على البال قد يصحبه أن يخطر الأمر على اللسان مع الخطور على البال، وقد يظل خطوراً على البال فقط، بدليل ما جاء في الحديث السابق.

والمؤمن حين يجد أمامه أشياء كثيرة، قد يوجد شيء جميل وآخر ليس له من الجمال شيء؛ فالجاموسة أقل في الجمال من بعض الحيوانات التي حرم الله أكلها، وأقبل المؤمنون على ذبح الجاموسة ليأكلوا منها. ولم نسمع عن مسلم تقدم إلى حيوان حرم الله أكله ليذبحه، لماذا؟ لأن المؤمن يقبل على ما أحل الله، وهذا الإقبال دليل على أنه ذكر في نفسه المحلل والمحرم وهو الله، إذن اختياره حيواناً للذبح دليل على أنه ذكر الله في النفس أو في القول، وبهذا نتفق على أن ذكر المؤمن يكون في قلبه قال أو لم يقل، وينتهي الخلاف في هذه المسألة. إذن الإمام الشافعي أخذ بهذه المسألة؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم حينما سئل عن أكل المسلم من ذبيحة لا يعرف من ذبحها وهل سمّى أو لم يسمّ، أوضح لمن سأله: سمّ وَكُلْ.

فالإنسان منا لا يحضر وقت الذبح دائماً، ويكفيه أن يستحضر المحلل والمحرم ساعة الأكل. والحق سبحانه وتعالى يوضح لنا: اذكروا اسم الله، وسبحانه يعلم أنك تقبل على أشياء لتفعلها. وهذه الأشياء تنقسم إلى قسمين: قسم يمر على بالك قبل أن تفعله، وقسم لا يمر على بالك، بل تفعله تلقائياً بدون ما يمر على البال، ومثال ذلك الأفعال العكسية كلها التي يفعلها الإنسان إنها لا تمر على باله. فلو حدث أن حاول واحد أن يضع إصبعه في عين آخر، فهذا الآخر يغمض عينيه تلقائياً. ويختلف ذلك عن الفعل الذي تفكر فيه قبل أن تفعله. فالذي يفعل الفعل بعد أن يمر بخاطره هو فعل ذو

بال. ولذلك أراد الرسول عليه الصلاة والسلام ألا يكلفنا عناء أو مشقة؛ فقال: "كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه ببسم الله الرحمن الرحيم أقطع. "

والأمر ذو بال هو الأمر الذي يكون قد خطر على بالك أن تفعله أو لا تفعله.

إذن فالله سبحانه وتعالى لا يكلفنا إلا عند الأمر الذي يمر على الخاطر؛ لأنك حين تقبل على أي فعل فينفعل لك كما تريد، إن هذا من عطاء الله لك، وأنت حين تذبح عجلاً، أو خروفاً، وتتأمل أنت كيف يُقدرك الله على هذا الكائن الحي. وإنك لم تفعل ذلك إلا لتسخير الله كُلَّ الكائنات لك. فباسم الله تذبحه.

إذن هناك أمور كثيرة وأفعال ذات بال تمر عليك ومن حسن الأدب والإيمان أن تقبل عليها باسم الله. ولذلك يخطئ بعض الناس حين يظنون أن الإنسان عندما يذبح حيواناً فهو يؤذيه. لا، بل ذبح هذا الحيوان هو تكملة لمهمته في الحياة؛ لأنه مخلوق لهذا الهدف ومذلل له.

لقد قلنا سابقاً: إن هناك عجيبة من عجائب المزاولات الفعلية، هذه العجيبة أنك حين تأتي إلى الحيوانات التي لم يحلها الله للإنسان، كالحمار مثلا إذا ما تعرضت هذه الحيوانات إلى ما يميتها، كأن التف حول عنقه حبل، واختنق فهو يموت دون أن يمد رقبته إلى الأمام، لكن الحيوان الذي أحله الله للأكل؛ مثل الجاموسة أو الخروف أو العجل، نجد الحيوان من هذه الحيوانات إن اختنق يمد رأسه إلى الإمام، فيقول أهل الريف في مصر: إنه يطلب الحلال، أي الذبح. فلا يسمى ذبح الحيوان اعتداء عليه؛ لأن الحيوان مخلوق لهذه المهمة.

إذن فمعنى كلمة " باسم الله " أي أنني لم أجترئ على هذا العمل إلا في إطار اسم الله الذي أحل لي هذا.

بعد ذلك يقول الحق للمؤمنين: لا تسمعوا كلام الكافرين، ويأتي السؤال الاستنكاري: ﴿ وَمَا لَكُمْ أَلاَّ تَأْكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ ﴾ والمعنى: أي سبب يمنعكم من أن تأكلوا مما ذكر اسم الله عليه؟ وقد فصل لكم ما حرم عليكم، فما ذكر اسم الله عليه ليس من ضمن المحرمات التي نص الله عليها، فربنا سبحانه هو من حلل وحرم. وإن قيل: ما دام قد حرم علينا بعض الأشياء فلماذا خلقت هذه الأشياء؟

ونقول: إن من يفكر بمثل هذا الأسلوب يتناسى أن كل مخلوق من الحيوانات ليس مخلوقاً للأكل، بل لكلٍ حيوان مهمة. وإن ذبحت محرماً، فقد يناقص هذا الفعل مهمته فالخنزير – مثلاً – حرّمه ربنا؛ إن ذبحته فستذهب به بعيداً عن مهمته؛ لأنه مخلوق كي يلم جراثيم الأشياء التي لا تراها العين، فأنت حين تذبحه تخرجه عن مهمته. والحق سبحانه وتعالى هو الذي خلق الإنسان، ويعلم ما يناسبه من غذاء يولد الطاقة ولا يهدر الصحة؛ لذلك حرم وحلل له، وإياك أن تقول: إن الله سبحانه وتعالى لم يحرم إلا الشيء الضار؛ فقد حرم شيئاً غير ضار لأنه يريد بذلك الأدب في: " افعل هذا " و " لا تفعل هذا ".

ولذلك قال الحق سبحانه:﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ ﴾[النساء: ١٦٠]

وفي حياتنا اليومية هل تقول: إن الذين يربون أبناءنا في الجيش بالشدة، يقسون على الأبناء؟ لا، بل إنهم يعدّونهم لمواجهة المهام الشاقة. وأن يتعوّدوا التزام الأدب والطاعة والانضباط، فكذلك حلل الحق ما أراد وحرم ما شاء ليجعل الكون منضبطاً بقدرة الحكيم القادر، فسبحانه يحرم أشياء مثل المخدرات، ونحن في بعض الأحيان نتناولها لنداوي بها الأمراض، فلو أخذها الإنسان من غير مرض أو داعٍ فإنّها تسرق الصحة من بنية الإنسان، وإن أخذها من بعد ذلك للعلاج لا تأتي بالمفعول المطلوب منها. ولذلك نجد من الأطباء من يسأل الإنسان قبل إجراء الجراحات الدقيقة إن كان المريض قد تناول المخدرات أو لا، وذلك حتى يتعرف الأطباء على حقيقة ما يصلح له من ألوان التخدير.

وسبحانه وتعالى قد منع عنا تلك الألوان من مغيبات العقول، لعلنا نحتاج إليها في لحظة الشدة والمرض.

إذن فالحق سبحانه وتعالى قد ربط كل حكم من الأحكام التحليلية والتحريمية بـ " إن كنتم مؤمنين " ، ومعنى " إن كنتم مؤمنين " أي يا من آمنتم بالإله الحكيم الذي لا يأمر إلا بما فيه مصلحتكم، امتنعوا عن مثل تلك الأفعال، وإذا أقبلت على أي شيء مما أحله الله لك فأقبل عليه باسم الله، وسبحانه وتعالى له أسماء علمها لنا، وأنزلها في كتابه، وأسماء علمها لأحد من خلقه، وأسماء استأثر بها في علم الغيب عنده، وهذه الأسماء هي صفات الكمال لله، التي لا توجد في غيره. وحين نستحضر الاسم الجامع لكل صفات الكمال نقول: باسم الله. وتنهي المسألة. وحين ناقش العلماء مسألة التحريم والتحليل، قال بعضهم: إن الحق سبحانه وتعالى قال في أول سورة المائدة:﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ ﴾[المائدة: ٣]

وهنا في سورة الأنعام يقول: ﴿ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ ﴾ [الأنعام: ١١٩]

والمتنبهون من العلماء قالوا: إن سورة المائدة مدنية، ومعنى كونها مدنية أنها نزلت بعد السورة المكية، وسورة الأنعام مكية، وهل يقول الحق في السورة المكية ﴿ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ ﴾ في السورة المدنية؟ وبعض العلماء الذين أعطاهم ربنا نور بصيرة قال: لقد فصل لكم في سورة المائدة وجاء أيضاً في سورة الأنعام فقال:﴿ قُل لاَّ أَجِدُ فِي مَآ أُوْحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً عَلَىا طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلاَّ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَماً مَّسْفُوحاً أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقاً أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[الأنعام: ١٤٥]

أي فصل لك في هذه السورة المكية. وقد يأتي واحد من المولعين بالاعتراض أو من خصوم الإسلام ويقول: لم تذكر الآية كل الأشياء المحرمة لماذا؟

ونقول: القرآن هو الخطوط الأساسية في المنهج، وتأتي السنة بالتفصيل في إطار:

﴿ وَمَآ آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُواْ.. ﴾[الحشر: ٧]

والحق يقول هنا: ﴿ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلاَّ مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ.. ﴾ [الأنعام: ١١٩]

واضطرار هو أمر ملجئ إلى شيء غير الأسباب الكونية المشروعة. ومعنى كونه مضطراً أنه يلجأ إلى شيء فقد أسبابه المشروعة كالذي يريد أن يأكل ليستبقي الحياة، فإذا لم يجد من الحل ما يستبقي به الحياة فهو مضطر. ونقول له: خذ من غير ما أحل الله بالقدر الذي يدفع عنك الضرورة، فكل من الميتة بقدر الضرورة ولا تشبع.

والحق يقول:﴿ فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ.. ﴾[المائدة: ٣]

والمخمصة هي المجاعة. إذن فالاضطرار هو شيء فوق الأسباب المشروعة للعمل. والله سبحانه وتعالى يعطي الإنسان الرخصة في أن يتناول ما حرمه إذا كان مضطراً. ﴿ إِلاَّ مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيراً لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ.. ﴾ [الأنعام: ١١٩]

والذين يضلون بأهوائهم بغير علم هم من أرادوا زراعة الشك في نفوس المسلمين، ومعنى الضلال بالهوى أي أن تكون عالما بالقضية، ولكن هواك يعدل بك عن مراد الحق من القضية. ولذلك يصف الحق رسوله صلى الله عليه وسلم:﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىا ﴾[النجم: ٣]

وحين يقول الحق: ﴿ وَإِنَّ كَثِيراً لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِ ﴾ فمعنى ذلك أنه يوجد ضلال بغير هوى، وهو عدم وصول الإنسان إلى الحقيقة؛ لأنه لا يعرف الطريق إليها، والضلال بالهوى أي أن تكون عندك الحقيقة وأنت عارف بدورها ولكنك تعدل عنها: ﴿ وَإِنَّ كَثِيراً لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ.. ﴾ [الأنعام: ١١٩]

وساعة ترى مجيء متعلق بعد " يضلون " وهو قوله: ﴿ بِأَهْوَائِهِم ﴾ تقول كأن هناك ضلالاً بغير علم، وهو غير مذموم؛ لأن صاحبه لا يعرف الحكم في القضية، وهذا يختلف عن الذي يضل وهو يعرف الحكم، فهذا ضلال بالهوى، وهذا الفهم يحل لنا إشكالات كثيرة أيضاً. و ﴿ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ أي ليس عندهم علم بالقضية وأحكامها.

ويذيل الحق الآية بقوله: ﴿..إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ ﴾ [الأنعام: ١١٩]

وقد أفسح الله في النص القرآني لبعض خلقه الذين يعرفون المهتدى من غير المهتدى، والكثير من الناس لا يعلمون المهتدى من غير المهتدى ولكن إن علموا فالله أعلم.

ويقول الحق بعد ذلك: ﴿ وَذَرُواْ ظَاهِرَ الإِثْمِ.. ﴾

". (١)

"

ويلفتنا سبحانه: أن الذين طلبوا ذلك الإذن بالقعود فضحوا أنفسهم، فقد استأذنوا بعد مجيء الأمر من الله ﴿ انْفِرُواْ خِفَافاً وَثِقَالاً ﴾ ، وكل مؤمن بالله واليوم الآخر – في تلك الظروف – لا يمكن أن يتخلف عن الجهاد في سبيل الله. والمؤمن الحق لن يقدم الأعذار ليتخلف، حتى وإن كانت عنده أعذار حقيقية، بل سيحاول إخفاءها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ليخرج معه مجاهداً بل إنه يسرع إلى الجهاد، حتى ولو كان الله قد أعطاه رخصة بعدم الجهاد.

وهذه الآية – إذن – تحمل التوبيخ للذين استأذنوا، بل وتحمل أكثر من ذلك، فالمؤمن إذا دُعِيَ للجهاد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وبأمر من الله لا يكون تفكيره كالشخص العادي؛ لأن الإنسان في الأمور العادية إذا طُلِبَ منه شيء أدار عقله وفكره؛ هل يفعله أو لا يفعله؟ ولكن المؤمن إذا دُعِي للجهاد في سبيل الله، ومع رسول الله، وبأمر من الله؛ لا يدور في عقله الجواب، ولا تأتي كلمة " لا " على خاطره أبداً، بل ينطلق في طريقه إلى الجهاد.

وكيف يكون الأمر بالخروج إلى القتال صادراً من الله، ثم يتحجج هؤلاء بالاستئذان بعدم الخروج؟

---

(١) تفسير الشعراوي، المؤلف غير معروف ص/٨٩٧

إذن: فمجرد الاستئذان دليل على اهتزاز الإيمان في قلوبهم؛ لأن الواحد منهم في هذه الحالة قد أدار المسألة في عقله، يخرج للجهاد أو لا يخرج، ثم اتخذ قراراً بالتخلف. والغريب أن هؤلاء استأذنوا رسول الله صلى الله عليه وسلم في عدم الخروج، مع أن أمر الجهاد صادر من الله سبحانه وتعالى، ولم تكن المسألة تحتاج إلى أن يأذن لهم الرسول بالتخلف. إلا أنهم كانوا يبحثون عن عذر يحتمون به.

والمثال من حياتنا اليومية أننا نجد أولاد البلد يسخرون من البخيل الذي لا يكرم ضيفه ويدَّعي أنه سيكرمه، فتجده ينادي ابنه ويقول له أمام الضيف: انزل إلى السوق وابحث لنا عن خروف نذبحه للضيف ولا تتأخر فنحن منتظرون عودتك.. وما إن يقول الضيف أدباً منه: لا. تجد البخيل يصرف ابنه. ويتخذ من رفض الضيف أدباً منه: لا. تجد البخيل يصرف ابنه. ويتخذ من رفض الضيف حجة لعدم إكرامه، وكأنه يريد ذلك، ولكن الواقع يقول: إنه لا يريده من أول الأمر.

ونعلم جميعاً أن الإنسان لا يستأذن في إكرام ضيوفه. والمثال: هو إبراهيم عليه السلام عندما جاءته الملائكة في هيئة رجال، وأراد أن يكرمهم فلم يستأذنهم في أن يذبح لهم عجلاً، بل جاء به إليهم مذبوحاً ومشوياً، هذا سلوك مَنْ أراد إكرام الضيف بذبيحة فعلاً، أما مَنْ يريد أن يبحث عن العذر، فهو يتخذ أساليب مختلفة يتظاهر فيها بالتنفيذ، بينما هو في حقيقته لا يريد أن يفعل، مثلما يقال لضيف: أتشرب القهوة أم أنت لا تحبها؟ أو يقال له: هل تريد تناول العشاء أم تحب أن تنام خفيفاً؟ أو يقال: هل تحب أن تنام عندنا أن تنام في الفندق، وهو أكثر راحةً لك؟

وما دام هناك من سأل الرسول: أأخرج معك للقتال أم أقعد، فهذا السؤال يدل على التردد، والإيمان يفترض يقيناً ثابتاً؛ لأن التردد يعني الشك، وهو الذهاب والرجوع على التوالي، وهو يعني أن صاحب السؤال متردد؛ لأن طرفي الحكم عنده سواء.

إذن: فالمؤمنون بالله لا يستأذنون رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا دُعوا إلى الجهاد؛ لأن مجرد الاستئذان في الخروج إلى الجهاد لا يليق بمؤمن.

وقوله تعالى: ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴾ أي: أن الله يعلم ما في صدورهم من تقوى، فهم إنْ خدعوا الناس، فلن يستطيعوا خداع الله؛ لأنه مُطَّلع على ما تُخفي الصدور.

(١) ".

"

فأيْن عاد وثمود وقوم لوط وقوم صالح؟ إذن: فالآية قضية قولية، لها من الواقع ما يُصدِّقها.

وقوله: ﴿ مِن بَعْدِ نُوحٍ.. ﴾ [الإسراء: ١٧]

(١) تفسير الشعراوي، المؤلف غير معروف ص/١٢٦٦

دَلَّ على أن هذا الأخذ وهذا العذاب لم يحدث فيما قبل نوح؛ لأن الناس كانوا قريبي عَهْد بخَلْق الله لآدم ـ عليه السلام ـ كما أنه كان يلقنهم معرفة الله وما يضمن لهم سلامة الحياة، أما بعد نوح فقد ظهر الفساد والكفر والجحود، فنزل بهم العذاب. الذي لم يسبق له مثيل.

قال تعالى:﴿ وَالْفَجْرِ * وَلَيالٍ عَشْرٍ * وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ * وَالَّيلِ إِذَا يَسْرِ * هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِى حِجْرٍ * أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعادٍ * إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ * الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلاَدِ * وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُواْ الصَّخْرَ بِالْوَادِ * وَفِرْعَوْنَ ذِى الأَوْتَادِ * الَّذِينَ طَغَوْاْ فِي الْبِلاَدِ * فَأَكْثَرُواْ فِيهَا الْفَسَادَ * فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ * إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴾[الفجر: ١-١٤]

ولنا وَقْفة سريعة مع هذه الآيات من سورة الفجر، فقد خاطب الحق سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم بقوله:﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴾[الفجر: ٦]

و ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ بمعنى: ألم تعلم؛ لأن النبي لم ير ما فعله الله بعاد، فلماذا عدل السياق القرآني عن: تعلم إلى تَرَ؟

قالوا: لأن إعلام الله لرسوله أصدق من عينه ورؤيته، ومثلها قوله تعالى:﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴾[الفيل: ١]

حيث وُلِد رسول الله في عام الفيل، ولم يكن رأى شيئاً.

وفي آيات سورة (الفجر) ما يدلُّنا على أن حضارة عاد التي لا نكاد نعرف عنها شيئاً كانت أعظمَ من حضارة الفراعنة التي لفتتْ أنظار العالم كله؛ ذلك لأن الحق تبارك وتعالى قال عن عاد:﴿ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلاَدِ ﴾[الفجر: ٨]

أي: لا مثيلَ لها في كل حضارات العالم، في حين قال عن حضارة الفراعنة:﴿ وَفِرْعَوْنَ ذِى الأَوْتَادِ ﴾[الفجر: ١٠] مجرد هذا الوصف فقط. وقوله تعالى: ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ.. ﴾ [الإسراء: ١٧]

كَمْ: تدل على كثرة العدد.

والقرون: جمع قرن، وهو في الاصطلاح الزمني مائة عام، ويُطلَق على القوم المقترنين معاً في الحياة، ولو على مبدأ من المبادئ، وتوارثه الناس فيما بينهم.

وقد يُطلَق القرن على أكثر من مائة عام كما نقول: قرن نوح، قرن هود، قرن فرعون. أي: الفترة التي عاشها.

وقوله: ﴿ وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً.. ﴾ [الإسراء: ١٧]

أي: أنه سبحانه غنيّ عن إخبار أحد بذنوب عباده، فهو أعلم بها، لأنه سبحانه لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء:﴿ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴾[غافر: ١٩]

فلا يحتاج لِمَنْ يخبره؛ لأنه خبير وبصير، هكذا بصيغة المبالغة.

وهنا قد يقول قائل: طالما أن الله تعالى يعلم كل شيء ولا تخفى عليه خافية، فلماذا يسأل الناس يوم القيامة عن أعمالهم؟

نقول: لأن السؤال يَرِدُ لإحدى فائدتين:

الأولى: كأنْ يسألَ الطالب أستاذه عن شيء لا يعلمه، فالهدف أنْ يعلم ما جهل.

والأخرى: كأن يسأل الأستاذ تلميذه في الامتحان، لا ليعلم منه، ولكن ليقرره بما علم.

وهكذا الحق سبحانه ـ ولله المثل الأعلى ـ يسأل عبده يوم القيامة عن أعماله ليقرره بها، وليجعله شاهداً على نفسه، كما قال:﴿ اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً ﴾[الإسراء: ١٤]

وقوله تعالى: ﴿ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ.. ﴾ [الإسراء: ١٧]

كما تقول: كفى بفلان كذا، أي: أنك ترتضيه وتثقُ به، فالمعنى: يكفيك ربك فلا تحتاج لغيره، وقد سبق أنْ أوضحنا أن الله تعالى في يده كل السلطات حينما يقضي: السلطة التشريعية، والسلطة القضائية، والسلطة التنفيذية، وهو سبحانه غنيّ عن الشهود والبينة والدليل.

إذن: كفى به سبحانه حاكماً وقاضياً وشاهداً. ولأن الحق سبحانه خبير بصير بذنوب عباده، فعقابه عَدْل لا ظلمَ فيه.

ثم يقول الحق سبحانه: ﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا مَذْمُوماً مَّدْحُوراً ﴾.

(١) ".

"وقوله:(لا ظلم اليوم) يقول: لا بخس على أحد فيما استوجبه من أجر عمله في الدنيا، فينقص منه إن كان محسنا، ولا حمل على مسيء إثم ذنب لم يعمله فيعاقب عليه(إن الله سريع الحساب) يقول: إن الله ذو سرعة في محاسبة عباده يومئذ على أعمالهم التي عملوها في الدنيا؛ ذكر أن ذلك اليوم لا ينتصف حتى يقيل أهل الجنة في الجنة، وأهل النار في النار، وقد فرغ من حسابهم، والقضاء بينهم.القول في تأويل قوله تعالى : ﴿ وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع (١٨) يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور (١٩) والله يقضي بالحق والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء إن الله هو السميع البصير (٢٠) ﴾يقول تعالى ذكره لنبيه: وأنذر يا محمد مشركي قومك يوم الآزفة، يعنى يوم القيامة، أن يوافوا الله فيه بأعمالهم الخبيثة، فيستحقوا من الله عقابه الأليم.وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل.* ذكر من قال ذلك:حدثني محمد بن عمرو، قال: ثنا أبو عاصم، قال: ثنا عيسى، وحدثني الحارث، قال: ثنا الحسن، قال: ثنا ورقاء جميعا عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد، في قول الله:(يوم الآزفة) قال: يوم القيامة.حدثنا بشر، قال: ثنا يزيد، قال: ثنا سعيد، عن قتادة(وأنذرهم يوم الآزفة) يوم القيامة.حدثنا محمد، قال: ثنا أحمد، قال: ثنا أسباط، عن السدي(وأنذرهم." (٢)

---

(١) تفسير الشعراوي، المؤلف غير معروف ص/٢٠٣٠

(٢) تفسير الطبري، المؤلف غير معروف ٢١/٣٦٧

"(يعلم خائنة الأعين) إذا نظرت إليها تريد الخيانة أم لا(وما تخفي الصدور) إذا قدرت عليها أتزني بها أم لا؟ قال: ثم سكت، ثم قال: ألا أخبركم بالتي تليها؟ قلت نعم، قال:(والله يقضي بالحق) قادر على أن يجزي بالحسنة الحسنة، وبالسيئة السيئة(إن الله هو السميع البصير) قال الحسن: فقلت للأعمش: حدثني الكلبي، إلا أنه قال: إن الله قادر على أن يجزي بالسيئة السيئة، وبالحسنة عشرا. وقال الأعمش: إن الذي عند الكلبي عندي، ما خرج مني إلا بحقير.حدثني محمد بن عمرو، قال: ثنا أبو عاصم، قال: ثنا عيسى؛ وحدثني الحارث، قال: ثنا الحسن، قال: ثنا ورقاء جميعا، عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد(يعلم خائنة الأعين) قال: نظر الأعين إلى ما نهى الله عنه.حدثنا بشر، قال: ثنا يزيد، قال: ثنا سعيد، عن قتادة، قوله:(خائنة الأعين) : أي يعلم همزه بعينه، وإغماضه فيما لا يحب الله ولا يرضاه.وقوله:(والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء) يقول: والأوثان والآلهة التي يعبدها هؤلاء المشركون بالله من قومك من دونه لا يقضون بشيء، لأنها لا تعلم شيئا، ولا تقدر على شيء، يقول جل ثناؤه لهم: فاعبدوا الذي يقدر على كل شيء، ولا يخفى عليه شيء من أعمالكم، فيجزي محسنكم بالإحسان، والمسيء بالإساءة، لا ما لا يقدر على شيء ولا يعلم شيئا، فيعرف المحسن من المسيء، فيثيب المحسن، ويعاقب المسيء.وقوله:(إن الله هو السميع البصير) يقول: إن الله هو السميع لما تنطق به ألسنتكم أيها الناس، البصير بما تفعلون من الأفعال، محيط بكل ذلك محصيه عليكم، ليجازي جميعكم جزاءه يوم الجزاء.واختلفت القراء في قراءة قوله:(والذين يدعون من دونه) فقرأ ذلك عامة قراء المدينة:"والذين تدعون من دونه" بالتاء على وجه الخطاب. وقرأ ذلك عامة قراء الكوفة بالياء على وجه الخبر.." (١)

"@ ١١٢ @ ١٦ - ! ٢ " بارزون " ٢ ! من قبورهم ! ٢ " لا يخفى على الله " ٢ ! من أعمالهم شيء أو أبرزهم جميعاً لأنه لا يخفى عليه شيء من خلقه ! ٢ " لمن الملك اليوم " ٢ ! يقوله الله - تعالى - بين النفختين إذا لم يبق سواه فيجيب نفسه فيقول ! ٢ " لله الواحد القهار " ٢ ! لأنه بقي وحده وقهر خلقه ، أو يقوله الله في القيامة والخلائق سكوت فيجيب نفسه ، أو تجيبه الخلائق كلهم مؤمنهم وكافرهم فيقولون : لله الواحد القهار . قاله ابن جريج . ^ (وأنذرهم يوم الأزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع (١٨) يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور (١٩) والله يقضي بالحق والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء إن الله هو السميع البصير (٢٠)) ^ ١٨ - ! ٢ " يوم الآزفة " ٢ ! حضور المنية ، أو القيامة لدنوها ! ٢ " إذ القلوب " ٢ ! النفوس بلغت الحناجر عند حضور المنية ، ' أو القلوب تخاف في القيامة ' فتبلغ الحناجر خوفاً فلا هي تخرج ولا تعود إلى أماكنها . ! ٢ " كاظمين " ٢ ! مغمومين ، أو باكين ، أو ساكتين والكاظم الساكت على امتلائه غيظاً ، أو ممسكين بحناجرهم من كظم القربة وهو شد رأسها ! ٢ " حميم " ٢ ! قريب ، أو شفيق ! ٢ " يطاع " ٢ ! يجاب إلى الشفاعة سمى الإجابة طاعة لموافقتها إرادة المجاب . ١٩ - ! ٢ " خائنة الأعين " ٢ ! الرمز بالعين ، أو النظرة [١٦٨ / أ] / بعد النظرة أو مسارقة النظر ' ع ' أو النظر إلى ما نُهي عنه ، أو قوله رأيت وما رأى ، أو ما رأيت وقد رأى سماها خائنة

---

(١) تفسير الطبري، المؤلف غير معروف ٣٧٠/٢١

لخفائها كالخيانة ، أو لأن استراق نظر المحظور خيانة . ! ٢ " وما تخفي الصدور " ٢ ! الوسوسة ، أو ما تضمره إذا قدرت عليها تزني بها أم لا ." (١)

"[١٧] ﴿ اليوم تجزى كل نفس بما كسبت ﴾ ، يجزى المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته ، ﴿ لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب ﴾ .[١٨] ﴿ وأنذرهم يوم الآزفة ﴾ ، يعني يوم القيامة سميت بذلك لأنها قريبة إذ كل ما هو آت قريب ، نظيره قوله عز وجل: ﴿ أزفت الآزفة ﴾ ، أي قربت القيامة . ﴿ إذ القلوب لدى الحناجر ﴾ ، وذلك أنها تزول عن أماكنها من الخوف حتى تصير إلى الحناجر ، فهي لا تعود إلى أماكنها وهي لا تخرج من أفواههم فيموتوا ويستريحوا ، ﴿ كاظمين ﴾ ، مكروبين ممتلئين خوفا وحزنا ، والكظم تردد الغيظ والخوف والحزن في القلب حتى يضيق به . ﴿ ما للظالمين من حميم ﴾ ، قريب ينفعهم ، ﴿ ولا شفيع يطاع ﴾ فيشفع فيهم .[١٩] ﴿ يعلم خائنة الأعين ﴾ أي خيانتها وهي مسارقة النظر إلى ما لا يحل . قال مجاهد : نظر الأعين إلى ما نهى الله عنه . ﴿ وما تخفي الصدور ﴾ .." (٢)

"ولفظ الخيانة حيث استعمل لا يستعمل إلا فيما خفي عن المخون، كالذي يخون أمانته، فيخون من ائتمنه إذا كان لا يشاهده، ولو شاهده لما خانه، قال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون ﴾ [الأنفال : ٢٧] ، وقال تعالى : ﴿ ولا تزال تطلع على خآئنة منهم إلا قليلا ﴾ [المائدة : ١٣] ، وقالت امرأة العزيز : ﴿ ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب وأن الله لا يهدي كيد الخائنين ﴾ [يوسف : ٥٢] ، وقال تعالى : ﴿ يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور ﴾ [غافر : ١٩] .وقال النبي صلى الله عليه وسلم لما قام : (أما فيكم رجل يقوم إلى هذا فيضرب عنقه ؟) فقال له رجل : هلا أومضت إلي ؟ فقال : (ما ينبغي لنبي أن تكون له خائنة الأعين) ، قال تعالى : ﴿ ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم إن الله لا يحب من كان خوانا أثيما يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله وهو معهم إذ يبيتون ما لا يرضى من القول ﴾ [النساء : ١٠٧، ١٠٨] ، وفى الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : (آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان) ، وفى حديث آخر : (على كل خلق يطبع المؤمن إلا الخيانة والكذب) ، ومثل هذا كثير .." (٣)

"ودل قوله : ﴿ ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم ﴾ [النساء : ١٠٧] ، أنه لا يجوز الجدال عن الخائن، ولا يجوز للإنسان أن يجادل عن نفسه إذا كانت خائنة؛لها في السر أهواء وأفعال باطنة تخفى على الناس، فلا يجوز المجادلة عنها، قال تعالى : ﴿ يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور ﴾ [غافر : ١٩] ، وقال تعالى : ﴿ وذروا ظاهر الإثم وباطنه ﴾ [الأنعام : ١٢٠] ، وقال تعالى : ﴿ قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن ﴾ [الأعراف : ٣٣] ، وقد قال تعالى : ﴿ بل الإنسان على نفسه بصيرة ولو ألقىمعاذيره ﴾ [القيامة : ١٤، ١٥] ، فإنه يعتذر عن نفسه بأعذار ويجادل عنها،وهو يبصرها بخلاف ذلك،وقال تعالى : ﴿كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا ﴾ [الإسراء : ١٤] وقال تعالى

---

(١) تفسير العز بن عبد السلام موافق للمطبوع، المؤلف غير معروف ص/١٠٢٤

(٢) مختصر تفسير البغوي المسمى بمعالم التنزيل، المؤلف غير معروف ٦/٤٩٠

(٣) مجموع فتاوى ابن تيمية (التفسير)، المؤلف غير معروف ٣/١٨٣

: ﴿ ومنالناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله على ما في قلبه وهو ألد الخصام ﴾ [البقرة : ٢٠٤] .وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : (أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم) ، فهو يجادل عن نفسه بالباطل، وفيه لدد . أي : ميل واعوجاج عن الحق، وهذا على نوعين : أحدهما : أن تكون مجادلته وذبه عن نفسه مع الناس، والثاني : فيما بينه وبين ربه، بحيث يقيم أعذار نفسه ويظنها محقة وقصدها حسنا، وهي خائنة ظالمة، لها أهواء خفية قد كتمتها حتى لا يعرف بها الرجل حتى يرى وينظر، قال شداد بن أوس : إن أخوف ما أخاف عليكم الشهوة الخفية، قال أبو داود : هى حب الرياسة .." (١)

"القول في تأويل قوله تعالى :﴿ يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور * والله يقضي بالحق والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء إن الله هو السميع البصير * أو لم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم كانوا هم أشد منهم قوة وآثارا في الأرض فأخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق * ذلك بأنهم كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فكفروا فأخذهم الله إنه قوي شديد العقاب * ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين * إلى فرعون وهامان وقارون فقالوا ساحر كذاب * فلما جاءهم بالحق من عندنا قالوا اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه واستحيوا نساءهم وما كيد الكافرين إلا في ضلال ﴾ [١٩ - ٢٥] . : ﴿ يعلم خائنة الأعين ﴾ أي : نظراتها الخائنة ، وهي الممتدة إلى ما لا يحل : ﴿ وما تخفي الصدور ﴾ أي : تكنه من الضمائر والأسرار : ﴿ والله يقضي بالحق ﴾ أي : بالعدل : ﴿ والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء ﴾ أي : لأنهم لا يقدرون على شيء : ﴿ إن الله هو السميع البصير أو لم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم كانوا هم أشد منهم قوة وآثارا في الأرض ﴾ يعني حصونهم وقصورهم وعددهم : ﴿ فأخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق ذلك بأنهم كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فكفروا فأخذهم الله إنه قوي شديد العقاب ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين إلى فرعون وهامان وقارون فقالوا ساحر كذاب فلما جاءهم بالحق ﴾ أي : بآيات نبوته : ﴿ من عندنا قالوا اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه واستحيوا نساءهم ﴾ أي : قالوا أعيدوا عليهم القتل ، كالذي كان أولا ، واستبقوا نسائهم للخدمة : ﴿ وما كيد الكافرين إلا في ضلال ﴾ أي : وما مكرهم في دفع ما أراد الله من ظهور دينه ، إلا في ضياع ؛ إذ هو كالغثاء الذي يقذفه تيار الحق .." (٢)

"سورة المؤمنونبسم الله الرحمن الرحيمالقول في تأويل قوله تعالى :﴿ قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون والذين هم عن اللغو معرضون والذين هم للزكاة فاعلون والذين هم لفروجهم حافظون إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون ﴾ [١ - ٧] .﴿ قد أفلح المؤمنون ﴾ أي : دخلوا في الفوز الأعظم ﴿ الذين هم في صلاتهم خاشعون ﴾ أي : متذللون مع خوف وسكون للجوارح ، لاستيلاء الخشية والهيبة على قلوبهم ﴿ والذين هم عن اللغو معرضون ﴾ . أي : عن الفضول وما لا يعني من الأقوال والأفعال ، معرضون في عامة أوقاتهم ، لاستغراقهم بالجد .﴿ والذين هم للزكاة فاعلون ﴾ أي : للتجرد عن رذيلة البخل . قيل : السورة مكية ، والزكاة

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية (التفسير)، المؤلف غير معروف ١٨٧/٣

(٢) محاسن التأويل (تفسير القاسمي)، المؤلف غير معروف /

إنما فرضت بالمدينة ؟ وجوابه : إن الذي فرض بالمدينة إنما هو النصب والمقادير الخاصة . وإلا فأصل التفضل بالعفو مشروع في أوائل البعثة ، فلا حاجة إلى دعوى إرادة زكاة النفوس من الشرك والعصيان ، لعدم التبادر إليه .﴿ والذين هم لفروجهم حافظون إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين ﴾ لأنه الحق المأذون فيه ﴿ فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون ﴾ أي : الكاملون في العدوان المرتكبونه على أنفسهم .تنبيهات :الأول : دلت الآية على تعليق فلاح العبد على حفظ فرجه ، وأنه لا سبيل له إلى الفلاح بدونه ، وتضمنت هذه الآية ثلاثة أمور : من لم يحفظ فرجه لم يكن من المفلحين . وأنه من الملومين . ومن العادين . ففاته الفلاح واستحق اسم العدوان ووقع في اللوم . فمقاساة ألم الشهوة ومعاناتها ، أيسر من بعض ذلك . وقد أمر الله تعالى نبيه أن يأمر المؤمنين بغض أبصارهم وحفظ فروجهم . وأن يعلمهم أنه مشاهد لأعمالهم ، مطلع عليها ، يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور . ولما كان مبدأ ذلك من قبل البصر ، جعل الأمر بغضه مقدما على حفظ الفرج . فإن الحوادث مبدؤها من النظر . كما أن معظم النار مبدؤها من مستصغر الشرر . ثم تكون نظرة ، ثم تكون خطرة ، ثم خطوة ، ثم خطيئة . ولهذا قيل : من حفظ هذه الأربعة أحرز دينه : اللحظات ، والخطرات ، واللفظات . والخطوات . فينبغي للعبد أن يكون بواب نفسه على هذه الأبواب الأربعة . ويلازم الرباط على ثغورها . فمنها يدخل عليه العدو ، فيجوس خلال الديار ويتبروا ما علوا تتبيرا .الثاني : روي عن الإمام أحمد أنه قال : لا أعلم بعد القتل ذنبا أعظم من الزنى .واحتج بحديث عبد الله بن مسعود أنه قال : يا رسول الله أي : الذنب أعظم ؟ قال : [(١)]. والنبي صلى الله عليه وسلم ذكر من كل نوع أعلاه ليطابق جوابه سؤال السائل . فإنه سئل عن أعظم الذنب فأجابه بما تضمن ذكر أعظم أنواعه وما هو أعظم كل نوع ، فأعظم أنواع الشرك أن يجعل العبد لله ندا . وأعظم أنواع القتل أن يقتل ولده خشية أن يشاركه في طعامه وشرابه . وأعظم أنواع الزنى أن يزني بحليلة جاره . فإن مفسدة الزنى تتضاعف بتضاعف ما انتهكه من الحق . فالزنى بالمرأة التي لها زوج ، أعظم إثما وعقوبة من الزنى بالتي لا زوج لها إذ فيه انتهاك حرمة الزوج وإفساد فراشه ، وتعليق نسب عليه ، لم يكن منه ، وغير ذلك من أنواع أذاه . فهو أعظم إثما وجرما من الزنى بغير ذات الزوج فإذا كان زوجها جارا له ، انضاف إلى ذلك سوء الجوار ، وأذى جاره بأعلى أنواع الأذى . وذلك من أعظم البوائق . وقد ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : [(٢)]. ولا بائقة أعظم من الزنى بامرأته . فالزنى بمائة امرأة لازوج لها أيسر عند الله من الزنى بامرأة الجار . فإن كان أخا له ، أو قريبا من أقاربه ، انضم إلى ذلك قطيعة الرحم ، فيتضاعف الإثم . فإن كان الجار غائبا في طاعة الله ، كالصلاة وطلب العلم والجهاد ، تضاعف الإثم ، فإن اتفق أن تكون المرأة رحما منه ، انضاف إلى ذلك قطيعة رحمها .فإن اتفق أن يكون الزاني محصنا ، كان الإثم أعظم . فإن كان شيخا كان أعظم إثما وهو أحد الثلاثة الذين لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم فإن اقترن بذلك أن يكون في شهر حرام أو بلد حرام أو وقت معظم عند الله ، كأوقات الصلاة وأوقات الإجابة ، تضاعف الإثم .وعلى هذا ، فاعتبر مفاسد الذنوب وتضاعف درجاتها في الإثم والعقوبة والله المستعان .الثالث : أجمع المسلمون على أن حكم التلوط مع المملوك كحكمه مع

---

(١) أن تجعل لله ندا وهو خلقك قال قلت : ثم أي : ؟ قال : أن تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك . قال قلت : ثم أي : ؟ قال : أن تزاني حليلة جارك

(٢) لا يدخل الجنة من لا يأمن جاره بوائقه

غيره ، ومن ظن أن تلوط الإنسان مع مملوكه جائز ، واحتج على ذلك بقوله تعالى : ﴿ إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين ﴾ وقاس ذلك على أمته المملوكة ، فهو كافر يستتاب كما يستتاب المرتد . فإن تاب وإلا قتل وضربت عنقه . وتلوط الإنسان بمملوكه كتلوطه بمملوك غيره . في الإثم والحكم . أفاد هذا وما قبله بتمامه الإمام ابن القيم في " الجواب الكافي " . وقوله تعالى :." (١)

"وفي قوله تعالي: (يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور) " ١٩/غافر " أي خيانة الأعين.٣ – والاختيان من الخيانة فيه زيادة شدة.يقال ك اختانه أي خانه خيانة بينة.تختانون: (علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم فتاب عليكم) " ١٨٧/البقرة "خ وي٥ كلمات(خاوية)خوت الدار تخوي خواء: خلت من أهلها أو سقطت وتهدمت فهي خاوية.خاوية: (أو كالذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها) " ٢٥٩/البقرة " أي ساقطة علي سقوفها.وفي قوله تعالي: (فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية) "٧/الحاقة" أي خوت من منيتها فسقطت علي الأرض، وقيل: خاوية أي فارغة.." (٢)

"صدرا: (ولكن من شرح بالكفر صدرا) "١٠٦/النحل ".ووردت مضافة إلي "ذات" أي حقيقة الصدور من المضمرات والخفايا في:الصدور: (عليم بذات الصدور) " ١١٩/آل عمران "ووردت مجرورة بفي: (وشفاء لما في الصدور) " ٥٧/يونس ".ووردت مسندا إليها الإخفاء في:(يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور) "١٩/غافر ".٢ – ومن معني الرجوع، ورد:يصدر: (لا نسقي حتى يصدر الرعاء) " ٢٣/القصص".قري بفتح الياء، وضمها أي يرجع الرعاء من سقيهم أو يرجعون إبلهم وهنا الرعاء):جمع راع.يصدر: (يومئذ يصدر الناس أشتاتا) " ٦/الزلزلة "أي يعودون بالبعث.ص د ع٥ كلماتالصدع: الشق في الشيء الصلب، كالزجاجة والحائط ويقال." (٣)

"تفسير قوله تعالى: (يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور)قال الله عز وجل: ﴿يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور﴾ [غافر:١٩]، خائنة الأعين أي: العين الخائنة، فالإنسان قد يخون بعينه، وقد يمشي ويراه الناظر أنه غاض البصر، ولكن إذا لم ير أحدا ينظر إليه نظر إلى ما حرم الله عز وجل، فهذه هي النظرة الخائنة التي يختلسها الإنسان إلى شيء حرمه الله سبحانه وتعالى، وكأن يغمز إنسان لآخر بعينه أن يفعل أي شيء فهذا لا يجوز.وقد جاء في الحديث أنه لما جيء بـ عبد الله بن أبي السرح إلى النبي صلى الله عليه وسلم وكان قد فعل أشياء في كفره، ثم أسلم، ثم ارتد عن الإسلام، ونافق، وآذى النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه، فجاء به عثمان رضي الله عنه ليشفع فيه يوم فتح مكة إلى النبي صلى الله عليه وسلم، ويطلب من النبي صلى الله عليه وسلم أن يعفو عنه، وكأن النبي صلى الله عليه وسلم استكثر ما صنعه هذا الرجل في كفره، وفي ردته، وفي نفاقه، فأبى أن يقبل منه صلى الله عليه وسلم وسكت، ولم يعطه عهدا ولا أمانا، ومن أدب أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم معه أن مكثوا ينتظرون ماذا سيقول فيه، فسكت النبي صلى الله عليه وسلم، فأطال سكوته، وفي النهاية أمنه صلوات الله وسلامه عليه، ثم قال لأصحابه بعد ذلك: (أما كان منكم من رجل رشيد يقوم لهذا فيضرب عنقه؟)

---

(١) محاسن التأويل (تفسير القاسمي)، المؤلف غير معروف /

(٢) معجم وتفسير لغوى لكلمات القرآن، حسن عز الدين الجمل ٧٤/٢

(٣) معجم وتفسير لغوى لكلمات القرآن، حسن عز الدين الجمل ٤٢٩/٢

أي: هذا الرجل الذي آذى الله ورسوله، الذي ارتد عن الإسلام، وآذى المسلمين، وقد رفضت أن أعطيه أمانا، أما كان منكم رجل رشيد يقوم إليه فيقطع رقبته؟ فقالوا: هلا أشرت لنا؟ أي: لو غمزت لنا بعينك لكنا قتلناه، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (ما كان لنبي أن تكون له خائنة الأعين) فلا يليق بنبي أن يغمز لأحد ليعمل شيئا من وراء آخر.فالمقصود: أن الله عز وجل يعلم خائنة العين، وما يكون من تلصص وتجسس وتحسس، وما يكون منها من نظر إلى ما حرم الله سبحانه وتعالى من غير أن يدري الناس، وما يكون منها من إشارة وغمز إلى إنسان بتهكم أو بسخرية، أو بغير ذلك.وقوله: (وما تخفي الصدور) أي: ما يكنه الإنسان في صدره من نية سوء أو غيرها.." [1]

"تفسير قوله تعالى: (أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم)

الحمد لله وحده، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، اللهم صل وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحابته أجمعين.

قال الله عز وجل في سورة غافر: ﴿أو لم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم كانوا هم أشد منهم قوة وآثارا في الأرض فأخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق * ذلك بأنهم كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فكفروا فأخذهم الله إنه قوي شديد العقاب * ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين * إلى فرعون وهامان وقارون فقالوا ساحر كذاب * فلما جاءهم بالحق من عندنا قالوا اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه واستحيوا نساءهم وما كيد الكافرين إلا في ضلال﴾ [غافر:٢١ - ٢٥].

في هذه الآيات من سورة غافر يخبرنا الله سبحانه وتعالى بعلمه العظيم، فإنه سبحانه ﴿يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور﴾ [غافر:١٩]، وبقضائه المحكم بين عباده، وبفصله بالحق بينهم، كما قال تعالى: ﴿والله يقضي بالحق﴾ [غافر:٢٠]، فيجازي سبحانه وتعالى المحسن على إحسانه بالحسنى وزيادة، ويجازي المسيء على إساءته، ﴿ولا يظلم ربك أحدا﴾ [الكهف:٤٩]، ﴿والله يقضي بالحق والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء﴾ [غافر:٢٠]، أي: ما يعبدونه من أوثان ومن أصنام لا يقضون بشيء، ولا يملكون أن يفصلوا بين الخلق، وأن يقضوا بينهم، فهم لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا فضلا عن غيرهم.

قال تعالى: ﴿إن الله هو السميع البصير﴾ [غافر:٢٠]، فالله هو الذي أحاط سمعه كل شيء، وأحاط علمه وبصره بكل شيء، يعلم ما ظهر وما خفي، يعلم ما قاله الإنسان وما أخفاه في صدره وما أكنه، يعلم نيته، يعلم ما في حاضر وما في مستقبل هذا الإنسان، وإلى أي شيء يصل يوم القيامة، ﴿إن الله هو السميع البصير﴾ [غافر:٢٠].

ثم يأمر عباده أن يسيروا في الأرض فيتفكروا في مصارع السابقين، فقد عاش على هذه الأرض أناس قبلهم، عاشوا كما عاش هؤلاء، وخاضوا كما خاض هؤلاء، فأهلك الله عز وجل السابقين، فما ينتظر هؤلاء اللاحقون من الله عز وجل إلا مصير السابقين، قال تعالى: ﴿أو لم يسيروا في الأرض فينظروا﴾ [غافر:٢١]، ويعتبروا بما وقع على الأرض، ﴿فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم﴾ [غافر:٢١]، كيف كانت العاقبة والنهاية، فهم عملوا في هذه الأرض، واستمتعوا

---

(١) تفسير أحمد حطيبة، أحمد حطيبة ٨/٣٧٠

بخلاقهم، وخاضوا في هذه الدنيا، ثم في النهاية أماتهم الله وأهلكهم سبحانه وتعالى فلم يملكوا لأنفسهم شيئا.
قال تعالى: ﴿فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم﴾ [غافر:٢١]، لكنهم مضوا وذهبوا، لقد كانوا في هذه الدنيا ملوكا، كانوا رؤساء، كانوا أقوياء، كانوا أغنياء، خاضوا في هذه الدنيا، ألا تعتبرون بما حدث لهؤلاء؟ كيف كان عاقبة الذين كانوا في الماضي؟ ((كانوا هم))، وقد عبر بكان التي تفيد أن الشيء انتهى وصار أثرا بعد عين، فبعدما كانوا حاضرين صاروا آثارا، وصاروا ذكرا، وصاروا عبرة يعتبر بهم الناس، فكرر سبحانه (كانوا)، ليؤكد أنهم كانوا في الماضي وانتهى أمرهم وذهبوا إلى ربهم ليجازيهم بأعمالهم.
﴿كانوا هم أشد منهم قوة﴾ [غافر:٢١]، هؤلاء السابقون يذكر الله سبحانه وتعالى أنهم كانوا أشد من هؤلاء الموجودين الآن، فقد كان السابقون من الكفار أشد من اللاحقين الموجودين.
وقوله: (منهم) هذه قراءة الجمهور، أما ابن عامر فقرأها: (كانوا هم أشد منكم) أي: أنتم أيها الموجودون أضعف منهم في الأبدان، فهم كانوا أقوى منكم، كانوا أطول منكم، وكان لهم في هذه الدنيا أعمار، فمنهم من عاش ألف سنة، ومنهم من عاش ثلاثمائة سنة، ومنهم من عاش خمسمائة سنة، فقد عاشوا سنين طويلة، فهل نفعتهم أعمارهم وقد كانوا يكفرون بالله سبحانه؟ وهل نفعهم إعمارهم لهذه الأرض وقد كانوا يكفرون بالله سبحانه وتعالى؟ وهل انتفعوا بهذه الآثار التي خلفوها من ورائهم؟ فهم قد ذهبوا وتركوا الآثار، فانظروا إليها واعتبروا يا أولي الأبصار.
قال تعالى: ﴿كانوا هم أشد منهم قوة وآثارا في الأرض﴾ [غافر:٢١]، فترون آثارهم، يسير الإنسان فيقول: هذه آثار الأقدمين، هنا كان قوم عاد ﴿إرم ذات العماد﴾ [الفجر:٧]، كانت بيوتهم عظيمة في هذه الجبال، وكانوا يتخذون من هذه الآثار ما يدل على قوتهم فرحين بذلك، أرادوا أن يظهروا مهاراتهم وأن يظهروا قوتهم، لكنهم خالفوا ربهم، وخالفوا أنبياءهم عليهم الصلاة والسلام، فكفروا وذهبوا وبقيت الآثار تدل على أصحابها الذين صاروا ذكرا بعد ذلك، قال سبحانه: ﴿كانوا هم أشد منهم قوة وآثارا في الأرض فأخذهم الله بذنوبهم﴾ [غافر:٢١]، لم يأخذهم ظلما سبحانه، وحاشا له أن يظلم أحدا من عباده، وإنما أخذهم بسبب ذنوبهم، بسبب ما اقترفوا من أعمال سيئة.
قال تعالى: ﴿وما كان لهم من الله من واق﴾ [غافر:٢١]، أي: لم يكن لهم من ينصرهم، ومن يقيهم عذاب رب العالمين سبحانه وتعالى، وكلمة (واق): نكرة في سياق النفي تفيد العموم، فلا كبير ولا صغير ولا شيء يقيهم من الله سبحانه وتعالى، فما وجدوا لهم أحدا ينصرهم من عذاب الله.
وقرأها الجمهور بالوقف على تسكين القاف (واق)، وقرأها ابن كثير وقفا: (من واقي) فيقف عليها بالياء، فإذا وصل وصلها بغير ياء (من واق ذلك بأنهم).." [(١)]

"[سورة غافر (٤٠) : الآيات ١ الى ٨٥]بسم الله الرحمن الرحيمحم (١) تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم (٢) غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذي الطول لا إله إلا هو إليه المصير (٣) ما يجادل في آيات الله إلا الذين كفروا فلا يغررك تقلبهم في البلاد (٤)كذبت قبلهم قوم نوح والأحزاب من بعدهم وهمت كل أمة برسولهم ليأخذوه وجادلوا بالباطل

---

(١) تفسير أحمد حطيبة، أحمد حطيبة ٢/٣٧١

ليدحضوا به الحق فأخذتهم فكيف كان عقاب (٥) وكذلك حقت كلمة ربك على الذين كفروا أنهم أصحاب النار (٦) الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلما فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم (٧) ربنا وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم إنك أنت العزيز الحكيم (٨) وقهم السيئات ومن تق السيئات يومئذ فقد رحمته وذلك هو الفوز العظيم (٩)إن الذين كفروا ينادون لمقت الله أكبر من مقتكم أنفسكم إذ تدعون إلى الإيمان فتكفرون (١٠) قالوا ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين فاعترفنا بذنوبنا فهل إلى خروج من سبيل (١١) ذلكم بأنه إذا دعي الله وحده كفرتم وإن يشرك به تؤمنوا فالحكم لله العلي الكبير (١٢) هو الذي يريكم آياته وينزل لكم من السماء رزقا وما يتذكر إلا من ينيب (١٣) فادعوا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون (١٤)رفيع الدرجات ذو العرش يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده لينذر يوم التلاق (١٥) يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شيء لمن الملك اليوم لله الواحد القهار (١٦) اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب (١٧) وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع (١٨) يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور (١٩)والله يقضي بالحق والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء إن الله هو السميع البصير (٢٠) أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم كانوا هم أشد منهم قوة وآثارا في الأرض فأخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق (٢١) ذلك بأنهم كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فكفروا فأخذهم الله إنه قوي شديد العقاب (٢٢) ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين (٢٣) إلى فرعون وهامان وقارون فقالوا ساحر كذاب (٢٤)فلما جاءهم بالحق من عندنا قالوا اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه واستحيوا نساءهم وما كيد الكافرين إلا في ضلال (٢٥) وقال فرعون ذروني أقتل موسى وليدع ربه إني أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر في الأرض الفساد (٢٦) وقال موسى إني عذت بربي وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب (٢٧) وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم وإن يك كاذبا فعليه كذبه وإن يك صادقا يصبكم بعض الذي يعدكم إن الله لا يهدي من هو مسرف كذاب (٢٨) يا قوم لكم الملك اليوم ظاهرين في الأرض فمن ينصرنا من بأس الله إن جاءنا قال فرعون ما أريكم إلا ما أرى وما أهديكم إلا سبيل الرشاد (٢٩)وقال الذي آمن يا قوم إني أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب (٣٠) مثل دأب قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم وما الله يريد ظلما للعباد (٣١) ويا قوم إني أخاف عليكم يوم التناد (٣٢) يوم تولون مدبرين ما لكم من الله من عاصم ومن يضلل الله فما له من هاد (٣٣) ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات فما زلتم في شك مما جاءكم به حتى إذا هلك قلتم لن يبعث الله من بعده رسولا كذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب (٣٤)الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم كبر مقتا عند الله وعند الذين آمنوا كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار (٣٥) وقال فرعون يا هامان ابن لي صرحا لعلي أبلغ الأسباب (٣٦) أسباب السماوات فأطلع إلى إله موسى وإني لأظنه كاذبا وكذلك زين لفرعون سوء عمله وصد عن السبيل وما كيد فرعون إلا في تباب (٣٧) وقال الذي آمن يا قوم اتبعون أهدكم سبيل الرشاد (٣٨) يا قوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع وإن الآخرة هي دار القرار (٣٩)من عمل سيئة فلا يجزى إلا مثلها ومن عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب (٤٠) ويا قوم ما لي أدعوكم إلى النجاة وتدعونني إلى النار (٤١) تدعونني لأكفر

بالله وأشرك به ما ليس لي به علم وأنا أدعوكم إلى العزيز الغفار (٤٢) لا جرم أنما تدعونني إليه ليس له دعوة في الدنيا ولا في الآخرة وأن مردنا إلى الله وأن المسرفين هم أصحاب النار (٤٣) فستذكرون ما أقول لكم وأفوض أمري إلى الله إن الله بصير بالعباد (٤٤)فوقاه الله سيئات ما مكروا وحاق بآل فرعون سوء العذاب (٤٥) النار يعرضون عليها غدوا وعشيا ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب (٤٦) وإذ يتحاجون في النار فيقول الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعا فهل أنتم مغنون عنا نصيبا من النار (٤٧) قال الذين استكبروا إنا كل فيها إن الله قد حكم بين العباد (٤٨) وقال الذين في النار لخزنة جهنم ادعوا ربكم يخفف عنا يوما من العذاب (٤٩)قالوا أولم تك تأتيكم رسلكم بالبينات قالوا بلى قالوا فادعوا وما دعاء الكافرين إلا في ضلال (٥٠) إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد (٥١) يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار (٥٢) ولقد آتينا موسى الهدى وأورثنا بني إسرائيل الكتاب (٥٣) هدى وذكرى لأولي الألباب (٥٤)فاصبر إن وعد الله حق واستغفر لذنبك وسبح بحمد ربك بالعشي والإبكار (٥٥) إن الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم إن في صدورهم إلا كبر ما هم ببالغيه فاستعذ بالله إنه هو السميع البصير (٥٦) لخلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس ولكن أكثر الناس لا يعلمون (٥٧) وما يستوي الأعمى والبصير والذين آمنوا وعملوا الصالحات ولا المسيء قليلا ما تتذكرون (٥٨) إن الساعة لآتية لا ريب فيها ولكن أكثر الناس لا يؤمنون (٥٩)وقال ربكم ادعوني أستجب لكم إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين (٦٠) الله الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصرا إن الله لذو فضل على الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون (٦١) ذلكم الله ربكم خالق كل شيء لا إله إلا هو فأنى تؤفكون (٦٢) كذلك يؤفك الذين كانوا بآيات الله يجحدون (٦٣) الله الذي جعل لكم الأرض قرارا والسماء بناء وصوركم فأحسن صوركم ورزقكم من الطيبات ذلكم الله ربكم فتبارك الله رب العالمين (٦٤)هو الحي لا إله إلا هو فادعوه مخلصين له الدين الحمد لله رب العالمين (٦٥) قل إني نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله لما جاءني البينات من ربي وأمرت أن أسلم لرب العالمين (٦٦) هو الذي خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم يخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم ثم لتكونوا شيوخا ومنكم من يتوفى من قبل ولتبلغوا أجلا مسمى ولعلكم تعقلون (٦٧) هو الذي يحيي ويميت فإذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون (٦٨) ألم تر إلى الذين يجادلون في آيات الله أنى يصرفون (٦٩)الذين كذبوا بالكتاب وبما أرسلنا به رسلنا فسوف يعلمون (٧٠) إذ الأغلال في أعناقهم والسلاسل يسحبون (٧١) في الحميم ثم في النار يسجرون (٧٢) ثم قيل لهم أين ما كنتم تشركون (٧٣) من دون الله قالوا ضلوا عنا بل لم نكن ندعوا من قبل شيئا كذلك يضل الله الكافرين (٧٤)ذلكم بما كنتم تفرحون في الأرض بغير الحق وبما كنتم تمرحون (٧٥) ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين (٧٦) فاصبر إن وعد الله حق فإما نرينك بعض الذي نعدهم أو نتوفينك فإلينا يرجعون (٧٧) ولقد أرسلنا رسلا من قبلك منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك وما كان لرسول أن يأتي بآية إلا بإذن الله فإذا جاء أمر الله قضي بالحق وخسر هنالك المبطلون (٧٨) الله الذي جعل لكم الأنعام لتركبوا منها ومنها تأكلون (٧٩)ولكم فيها منافع ولتبلغوا عليها حاجة في صدوركم وعليها وعلى الفلك تحملون (٨٠) ويريكم آياته فأي آيات الله تنكرون (٨١) أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أكثر منهم وأشد قوة وآثارا في الأرض فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون (٨٢) فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم وحاق بهم

ما كانوا به يستهزؤن (٨٣) فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين (٨٤)فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا سنت الله التي قد خلت في عباده وخسر هنالك الكافرون (٨٥)." (١)

"يوم هم بارزون من قبورهم على ظهر الأرض مثل الأديم الممدود لا يخفى على الله منهم شيء يقول لا يستتر عن الله- عز وجل- منهم أحد، فيقول الرب تبارك- وتعالى- لمن الملك اليوم يعنى يوم القيامة حين قبض على السموات والأرض في يده اليمنى فلا يجيبه أحد، فيقول لنفسه لله الواحد لا شريك له القهار- ١٦- لخلقه حين أحياهم اليوم في الآخرة تجزى كل نفس بر وفاجر بما كسبت من خير أو شر لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب- ١٧- يفرغ الله- تعالى- من حسابهم في مقدار نصف يوم من أيام الدنيا، قوله- تعالى-: وأنذرهم يعني النبي- صلى الله عليه وسلم- أنذر أهل مكة يوم الآزفة يعني اقتراب الساعة إذ القلوب لدى الحناجر وذلك أن الكفار إذا عاينوا النار في الآخرة شخصت أبصارهم إليها فلا يطرفون وأخذتهم رعدة شديدة من الخوف فشهقوا شهقة فزالت قلوبهم من أماكنها فنشبت في حلوقهم فلا تخرج من أفواههم ولا ترجع إلى أماكنها أبدا، فذلك قوله تعالى: «إذ القلوب لدى» يعني عند «الحناجر» كاظمين يعني مكروبين ما للظالمين يعني المشركين من حميم يعني قريب ينفعهم ولا شفيع يطاع- ١٨- فيهم يعلم خائنة الأعين يعني الغمزة فيما لا يحل بعينه والنظرة فى المعصية وما تخفي الصدور- ١٩- يعني وما تسر القلوب من الشر والله يقضي بالحق يعني يحكم بالعدل والذين يدعون من دونه من الآلهة لا يقضون يعني لا يحكمون بشيء يعني والذين يعبدون من دونه لا يقضون بشيء، يعني آلهة كفار مكة إن الله هو السميع البصير- ٢٠- ثم خوفهم بمثل عذاب." (٢)

"أدركه، وعلم دينه، فلم يتبعه كافرا به، فقال: (إن الدين عند الله الإسلام)فكان هذا بالقرآن.* * *قال الله – عز وجل –: (يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمدا بعيدا ويحذركم الله نفسه والله رءوف بالعباد (٣٠)الأم: الوصية التي صدوت من الشافعي رضي الله عنه:قال الربيع بن سليمان: هذا كتاب كتبه محمد بن إدريس بن العباسالشافعي في شعبان سنة ثلاث ومائتين، وأشهد الله عالم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، وكفى به جل ثناؤه شهيدا، ثم من سمعه أنه شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله لم يزل يدين بذلك، وبه يدين حتى يتوفاه الله ويبعثه عليه إن شاء الله، وأنه يوصي نفسه، وجماعة من سمع وصيته، بإحلال ما أحل الله – عز وجل – في كتابه، ثم على لسان نبيه – صلى الله عليه وسلم –، وتحريم ما حرم الله فيالكتاب، ثم في السنة، وألا يجاوز من ذلك إلى غيره، وأن مجاوزته ترك رضا الله، وترك ما خالف الكتاب والسنة، وهما من المحدثات، والمحافظة على أداء فرائض الله في القول، والعمل، والكف عن محارمه خوفا لله، وكثرة ذكر الوقوف بين يديه: (يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمدا بعيدا) الآية.وأن تنزل الدنيا حيث أنزلها الله،." (٣)

---

(١) تفسير مقاتل بن سليمان مقاتل ٦٩٣/٣

(٢) تفسير مقاتل بن سليمان مقاتل ٧٠٩/٣

(٣) تفسير الإمام الشافعي الشافعي ٤٦٦/١

"١ – حكما فيما بينهم وبينه، – وحكما فيما بينهم في دنياهم، فحكمعلى عباده فيما بينهم وبينه – أن أثابهم وعاقبهم على ما أسروا، كما فعل بهم فيما أعلنوا، وأعلمهم إقامة للحجة عليهم، وبينها لهم أنه علم سرائرهم وعلم علانيتهم، فقال: (يعلم السر وأخفى) الآية، وقال: (يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور (١٩) . الآية.وخلقه لا يعلمون إلا ما شاء – عز وجل –، وحجبعلم السرائر عن عباده.٢ – وبعث فيهم رسلا، فقاموا باحكامه على خلقه، وأبان لرسله وخلقه –أن – أحكام خلقه في الدنيا على ما أظهروا.* * *قال الله عز وجل: (وأقم الصلاة لذكري (١٤)الأم: باب (الساعات التي تكره فيها الصلاة) :قال الشافعي رحمه الله: فإن الله – عز وجل يقول: (وأقم الصلاة لذكري)وأمره – صلى الله عليه وسلم – "أن لا يمنع أحد طاف بالبيت، وصلى أي ساعة شاء. ."الحديث – بمعناه –، وصلى المسلمون على جنائزهم بعد الصبح والعصر.." (١)

"سورة غافربسم الله الرحمن الرحيمقال الله عز وجل: (يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور (١٩)الأم: كتاب (إبطال الاستحسان) :قال الشافعي رحمه الله: فأعلم عباده، مع ما أقام عليهم من الحجة، بانليس كمثله أحد في شيء، أن علمه بالسر والعلانية واحد، فقال عز وعلا: (يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور) الآية.مع آيات أخر من الكتاب.الأم: باب (إبطال الاستحسان) :قال الشافعي رحمه الله: إن الله – عز وجل حكم على عباده حكمين.حكما فيما بينهم وبينه: أن أثابهم وعاقبهم على ما أسروا، كما فعل بهم فيما أعلنوا، وأعلمهم إقامة الحجة للحجة عليهم، وبينها لهم أنه علم سرائرهم، وعلم علانيتهم فقال: (يعلم السر وأخفى) .وقال: (يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور) الآية.و خلق – خلقه لا يعلمون إلا ما شاء – عز وجل – وحجبعلم السرائر عن عباده.." (٢)

" القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور والله يقضي بالحق والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء إن الله هو السميع البصير﴾ [غافر: ١٩] يقول تعالى ذكره لنبيه: وأنذر يا محمد مشركي قومك يوم الآزفة، يعني يوم القيامة، أن يوافوا الله فيه بأعمالهم الخبيثة، فيستحقوا من الله عقابه الأليم وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل." (٣)

"ذكر من قال ذلك: حدثني عبد الله بن أحمد المروزي، قال: ثنا علي بن حسين بن واقد، قال: ثني أبي، قال: ثنا الأعمش، قال: ثنا سعيد بن جبير، عن ابن عباس، ﴿ يعلم خائنة﴾ [غافر: ١٩] الأعين «إذا نظرت إليها تريد الخيانة أم لا» ﴿وما تخفي الصدور﴾ [غافر: ١٩] " إذا قدرت عليها أتزني بها أم لا؟ قال: ثم سكت، ثم قال: ألا أخبركم بالتي تليها؟ قلت نعم " قال: ﴿والله يقضي بالحق﴾ [غافر: ٢٠] «قادر على أن يجزي بالحسنة الحسنة، وبالسيئة السيئة» ﴿إن الله هو السميع البصير﴾ [غافر: ٢٠] قال الحسن: فقلت للأعمش: حدثني الكلبي، إلا أنه قال: إن الله قادر على أن

---

(١) تفسير الإمام الشافعي الشافعي ١٠٦٤/٣

(٢) تفسير الإمام الشافعي الشافعي ١٢٣٥/٣

(٣) تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر الطبري، أبو جعفر ٣٠٠/٢٠

يجزي بالسيئة السيئة، وبالحسنة عشرا وقال الأعمش: إن الذي عند الكلبي عندي، ما خرج -[٣٠٤]- مني إلا بحقير "." (١)

"وقوله: (لا ظلم اليوم) يقول: لا بخس على أحد فيما استوجبه من أجر عمله في الدنيا، فينقص منه إن كان محسنا، ولا حمل على مسيء إثم ذنب لم يعمله فيعاقب عليه (إن الله سريع الحساب) يقول: إن الله ذو سرعة في محاسبة عباده يومئذ على أعمالهم التي عملوها في الدنيا؛ ذكر أن ذلك اليوم لا ينتصف حتى يقيل أهل الجنة في الجنة، وأهل النار في النار، وقد فرغ من حسابهم، والقضاء بينهم.القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع (١٨) يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور (١٩) والله يقضي بالحق والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء إن الله هو السميع البصير (٢٠) ﴾يقول تعالى ذكره لنبيه: وأنذر يا محمد مشركي قومك يوم الآزفة، يعني يوم القيامة، أن يوافوا الله فيه بأعمالهم الخبيثة، فيستحقوا من الله عقابه الأليم.وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل.* ذكر من قال ذلك:حدثني محمد بن عمرو، قال: ثنا أبو عاصم، قال: ثنا عيسى، وحدثني الحارث، قال: ثنا الحسن، قال: ثنا ورقاء جميعا عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد، في قول الله: (يوم الآزفة) قال: يوم القيامة.حدثنا بشر، قال: ثنا يزيد، قال: ثنا سعيد، عن قتادة (وأنذرهم يوم الآزفة) يوم القيامة.حدثنا محمد، قال: ثنا أحمد، قال: ثنا أسباط، عن السدي (وأنذرهم." (٢)

"(يعلم خائنة الأعين) إذا نظرت إليها تريد الخيانة أم لا (وما تخفي الصدور) إذا قدرت عليها أتزني بها أم لا؟ قال: ثم سكت، ثم قال: ألا أخبركم بالتي تليها؟ قلت نعم، قال: (والله يقضي بالحق) قادر على أن يجزي بالحسنة الحسنة، وبالسيئة السيئة (إن الله هو السميع البصير) قال الحسن: فقلت للأعمش: حدثني الكلبي، إلا أنه قال: إن الله قادر على أن يجزي بالسيئة السيئة، وبالحسنة عشرا. وقال الأعمش: إن الذي عند الكلبي عندي، ما خرج مني إلا بحقير.حدثني محمد بن عمرو، قال: ثنا أبو عاصم، قال: ثنا عيسى؛ وحدثني الحارث، قال: ثنا الحسن، قال: ثنا ورقاء جميعا، عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد (يعلم خائنة الأعين) قال: نظر الأعين إلى ما نهى الله عنه.حدثنا بشر، قال: ثنا يزيد، قال: ثنا سعيد، عن قتادة، قوله: (خائنة الأعين) : أي يعلم همزه بعينه، وإغماضه فيما لا يحب الله ولا يرضاه.وقوله: (والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء) يقول: والأوثان والآلهة التي يعبدها هؤلاء المشركون بالله من قومك من دونه لا يقضون بشيء، لأنها لا تعلم شيئا، ولا تقدر على شيء، يقول جل ثناؤه لهم: فاعبدوا الذي يقدر على كل شيء، ولا يخفى عليه شيء من أعمالكم، فيجزي محسنكم بالإحسان، والمسيء بالإساءة، لا ما لا يقدر على شيء ولا يعلم شيئا، فيعرف المحسن من المسيء، فيثيب المحسن، ويعاقب المسيء.وقوله: (إن الله هو السميع البصير) يقول: إن الله هو السميع لما تنطق به ألسنتكم أيها الناس، البصير بما تفعلون من الأفعال، محيط بكل ذلك محصيه عليكم، ليجازي جميعكم جزاءه يوم الجزاء.واختلفت

---

(١) تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر الطبري، أبو جعفر ٣٠٣/٢٠

(٢) تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر الطبري، أبو جعفر ٣٦٧/٢١

القراء في قراءة قوله: (والذين يدعون من دونه) فقرأ ذلك عامة قراء المدينة:"والذين تدعون من دونه" بالتاء على وجه الخطاب. وقرأ ذلك عامة قراء الكوفة بالياء على وجه الخبر.." [١]

"فيلتصق بالحنجرة فلا يرجع إلى مكانه ولا يخرج فيستراح من كرب غمه.(ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع).(يطاع) من صفة شفيع، أي ولا من شفيع مطاع.* * *(يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور (١٩)إذا نظر الناظر نظرة خيانة علمها الله، فإذا نظر أول نظرة غير متعمدخيانة فذلك غير إثم، فإن عاد ونيته الخيانة في النظر علم الله ذلك، والله- عز وجل - عالم الغيب والشهادة، ولكنه ذكر العلم ههنا ليعلم أن المجازاة لا محالة واقعة.* * *وقوله - جل وعز - : (ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين (٢٣)أي بعلاماتنا التي تدل على صحة نبوته، من العصا وإخراج يده بيضاءمن غير سوء وأشباه ذلك.(وسلطان مبين) أي حجة ظاهرة.* * *(إلى فرعون وهامان وقارون فقالوا ساحر كذاب (٢٤)هذه الأسماء. في موضع خفض إلا أنها فتحت لأنها لا تنصرف لأنهامعرفة وهي أعجمية.(فقالوا ساحر كذاب).المعنى فقالوا هو ساحر كذاب، جعلوا أمر الآيات التي يعجز عنهاالمخلوقون سحرا.* * *(فلما جاءهم بالحق من عندنا قالوا اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه واستحيوا نساءهم وما كيد الكافرين إلا في ضلال (٢٥)." [٢]

"أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين قال: هي مثل التي في البقرة كنتم أمواتا فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم كانوا أمواتا في أصلاب آبائهم، ثم أخرجهم فأحياهم، ثم يميتهم، ثم يحييهم بعد الموت «١» .١٨٤٢٥ - عن ابن عباس رضي الله، عنهما في قوله: أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين قال: كنتم أمواتا قبل أن يخلقكم فهذه ميتة، ثم أحياكم فهذه حياة، ثم يميتكم فترجعون إلى القبور فهذه ميتة أخرى، ثم يبعثكم يوم القيامة فهذه حياة فهما ميتتان وحياتان. فهو كقوله: كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون «٢» .١٨٤٢٦ - حدثنا الربيع، حدثنا الخصيب بن ناصح، حدثنا صالح يعني المري، عن هشام بن حسان، عن ابن سيرين، عن أبي هريرة رضي الله، عنه-، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال «ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة واعلموا أن الله لا يستجيب دعاء من قلب غافل لاه» «٣» .قوله تعالى: لمن الملك اليوم لله الواحد القهار١٨٤٢٧ - حدثنا محمد بن غالب الدقاق، حدثنا عبيد بن عبيدة، حدثنا معتمر، عن أبيه حدثنا أبو نضرة، عن ابن عباس قال: ينادي مناد بين يدي الساعة: يا أيها الناس، أتتكم الساعة فيسمعها الأحياء والأموات، قال: وينزل الله، إلى سماء الدنيا ويقول: لمن الملك اليوم لله الواحد القهار «٤» .قوله تعالى: يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور١٨٤٢٨ - عن ابن عباس رضي الله، عنهما في قوله: يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور قال: الرجل يكون في القوم فتمر بهم المرأة فيريهم أنه يغض بصره، عنها وإذا غفلوا لحظ إليها وإذا نظروا غض بصره، عنها، وقد اطلع الله من قلبه أنه ود أنه ينظر إلى عورتها «٥» .١٨٤٢٩ - عن ابن عباس رضي الله، عنهما في قوله: يعلم خائنة

---

(١) تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر الطبري، أبو جعفر ٢١/٣٧٠

(٢) معاني القرآن وإعرابه للزجاج الزجاج ٤/٣٧٠

الأعين__________(١) الدر ٧/ ٢٧٢- ٢٧٤.(٢) الدر ٧/ ٢٧٢- ٢٧٤.(٣) ابن كثير ٧/ ١٢٤- ١٢٥.(٤) ابن كثير ٧/ ١٢٤- ١٢٥.(٥) الدر ٧/ ٢٨٢. [.....]."[١]

"يعني: يقال لهم ذلك الخلود بأنه إذا دعي الله وحده كفرتم يعني: إذا قيل لكم لا إله إلا الله جحدتم، وأقمتم على الكفر، وإن يشرك به تؤمنوا يعني: إذا دعيتم إلى الشرك، وعبادة الأوثان، تصدقوا فالحكم لله العلي الكبير يعني: القضاء فيكم لله العلي الكبير أي:الرفيع فوق خلقه، القاهر لخلقه، الكبير بالقدرة، والمنزلة.[سورة غافر (٤٠) : الآيات ١٣ الى ١٩]هو الذي يريكم آياته وينزل لكم من السماء رزقا وما يتذكر إلا من ينيب (١٣) فادعوا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون (١٤) رفيع الدرجات ذو العرش يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده لينذر يوم التلاق (١٥) يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شيء لمن الملك اليوم لله الواحد القهار (١٦) اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب (١٧)وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع (١٨) يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور (١٩)ثم قال الله تعالى: هو الذي يريكم آياته يعني: عجائبه، ودلائله، من خلق السموات والأرض، والشمس، والقمر، والليل، والنهار، وذلك أنه لما ذكر ما يصيبهم يوم القيامة، عظم نفسه تعالى.ثم ذكر لأهل مكة من الدلائل ليؤمنوا به، فقال: هو الذي يريكم آياته وينزل لكم من السماء رزقا يعني: المطر. ويقال: الملائكة لتدبير الرزق. وما يتذكر إلا من ينيب يعني: ما يتعظ بالقرآن، إلا من يقبل إليه بالطاعة. ويقال: وما يتذكر في هذا الصنيع، فيوحد الرب إلا من يرجع إليه، فادعوا الله مخلصين له الدين يعني: اعبدوه بالإخلاص، ولو كره الكافرون يعني: وإن شق ذلك على المشركين، الكافرين. رفيع الدرجات يعني: رافع، وخالق السموات. أي: مطبقا بعضها فوق بعض. ويقال: هو رافع الدرجات في الدنيا بالمنازل، وفي الآخرة الجنة ذو الدرجات، ذو العرش يعني: رافع العرش. ويقال:خالق العرش، هو رب العرش يلقي الروح من أمره يعني: ينزل جبريل بالوحي على من يشاء من عباده وهو النبي صلى الله عليه وسلم، لينذر يوم التلاق يعني: ليخوف بالقرآن. وقرأ الحسن:لتنذر بالتاء على معنى المخاطبة. يعني: لتنذر يا محمد. وقراءة العامة بالياء يعني: لينذر الله. ويقال: لينذر من أنزل عليه الوحي يوم التلاق قرأ ابن كثير: يوم التلاقي بالياء.." [٢]

"وهي إحدى الروايتين عن نافع، والباقون بغير ياء. فمن قرأ بالياء فهو الأصل. ومن قرأ بغير ياء، فلأن الكسر يدل عليه. وقال في رواية الكلبي: يوم التلاق يوم يلتقي أهل السموات، وأهل الأرض. ويقال: يوم يلتقي الخصم، والمخصوم، يوم هم بارزون أي: ظاهرين، خارجين من قبورهم، لا يخفى على الله منهم شيء يعني: من أعمال أهل السموات، وأهل الأرض.لمن الملك اليوم قال بعضهم: هذا بين النفختين. يقول الرب تبارك وتعالى: لمن الملك اليوم؟ فلا يجيبه أحد، فيقول لنفسه: لله الواحد القهار. قال بعضهم: إن ذلك لأهل الجمع يوم القيامة. يقول: لمن الملك اليوم فأقر الخلائق كلهم، وقالوا: لله الواحد القهار.يقول الله تعالى: اليوم تجزى كل نفس بما كسبت يعني: ما عملت في الدنيا من خير أو شر، لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب وقد ذكرناه، وأنذرهم يوم الآزفة يعني:خوفهم بيوم القيامة. فسمي الأزفة لقربه. ويقال: أزف شخوص

---

(١) تفسير ابن أبي حاتم - محققا الرازي، ابن أبي حاتم ٣٢٦٥/١٠

(٢) تفسير السمرقندي = بحر العلوم أبو الليث السمرقندي ٢٠٠/٣

فلان يعني: قرب كما قال أزفت الآزفة.ثم قال: إذ القلوب لدى الحناجر من الخوف، لا تخرج، ولا تعود إلى مكانها، كاظمين أي: مغمومين يتردد خوفهم في أجوافهم ما للظالمين يعني: المشركين من حميم أي قريب، ولا شفيع يطاع أي: له الشفاعة فيهم. يعلم خائنة الأعين هذا موصول بقوله: لا يخفى على الله منهم شيء وهو يعلم خائنة الأعين. وقال أهل اللغة:الخائنة والخيانة واحدة، كقوله: ولا تزال تطلع على خائنة [المائدة: ١٣] . وقال مجاهد:خائنة الأعين يعني: نظر العين إلى ما نهى الله عنه. وقال مقاتل: الغمزة فيما لا يحل له، والنظرة إلى المعصية. ويقال: النظرة بعد النظرة. وقال قتادة: يعلم خائنة الأعين يعني:يعلم غمزه بعينه، وإغماضه فيما لا يحب الله تعالى، وما تخفي الصدور.[سورة غافر (٤٠) : آية ٢٠]والله يقضي بالحق والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء إن الله هو السميع البصير (٢٠)والله يقضي بالحق أي: يحكم بالحق. ويقال: يأمر بما يجب به الثواب، وينهى عما يجب به العقاب. والذين يدعون من دونه يعني: يعبدون من الآلهة. قرأ نافع، وابن عامر:تدعون بالتاء على معنى المخاطبة. والباقون، بالياء على معنى الخبر عنهم.لا يقضون بشيء يعني: ليس لهم قدرة، ولا يحكمون بشيء، إن الله هو السميع البصير يعني: السميع لمقالة الكفار البصير بأعمالهم.." (١)

"وقيل: ﴿وقهم السيئات﴾ أنه سمى عقاب السيئات سيئات.وقيل: ﴿لمقت الله﴾ [١٠] لكم أكبر من مقت بعضكم لبعض.وقال الحسن: " ﴿حقت كلمت ربك﴾ [٦] على مشركي العرب، كما حقت على من قبلهم".وقيل: ﴿الذين يحملون العرش﴾ [٧] والذين حوله؛ لأن فيهم من قد تعبد بحمله، ومنهم من تعبد بأن يحف به.مسألة:إن سأل عن قوله سبحانه: ﴿قالوا ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين فاعترفنا بذنوبنا فهل إلى خروج من سبيل (١١) ذلكم بأنه إذا دعي الله وحده كفرتم وإن يشرك به تؤمنوا فالحكم لله العلي الكبير (١٢) هو الذي يريكم آياته وينزل لكم من السماء رزقا وما يتذكر إلا من ينيب (١٣) فادعوا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون (١٤) رفيع الدرجات ذو العرش يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده لينذر يوم التلاق (١٥) يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شيء لمن الملك اليوم لله الواحد القهار (١٦) اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب (١٧) وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع (١٨) يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور (١٩) والله يقضي بالحق والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء إن الله هو السميع البصير (٢٠) ﴾ فقال:ما القول الذي يؤذن بتمني الكافر للخروج عن حاله بكل جهده؟ وما الإماتة الأولى؟ وما الثانية؟ وما وجه اتصال ﴿فاعترفنا بذنوبنا﴾ [١١] بما قبله؟ وما العلي؟ وكيف جازت صفة القديم بـ (علي) ، ولم تجز بـ (رفيع) ؟ وما معنى ﴿يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده﴾ [١٥] ؟ وما معنى ﴿يوم التلاق﴾ [١٥] ؟ وما معنى ﴿بارزون﴾ ؟ ولم جاز ﴿لا يخفى على الله منهم شيء﴾ [١٦] مع أنه لا يخفى منهم ولا من غيرهم شيء؟ ولم قيل: ﴿لمن الملك اليوم﴾ مع أنه يملك الأنبياء والمرسلين في الآخرة الملك." (٢)

"وحده في الدنيا كفرتم به وأنكرتم أن لا تكون الإلهية له خالصة، وقلتم أجعل الآلهة إلها واحدا وإن يشرك به غيره.تؤمنوا تصدقوا ذلك المشرك. وسمعت بعض العلماء يقول: وإن يشرك به بعد الرد إلى الدنيا لو كان تؤمنوا تصدقوا

---

(١) تفسير السمرقندي = بحر العلوم أبو الليث السمرقندي ٢٠١/٣

(٢) تفسير ابن فورك ابن فُورَك ٣٤٤/٢

المشرك ذكره بلفظ الاستفهام. نظيره قوله تعالى: ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه «١» فالحكم لله العلي الكبير.[سورة غافر (٤٠) : الآيات ١٣ الى ٢٨]هو الذي يريكم آياته وينزل لكم من السماء رزقا وما يتذكر إلا من ينيب (١٣) فادعوا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون (١٤) رفيع الدرجات ذو العرش يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده لينذر يوم التلاق (١٥) يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شيء لمن الملك اليوم لله الواحد القهار (١٦) اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب (١٧)وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع (١٨) يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور (١٩) والله يقضي بالحق والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء إن الله هو السميع البصير (٢٠) أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم كانوا هم أشد منهم قوة وآثارا في الأرض فأخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق (٢١) ذلك بأنهم كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فكفروا فأخذهم الله إنه قوي شديد العقاب (٢٢)ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين (٢٣) إلى فرعون وهامان وقارون فقالوا ساحر كذاب (٢٤) فلما جاءهم بالحق من عندنا قالوا اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه واستحيوا نساءهم وما كيد الكافرين إلا في ضلال (٢٥) وقال فرعون ذروني أقتل موسى وليدع ربه إني أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر في الأرض الفساد (٢٦) وقال موسى إني عذت بربي وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب (٢٧)وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم وإن يك كاذبا فعليه كذبه وإن يك صادقا يصبكم بعض الذي يعدكم إن الله لا يهدي من هو مسرف كذاب (٢٨)هو الذي يريكم آياته وينزل لكم من السماء رزقا بإدرار الغيث وما يتذكر إلا من ينيب فادعوا الله مخلصين له الدين العبادة والطاعة ولو كره الكافرون رفيع أي هو رفيع الدرجات يعني رافع طبقات الثواب للأنبياء والمؤمنين في الجنة.قال ابن عباس: رافع السماوات وهو فوق كل شيء وليس فوقه شيء.______________(١) سورة الأنعام: ٢٨.." (١)

"أي: قرب، ونظيرها هذه الآية قوله تعالى: أزفت الآزفة «١» أي قربت القيامة.إذ القلوب لدى الحناجر من الخوف قد زالت وشخصت من صدورهم، فتعلقت بحلوقهم فلا هي تعود إلى أماكنها ولا هي تخرج من أفواههم فيموتوا فليسوا سواء «٢» نظيره قوله: وأفئدتهم هواء «٣» ... كاظمين مكروبين ممتلئين خوفا وحزنا، والكاظم الممسك للشيء على ما فيه، ومنه كظم قربته إذا شد رأسها، فهم قد أطبقوا أفواههم على ما في قلوبهم من شدة الخوف، والكظم تردد الغيظ والخوف والحزن في القلب حين يضيق به.يقول العرب للبئر الضيقة وللسقاية المملوءة: ماء كظامة وكاظمة، ومنه الحديث: كيف بكم [إذا] بعجت مكة كظائم.قال الشاعر:يخرجن من كاظمة الح صن الخرب ... يحملن عباس بن عبد المطلب «٤»ونصب كاظمين على الحال والقطع.ما للظالمين من حميم قريب وصديق، ومنه قيل للأقرباء والخاصة حامة ولا شفيع يطاع فيشفع فيهم يعلم خائنة الأعين.وقال المؤرخ: فيه تقديم وتأخير مجازه أي الأعين الخائنة قال ابن عباس: هو الرجل يكون جالسا مع القوم، فتمر المرأة فيسارقهم النظر إليها.وقال مجاهد: هي نظر الأعين إلى ما نهى الله تعالى عنه.قتادة: هي همزة بعينه وإغماضه فيما لا يحب الله تعالى ولا يرضاه.وما تخفي الصدور والله يقضي بالحق والذين يدعون من دونه يعني الأوثان لا يقضون

---

(١) تفسير الثعلبي = الكشف والبيان عن تفسير القرآن الثعلبي ٢٦٩/٨

بشيء لأنها لا تعلم شيء ولا تقدر على شي.وقرأ أهل المدينة وأيوب: تدعون بالتاء، ومثله روى هشام عن أهل الشام والباقون:بالياء.إن الله هو السميع البصير أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم كانوا هم أشد منهم قوة.ـــــــــــــــــ(١) سورة النجم: ٥٧.(٢) تفسير الطبري: ٢٤/ ٦٧ بتفاوت.(٣) سورة إبراهيم: ٤٣.(٤) لسان العرب: ١٥/ ٣٩٥، وفيه: (صبحن) بدل (يخرجن) .." [1]

"فلا هي تخرج ولا تعود في أمكنتها.و ﴿لدى﴾، بمعنى: عند.﴿كاظمين﴾: مفتاظين لا شيء يزيل غيظهم.﴿ما للظالمين من حميم﴾، أي: من قريب (ولا صديق) يحتج عنهم فيزيل عظيم ما نزل بهم.﴿ولا شفيع﴾ يشفع لهم عند ربهم D فيما يشفع فيه.قال الحسن: استكثروا من الأصدقاء المؤمنين، فإذا الرجل منهم يشفع في صديقه وقريبه، فإذا رأى الكافر ذلك قال: ما لنا من شافعين ولا صديق حميم.ثم قال تعالى: ﴿يعلم خآئنة الأعين وما تخفي الصدور﴾، أي: يعلم الله جل ذكره خائنة أعين عباده وما أخفته صدورهم، لا يخفى عليه شيء من أمورهم حتى يتحدث به في نفسه ويضمره في قلبه.ومعنى " خائنة الأعين " هو أن الله تعالى يعلم ما أراد بنظره إذا نظر وما ينوي بذلك في قلبه.." [2]

"قال ابن عباس: ﴿يعلم خآئنة الأعين وما تخفي الصدور﴾: يعلم إذا نظرت إلى المرأة أتريد بذلك الخيانة أم لا. " وما تخفي الصدور "، أي: إذا قدرت عليها أتزني أم لا.وقوله: ﴿والله يقضي بالحق﴾، أي: يقدر أن يجزي بالحسنة الحسنة وبالسيئة السيئة.وروى ابن وهب عن رجاله عن ابن عباس أنه قال: هو الرجل تمر به المرأة فيرى القوم أنه يغض بصره، فإذا أغفلوا نظر إليها: ويريهم (أنه يغض) بصره ويود لو أنه يطلع على عورتها ويقدر عليها.وعن ابن عباس أنه قال في " خائنة الأعين ": إنه الرجل ينظر إلى المرأة فإذا نظر أصحابه إليه غض بصره، (وقد علم الله D منه أنه يود لو نظر إلى عورتها، فإذا رأى منهم غفلة تدسس النظر، فإذا نظر إليه أصحابه غض بصره).قال مجاهد: خائنة الأعين: نظر العين إلى ما نهى الله D عنه.." [3]

"وقال قتادة: يعلم همزه بعينه، وإغماضه فيما لا يحب الله جل ذكره ولا يرضى به.قال الفراء: " خائنة الأعين ": النظرة الثانية و ﴿وما تخفي الصدور﴾ النظرة الأولى " ﴿والله يقضي بالحق﴾، أي: يجازي من غض بصره عن محارمه حذر الموقف بين يديه، ومن ردد النظر وعزم قلبه على مواقعة الفواحش إذا قدر عليها.قال الزجاج: " خائنة الأعين " نظر ونيته الخيانة.ثم قال: ﴿والذين يدعون من دونه﴾، أي: والأوثان التي يدعو هؤلاء (المشركون) من قومك من دون الله.﴿لا يقضون بشيء﴾، أي لا تقدر على شيء ولا تعلم شيئا، فاعبدوا الله الذي هو ﴿السميع﴾ لما تنطق به ألسنتكم ﴿البصير﴾ بما تعملون من الأفعال، المحيط بكل ذلك.قوله تعالى: ﴿أولم يسيروا في الأرض﴾ - إلى قوله - ﴿إلا سبيل الرشاد﴾." [4]

"﴿وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور والله يقضي بالحق والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء إن الله هو السميع البصير﴾ قوله عز وجل:

---

(١) تفسير الثعلبي = الكشف والبيان عن تفسير القرآن الثعلبي ٨/٢٧١

(٢) الهداية الى بلوغ النهاية مكي بن أبي طالب ١٠/٦٤١٦

(٣) الهداية الى بلوغ النهاية مكي بن أبي طالب ١٠/٦٤١٧

(٤) الهداية الى بلوغ النهاية مكي بن أبي طالب ١٠/٦٤١٨

﴿وأنذرهم يوم الآزفة﴾ فيه قولان: أحدهما: يوم حضور المنية ، قاله قطرب. الثاني: يوم القيامة وسميت الآزفة لدنوها ، وكل آزف دان ، ومنه قوله تعالى ﴿أزفت الآزفة﴾ [النجم: ٥٧] أي دنت القيامة. ﴿إذ القلوب لدى الحناجر﴾ فيه قولان: أحدهما: أن القلوب هي النفوس بلغت الحناجر عند حضور المنية ، وهذا قول من تأول يوم الآزفة بحضور المنية ، قاله قتادة. ووقفت في الحناجر من الخوف فهي لا تخرج ولا تعود في أمكنتها. ﴿كاظمين﴾ فيه أربعة أوجه: أحدها: مغمومون قاله الكلبي. الثاني: باكون ، قاله ابن جريج. الثالث: ممسكون بحناجرهم ، ماخوذ من كظم القربة وهو شد رأسها. الرابع: ساكتون ، قاله قطرب ، وأنشد قول الشماخ:(فظلت كأن الطير فوق رؤوسها ... صيام تنائي الشمس وهي كظوم)﴿ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع﴾ في الحميم قولان: أحدهما: انه القريب ، قاله الحسن. الثاني: الشفيق ، قاله مجاهد ، ومعنى الكلام: ما لهم من حميم ينفع ولا شفيع يطاع أي يجاب إلى الشفاعة ، وسميت الإجابة طاعة لموافقتها إرادة المجاب. قوله عز وجل: ﴿يعلم خائنة الأعين﴾ فيه خمسة أوجه:." (١)

"أحدها: أنه الرمز بالعين ، قاله السدي. الثاني: هي النظرة بعد النظرة ، قاله سفيان. الثالث: مسارقة النظر ، قاله ابن عباس. الرابع: النظر إلى ما نهى عنه ، قاله مجاهد. الخامس: هو قول الإنسان ما رأيت وقد رأى ، أو رأيت وما رأى ، قاله الضحاك. وفي تسميتها خائنة الأعين وجهان: أحدهما: لأنها أخفى الإشارات فصارت بالاستخفاء كالخيانة. الثاني: لأنها باستراق النظر إلى المحظور خيانة. ﴿وما تخفي الصدور﴾ فيه ثلاثة تأويلات: أحدها: الوسوسة ، قاله السدي. الثاني: ما تضمره [عندما ترى امرأة] إذا أنت قدرت عليها أتزني بها أم لا ، قاله ابن عباس. الثالث: ما يسره الإنسان من أمانة أو خيانة ، وعبر عن القلوب بالصدور لأنها مواضع القلوب.." (٢)

"قيامه الكل مؤجلة، وقيامة المحبين معجلة فلهم في كل نفس قيامة من العقاب والعذاب والثواب، والبعاد والاقتراب، وما لم يكن لهم في حساب «١» ، وتشهد عليهم الأعضاء فالدمع يشهد، وخفقان القلب ينطق، والنحول يخبر، واللون يفصح ... والعبد يستر ولكن البلاء يظهر:يا من تغير صورتى لما بدا ... لجميع ما ظنوا بنا تصديقا «٢»وأنشدوا:لى في محبته شهود أربع ... وشهود كل قضية اثنانذوبان جسمى وارتعاد مفاصلى ... وخفوق قلبى واعتقال لسانوقلوبهم- إذا أزف الرحيل بلغت الحناجر، وعيونهم شرقت بدموعها إذا نودى بالرحيل وشدت الرواحل.قوله جل ذكره:[سورة غافر (٤٠) : آية ١٩]يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور (١٩)فخائنة أعين المحبين استحسانهم شيئا، ولهذا قالوا:يا قرة العين: سل عينى هل اكتحلت ... بمنظر حسن مذ غبت عن بصرى؟ولذلك قالوا:فعينى إذا استحسنت غيركم ... أمرت السهاد بتعذيبها________(١) أي وما لم يخطر لهم ببال.(٢) معنى الشاهد الشعرى فيما نظن: يا أيها الذي تتغير صورتى عند تجليه علي، فينكشف أمرى رغم محاولتى ستر حالى، وبذا تصدق ظنون العاذلين واللائمين. [.....]."[٣]

---

(١) تفسير الماوردي = النكت والعيون الماوردي ١٤٩/٥

(٢) تفسير الماوردي = النكت والعيون الماوردي ١٥٠/٥

(٣) لطائف الإشارات = تفسير القشيري القشيري، عبد الكريم ٣٠٢/٣

"ومن خائنة أعينهم أن تأخذهم السنة والسبات في أوقات المناجاة وقد جاء في قصة داود عليه السلام: كذب من ادعى محبتى، فإذا جنة الليل نام عنى! ومن خائنة أعين العارفين أن يكون لهم خبر بقلوبهم عما تقع عليه عيونهم.ومن خائنة أعين الموحدين أن تخرج منها قطرة دمع تأسفا على مخلوق يفوت في الدنيا والآخرة، ولا على أنفسهم.ومن خائنة أعين المحبين النظر إلى غير المحبوب بأى وجه كان، ففى الخبر: «حبك الشيء يعمى ويصم» .«وما تخفي الصدور» : فالحق به خبير «١» .قوله جل ذكره:[سورة غافر (٤٠) : آية ٢٠]والله يقضي بالحق والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء إن الله هو السميع البصير (٢٠)يقضى للأجانب بالبعاد، ولأهل الوصال بالوداد، ويقضى يوم القدوم بعزل عمال الصدود، وإذا ذبح الموت غدا بين الجنة والنار على صورة كبش أملح فلا غرابة أن يذبح الفراق على رأس سكة «٢» الأحباب في صورة شخص منكر ويصلب على جذوع العبرة لينظر إليه أهل الحضرة.قوله جل ذكره:[سورة غافر (٤٠) : آية ٢١]أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم كانوا هم أشد منهم قوة وآثارا في الأرض فأخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق (٢١)______________(١) كان عبد الله بن أبى سرح يكتب الوحى لرسول الله (ص) ثم ارتد ولحق بالمشركين فأمر رسول الله (ص) بقتله يوم فتح مكة.ويروى أنه لما جىء به إلى الرسول (ص) بعد ما اطمأن أهل مكة، وطلب عثمان رضى الله عنه له الأمان صمت الرسول طويلا ثم قال: «نعم» ، فلما انصرف قال الرسول (ص) لمن حوله: «ما صمت إلا ليقوم إليه بعضكم فيضرب عنقه» فقال رجل من الأنصار: فهلا أو مأت إلى يا رسول الله؟ فقال: إن النبي لا تكون له خائنة أعين»(٢) السكة الطريق المستوي.." (١)

"القهار ﴿١٦﴾ اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب ﴿١٧﴾ ﴾ [غافر: ١٣-١٧] ﴿هو الذي يريكم آياته﴾ [غافر: ١٣] مصنوعاته التي تدل على قدرته، وتوحيده من السماء والأرض، والشمس والقمر، والسحاب، ﴿وينزل لكم من السماء رزقا﴾ [غافر: ١٣] يعني: المطر الذي هو سبب الأرزاق، وما يتذكر وما يتعظ بهذه الآيات، فيوحد الله، ﴿إلا من ينيب﴾ [غافر: ١٣] يرجع إلى طاعته.ثم أمر المؤمنين بتوحيده، فقال: ﴿فادعوا الله مخلصين له الدين﴾ [غافر: ١٤] موحدين، تخلصون له الطاعة، ﴿ولو كره الكافرون﴾ [غافر: ١٤] من أهل مكة.ثم عظم نفسه، فقال: رفيع الدرجات قال عطاء، عن ابن عباس: يريد درجاتكم، والرفيع بمعنى الرافع.والمعنى: أنه يرفع درجات الأنبياء، والأولياء في الجنة، ذو العرش: خالقه ومالكه، يلقي الروح ينزل الوحي من السماء، من أمره قال ابن عباس: من قضائه.وقال مقاتل: بأمره.لينذر النبي صلى الله عليه وسلم بما أوحي إليه، يوم التلاق بيوم التلاق، يلتقي في ذلك اليوم أهل السماء، وأهل الأرض.﴿يوم هم بارزون﴾ [غافر: ١٦] من قبورهم، ﴿لا يخفى على الله منهم شيء﴾ [غافر: ١٦] لا يستتر منهم أحد، وقال ابن عباس: لا يخفى على الله من أعمالهم شيء.ويقول الله في ذلك: ﴿لمن الملك اليوم لله الواحد القهار﴾ [غافر: ١٦] .قال الحسن: هو السائل وهو المجيب، لأنه يقول ذلك حين لا أحد يجيبه، فيجيب نفسه.وهذا قول جماعة المفسرين.﴿اليوم تجزى كل نفس بما كسبت﴾ [غافر: ١٧] يجزى المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته.قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " يقول الله تعالى: أنا الملك، أنا الديان، لا ينبغي لأحد من أهل الجنة أن يدخل الجنة، ولا لأحد من أهل

---

(١) لطائف الإشارات = تفسير القشيري القشيري، عبد الكريم ٣٠٣/٣

النار أن يدخل النار وعنده مظلمة حتى أقصها منه ".وتلا هذه الآية.﴿وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع ﴿١٨﴾ يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور ﴿١٩﴾ والله يقضي بالحق والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء إن الله هو السميع البصير ﴿٢٠﴾ أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم." (١)

"كانوا هم أشد منهم قوة وآثارا في الأرض فأخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق ﴿٢١﴾ ذلك بأنهم كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فكفروا فأخذهم الله إنه قوي شديد العقاب ﴿٢٢﴾ ﴾ [غافر: ١٨-٢٢] .وأنذرهم يقول لمحمد صلى الله عليه وسلم: وأنذر أهل مكة ب يوم الآزفة يعني: القيامة، قال ابن عباس: أزف أمرها، أي: دنا.يقال: أزف الشيء يأزف أزفا.قال الزجاج: وقيل لها آزفة، لأنها قريبة، وإن استبعد الناس أمرها، وما هو كائن فهو قريب.﴿إذ القلوب لدى الحناجر﴾ [غافر: ١٨] وذلك أنها تزول عن مواضعها من الخوف، حتى تصير إلى الحنجرة، كقوله: ﴿وبلغت القلوب الحناجر﴾ [الأحزاب: ١٠] .كاظمين: مغمومين، مكروبين، ممتلئين غما، ما للظالمين قال ابن عباس، ومقاتل: يريد المشركين، والمنافقين.من حميم قريب ينفعهم، ﴿ولا شفيع يطاع﴾ [غافر: ١٨] فيهم، فتقبل فيهم شفاعته.﴿يعلم خائنة الأعين﴾ [غافر: ١٩] خيانتها، وهي مسارقة النظر إلى ما لا يحل، ﴿وما تخفي الصدور﴾ [غافر: ١٩] : وما تسر القلوب، في السر من المعصية.﴿والله يقضي بالحق﴾ [غافر: ٢٠] يحكم به، فيجزي بالحسنة والسيئة، ﴿والذين يدعون من دونه﴾ [غافر: ٢٠] من الشركاء، ﴿لا يقضون بشيء﴾ [غافر: ٢٠] لا يجازون، لأنهم لا يعلمون ولا يقدرون، ﴿إن الله هو السميع﴾ [غافر: ٢٠] لما يقوله الخلق، البصير بأعمالهم.قوله: ﴿أولم يسيروا في الأرض﴾ [غافر: ٢١] ظاهر إلى قوله: ﴿وما كان لهم من الله﴾ [غافر: ٢١] أي: من عذاب الله، من واق يقي العذاب عنهم.ذلك أي: ذلك العذاب الذي نزل بهم، ﴿بأنهم كانت تأتيهم﴾ [غافر: ٢٢] الآية.ثم ذكر قصة موسى وفرعون ليعتبروا، فقال: ﴿ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين ﴿٢٣﴾ إلى فرعون وهامان وقارون فقالوا ساحر كذاب ﴿٢٤﴾ فلما جاءهم بالحق من عندنا قالوا اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه واستحيوا نساءهم وما كيد الكافرين إلا في ضلال ﴿٢٥﴾ وقال فرعون ذروني أقتل موسى وليدع ربه إني أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر في الأرض الفساد ﴿٢٦﴾ وقال موسى إني عذت بربي وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب ﴿٢٧﴾ ﴾ [غافر: ٢٣-٢٧] .﴿ولقد أرسلنا موسى بآياتنا﴾ [غافر: ٢٣] إلى قوله: ﴿قالوا اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه﴾ [غافر: ٢٥] قال ابن عباس: أعيدوا عليهم القتل فيهم كالذي كان أولا.وقال قتادة: كان فرعون أمسك عن قتل الولدان، فلما بعث الله موسى، عليه السلام، إليه أعاد عليهم القتل ليصدهم بذلك عن متابعة موسى.قوله: ﴿وما كيد الكافرين إلا في." (٢)

"قوله تعالى: ﴿وما تخفي صدورهم أكبر﴾ (ﷺ١) أي: من العداوة والخيانة (ﷺ٢). وقيل (ﷺ٣): من الكفر بالله ومحمد - صلى الله عليه وسلم -.وقوله تعالى: ﴿قد بينا لكم الآيات﴾ قال عطاء (ﷺ٤): يريد: ما أمرهم به من

(١) التفسير الوسيط للواحدي الواحدي ٤/٧

(٢) التفسير الوسيط للواحدي الواحدي ٤/٨

طاعته، وما نهاهم عنه من معصيته.وقال السدي (رحمه الله٥): قد بينا آياتهم؛ لتعرفوهم بها.وقوله تعالى: ﴿إن كنتم تعقلون﴾ قيل (رحمه الله٦): إن كنتم تعقلون موقع يقع (رحمه الله٧) البيان، ومبلغ عائدته عليكم (رحمه الله٨).وقيل (رحمه الله٩): إن كنتم تعقلون الفصل بين ما يستحقه العدو، والولي.١١٩ - قوله تعالى: ﴿ها أنتم أولاء تحبونهم﴾ الآية. مضى الكلام في (ها) مع (أنتم) عند قوله: ﴿ها أنتم هؤلاء حاججتم﴾ [آل عمران: ٦٦].قال الفراء (رحمه الله١٠): العرب إذا جاءت إلى اسم مكني قد وصف بـ (هذا) و (هذان) و (هؤلاء)، فرقوا بين (ها) وبين (ذا)، المكني بينهما، وذلك فيرحمه الله__________(رحمه الله١) في (ج): (وما تخفي الصدور).(رحمه الله٢) انظر: "تفسير مقاتل" ١/ ٢٩٧، و"تفسير الثعلبي" ٣/ ١٠٤ب.(رحمه الله٣) لم أهتد إلى القائل، ولا فرق بين القولين لأنهما متلازمان.(رحمه الله٤) لم أقف على مصدر قوله.(رحمه الله٥) لم أقف على مصدر قوله.(رحمه الله٦) قاله -بمعناه- الطبري في "تفسيره" ٤/ ٦٤.(رحمه الله٧) هكذا في: (أ)، (ب). وفي (ج): مهملة من النقط وأرى أن الأصوب أن تقرأ (نفع)؛ لأنها تتناسب مع عبارة الطبري التالية.(رحمه الله٨) ونص قول الطبري: (إن كنتم تعقلون عن الله مواعظه وأمره ونهيه، وتعرفون مواقع نفع ذلك منكم، ومبلغ عائدته عليكم).(رحمه الله٩) لم أهتد للقائل.(رحمه الله١٠) في: "معاني القرآن"، له ١/ ٢٣١. نقله عنه بنصه.." (١)

"﴿كاظمين ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع (١٨) يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور (١٩) والله يقضي بالحق والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء إن الله هو﴾ الحناجر [كاظمين]) قال قتادة: ترتفع القلوب من الصدور إلى الحلوق، وتلتصق بها من الخوف والفزع، فلا هي ترجع من أماكنها، ولا هي تخرج.وقوله: ﴿كاظمين﴾ الكاظم هو الممسك على قلبه بما فيه. وقيل: مغمومين مكروبين. ويقال: باكين. ومن هذا كظم الغيظ إذا أمسكه (وصبر) عليه.وقوله: ﴿وما للظالمين من حميم ولا شفيع﴾ الحميم: القريب. والشفيع: الذي يدعو فيجاب. وعن الحسن البصري أنه قال: استكثروا من أصدقاء المؤمنين فإن لهم شفاعة عند الله تعالى.وقوله: ﴿يطاع﴾ أي: يجاب.." (٢)

"وقوله: ﴿يعلم خائنة الأعين. أي: خيانة الأعين وخيانة الأعين مسارعة النظر إلى ما لا يحل.قال ابن عباس: هو الرجل يكون بين الرجال، فتمر بهم امرأة فينظر إليها، فإذا نظر إليه أصحابه غض بصره. قال السدى: خائنة الأعين هو الرص بالعين.وقوله: ﴿وما تخفي الصدور﴾ هو شهوة القلب. وقيل: هو أنه لو قدر عليها هل يزني أو لا؟وعن السدى قال: هو وسوسة القلب. وعن بعضهم قال (خيانة العين) أن يقول: رأيت ولم ير، وخيانة القلب هو أن يقول: علمت ولم يعلم.." (٣)

"حكم، فيعتمد عليه الناس بعده، وإنما قال: ﴿على الذين يبدلونه﴾ ولم يقل عليه، ليبين أن إثمه للتبديل لا لغيره، ونبه بقوله: ﴿إن الله سميع عليم﴾ أن ذلك وإن خفي على الناس، فلن يخفى عليه تعالى، فإنه يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور.قوله - عز وجل -:﴿فمن خاف من موص جنفا أو إثما فأصلح بينهم فلا إثم عليه إن الله غفور رحيم﴾الآية

---

(١) التفسير البسيط الواحدي ٥/٥٤٤

(٢) تفسير السمعاني السمعاني، أبو المظفر ١٣/٥

(٣) تفسير السمعاني السمعاني، أبو المظفر ١٣/٥

(١٨٢) سورة البقرة.جنف وخيف يتقاربان، لكن جنف استعمل للميل إلى الخير، وخيف في اليد إلى الجور، وخاف يقاربه، إلا أن أكثر ما يقال في الحاكم وخيفه أن يوصي لإنسان والمراد لغيره، كما قال طاوس: الخيف: التولج نحو أن يوصي الرجل لابن الابن ليوصل المال إلى أبيه أو لزوج ابنته ليوصله إليها، أو يخص في حيث يجب العموم، أو يعم حيث يجب الخصوص، وقوله: ﴿بينهم﴾ أي بين القوم الذين لهم مدخل في ذلك من الورثة والموصى لهم، وجاز إضمارهم لدلالة الكلام على ذكرهم.إن قيل: كيف قال: ﴿جنفا أو إثما﴾ والجنف هو الإثم؟ قيل: قد قال الربيع: الجنف في الخطأ، والإثم في العمد، وقيل: الإثم: ما يكبر معصيته، والجنف ما دون ذلك، وخوفه هو أن يبدو له أمارة تقتضي حصول ذلك، ولا فرق بين أن يخاف منه ذلك، قبل موت الموصى فيرشده، أو بعد موته فيصلحه، وليس الإصلاح بمقصور على إيقاع الصلح دون استعمال الصلاح، بل يتناولهما، وإنما قال: ﴿فلا إثم عليه﴾ لأنه لما خوف في الآية الأولى من تغيير الوصية بين أن النهي عن تغييره فيما لا." (١)

"وقوله: (يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم).وقوله: (آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره)وقوله: (موتوا بغيظكم) دعاء عليهم وإيجاب ذلك لهم، وإن لم يكن إيجاباعليهم، وقوله: (عليم بذات الصدور) كقوله (يعلم السر وأخفى).وقوله: (يعلم ما في أنفسكم فاحذروه)وقوله: (يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور) ونحو ذلك.قوله تعالى: (إن تمسسكم حسنة تسؤهم وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئا إن الله بما يعملون محيط (١٢٠)." (٢)

"كقوله: (أن الله يعلم ما في أنفسكم فاحذروه).وقوله تعالى: (يعلم السر وأخفى) وقوله: (يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور).وهذه الآية كالشرح لما أجمله في الأولى، حيث قال: (قل هو من عند أنفسكم).قوله تعالى: (الذين قالوا لإخوانهم وقعدوا لو أطاعونا ما قتلوا قل فادرءوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين (١٦٨)هذه الآية من تمام صفة المنافقين عبد الله بن أبي وأصحابه.قالوا: إن قتلى أحد لو أطاعونا في التأخر عن القتال ولزموابيوتهم ما قتلوا، وإعراب (الذين): إما نصب على البدل من(الذين نافقوا)، أو رفع على خبر الابتداء المضمر، أو بدل منالضمير في (يكتمون).إن قيل: لم أخر ذكر القعود عن القول." (٣)

"الغريب: ابن زيد، بيوت التجار فيها أمتعة الناس.العجيب: ابن الحنفية: بيوت مكة.قوله: (فيها) صفة للبيوت، (متاع) رفع بما تضمن من معنى الفعل.ويجوز أن يرتفع بالابتداء "فيها" خبره، والجملة صفة للبيوت.الغريب: (فيها) متصل بالبيوت، (متاع) خبر مبتدأ محذوف، أيذلك متاع لكم.قوله: (يغضوا من أبصارهم) ."من" اللتبعيض، وهو ترك النظر إلى ما لا يحل، وقيل: في بعضالأوقات والغض: أن يداني بين جفنيه من غير ملاقاة.الغريب: أي إذا دخلتم بيوت غيركم فغضوا من أبصاركم، فإن الله(يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور) .قوله: (يغضضن من أبصارهن) .ليس لهن أن ينظرن إلى

---

(١) تفسير الراغب الأصفهاني الراغب الأصفهاني ٣٨٤/١

(٢) تفسير الراغب الأصفهاني الراغب الأصفهاني ٨٢٩/٢

(٣) تفسير الراغب الأصفهاني الراغب الأصفهاني ٩٧٧/٣

الرجال. كما ليس للرجال أن ينظروا إليهن.قوله: (أو إخوانهن أو بني إخوانهن) ، لم يذكر في الآية العم والخاللمكان أبنائهم.قوله: (أو التابعين غير أولي الإربة) ، قيل: الصبي.الشعبي: العنين. ابن جير: الابله. وقيل: الشيخ الهرم وقيل: المجبوب.وقيل: الخصي.الغريب: عكرمة: المخنث الذي لا يقوم زبه.." [(١)]

"الغريب: هو قول الإنسان رأيت ولم ير، وما رأيت ورأى.قوله: (وما تخفي الصدور) أي القلوب، وسميت الصدور، لأنهافيها.قوله: (كانوا هم) .(هم) فعل وعماد، ويجوز أن يكون تاكيدا للضمير.قوله: (فأخذهم الله)تكرار لبيان علة الأخذ.قوله: (فقالوا ساحر) .أي موسى ساحر.قوله: (وقال رجل مؤمن) .قيل: اسمه حبيب، وقيل: سمعان، وقيل: خرقبيل.الغريب: هو موسى عليه السلام، وكان قبل ذلك يكتم إيمانه.قوله: (من آل فرعون)صفة لرجل، وقيل: يتصل بالكتمان، أي يكتم إيمانه من آل فرعون.قوله: (بعض الذي يعدكم) يعني عذاب الدنيا.الغريب: بعض صلة، وقيل: بعض بمعنى كل.العجيب: بعض الذي يعدكم، وفي البعض هلاككم.قوله: (سبيل الرشاد) .أي طريق الهدى.العجيب: الرشاد اسم صنم من أصنامه، حكاه أبو الليث في تفسيره.قوله: (جاءكم يوسف من قبل) .." [(٢)]

"﴿اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب (١٧) وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع (١٨) يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور (١٩) والله يقضي بالحق والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء إن الله هو السميع البصير (٢٠) أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم كانوا هم أشد منهم قوة وآثارا في الأرض فأخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق (٢١) ﴾﴿اليوم تجزى كل نفس بما كسبت﴾ يجزى المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته، ﴿لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب﴾ .﴿وأنذرهم يوم الآزفة﴾ يعني: يوم القيامة، سميت بذلك لأنها قريبة إذ كل ما هو آت قريب، نظيره قوله عز وجل: "أزفت الآزفة" (النجم-٥٧) أي: قربت القيامة ﴿إذ القلوب لدى الحناجر﴾ وذلك أنها تزول عن أماكنها من الخوف حتى تصير إلى الحناجر، فلا هي تعود إلى أماكنها، ولا هي تخرج من أفواههم فيموتوا ويستريحوا، ﴿كاظمين﴾ مكروبين ممتلئين خوفا وحزنا، والكظم تردد الغيظ والخوف والحزن في القلب حتى يضيق به. ﴿ما للظالمين من حميم﴾ قريب ينفعهم، ﴿ولا شفيع يطاع﴾ فيشفع فيهم.﴿يعلم خائنة الأعين﴾ أي: خيانتها وهي مسارقة النظر إلى ما لا يحل. قال مجاهد: وهو نظر الأعين إلى ما نهى الله عنه. ﴿وما تخفي الصدور﴾ .﴿والله يقضي بالحق والذين يدعون من دونه﴾ [يعني الأوثان] (١) ﴿لا يقضون بشيء﴾ لأنها لا تعلم شيئا ولا تقدر على شيء، قرأ نافع [وابن عامر] (٢) : "تدعون" بالتاء، وقرأ الآخرون بالياء. ﴿إن الله هو السميع البصير﴾ .﴿أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم كانوا هم أشد منهم قوة﴾ قرأ ابن عامر: "منكم" بالكاف، وكذلك هو في مصاحفهم، ﴿وآثارا في الأرض﴾ فلم ينفعهم ذلك ﴿فأخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق﴾ يدفع عنهم العذاب.__________(١) زيادة من "ب".(٢) ساقط من "ب".." (٣)

---

(١) غرائب التفسير وعجائب التأويل الكرماني، برهان الدين ٢/٧٩٥

(٢) غرائب التفسير وعجائب التأويل الكرماني، برهان الدين ٢/١٠٢٩

(٣) تفسير البغوي - طيبة البغوي ، أبو محمد ٧/١٤٤

"عرضت عليهم سيئاتهم، وعاينوا العذاب، فيقال لهم: لمقت الله أكبر من مقتكم أنفسكم إذ تدعون إلى الإيمان فتكفرون، يعني لمقت الله إياكم في الدنيا إذ تدعون إلى الإيمان فتكفرون أكبر من مقتكم اليوم أنفسكم عند حلول العذاب بكم.قالوا ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين، قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما وقتادة والضحاك:كانوا أمواتا في أصلاب آبائهم فأحياهم الله في الدنيا، ثم أماتهم الموتة التي لا بد منها ثم أحياهم للبعث يوم القيامة، فهما موتتان وحياتان، وهذا كقوله تعالى: كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم [البقرة: ٢٨] ، وقال السدي: أميتوا في الدنيا ثم أحيوا في قبورهم للسؤال، ثم أميتوا في قبورهم ثم أحيوا في الآخرة. فاعترفنا بذنوبنا فهل إلى خروج من سبيل، أي من خروج من النار إلى الدنيا فنصلح أعمالنا ونعمل بطاعتك، نظيره: هل إلى مرد من سبيل [الشورى: ٤٤] .قال الله تعالى: ذلكم بأنه إذا دعي الله وحده كفرتم، فيه متروك استغني عنه لدلالة الظاهر عليه، مجازه: فأجيبوا أن لا سبيل إلى ذلك، وهذا العذاب والخلود في النار بأنكم إذا دعي الله وحده كفرتم، أي إذا قيل لا إله إلا الله أنكرتم، وقلتم: أجعل الآلهة إلها واحدا [ص: ٥] ، وإن يشرك به، غيره تؤمنوا، تصدقوا ذلك الشرك، فالحكم لله العلي الكبير. الذي لا أعلى منه ولا أكبر.[سورة غافر (٤٠) : الآيات ١٣ الى ١٩]هو الذي يريكم آياته وينزل لكم من السماء رزقا وما يتذكر إلا من ينيب (١٣) فادعوا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون (١٤) رفيع الدرجات ذو العرش يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده لينذر يوم التلاق (١٥) يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شيء لمن الملك اليوم لله الواحد القهار (١٦) اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب (١٧)وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع (١٨) يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور (١٩)هو الذي يريكم آياته وينزل لكم من السماء رزقا، يعني المطر الذي هو سبب الأرزاق، وما يتذكر، وما يتعظ بهذه الآيات، إلا من ينيب، يرجع إلى الله تعالى في جميع أموره.فادعوا الله مخلصين له الدين، الطاعة والعبادة. ولو كره الكافرون.رفيع الدرجات، رافع درجات الأنبياء والأولياء في الجنة، ذو العرش، خالقه ومالكه، يلقي الروح، ينزل الوحي، سماه روحا لأنه تحيا به القلوب كما تحيا به الأبدان بالأرواح، من أمره، قال ابن عباس: من قضائه. وقيل: من قوله. وقال مقاتل: بأمره. على من يشاء من عباده لينذر، أي لينذر النبي بالوحي، يوم التلاق، وقرأ يعقوب بالتاء أي لتنذر أنت يا محمد يوم التلاق، يوم يلتقي أهل السماء وأهل الأرض. قال قتادة ومقاتل: يلتقي فيه الخلق والخالق. قال ابن زيد: يتلاقى العباد. وقال ميمون بن مهران: يلتقي الظالم والمظلوم والخصوم. وقيل: يلتقي العابدون والمعبودون.وقيل: يلتقي فيه المرء مع عمله.يوم هم بارزون، خارجون من قبورهم ظاهرون لا يسترهم شيء، لا يخفى على الله منهم، من أعمالهم وأحوالهم، شيء، ويقول الله تعالى في ذلك اليوم بعد فناء الخلق، لمن الملك اليوم، فلا أحد يجيبه فيجيب بنفسه فيقول، لله الواحد القهار، الذي قهر الخلق بالموت.اليوم تجزى كل نفس بما كسبت، يجزى المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته،." (١)

"لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب.وأنذرهم يوم الآزفة، يعني يوم القيامة سميت بذلك لأنها قريبة إذ كل ما هو آت قريب، نظيره قوله عز وجل: أزفت الآزفة (٥٧) [النجم: ٥٧] ، أي قربت القيامة. إذ القلوب لدى الحناجر، وذلك أنها

---

(١) تفسير البغوي - إحياء التراث البغوي ، أبو محمد ١٠٨/٤

تزول عن أماكنها من الخوف حتى تصير إلى الحناجر، فهي لا تعود إلى أماكنها وهي لا تخرج من أفواههم فيموتوا ويستريحوا. كاظمين، مكروبين ممتلئين خوفا وحزنا، والكظم تردد الغيظ والخوف والحزن في القلب حتى يضيق به. ما للظالمين من حميم، قريب ينفعهم، ولا شفيع يطاع، فيشفع فيهم.يعلم خائنة الأعين، أي خيانتها وهي مسارقة النظر إلى ما يحل. قال مجاهد: [هو] [١] نظر الأعين إلى ما نهى الله عنه. وما تخفي الصدور.[سورة غافر (٤٠) : الآيات ٢٠ الى ٢٦]والله يقضي بالحق والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء إن الله هو السميع البصير (٢٠) أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم كانوا هم أشد منهم قوة وآثارا في الأرض فأخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق (٢١) ذلك بأنهم كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فكفروا فأخذهم الله إنه قوي شديد العقاب (٢٢) ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين (٢٣) إلى فرعون وهامان وقارون فقالوا ساحر كذاب (٢٤)فلما جاءهم بالحق من عندنا قالوا اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه واستحيوا نساءهم وما كيد الكافرين إلا في ضلال (٢٥) وقال فرعون ذروني أقتل موسى وليدع ربه إني أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر في الأرض الفساد (٢٦)والله يقضي بالحق والذين يدعون من دونه، يعني الأوثان، لا يقضون بشيء، لأنها لا تعلم شيئا ولا تقدر على شيء.قرأ نافع [٢] تدعون، بالتاء، وقرأ الآخرون بالياء. إن الله هو السميع البصير.أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم كانوا هم أشد منهم قوة، قرأ ابن عامر منكم بالكاف، وكذلك هو في مصاحفهم، وآثارا في الأرض، فلم ينفعهم ذلك. فأخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق، يدفع عنهم العذاب.ذلك أي ذلك العذاب الذي نزل بهم، بأنهم كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فكفروا فأخذهم الله إنه قوي شديد العقاب قال عز وجل: ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين (٢٣) إلى فرعون وهامان وقارون فقالوا ساحر كذاب (٢٤) فلما جاءهم بالحق من عندنا قالوا، يعني فرعون وقومه، اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه.قال قتادة: هذا غير القتل الأول لأن فرعون كان قد أمسك عن قتل الولدان، فلما بعث موسى عليه السلام أعاد القتل عليهم، فمعناه أعيدوا عليهم القتل. واستحيوا نساءهم، ليصدوهم بذلك عن متابعة موسى ومظاهرته، وما كيد الكافرين، وما مكر فرعون وقومه واحتيالهم،______________(١) زيادة عن المخطوط.(٢) زيد في المطبوع «وابن عامر» .." (١)

"[سورة غافر (٤٠) : آية ١٩]يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور (١٩)الخائنة: صفة للنظرة. أو مصدر بمعنى الخيانة، كالعافية بمعنى المعافاة، والمراد: استراق النظر إلى ما لا يحل، كما يفعل أهل الريب، ولا يحسن أن يراد الخائنة من الأعين، لأن قوله وما تخفي الصدور لا يساعد عليه «١» . فإن قلت: بم اتصل قوله يعلم خائنة الأعين؟قلت: هو خبر من أخبار هو في قوله هو الذي يريكم مثل يلقي الروح ولكن يلقي الروح قد علل بقوله لينذر يوم التلاق ثم استطرد ذكر أحوال يوم التلاق إلى قوله ولا شفيع يطاع فبعد لذلك عن أخواته.[سورة غافر (٤٠) : آية ٢٠]والله يقضي بالحق والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء إن الله هو السميع البصير (٢٠)والله يقضي بالحق يعني: والذي هذه صفاته وأحواله لا يقضى إلا بالحق والعدل.لاستغنائه عن الظلم. وآلهتكم لا يقضون بشيء، وهذا تهكم بهم، لأن ما لا يوصف بالقدرة لا يقال فيه: يقضى، أو لا يقضى إن الله هو السميع البصير تقرير لقوله يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور ووعيد لهم بأنه

---

(١) تفسير البغوي - إحياء التراث البغوي ، أبو محمد ٤/١٠٩

يسمع ما يقولون ويبصر ما يعملون، وأنه يعاقبهم عليه وتعريض بما يدعون من دون الله، وأنها لا تسمع ولا تبصر. وقرئ: يدعون، بالتاء والياء.[سورة غافر (٤٠) : الآيات ٢١ الى ٢٢]أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم كانوا هم أشد منهم قوة وآثارا في الأرض فأخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق (٢١) ذلك بأنهم كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فكفروا فأخذهم الله إنه قوي شديد العقاب (٢٢)هم في كانوا هم أشد منهم فصل. فإن قلت: من حق الفصل أن لا يقع إلا بين معرفتين، فما باله واقعا بين معرفة وغير معرفة؟ وهو أشد منهم. قلت: قد ضارع المعرفة في أنه لا تدخله الألف واللام، فأجرى مجراها. وقرئ: منكم، وهي في مصاحف أهل الشأم وآثارا_____________(١) . قال محمود: «الخائنة إما صفة للنظرة وإما مصدر كالعافية» قال: «ولا يحسن أن يراد الخائنة من الأعين» لأنه لا يساعد عليه قوله تعالى وما تخفي الصدور قال أحمد: إنما لم يساعد عليه لأن خائنة الأعين على هذا التقدير معناه الأعين الخائنة، وإنما يقابل الأعين الصدور، لا ما تخفيه الصدور، بخلاف التأويل الأول، فان المراد به نظرات الأعين فيطابق خفيات الصدور. [.....]."(١)

"قوله عز وجل:[سورة غافر (٤٠) : الآيات ١٨ الى ٢١]وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع (١٨) يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور (١٩) والله يقضي بالحق والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء إن الله هو السميع البصير (٢٠) أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم كانوا هم أشد منهم قوة وآثارا في الأرض فأخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق (٢١)أمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بالإنذار للعالم والتحذير من يوم القيامة وأهواله، وهو الذي أراد ب يوم الآزفة، قاله مجاهد وقتادة وابن زيد: ومعنى الآزفة: القريبة، من أزف الشيء إذا قرب، والآزفة في الآية صفة لمحذوف قد علم واستقر في النفوس هوله، فعبر عنه بالقرب تخويفا، والتقدير:يوم الساعة الآزفة أو الطامة الآزفة ونحو هذا فكما لو قال: وأنذرهم الساعة لعلم هولها بما استقر في النفوس من أمرها، فكذلك علم هنا إذا جاء بصفتها التي تقتضي حلولها واقترابها.وقوله: إذ القلوب لدى الحناجر معناه: عند الحناجر، أي قد صعدت من شدة الهول والجزع، وهذا أمر يحتمل أن يكون حقيقة يوم القيامة من انتقال قلوب البشر إلى حناجرهم وتبقى حياتهم، بخلاف الدنيا التي لا تبقى فيها لأحد مع تنقل قلبه حياة، ويحتمل أن يكون تجوزا عبر عما يجده الإنسان من الجزع وصعود نفسه وتضايق حنجرته بصعود القلب، وهذا كما تقول العرب: كادت نفسي أن تخرج، وهذا المعنى يجده المفرط الجزع كالذي يقرب للقتل ونحو.وقوله: كاظمين حال مما أبدل منه قوله: إذ القلوب لدى الحناجر أو مما تنضاف إليه القلوب، لأن المراد إذ قلوب الناس لدى حناجرهم، وهذا كقوله تعالى: تشخص فيه الأبصار مهطعين إلى الداع [القمر: ٨] أراد تشخص فيه أبصارهم، والكاظم: الذي يرد غيظه وجزعه في صدره، فمعنى الآية أنهم يطمعون برد ما يجدونه في الحناجر والحال تغالبهم. ثم أخبرهم تعالى أن الظالمين ظلم الكفر في تلك الحال ليس لهم حميم، أي قريب يحتم لهم ويتعصب، ولا لهم شفيع يطاع فيهم، وإن هم بعضهم بالشفاعة لبعض فهي شفاعة لا تقبل، وقد روي أن بعض الكفرة يقولون لإبليس يوم القيامة: اشفع لنا، فيقوم ليشفع، فتبدو منه أنتن ريح يؤذي بها أهل المحشر، ثم ينحصر ويكع

---

(١) تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل الزمخشري ١٥٩/٤

ويخزى. و: يطاع في موضع الصفة ل شفيع، لأن التقدير: ولا شفيع يطاع، وموضع يطاع يحتمل أن يكون خفضا حملا على اللفظ، ويحتمل أن يكون رفعا عطفا على الموضع قبل دخول من.قال القاضي أبو محمد: وهذه الآية كلها عندي اعتراض في الكلام بليغ.وقوله: يعلم خائنة الأعين متصل بقوله: سريع الحساب [غافر: ١٧] لأن سرعة حسابه تعالى." (١)

"للخلق إنما هي بعلمه الذي لا يحتاج معه إلى روية وفكرة ولا لشيء مما يحتاجه الحاسبون. وقالت فرقة:يعلم متصل بقوله: لا يخفى على الله منهم شيء [غافر: ١٦] ، وهذا قول حسن يقويه تناسب المعنيين ويضعفه بعد الآية وكثرة الحائل. والخائنة: مصدر كالخيانة، ويحتمل في الآية أن يكون خائنة اسم فاعل، كما تقول: ناظرة الأعين إذا خانت في نظرها. وهذه الآية عبارة عن علم الله تعالى بجميع الخفيات، فمن ذلك كسر الجفون والغمز بالعين أو النظرة التي تفهم معنى، أو يريد بها صاحبها معنى، ومن هذا قول النبي صلى الله عليه وسلم حين جاءه عبد الله بن أبي سرح ليسلم بعد ردته بشفاعة عثمان، فتلكأ عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم بايعه، ثم قال عليه السلام لأصحابه: «هلا قام إليه رجل حين تلكأت عليه فضرب عنقه؟» ، فقالوا يا رسول الله: ألا أومأت إلينا؟ فقال عليه السلام: «ما ينبغي لنبي أن تكون له خائنة الأعين» . وفي بعض الكتب المنزلة من قول الله عز وجل: أنا مرصاد الهمم، أنا العالم بمجال الفكر وكسر الجفون. وقال مجاهد: خائنة الأعين: مسارقة النظر إلى ما لا يجوز. ثم قوى تعالى هذه الأخبار بأنه يعلم ما تخفي الصدور مما لم يظهر على عين ولا غيرها، ومثل المفسرون في هذه الآية بنظر رجل إلى امرأة هي حرمة لغيره، فقالوا خائنة الأعين: هي النظرة الثانية. وما تخفي الصدور: أي عند النظرة الأولى التي لا يمكن المرء دفعها، وهذا المثال جزء من خائنة الأعين.ثم قدح في جهة الأصنام، فأعلم أنه لا رب غيره يقضي بالحق، أي يجازي الحسنة بعشر والسيئة بمثل، وينصف المظلوم من الظالم إلى غير ذلك من أقضية الحق والعدل، والأصنام لا تقضي بشيء ولا تنفذ أمرا. و: يدعون معناه: يعبدون.وقرأ جمهور القراء: «يدعون» بالياء على ذكر الغائب. وقرأ نافع بخلاف عنه. وأبو جعفر وشيبة:«تدعون» بالتاء على معنى قل لهم يا محمد: والذين تدعون أنتم.ثم ذكر تعالى لنفسه صفتين بين عرو الأوثان عنهما وهي في جهة الله تعالى عبارة عن الإدراك على إطلاقه، ثم أحال كفار قريش وهم أصحاب الضمير في يسيروا على الاعتبار بالأمم القديمة التي كذبت أنبياءها فأهلكها الله تعالى.وقوله: فينظروا يحتمل أن يجعل في موضع نصب جواب الاستفهام، ويحتمل أن يكون مجزوما عطفا على يسيروا. و: كيف في قوله: كيف كان عاقبة خبر كان مقدم، وفي كيف ضمير، وهذا مع أن تكون كان الناقصة. وأما إن جعلت تامة بمعنى حدث ووقع، ف كيف ظرف ملغى لا ضمير فيه.وقرأ ابن عامر وحده: «أشد منكم» بالكاف، وكذلك هي في مصاحف الشام، وذلك على الخروج من غيبة إلى الخطاب. وقرأ الباقون: «أشد منهم» وكذلك هي في سائر المصاحف، وذلك أوفق لتناسب ذكر الغيب.والآثار في ذلك: هي المباني والمآثر والصيت الدنياوي، وذنوبهم كانت تكذيب الأنبياء. والواقي:الساتر المانع، مأخوذ من الوقاية.." (٢)

---

(١) تفسير ابن عطية = المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ابن عطية ٥٥٢/٤

(٢) تفسير ابن عطية = المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ابن عطية ٥٥٣/٤

"عباس: والثاني: يلتقي فيه الأولون والآخرون، روي عن ابن عباس أيضا. والثالث: يلتقي فيه الخلق والخالق، قاله قتادة ومقاتل. والرابع: يلتقي المظلوم والظالم، قاله ميمون بن مهران. والخامس: يلتقي المرء بعمله، حكاه الثعلبي.قوله تعالى: يوم هم بارزون أي: ظاهرون من قبورهم لا يخفى على الله منهم شيء. فإن قيل:فهل يخفى عليه منهم اليوم شيء؟. فالجواب: أن لا، غير أن معنى الكلام التهديد بالجزاء وللمفسرين فيه ثلاثة أقوال: أحدها: لا يخفى عليه مما عملوا شيء، قاله ابن عباس. والثاني: لا يستترون منه بجبل ولا مدر، قاله قتادة. والثالث: أن المعنى: أبرزهم جميعا، لأنه لا يخفى عليه منهم شيء، حكاه الماوردي.قوله تعالى: لمن الملك اليوم اتفقوا على أن هذا يقوله الله عز وجل بعد فناء الخلائق.واختلفوا في وقت قوله عز وجل له على قولين: أحدهما: أنه يقوله عند فناء الخلائق إذا لم يبق مجيب.فيرد هو على نفسه فيقول: لله الواحد القهار، قاله الأكثرون. والثاني: أنه يقوله يوم القيامة. وفيمن يجيبه حينئذ قولان: أحدهما: أنه يجيب نفسه وقد سكت الخلائق لقوله تعالى قاله عطاء. والثاني: أن الخلائق كلهم يجيبونه فيقولون: «لله الواحد القهار» ، قاله ابن جريج.[سورة غافر (٤٠) : الآيات ١٨ الى ١٩]وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع (١٨) يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور (١٩)قوله تعالى: وأنذرهم يوم الآزفة فيه قولان: أحدهما: أنه يوم القيامة، قاله الجمهور. قال ابن قتيبة: وسميت القيامة بذلك لقربها، يقال: أزف شخوص فلان، أي: قرب. والثاني: أنه يوم حضور المنية، قاله قطرب. قوله تعالى: إذ القلوب لدى الحناجر وذلك أنها ترتقي إلى الحناجر فلا تخرج ولا تعود، هذا على القول الأول، وعلى الثاني: القلوب هي النفوس تبلغ الحناجر عند حضور المنية قال الزجاج: وكاظمين منصوب على الحال، والحال محمولة على المعنى لأن القلوب لا يقال لها: كاظمين، وإنما الكاظمون أصحاب القلوب فالمعنى: إذ قلوب الناس لدى الحناجر في حال كظمهم. قال المفسرون: «كاظمين» أي: مغمومين ممتلئين خوفا وحزنا، والكاظم: الممسك للشيء على ما فيه، وقد أشرنا إلى هذا عند قوله تعالى: والكاظمين الغيظ «١» . ما للظالمين يعني الكافرين من حميم أي: قريب ينفعهم ولا شفيع يطاع فيهم فتقبل شفاعته. يعلم خائنة الأعين قال ابن قتيبة: الخائنة والخيانة واحد. وللمفسرين فيها أربعة أقوال: أحدها: أنه الرجل يكون في القوم فتمر به المرأة فيريهم أنه يغض بصره، فإذا رأى منهم غفلة لحظ إليها، فإن خاف أن يفطنوا له غض بصره، قاله ابن عباس. والثاني: أنه نظر العين إلى ما نهي عنه، قاله مجاهد. والثالث: الغمز بالعين، قاله الضحاك والسدي. قال قتادة: هو الغمز بالعين فيما لا يحبه الله ولا يرضاه. والرابع: النظرة بعد النظرة، قاله ابن السائب. قوله تعالى: وما تخفي الصدور فيه ثلاثة أقوال: أحدها: ما تضمره من الفعل أن لو قدرت على ما نظرت إليه، قاله ابن عباس. والثاني: الوسوسة، قاله السدي. والثالث: ما______________(١) آل عمران: ١٣٤.." (١)

"مقام الدعاء فلا واسطة بيني وبينك يدل عليه أن كل قصة وقعت لم تكن معرفتها من المهمات. قال لرسوله صلى الله عليه وسلم:اذكر لهم تلك القصة كقوله تعالى: واتل عليهم نبأ ابني آدم بالحق [المائدة: ٢٧] . واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها [الأعراف: ١٧٥] . واذكر في الكتاب موسى [مريم: ٥١] ، واذكر في الكتاب إسماعيل [مريم: ٥٤] . واذكر في الكتاب إدريس [مريم: ٥٦] . ونبئهم عن ضيف إبراهيم [الحجر: ٥١] ، ثم قال في قصة يوسف: نحن

---

(١) زاد المسير في علم التفسير ابن الجوزي ٤/٣٣

نقص عليك أحسن القصص [يوسف: ٣] وفي أصحاب الكهف: نحن نقص عليك نبأهم بالحق [الكهف: ١٣] . وما ذاك إلا لما في هاتين القصتين من العجائب والغرائب، والحاصل كأنه سبحانه وتعالى قال: يا محمد إذا سئلت عن غيري فكن أنت المجيب، وإذا سئلت عني فاسكت أنت حتى أكون أنا القائل. وثانيها: أن قوله: وإذا سألك عبادي عني يدل على أن العبد له [أن يسأل] وقوله: فإني قريب يدل على أن الرب قريب من العبد. وثالثها: لم يقل فالعبد مني قريب، بل قال أنا منه قريب، وهذا فيه سر نفيس فإن العبد ممكن الوجود فهو من حيث هو، هو في مركز العدم وحضيض الفناء، فكيف يكون قريبا، بل القريب هو الحق سبحانه وتعالى فإنه بفضله وإحسانه جعله موجودا وقربه من نفسه فالقرب منه لا من العبد فلهذا قال: فإني قريب. ورابعها: أن الداعي ما دام يبقى خاطره مشغولا بغير الله تعالى فإنه لا يكون داعيا لله تعالى فإذا فني عن الكل وصار مستغرقا بمعرفة الله الأحد الحق امتنع أن يبقى في مقام الفناء عن غير الله مع الالتفات إلى غير الله تعالى فلا جرم رفعت الواسطة من البين فما قال: فقل إني قريب بل قال: فإني قريب فثبت بما تقرر فضل الدعاء وأنه من أعظم القربات ثم من شأن العبد إذا أراد أن يتحف مولاه أن لا يتحفه إلا بأحسن التحف والهدايا فلا/ جرم أول ما أراد موسى أن يتحف الحضرة الإلهية بتحف الطاعات والعبادات أتحفها بالدعاء فلا جرم قال: رب اشرح لي صدري. والوجه الثاني: في بيان فضل الدعاءقوله عليه السلام: «الدعاء مخ العبادة»ثم إن أول شيء أمر الله تعالى به موسى عليه السلام (العبادة) لأن قوله: إنني أنا الله [طه: ١٤] إخبار وليس بأمر إنما الأمر قوله: فاعبدني [طه: ١٤] فلما كان أول ما أورد على موسى من الأوامر هو الأمر بالعبادة لا جرم أول ما أتحف به موسى عليه السلام حضرة الربوبية من تحف العبادة هو تحفة الدعاء فقال: رب اشرح لي صدري. والوجه الثالث: وهو أن الدعاء نوع من أنواع العبادة فكما أنه سبحانه وتعالى أمر بالصلاة والصوم فكذلك أمر بالدعاء ويدل عليه قوله تعالى: وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب [البقرة: ١٨٦] . وقال ربكم ادعوني أستجب لكم [غافر: ٦٠] . وادعوه خوفا وطمعا [الأعراف: ٥٦] . ادعوا ربكم تضرعا وخفية [الأعراف: ٥٥] . هو الحي لا إله إلا هو فادعوه مخلصين له الدين [غافر: ٦٥] . قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن [الإسراء: ١١٠] . واذكر ربك في نفسك تضرعا وخيفة [الأعراف: ٢٠٥]وقال صلى الله عليه وسلم: «ادعوا بيا ذا الجلال والإكرام»فبهذه الآيات عرفنا أن الدعاء عبادة قال بعض الجهال: الدعاء على خلاف العقل من وجوه: أحدها: أنه علام الغيوب يعلم ما في الأنفس وما تخفي الصدور، فأي حاجة بنا إلى الدعاء. وثانيها: أن المطلوب إن كان معلوم الوقوع فلا حاجة إلى الدعاء وإن كان معلوم اللاوقوع فلا فائدة فيه. وثالثها: الدعاء يشبه الأمر والنهي وذلك من العبد في حق المولى سوء أدب. ورابعها: المطلوب بالدعاء إن كان من المصالح فالحكيم لا يهمله وإن لم يكن من المصالح لم يجز طلبه. وخامسها: فقد جاء أن أعظم مقامات الصديقين الرضا بقضاء الله تعالى. وقد ندب إليه والدعاء ينافي ذلك لأنه اشتغال بالالتماس والطلب. وسادسها:قال عليه السلام رواية عن الله تعالى: «من شغله ذكري." (١)

"شانه»ولهذا خلق السموات والأرض في ستة أيام ليتعلم منه الرفق والثبات فهذه هي الخصومة الواقعة بين الصنفين، وقلبك وصدرك هو القلعة. ثم إن لهذا الصدر الذي هو القلعة خندقا وهو الزهد في الدنيا وعدم الرغبة فيها وله سور وهو

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٣٤/٢٢

الرغبة الآخرة ومحبة الله تعالى فإن كان الخندق عظيما والسور قويا عجز عسكر الشيطان عن تخريبه فرجعوا وراءهم وتركوا القلعة كما كانت وإن كان خندق الزهد غير عميق وسور حب الآخرة غير قوي قدر الخصم على استفتاح قلعة الصدر فيدخلها ويبيت فيها جنوده من الهوى والعجب والكبر والبخل وسوء الظن بالله تعالى والنميمة والغيبة فينحصر الملك في القصر ويضيق الأمر عليه فإذا جاء مدد التوفيق وأخرج هذا العسكر من القلعة انفسح الأمر وانشرح الصدر وخرجت ظلمات الشيطان ودخلت أنوار هداية رب العالمين وذلك هو المراد بقوله: رب اشرح لي صدري. المثال الثاني: اعلم أن معدن النور هو القلب واشتغال الإنسان بالزوجة والولد والرغبة في مصاحبة الناس والخوف من الأعداء هو الحجاب المانع من وصول نور شمس القلب إلى فضاء الصدر فإذا قوى الله بصيرة العبد حتى طالع عجز الخلق وقلة فائدتهم في الدارين صغروا في عينه ولا شك في أنهم من حيث هم عدم محض على ما قال تعالى: كل شيء هالك إلا وجهه [القصص: ٨٨] فلا يزال العبد يتأمل فيما سوى الله تعالى إلى أن يشاهد أنهم عدم محض فعند ذلك يزول/ الحجاب بين قلبه وبين أنوار جلال الله تعالى وإذا زال الحجاب امتلأ القلب من النور فذلك هو انشراح الصدر.الفصل السادس: في الصدر اعلم أنه يجيء والمراد منه القلب: أفمن شرح الله صدره للإسلام [الزمر: ٢٢] ، رب اشرح لي صدري، وحصل ما في الصدور [العاديات: ١٠] ، يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور [غافر: ١٩] وقد يجيء والمراد الفضاء الذي فيه الصدر: فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور [الحج: ٤٦] واختلف الناس في أن محل العقل هل هو القلب أو الدماغ وجمهور المتكلمين على أنه القلب، وقد شرحنا هذه المسألة في سورة الشعراء في تفسير قوله: نزل به الروح الأمين على قلبك [الشعراء: ١٩٣، ١٩٤] وقال بعضهم المواد أربعة: الصدر والقلب والفؤاد واللب فالصدر مقر الإسلام: أفمن شرح الله صدره للإسلام [الزمر: ٢٢] والقلب مقر الإيمان: ولكن الله حبب إليكم الإيمان وزينه في قلوبكم [الحجرات: ٧] والفؤاد مقر المعرفة: ما كذب الفؤاد ما رأى [النجم: ١١] ، إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤلا [الإسراء: ٣٦] واللب مقر التوحيد:إنما يتذكر أولوا الألباب [الرعد: ١٩] واعلم أن القلب أول ما بعث إلى هذا العالم بعث خاليا عن النقوش كاللوح الساذج وهو في عالم البدن كاللوح المحفوظ، ثم إنه تعالى يكتب فيه بقلم الرحمة والعظمة كل ما يتعلق بعالم العقل من نقوش الموجودات وصور الماهيات وذلك يكون كالسطر الواحد إلى آخر قيام القيامة لهذا العالم الأصغر وذلك هو الصورة المجردة والحالة المطهرة، ثم إن العقل يركب سفينة التوفيق ويلقيها في بحار أمواج المعقولات وعوالم الروحانيات فيحصل من مهاب رياح العظمة والكبرياء رخاء السعادة تارة ودبور الإدبار أخرى، فربما وصلت سفينة النظر إلى جانب مشرق الجلال فتسطع عليه أنوار الإلهية ويتخلص العقل عن ظلمات الضلالات، وربما توغلت السفينة في جنوب الجهالات فتنكسر وتغرق فحيثما تكون السفينة في ملتطم أمواج العزة يحتاج حافظ السفينة إلى التماس الأنوار والهدايات فيقول هناك: رب اشرح لي صدري واعلم." (١)

"اعلم أن الله تعالى لما ختم ما اقتصه من خبر الأنبياء ذكر بعد ذلك ما يدل على نبوته صلى الله عليه وسلم وهو من وجهين:الأول: قوله: وإنه لتنزيل رب العالمين وذلك لأنه لفصاحته معجز فيكون ذلك من رب العالمين، أو لأنه إخبار

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٤١/٢٢

عن القصص الماضية من غير تعليم البتة، فلا يكون ذلك إلا بوحي من الله تعالى، وقوله بعده: وإنه لفي زبر الأولين كأنه مؤكد لهذا الاحتمال، وذلك لأنه عليه السلام لما ذكر هذه القصص السبع على ما هي موجودة في زبر الأولين من غير تفاوت أصلا مع أنه لم يشتغل بالتعلم والاستعداد، دل ذلك على أنه ليس إلا من عند الله تعالى، فهذا هو المقصود من الآية.فأما قوله تعالى: وإنه لتنزيل رب العالمين فالمراد بالتنزيل المنزل، ثم قد كان يجوز في القرآن وهذه القصص أن يكون تنزيلا من الله تعالى إلى محمد صلى الله عليه وسلم بلا واسطة فقال: نزل به الروح الأمين والباء في قوله:نزل به الروح ونزل به الروح على القراءتين للتعدية، ومعنى نزل به الروح جعل الله الروح نازلا به على قلبك أي [حفظكه و] «١» فهمك إياه وأثبته في قلبك إثبات ما لا ينسى كقوله تعالى: سنقرئك/ فلا تنسى [الأعلى: ٦] والروح الأمين جبريل عليه السلام وسماه روحا من حيث خلق من الروح، وقيل لأنه نجاة الخلق في باب الدين فهو كالروح الذي تثبت معه الحياة، وقيل لأنه روح كله لا كالناس الذين في أبدانهم روح وسماه أمينا لأنه مؤتمن على ما يؤديه إلى الأنبياء عليهم السلام، وإلى غيرهم.وأما قوله: على قلبك ففيه قولان: الأول: أنه إنما قال: على قلبك وإن كان إنما أنزله عليه ليؤكد به أن ذلك المنزل محفوظ للرسول متمكن في قلبه لا يجوز عليه التغيير فيوثق بالإنذار الواقع منه الذي بين الله تعالى أنه هو المقصود ولذلك قال: لتكون من المنذرين الثاني: أن القلب هو المخاطب في الحقيقة لأنه موضع التمييز والاختبار، وأما سائر الأعضاء فمسخرة له والدليل عليه القرآن والحديث والمعقول، أما القرآن فآيات إحداها قوله تعالى في سورة البقرة [٩٧] : فإنه نزله على قلبك وقال هاهنا: نزل به الروح الأمين على قلبك وقال: إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب [ق: ٣٧] ، وثانيها: أنه ذكر أن استحقاق الجزاء ليس إلا على ما في القلب من المساعي فقال: لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم، ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم [البقرة: ٢٢٥] وقال: لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم [الحج: ٣٧] والتقوى في القلب لأنه تعالى قال: أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى [الحجرات: ٣] وقال تعالى: وحصل ما في الصدور [العاديات: ١٠] . وثالثها: قوله حكاية عن أهل النار: لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير [الملك: ١٠] ومعلوم أن العقل في القلب والسمع منفذ إليه، وقال: إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤلا [الإسراء: ٣٦] ومعلوم أن السمع والبصر لا يستفاد منهما إلا ما يؤديانه إلى القلب، فكان السؤال عنهما في الحقيقة سؤالا عن القلب وقال تعالى: يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور [غافر:١٩] ، ولم تخف «٢» الأعين إلا بما تضمر القلوب عند التحديق بها ورابعها: قوله: وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ما تشكرون [السجدة: ٩] فخص هذه الثلاثة بإلزام الحجة منها واستدعاء الشكر عليها، وقد قلنا لا طائل في السمع والأبصار إلا بما يؤديان إلى القلب ليكون القلب هو القاضي فيه والمتحكم__________(١) زيادة من الكشاف ٣/ ١٢٨ ط. دار الفكر.(٢) مقتضى الكلام أن يقول ولم تخن الأعين لأن القلوب هي التي تخفي.." (١)

"يجوز أن يكون مشروعا للجزاء لقوله تعالى: يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر [البقرة: ١٨٥] ولقوله تعالى: وما جعل عليكم في الدين من حرج [الحج: ٧٨]ولقوله صلى الله عليه وسلم: «لا ضرر ولا ضرار في الإسلام»عدلنا عن

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٢٤/٥٣٠

هذه العمومات فيما إذا كانت المضار أجزية، وفيما ورد نص في الإذن فيه كذبح الحيوانات، فوجب أن يبقى على أصل الحرمة فيما عداه، فثبت بما ذكرنا أن الأصل في المضار والآلام التحريم، فإن وجدنا نصا خاصا يدل على الشرعية قضينا به تقديما للخاص على العام، وإلا فهو باق على أصل التحريم، وهذا أصل كلي منتفع به في الشريعة والله أعلم.الصفة السادسة: من صفات ذلك اليوم قوله لا ظلم اليوم والمقصود أنه لما قال: اليوم تجزى كل نفس بما كسبت أردفه بما يدل على أنه لا يقع في ذلك اليوم نوع من أنواع الظلم، قال المحققون وقوع الظلم في الجزاء يقع على أربعة أقسام أحدها: أن يستحق الرجل ثوابا فيمنع منه وثانيها: أن يعطي بعض بعض حقه ولكنه لا يوصل إليه حقه بالتمام وثالثها: أن يعذب من لا يستحق العذاب ورابعها: أن يكون الرجل مستحقا للعذاب فيعذب ويزاد على قدر حقه فقوله تعالى: لا ظلم اليوم يفيد نفي هذه الأقسام الأربعة، قال القاضي هذه الآية قوية في إبطال قول المجبرة لأن على قولهم لا ظلم غالبا وشاهدا إلا من الله، ولأنه تعالى إذا خلق فيه الكفر ثم عذبه عليه فهذا هو عين الظلم والجواب عنه معلوم.ثم قال تعالى: إن الله سريع الحساب وذكر هذا الكلام في هذا الموضع لائق جدا، لأنه تعالى لما بين أنه لا ظلم بين أنه سريع الحساب. وذلك يدل على أنه يصل إليهم ما يستحقونه في الحال والله أعلم.[سورة غافر (٤٠) : الآيات ١٨ الى ٢٢]وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع (١٨) يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور (١٩) والله يقضي بالحق والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء إن الله هو السميع البصير (٢٠) أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم كانوا هم أشد منهم قوة وآثارا في الأرض فأخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق (٢١) ذلك بأنهم كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فكفروا فأخذهم الله إنه قوي شديد العقاب (٢٢)اعلم أن المقصود من هذه الآية وصف يوم القيامة بأنواع أخرى من الصفات الهائلة المهيبة، وفي الآية مسائل:المسألة الأولى: ذكروا في تفسير يوم الآزفة وجوها الأول: أن يوم الآزفة هو يوم القيامة، والآزفة فاعلة من أزف الأمر إذا دنا وحضر لقوله في صفة يوم القيامة أزفت الآزفة ليس لها من دون الله كاشفة [النجم: ٥٧، ٥٨] وقال شاعر:أزف الترحل غير أن ركابنا ... لما تزل برحالنا وكأن قدوالمقصود منه التنبيه على أن يوم القيامة قريب ونظيره قوله تعالى: اقتربت الساعة [القمر: ١] قال الزجاج إنما قيل لها آزفة لأنها قريبة وإن استبعد الناس مداها، وما هو كائن فهو قريب.." (١)

"حمله على سلب العموم لا على عموم السلب، وحينئذ استدلال المعتزلة بهذه الآية فهذا غاية الكلام في هذا الباب.المسألة الرابعة: في بيان نظم الآية، فنقول إنه تعالى ذكر في هذه الآية جميع الأسباب الموجبة للخوف فأولها: أنه سمى ذلك اليوم يوم الآزفة، أي يوم القرب من عذابه لمن ابتلي بالذنب العظيم، لأنه إذا قرب زمان عقوبته كان في أقصى غايات الخوف، حتى قيل إن تلك الغموم والهموم أعظم في الإيحاش من عين تلك العقوبة والثاني: قوله إذ القلوب لدى الحناجر والمعنى أنه بلغ ذلك الخوف إلى أن انقلع القلب من الصدر وارتفع إلى الحنجرة والتصق بها وصار مانعا من دخول النفس والثالث: قوله كاظمين والمعنى أنه لا يمكنهم أن ينطقوا وأن يشرحوا ما عندهم من الحزن والخوف، وذلك يوجب مزيد القلق والاضطراب والرابع: قوله ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع فبين أنه ليس لهم قريب ينفعهم، ولا شفيع يطاع فيهم فتقبل

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٥٠٢/٢٧

شفاعته والخامس: قوله يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور والمعنى أنه سبحانه عالم لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض، والحاكم إذا بلغ في العلم إلى هذا الحد كان خوف المذنب منه شديدا جدا، قال صاحب «الكشاف» : الخائنة صفة النظرة أو مصدر بمعنى الخائنة، كالعافية المعافاة، والمراد استراق النظر إلى ما لا يحل كما يفعل أهل الريب، والمراد بقوله وما تخفي الصدور مضمرات القلوب، والحاصل أن الأفعال قسمان: أفعال الجوارح وأفعال القلوب، أما أفعال الجوارح، فأخفاها خائنة الأعين والله أعلم بها، فكيف الحال في سائر الأعمال. وأما أفعال القلوب، فهي معلومة لله تعالى لقوله وما تخفي الصدور فدل هذا على كونه تعالى عالما بجميع أفعالهم السادس: قوله تعالى: والله يقضي بالحق وهذا أيضا يوجب عظم الخوف، لأن الحاكم إذا كان عالما بجميع الأحوال، وثبت منه أنه لا يقضي إلا بالحق في كل ما دق وجل، كان خوف المذنب منه في الغاية القصوى السابع: أن الكفار إنما عولوا في دفع العقاب عن أنفسهم على شفاعة هذه الأصنام، وقد بين الله تعالى أنه لا فائدة فيها البتة، فقال: والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء الثامن:قوله إن الله هو السميع البصير أي يسمع من الكفار ثناءهم على الأصنام، ولا يسمع منهم ثناءهم على الله ويبصر خضوعهم وسجودهم لهم، ولا يبصر خضوعهم وتواضعهم لله، فهذه الأحوال الثمانية إذا اجتمعت في حق المذنب الذي عظم ذنبه كان بالغا في التخويف إلى الحد الذي لا تعقل الزيادة عليه، ثم إنه تعالى لما بالغ في تخويف الكفار بعذاب الآخرة أردفه ببيان تخويفهم بأحوال الدنيا فقال: أولم/ يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم والمعنى أن العاقل من اعتبر بغيره، فإن الذين مضوا من الكفار كانوا أشد قوة من هؤلاء الحاضرين من الكفار، وأقوى آثارا في الأرض منهم، والمراد حصونهم وقصورهم وعساكرهم، فلما كذبوا رسلهم أهلكهم الله بضروب الهلاك معجلا حتى إن هؤلاء الحاضرين من الكفار يشاهدون تلك الآثار، فحذرهم الله تعالى من مثل ذلك بهذا القول، وبين بقوله وما كان لهم من الله من واق أنه لما نزل العذاب بهم عند أخذه تعالى لهم لم يجدوا من يعينهم ويخلصهم، ثم بين أن ذلك نزل بهم لأجل أنهم كفروا وكذبوا الرسل، فحذر قوم الرسول من مثله، وختم الكلام ب إنه قوي شديد العقاب مبالغة في التحذير والتخويف، والله أعلم.وقرأ ابن عامر وحده كانوا هم أشد منكم بالكاف، والباقون بالهاء أما وجه قراءة ابن عامر فهو انصراف." (١)

"ممتنع الوقوع، فلا حاجة أيضا إلى الدعاء وثانيها: أن حدوث الحوادث في هذا العالم لا بد من انتهائها بالآخرة إلى المؤثر القديم الواجب لذاته، وإلا لزم إما التسلسل، وإما الدور وإما وقوع الحادث من غير مؤثر وكل ذلك محال وإذا ثبت وجوب انتهائها بالآخرة إلى المؤثر القديم، فكل ما اقتضى ذلك المؤثر القديم وجوده اقتضاء قديما أزليا كان واجب الوقوع، وكل ما لم يقتض المؤثر القديم وجوده اقتضاء قديما أزليا كان ممتنع الوقوع، ولما ثبتت هذه الأمور في الأزل لم يكن للدعاء البتة أثر، وربما عبروا عن هذا الكلام بأن قالوا: الأقدار سابقة والأقضية متقدمة والدعاء لا يزيد فيها وتركه لا ينقص شيئا منها، فأي فائدة في الدعاء،وقال عليه الصلاة والسلام قدر الله المقادير قبل أن يخلق الخلق بكذا وكذا عاماوروي عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: «جف القلم بما هو كائن»وعنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: «أربع قد فرغ منها: العمر والرزق والخلق والخلق»وثالثها: أنه سبحانه علام الغيوب: يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور [غافر: ١٩] فأي حاجة بالداعي

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٥٠٥/٢٧

إلى الدعاء؟ ولهذا السبب قالوا إن جبريل عليه/ السلام بلغ بسبب هذا الكلام إلى أعلى درجات الإخلاص والعبودية ولولا أن ترك الدعاء أفضل لما كان كذلك ورابعها: أن المطلوب بالدعاء إن كان من مصالح العبد فالجواد المطلق لا يهمله وإن لم يكن من مصالحه لم يجز طلبه وخامسها: ثبت بشواهد العقل والأحاديث الصحيحة أن أجل مقامات الصديقين وأعلاها الرضا بقضاء الله تعالى والدعاء ينافي ذلك لأنه اشتغال بالالتماس وترجيح لمراد النفس على مراد الله تعالى وطلبه لحصة البشر وسادسها: أن الدعاء يشبه الأمر والنهي وذلك من العبد في حق المولى الكريم الرحيم سوء أدب وسابعها:روي أنه عليه الصلاة والسلام قال رواية عن الله سبحانه وتعالى: «من شغله ذكري عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين»قالوا فثبت بهذه الوجوه أن الأولى ترك الدعاء.وقال الجمهور الأعظم من العقلاء: إن الدعاء أهم مقامات العبودية، ويدل عليه وجوه من النقل والعقل، أما الدلائل النقلية فكثيرة الأول: أن الله تعالى ذكر السؤال والجواب في كتابه في عدة مواضع منها أصولية ومنها فروعية، أما الأصولية فقوله: ويسئلونك عن الروح [الإسراء: ٨٥] ويسئلونك عن الجبال [طه: ١٠٥] ويسئلونك عن الساعة [النازعات: ٤٢] وأما الفروعية فمنها في البقرة على التوالي يسئلونك ماذا ينفقون [البقرة: ٢١٩] يسئلونك عن الشهر الحرام [البقرة: ٢١٧] يسئلونك عن الخمر والميسر [البقرة: ٢١٩] يسئلونك عن اليتامى [البقرة: ٢٢٠] ويسئلونك عن المحيض [البقرة: ٢٢٢] وقال أيضا: يسئلونك عن الأنفال [الأنفال: ١] ويسئلونك عن ذي القرنين [الكهف: ٨٣] ويستنبئونك أحق هو [يونس: ٥٣] يستفتونك قل الله يفتيكم في الكلالة [النساء: ١٧٦] .إذا عرفت هذا: فنقول هذه الأسئلة جاءت أجوبتها على ثلاثة أنواع فالأغلب فيها أنه تعالى لما حكى السؤال قال لمحمد: قل وفي صورة واحدة جاء الجواب بقوله: فقل مع فاء التعقيب، والسبب فيه أن قوله تعالى: يسئلونك عن الجبال سؤال عن قدمها وحدوثها وهذه مسألة أصولية فلا جرم قال الله تعالى: فقل ينسفها ربي نسفا [طه: ١٠٥] كأنه قال يا محمد أجب عن هذا السؤال في الحال ولا تؤخر الجواب فإن الشك فيه كفر ثم تقدير الجواب أن النسف ممكن في كل جزء من أجزاء الجبل فيكون ممكنا في الكل وجواز عدمه يدل على امتناع قدمه، أما سائر المسائل فهي فروعية فلا جرم لم يذكر فيها فاء التعقيب، أما الصورة الثالثة وهي." (١)

"١٦ - ﴿بارزون﴾ من قبورهم ﴿لا يخفى على الله﴾ من أعمالهم شيء أو أبرزهم جميعا لأنه لا يخفى عليه شيء من خلقه ﴿لمن الملك اليوم﴾ يقوله الله - تعالى - بين النفختين إذا لم يبق سواه فيجيب نفسه فيقول ﴿لله الواحد القهار﴾ لأنه بقي وحده وقهر خلقه، أو يقوله الله في القيامة والخلائق سكوت فيجيب نفسه، أو تجيبه الخلائق كلهم مؤمنهم وكافرهم فيقولون: لله الواحد القهار. قاله ابن جريج.﴿وأنذرهم يوم الأزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع (١٨) يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور (١٩) والله يقضي بالحق والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء إن الله هو السميع البصير (٢٠) ﴾." (٢)

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٢٦٣/٥

(٢) تفسير العز بن عبد السلام ابن عبد السلام ١١٢/٣

"يشاء من عبادهيختاره للنبوة، وفيه دليل على أنها عطائية. لينذر غاية الإلقاء والمستكن فيه لله، أو لمن أو للروح واللام مع القرب تؤيد الثاني. يوم التلاق يوم القيامة، فإن فيه تتلاقى الأرواح والأجساد وأهل السماء والأرض أو المعبودون والعباد أو الأعمال والعمال.[سورة غافر (٤٠) : الآيات ١٦ الى ١٧]يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شيء لمن الملك اليوم لله الواحد القهار (١٦) اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب (١٧)يوم هم بارزون خارجون من قبورهم أو ظاهرون لا يسترهم شيء أو ظاهرة نفوسهم لا تحجبهم غواشي الأبدان، أو أعمالهم وسرائرهم. لا يخفى على الله منهم شيء من أعيانهم وأعمالهم وأحوالهم، وهو تقرير لقوله هم بارزون وإزاحة لنحو ما يتوهم في الدنيا. لمن الملك اليوم لله الواحد القهار حكاية لما يسأل عنه في ذلك اليوم ولما يجاب به، أو لما دل عليه ظاهر الحال فيه من زوال الأسباب وارتفاع الوسائط، وأما حقيقة الحال فناطقة بذلك دائما.اليوم تجزى كل نفس بما كسبت كأنه نتيجة لما سبق، وتحقيقه أن النفوس تكتسب بالعقائد والأعمال هيئات توجب لذتها وألمها لكنها لا تشعر بها في الدنيا لعوائق تشغلها، فإذا قامت قيامتها زالت العوائق وأدركت لذتها وألمها. لا ظلم اليوم بنقص الثواب وزيادة العقاب. إن الله سريع الحساب إذ لا يشغله شأن عن شأن فيصل إليهم ما يستحقونه سريعا.[سورة غافر (٤٠) : آية ١٨]وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع (١٨)وأنذرهم يوم الآزفة أي القيامة سميت بها لأزوفها أي قربها، أو الخطة الآزفة وهي مشارفتهم النار وقيل الموت. إذ القلوب لدى الحناجر فإنها ترتفع عن أماكنها فتلصق بحلوقهم فلا تعود فيتروحوا ولا تخرج فيستريحوا. كاظمين على الغم حال من أصحاب القلوب على المعنى لأنه على الإضافة، أو منها أو من ضميرها في لدى وجمعه كذلك لأن الكظم من أفعال العقلاء كقوله: فظلت أعناقهم لها خاضعين. أو من مفعول أنذرهم على أنه حال مقدرة. ما للظالمين من حميم قريب مشفق. ولا شفيع يطاع ولا شفيع مشفع، والضمائر إن كانت للكفار وهو الظاهر كان وضع الظالمين موضع ضميرهم للدلالة على اختصاص ذلك بهم وأنه لظلمهم.[سورة غافر (٤٠) : الآيات ١٩ الى ٢٠]يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور (١٩) والله يقضي بالحق والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء إن الله هو السميع البصير (٢٠)يعلم خائنة الأعين النظرة الخائنة كالنظرة الثانية إلى غير المحرم واستراق النظر إليه، أو خيانة الأعين. وما تخفي الصدور من الضمائر والجملة خبر خامس للدلالة على أنه ما من خفي إلا وهو متعلق العلم والجزاء والله يقضي بالحق لأنه المالك الحاكم على الإطلاق فلا يقضي بشيء إلا وهو حقه والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء تهكم بهم لأن الجماد لا يقال فيه إنه يقضي أو لا يقضي. وقرأ نافع وهشام بالتاء على الالتفات أو إضمار قل: إن الله هو السميع البصير تقرير لعلمه ب خائنة الأعين وقضائه بالحق ووعيد لهم على ما يقولون ويفعلون، وتعريض بحال ما يدعون من دونه.." (١)

"بأحوالهم وأفعالهم وكيف يجيلون أبصارهم يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور فعليهم إذا عرفوا ذلك أن يكونوا منه على تقوى وحذر في كل حركة وسكون." (٢)

---

(١) تفسير البيضاوي = أنوار التنزيل وأسرار التأويل ناصر الدين البيضاوي ٥/٥٤

(٢) تفسير النسفي = مدارك التنزيل وحقائق التأويل النسفي، أبو البركات ٢/٥٠٠

"يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور (١٩)﴿يعلم خآئنة الأعين﴾ مصدر بمعنى الخيانة كالعافية بمعنى المعافاة والمراد استراق النظر إلى ما يحل ﴿وما تخفى الصدور﴾ وما تسره من أمانة وخيانة وقيل هو أن ينظر إلى أجنبية بشهوة مسارقة ثم يتفكر بقلبه في جمالها ولا يعلم بنظرته وفكرته من بحضرته والله يعلم ذلك كله ويعلم خائنة الأعين خبر من أخبار هو في قوله هو الذي يريكم اياته مثل يلقى الروح ولكن يلقي الروح قد علل بقوله لينذر يوم التلاق ثم استطرد ذكر أحوال يوم التلاق إلى قوله ولا شفيع يطاع فبعد لذلك عن أخواته." (١)

"[سورة غافر (٤٠): الآيات ١١ الى ١٢]قالوا ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين فاعترفنا بذنوبنا فهل إلى خروج من سبيل (١١) ذلكم بأنه إذا دعي الله وحده كفرتم وإن يشرك به تؤمنوا فالحكم لله العلي الكبير (١٢)قالوا ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين قال ابن عباس رضي الله عنهما: كانوا أمواتا في أصلاب آبائهم فأحياهم الله تعالى في الدنيا ثم أماتهم الموتة التي لا بد منها ثم أحياهم للبعث يوم القيامة فهذه موتتان وحياتان وقيل أميتوا في الدنيا ثم أحيوا في القبر للسؤال ثم أميتوا في قبورهم ثم أحيوا للبعث في الآخرة وذلك أنهم عدوا أوقات البلاء والمحنة وهي أربعة الموتة الأولى ثم الحياة في القبر ثم الموتة الثانية فيه ثم الحياة للبعث فأما الحياة الأولى التي هي من الدنيا فلم يعدوها لأنها ليست من أقسام البلاء وقيل ذكر حياتين وهي حياة الدنيا وحياة القيامة وموتتين وهي الموتة الأولى في الدنيا ثم الموتة الثانية في القبر بعد حياة السؤال ولم يعدوا حياة السؤال لقصر مدتها فاعترفنا بذنوبنا يعني إنكارهم البعث بعد الموت فلما شاهدوا البعث اعترفوا بذنوبهم ثم سألوا الرجعة بقولهم فهل إلى خروج يعني من النار من سبيل والمعنى فهلا إلى رجوع إلى الدنيا من سبيل لنصلح أعمالنا ونعمل بطاعتك وهذا كلام من غلب عليه اليأس والقنوط من الخروج وإنما قالوا ذلك تعللا وتحيرا والمعنى فلا خروج ولا سبيل إليه ولهذا جاء الجواب على حسب ذلك وهو قوله تعالى: ذلكم بأنه إذا دعي الله وحده كفرتم معناه فأجيبوا أن لا سبيل إلى الخروج وهذا العذاب والخلود في النار بأنكم إذا دعى الله وحده كفرتم يعني إذا قيل لا إله إلا الله أنكرتم ذلك وإن يشرك به أي غيره تؤمنوا أي تصدقوا ذلك الشرك فالحكم لله العلي أي الذي لا أعلى منه الكبير أي الذي لا أكبر منه.[سورة غافر (٤٠): الآيات ١٣ الى ١٩]هو الذي يريكم آياته وينزل لكم من السماء رزقا وما يتذكر إلا من ينيب (١٣) فادعوا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون (١٤) رفيع الدرجات ذو العرش يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده لينذر يوم التلاق (١٥) يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شيء لمن الملك اليوم لله الواحد القهار (١٦) اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب (١٧)وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع (١٨) يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور (١٩)قوله عز وجل: هو الذي يريكم آياته أي عجائب مصنوعاته التي تدل على كمال قدرته وينزل لكم من السماء رزقا يعني المطر الذي هو سبب الأرزاق وما يتذكر أي يتعظ بهذه الآيات إلا من ينيب أي يرجع إلى الله تعالى في جميع أموره فادعوا الله مخلصين له الدين أي الطاعة والعبادة ولو كره الكافرون.قوله تعالى: رفيع الدرجات أي رافع درجات الأنبياء والأولياء والعلماء في الجنة وقيل معناه المرتفع أي إنه سبحانه وتعالى هو المرتفع بعظمته في صفات جلاله وكماله ووحدانيته المستغني عن كل ما سواه وكل الخلق فقراء إليه ذو العرش أي خالقه

---

(١) تفسير النسفي = مدارك التنزيل وحقائق التأويل النسفي، أبو البركات ٣/٢٠٥

ومالكه، والفائدة في تخصيص العرش بالذكر لأنه أعظم الأجسام والمقصود بيان كمال التنبيه على كمال القدرة فكل ما كان أعظم كانت دلالته على كمال القدرة أقوى يلقي الروح يعني ينزل الوحي سماه روحا لأن به تحيا الأرواح كما تحيا الأبدان بالأرواح من أمره قال ابن عباس:من قضائه وقيل بأمره وقيل من قوله على من يشاء من عباده يعني الأنبياء لينذر يوم التلاق يعني لينذر النبي صلى الله عليه وسلم بالوحي يوم التلاق وهو يوم القيامة لأنه يلتقي فيه أهل السماء وأهل الأرض، وقيل يلتقي الخلق والخالق." (١)

"وقيل يلتقي العابدون والمعبودون وقيل يلتقي المرء مع عمله وقيل يلتقي الظالم والمظلوم يوم هم بارزون أي خارجون من قبورهم ظاهرون لا يسترهم شيء لا يخفى على الله منهم شيء أي من أعمالهم وأحوالهم، فإن قلت إن الله تعالى لا يخفى عليه شيء في سائر الأيام فما وجه تخصيص ذلك اليوم، قلت كانوا يتوهمون في الدنيا إذا استتروا بالحيطان والحجب أن الله تعالى لا يراهم وتخفى عليه أعمالهم وهم في ذلك اليوم صائرون من البروز والانكشاف إلى حال لا يتوهمون فيها مثل ما كانوا يتوهمونه في الدنيا لمن الملك اليوم أي يقول الله عز وجل في ذلك اليوم بعد فناء الخلق لمن الملك فلا أحد يجيبه فيجيب نفسه تعالى فيقول لله الواحد القهار أي الذي قهر الخلق بالموت وقيل إذا حضر الأولون والآخرون في يوم القيامة نادى مناد لمن الملك فيجيبه جميع الخلائق في يوم القيامة لله الواحد القهار فالمؤمنون يقولونه تلذذا حيث كانوا يقولونه في الدنيا ونالوا به المنزلة الرفيعة في العقبى والكفار يقولونه على سبيل الذل والصغار والندامة حيث لم يقولوه في الدنيا اليوم تجزى كل نفس بما كسبت يعني يجزى المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته لا ظلم اليوم أي إن الخلق آمنون في ذلك اليوم من الظلم لأن الله تعالى ليس بظلام للعبيد إن الله سريع الحساب أي إنه تعالى لا يشغله حساب عن حساب بل يحاسب الخلق كلهم في وقت واحد.قوله تعالى: وأنذرهم يوم الآزفة يعني يوم القيامة سميت آزفة لقرب وقتها وكل ما هو آت فهو قريب إذ القلوب لدى الحناجر وذلك أنها تزول عن أماكنها من الخوف حتى تصير إلى الحناجر فلا هي تعود إلى أماكنها ولا هي تخرج من أفواههم فيموتوا ويستريحوا كاظمين أي مكروبين ممتلئين خوفا وحزنا حتى يضيق القلب عنه ما للظالمين من حميم أي من قريب ينفعهم ولا شفيع أي يشفع لهم يطاع أي فيهم يعلم خائنة الأعين أي خيانتها وهي مسارقة النظر إلى ما لا يحل وقيل هو نظر الأعين لما نهى الله عنه وما تخفي الصدور أي يعلم مضمرات القلوب.[سورة غافر (٤٠): الآيات ٢٠ الى ٢٦]والله يقضي بالحق والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء إن الله هو السميع البصير (٢٠) أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم كانوا هم أشد منهم قوة وآثارا في الأرض فأخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق (٢١) ذلك بأنهم كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فكفروا فأخذهم الله إنه قوي شديد العقاب (٢٢) ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين (٢٣) إلى فرعون وهامان وقارون فقالوا ساحر كذاب (٢٤)فلما جاءهم بالحق من عندنا قالوا اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه واستحيوا نساءهم وما كيد الكافرين إلا في ضلال (٢٥) وقال فرعون ذروني أقتل موسى وليدع ربه إني أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر في الأرض الفساد (٢٦)والله يقضي بالحق أي يحكم بالعدل والذين يدعون من دونه يعني الأصنام لا يقضون بشيء لأنها لا تعلم شيئا ولا تقدر على شيء إن الله هو السميع أي لأقوال الخلق البصير

---

(١) تفسير الخازن لباب التأويل في معاني التنزيل الخازن ٧٠/٤

بأفعالهم أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم كانوا هم أشد منهم قوة وآثارا في الأرض أي المعنى أن العاقل من اعتبر بغيره فإن الذين مضوا من الكفار كانوا أشد قوة من هؤلاء فلم تنفعهم قوتهم فأخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق أي يدفع عنهم العذاب ذلك أي ذلك العذاب الذي نزل بهم بأنهم كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فكفروا فأخذهم الله إنه قوي شديد العقاب قوله عز وجل: ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين إلى فرعون وهامان وقارون فقالوا ساحر كذاب فلما جاءهم بالحق من عندنا قالوا يعني." (١)

"سورة غافر[سورة غافر (٤٠) : الآيات ١ الى ٨٥]بسم الله الرحمن الرحيمحم (١) تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم (٢) غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذي الطول لا إله إلا هو إليه المصير (٣) ما يجادل في آيات الله إلا الذين كفروا فلا يغررك تقلبهم في البلاد (٤)كذبت قبلهم قوم نوح والأحزاب من بعدهم وهمت كل أمة برسولهم ليأخذوه وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق فأخذتهم فكيف كان عقاب (٥) وكذلك حقت كلمة ربك على الذين كفروا أنهم أصحاب النار (٦) الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلما فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم (٧) ربنا وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم إنك أنت العزيز الحكيم (٨) وقهم السيئات ومن تق السيئات يومئذ فقد رحمته وذلك هو الفوز العظيم (٩)إن الذين كفروا ينادون لمقت الله أكبر من مقتكم أنفسكم إذ تدعون إلى الإيمان فتكفرون (١٠) قالوا ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين فاعترفنا بذنوبنا فهل إلى خروج من سبيل (١١) ذلكم بأنه إذا دعي الله وحده كفرتم وإن يشرك به تؤمنوا فالحكم لله العلي الكبير (١٢) هو الذي يريكم آياته وينزل لكم من السماء رزقا وما يتذكر إلا من ينيب (١٣) فادعوا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون (١٤)رفيع الدرجات ذو العرش يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده لينذر يوم التلاق (١٥) يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شيء لمن الملك اليوم لله الواحد القهار (١٦) اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب (١٧) وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع (١٨) يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور (١٩)والله يقضي بالحق والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء إن الله هو السميع البصير (٢٠) أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم كانوا هم أشد منهم قوة وآثارا في الأرض فأخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق (٢١) ذلك بأنهم كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فكفروا فأخذهم الله إنه قوي شديد العقاب (٢٢) ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين (٢٣) إلى فرعون وهامان وقارون فقالوا ساحر كذاب (٢٤)فلما جاءهم بالحق من عندنا قالوا اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه واستحيوا نساءهم وما كيد الكافرين إلا في ضلال (٢٥) وقال فرعون ذروني أقتل موسى وليدع ربه إني أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر في الأرض الفساد (٢٦) وقال موسى إني عذت بربي وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب (٢٧) وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم وإن يك كاذبا فعليه كذبه وإن يك صادقا يصبكم بعض الذي يعدكم إن الله لا يهدي من هو مسرف كذاب (٢٨) يا قوم لكم الملك

(١) تفسير الخازن لباب التأويل في معاني التنزيل الخازن ٤/٧١

اليوم ظاهرين في الأرض فمن ينصرنا من بأس الله إن جاءنا قال فرعون ما أريكم إلا ما أرى وما أهديكم إلا سبيل الرشاد (٢٩)وقال الذي آمن يا قوم إني أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب (٣٠) مثل دأب قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم وما الله يريد ظلما للعباد (٣١) ويا قوم إني أخاف عليكم يوم التناد (٣٢) يوم تولون مدبرين ما لكم من الله من عاصم ومن يضلل الله فما له من هاد (٣٣) ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات فما زلتم في شك مما جاءكم به حتى إذا هلك قلتم لن يبعث الله من بعده رسولا كذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب (٣٤)الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم كبر مقتا عند الله وعند الذين آمنوا كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار (٣٥) وقال فرعون يا هامان ابن لي صرحا لعلي أبلغ الأسباب (٣٦) أسباب السماوات فأطلع إلى إله موسى وإني لأظنه كاذبا وكذلك زين لفرعون سوء عمله وصد عن السبيل وما كيد فرعون إلا في تباب (٣٧) وقال الذي آمن يا قوم اتبعون أهدكم سبيل الرشاد (٣٨) يا قوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع وإن الآخرة هي دار القرار (٣٩)من عمل سيئة فلا يجزى إلا مثلها ومن عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب (٤٠) ويا قوم ما لي أدعوكم إلى النجاة وتدعونني إلى النار (٤١) تدعونني لأكفر بالله وأشرك به ما ليس لي به علم وأنا أدعوكم إلى العزيز الغفار (٤٢) لا جرم أنما تدعونني إليه ليس له دعوة في الدنيا ولا في الآخرة وأن مردنا إلى الله وأن المسرفين هم أصحاب النار (٤٣) فستذكرون ما أقول لكم وأفوض أمري إلى الله إن الله بصير بالعباد (٤٤)فوقاه الله سيئات ما مكروا وحاق بآل فرعون سوء العذاب (٤٥) النار يعرضون عليها غدوا وعشيا ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب (٤٦) وإذ يتحاجون في النار فيقول الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعا فهل أنتم مغنون عنا نصيبا من النار (٤٧) قال الذين استكبروا إنا كل فيها إن الله قد حكم بين العباد (٤٨) وقال الذين في النار لخزنة جهنم ادعوا ربكم يخفف عنا يوما من العذاب (٤٩)قالوا أولم تك تأتيكم رسلكم بالبينات قالوا بلى قالوا فادعوا وما دعاء الكافرين إلا في ضلال (٥٠) إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد (٥١) يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار (٥٢) ولقد آتينا موسى الهدى وأورثنا بني إسرائيل الكتاب (٥٣) هدى وذكرى لأولي الألباب (٥٤)فاصبر إن وعد الله حق واستغفر لذنبك وسبح بحمد ربك بالعشي والإبكار (٥٥) إن الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم إن في صدورهم إلا كبر ما هم ببالغيه فاستعذ بالله إنه هو السميع البصير (٥٦) لخلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس ولكن أكثر الناس لا يعلمون (٥٧) وما يستوي الأعمى والبصير والذين آمنوا وعملوا الصالحات ولا المسيء قليلا ما تتذكرون (٥٨) إن الساعة لآتية لا ريب فيها ولكن أكثر الناس لا يؤمنون (٥٩)وقال ربكم ادعوني أستجب لكم إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين (٦٠) الله الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصرا إن الله لذو فضل على الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون (٦١) ذلكم الله ربكم خالق كل شيء لا إله إلا هو فأنى تؤفكون (٦٢) كذلك يؤفك الذين كانوا بآيات الله يجحدون (٦٣) الله الذي جعل لكم الأرض قرارا والسماء بناء وصوركم فأحسن صوركم ورزقكم من الطيبات ذلكم الله ربكم فتبارك الله رب العالمين (٦٤)هو الحي لا إله إلا هو فادعوه مخلصين له الدين الحمد لله رب العالمين (٦٥) قل إني نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله لما جاءني البينات من ربي وأمرت أن أسلم لرب العالمين (٦٦) هو الذي خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم يخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم ثم لتكونوا شيوخا ومنكم من يتوفى من قبل ولتبلغوا أجلا مسمى

ولعلكم تعقلون (٦٧) هو الذي يحيي ويميت فإذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون (٦٨) ألم تر إلى الذين يجادلون في آيات الله أنى يصرفون (٦٩)الذين كذبوا بالكتاب وبما أرسلنا به رسلنا فسوف يعلمون (٧٠) إذ الأغلال في أعناقهم والسلاسل يسحبون (٧١) في الحميم ثم في النار يسجرون (٧٢) ثم قيل لهم أين ما كنتم تشركون (٧٣) من دون الله قالوا ضلوا عنا بل لم نكن ندعوا من قبل شيئا كذلك يضل الله الكافرين (٧٤)ذلكم بما كنتم تفرحون في الأرض بغير الحق وبما كنتم تمرحون (٧٥) ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين (٧٦) فاصبر إن وعد الله حق فإما نرينك بعض الذي نعدهم أو نتوفينك فإلينا يرجعون (٧٧) ولقد أرسلنا رسلا من قبلك منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك وما كان لرسول أن يأتي بآية إلا بإذن الله فإذا جاء أمر الله قضي بالحق وخسر هنالك المبطلون (٧٨) الله الذي جعل لكم الأنعام لتركبوا منها ومنها تأكلون (٧٩)ولكم فيها منافع ولتبلغوا عليها حاجة في صدوركم وعليها وعلى الفلك تحملون (٨٠) ويريكم آياته فأي آيات الله تنكرون (٨١) أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أكثر منهم وأشد قوة وآثارا في الأرض فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون (٨٢) فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم وحاق بهم ما كانوا به يستهزؤن (٨٣) فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين (٨٤)فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا سنت الله التي قد خلت في عباده وخسر هنالك الكافرون (٨٥)." [١]

"على الأولين والآخرين، وآيات الإعجاز على أيدي رسله. وهذه الآيات راجعة إلى نور العقل الداعي إلى توحيد الله. ثم قال: وينزل لكم من السماء رزقا، وهو المطر الذي هو سبب قوام بنية البدن، فتلك الآيات للأديان كهذا الرزق للأبدان. وما يتذكر: أي يتعظ ويعتبر، وجعله تذكرا لأنه مركوز في العقول دلائل التوحيد، ثم قد يعرض الاشتغال بعبادة غير الله فيمنع من تجلي نور العقل، فإذا تاب إلى الله تذكر.فادعوا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون، رفيع الدرجات ذو العرش يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده لينذر يوم التلاق، يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شيء لمن الملك اليوم لله الواحد القهار، اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب، وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع، يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، والله يقضي بالحق والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء إن الله هو السميع البصير، أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم كانوا هم أشد منهم قوة وآثارا في الأرض فأخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق، ذلك بأنهم كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فكفروا فأخذهم الله إنه قوي شديد العقاب.الأمر بقوله: فادعوا الله للمنيبين المؤمنين أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم: أي اعبدوه، مخلصين له الدين من الشرك على كل حال، حتى في حال غيظ أعدائكم المتمالئين عليكم وعلى استئصالكم. ورفيع: خبر مبتدأ محذوف. وقال الزمخشري: ثلاثة أخبار مترتبة على قوله: الذي يريكم «١» ، أو أخبار مبتدأ محذوف، وهي مختلفة تعريفا وتنكيرا. انتهى. أما ترتبها على قوله: هو الذي يريكم، فبعيد كطول الفصل، وأما كونها أخبارا لمبتدأ محذوف، فمبني على جواز تعدد الأخبار، إذا لم تكن في معنى خبر واحد، والمنع اختيار أصحابنا. وقرىء: رفيع بالنصب على المدح، واحتمل أن يكون رفيع للمبالغة على فعيل من رافع، فيكون

---

(١) البحر المحيط في التفسير أبو حيّان الأندلسي ٢٢٦/٩

الدرجات مفعولة، أي رافع درجات المؤمنين ومنازلهم في الجنة. وبه فسر ابن سلام، أو عبر بالدرجات عن السموات، أرفعها سماء فوق سماء، والعرش فوقهن. وبه فسر ابن جبير، واحتمل أن يكون رفيع فعيلا من رفع الشيء علا فهو رفيع، فيكون من باب الصفة المشبهة، والدرجات: المصاعد الملائكة إلى أن تبلغ العرش، أضيفت إليه دلالة على عزه وسلطانه، أي درجات ملائكته، كما وصفه بقوله:______________(١) سورة الرعد: ١٣/ ١٢.." (١)

"موضع خفض على اللفظ، وفي موضع رفع على الموضع، واحتمل أن ينسحب النفي على الوصف فقط، فيكون من شفيع، ولكنه لا يطاع، أي لا تقبل شفاعته، واحتمل أن ينسحب النفي على الموصوف وصفته: أي لا شفيع فيطاع، وهذا هو المقصود في الآية أن الشفيع عند الله إنما يكون من أوليائه تعالى، ولا تكون الشفاعة إلا لمن ارتضاه الله وأيضا فيكون في زيادة التفضل والثواب ولا يمكن شيء من هذا في حق الكافر. وعن الحسن: والله لا يكون لهم شفيع ألبتة، يعلم خائنة الأعين، كقوله:وإن سقيت كرام الناس فاسقينا أي الناس الكرام، وجوزوا أن تكون خائنة مصدرا، كالعافية والعاقبة، أي يعلم خيانة الأعين. ولما كانت الأفعال التي يقصد بها التكتم بدنية، فأخفاها خائنة الأعين من كسر جفن وغمز ونظر يفهم معنى ويريد صاحب معنى آخر وقلب، وهو ما تحتوي عليه الضمائر، قسم ما ينكتم به إلى هذين القسمين، وذكر أن علمه متعلق بهما التعلق التام. وقال الزمخشري: ولا يحسن أن يراد الخائنة من الأعين، لأن قوله: وما تخفي الصدور لا يساعد عليه. انتهى، يعني أنه لا يناسب أن يكون مقابل المعنى إلا المعنى، وتقدم أن الظاهر أن يكون التقدير الأعين الخائنة، والظاهر أن قوله: يعلم خائنة الأعين الآية متصل بما قبله، لما أمر بإنكاره يوم الآزفة، وما يعرض فيه من شدة الكرب والغم، وأن الظالم لا يجد من يحميه من ذلك، ولا من يشفع له.ذكر اطلاعه تعالى على جميع ما يصدر من العبد، وأنه مجازى بما عمل، ليكون على حذر من ذلك اليوم إذا علم إن الله مطلع على أعماله. وقال ابن عطية: يعلم خائنة الأعين متصل بقوله: سريع الحساب، لأن سرعة حسابه للخلق إنما هي بعلمه الذي لا يحتاج معه إلى روية وفكر، ولا لشيء مما يحتاجه المحاسبون. وقالت فرقة: يعلم متصل بقوله: لا يخفى على الله منهم شيء، وهذا قول حسن، يقويه تناسب المعنيين، ويضعفه بعد الآية من الآية وكثرة الحائل. انتهى. وقال الزمخشري: فإن قلت: بم اتصل قوله: يعلم خائنة الأعين؟ قلت: هو خبر من أخبار هو في قوله: هو الذي يريكم البرق «١» ، مثل:يلقي الروح، ولكن من يلقي الروح قد علل بقوله: لينذر يوم التلاق، ثم أسقط______________(١) سورة الرعد: ١٣/ ١٢.." (٢)

"وتذكر أحوال يوم التلاق إلى قوله: ولا شفيع يطاع، فبعد لذلك عن إخوانه. انتهى.وفي بعض الكتب المنزلة، أنا مرصاد الهمم، أنا العالم بجال الفكر وكسر العيون. وقال مجاهد: خائنة الأعين: مسارقة النظر إلى ما لا يجوز ومثل المفسرون خائنة الأعين بالنظر الثاني إلى حرمة غير الناظر، وما تخفي الصدور بالنظر الأول الذي لا يمكن رفعه.والله يقضي بالحق: هذا يوجب عظيم الخوف، لأن الحاكم إذا كان عالما بجميع الأحوال لا يقضي إلا بالحق في ما دق وجل خافه الخلق غاية. والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء: هذا قدح في أصنامهم وتهكم بهم، لأن ما لا يوصف بالقدرة، لا يقال فيه يقضي

---

(١) البحر المحيط في التفسير أبو حيّان الأندلسي ٩/٢٤٣

(٢) البحر المحيط في التفسير أبو حيّان الأندلسي ٩/٢٤٧

ولا يقضي. وقرأ الجمهور: يدعون بياء الغيبة لتناسب الضمائر الغائبة قبل.وقرأ أبو جعفر، وشيبة، ونافع: بخلاف عنه وهشام: تدعون بتاء الخطاب، أي قل لهم يا محمد. إن الله هو السميع البصير: تقرير لقوله: يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، وعيد لهم بأنه يسمع ما يقولون ويبصر ما يعملون وتعريض بأصنامهم أنها لا تسمع ولا تبصر. أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم: أحال قريشا على الاعتبار بالسير، وجاز أن يكون فينظروا مجزوما عطفا على يسيروا وأن يكون منصوبا على جواب النفي، كما قال:ألم تسأل فتخبرك الرسوم وتقدم الكلام على مثل هذه الجملة، وحمل الزمخشري هم على أن يكون فصلا ولا يتعين، إذ يجوز أن يكون هم توكيدا لضمير كانوا. وقرأ الجمهور: منهم بضمير الغيبة وابن عامر: منكم بضمير الخطاب على سبيل الالتفات. وآثارا في الأرض: معطوف على قوة، أي مبانيهم وحصونهم وعددهم كانت في غاية الشدة. وتنحتون من الجبال بيوتا «١» . وقال الزمخشري: أو أرادوا أكثر آثارا لقوله:متقلدا سيفا ورمحا انتهى. أي: ومعتقلا رمحا، ولا حاجة إلى ادعاء الحذف مع صحة المعنى بدونه. من واق: أي وما كان لهم من عذاب الله من ساتر بمنعهم منه. ذلك: أي الأخذ، وتقدم تفسير نظير ذلك.ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين، إلى فرعون وهامان وقارون فقالوا ساحر_____________(١) سورة الشعراء: ٢٦/ ١٤٩.." (١)

"الثاني: أنه متصل بقوله: «وأنذرهم» لما أمر بإنذاره يوم الآزفة وما يعرض فيه من شدة الغم والكرب، وأن الظالم لا يجد من يحميه، ولا شفيع له، ذكر اطلاعه على جميع ما يصدر من الخلق سرا وجهرا. وعلى هذا فهذه الجملة لا محل لها لأنها في قوة التعليل للأمر بالإنذار.الثالث: أنها متصلة بقوله ﴿سريع الحساب﴾ [غافر: ١٧] .الرابع: أنها متصلة بقوله: ﴿لا يخفى على الله منهم شيء﴾ [غافر: ١٦] . وعلى هذين الوجهين فيحتمل أن تكون جارية مجرى العلة، وأن تكون في محل نصب على الحال.وخائنة الأعين فيه وجهان، أحدهما: أنه مصدر كالعافية، أي: يعلم خيانة الأعين. / والثاني: أنها صفة على بابها، وهو من باب إضافة الصفة للموصوف، والأصل: الأعين الخائنة، كقوله:٣٩٢٢ -. . . . . وإن سقيت كرام الناس فاسقيناوقد رده الزمخشري وقال: «لا يحسن أن يراد: الخائنة من الأعين؛ لأن قوله: ﴿وما تخفي الصدور﴾ لا يساعد عليه» يعني أنه لا يناسب أن يقابل المعنى إلا بالمعنى. وفيه نظر؛ إذ لقائل أن يقول: لا نسلم أن «ما» في ﴿وما." (٢)

"﴿تخفي الصدور﴾ مصدرية حتى يلزم ما ذكره، بل يجوز أن تكون بمعنى الذي، وهو عبارة عن نفس ذلك الشيء المخفي، فيكون قد قابل الاسم غير المصدر بمثله.." (٣)

"وفي حديث عمر [رضي الله عنه] (١) أن جبريل حين تبدى له في صورة أعرابي فسأل عن الإسلام والإيمان والإحسان، قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما قال له: "خمس لا يعلمهن إلا الله "، ثم قرأ: ﴿إن الله عنده علم الساعة﴾ الآية [لقمان: ٣٤] .وقوله: ﴿ويعلم ما في البر والبحر﴾ أي: يحيط علمه الكريم (٢) بجميع الموجودات، بريها

---

(١) البحر المحيط في التفسير أبو حيّان الأندلسي ٩/٢٤٨

(٢) الدر المصون في علوم الكتاب المكنون السمين الحلبي ٩/٤٦٩

(٣) الدر المصون في علوم الكتاب المكنون السمين الحلبي ٩/٤٧٠

وبحريها (٣) لا يخفى عليه من ذلك شيء، ولا مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء. وما أحسن ما قال الصرصري:فلا يخفى عليه الذر إما ... تراءى للنواظر أو توارى ...وقوله: ﴿وما تسقط من ورقة إلا يعلمها﴾ أي: ويعلم الحركات حتى من الجمادات، فما ظنك بالحيوانات، ولا سيما المكلفون منهم من جنهم وإنسهم، كما قال تعالى: ﴿يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور﴾ [غافر: ١٩] .وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي: حدثنا الحسن بن الربيع، حدثنا أبو الأحوص، عن سعيد بن مسروق، عن حسان النمري، عن ابن عباس في قوله: ﴿وما تسقط من ورقة إلا يعلمها﴾ قال: ما من شجرة في بر ولا بحر إلا وملك موكل بها، يكتب ما يسقط (٤) منها.وقوله: ﴿ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين﴾ قال محمد بن إسحاق، عن يحيى بن النضر، عن أبيه، سمعت عبد الله بن عمرو بن العاص يقول: إن تحت الأرض الثالثة وفوق الرابعة من الجن ما لو أنهم ظهروا -يعني لكم -لم تروا معهم نورا، على كل زاوية من زوايا الأرض (٥) خاتم من خواتيم الله، عز وجل، على كل خاتم ملك من الملائكة يبعث الله، عز وجل، إليه في كل يوم ملكا من عنده: أن احتفظ بما عندك.قال ابن أبي حاتم: حدثنا عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن المسور الزهري: حدثنا مالك بن سعير، حدثنا الأعمش، عن يزيد بن أبي زياد، عن عبد الله بن الحارث قال: ما في الأرض من شجرة ولا مغرز إبرة إلا عليها (٦) ملك موكل يأتي الله بعلمها: رطوبتها إذا رطبت، ويبسها إذا يبست.وكذا رواه ابن جرير عن أبي الخطاب زياد بن عبد الله الحساني، عن مالك بن سعير، به (٧)ثم قال ابن أبي حاتم: ذكر عن أبي حذيفة، حدثنا سفيان، عن عمرو بن قيس، عن رجل عن__________(١) زيادة من أ.(٢) في م، أ: "العظيم".(٣) في د: "بحرها وبرها".(٤) في أ: "ما سقط".(٥) في م، أ: "من زواياها".(٦) في أ: "إلا وعليها".(٧) تفسير الطبري (١١/٤٠٤) .." [1]

"والرجل يسأل عن أهله (١) والمرأة تسأل عن بيت زوجها، والعبد يسأل عن مال سيده". قال الليث: وحدثني ابن طاوس، مثله، ثم قرأ: ﴿فلنسألن الذين أرسل إليهم ولنسألن المرسلين﴾ (٢) .وهذا الحديث مخرج في الصحيحين بدون هذه الزيادة (٣)وقال ابن عباس: ﴿فلنقصن عليهم بعلم وما كنا غائبين﴾ يوضع الكتاب يوم القيامة، فيتكلم بما كانوا يعملون، ﴿وما كنا غائبين﴾ يعني: أنه تعالى يخبر عباده يوم القيامة بما قالوا وبما عملوا، من قليل وكثير، وجليل وحقير؛ لأنه تعالى شهيد على كل شيء، لا يغيب عنه شيء، ولا يغفل عن شيء، بل هو العالم بخائنة الأعين وما تخفي الصدور، ﴿وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين﴾ [الأنعام: ٥٩] .﴿والوزن يومئذ الحق فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون (٨) ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم بما كانوا بآياتنا يظلمون (٩) ﴾يقول [تبارك و] (٤) تعالى: ﴿والوزن﴾ أي: للأعمال (٥) يوم القيامة ﴿الحق﴾ أي: لا يظلم تعالى أحدا، كما قال تعالى: ﴿ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين﴾ [الأنبياء: ٤٧] وقال تعالى: ﴿إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجرا عظيما﴾ [النساء: ٤٠] وقال تعالى: ﴿فأما من ثقلت موازينه فهو في عيشة راضية * وأما من خفت موازينه فأمه هاوية * وما أدراك ما هيه * نار حامية﴾ [القارعة: ٦-١١] وقال تعالى: ﴿فإذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون * فمن

---

(١) تفسير ابن كثير ت سلامة ابن كثير ٣/٢٦٥

ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون * ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم في جهنم خالدون﴾ [المؤمنون: ١٠١ -١٠٣] .فصل:والذي يوضع في الميزان يوم القيامة (٦) قيل: الأعمال وإن كانت أعراضا، إلا أن الله تعالى يقلبها يوم القيامة أجساما.قال البغوي: يروى هذا عن ابن عباس (٧) كما جاء في الصحيح من أن "البقرة" و "آل عمران" يأتيان (٨) يوم القيامة كأنهما غمامتان -أو: غيايتان -أو فرقان من طير صواف. من ذلك في الصحيح قصة القرآن وأنه يأتي صاحبه في صورة شاب شاحب اللون، فيقول: من أنت؟ فيقول: أنا القرآن الذي_______________(١) في أ: "أهل بيته".(٢) وفي إسناده عبد الرحمن بن محمد المحاربي، قال ابن معين: يروى المناكير عن المجهولين، ولكن روي من وجه آخر عن نافع عن ابن عمر وفي الصحيحين.(٣) صحيح البخاري برقم (٥١٨٨) وصحيح مسلم برقم (١٨٢٩) .(٤) زيادة من أ.(٥) في ك: "الأعمال".(٦) في ك: "يوم القيامة في الميزان".(٧) معالم التنزيل للبغوي (٣/٢١٥) .(٨) في أ: "تأتيان"..".
(١)

"كفر بعد الحجة، لما رأى من الآية والعبرة، ويؤمن من آمن على مثل ذلك.وهذا تفسير جيد. وبسط ذلك أنه (١) تعالى يقول: إنما جمعكم مع عدوكم في مكان واحد على غير ميعاد، لينصركم عليهم، ويرفع كلمة الحق على الباطل، ليصير الأمر ظاهرا، والحجة قاطعة، والبراهين ساطعة، ولا يبقى لأحد حجة ولا شبهة، فحينئذ ﴿يهلك من هلك﴾ أي: يستمر في الكفر من استمر فيه على بصيرة من أمره أنه مبطل، لقيام الحجة عليه، ﴿ويحيى من حي﴾ أي: يؤمن من آمن ﴿عن بينة﴾ أي: حجة وبصيرة. والإيمان هو حياة القلوب، قال الله تعالى: ﴿أومن كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشي به في الناس﴾ [الأنعام: ١٢٢] ،وقالت عائشة في قصة الإفك: في هلك من هلك أي: قال فيها ما قال من الكذب والبهتان والإفك.وقوله: ﴿وإن الله لسميع﴾ أي: لدعائكم وتضرعكم واستغاثتكم به ﴿عليم﴾ أي: بكم وأنكم تستحقون النصر على أعدائكم الكفرة المعاندين.﴿إذ يريكهم الله في منامك قليلا ولو أراكهم كثيرا لفشلتم ولتنازعتم في الأمر ولكن الله سلم إنه عليم بذات الصدور (٤٣) وإذ يريكموهم إذ التقيتم في أعينكم قليلا ويقللكم في أعينهم ليقضي الله أمرا كان مفعولا وإلى الله ترجع الأمور (٤٤) ﴾قال مجاهد: أراه الله إياهم في منامه (٢) قليلا فأخبر النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه بذلك، فكان تثبيتا لهم.وكذا قال ابن إسحاق وغير واحد. وحكى ابن جرير عن بعضهم أنه رآهم بعينه التي ينام بها.وقد روى ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا يوسف بن موسى المدبر، حدثنا أبو قتيبة، عن سهل السراج، عن الحسن في قوله: ﴿إذ يريكهم الله في منامك قليلا﴾ قال: بعينك.وهذا القول غريب، وقد صرح بالمنام هاهنا، فلا حاجة إلى التأويل الذي لا دليل عليه (٣)وقوله: ﴿ولوأراكهم كثيرا لفشلتم﴾ أي: لجبنتم عنهم واختلفتم فيما بينكم، ﴿ولكن الله سلم﴾ أي: من ذلك: بأن أراكهم قليلا ﴿إنه عليم بذات الصدور﴾ أي: بما تجنه الضمائر، وتنطوي عليه الأحشاء، فيعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور.وقوله: ﴿وإذ يريكموهم إذ التقيتم في أعينكم قليلا﴾ وهذا أيضا من لطفه تعالى بهم، إذ أراهم إياهم قليلا

---

(١) تفسير ابن كثير ت سلامة ابن كثير ٣/٣٨٩

في رأي العين، فيجرؤهم عليهم، ويطمعهم فيهم.______________(١) في أ: "أن الله".(٢) في جميع النسخ: "أراهم الله في منامه" والمثبت من الطبري.(٣) في أ: "له".." (١)

"احفظ عورتك، إلا من زوجتك أو ما ملكت يمينك" (١) .﴿ذلك أزكى لهم﴾ أي: أطهر لقلوبهم وأنقى لدينهم، كما قيل: "من حفظ بصره، أورثه الله نورا في بصيرته". ويروى: "في قلبه".وقد قال الإمام أحمد: حدثنا عتاب، حدثنا عبد الله بن المبارك، أخبرنا يحيى بن أيوب، عن عبيد الله بن زحر، عن علي بن يزيد، عن القاسم، عن أبي أمامة، رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "ما من مسلم ينظر إلى محاسن امرأة [أول مرة] (٢) ثم يغض بصره، إلا أخلف الله له عبادة يجد حلاوتها" (٣) .وروي هذا مرفوعا عن ابن عمر، وحذيفة، وعائشة، رضي الله عنهم (٤) ولكن في إسنادها ضعف، إلا أنها في الترغيب، ومثله يتسامح فيه.وفي الطبراني من طريق عبيد الله بن زحر،، عن علي بن يزيد، عن القاسم، عن أبي أمامة مرفوعا: "لتغضن أبصاركم، ولتحفظن فروجكم، ولتقيمن وجوهكم -أو: لتكسفن وجوهكم" (٥) .وقال الطبراني: حدثنا أحمد بن زهير التستري قال: قرأنا على محمد بن حفص بن عمر الضرير المقرئ، حدثنا يحيى بن أبي بكير، حدثنا هريم بن سفيان، عن عبد الرحمن بن إسحاق، عن القاسم بن عبد الرحمن، عن أبيه، عن عبد الله بن مسعود، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن النظر سهم من سهام إبليس مسموم، من تركه مخافتي، أبدلته إيمانا يجد حلاوته في قلبه" (٦) .وقوله: ﴿إن الله خبير بما يصنعون﴾ ، كما قال تعالى: ﴿يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور﴾ [غافر:١٩] .وفي الصحيح، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "كتب على ابن آدم حظه من الزنى، أدرك ذلك لا محالة. فزنى العينين: النظر. وزنى اللسان: النطق. وزنى الأذنين: الاستماع. وزنى اليدين: البطش. وزنى الرجلين: الخطي. والنفس تمنى وتشتهي، والفرج يصدق ذلك أو يكذبه".______________(١) المسند (٥/ ٣، ٤) وسنن أبي داود برقم (٤٠١٧) وسنن ابن ماجه برقم (١٩٢٠) من حديث معاوية بن حيدة، رضي الله عنه.(٢) زيادة من ف، أ.(٣) المسند (٥/٢٦٤) . وفي إسناده عبيد الله بن زحر، قال ابن حبان: "يروي الموضوعات عن الأثبات وإذا روى عن علي بن يزيد أتى بالطامات، وإذا اجتمع في إسناد خبر عبيد الله بن زحر وعلي بن يزيد والقاسم أبو عبد الرحمن، لم يكن ذلك الخبر إلا مما عملته أيديهم".(٤) أما حديث حذيفة، فرواه الحاكم في المستدرك (٤/٣١٤) من طريق إسحاق القرشي، عن هشيم، عن عبد الرحمن، عن إسحاق، عن محارب، عن صلة بن زفر، عن حذيفة، رضي الله عنه، وصححه الحاكم، وتعقبه الذهبي. قلت: إسحاق واه وعبد الرحمن هو الواسطي ضعفوه. وأما حديث ابن عمر، فرواه أبو نعيم في الحلية (٦/١٠١) من طريق أبي اليمان، عن أبي المهدي، عن أبي الزاهرية، عن كثير بن مرة، عن ابن عمر، رضي الله عنهما، وإسناده ضعيف جدا.(٥) المعجم الكبير (٨/٢٤٦) وعبيد الله بن زحر وعلي بن يزيد والقاسم ضعفاء.(٦) المعجم الكبير (١٠/٢١٤) وقال الهيثمي في المجمع (٨/٦٣) : "وفيه عبد الرحمن بن إسحاق الواسطي وهو ضعيف".." (٢)

---

(١) تفسير ابن كثير ت سلامة ابن كثير ٤/٦٩

(٢) تفسير ابن كثير ت سلامة ابن كثير ٦/٤٣

"مع قومها. قال: فاطمأن أبو بكر، رضي الله عنهما (١) وسكن (٢) .وقد عظم الله تبارك وتعالى ذلك، وشدد فيه وتوعد عليه بقوله: ﴿إن ذلكم كان عند الله عظيما﴾ ، ثم قال: ﴿إن تبدوا شيئا أو تخفوه فإن الله كان بكل شيء عليما﴾ أي: مهما تكنه ضمائركم وتنطوي عليه سرائركم، فإن الله (٣) يعلمه؛ فإنه لا تخفى (٤) عليه خافية، ﴿يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور﴾ [غافر: ١٩] .__________(١) في ت، ف: "عنه".(٢) تفسير الطبري (٢٢/٢٩) .(٣) في ف: "فإنه".(٤) في ت، ف: "لا يخفى".." [1]

"وقد يقال: إن يوم القيامة (١) هو يشمل هذا كله، ويشمل أن كل عامل سيلقى ما عمل من خير وشر. كما قاله آخرون.وقوله: ﴿يوم هم بارزون﴾ أي: ظاهرون بادون كلهم، لا شيء يكنهم ولا يظلهم ولا يسترهم. ولهذا قال: ﴿يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شيء﴾ أي: الجميع في علمه على السواء.وقوله: ﴿لمن الملك اليوم لله الواحد القهار﴾ قد تقدم في حديث ابن عمر: أنه تعالى (٢) يطوي السموات والأرض بيده، ثم يقول: أنا الملك، أنا الجبار، أنا المتكبر، أين ملوك الأرض؟ أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟ .وفي حديث الصور: أنه تعالى إذا قبض أرواح جميع خلقه، فلم يبق سواه وحده لا شريك له، حينئذ يقول: لمن الملك اليوم؟ ثلاث مرات، ثم يجيب نفسه قائلا ﴿لله الواحد القهار﴾ أي: الذي هو وحده قد قهر كل شيء وغلبه (٣) .وقد قال (٤) ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن غالب الدقاق، حدثنا عبيد بن عبيدة، حدثنا معتمر، عن أبيه، حدثنا أبو نضرة، عن ابن عباس [رضي الله عنهما] (٥) قال: ينادي مناد بين يدي الساعة: يا أيها الناس، أتتكم الساعة. فيسمعها الأحياء والأموات، قال: وينزل الله [عز وجل] (٦) إلى سماء الدنيا ويقول: ﴿لمن الملك اليوم لله الواحد القهار﴾ .وقوله: ﴿اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب﴾ يخبر تعالى عن عدله في حكمه بين خلقه، أنه لا يظلم مثقال ذرة من خير ولا من شر، بل يجزي بالحسنة عشر أمثالها، وبالسيئة واحدة؛ ولهذا قال: ﴿لا ظلم اليوم﴾ كما ثبت في صحيح مسلم (٧) ، عن أبي ذر، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم -فيما يحكي عن ربه عز وجل-أنه قال: "يا عبادي، إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا -إلى أن قال-: يا عبادي، إنما هي أعمالكم أحصيها عليكم (٨) ثم أوفيكم إياها، فمن وجد خيرا فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه" (٩) .وقوله: ﴿إن الله سريع الحساب﴾ أي: يحاسب الخلائق كلهم، كما يحاسب نفسا واحدة، كما قال: ﴿ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة﴾ [لقمان: ٢٨] ، وقال [تعالى] (١٠) : ﴿وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر﴾ [القمر: ٥٠] .﴿وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع (١٨) يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور (١٩) والله يقضي بالحق والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء إن الله هو السميع البصير (٢٠) ﴾__________(١) في ت، س: "التلاق".(٢) في ت: "أن الله".(٣) انظر حديث الصور بتمامه عند تفسير الآية: ٧٣ من سورة الأنعام.(٤) في ت: "وروى ابن أبي حاتم".(٥) زيادة من أ.(٦) زيادة من ت، أ.(٧) في ت: "البخاري" وهو خطأ.(٨) في ت، س: "لكم".(٩) صحيح مسلم برقم (٢٥٧٧) .(١٠) زيادة من س.." [2]

---

(١) تفسير ابن كثير ت سلامة ابن كثير ٤٥٦/٦

(٢) تفسير ابن كثير ت سلامة ابن كثير ١٣٦/٧

"يوم الآزفة هو: اسم من أسماء يوم القيامة، سميت بذلك لاقترابها، كما قال تعالى: ﴿أزفت الآزفة. ليس لها من دون الله كاشفة﴾ [النجم:٥٧، ٥٨] وقال ﴿اقتربت الساعة وانشق القمر﴾ [القمر: ١] ، وقال ﴿اقترب للناس حسابهم﴾ [الأنبياء:١] وقال ﴿أتى أمر الله فلا تستعجلوه﴾ [النحل:١] وقال ﴿فلما رأوه زلفة سيئت وجوه الذين كفروا وقيل هذا الذي كنتم به تدعون﴾ [الملك:٢٧] .وقوله: ﴿إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين﴾ [أي ساكتين] (١) ، قال قتادة: وقفت القلوب في الحناجر من الخوف، فلا تخرج ولا تعود إلى أماكنها. وكذا قال عكرمة، والسدي، وغير واحد.ومعنى ﴿كاظمين﴾ أي: ساكتين، لا يتكلم أحد إلا بإذنه ﴿يوم يقوم الروح والملائكة صفا لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا﴾ [النبأ:٣٨] .وقال ابن جريج (٢) : ﴿كاظمين﴾ أي: باكين.وقوله: ﴿ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع﴾ أي: ليس للذين ظلموا أنفسهم بالشرك بالله من قريب منهم ينفعهم، ولا شفيع يشفع فيهم، بل قد تقطعت بهم الأسباب من كل خير.وقوله: ﴿يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور﴾ يخبر تعالى عن علمه التام المحيط بجميع الأشياء، جليلها وحقيرها، صغيرها وكبيرها، دقيقها ولطيفها؛ ليحذر الناس علمه فيهم، فيستحيوا من الله حق الحياء، ويتقوه حق تقواه، ويراقبوه مراقبة من يعلم أنه يراه، فإنه تعالى يعلم العين الخائنة وإن أبدت أمانة، ويعلم ما تنطوي عليه خبايا الصدور من الضمائر والسرائر.قال ابن عباس في قوله: ﴿يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور﴾ وهو الرجل يدخل على أهل البيت بيتهم، وفيهم المرأة الحسناء، أو تمر به وبهم المرأة الحسناء، فإذا غفلوا لحظ إليها، فإذا فطنوا غض، فإذا غفلوا لحظ، فإذا فطنوا غض [بصره عنها] (٣) وقد اطلع الله من قلبه أنه ود أن لو اطلع على فرجها. رواه ابن أبي حاتم.وقال الضحاك: ﴿خائنة الأعين﴾ هو الغمز، وقول الرجل: رأيت، ولم ير؛ أو: لم أر، وقد رأى.وقال ابن عباس: يعلم [الله] (٤) تعالى من العين في نظرها، هل تريد الخيانة أم لا؟ وكذا قال مجاهد، وقتادة.وقال ابن عباس في قوله: ﴿وما تخفي الصدور﴾ يعلم إذا أنت قدرت عليها هل تزني بها أم لا؟.وقال السدي: ﴿وما تخفي الصدور﴾ أي: من الوسوسة.__________(١) زيادة من ت.(٢) في ت: "جرير".(٣) زيادة من س، أ.(٤) زيادة من س.." (١)

"نفس بأي أرض تموت إن الله عليم خبير.وفي حديث عمر: أن جبريل حين تبدى له في صورة أعرابي، فسأل عن الإيمان والإسلام والإحسان، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم فيما قاله له: «خمس لا يعلمهن إلا الله» ثم قرأ إن الله عنده علم الساعة الآية.وقوله ويعلم ما في البر والبحر أي محيط علمه الكريم بجميع الموجودات، بريها وبحريها، لا يخفى عليه من ذلك شيء، ولا مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، وما أحسن ما قال الصرصري: [الوافر]فلا يخفى عليه الذر إما ... تراءى للنواظر أو تواربوقوله وما تسقط من ورقة إلا يعلمها أي ويعلم الحركات حتى من الجمادات، فما ظنك بالحيوانات، ولا سيما المكلفون منهم من جنهم وإنسهم، كما قال تعالى: يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور. وقال ابن أبي حاتم، حدثنا أبي، حدثنا الحسن بن الربيع، حدثنا أبو الأحوص، عن سعيد بن مسروق، حدثنا حسان النمري، عن ابن عباس، في قوله وما تسقط من ورقة إلا يعلمها قال: ما من شجرة في بر ولا بحر إلا وملك موكل بها، يكتب ما يسقط منها، رواه ابن أبي حاتم.وقوله ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين قال ابن أبي حاتم: حدثنا عبد الله

---

(١) تفسير ابن كثير ت سلامة ابن كثير ١٣٧/٧

بن محمد بن عبد الرحمن بن المسور الزهري، حدثنا مالك بن سعير، حدثنا الأعمش، عن يزيد بن أبي زياد، عن عبد الله بن الحارث، قال: ما في الأرض من شجرة ولا مغرز إبرة، إلا وعليها ملك موكل، يأتي الله بعلمها، رطوبتها إذا رطبت، ويبوستها إذا يبست، وكذا رواه ابن جرير «١» عن أبي الخطاب زياد بن عبد الله الحساني، عن مالك بن سعير به. ثم قال ابن أبي حاتم: ذكر عن أبي حذيفة، حدثنا سفيان عن عمرو بن قيس، عن رجل، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، قال: خلق الله النون وهي الدواة، وخلق الألواح، فكتب فيها أمر الدنيا، حتى ينقضي ما كان من خلق مخلوق، أو رزق حلال أو حرام، أو عمل بر أو فجور، وقرأ هذه الآية وما تسقط من ورقة إلا يعلمها إلى آخر الآية.قال محمد بن إسحاق: عن يحيى بن النضر، عن أبيه، سمعت عبد الله بن عمرو بن العاص، يقول: إن تحت الأرض الثالثة وفوق الرابعة من الجن، ما لو أنهم ظهروا، يعني لكم، لم تروا معهم نورا على كل زاوية من زوايا الأرض خاتم من خواتيم الله عز وجل، على كل خاتم ملك من الملائكة، يبعث الله عز وجل إليه في كل يوم ملكا من عنده أن احتفظ بما عندك.______________(١) تفسير الطبري ٥/ ٢١١.." (١)

"وقال ابن عباس في قوله فلنقصن عليهم بعلم وما كنا غائبين يوضع الكتاب يوم القيامة فيتكلم بما كانوا يعملون وما كنا غائبين يعني أنه تعالى يخبر عباده يوم القيامة بما قالوا وبما عملوا من قليل وكثير وجليل وحقير، لأنه تعالى الشهيد على كل شيء لا يغيب عنه شيء ولا يغفل عن شيء بل هو العالم بخائنة الأعين وما تخفي الصدور وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين [الأنعام: ٥٩] .[سورة الأعراف (٧) : الآيات ٨ الى ٩]والوزن يومئذ الحق فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون (٨) ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم بما كانوا بآياتنا يظلمون (٩)يقول تعالى: والوزن أي للأعمال يوم القيامة الحق أي لا يظلم تعالى أحدا كقوله ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين [الأنبياء: ٤٧] وقال تعالى: إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجرا عظيما [النساء: ٤٠] وقال تعالى: فأما من ثقلت موازينه فهو في عيشة راضية وأما من خفت موازينه فأمه هاوية وما أدراك ما هيه نار حامية [القارعة: ٦- ١١] وقال تعالى: فإذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم في جهنم خالدون [المؤمنون: ١٠٢- ١٠٣] .[فصل] والذي يوضع في الميزان يوم القيامة قيل الأعمال وإن كانت أعراضا إلا أن الله تعالى يقلبها يوم القيامة أجساما، قال البغوي: يروى نحو هذا عن ابن عباس، كما جاء في الصحيح من أن البقرة وآل عمران يأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان أو غيايتان أو فرقان من طير صواف «١» . ومن ذلك في الصحيح قصة القرآن وأنه يأتي صاحبه في صورة شاب شاحب اللون فيقول: من أنت؟ فيقول أنا القرآن الذي أسهرت ليلك وأظمأت نهارك «٢» . وفي حديث البراء في قصة سؤال القبر «فيأتي المؤمن شاب حسن اللون طيب الريح فيقول: من أنت؟ فيقول: أنا عملك الصالح» «٣» ، وذكر عكسه في شأن الكافر والمنافق.وقيل يوزن كتاب الأعمال كما جاء في حديث البطاقة في الرجل الذي يؤتى به ويوضع له في كفة تسعة وتسعون سجلا كل سجل

---

(١) تفسير ابن كثير ط العلمية ابن كثير ٢٣٧/٣

مد البصر، ثم يؤتى بتلك البطاقة فيها لا إله إلا الله فيقول يا رب وما هذه البطاقة مع هذه السجلات؟ فيقول الله تعالى إنك لا تظلم. فتوضع تلك البطاقة في كفة الميزان، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «فطاشت السجلات وثقلت_____________(١) أخرجه مسلم في المسافرين حديث ٢٥٢، وأحمد في المسند ٥/ ٢٤٩، ٢٥١، ٢٥٥، ٢٥٧.(٢) أخرجه ابن ماجة في الأدب باب ٥٢، وأحمد في المسند ٥/ ٣٤٨، ٣٥٢.(٣) أخرجه أحمد في المسند ٥/ ٢٨٧.." (١)

"على أعدائكم الكفرة المعاندين.[سورة الأنفال (٨) : الآيات ٤٣ الى ٤٤]إذ يريكهم الله في منامك قليلا ولو أراكهم كثيرا لفشلتم ولتنازعتم في الأمر ولكن الله سلم إنه عليم بذات الصدور (٤٣) وإذ يريكموهم إذ التقيتم في أعينكم قليلا ويقللكم في أعينهم ليقضي الله أمرا كان مفعولا وإلى الله ترجع الأمور (٤٤)قال مجاهد: أراهم الله إياه في منامه قليلا، وأخبر النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه بذلك، فكان تثبيتا لهم، وكذا قال ابن إسحاق وغير واحد، وحكى ابن جرير عن بعضهم، أنه رآهم بعينه التي ينام بها، وقد روى ابن أبي حاتم: حدثنا أبي حدثنا يوسف بن موسى، حدثنا أبو قتيبة، عن سهل السراج عن الحسن في قوله: إذ يريكهم الله في منامك قليلا قال بعينك، وهذا القول غريب، وقد صرح بالمنام هاهنا، فلا حاجة إلى التأويل الذي لا دليل عليه.وقوله: ولو أراكهم كثيرا لفشلتم أي لجبنتم عنهم، واختلفتم فيما بينكم، ولكن الله سلم أي من ذلك، بأن أراكهم قليلا إنه عليم بذات الصدور أي بما تكنه الضمائر وتنطوي عليه الأحشاء، يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور [غافر: ١٩] وقوله: وإذ يريكموهم إذ التقيتم في أعينكم قليلا وهذا أيضا من لطفه تعالى بهم، إذ أراهم إياهم قليلا في رأي العين، فيجزؤهم عليهم ويطمعهم فيهم، قال أبو إسحاق السبيعي: عن أبي عبيدة، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، قال: لقد قللوا في أعيننا يوم بدر، حتى قلت لرجل إلى جنبي تراهم سبعين؟ قال: لا بل هم مائة، حتى أخذنا رجلا منهم فسألناه، فقال: كنا ألفا، رواه ابن أبي حاتم وابن جرير.وقوله: ويقللكم في أعينهم قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي حدثنا سليمان بن حرب، حدثنا حماد بن زيد، عن الزبير بن الحارث عن عكرمة وإذ يريكموهم إذ التقيتم الآية، قال: حضض بعضهم على بعض، إسناد صحيح، وقال محمد بن إسحاق: حدثني يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير، عن أبيه في قوله تعالى: ليقضي الله أمرا كان مفعولا أي ليلقي بينهم الحرب للنقمة ممن أراد الانتقام منه، والإنعام على من أراد تمام النعمة عليه من أهل ولايته، ومعنى هذا أنه تعالى أغرى كلا من الفريقين بالآخر، وقلله في عينه ليطمع فيه، وذلك عند المواجهة، فلما التحم القتال وأيد الله المؤمنين بألف من الملائكة مردفين، بقي حزب الكفار يرى حزب الإيمان ضعفيه، كما قال تعالى: قد كان لكم آية في فئتين التقتا فئة تقاتل في سبيل الله وأخرى كافرة يرونهم مثليهم رأي العين والله يؤيد بنصره من يشاء إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار [آل عمران: ١٣] وهذا هو الجمع بين هاتين الآيتين، فإن كلا منهما حق وصدق، ولله الحمد والمنة.." (٢)

---

(١) تفسير ابن كثير ط العلمية ابن كثير ٣/٣٥٠

(٢) تفسير ابن كثير ط العلمية ابن كثير ٤/٦١

"بصره أورثه الله نورا في بصيرته، ويروى في قلبه.وروى الإمام أحمد «١» : حدثنا عتاب، حدثنا عبد الله بن المبارك، أخبرنا يحيى بن أيوب عن عبيد الله بن زحر عن علي بن زيد عن القاسم عن أبي أمامة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال «ما من مسلم ينظر إلى محاسن امرأة (أول مرة) ثم يغض بصره إلا أخلف الله له عبادة يجد حلاوتها» وروي هذا مرفوعا عن ابن عمر وحذيفة وعائشة رضي الله عنهم، ولكن في إسنادها ضعف إلا أنها في الترغيب، ومثله يتسامح فيه. وفي الطبراني من طريق عبيد الله بن زحر عن علي بن يزيد عن القاسم عن أبي أمامة مرفوعا «لتغضن أبصاركم، ولتحفظن فروجكم، ولتقيمن وجوهكم، أو لتكسفن وجوهكم» .وقال الطبراني: حدثنا أحمد بن زهير التستري قال: قرأنا على محمد بن حفص بن عمر الضرير المقرئ، حدثنا يحيى بن أبي بكير، حدثنا هريم بن سفيان عن عبد الرحمن بن إسحاق عن القاسم بن عبد الرحمن عن أبيه عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن النظرة سهم من سهام إبليس مسموم من تركها مخافتي أبدلته إيمانا يجد حلاوته في قلبه» . وقوله تعالى: إن الله خبير بما يصنعون كما قال تعالى: يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور [النور: ٣٠] .وفي الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «كتب على ابن آدم حظه من الزنا أدرك ذلك لا محالة، فزنا العينين النظر، وزنا اللسان النطق، وزنا الأذنين الاستماع، وزنا اليدين البطش، وزنا الرجلين الخطي، والنفس تمنى وتشتهي، والفرج يصدق ذلك أو يكذبه» «٢» رواه البخاري تعليقا، ومسلم مسندا من وجه آخر بنحو ما تقدم، وقد قال كثير من السلف: إنهم كانوا ينهون أن يحد الرجل بصره إلى الأمرد، وقد شدد كثير من أئمة الصوفية في ذلك، وحرمه طائفة من أهل العلم لما فيه من الافتتان، وشدد آخرون في ذلك كثيرا جدا.وقال ابن أبي الدنيا: حدثنا أبو سعيد المدني، حدثنا عمر بن سهل المازني، حدثني عمر بن محمد بن صهبان عن صفوان بن سليم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «كل عين باكية يوم القيامة إلا عينا غضت عن محارم الله، وعينا سهرت في سبيل الله، وعينا يخرج منها مثل رأس الذباب من خشية الله عز وجل» «٣» . ________(١) المسند ٥/ ٢٦٤.(٢) أخرجه البخاري في الاستئذان باب ١٢، والقدر باب ٩، ومسلم في القدر حديث ٢٠، ٢١، وأبو داود في النكاح باب ٤٣، وأحمد في المسند ٢/ ٢٧٦، ٣٤٣، ٣٧٩، ٤٣١، ٥٤٦.(٣) انظر الدر المنثور ٥/ ٧٤.." [(١)]

"عن ذلك وزجركم عنه.ثم قال تعالى: وإذا سألتموهن متاعا فسئلوهن من وراء حجاب أي وكما نهيتكم عن الدخول عليهن كذلك لا تنظروا إليهن بالكلية، ولو كان لأحدكم حاجة يريد تناولها منهن، فلا ينظر إليهن ولا يسألهن حاجة إلا من وراء حجاب. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا ابن أبي عمر، حدثنا سفيان عن مسعر عن موسى بن أبي كثير عن مجاهد عن عائشة قالت: كنت آكل مع النبي صلى الله عليه وسلم حيسا في قعب، فمر عمر فدعاه فأكل، فأصابت إصبعه إصبعي، فقال حسن أو أوه لو أطاع فيكن ما رأتكن عين، فنزل الحجاب ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن أي هذا الذي أمرتكم به وشرعته لكم من الحجاب أطهر وأطيب.وقوله تعالى: وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبدا إن ذلكم كان عند الله عظيما قال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا محمد بن أبي حماد،

(١) تفسير ابن كثير ط العلمية ابن كثير ٦/ ٤٠

حدثنا مهران عن سفيان عن داود بن أبي هند عن عكرمة عن ابن عباس في قوله تعالى:وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله قال: نزلت في رجل هم أن يتزوج بعض نساء النبي صلى الله عليه وسلم بعده، قال رجل لسفيان: أهي عائشة؟ قال: قد ذكروا ذلك.وكذا قال مقاتل بن حيان وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وذكر بسنده عن السدي أن الذي عزم على ذلك طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه، حتى نزل التنبيه على تحريم ذلك، ولهذا اجتمع العلماء قاطبة على أن من توفي عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم من أزواجه أنه يحرم على غيره تزوجها من بعده، لأنهن أزواجه في الدنيا والآخرة وأمهات المؤمنين كما تقدم، واختلفوا فيمن دخل بها ثم طلقها في حياته: هل يحل لغيره أن يتزوجها؟ على قولين مأخذهما هل دخلت هذه في عموم قوله من بعده أم لا؟ فأما من تزوجها ثم طلقها قبل أن يدخل بها، فما نعلم في حلها لغيره والحالة هذه نزاعا، والله أعلم.وقال ابن جرير «١» : حدثني محمد بن المثنى، حدثنا عبد الوهاب، حدثنا داود عن عامر أن نبي الله صلى الله عليه وسلم مات وقد ملك قيلة ابنة الأشعث- يعني ابن قيس- فتزوجها عكرمة بن أبي جهل بعد ذلك، فشق ذلك على أبي بكر مشقة شديدة، فقال له عمر: يا خليفة رسول الله إنها ليست من نسائه، إنها لم يخيرها رسول الله ولم يحجبها، وقد برأها الله منه بالردة التي ارتدت مع قومها:قال: فاطمأن أبو بكر رضي الله عنه وسكن، وقد عظم الله تبارك وتعالى ذلك، وشدد فيه وتوعد عليه بقوله: إن ذلكم كان عند الله عظيما ثم قوله تعالى: إن تبدوا شيئا أو تخفوه فإن الله كان بكل شيء عليما أي مهما تكنه ضمائركم وتنطوي عليه سرائركم، فإن الله يعلمه، فإنه لا تخفى عليه خافية يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور [غافر: ١٩] .ـــــــــــــــــــــ(١) تفسير الطبري ١٠/ ٣٢٧.." (١)

"وقوله جل جلاله: يوم هم بارزون أي ظاهرون بادون كلهم لا شيء يكنهم ولا يظلهم ولا يسترهم ولهذا قال: يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شيء أي الجميع في علمه على السواء. وقوله تبارك وتعالى: لمن الملك اليوم لله الواحد القهار قد تقدم في حديث ابن عمر رضي الله عنهما أنه تعالى يطوي السموات والأرض بيده ثم يقول أنا الملك أنا الجبار أنا المتكبر، أين ملوك الأرض؟ أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟ وفي حديث الصور أنه عز وجل إذا قبض أرواح جميع خلقه فلم يبق سواه وحده لا شريك له حينئذ يقول لمن الملك اليوم؟ ثلاث مرات ثم يجيب نفسه قائلا لله الواحد القهار أي الذي هو وحده قد قهر كل شيء وغلبه. وقد قال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن غالب الدقاق حدثنا عبيد بن عبيدة حدثنا معتمر عن أبيه حدثنا أبو نضرة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ينادي مناد بين يدي الساعة يا أيها الناس أتتكم الساعة فيسمعها الأحياء والأموات قال وينزل الله عز وجل إلى السماء الدنيا ويقول: لمن الملك اليوم لله الواحد القهار.وقوله جلت عظمته: اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب يخبر تعالى عن عدله في حكمه بين خلقه أنه لا يظلم مثقال ذرة من خير ولا من شر بل يجزي بالحسنة عشر أمثالها وبالسيئة واحدة ولهذا قال تبارك وتعالى: لا ظلم اليوم كما ثبت في صحيح مسلم عن أبي ذر رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يحكي عن ربه عز وجل أنه قال: «يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا- إلى أن قال- يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها عليكم ثم أوفيكم إياها، فمن وجد خيرا فليحمد الله تبارك وتعالى، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه» «١»

---

(١) تفسير ابن كثير ط العلمية ابن كثير ٤٠٣/٦

وقوله عز وجل: إن الله سريع الحساب أي يحاسب الخلائق كلهم كما يحاسب نفسا واحدة كما قال جل وعلا:ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة [لقمان: ٢٨] وقال جل جلاله: وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر [القمر: ٥٠] .[سورة غافر (٤٠) : الآيات ١٨ الى ٢٠]وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع (١٨) يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور (١٩) والله يقضي بالحق والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء إن الله هو السميع البصير (٢٠)يوم الآزفة اسم من أسماء يوم القيامة وسميت بذلك لاقترابها كما قال تعالى: أزفت الآزفة ليس لها من دون الله كاشفة [النجم: ٥٧- ٥٨] وقال عز وجل: اقتربت الساعة وانشق القمر [القمر: ١] وقال جل وعلا: اقترب للناس حسابهم [الأنبياء: ١] وقال:______________(١) أخرجه مسلم في البر حديث ٥٥، وأحمد في المسند ٥/ ١٦٠.." [(١)]

"أتى أمر الله فلا تستعجلوه [النحل: ١] وقال جل جلاله: فلما رأوه زلفة سيئت وجوه الذين كفروا وقيل هذا الذي كنتم به تدعون [الملك: ٢٧] الآية. وقوله تبارك وتعالى: إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين قال قتادة وقفت القلوب في الحناجر من الخوف فلا تخرج ولا تعود إلى أماكنها، وكذا قال عكرمة والسدي وغير واحد، ومعنى كاظمين أي ساكتين لا يتكلم أحد إلا بإذنه يوم يقوم الروح والملائكة صفا لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا [النبأ: ٣٨] وقال ابن جريج كاظمين أي باكين. وقوله سبحانه وتعالى: ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع أي ليس للذين ظلموا أنفسهم بالشرك بالله من قريب منهم ينفعهم ولا شفيع يشفع فيهم بل قد تقطعت بهم الأسباب من كل خير.وقوله تعالى: يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور يخبر عز وجل عن علمه التام المحيط بجميع الأشياء جليلها وحقيرها، صغيرها وكبيرها، دقيقها ولطيفها ليحذر الناس علمه فيهم فيستحيوا من الله تعالى حق الحياء ويتقوه حق تقواه، ويراقبوه مراقبة من يعلم أنه يراه فإنه عز وجل يعلم العين الخائنة وإن أبدت أمانة ويعلم ما تنطوي عليه خبايا الصدور من الضمائر والسرائر. قال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور هو الرجل يدخل على أهل البيت بيتهم وفيهم المرأة الحسناء أو تمر به وبهم المرأة الحسناء فإذا غفلوا لحظ إليها فإذا فطنوا غض بصره عنها فإذا غفلوا لحظ فإذا فطنوا غض، وقد اطلع الله تعالى من قلبه أنه ود أن لو اطلع على فرجها. رواه ابن أبي حاتم، وقال الضحاك خائنة الأعين هو الغمز وقول الرجل رأيت ولم ير. أو لم أر وقد رأى. وقال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما يعلم الله تعالى من العين في نظرها هل تريد الخيانة أم لا؟ وكذا قال مجاهد وقتادة، وقال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: وما تخفي الصدور يعلم إذا أنت قدرت عليها هل تزني بها أم لا؟ وقال السدي وما تخفي الصدور أي من الوسوسة.وقوله عز وجل: والله يقضي بالحق أي يحكم بالعدل، قال الأعمش عن سعيد بن جبير عن ابن عباس في قوله تعالى: والله يقضي بالحق قادر على أن يجزي بالحسنة الحسنة وبالسيئة السيئة إن الله هو السميع البصير وهذا الذي فسر به ابن عباس رضي الله عنهما في هذه الآية كقوله تبارك وتعالى: ليجزي الذين أساؤا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى [النجم: ٣١] وقوله جل وعلا: والذين يدعون من دونه أي من الأصنام والأوثان والأنداد لا يقضون بشيء أي لا يملكون شيئا ولا يحكمون بشيء إن الله هو

(١) تفسير ابن كثير ط العلمية ابن كثير ٧/١٢٣

السميع البصير أي سميع لأقوال خلقه بصير بهم فيهدي من يشاء ويضل من يشاء وهو الحاكم العادل في جميع ذلك.." (١)

"الصدور﴾ [العاديات: ١٠] . وحكى عن أهل النار قولهم: ﴿لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير﴾ [الملك: ١٠] والعقل في القلب، والسمع منفذ إليه، وقال: ﴿إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولا﴾ [الإسراء: ٣٦] والسمع والبصر لا يستفاد منهما إلا ما يؤديانه إلى القلب، وقال: ﴿يعلم خآئنة الأعين وما تخفي الصدور﴾ [غافر: ١٩] ولم تخن الأعين إلا بما تضمر القلوب إلى غير ذلك من الآيات.وأما الحديث فقوله - عليه السلام -: «ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب»وأما المعقول فإن القلب إذا غشي عليه، فإذا قطع سائر الأعضاء لم يحصل به الشعور، وإذا أفاق القلب شعر بجميع ما ينزل بالأعضاء من الآفات.وأيضا فإذا فرح القلب أو حزن فإنه يتغير حال الأعضاء عند ذلك. وأيضا فإن القلب منبع المشيئات الباعثة على الأفعال الصادر عن سار الأعضاء.قوله: «بلسان عربي» . يجوز أن يتعلق ب «المنذرين» أي: لتكون من الذين أنذروا بهذا اللسان العربي، وهم: هود، وصالح، وشعيب، وإسماعيل، ومحمد - صلى الله عليه وسلم - (و) يجوز أن يتعلق ب «نزل» أي: نزل باللسان العربي لتنذر به، لأنه لو نزل بالأعجمي لقالوا: لم نزل علينا ما لا نفهمه؟ وجوز أبو البقاء أن يكون بدلا من «به» بإعادة العامل، قال: أي نزل بلسان عربي، أي: برسالة أو لغة. قال ابن عباس: بلسان قريش ليفهموا ما فيه.قوله: ﴿وإنه لفي زبر الأولين﴾ . أي: وإن القرآن. وقيل: وإن محمدا ونعته ﴿لفي زبر الأولين﴾ أي: كتب الأولين. وقيل: المراد وجوه التخويف، لأن ذكر هذه الأشياء بأسرها قد تقدم، وفيه التفات، إذ لو جرى على ما تقدم لقيل: «وإنك لفي زبر» . وقرأ الأعمش: «زبر» بسكون الباء، وهي مخففة من المشهور.." (٢)

"هو» في قوله ﴿هو الذي يريكم آياته﴾ [غافر: ١٣] مثل «يلقي الروحط» ولكن «يلقي الروح» قد علل بقوله «لينذر» ثم استطرد لذكر أحوال يوم التلاق إلى قوله «ولا شفيع يطاع» فبعد لذلك عن أخواته.الثاني: أنه متصل بقوله «وأنذرهم» لما أمر بإنذاره يوم الآزمة وما يعرض فيه من شدة الغم والكرب وأن الظالم لا يجد من يحميه ولا شفيع له، ذكر اطلاعه على جميع ما يصدر من الخلق سرا وجهرا إذ المعنى أنه تعالى عالم لا يخفى عليه مثقال ذرة في السموات والأرض، والحاكم إذا بلغ في العلم إلى هذا الحد كان خوف المذنب شديدا جدا وعلى هذا فهذه الجملة لا محل لها لأنها في قوة التعليل للأمر بالإنذار.الثالث: أنها متصلة بقوله: «سريع الحساب» .الرابع: أنها متصلة بقوله: ﴿لا يخفى على الله﴾ [غافر: ١٦] وعلى هذين الوجهين فيحتمل أن تكون جارية مجرى العلة، وأن تكون في محل نصب على الحال.و «خائنة الأعين» فيه وجهان:أحدهما: أنها مصدر بمعنى الخيانة كالعافية بمعنى المعافاة (والعافية) أي يعلم خيانة الأعين أي استراق النظر إلى ما لا يحل كما يفعل أهل الريب.والثاني: أنها صفة على بابها وهو من باب إضافة الصفة للموصوف والأصل الأعين الخائنة كقوله:٤٣٣٠ - ... ... وإن سقيت كرام الناس فاسقيناوقد رده الزمخشري وقال: لا

---

(١) تفسير ابن كثير ط العلمية ابن كثير ١٢٤/٧

(٢) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٨٠/١٥

يحسن أن يراد الخائنة من الأعين لأن قوله: ﴿وما تخفي الصدور﴾ لا يساعد عليه يعنهي أنه لا يناسب أن يقابل المعنى إلا بالمعنى.." (١)

"وفيه نظر؛ أذ لقائل أن يقول لا نسلم أن «ما» في قوله ﴿وما تخفي الصدور﴾ مصدرية حتى يلزم ما ذكره، بل يجوز أن يكون بمعنى الذي وهو عبارة عن نفس ذلك الشيء المخفي فيكون قد قابل الاسم غير المصدر بمثله، والمراد بقوله: ﴿وما تخفي الصدور﴾ أي تضمر القلوب.واعلم أن الأفعال قسمان: أفعال الجوارح، وأفعال القلوب، وأما أفعال الجوارح فأخفاها خائنة الأعين والله بهات فكيف الحال في سائر الأعمال، وأما أفعال القلوب فهي معلومة لله تعالى لقوله ﴿وما تخفي الصدور﴾ فدل هذا على كونه عالما بجميع أفعالهم.قوله ﴿والله يقضي بالحق﴾ وهذا أيضا يوجب عظم الخوف لأن الحاكم إذا كان عالما بجميع الأحوال وثبت أنه لا يقضي إلا بالحق في كل ما دق وجل كان خوف المذنب منه في الغاية القصوى.قوله: «والذين يدعون» ، قرأ نافع وهشام تدعون بالخطاب للمشركين والباقون بالغيبة، إخبارا عنهم بذلك.واعلم أن الكفار إنما عولوا في دفع العقاب عن أنفسهم على شفاعة هذه الأصنام فبين الله تعالى أنه لا فائدة فيها البتة، فقال: ﴿الذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء﴾ ثم قال: ﴿إن الله هو السميع البصير﴾ أي يسمع من الكفار ثناءهم على الأصنام، ولا يسمع ثناءهم على الله ويبصر خضوعهم وسجودهم، ولا يبصر خضوعهم وتواضعهم لله.." (٢)

"يوضع المصدر موضع الاسم؛ كقولك: رجل عدل، وحقيقة الدعاء: استدعاء العبد ربه جل جلاله العناية، واستمداده إياه المعونة.والإجابة في اللغة: الطاعة وإعطاء ما سئل، فالإجابة من الله العطاء، ومن العبد الطاعة.وقال ابن الأنبياري «أجيب» ههنا بمعنى «أسمع؛ لأن بين السماع والإجابة نوع ملازمة.فصل في الجواب على من ادعى أن لا فائدة في الدعاءقال بعضهم: الدعاء لا فائدة فيه لوجوه:أحدها: أن المطلوب بالدعاء، إن كان معلوم الوقوع عند الله تعالى، كان وقوعه واجبا؛ فلا حاجة إلى الدعاء، وإن كان معلوم الانتفاء واجب العدم، فلا حاجة إلى الدعاء.وثانيها: أن وقوع الحوادث في هذا العالم إن كان لا بد لها من مؤثر قديم اقتضى وجودها اقتضاء قديما، كانت واجبة الوقوع، وكل ما لم يقتض المؤثر القديم وجوده اقتضاء أزليا، كان ممتنع الوقوع، وإذا كانت هذه المقدمة ثابتة في الأزل، لم يكن للدعاء ألبتة أثر، وربما عبروا عن هذا الكلام بأن قالوا: الأقدار سابقة، والأقضية متقدمة، فالإلحاح في الدعاء لا يزيد فيها وتركه لا ينقص منها شيئا، فأي فائدة في الدعاء، وقال عليه الصلاة والسلام :» أربع قد فرغ منها: الخلق والخلق والرزق والأجل «وثالثها: أنه سبحانه وتعالى قال: ﴿يعلم خآئنة الأعين وما تخفي الصدور﴾ [غافر: ١٩] وإذا كان يعلم ما في الضمير، فأي حاجة إلى الدعاء.ورابعها: أن المطلوب بالدعاء، إن كان من مصالح العبد، فالجواد المطلق لا يهمله، وإن لم يكن من مصالحه، لم يجز طلبه.وخامسها: أنه ثبت أن أجل مقامات الصديقين وأعلاها الرضا بقضاء الله تعالى والدعاء ينافي ذلك؛ لأنه اشتغال

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٣٣/١٧

(٢) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٣٤/١٧

بالاتماس، وترجيح لمراد النفس على مراد الله.وسادسها: أن الدعاء يشبه الأمر والنهي، وذلك من العبد في حق المولى الكريم سوء أدب.." (١)

"(سورة المؤمنوهي مكية إلا آية قوله إن الذين يجادلون حروفها أربعة آلاف وتسعمائة وسبعون كلمها الف ومائتان غير كلمة آياتها خمس وثمانون) .[سورة غافر (٤٠) : الآيات ١ الى ٢٢]بسم الله الرحمن الرحيمحم (١) تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم (٢) غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذي الطول لا إله إلا هو إليه المصير (٣) ما يجادل في آيات الله إلا الذين كفروا فلا يغررك تقلبهم في البلاد (٤)كذبت قبلهم قوم نوح والأحزاب من بعدهم وهمت كل أمة برسولهم ليأخذوه وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق فأخذتهم فكيف كان عقاب (٥) وكذلك حقت كلمة ربك على الذين كفروا أنهم أصحاب النار (٦) الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلما فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم (٧) ربنا وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم إنك أنت العزيز الحكيم (٨) وقهم السيئات ومن تق السيئات يومئذ فقد رحمته وذلك هو الفوز العظيم (٩)إن الذين كفروا ينادون لمقت الله أكبر من مقتكم أنفسكم إذ تدعون إلى الإيمان فتكفرون (١٠) قالوا ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين فاعترفنا بذنوبنا فهل إلى خروج من سبيل (١١) ذلكم بأنه إذا دعي الله وحده كفرتم وإن يشرك به تؤمنوا فالحكم لله العلي الكبير (١٢) هو الذي يريكم آياته وينزل لكم من السماء رزقا وما يتذكر إلا من ينيب (١٣) فادعوا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون (١٤)رفيع الدرجات ذو العرش يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده لينذر يوم التلاق (١٥) يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شيء لمن الملك اليوم لله الواحد القهار (١٦) اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب (١٧) وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع (١٨) يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور (١٩)والله يقضي بالحق والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء إن الله هو السميع البصير (٢٠) أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم كانوا هم أشد منهم قوة وآثارا في الأرض فأخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق (٢١) ذلك بأنهم كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فكفروا فأخذهم الله إنه قوي شديد العقاب (٢٢)." (٢)

"أمارات الموت يعظم خوفه، فلو جعلنا كون القلوب لدى الحناجر كناية عن شدة الخوف جاز، ولو حملناه على ظاهره فلا بأس. وقوله كاظمين أي مكروبين. والكاظم الساكت حال امتلائه غما وغيظا قال عز من قائل والكاظمين الغيظ [آل عمران: ١٣٤] وانتصابه على أنه حال عن أصحاب القلوب كأنه قيل: إذ قلوبهم لدى حناجرهم كاظمين عليها، أو عن القلوب. وجمع جمع السلامة بناء على أن الكظم من أفعال العقلاء كقوله فظلت أعناقهم لها خاضعين [الشعراء: ٤] أو عن ضمير المفعول في وأنذرهم أي وأنذرهم مقدرين أو مشارفين الكظم فيكون حالا مقدره. وفي قوله ما للظالمين من حميم ولا شفيع بحث بين الأشاعرة والمعتزلة حيث حمله الأولون على أهل الشرك، والآخرون على معنى أعم

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٢٩٦/٣

(٢) تفسير النيسابوري = غرائب القرآن ورغائب الفرقان النيسابوري، نظام الدين القمي ١٩/٦

حتى يشمل أصحاب الكبائر. وقد مر مرارا ولا سيما في قوله وما للظالمين من أنصار [آل عمران: ١٩٢] ومعنى قوله يطاع يجاب أي لا شفاعة ولا إجابة كقوله:ولا ترى الضب بها ينجحر وذلك أنه لا يشفع أحد في ذلك اليوم إلا بإذن الله، فإن أذن له أجيب وإلا فلا يوجد شيء من الأمرين. والفائدة في ذكر هذه الصفة أن يعلم أن الغرض من الشفيع منتف في حقهم وإن فرض شفيع على ما يزعم أهل الشرك من أن الأصنام يشفعون لهم. وقوله يعلم خائنة الأعين خبر آخر لقوله هو الذي يريكم آياته إلا أنه فصل بالتعليل وهو قوله لينذر وذكر وصف القيامة استطرادا، قال جار الله: هي صفة للنظرة أو مصدر بمعنى الخيانة كالعافية، والمراد استراق النظر إلى ما لا يحل كما يفعل أهل الريب. قال:ولا يحسن أن تكون الخائنة صفة للأعين مضافة إليها نحو «جرد قطيفة» أي يعلم العين الخائنة لأن قوله وما تخفي الصدور لا يساعد عليه. قلت: يعني أن عطف العرض على الجوهر والمعنى على العين غير مناسب. وقيل: هي قول الإنسان رأيت ولم ير وما رأيت ورأى. ومضمرات الصدور أي القلوب فيها لأنها فيها. قيل: هي ما يستره الإنسان من أمانة وخيانة. وقيل: الوسوسة. وقال ابن عباس: ما تخفي الصدور بعد النظر إليها أيزني بها أم لا. أقول: والحاصل أنه تعالى أراد أن يصف نفسه بكمال العلم فإن المجازاة تتوقف على ذلك. ففي قوله يعلم خائنة الأعين إشارة إلى أنه عالم بجميع أفعال الجوارح، وفي قوله وما تخفي الصدور دلالة على أنه عالم بجميع أفعال القلوب. وإذا علمت هذه الصفة وقد عرفت من الأصناف السابقة كمال قدرته واستغنائه لم يبق شك فى حقية قضائه فلذلك قال والله يقضي بالحق ثم وبخهم على عبادة من لا قضاء له ولا سمع ولا بصر." (١)

"﴿يعلم﴾ أي الله ﴿خائنة الأعين﴾ بمسارقتها النظر إلى محرم ﴿وما تخفي الصدور﴾ القلوب٢ –." (٢)

"وقوله سبحانه–: إذ القلوب لدى الحناجر معناه: عند الحناجر، أي/ قد صعدت من شدة الهول والجزع، والكاظم الذي يرد غيظه وجزعه في صدره، فمعنى الآية:أنهم يطمعون في رد ما يجدونه في الحناجر، والحال تغالبهم، ويطاع في موضع الصفة ل شفيع لأن التقدير: ولا شفيع مطاع، قال أبو حيان «١» يطاع في موضع صفة ل شفيع، فيحتمل أن يكون في موضع خفض على اللفظ، أو في موضع رفع على الموضع، ثم يحتمل النفي أن يكون منسحبا على الوصف فقط، فيكون ثم شفيع، ولكنه لا يطاع، ويحتمل أن ينسحب على الموصوف وصفته، أي: لا شفيع فيطاع، انتهى. وهذا الاحتمال الأخير هو الصواب، قال ع «٢» : وهذه الآية كلها عندي اعتراض في الكلام بليغ.[سورة غافر (٤٠) : الآيات ١٩ الى ٢٠]يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور (١٩) والله يقضي بالحق والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء إن الله هو السميع البصير (٢٠)وقوله: يعلم خائنة الأعين متصل بقوله: سريع الحساب [غافر: ١٧] وقالت فرقة: يعلم متصل بقوله: لا يخفى على الله منهم شيء [غافر: ١٦] وهذا قول حسن يقويه تناسب المعنيين، ويضعفه بعد الآية من الآية وكثرة الحائل، والخائنة: مصدر كالخيانة، ويحتمل أن تكون خائنة اسم فاعل، أي: يعلم الأعين إذا خانت في نظرها، قال أبو حيان «٣» : والظاهر أن: خائنة الأعين من إضافة الصفة إلى الموصوف، أي:الأعين الخائنة، كقوله: [البسيط]................ ... وإن سقيت كرام الناس فاسقينا «٤»أي: الناس الكرام، وجوزوا أن يكون خائنة مصدرا، ك «العافية» أي: يعلم خيانة الأعين، انتهى،

---

(١) تفسير النيسابوري = غرائب القرآن ورغائب الفرقان النيسابوري، نظام الدين القمي ٦/٢٩

(٢) تفسير الجلالين المحلي، جلال الدين ص/٦٢٠

وهذه الآية عبارة عن علم الله- تعالى- بجميع الخفيات، فمن ذلك كسر______________(١) ينظر: «البحر المحيط» (٧/ ٤٣٨) . [.....](٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٤/ ٥٥٢) .(٣) ينظر: «البحر المحيط» (٧/ ٤٣٩) .(٤) عجز بيت لبشامة بن حزن النهشلي وصدره:إنا محيوك يا سلمى فحينا ... .ينظر: «خزانة الأدب» (٨/ ٣٠٢) ، و «شرح ديوان الحماسة» للمرزوقي ص: (١٠٠) ، و «المقاصد النحوية» (٣/ ٣٧٠) ، و «البحر» (٧/ ٤٥٧) ، و «الدر المصون» (٦/ ١٣٦) ، والشاهد في قوله: «كرام الناس» حيث أضاف الصفة إلى الموصوف.." (١)

"الجفون والغمز بالعين، أو النظرة التي تفهم معنى ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم [لأصحابه في شأن رجل ارتد ثم جاء ليسلم: «هلا قام إليه رجل منكم حين تلكأت عنه، فضرب عنقه؟ فقالوا:يا رسول الله، ألا أو مأت إلينا؟ فقال صلى الله عليه وسلم] «١» : ما ينبغي لنبي أن تكون له خائنة الأعين» «٢» ، وفي بعض الكتب المنزلة من قول الله عز وجل/: أنا مرصاد الهمم أنا العالم بمجال الفكر وكسر الجفون، وقال مجاهد: «خائنة الأعين» : مسارقة النظر إلى ما لا يجوز «٣» ، ثم قوى تعالى هذا الإخبار بقوله: وما تخفي الصدور مما لم يظهر على عين ولا غيرها، وأسند أبو بكر بن الخطيب عن مولى أم معبد الخزاعية عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان يدعو: «اللهم طهر قلبي من النفاق، وعملي من الرياء، ولساني من الكذب، وعيني من الخيانة فإنك تعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور» «٤» ، انتهى. قال القشيري في: «التحبير» ومن علم اطلاع الحق- تعالى عليه- يكون مراقبا لربه وعلامته أن يكون محاسبا لنفسه، ومن لم تصح محاسبته، لم تصح مراقبته، وسئل بعضهم عما يستعين به العبد على حفظ البصر، فقال:يستعين عليه بعلمه أن نظر الله إليه سابق على نظره إلى ما ينظر إليه، انتهى.وقوله سبحانه: والله يقضي بالحق أي: يجازي الحسنة بعشر والسيئة بمثلها، وينصف المظلوم من الظالم إلى غير ذلك من أقضية الحق والعدل، والأصنام لا تقضي بشيء، ولا تنفذ أمرا، ويدعون معناه: يعبدون.[سورة غافر (٤٠) : الآيات ٢١ الى ٢٥]أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم كانوا هم أشد منهم قوة وآثارا في الأرض فأخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق (٢١) ذلك بأنهم كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فكفروا فأخذهم الله إنه قوي شديد العقاب (٢٢) ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين (٢٣) إلى فرعون وهامان وقارون فقالوا ساحر كذاب (٢٤) فلما جاءهم بالحق من عندنا قالوا اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه واستحيوا نساءهم وما كيد الكافرين إلا في ضلال (٢٥)______________(١) سقط في: د.(٢) أخرجه النسائي (٧/ ١٠٥) كتاب «تحريم الدم» باب: الحكم في المرتد برقم: (٤٠٦٧) ، والحاكم (٢/ ٥٤) ، والدارقطني (٣/ ٥٩) ، والبيهقي (٨/ ٢٠٢) من حديث سعد بن أبي وقاص.(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٥٠) برقم: (٣٠٣١٧) ، وذكره البغوي في «تفسيره» (٤/ ٩٥) ، وابن عطية في «تفسيره» (٤/ ٥٥٣) ، والسيوطي في «الدر المنثور» (٥/ ٦٥٣) ، وعزاه السيوطي لعبد بن حميد، وابن المنذر.(٤) أخرجه الخطيب في «تاريخ بغداد» (٥/ ٢٦٨) ، وذكره الهندي في «كنز العمال» (٢/ ١٨٤) (٣٦٦٠) ، والسيوطي في «الدر المنثور» (٥/ ٣٤٩) ، وعزاه إلى الحكيم الترمذي.." (٢)

---

(١) تفسير الثعالبي = الجواهر الحسان في تفسير القرآن الثعالبي، أبو زيد ٥/١٠٩

(٢) تفسير الثعالبي = الجواهر الحسان في تفسير القرآن الثعالبي، أبو زيد ٥/١١٠

"قال أبو حيان: من كسر وغمز ونظر يفهم منه ما يراد – انتهى.وذلك يفعل بفعل ما يخالف الظاهر، ولما ذكر أخفى أفعال الظاهر، أتبعه أخفى ما في الباطن فقال: ﴿وما تخفي الصدور *﴾ أي عن المشفوع عنده وغير ذلك.ولما كان العفو عن الظالم الذي لا يرجع عن ظلمه نقصا، لكونه لا حكمة فيه، عبر بالاسم الأعظم في جملة حالية فقال: ﴿والله﴾ أي والحال أن المتصف بجميع صفات الكمال ﴿يقضي بالحق﴾ أي الثابت الذي لا يصح أصلا نفيه، فلو قضى فيمن يعلم أنه ليس بأهل للشفاعة فيه بقبول الشفاعة لنفى الحق وأثبت الباطل فخالف ذلك الكمال ﴿والذين يدعون﴾ أي الظالمون – على قراءة الجماعة، وأيها الظالمون – على قراءة نافع وابن عامر بخلاف عن ابن ذكوان بالخطاب للمواجهة بالإزراء. ولما كانت المراتب دون عظمته سبحانه لا تنحصر ولا يحتوي عليها كلها شيء، أثبت الجار فقال: ﴿من دونه﴾ أي سواه، ومن المعلوم أنهم خلقه فهم دون رتبته لأنهم في قهره ﴿لا يقضون بشيء﴾ من الأشياء أصلا، فضلا عن أن يقضوا بما يعارض حكمه، فلا مانع له من القضاء بالحق، فلا مقتضى لقبول الشفاعة فيمن يعلم عراقته في." (١)

"مطلقا لا لكونه من قائل معين: ﴿ثم قيل لهم﴾ أي بعد أن طال عذابهم، وبلغ منهم كل مبلغ، ولم يجدوا ناصرا يخلصهم ولا شافعا يخصصهم: ﴿أين﴾ والتعبير عنهم بأداة ما لا يعقل في أحكم مواضعه في قوله: ﴿ما كنتم﴾ أي دائما ﴿تشركون *﴾ أي بدعائكم لهم في مهماتكم دعاء عبادة مع تجديده في كل وقت؛ ثم بين سفولهم بقوله لافتا القول عن مظهر العظمة إلى أعظم منه فقال: ﴿من دون الله﴾ أي المحيط بجميع العز وكل العظمة، لتطلبوا منهم تخليصكم مما أنتم فيه أو تخفيفه: ﴿قالوا﴾ أي مسترسلين مع الفطرة وهي الفطرة الأولى على الصدق: ﴿ضلوا عنا﴾ فلا نراهم كما ضللنا نحن في الدنيا عما ينفعنا.ولما رأوا أن صدقهم قد أوجب اعترافهم بالشرك، دعتهم رداءة المكر ورذالة الطباع إلى الكذب، فاسترسلوا معها فبادروا أن أظهروا الغلظ فقالوا ملبسين على من يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور ظانين أن ذلك ينفعهم كما كان ينفعهم عند المؤمنين في دار الدنيا: ﴿بل لم نكن ندعو﴾ أي لم يكن ذلك في طباعنا. ولما كان مرادهم نفي دعائهم أصلا ورأسا في لحظة فما فوقها، لا النفي المقيد بالاستغراق، فإنه لا ينفي ما دونه، أثبتوا الجار فقالوا: ﴿من قبل﴾ أي قبل هذه." (٢)

"اثنتين فاعترفنا بذنوبنا فهل إلى خروج من سبيل (١١) ذلكم بأنه إذا دعي الله وحده كفرتم وإن يشرك به تؤمنوا فالحكم لله العلي الكبير (١٢) هو الذي يريكم آياته وينزل لكم من السماء رزقا وما يتذكر إلا من ينيب (١٣) فادعوا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون (١٤) رفيع الدرجات ذو العرش يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده لينذر يوم التلاق (١٥) يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شيء لمن الملك اليوم لله الواحد القهار (١٦) اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب (١٧) وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع (١٨) يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور (١٩) والله يقضي بالحق والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء إن الله هو السميع البصير (٢٠)* * *(إن الذين كفروا ينادون): في القيامة ويقال لهم (لمقت الله): إياكم،

---

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور برهان الدين البقاعي ٣٣/١٧

(٢) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور برهان الدين البقاعي ١١٦/١٧

(أكبر من مقتكم أنفسكم إذ تدعون إلى الإيمان فتكفرون) أي: لمقت الله تعالى أهل الضلالة حين عرض عليهم الإيمان في الدنيا فأعرضوا أكبر مما مقتوا أنفسهم حين عاينوا العذاب في القيامة، فإنهم أبغضوا أنفسهم ومقتوها غاية المقت عند غمرات النيران لسبب ما اكتسبوا من الآثام، الموجبة للعذاب المخلد، ثم من يجوز الفصل في الظرف لسعته بأجنبي وهو الخبر بين المصدر ومعموله يجوز أن يكون إذ تدعون ظرفا للمقت." (١)

"لأنه لا يشغله حساب أحد عن حساب آخر، (وأنذرهم يوم الآزفة): القيامة الآزفة القريبة (إذ القلوب لدى الحناجر): من الخوف زالت عن مقارها فلا هي تعود ولا تخرج فيموتوا أو يستريحوا (كاظمين): ممتلئين كربا، أو ساكتين والكظوم السكوت وتعريف القلوب والحناجر عوض أي: قلوبهم لدى حناجرهم، فـ "كاظمين " حال من المضاف إليه في حناجرهم، والعامل ما في الظرف من معنى الفعل أو من الضمير في " لدى " الراجع إلى القلوب (ما للظالمين): الكافرين (من حميم): محب مشفق (ولا شفيع يطاع): فيشفع ويكون للشفاعة فائدة، (يعلم خائنة الأعين) أى: خيانتها كلحظة المرأة الحسناء إذا غفل الناس وغمزها، أو الخائنة صفة للنظرة (وما تخفي الصدور) أي ما تخفيه، وجملة يعلم خائنة الأعين مستأنفة كالتعليل لقولهتعالى: " وأنذرهم " (والله يقضي بالحق) لا يظلم مثقال ذرة (والذين." (٢)

"العبارة، والذي أقوله إن كتاب الله تعالى المبين لا مرية فيه وفيه (وإن تطيعوه تهتدوا) و (إن كنتم تحبون الله فاتبعوني) (لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة) (قد جاءكم الرسول بالحق) وغير ذلك مما القرآن طافح به وبتعظيمه – صلى الله عليه وسلم –، وأنا واحد الناس كل ما أنا فيه من خير أمور الدنيا والآخرة من الله تعالى بواسطة النبي صلى الله عليه وسلم، وأعلم أن الله سبحانه تعبدني بذلك، (ومقام جبريل) صلى الله عليه وسلم مقام عظيم قوانا وعلومنا تقصر عنه، والنبي صلى الله عليه وسلم يعلم أكثر منا، فما لنا وللدخول في هذا المكان الضيق ولم يكلفنا الله تعالى بذلك، فحسب امرئ إذا لم يعرف تفضيل الملك على البشر ولا البشر على الملك أن يتأدب ويقف عند حده، ويعظم كلا منهما بما يجب له من التعظيم، ويكف لسانه وقلبه عن فضول لا يعنيه ولم يكلف به، ويقدر في نفسه أن هذين المخلوقين العظيمين حاضران وهو بين أيديهما ضئيل حقير والله تعالى رابعهم وهو عالم بما تخفي الصدور. اهقوله: (أي ليس من عادة المؤمنين).قال الطيبي: نفي العادة مستفاد من نفي فعل المستقبل، والمراد به الاستمرار، على نحو: فلان يقري الضيف ويحمي الحريم. اهوقال الشيخ سعد الدين: حمله على نفي الاستمرار، ولو حمله على استمرار النفي كما في أكثر المواضع أي عادتهم عدم الاستئذان لم يبعد. اهقوله: (شهادة لهم بالتقوى وعدة لهم بثوابه).قال الطيبي: أما الشهادة فمن وضع الظاهر موضع المضمر، أو إرادة الجنس بالمتقين فيدخلون فيه دخولا أوليا، وأما العدة فإن مقتضى العلم بعد ذكر أعمال العباد خيرا أو شرا إما الوعد بالثواب أو الوعيد بالعقاب. اهقوله: (وأخلفوك عدا الأمر الذي وعدوا).." (٣)

---

(١) تفسير الإيجي جامع البيان في تفسير القرآن الإيجي، محمد بن عبد الرحمن ٧/٤

(٢) تفسير الإيجي جامع البيان في تفسير القرآن الإيجي، محمد بن عبد الرحمن ١٠/٤

(٣) نواهد الأبكار وشوارد الأفكار = حاشية السيوطي على تفسير البيضاوي السيوطي ٥٠٢/٣

"أخرج سعيد بن منصور وابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور﴾ قال: الرجل يكون في القوم فتمر بهم المرأة فيريهم أنه يغض بصره عنها وإذا غفلوا لحظ إليها وإذا نظروا غض بصره عنها وقد اطلع الله من قلبه أنه ود أنه ينظر إلى عورتهاوأخرج أبو نعيم في الحلية وابن أبي حاتم والطبراني في الأوسط والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿يعلم خائنة الأعين﴾ قال: نظرت اليها لتريد الخيانة أم لا ﴿وما تخفي الصدور﴾ قال: إذا قدرت عليها أتزني بها أم لا ألا أخبركم ﴿والله يقضي بالحق﴾ قادر على أن يجزي بالحسنة الحسنة وبالسيئة السيئةوأخرج عبد بن حميد وأبو الشيخ في العظمة عن قتادة رضي الله عنه ﴿يعلم خائنة الأعين﴾ قال: يعلم همزه وإضمامه بعينيه فيما لا يحب الله تعالوأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن مجاهد رضي الله عنه ﴿يعلم خائنة الأعين﴾ قال: نظر العين إلى ما نهي عنهوأخرج عبد بن حميد عن أبي الجوزاء رضي الله عنه ﴿يعلم خائنة الأعين﴾ قال: كان الرجل يدخل على القوم في البيت وفي البيت امرأة فيرفع رأسه فيلحظ إليها ثم ينكسوأخرج أبو داود والنسائي وابن مردويه عن سعد رضي الله عنه قال: لما كان يوم فتح مكة أمن رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس إلا أربعة نفر وامرأتين وقال: أقتلوهم وإن وجدتموهم متعلقين بأستار الكعبة منهم عبد الله بن سعد بن أبي سرحفاختبأ عند عثمان بن عفان رضي الله عنه فلما دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس إلى البيعة جاء به." (١)

"فقال: يا رسول الله بايع عبد اللهفرفع رأسه فنظر إليه ثلاثا كل ذلك يأبى يبايعه ثم أقبل على أصحابه فقال: أما كان فيكم رجل رشيد يقوم إلى هذا حين رآني كففت يدي عن بيعته فيقتله فقالوا: ما يدرينا يا رسول الله ما في نفسك هلا أومأت إلينا بعينك قال: أنه لا ينبغي لنبي أن يكون له خائنة الأعينوأخرج الخطيب في تاريخه والحكيم الترمذي عن أم معبد رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: اللهم طهر قلبي من النفاق وعملي من الرياء ولساني من الكذب وعيني من الخيانة فإنك تعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدوروأخرج ابن المنذر عن ابن جريج رضي الله عنه في قوله ﴿والله يقضي بالحق﴾ قال: قادر على أن يقضي بالحق ﴿والذين يدعون من دونه﴾ لا يقدرون على أن يقضوا بالحقمن آية ٢١ – ٢٢." (٢)

"وعكوس أسمائه من عالم أمره بمقتضى حبه الذاتي على من يشاء من عباده اى اى على استعدادات مظاهره المستظلين تحت ظلال أسمائه وصفاته الممدودة المنبسطة عليهم وبعد القائه ومده إياهم قد كلفهم بما كلفهم من الأوامر والنواهي المصححة للعبودية اللازمة للالوهية والربوبية وانما كلفهم بما كلفهم لينذر يوم التلاق اى ليخوفهم ويحذرهم عن خجالة زمان الوصول والرجوع الى ربهم في النشأة الاخرى والطامة الكبرى التي ترد فيها الأمانات الى أهلها على وجهها إذ هويوم هم بارزون خارجون عن أجداث اجسادهم منخلعون عن خلعة تعيناتهم راجعون الى الله جميعا بأرواحهم محشورون عنده معروضون عليه بحيث لا يخفى على الله المحيط بهم منهم شيء لا من أعيانهم وذواتهم ولا من أعمالهم وأحوالهم ونياتهم وبعد ما قد برزوا لله ورجعوا نحوه صائرين اليه فانين فيه قيل حينئذ من قبل الحق بعد فناء الكل فيه إظهارا لكمال قدرته

---

(١) الدر المنثور في التفسير بالمأثور السيوطي ٢٨٢/٧

(٢) الدر المنثور في التفسير بالمأثور السيوطي ٢٨٣/٧

واستقلاله في حوله وقوته وسطوة سلطنته وبسطته حسب وحدته لمن الملك اى ملك الوجود والتحقق والثبوت فأجيب ايضا من قبله بعد ما تحقق ان اليوم لا موجود فيه سواه ولا شيء غيره حتى يجيب لله الواحد الأحد من كل الوجوه القهار المعدم المحياء لنقوش السوى والأغيار وعكوس عموم الاظلال والأمثال عن دفتر الوجود ومشهد الشهود وبعد ما قد استقر واستوى سبحانه على الملك المطلق بالأصالة والاستحقاق وعلى عروش عموم ما قد كان ويكون في أزل الآزال وابد الآباد أشار الى سرائر ما ظهر منه من الأوامر والنواهي في النشأة الاولى فقالاليوم اى يوم الجزاء والنشأة الاخرى تجزى كل نفس بما كسبت اى طبق ما كسبت واقترفت في النشأة الاولى التي هي نشأة التكليف والاختبار بلا ازدياد عليه ولا تنقيص عنه إذ لا ظلم اليوم اى يوم الجزاء لأنه انما وضع لتظهر فيه العدالة الإلهية والقسط الحقيقي بل تجزى فيه كل من النفوس حسب ما صدر عنها خيرا وشرا نفعا وضرا إن الله المطلع على عموم ما ظهر وبطن من احوال عباده سريع الحساب عليهم بلا فترة وتلبس إذ لا يشغله شأن عن شأن ولا يطرأ عليه سهو ونسيانوبالجملة أنذرهم وحذرهم يا أكمل الرسل يعنى عموم المكلفين يوم الآزفة اى القرب والمشارفة على العذاب الأبدي حين احضروا على شفير جهنم للطرح فيها إذ القلوب اى قلوب أولئك المحضرين ترتفع وتعلو حينئذ لدى الحناجر يعنى تلتصق يومئذ قلوبهم بحلاقيمهم من شدة هولهم واضطرابهم وقد كانوا حينئذ كاظمين مملوين من الكآبة والحزن المفرط وانواع الغموم والخذلان وبالجملة ما للظالمين المفسدين المسرفين حينئذ من حميم قريب قرين يدركهم ويتولى أمرهم ويسعى في استخلاصهم ولا شفيع لهم يطاع اى يسمع شفاعته لأجلهم ويقبل منه مع انه سبحانهيعلم منهم بعلمه الحضوري خائنة الأعين اى خيانتهم التي يتغامزون بعيونهم نحو محارم الله بلا خيانة صدرت عنهم ظاهرا فكيف بما أتوا بها جهرا وعلانية وبالجملة يعلم سبحانه منهم عموم ما تخفي الصدور اى صدورهم من ميل الشهوات المحرمة بلا مباشرة الآلاتوبالجملة الله المطلع بظواهرهم وضمائرهم يقضي ويحكم بهم ويجازى عليهم بمقتضى علمه وخبرته من أعمالهم وأحوالهم بالحق على الوجه الأعدل الاقسط بلا حيف وميل إظهارا لكمال عدالته والذين يدعون من دونه سبحانه من الأصنام والأوثان لا يقضون ولا يحكمون لا لهم ولا عليهم يعنى آلهتهم بشيء من نفع وضر وخير وشر إذ هي جمادات هلكى لا شعور لها إن الله القادر المقتدر." (١)

"ومنها يوم التلاق لما مر ومنها يوم التغابن لغبن أكثر من فيه وخسرانه، وقيل: المراد بيوم الآزفة مشارفتهم دخول النار فإن عند ذلك ترتفع قلوبهم عن مقارها من شدة الخوف، وقال أبو مسلم: هو يوم حضور الأجل فإن يوم الموت بالقرب أولى من وصف يوم القيامة بالقرب.ولما ذكر تعالى اليوم هول أمره بما يحصل فيه من المشاق بقوله تعالى: ﴿إذ القلوب﴾ أي: من كل من حضره ترتفع ﴿لدى﴾ أي: عند ﴿الحناجر﴾ أي: حناجر المجموعين فيه وهو جمع حنجور وهو الحلقوم يعني أنها زالت عن أماكنها صاعدة من كثرة الرعب حتى كادت تخرج.ثم أسند إليها ما يسند للعقلاء فقال تعالى: ﴿كاظمين﴾ أي: ممتلئين خوفا ورعبا وحزنا مكروبين فقد استدت مجاري أنفاسهم وأخذ بجميع إحساسهم.ولما كان من المعهود أن الصداقات تنفع في مثل ذلك والشفاعات قال تعالى مستأنفا: ﴿ما للظالمين﴾ أي: العريقين في الظلم ﴿من حميم﴾ أي: قريب صادق في مودتهم مهتم بأمورهم مزيل لكروبهم ﴿ولا شفيع يطاع﴾ فيشفع لهم.تنبيه: احتج المعتزلة بهذه

(١) الفواتح الإلهية والمفاتح الغيبية النخجواني ٢٥٩/٢

الآية على نفي الشفاعة عن المذنبين، فقالوا: نفي حصول شفيع لهم يطاع يوجب أن لا يحصل لهم هذا الشفيع وأجيبوا بوجوه؛ أولها: أنه تعالى نفى أن يحصل لهم شفيع يطاع وهذا لا يدل على نفي الشفيع كقولك ما عندي كتاب يباع، لا يقتضي نفي الكتاب فهذا ينفي أن لهم شفيعا يطيعه الله تعالى ما من شفيع إلا من بعد إذنه، ثانيها: أن المراد بالظالمين في هذه الآية ههنا الكفار لأنها وردت في زجر الكفار قال تعالى: ﴿إن الشرك لظلم عظيم﴾ (لقمان: ١٣) ، ثالثها: أن لفظ الظالمين إما أن يفيد الاستغراق أو لا، فإن كان المراد: جميعهم فيدخل فيه الكفار، وعندنا أنه ليس لهذا الجمع شفيعا لأن بعضه كفار وليس لهم شفيع، فحينئذ لا يكون لهذا الجمع شفيع، وإن لم يفد الاستغراق كان المراد من الظالمين بعض الموصوفين بهذه الصفة ليس لهم شفيع.ولما أمر الله تعالى بإنذار يوم الآزفة وما يعرض فيه من شدة الغم والكرب وأن الظالم لا يجد من يحميه ولا يشفع له، ذكر اطلاعه على جميع ما يصدر من الخلق سرا وجهرا فقال تعالى:﴿يعلم خائنة الأعين﴾ أي: خيانتها التي هي أخفى ما يقع من أفعال الظاهر، جعل الخيانة مبالغة في الوصف وهو الإشارة بالعين، قال أبو حيان: من كسر عين وغمز ونظر يفهم المراد.ولما ذكر أخفى أفعال الظاهر أتبعه أخفى أفعال الباطن فقال تعالى: ﴿وما تخفي الصدور﴾ أي: القلوب فعلم من ذلك أن الله تعالى عالم بجميع أفعالهم لأن الأفعال على قسمين أفعال الجوارح وأفعال القلوب، فأما أفعال الجوارح فأخفاها خيانة الأعين والله تعالى عالم بها فكيف الحال في سائر الأعمال، وأما أفعال القلوب فهي معلومة لله تعالى لقوله عز وجل: ﴿وما تخفي الصدور﴾ (غافر: ١٩)وقوله تعالى:﴿والله﴾ أي: المتصف بجميع صفات الكمال ﴿يقضي بالحق﴾ أي: الثابت الذي لا ينتفي يوجب عظيم الخوف لأن الحاكم إذا كان عالما بجميع الأحوال وثبت أنه لا يقضي إلا بالحق في كل ما دق وجل كان خوف المذنب منه في الغاية القصوى. ولما عول الكفار في دفع العقاب عن أنفسهم على شفاعة هذه الأصنام بين الله تعالى أنه لا فائدة فيها البتة فقال تعالى: ﴿والذين يدعون﴾ أي: يعبدون ﴿من دونه﴾ وهم الأصنام ﴿لا يقضون﴾ لهم ﴿بشيء﴾ من الأشياء أصلا فكيف يكونون." (١)

"فقد النطاق من محله فاتبعه صاحب الدكان ففتش عنه فوجده على وسطه وكان ذلك عقوبة من الله عليه لاستحسانه ذلك النطاق حتى اتهم بسرقته وعوقب عليه قال ابو عثمان خيانة العين هو ان لا يغضها عن المحارم ويرسلها الى الهوى والشهوات وقال ابو بكر الوارق يعلم من يمد عينيه الى الشيء معتبرا ومن يمد عينيه لارادة الشهوة وقال ابو جعفر النيسابورى زنى العارف نظره بالشهوة امام قشيرى فرمود كه خيانت چشمهاى محبان آنست كه در أوقات مناجات خواب را لايرامن آن كذارند چنانكه در زبور آمده كه دروغ كويد هر كه دعوى محبت من كند و چون شب در آيد چشم او بخواب رود (ع) ومن نام عينا نام عنه وصالناخواب را با ديده عاشق چه كار ... چشم او چون شمع باشد اشكبارچشمهاى عاشقانرا خواب نيست ... يك نفس ان چشمها بى آب نيستوما تخفي الصدور من الضمائر والاسرار مطلقا خيرا كانت او شرا ثبت بهذا ان افعال القلوب معلومة لله تعالى وكذا افعال الجوارح تكون لأن أخفاها وهى خائنة الأعين إذا كانت معلومة لله تعالى وكذا افعال الجوارح تكون لأن أخفاها وهى خائنة الأعين إذا كانت معلومة لله تعالى فعلمه تعالى سائر افعال الجوارح يكون اولى والحاكم إذا بلغ فى العلم الى هذا الحد وجب ان يكون خوف المجرم منه أشد وأقوى فقوله تعالى يعلم إلخ فى قوة

(١) السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير الخطيب الشربيني ٤٧٦/٣

التعليل للامر بالإنذار وفى التأويلات النجمية وما تخفى الصدور من متمنيات النفوس ومستحسنات القلوب ومرغوبات الأرواح فالحق به خبير ويكون السالك موقوفا بها حتى يخرج من تعلقها وقال بعضهم خيانته فى الصدور أن لا يصير فى مقام القبض ليجرى عليه احكام الحقيقة ثم ينكشف له عالم البسط فقد وصف الله خيانة العيون وخفايا الصدور وقال لا يخفى عليه شيء من ذلك وذلك ان العين باب من أبواب القلب فاذا رأت شيأ يكون حظ القلب منه يعلم ذلك نفسه فيطلب الحظ منه ومن القلب الى العين باب يجرى عليها حركة هواجس النفس تحتها على النظر الى شيء فيه لها نصيب فاذا تحققت ذلك علمت ان خيانة الأعين متعلقة بما تخفى الصدور وإذا كان العارف عارفا بنفسه وراضها برياضات طويلة وطهرها بمجاهدات كثيرة وزمها بزمام الخوف وآداب الشريعة صارت صافية من حظوظها ولكن بقيت فى سرها جبلتها على الشهوات ففى كل لحظة يجرى فى سرها طلب حظوظها ولكنها سترتها عن العقل وأخفتها عن الروح من خوفها فاذا وجدت الفرصة خرجت الى رؤية العين فتنظر الى مرادها فتسرق حظها من النظر الى المحارم وذلك النظر خفى وتلك الشهوة خفية وصفهما الله سبحانه فى هذه الآية واستعاذ منهما النبي عليه السلام حيث قال أعوذ بك من شهوة خفية ثم ان الروح العاشق إذا احتجب عن مشاهدة جمال الأزل ينقبض ويطلب حظه ولا يقدر ان ينظر الى الحق فيطلب ذلك من الصورة الانسانية التي فيها آثار الروحانية فينظر من منظره الى منظر العقل ومن منظر العقل الى منظر القلب ومن منظر القلب الى منظر النفس ومن منظر النفس الى منظر الصورة وينظر من العين الى جمال المستحسنات لينكشف له ما استتر." (١)

"يقول الحق جل جلاله: قل للمؤمنين، ويندرج فيهم المستأذنون بعد دخولهم البيوت اندراجا أوليا، أي: قل لهم: يغضوا من أبصارهم، و «من» : للتبعيض، والمراد: غض البصر عما يحرم، والاقتصار على ما يحل. ووجه المرأة وكفاها ليس بعورة، إلا خوف الفتنة، فيحل للرجل الصالح أن يرى وجه الأجنبية بغير شهوة. وفي الموطأ: هل تأكل المرأة مع غير ذي محرم، أو مع غلامها؟ قال مالك: لا بأس بذلك، على وجه ما يعرف للمرأة أن تأكل معه من الرجال، وقد تأكل المرأة مع زوجها ومع غيره ممن يؤاكله. هـ. وقال ابن القطان: فيه إباحة إبداء المرأة وجهها ويديها للأجنبي، إذ لا يتصور الأكل إلا هكذا، وقد أبقاه الباجي على ظاهره، وقال عياض: ليس بواجب أن تستر المرأة وجهها، وإنما ذلك استحباب أو سنة لها، وعلى الرجل غض بصره. ثم قال في الإكمال: ولا خلاف أن فرض ستر الوجه مما اختص به أزواج النبي صلى الله عليه وسلم. هـ.وقل لهم أيضا: يحفظوا فروجهم، إلا على أزواجهم، أو ما ملكت إيمانهم، وتقييد الغض بمن التبعيضية، دون حفظ الفروج لما في النظر من السعة، فيجوز النظر إلى وجه الأجنبية وكفيها وقدميها، وإلى رأس المحارم والصدور والساقين والعضدين. قاله النسفي. قلت: ومذهب مالك: حرمة نظر الساقين والعضدين من المحرم، فإن تعذر التحرر منه، كشغل البنات في الدار، باديات الأرجل، فليتمسك بقول الحنفي، إن لم يقدر على غض بصره. قاله شيخنا الجنوي.ذلك أزكى لهم أي: أطهر لهم من دنس الإثم أو الريبة، إن الله خبير بما يصنعون، وفيه ترغيب وترهيب، يعني: أنه خبير بأحوالهم وأفعالهم،

---

(١) روح البيان إسماعيل حقي ١٧١/٨

فكيف يجيلون أبصارهم، وهو يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور؟! فعليهم، إذا عرفوا ذلك، أن يكونوا منه على حذر.." (١)

"يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده، هو وحي أحكام للأنبياء، ووحي إلهام للأولياء، فيحيي الله بهم الدين في كل زمان، وقال القشيري: بعد كلام: ويقال: روح النبوة، وروح الرسالة، وروح الولاية، وروح المعرفة.هـ. والمراد بالروح: مطلق الوحي، لينذر الداعي يوم التلاقي، فيحصل اللقاء السرمدي مع الحبيب للمقربين، ويحصل الافتراق والبعد للغافلين، حين تبرز الخلائق بين يدي الله، لا دعوى لأحد يومئذ، فيقول الحق تعالى: لمن الملك اليوم، لله الواحد القهار.قال القشيري: لا يتقيد ملكه بيوم، ولا يختص بوقت، ولكن دعاوى الخلق- اليوم- لا أصل لها، ترتفع غدا، وتنقطع تلك الأوهام. هـ. ومثله في الإحياء، وأنه إذا كشف الغطاء شهد الأمر كذلك، كما كان كل يوم، لا في خصوص ذلك اليوم. فإذا حصل للعبد مقام الفناء، لم ير في الدارين إلا الله، فيقول: لمن الملك اليوم؟ فيجيب: لله الواحد القهار. اليوم تجزى كل نفس بما كسبت من التقريب أو الإبعاد. قال القشيري: يجازيهم على أعمالهم الجنان، وعلى أحوالهم الرضوان، وعلى أنفاسهم- أي: على حفظ أنفاسهم- القرب، وعلى محبتهم الرؤية، ويجازي المذنبين على توبتهم الغفران، وعلى بكائهم الضياء والشفاء. هـ. لا ظلم اليوم، بل كل واحد يرتفع على قدر سعيه اليوم.وقوله تعالى: إن الله سريع الحساب قال القشيري: وسريع الحساب مع أوليائه في الحال، يطالبهم بالنقير والقطمير. هـ. قلت: يدقق عليهم الحساب في الحال، ويرفع مقدارهم في المآل. وبالله التوفيق.ثم حذر من هول ذلك اليوم، فقال:[سورة غافر (٤٠) : الآيات ١٨ الى ٢٠]وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع (١٨) يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور (١٩) والله يقضي بالحق والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء إن الله هو السميع البصير (٢٠)يقول الحق جل جلاله: وأنذرهم يوم الآزفة أي: القيامة، سميت بها لأزوفها، أي: قربها. فالأزوف والازدلاف هو القرب، غير أن فيه إشعارا بضيق الوقت، أو الخطة الأزفة، وهي مشارفة أهل النار لدخولها، ثم أبدل من يوم الآزفة قوله: إذ القلوب لدى الحناجر أي: التراقي، يعني: ترتفع قلوبهم عن مقارها، فتلتصق." (٢)

"بحناجرهم من الرعب، فلا هي تخرج فيموتوا فيستريحوا، ولا ترجع إلى مقارها فيتروحوا. حال كونهم كاظمين ممسكين الغيظ بحناجرهم، أو: ممسكين قلوبهم بحناجرهم، يرومون ردها لئلا تخرج، فهو حال من القلوب، وجمعت جمع السلامة لوصفها بالكظم، وهو من أوصاف العقلاء، أو: من أصحاب القلوب إذ الأصل:قلوبهم، أو: من ضميرها في الظرف، ما للظالمين من حميم أي: قريب مشفق ولا شفيع يطاع أي: ولا شفيع تقبل شفاعته، فالمراد: نفي الشفاعة والطاعة، كقول الشاعر:ولا ترى الضب فيها ينجحر «١» يريد به: نفي الضب وانجحاره. وكقول الآخر:على لاحب لا يهتدى بمناره «٢» وإن احتمل اللفظ نفي الطاعة دون الشفاعة. فعن الحسن البصري: «والله ما يكون لهم شفيع ألبتة» . ووضع «الظالمين» موضع الضمير للتسجيل عليهم بالظلم وتعليل الحكم به.يعلم خائنة الأعين أي: النظرة الخائنة، كاستراق النظر إلى ما لا

---

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ٣٠/٤

(٢) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ١٢٢/٥

يحل. قيل: فيه تقديم وتأخير، أي:الأعين الخائنة، وقيل: مصدر، كالعافية، أي: خيانة الأعين. قال ابن عباس رضي الله عنه: هو الرجل يكون جالسا مع القوم، فتمر المرأة، فيسارقهم النظر إليها «٣» . هـ. وقال ابن عطية: متصل بقوله: سريع الحساب، فيحاسب على خيانة الأعين، وقالت فرقة: متصل بقوله: لا يخفى على الله منهم شيء، وهذا حسن، يقويه تناسب المعنيين، ويبعده بعد الآية من الآية، وكثرة الحائل. والحاصل: أنه متصل بما تقدم من ذكر الله ووصفه، واعترض في أثناء ذلك بوصف القيامة لما استطرد إليه من قوله: لينذر يوم التلاق الآية. قاله المحشى. ويعلم ما تخفي الصدور أي: ما تكنه من خيانة وأمانة. وقيل: هو أن ينظر إلى أجنبية بشهوة مسارقة، ثم يتفكر بقلبه في جمالها، ولا يعلم بنظرته وفكرته من حضره، والله يعلم ذلك كله.والله يقضي بالحق أي: ومن هذه صفاته لا يقضي إلا بالعدل، فيجازي كلا بما يستحقه إذ لا يخفى عليه خفي ولا جلي، والذين يدعون يعبدونهم من دونه من الآلهة لا يقضون بشيء، وهذا_____________(١) عجز بيت، صدره: لا تفزع الأرنب أهوالها.(٢) هذا صدر بيت عجزه: [إذا سافه النباطى جرجرا] . وهو من قصيدة لامرئ القيس فى ديوانه (٦٦) . وصدر البيت فى لسان العرب (لحف ٥/ ٤٠٠٩) . واللحب: الطريق الواسع، من لحبه: إذا وطئه ومر فيه، والمنار: ما يعلم به الطريق.والشاهد فى البيت: نفى الاهتداء بالمنار، والمقصود: نفى المنار، فلا منار ولا هداية.(٣) عزاه السيوطي فى الدر (٥/ ٦٥٣) لسعيد بن منصور، وابن أبى شيبة وابن النذر وابن أبي حاتم.." (١)

"تهكم بهم لأن الجماد الذي لا يعقل لا يقال فيه: يقضي ولا يقضي، وقرأ نافع بالخطاب أو: على إضمار «قل» ، إن الله هو السميع البصير تقرير لقوله: يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور ووعيد لهم لأنه يسمع ما يقولون، ويبصر ما يعملون، وأنه يعاقبهم عليه، وتعريض بما يدعون من دون الله، بأنها لا تسمع ولا تبصر.الإشارة: قال القشيري: قيامة الكل مؤجلة، وقيامة المحبين معجلة، في كل نفس من العتاب والعذاب، والبعاد والاقتراب، ما لم يكن في حساب، وشهادة الأعضاء بالدمع تشهد، وخفقان القلب ينطق، والنحول يخبر، واللون يفضح، والعبد يستر، ولكن البلاء يظهر، قال:يا من تغير صورتي لما بدا ... لجميع ما ظنوا بنا تحقيق هـ. «١»وقوله تعالى: إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين، هو في حق من فاته التأهب والترقي في هذه الدار، فتحسر حين يعاين مقامات الرجال، وليس له شفيع يرقيه، ولا حميم يصافيه. وقوله تعالى: يعلم خائنة الأعين هو في حق العارفين: النظر إلى السوى بعين الاستحسان. قال القشيري: خائنة الأعين هي من المحبين استحسانهم شيئا- أي: من السوى- وأنشدوا:يا قرة العين: سل عيني هل اكتحلت ... بمنظر حسن مذ غبت عن عيني؟وأنشد أيضا:وعيني إذا استحسنت غيركم ... أمرت الدمع بتأديبها «٢»قلت: ومثله قول الشاعر:وناظر في سوى معناك حق له ... يقتص من جفنه بالدمع وهو دموالسمع إن حال فيه ما يحدثه ... سوى حديثك، أمسى وقره الصممثم قال: ومن خائنة الأعين: أن تأخذهم السنة والسنات «٣» في أوقات المناجاة، وفي قصص داود عليه السلام:«كذب من ادعى محبتي، فإذا جنه الليل نام عني» ومن خائنة أعين العارفين: أن يكون لهم خير، أي: استحسان يقع لقلوبهم مما تقع عليه أعينهم، ينظرون ولكن لا يبصرون- أي: ينظرون إلى المستحسنات، ولكن لا يقفون_____________(١) فى لطائف الإشارات: [لجميع ما ظنوا بنا تصديقا] .(٢) فى القشيري: [أمرت السهاد بتعذيبها] . والبيت منسوب إلى سلم

---

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ١٢٣/٥

الخاسر، كما في نهاية الأرب (٢/ ٥٦) وفيه:تقول وفي قولها حشمة ... أتبكي بعين تراني بهافقلت إذ استحسنت غيركم ... أمرت الدموع بتأديبها با أديبها(٣) في القشيري: والسبات. [.....]."[١]

"في غير ملكه بلا اذن مالكه وكل ما يفعله الله يفعله في ملكه إن الله سريع الحساب (١٧) يحاسب الناس كلهم في قدر نصف يوم من ايام الدنيا بناء على مشيته والا فهو قادر على ان يحاسبهم دفعة في ان واحد إذ لا يشغله شأن عن شأن-.وأنذرهم عطف على الاخبار السابقة بتقدير يقال لك انذرهم يوم الآزفة اى القيامة سميت بها لازوافها اى قربها إذ كل ما هو ات قريب إذ القلوب إذ بدل من يوم الآزفة لدى الحناجر فانها ترفع عن أماكنها من شدة الهول فتلتصق بحلوقهم فلا يعود حتى يترحوا ولا يخرج فيموتوا كاظمين مكروبين ممتلين خوفا وو حزنا والكظم تردد الغيظ والخوف والحزن في القلب حتى تطيق به- القلوب مبتدا ولدى الحناجر خبره والكاظمين حال من القلوب محمول على أصحابها وانما جمع الكاظم جمع السلامة لانه وصف بالكظم الذي هو من افعال العقلاء ما للظالمين الكافرين والضمائر ان كانت للكفار كان هذا وضع الظاهر موضع الضمير للدلالة على اختصاص ذلك بهم وانه لظلمهم من حميم اى قريب مشفق ولا شفيع يطاع (١٨) اى ولا شفيع مشفع لا مفهوم للوصف إذ لا شفيع لهم أصلا فما لهم من شافعين او له مفهوم على زعمهم ان لهم شفعاء اى لو شفعوا فرضا لا تقبل شفاعتهم.يعلم خائنة الأعين اى النظرة الخائنة كالنظرة الى من حرم النظر إليها واستراق النظر إليها او مصدر بمعنى الخيانة كالعافية بمعنى المعافاة يعنى يعلم خيانة الأعين الجملة خبر اخر لهو في قوله هو الذى يريكم آياته وما تخفي الصدور (١٩) من الضمائر قيل يعنى ما يتفكر الرجل بقلبه في جمال امراة اجنبية بعد ما ينظر إليها بشهوة مسارقة.والله يقضي بالحق لانه المالك على الإطلاق والحكيم والعليم بما ظهر وما بطن فلا يقضى الا بما يقتضيه علمه وحكمته ولا يقضى الا وهو حقه والجملة عطف على يعلم والذين يدعون قرا نافع وهشام بالتاء للخطاب على الالتفات او بإضمار قل والباقون بالياء للغيبة من دونه من الأوثان والشياطين والملوك الجبابرة لا يقضون بشيء لعدم قدرتهم على القضاء إن الله هو." [٢]

"تلقون عدوكم فليكن شعاركم حم لا ينصرون» . وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في الأسماء والصفات عن ابن عباس في قوله: ذي الطول قال: ذي السعة والغنى. وأخرج الطبراني في الأوسط، وابن مردويه عن ابن عمر في قوله: غافر الذنب الآية قال: غافر الذنب لمن يقول لا إله إلا الله قابل التوب ممن يقول لا إله إلا الله شديد العقاب لمن لا يقول لا إله إلا الله ذي الطول ذي الغنى لا إله إلا هو كانت كفار قريش لا يوحدونه فوحد نفسه إليه المصير مصير من يقول لا إله إلا الله فيدخله الجنة، ومصير من لا يقول لا إله إلا الله فيدخله النار. وأخرج عبد بن حميد عن أبي هريرة قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: «إن جدالا في القرآن كفر» . وأخرج عبد بن حميد، وأبو داود عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «مراء في القرآن كفر» .[سورة غافر (٤٠) : الآيات ١٠ الى ٢٠]إن الذين كفروا ينادون لمقت الله أكبر من مقتكم أنفسكم إذ تدعون إلى الإيمان فتكفرون (١٠) قالوا ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين فاعترفنا بذنوبنا فهل إلى خروج

---

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ١٢٤/٥

(٢) التفسير المظهري المظهري، محمد ثناء الله ٢٥٠/٨

من سبيل (١١) ذلكم بأنه إذا دعي الله وحده كفرتم وإن يشرك به تؤمنوا فالحكم لله العلي الكبير (١٢) هو الذي يريكم آياته وينزل لكم من السماء رزقا وما يتذكر إلا من ينيب (١٣) فادعوا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون (١٤)رفيع الدرجات ذو العرش يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده لينذر يوم التلاق (١٥) يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شيء لمن الملك اليوم لله الواحد القهار (١٦) اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب (١٧) وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع (١٨) يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور (١٩)والله يقضي بالحق والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء إن الله هو السميع البصير (٢٠)لما ذكر سبحانه حال أصحاب النار، وأنها حقت عليهم كلمة العذاب، وأنهم أصحاب النار ذكر أحوالهم بعد دخول النار فقال: إن الذين كفروا ينادون. قال الواحدي قال المفسرون: إنهم لما رأوا أعمالهم، ونظروا في كتابهم، وأدخلوا النار، ومقتوا أنفسهم بسوء صنيعهم ناداهم حين عاينوا عذاب الله مناد لمقت الله إياكم في الدنيا إذ تدعون إلى الإيمان فتكفرون أكبر من مقتكم أنفسكم اليوم. قال الأخفش: هذه اللام في لمقت هي لام الابتداء أوقعت بعد ينادون، لأن معناه يقال لهم، والنداء قول. قال الكلبي: يقول كل إنسان لنفسه من أهل النار: مقتك يا نفس، فتقول الملائكة لهم وهم في النار: لمقت الله إياكم في الدنيا أشد من مقتكم أنفسكم اليوم. وقال الحسن: يعطون كتابهم، فإذا نظروا إلى سيئاتهم مقتوا أنفسهم، فينادون:لمقت الله إياكم في الدنيا إذ تدعون إلى الإيمان أكبر من مقتكم أنفسكم إذ عاينتم النار، والظرف في إذ تدعون منصوب بمقدر محذوف دل عليه المذكور، أي: مقتكم وقت دعائكم، وقيل: بمحذوف هو." (١)

"فلا يجيبه أحد فيجيب تعالى نفسه، فيقول: لله الواحد القهار قال الحسن: هو السائل تعالى، وهو المجيب حين لا أحد يجيبه فيجيب نفسه، وقيل: إنه سبحانه يأمر مناديا ينادي بذلك، فيقول أهل المحشر مؤمنهم وكافرهم: لله الواحد القهار وقيل: إنه يجيب المنادي بهذا الجواب أهل الجنة دون أهل النار، وقيل:هو حكاية لما ينطق به لسان الحال في ذلك اليوم لانقطاع دعاوى المبطلين، كما في قوله تعالى: وما أدراك ما يوم الدين ثم ما أدراك ما يوم الدين يوم لا تملك نفس لنفس شيئا والأمر يومئذ لله «١» وقوله:اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب من تمام الجواب على القول بأن المجيب هو الله سبحانه، وأما على القول بأن المجيب هم العباد كلهم أو بعضهم فهو مستأنف لبيان ما يقوله الله سبحانه بعد جوابهم، أي: اليوم تجزى كل نفس بما كسبت من خير وشر لا ظلم اليوم على أحد منهم بنقص من ثوابه أو بزيادة في عقابه إن الله سريع الحساب أي: سريع حساب لأنه سبحانه لا يحتاج إلى تفكر في ذلك كما يحتاجه غيره لإحاطة علمه بكل شيء فلا يعزب عنه مثقال ذرة. ثم أمر الله سبحانه رسوله بإنذار عباده فقال: وأنذرهم يوم الآزفة أي: يوم القيامة سميت بذلك لقربها، يقال أزف فلان: أي قرب، يأزف أزفا، ومنه قول النابغة:أزف الترحل غير أن ركابنا ... لما تزل بركابنا وكأن قدومنه قوله تعالى: أزفت الآزفة «٢» أي: قربت الساعة، وقيل: إن يوم الآزفة هو يوم حضور الموت، والأول أولى. قال الزجاج: وقيل: لها آزفة لأنها قريبة، وإن استبعد الناس أمرها، وما هو كائن فهو قريب إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين وذلك أنها تزول عن مواضعها من الخوف حتى تصير إلى الحنجرة كقوله: وبلغت القلوب الحناجر «٣»

---

(١) فتح القدير للشوكاني الشوكاني ٤/٥٥٤

كاظمين مغمومين، مكروبين، ممتلئين غما. قال الزجاج:المعنى إذ قلوب الناس لدى الحناجر في حال كظمهم. قال قتادة: وقعت قلوبهم في الحناجر من المخافة، فهي لا تخرج ولا تعود في أمكنتها. وقيل: هو إخبار عن نهاية الجزع، وإنما قال كاظمين باعتبار أهل القلوب، لأن المعنى: إذ قلوب الناس لدى حناجرهم، فيكون حالا منهم. وقيل: حالا من القلوب، وجمع الحال منها جمع العقلاء لأنه أسند إليها ما يسند إلى العقلاء، فجمعت جمعه. ثم بين سبحانه أنه لا ينفع الكافرين في ذلك اليوم أحد فقال: ما للظالمين من حميم أي: قريب ينفعهم ولا شفيع يطاع في شفاعته لهم، ومحل يطاع الجر على أنه صفة لشفيع. ثم وصف سبحانه شمول علمه لكل شيء وإن كان في غاية الخفاء فقال: يعلم خائنة الأعين وهي مسارقة النظر إلى ما لا يحل النظر إليه، والجملة خبر آخر لقوله: هو الذي يريكم قال المؤرج: فيه تقديم وتأخير، أي: يعلم الأعين الخائنة. وقال قتادة: خائنة الأعين:الهمز بالعين فيما لا يحب الله. وقال الضحاك: هو قول الإنسان ما رأيت، وقد رأى، ورأيت وما رأى.وقال سفيان: هي النظرة بعد النظرة. والأول أولى، وبه قال مجاهد وما تخفي الصدور من الضمائر وتسره من معاصي الله والله يقضي بالحق فيجازي كل أحد بما يستحقه من خير وشر والذين يدعون من دونه______________(١) . الانفطار: ١٧- ١٩.(٢) . النجم: ٥٧.(٣) . الأحزاب: ١٠.." (١)

"أي: تعبدونهم من دون الله لا يقضون بشيء لأنهم لا يعلمون شيئا، ولا يقدرون على شيء: قرأ الجمهور «يدعون» بالتحتية يعني: الظالمين، واختار هذه القراءة أبو عبيد، وأبو حاتم، وقرأ نافع، وشيبة، وهشام بالفوقية على الخطاب لهم إن الله هو السميع البصير فلا يخفى عليه من المسموعات والمبصرات خافية.وقد أخرج الفريابي، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه عن ابن مسعود في قوله: أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين قال: هي مثل التي في البقرة كنتم أمواتا فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم «١» كانوا أمواتا في صلب آبائهم ثم أخرجهم فأحياهم ثم أماتهم ثم يحييهم بعد الموت.وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عن ابن عباس في الآية قال: كنتم ترابا قبل أن يخلقكم، فهذه ميتة، ثم أحياكم فخلقكم فهذه حياة، ثم يميتكم فترجعون إلى القبور فهذه ميتة أخرى، ثم يبعثكم يوم القيامة فهذه حياة، فما موتتان وحياتان كقوله: كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم الآية.وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس في قوله: يوم التلاق قال: يوم القيامة يلتقي فيه آدم وآخر ولده.وأخرج عنه أيضا قال: يوم التلاق يوم الآزفة، ونحو هذا من أسماء يوم القيامة يلتقي فيه آدم وآخر ولده.وأخرج عنه أيضا قال: يوم التلاق يوم الآزفة، ونحو هذا من أسماء يوم القيامة عظمه الله وحذره عباده.وأخرج عبد الله بن أحمد في زوائد الزهد، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، وأبو نعيم في الحلية عنه أيضا قال: ينادي مناد بين يدي الساعة: يا أيها الناس أتتكم الساعة، فيسمعها الأحياء والأموات، وينزل الله إلى السماء الدنيا فيقول: لمن الملك اليوم لله الواحد القهار. وأخرج ابن أبي الدنيا في البعث، والديلمي عن أبي سعيد عن النبي صلى الله عليه وسلم مثله. وأخرج عبد بن حميد عن ابن مسعود قال: «يجمع الله الخلق يوم القيامة بصعيد واحد بأرض بيضاء كأنها سبيكة فضة لم يعص الله فيها قط، فأول ما يتكلم أن ينادي مناد لمن الملك اليوم لله الواحد القهار اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب فأول ما يبدأ به من الخصومات الدماء» . وأخرج سعيد بن منصور وابن أبي شيبة وابن

(١) فتح القدير للشوكاني الشوكاني ٤/٥٥٧

المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور قال: الرجل يكون في القوم فتمر بهم المرأة فيريهم أنه يغض بصره عنها، وإذا غفلوا لحظ إليها، وإذا نظروا غض بصره عنها، وقد اطلع الله من قلبه أنه ود أن ينظر إلى عورتها. وأخرج ابن أبي حاتم، والطبراني في الأوسط، وأبو نعيم في الحلية، والبيهقي في الشعب عنه في الآية قال: إذا نظر إليها يريد الخيانة أو لا وما تخفي الصدور قال: إذا قدر عليها أيزني بها أم لا؟ ألا أخبركم بالتي تليها والله يقضي بالحق قادر على أن يجزي بالحسنة الحسنة، وبالسيئة السيئة.وأخرج أبو داود، والنسائي، وابن مردويه عن سعد قال: «لما كان يوم فتح مكة أمن النبي صلى الله عليه وسلم الناس إلا أربعة نفر وامرأتين، وقال: اقتلوهم وإن وجدتموهم متعلقين بأستار الكعبة، منهم عبد الله بن سعد ابن أبي سرح، فاختبأ عند عثمان بن عفان، فلما دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس إلى البيعة جاء به، فقال:يا رسول الله بايع عبد الله، فرفع رأسه فنظر إليه ثلاثا كل ذلك يأبى بيعته، ثم بايعه، ثم أقبل على أصحابه______________(١) . البقرة: ٢٨.." [(١)]

"بدليل قراءة لينذر يوم التلاق على البناء للمفعول، ورفع «يوم» وسمي يوم القيامة بيوم التلاق، لأن الأرواح متلاقية للأجساد، ولأن الخلائق يتلاقون فيه، فيقف بعضهم على حال بعض، ولأنه يلتقي فيه أهل السماء وأهل الأرض، ولأن كل أحد يصل إلى جزاء عمله ويلتقي فيه العابدون والمعبودون ويلتقي فيه الظالم والمظلوم، يوم هم بارزون أي خارجون عن بواطن القبور، وظاهرون لا يسترهم شيء من جبل وغيره، وليس عليهم ثياب، وتظهر أعمالهم وتنكشف أسرارهم، لا يخفى على الله منهم شيء فيعلم ما فعله كل واحد منهم فيجازي كلا منهم بحسبه إن خيرا فخيرا، وإن شرا فشر، وينادي مناد: لمن الملك اليوم فيجيبه أهل المحشر: لله الواحد القهار (١٦) ، أي الذي قهر الخلق بالموت، فالمؤمنون يقولونه تلذذا بهذا الكلام حيث نالوا المنزلة الرفيعة، والكفار يقولونه على وجه التحسر والندامة على ما فاتهم في الدنيا، اليوم تجزى كل نفس برة أو فاجرة، بما كسبت من خير أو شر لا ظلم اليوم بنقص ثواب، أو زيادة عذاب، أي يقال لهم: إذا أقروا بالملك يومئذ لله وحده اليوم تجزى إلخ. إن الله سريع الحساب (١٧) ، إذ لا يشغله شأن عن شأن، فيحاسب الخلائق قاطبة في أقرب زمان وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر، ف «إذ» بدل من يوم الآزفة، أي وأنذرهم يوم القرب من العذاب، ومشارفتهم دخول النار، فعند ذلك ترتفع قلوبهم من أماكنها، فتلتصق بحلوقهم من شدة الخوف، كاظمين أي مغمومين يتردد الغيظ في أجوافهم، فلا يمكنهم أن ينطقوا ويبينوا خوفهم، ما للظالمين من حميم أي قريب مشفق، ولا شفيع يطاع (١٨) أي ولا شفيع مقبول شفاعته، يعلم خائنة الأعين أي استراق النظر إلى ما لا يحل، وما تخفي الصدور (١٩) أي مضمرات القلوب، والله يقضي بالحق إذا علم المذنب أن الله لا يحكم إلا بالحق في كل ما دق وجل، كان خوف المذنب من الله في الغاية القصوى. والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء أي والذين يعبدونهم من دون الله تعالى من الأوثان، لا يصنعون شيئا من الشفاعة يوم القيامة، ولا يأمرون بخير في الدنيا، فإن الكفار إنما عولوا في دفع العقاب عن أنفسهم على شفاعة هذه الأصنام، فلذلك بين الله تعالى أنه لا فائدة فيها ألبتة بهذه الآية.وقرأ نافع وهشام «تدعون» بتاء الخطاب إن الله هو السميع البصير (٢٠) أي يسمع من الكفار ثناءهم على الأصنام، ويبصر سجودهم لهم ولا يسمع منهم ثناءهم

(١) فتح القدير للشوكاني الشوكاني ٤/٥٥٨

على الله، ولا يبصر خضوعهم وتواضعهم لله.أولم يسيروا في الأرض أي أغفلوا ولم يسافروا في الأرض فيعتبروا بمن قبلهم فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم من الأمم المكذبة لرسلهم كانوا هم أي الذين مضوا من الكفار أشد منهم أي من هؤلاء الحاضرين من الكفار قوة، أي قدرة على التصرفات.." (١)

"لأعمالهم، مطلع عليها، يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور. ولما كان مبدأ ذلك من قبل البصر، جعل الأمر بغضه مقدما على حفظ الفرج. فإن الحوادث مبدؤها من النظر. كما أن معظم النار مبدؤها من مستصغر الشرر. ثم تكون نظرة، ثم تكون خطرة، ثم خطوة، ثم خطيئة. ولهذا قيل: من حفظ هذه الأربعة أحرز دينه:اللحظات، والخطرات، واللفظات، والخطوات. فينبغي للعبد أن يكون بواب نفسه على هذه الأبواب الأربعة. ويلازم الرباط على ثغورها. فمنها يدخل عليه العدو، فيجوس خلال الديار ويتبروا ما علوا تبيرا.الثاني- روي عن الإمام أحمد أنه قال: لا أعلم بعد القتل ذنبا أعظم من الزنى.واحتجبحديث عبد الله «١» بن مسعود أنه قال: يا رسول الله أي الذنب أعظم؟ قال:أن تجعل لله ندا وهو خلقك قال قلت: ثم أي؟ قال: أن تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك. قال قلت: ثم أي؟ قال: أن تزاني حليلة جارك. والنبي صلى الله عليه وسلم ذكر من كل نوع أعلاه ليطابق جوابه سؤال السائل. فإنه سئل عن أعظم الذنب فأجابه بما تضمن ذكر أعظم أنواعه وما هو أعظم كل نوع، فأعظم أنواع الشرك أن يجعل العبد لله ندا.وأعظم أنواع القتل أن يقتل ولده خشية أن يشاركه في طعامه وشرابه. وأعظم أنواع الزنى أن يزني بحليلة جاره. فإن مفسدة الزنى تتضاعف بتضاعف ما انتهكه من الحق. فالزنى بالمرأة التي لها زوج، أعظم إثما وعقوبة من الزنى بالتي لا زوج لها إذا فيه انتهاك حرمة الزوج وإفساد فراشه، وتعليق نسب عليه، لم يكن منه، وغير ذلك من أنواع أذاه. فهو أعظم إثما وجرما من الزنى بغير ذات الزوج فإذا كان زوجها جارا له، انضاف إلى ذلك سوء الجوار، وأذى جاره بأعلى أنواع الأذى. وذلك من أعظم البوائق.وقد ثبت عن النبي «٢» صلى الله عليه وسلم أنه قال: لا يدخل الجنة من لا يأمن جاره بوائقه.ولا بائقة أعظم من الزنى بامرأته. فالزنى بمائة امرأة لا زوج لها أيسر عند الله من الزنى بامرأة الجار. فإن كان الجار أخا له، أو قريبا من أقاربه، انضم إلى ذلك قطيعة الرحم، فيتضاعف الإثم. فإن كان الجار غائبا في طاعة الله، كالصلاة وطلب العلم والجهاد، تضاعف الإثم. فإن اتفق أن تكون المرأة رحما منه، انضاف إلى ذلك قطيعة رحمها.______________(١) أخرجه البخاري في: تفسير القرآن، ٢- سورة البقرة، ٣- باب قوله تعالى: فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون، حديث ١٩٦٢.(٢) أخرجه البخاري في: الأدب، ٣٩- باب إثم من لا يأمن جاره بوائقه، حديث قم ٢٣٢٦، عن أبي شريح. [.....]."(٢)

"القول في تأويل قوله تعالى: [سورة غافر (٤٠) : الآيات ١٦ الى ١٧]يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شيء لمن الملك اليوم لله الواحد القهار (١٦) اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب (١٧)يوم هم بارزون أي من قبورهم. أو ظاهرون لا يسترهم شيء من جبل أو بناء لا يخفى على الله منهم شيء أي من أعمالهم وأعيانهم وأحوالهم. وقوله لمن الملك اليوم ينادي به الحق سبحانه، عند فناء الكل. أو وقت التلاقي والبروز.فيجيب هو وحده لله

---

(١) مراح لبيد لكشف معنى القرآن المجيد نووي الجاوي ٣٤٥/٢

(٢) تفسير القاسمي = محاسن التأويل القاسمي ٢٨٢/٧

الواحد أي المتفرد بالملك القهار أي الذي قهر بالغلبة كل ما سواه اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب أي بإيصال ما يستحق كل منهم إليه، من تبعات سيئاته وثمرات حسناته.القول في تأويل قوله تعالى: [سورة غافر (٤٠) : آية ١٨]وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع (١٨)وأنذرهم يوم الآزفة أي الواقعة القريبة إذ القلوب لدى الحناجر أي من أهواله ترتفع القلوب عن مقارها. فتصير لدى الحلوق كاظمين أي ممتلئين غما، بما أفرطوا من الظلم ما للظالمين من حميم أي قريب يهتم لشأنهم، فيخفف عنهم غمومهم ولا شفيع يطاع أي من يشفع في تخفيفها عنهم. إذ لا تقبل شفاعة فيهم.القول في تأويل قوله تعالى: [سورة غافر (٤٠) : الآيات ١٩ الى ٢٥]يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور (١٩) والله يقضي بالحق والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء إن الله هو السميع البصير (٢٠) أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم كانوا هم أشد منهم قوة وآثارا في الأرض فأخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق (٢١) ذلك بأنهم كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فكفروا فأخذهم الله إنه قوي شديد العقاب (٢٢) ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين (٢٣)إلى فرعون وهامان وقارون فقالوا ساحر كذاب (٢٤) فلما جاءهم بالحق من عندنا قالوا اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه واستحيوا نساءهم وما كيد الكافرين إلا في ضلال (٢٥)." (١)

"يعلم خائنة الأعين أي نظراتها الخائنة. وهي الممتدة إلى ما لا يحل وما تخفي الصدور أي تكنه من الضمائر والأسرار والله يقضي بالحق أي بالعدل والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء أي لأنهم لا يقدرون على شيء إن الله هو السميع البصير أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم كانوا هم أشد منهم قوة وآثارا في الأرض يعني حصونهم وقصورهم وعددهم فأخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق ذلك بأنهم كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فكفروا فأخذهم الله إنه قوي شديد العقاب ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين إلى فرعون وهامان وقارون فقالوا ساحر كذاب فلما جاءهم بالحق أي بآيات نبوته من عندنا قالوا اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه واستحيوا نساءهم أي: قالوا أعيدوا عليهم القتل، كالذي كان أولا. واستبقوا نسائهم للخدمة وما كيد الكافرين إلا في ضلال أي: وما مكرهم في دفع ما أراد الله من ظهور دينه، إلا في ضياع. إذ هو كالغثاء الذي يقذفه تيار الحق.القول في تأويل قوله تعالى: [سورة غافر (٤٠) : آية ٢٦]وقال فرعون ذروني أقتل موسى وليدع ربه إني أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر في الأرض الفساد (٢٦)وقال فرعون ذروني أقتل موسى وليدع ربه، إني أخاف أن يبدل دينكم أي ما أنتم عليه من عبادة الأصنام أو أن يظهر في الأرض الفساد أي فساد مملكتي. إذ يتفق الكل على متابعته وإجراء أحكامه.القول في تأويل قوله تعالى: [سورة غافر (٤٠) : آية ٢٧]وقال موسى إني عذت بربي وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب (٢٧)وقال موسى إني عذت بربي وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب أي التجأت إليه وتوكلت عليه، فهو ناصر دينه ومعز أهله.القول في تأويل قوله تعالى: [سورة غافر (٤٠) : آية ٢٨]وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله وقد جاءكم

---

(١) تفسير القاسمي = محاسن التأويل القاسمي ٣٠٥/٨

بالبينات من ربكم وإن يك كاذبا فعليه كذبه وإن يك صادقا يصبكم بعض الذي يعدكم إن الله لا يهدي من هو مسرف كذاب (٢٨)." (١)

"مثله، وسمى الرجلالمسلم عامر بن قيس من الأنصار. وهذا ليس بحصر، بل المراد أن الآية نزلت في هذا وأمثاله، فإن من عادة المنافقين والكاذبين من عصاة المؤمنين وغيرهم أن يكثروا الحلف ليصدقوا؛ لأنهم لعلمهم بكذبهم يظنون أو يعلمون أنهم متهمون في أقوالهم وأعمالهم، فيحلفون لإزالة التهمة، وهذا معلوم في كل زمان، وقد تقدم في الآية (٤٢) من هذا السياق حلفهم أنهم لو استطاعوا الخروج في غزوة تبوك لخرجوا، والتصريح بعلم الله بكذبهم في حلفهم هذا - وفي الآية (٥٦) منه ويحلفون بالله إنهم لمنكم إلخ. وسيأتي في آية (٧٤) منه مثل هذا الحلف على قول من الكفر قالوه إنهم ما قالوه، وفي آيات ٥٩ و٩٦ و١٠٧ منه نحو من ذلك.فقوله تعالى: يحلفون بالله لكم ليرضوكم خطاب للمؤمنين في بعض شئون هؤلاء المنافقين معهم في غزوة تبوك، أخبرهم بأنهم شعروا بما لم يكونوا يشعرون من ظهور نفاقهم، فكثر اعتذارهم وحلفهم للمؤمنين في كل ما يعلمون أنهم متهمون به من قول وعلم؛ ليرضوهم فيطمئنوا لهم، فتنتفي داعية إخبار الرسول - صلى الله عليه وسلم - بما ينكرون منهم، وقد رد الله تعالى عليهم بقوله: والله ورسوله أحق أن يرضوه أي: والحال أن الله ورسوله أحق بالإرضاء من المؤمنين؛ فإن المؤمنين قد يصدقونهم فيما يحلفون عليه إذا لم يكن كذبهم فيه ظاهرا معلوما باليقين، ولكن الله لا يخفى عليه شيء، فهو يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، وهو يوحي إلى رسوله من أمور الغيب ما فيه المصلحة.وكان الظاهر أن يقال: " يرضوهما " ونكتة العدول عنه إلى: (يرضوه) الإعلام بأن إرضاء رسوله من حيث إنه رسوله عين إرضائه تعالى؛ لأنه إرضاء له في اتباع ما أرسله به، وهذا من بلاغة القرآن في الإيجاز، ولو قال: (يرضوهما) لما أفاد هذا المعنى؛ إذ يجوز في نفس العبارة أن يكون إرضاء كل منهما في غير ما يكون به إرضاء الآخر، وهو خلاف المراد هنا، وكذلك لو قيل: " والله أحق أن يرضوه ورسوله أحق أن يرضوه " لا يفيد هذا المعنى أيضا، وفيه ما فيه من الركاكة والتطويل،وقد خرجه علماء النحو على قواعدهم فقال بعضهم كأبي السعود: إن الضمير المفرد هنا يعود إلى ما فهم مما قبله الذي يفسر باسم الإشارة أو " ما ذكر "كقول رؤبة:فيها خطوط من سواد وبلق ... كأنه في الجلد توليع البهقيعي كأن ذلك أو كأن ما ذكر، وهو تخريج ضعيف لا يظهر في المثنى. وقال بعضهم: إن الضمير عائد إلى اسم الجلالة، ويقدر مثله للرسول، وقال بعضهم: إنه للرسول وحده؛ لأن." (٢)

"ثعلبة بن حاطب " ودعا للسلمي بالبركة، وأنزل الله: ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن الثلاث الآيات. قال: فسمع بعض من أقارب ثعلبة، فأتى ثعلبة فقال ويحك يا ثعلبة أنزل الله فيك كذا وكذا. قال: فقدم ثعلبة على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال: يا رسول الله هذه صدقة مالي، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: " إن الله تعالى قد منعني أن أقبل منك " قال: فجعل يبكي ويحثي التراب على رأسه، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: " هذا عملك بنفسكأمرتك فلم تطعني " فلم يقبل منه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حتى مضى. ثم أتى أبا بكر فقال: يا أبا

---

(١) تفسير القاسمي = محاسن التأويل القاسمي ٣٠٦/٨

(٢) تفسير المنار محمد رشيد رضا ٤٥١/١٠

بكر اقبل مني صدقتي فقد عرفت منزلتي من الأنصار، فقال أبو بكر: لم يقبلها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأقبلها؟ فلم يقبلها أبو بكر. ثم ولي عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ فأتاه فقال: يا أبا حفص يا أمير المؤمنين اقبل مني صدقتي، وتوسل إليه بالمهاجرين والأنصار وأزواج النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ، فقال عمر: لم يقبلها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولا أبو بكر أقبلها أنا؟ فأبى أن يقبلها. ثم ولي عثمان فهلك في خلافة عثمان وفيه نزلت: الذين يلمزون المطوعين من المؤمنين في الصدقات (٧٩) قال: وذلك في الصدقة اهـ.وفي الحديث إشكالات تتعلق بسبب نزول الآيات، وظاهر سياق القرآن أنه كان في سفر غزوة تبوك، وظاهره أنها نزلت عقب فرضية الزكاة، والمشهور أنها فرضت في السنة الثانية، وفيه خلاف تقدم في تفسير قسمة الصدقات – وبعدم قبول توبة ثعلبة وظاهر الحديث ولاسيما بكائه أنها توبة صادقة، وكان العمل جاريا على معاملة المنافقين بظواهرهم، وظاهر الآيات أنه يموت على نفاقه، ولا يتوب عن بخله وإعراضه، وأن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وخليفتيه عاملاه بذلك لا بظاهر الشريعة، وهذا لا نظير له في الإسلام.ألم يعلموا أن الله يعلم سرهم ونجواهم أي: ألم يعلم هؤلاء المنافقون الذين يعلنون غير ما يسرون، ويقولون ما لا يفعلون، ويتناجون فيما بينهم بالإثم والعدوان ولمز الرسول، أن الله يعلم سرهم الكامن في أعماق قلوبهم، ونجواهم التي يخصون بها من يثقون بمشاركته إياهم في نفاقهم: وأن الله علام الغيوب كلها لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء (٣: ٥) ويعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور (٤٠: ١٩) فهم يكذبون على الله فيما يعاهدونه به وعلى الناس فيما يحلفون عليه باسمه.الاستفهام في قوله تعالى: ألم يعلموا للتوبيخ والإنذار، أو للتنبيه القاطع لطريق الاعتذار فإن المنافقين كانوا يؤمنون بوجود الله وعلمه إيمانا إجماليا تقليديا.وإنما كانوا يرتابون في الرسالة والوحي والبعث، ولكن ما ذكر من عملهم وأيمانهم الكاذبة باسمه هو عمل من." (١)

"فأخبرهم الله – تعالى – بأنه لا يكلف نفسا إلا وسعها، ولا يؤاخذها إلا على ما كلفها، فهم مكلفون بتزكية أنفسهم ومجاهدتها بقدر الاستطاعة والطاقة وطلب العفو عما لا طاقة لهم به، كما سيأتي تفصيله، ولا يبعد أن يكون بعضهم قد خاف أن تدخل الوسوسة والشبهة قبل التمكن من دفعها في عموم الآية، فكان ما بعدها مبينا لغلطهم في ذلك، وأما تسمية بعضهم ذلك نسخا فقد أجاب عنه بعض المفسرين: بأنه عبر بالنسخ عن البيان والإيضاح تجوزا. وذلك أن تقول: إن المراد به النسخ اللغوي وهو الإزالة والتحويل لا الاصطلاحي ؛ أي إن الآية الثانية كانت مزيلة لما أخافهم من الأولى أو محولة له إلى وجه آخر، ويحتمل أن يكون الصحابي لم ينطق بلفظ النسخ، وإنما فهمه الراوي من القصة فذكره، وكثيرا ما يروون الأحاديث المرفوعة بالمعنى على أنه ليس من النص المرفوع، ورأي الصحابي ليس بحجة عند الجماهير، لا سيما إذا خالف ظاهره الكتاب، وإنني لا أعتقد صحة سند حديث ولا قول عالم صحابي يخالف ظاهر القرآن، وإن وثقوا رجاله فرب راو يوثق للاغترار بظاهر حاله، وهو سيئ الباطن ولو انتقدت الروايات من جهة فحوى متنها كما تنتقد من جهة سندها لقضت المتون على كثير من الأسانيد بالنقض. وقد قالوا: إن من علامة الحديث الموضوع مخالفته لظاهر القرآن أو القواعد المقررة في الشريعة أو للبرهان العقلي أو للحس والعيان وسائر اليقينيات.أما إبداء ما في النفس فهو إظهاره بالقول أو بالفعل، وأما إخفاؤه فهو ضده والإبداء والإخفاء سيان عند الله – تعالى –؛ لأنه يعلم خائنة الأعين وما تخفي

---

(١) تفسير المنار محمد رشيد رضا ١٠/٤٨٤

الصدور [٤٠: ١٩] فالمدار في مرضاته على تزكية النفس وطهارة السريرة لا على لوك اللسان وحركات الأبدان، وأما المحاسبة فهي على ظاهرها وإن فسرها بعض بالعلم، وبعض بالجزاء الذي هو غبها ولازمها، ذلك أن للنفوس في اعتقاداتها وملكاتها وعزائمها وإرادتها موازين يعرف بها يوم الدين رجحان الحق والخير أو الباطل والشر هي أدق مما وضع البشر من موازين الأعيان وموازين الأعراض كالحر والبرد ونضعالموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين [٢١: ٤٧] وسيأتي قول الأستاذ الإمام في الحساب والجزاء.فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء أي فهو بما له من الملك المطلق يغفر لمن يشاء أن يغفر له ويعذب من شاء عذابه. وقرأ غير ابن عامر وعاصم ويعقوب بجزم: (يغفر ويعذب) . بالعطف على يحاسبكم وإنما يشاء ما فيه الرحمة والعدل والحكمة، والأصل في العدل أن يكون الجزاء السيئ على قدر الإساءة وتأثيرها في تدسية نفوس المسيئين، والجزاء الحسن على قدر الإحسان وتأثيره في أرواح المحسنين، ولكنه – تعالى – برحمته وفضله يضاعف جزاء الحسنة عشرة أضعاف ويزيد من يشاء ولا يضاعف السيئة، والآيات المفصلة في هذا." (١)

"كون فعل السوء لم يكن إلا عن جهالة ؛ إذ مثلهم في إيمانهم، وتقواهم لا يعتمد الذنب مع الروية، وكون التوبة قريبة من زمن الذنب لم تدع له مجالا يرسخ به في النفس، ويجوز أن تجعل معنى السببية مفرعا عن ذلك الأصل المقرر في صدر الآية، وهو كون قبول توبة هؤلاء مما أوجبه الله – تعالى – على نفسه بمقتضى رحمته، وعلمه، وحكمته، أي فأولئك يتوب عليهم قطعا ؛ لأن قبول توبتهم مقرر حتما، وموعود به وعدا مقضيا.وقال الأستاذ الإمام: أشار إليهم بعد حصر التوبة المقبولة لهم لتأكيد ذلك الحصر، ولاستحضارهم في الذهن عند الحكم حتى لا يخطر في بال القارئ والسامع إشراك غيرهم معهم فيه، وضمن التوبة معنى العطف، أي يعطف عليهم بقبول توبتهم ويعود برحمته عليهم.وكان الله عليما حكيما فمن علمه بشئون عباده، ومصالحهم، وحكمته فيما شرعه لهم أنه جعل التوبة بشرطيها مقبولة حتما ؛ لأنه يعلم أنهم لضعفهم لا يسلمون من عمل السوء، فلو لم يكن للعاصي توبة لفسد الناس، وهلكوا ؛ لأن من يعمل السوء بجهالة من ثورة شهوة، أو سورة غضب يسترسل حينئذ في المعاصي، والسيئات، ويتعمد اتباع الهوى، وخطوات الشيطان لعلمه أنه هالك على كل حال فلا فائدة له من مجاهدة نفسه وتزكيتها، أما وقد شرع الله – تعالى – بحكمته قبول التوبة، فقد فتح لهم باب الفضيلة، وهداهم إلى محو السيئة بالحسنة، ولو كان كل ذنب يغفر، وكل سيئة يعفى عنها لما آثر الناس الخير على الشر إلا حيث تكون شهواتهم ومهب أهوائهم، ثم إنه – تعالى – يعلم التوبة النصوح، والتوبة الخادعة الكذوب ؛ لأنه يعلم خائنة الأعين، وما تخفي الصدور، ومن حكمته أنه لا يقبل إلا التوبة النصوح دون حركة اللسان بالاستغفار، والإتيان ببعض المكفرات من الصدقات، أو الأذكار، مع الإصرار على الذنوب والأوزار، فالمقيم على الذنب لا تطهر نفسه من دنسه بعمل طاعة أخرى، وإن أحسن فيها، وأخلص، فكيف من يكون عمله لها صوريا تقليديا لا يمس سواد قلبه قط، ولا يدل على عنايته بأمر الدين، ولا خشيته لله رب العالمين، كألفاظ الاستغفار والتسبيح! ولذلك جمع في الآية السابقة بين التوبة، وإصلاح العمل، وذكرنا بعض الآيات التي في معناها. وإن أردت الزيادة في هذا المعنى فراجع تفسير ما تقدم من الآيات كقوله – تعالى –:

---

(١) تفسير المنار محمد رشيد رضا ١١٧/٣

فاغفر لنا ذنوبنا – إلى قوله – والمستغفرين بالأسحار [٣: ١٦، ١٧] وقوله: والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم [٣: ١٣٥] وقد أشار الأستاذ الإمام هنا إلى نكتة ذكر صفة العلم، وصفة الحكمة هنا بقريب مما ذكرناه، وذكر غرور الجاهلين من الخلف الطالح بالأذكار القولية، واعتمادهم عليها، وظنهم أنها تنجيهم في." (١)

"في عهد نزول هذه السورة. وإن ضعف الإرادة ليصد صاحبه في كل زمان ومكان عن الواجبات وسائر الأعمال التي لا بد فيها من احتمال مشقة بدنية أو نفسية، وإن كانت من أعمال الإيمان ومصالح الأمة والأوطان، ولو بحثت عن خسران الأفراد المتعلمين الذين يعرفون الحقوق والواجبات لكرامة أنفسهم، وخسران الجماعات والأمم التي تولي زعامتها أمثال هؤلاء الأفراد لاستقلالها وصلاح أمرها لرأيت سبب هذا وذاك وهن العزيمة وذبذبة الإرادة، فالفوز والفلاح في الدين والدنيا لا يتم إلا بالعلم الصحيح والعزيمة الحافزة إلى العمل بالعلم، فمن خسر إحدى الفضيلتين يصدق عليه أنه خسر نفسه سواء كان فردا، أو أمة، فما بال من خسرهما كلتيهما والعياذ بالله تعالى وقد لمح الزمخشري إلى خسران النفس في الآخرة فأورد على الآية إشكالا في غير محله. وأجاب عنه على طريقة المتكلمين جوابا في غير محله. قال (فإن قلت) : كيف جعل عدم إيمانهم مسببا عن خسرانهم والأمر على العكس؟ (قلت) : معناه الذين خسروا أنفسهم في علم الله لاختيارهم الكفر فهم لا يؤمنون.(وله ما سكن في الليل والنهار وهو السميع العليم) الظاهر المختار أن هذا عطف على ما قبله، أي لله ما في السماوات وما في الأرض، وله ما سكن في الليل والنهار، واستظهر أبو حيان أنه استئناف إخبار غير مندرج تحت السؤال والجواب. وسكن من سكنى أو من السكون ضد الحركة، وفيه اكتفاء بما ذكر عما يقابله، أي له ما سكن وما تحرك، على حد قوله: (سرابيل تقيكم الحر) (١٦: ٨١) أي والبرد. ويجوز الجمع بين المعنيين على مذهب من يجوز ذلك في المشترك بما يحتمله المقام، والحكمة في ذكر هذا الملكالخاص على دخوله في عموم ما في السماوات والأرض التذكير بتصرفه تعالى بهذه الخفايا، فإن السكنى والسكون من دواعي خفاء الساكن، فإذا كان في الليل كان أشد خفاء؛ ولذلك قدم ذكر الليل لأن ما يسكن فيه هو المقصود بالذات، وعطف النهار عليه تكميل، ولما ذكرنا تعالى بأنه المالك لما ذكر، المتصرف فيه بقدرته بما يشاء كما هو شأن الربوبية الكاملة ذكرنا بأنه هو السميع العليم، أي المحيط سمعه بكل ما من شأنه أن يسمع مهما يكن خفيا عن غيره، فهو يسمع دبيب النملة في الليلة الظلماء على الصخرة الصماء، وكل سميع غيره يصم عن لطيف الأصوات ويصمه كبيرها ويذهب عنه ما بعد منها، كما قال أمير المؤمنين علي المرتضى كرم الله وجهه: وهو المحيط علمه بكل شيء (يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور) (٤٠ : ١٩) وإذا كان كذلك فلا يمكن أن تدق عن سمعه دعوة داع أو تعزب عن علمه حاجة محتاج، حتى يخبره بها الأولياء، أو يقنعه بها الشفعاء (يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء) (٢: ٢٥٥) .بعد كتابة ما تقدم راجعت التفسير الكبير فإذا فيه من نكت البلاغة في الآية ما نقله." (٢)

---

(١) تفسير المنار محمد رشيد رضا ٣٦٦/٤

(٢) تفسير المنار محمد رشيد رضا ٢٧٥/٧

"حينئذ أظهر، وجاء في الأثر «النظر سهم مسموم من سهام إبليس» وقال الشاعر:والمرء مادام ذاعين يقلبها ... فى أعين العين موقوف على الخطريسر مقلته ما ساء مهجته ... لا مرحبا بانتفاع جاء بالضررولما ذكر ما ينبغى من الآداب حين دخول بيت الرسول أكده بما يحملهم على ملاطفته وحسن معاملته بقوله:(وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله) أي وما كان ينبغى لكم أن تفعلوا فى حياته صلى الله عليه وسلم فعلا يتأذى به ويكرهه كاللبث والاستئناس للحديث الذي كنتم تفعلونه، فإن الرسول يسعى لخيركم ومنفعتكم في دنياكم وآخرتكم، فعليكم أن تقابلوا بالحسنى كفاء جليل أعماله.ولما كان صلى الله عليه وسلم قد قصر عليهن قصرهن الله عليه بقوله:(ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبدا) أي ولا تنكحوا أزواجه أبدا من بعد مفارقتهن بموت أو طلاق، زيادة في شرفه، وإظهارا لعظمته وجلاله، ولأنهن أمهات المؤمنين، والمرء لا يتزوج أمه.ثم بين السبب فيما تقدم بقوله:(إن ذلكم كان عند الله عظيما) أي إن ذلك الإيذاء وزواج نسائه من بعده أمر عظيم، وخطب جلل، لا يقدر قدره غير الله تعالى.ولا يخفى ما في هذا من شديد الوعيد وعظيم التهديد على هذا العمل- إلى ما فيه من تعظيم شأن الرسول وإيجاب حرمته حيا وميتا.ثم بالغ في الوعيد وزاد في التهديد بقوله:(إن تبدوا شيئا أو تخفوه فإن الله كان بكل شيء عليما) أي إن ما تكنه ضمائركم، وتنطوى عليه سرائركم، فالله يعلمه، إذ لا تخفى عليه خافية «يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور» ثم يجازيكم بما صدر منكم من المعاصي البادية والخافية.والكلام وإن كان عاما بظاهره فالمقصود ما يتعلق بزوجاته عليه الصلاة والسلام.." (١)

"ما استوجبه من أجر عمله في الدنيا فينقص منه إن كان محسنا، ولا يحمل على مسيء إثم ذنب لم يعمله.روى مسلم عن أبي ذر رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يحكيه عن ربه «يا عبادى إنى حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا- إلى أن قال- يا عبادى إنما هى أعمالكم أحصيها عليكم، ثم أوفيكم إياها، فمن وجد خيرا فليحمد الله تبارك وتعالى، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه» .ثم بين سبحانه أنه يصل إلى الخلق في ذلك اليوم ما يستحقون بلا إبطاء فقال:(إن الله سريع الحساب) أي إن الله سريع حسابه لعباده على أعمالهم التي عملوها في الدنيا، فيحاسب الخلائق كلهم كما يحاسب نفسا نفسا واحدة، لإحاطة علمه بكل شيء، فلا يعزب عنه مثقال ذرة.أخرج عبد بن حميد عن ابن مسعود قال: «يجمع الله الخلق كلهم يوم القيامة بصعيد واحد بأرض بيضاء كأنها سبيكة فضة لم يعص الله فيها قط، فأول ما يتكلم أن ينادى مناد لمن الملك اليوم- إلى قوله الحساب» .ونحو الآية قوله: «ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة» وقال:«وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر» .[سورة غافر (٤٠) : الآيات ١٨ الى ٢٠]وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع (١٨) يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور (١٩) والله يقضي بالحق والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء إن الله هو السميع البصير (٢٠)." (٢)

"ثم وصف سبحانه شمول علمه بكل شيء وإن كان في غاية الخفاء فقال:(يعلم خائنة الأعين) أي يعلم ربكم ما خانت أعين عباده وما نظرت به إلى ما لا يحل كما يفعل أهل الريب، قال ابن عباس في الآية: هى الرجل يكون في القوم

---

(١) تفسير المراغي المراغي، أحمد بن مصطفى ٣١/٢٢

(٢) تفسير المراغي المراغي، أحمد بن مصطفى ٥٥/٢٤

فتمر بهم المرأة فيريهم أنه يغض بصره عنها، وإذا غضوا نظر إليها، وإذا نظروا غض بصره عنها.وقد اطلع الله من قلبه أنه ود أن ينظر إلى عورتها، أخرجه ابن أبى شيبة وابن المنذر.(وما تخفي الصدور) أي لا يخفى عليه شيء من أمورهم حتى ما يحدثون به أنفسهم وتضمره قلوبهم.(والله يقضي بالحق) أي والله يحكم بالعدل في الذي خانته الأعين بنظرها، وأخفته الصدور من النوايا، فيجزى الذين أغمضوا أبصارهم وصرفوها عن محارمه حذار الموقف بين يديه بالحسنى، ويجزى الذين رددوا النظر، وعزمت قلوبهم على مواقعة الفواحش جزاءهم الذي أوعدهم به في دار الدنيا.(والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء) أي والأوثان والآلهة التي يعبدها هؤلاء المشركون من قومك- لا يقضون بشيء لأنهم لا يعلمون شيئا ولا يقدرون على شيء، فاعبدوا الذي يقدر على كل شيء، ولا يخفى عليه شيء.وغير خاف ما في هذا من التهكم بآلهتهم.(إن الله هو السميع البصير) أي إنه تعالى هو السميع لما تنطق به الألسنة، البصير بما تفعلون من الأفعال، وهو محيط بكل ذلك ومحصيه عليكم، فيجازيكم عليه جميعا يوم الجزاء.ولا يخفى ما في هذا من الوعيد لهم على ما يقولون ويفعلون، والتعريض بحال ما يدعون من دون الله.." (١)

"(وإن تبدوا ما في أنفسكم) إلى آخر الآية، إذ كتمان الشهادة داخل في عموم ما في النفس فالله يحاسب عليه، فإن شاء عفا عمن أجرم، وإن شاء عاقبه وهو القدير دون سواه على ذلك.الإيضاح(لله ما في السماوات وما في الأرض) أي كل ما فيها خلقا وملكا وتصرفا له لا شركة لغيره في شيء منهما فلا يعبد فيهما سواه، ولا يعصى فيما يأمر وينهى، وله أن يلزم من شاء بما شاء من التكاليف.(وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله) أي وإن تظهروا ما في قلوبكم من السوء والعزم عليه بالقول أو بالفعل، أو تكتموه عن الناس ولا تظهروه يجازكم الله به يوم القيامة، لأن الإبداء والإخفاء عنده سيان لأنه «يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور» فالمعول عليه في مرضاته تزكية النفوس وتطهير السرائر لا لوك اللسان، وحركات الأبدان.والمراد بقوله (ما في أنفسكم) الأشياء التي لها قرار في أنفسكم، وعنها تصدر أعمالكم كالحقد والحسد ونحوهما- ذاك أن الخواطر والهواجس قد تأتي بغير إرادة الإنسان ولا يكون لها أثر في نفسه ولا ينتج منها فعل يكون مترتبا عليها، لكنه إذا استرسل معها حسبت عليه عملا يجازى به، لأنه مشى معها قدما باختياره، وقد كان يستطيع مطاردتها وجهادها، فالمظلوم يذكر ظالمه فيشتغل فكره في دفع ظلمه والهرب من أذاه، وربما استرسل مع خواطره إلى أن تجره إلى تدبير الحيل للإيقاع به، ومقابلة ظلمه بما هو شر منه، فيكون مؤاخذا عليه أبداه أو أخفاه.وصفة الحسد تبعث في نفس الحاسد خواطر الانتقام من المحسود والسعي في إزالة نعمته، وهذه الخواطر مما يحاسب الحاسد عليها أبداها أو أخفاها- وهكذا يقال في كل أعمال القلب التي أمرنا الشارع بجهادها ومقاومتها، مما هو أثر لأخلاق وملكات وعزائم قوية تنشأ عنها أعمال هى آثار لها، إذا انتفت الموانع وتركت المجاهدة.." (٢)

"وبعد أن ذكر سبحانه تصرفه فى الخلق دقيقه وجليله كما يشاء كما هو شأن الربوبية الكاملة، ذكر أنه هو السميع العليم أي المحيط سمعه بكل ما من شأنه أن يسمع مهما يكن خفيا عن غيره، فهو يسمع دبيب النملة فى الليلة الظلماء،

---

(١) تفسير المراغي المراغي، أحمد بن مصطفى ٥٧/٢٤

(٢) تفسير المراغي المراغي، أحمد بن مصطفى ٨٠/٣

والمحيط علمه بكل شيء «يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور» .والخلاصة- إنه تعالى لا تدق عن سمعه دعوة داع، أو تعزب عن علمه حاجة محتاج، حتى يخبره بها الأولياء، أو يقنعه بها الشفعاء.وبعد هذا القول الذي أمر رسوله للتذكير بأنه المالك لكل شيء، والمدبر لكل شيء إذ هو سميع لكل شيء ولا يعزب عن علمه شيء- أمره هنا بقول آخر لازم لما سبق، وهو وجوب ولايته تعالى وجده والتوجه إليه دون سواه فى كل ما هو فوق كسب البشر، والاعتماد على توفيقه فيما هو من كسبهم فقال:(قل أغير الله أتخذ وليا؟) أي قل لهم: لا أطلب من غيره نفعا ولا ضرا، لا فعلا ولا منعا، فيما هو فوق كسبه وتصرفه الذي منحه الله لأبناء جنسه، أما تناصر المخلوقين وتولى بعضهم بعضا فيما هو من كسبهم العادي، فلا يدخل فى عموم الإنكار الذي يفهم من الآية، فقد أثنى الله على المؤمنين بأن بعضهم أولياء بعض.وقد كان المشركون من الوثنيين ومن طرأ عليهم الشرك من أهل الكتاب يتخذون معبوداتهم وأنبياءهم وصلحاءهم أولياء من دون الله، يتوجهون إليهم بالدعاء ويستغيثون بهم ويستشفعون بهم عند الله فى قضاء حاجاتهم من نصر على عدو وشفاء من مرض وسعة فى رزق إلى نحو أولئك.وهذا بلا شك عبادة وشرك بالله لاعتقادهم أن حصول المطلوب من غير أسبابه العادية قد كان بمجموع إرادة هؤلاء الأولياء وإرادة الله.ويلزم هذا أن إرادة الله ما تعلقت بفعل ذلك المطلب إلا تبعا لإرادة الولي الشافع أو المتخذ وليا وشفيعا.." (١)

"بالباطل ليدحضوا به الحق فأخذتهم فكيف كان عقاب (٥) وكذلك حقت كلمت ربك على الذين كفروا أنهم أصحاب النار (٦) الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلما فاغفر للذينتابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم (٧) ربنا وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم إنك أنت العزيز الحكيم (٨) وقهم السيئات ومن تق السيئات يومئذ فقد رحمته وذلك هو الفوز العظيم (٩) إن الذين كفروا ينادون لمقت الله أكبر من مقتكم أنفسكم إذ تدعون إلى الإيمان فتكفرون (١٠) قالوا ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين فاعترفنا بذنوبنا فهل إلى خروج من سبيل (١١) ذلكم بأنه إذا دعي الله وحده كفرتم وإن يشرك به تؤمنوا فالحكم لله العلي الكبير (١٢) هو الذي يريكم آياته وينزل لكم من السماء رزقا وما يتذكر إلا من ينيب (١٣) فادعوا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون (١٤) رفيع الدرجات ذو العرش يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده لينذر يوم التلاق (١٥) يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شيء لمن الملك اليوم لله الواحد القهار (١٦) اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب (١٧) وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع (١٨) يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور (١٩) والله يقضي بالحق والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء إن الله هو السميع البصير (٢٠) أو لم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم كانوا هم أشد منهم قوة وآثارا." (٢)

(١) تفسير المراغي المراغي، أحمد بن مصطفى ٨٨/٧

(٢) توفيق الرحمن في دروس القرآن فيصل المبارك ٦٧٤/٣

"عباده لينذر يوم التلاق (١٥) يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شيء لمن الملك اليوم لله الواحد القهار (١٦) اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب (١٧) وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع (١٨) يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور (١٩) والله يقضي بالحق والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء إن الله هو السميع البصير (٢٠) ﴾ .عن السدي: ﴿إلا من ينيب﴾ ، قال: من يقبل إلى طاعة الله.وقوله تعالى: ﴿رفيع الدرجات ذو العرش﴾ ، قال ابن كثير: يقول تعالى مخبرا عن عظمته وكبريائه وارتفاع عرشه العظيم العالي على جميع مخلوقاته كالسقف لها، كما قال تعالى: ﴿من الله ذي المعارج * تعرج الملائكة والروح إليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة﴾ . وعن قتادة قوله: ﴿يلقي الروح من أمره﴾ ، قال: الوحي، ﴿من أمره على من يشاء من عباده لينذر يوم التلاق﴾ ، قال: يوم تلتقي فيه أهل السماء وأهل الأرض، والخالق والخلق.وقال ابن زيد في قوله: ﴿وأنذرهم يوم الآزفة﴾ ، قال: يوم القيامة، وقرأ: ﴿أزفت الآزفة ليس لها من دون الله كاشفة﴾ .﴿إذ القلوب لدى الحناجر﴾ ، قال قتادة: قد وقعت القلوب في الحناجر من المخالفة، فلا هي تخرج ولا تعود إلى أمكنتها. وعن السدي: ﴿إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين﴾ ، قال: شخصت أفئدتهم عن أمكنتها، فنشبت في حلوقهم فلم تخرج من أجوافهم فيموتوا، ولم ترجع إلى أمكنتها فتستقر. ﴿ما للظالمين من حميم ولا شفيع﴾ ، قال: من يعنيه أمرهم ولا شفيع لهم.." (١)

"وقال ابن كثير: وقوله سبحانه وتعالى: ﴿ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع﴾ أي: ليس للذين ظلموا أنفسهم بالشرك بالله من قريب منهم ينفعهم، ولا شفيع يشفع فيهم، بل قد تقطعت بهم الأسباب من كل خير. وعن سعيد بن جبير عن ابن عباس: ﴿يعلم خائنة الأعين﴾ ، إذا نظر تإليها – يريد الخيانة – أم لا، ﴿وما تخفي الصدور﴾ ، إذا قدرت عليها – أتزني بها – أم لا.وقوله تعالى: ﴿والله يقضي بالحق﴾ أي: بالعدل، ﴿والذين يدعون من دونه﴾ ، من الأصنام، والأوثان، والأنداد، ﴿لا يقضون بشيء﴾ ، أي: لا يملكون شيئا ولا يحكمون بشيء، ﴿إن الله هو السميع البصير﴾ .قوله عز وجل: ﴿أو لم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم كانوا هم أشد منهم قوة وآثارا في الأرض فأخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق (٢١) ذلك بأنهم كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فكفروا فأخذهم الله إنه قوي شديد العقاب (٢٢) ﴾ .عن قتادة: ﴿وما كان لهم من الله من واق﴾ ، يقيهم ولا ينفعهم.* * *." (٢)

"ومماليكه، لا يخرج أحد منهم عن هذا الوصف اللازم؛ فهو المالك لجميع الممالك، وهو الذي اتصف بصفات الملك الكامل، والتصرف التام النافذ، والسلطان والكبرياء.ومن تمام ملكه أنه لا يشفع عنده أحد إلا بإذنه؛ فكل الوجهاء والشفعاء عبيد له، مماليك لا يقدمون على الشفاعة لأحد حتى يأذن لهم: ﴿قل لله الشفاعة جميعا له ملك السماوات والأرض﴾ [الزمر: ٤٤]ولا يشفعون إلا لمن ارتضاه الله، ولا يرضى إلا عمن قام بتوحيده واتباع رسله، فمن لم يتصف بهذا فليس له في الشفاعة نصيب، وأسعد الناس بشفاعة محمد صلى الله عليه وسلم من قال: «لا إله إلا الله خالصا من قلبه» .ثم أخبر عن علمه الواسع المحيط، وأنه يعلم ما بين أيدي الخلائق من الأمور المستقبلة التي لا نهاية لها ﴿وما خلفهم﴾ [البقرة: ٢٥٥]

---

(١) توفيق الرحمن في دروس القرآن فيصل المبارك ٣/٦٧٩

(٢) توفيق الرحمن في دروس القرآن فيصل المبارك ٣/٦٨٠

من الأمور الماضية التي لا حد لها، وأنه لا تخفى عليه خافية، يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، ﴿وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين﴾ [الأنعام: ٥٩] وأن الخلق لا يحيط أحد منهم بشيء من علم الله، ولا معلوماته إلا بما شاء منهما، وهو ما أطلعهم عليه من الأمور الشرعية والقدرية، وهو جزء يسير جدا بالنسبة إلى علم الباري، تضمحل العلوم كلها في علم الباري ومعلوماته، كما قال أعلم المخلوقات، وهم الرسل والملائكة: ﴿سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا﴾ [البقرة: ٣٢]ثم أخبر عن عظمته وجلاله، وأن كرسيه وسع السماوات والأرض، وأنه قد حفظهما بما فيهما من العوالم بالأسباب والنظامات التي جعلها." (١)

"﴿١٨٦﴾ ﴿وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون﴾ .هذا جواب سؤال، سأل النبي صلى الله عليه وسلم بعض أصحابه فقالوا: يا رسول الله، أقريب ربنا فنناجيه، أم بعيد فنناديه؟ فنزل: ﴿وإذا سألك عبادي عني فإني قريب﴾ لأنه تعالى، الرقيب الشهيد، المطلع على السر وأخفى، يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، فهو قريب أيضا من داعيه، بالإجابة، ولهذا قال: ﴿أجيب دعوة الداع إذا دعان﴾ والدعاء نوعان: دعاء عبادة، ودعاء مسألة.والقرب نوعان: قرب بعلمه من كل خلقه، وقرب من عابديه وداعيه بالإجابة والمعونة والتوفيق.فمن دعا ربه بقلب حاضر، ودعاء مشروع، ولم يمنع مانع من إجابة الدعاء، كأكل الحرام ونحوه، فإن الله قد وعده بالإجابة، وخصوصا إذا أتى بأسباب إجابة الدعاء، وهي الاستجابة لله تعالى بالانقياد لأوامره ونواهيه القولية والفعلية، والإيمان به، الموجب للاستجابة، فلهذا قال: ﴿فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون﴾ أي: يحصل لهم الرشد الذي هو الهداية للإيمان والأعمال الصالحة، ويزول عنهم الغي المنافي للإيمان والأعمال الصالحة. ولأن الإيمان بالله والاستجابة لأمره، سبب لحصول العلم كما قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانا﴾ .." (٢)

"﴿١٨ - ٢٠﴾ ﴿وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع * يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور * والله يقضي بالحق والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء إن الله هو السميع البصير﴾ .يقول تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: ﴿وأنذرهم يوم الآزفة﴾ أي: يوم القيامة التي قد أزفت وقربت، وآن الوصول إلى أهوالها وقلاقلها وزلازلها، ﴿إذ القلوب لدى الحناجر﴾ أي: قد ارتفعت وبقيت أفئدتهم هواء، ووصلت القلوب من الروع والكرب إلى الحناجر، شاخصة أبصارهم. ﴿كاظمين﴾ لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا وكاظمين على ما في قلوبهم من الروع الشديد والمزعجات الهائلة.﴿ما للظالمين من حميم﴾ أي: قريب ولا صاحب، ﴿ولا شفيع يطاع﴾ لأن الشفعاء لا يشفعون في الظالم نفسه بالشرك، ولو قدرت شفاعتهم، فالله تعالى لا يرضى شفاعتهم، فلا يقبلها.﴿يعلم خائنة الأعين﴾ وهو النظر الذي يخفيه العبد من جليسه ومقارنه، وهو نظر المسارقة، ﴿وما تخفي الصدور﴾ مما لم يبينه العبد لغيره، فالله تعالى يعلم ذلك الخفي، فغيره من الأمور الظاهرة من باب أولى وأحرى.﴿والله يقضي بالحق﴾

---

(١) تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن عبد الرحمن السعدي ١٨/١

(٢) تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن عبد الرحمن السعدي ص/٨٧

لأن قوله حق، وحكمه الشرعي حق، وحكمه الجزائي حق وهو المحيط علما وكتابة وحفظا بجميع الأشياء، وهو المنزه عن الظلم والنقص وسائر العيوب، وهو الذي يقضي قضاءه القدري، الذي إذا شاء شيئا كان وما لم يشأ لم يكن، وهو الذي يقضي بين عباده المؤمنين والكافرين في الدنيا، ويفصل بينهم بفتح ينصر به أولياءه وأحبابه.﴿والذين يدعون من دونه﴾ وهذا شامل لكل ما عبد من دون الله ﴿لا يقضون بشيء﴾ لعجزهم وعدم إرادتهم للخير واستطاعتهم لفعله. ﴿إن الله هو السميع﴾ لجميع الأصوات، باختلاف اللغات، على تفنن الحاجات. ﴿البصير﴾ (١) بما كان وما يكون، وما نبصر وما لا نبصر، وما يعلم العباد وما لا يعلمون.قال في أول هاتين الآيتين ﴿وأنذرهم يوم الآزفة﴾ ثم وصفها بهذه الأوصاف المقتضية للاستعداد لذلك اليوم العظيم، لاشتمالها على الترغيب والترهيب.______________(١) في النسختين (العليم) وهو خطأ فالوارد في الآية: (البصير) .." (١)

"﴿لا تأخذه سنة﴾ أي: نعاس ﴿ولا نوم﴾ ؛ لأن السنة والنوم، إنما يعرضان للمخلوق، الذي يعتريه الضعف، والعجز، والانحلال، ولا يعرضان لذي العظمة والكبرياء والجلال.وأخبر أنه مالك جميع ما في السماوات والأرض فكلهم عبيد لله مماليك، لا يخرج أحد منهم عن هذا الطور، ﴿إن كل من في السماوات والأرض إلا آتي الرحمن عبدا﴾ فهو المالك لجميع الممالك، وهو الذي له صفات الملك والتصرف، والسلطان، والكبرياء.ومن تمام ملكه أنه لا ﴿يشفع عنده﴾ أحد ﴿إلا بإذنه﴾ فكل الوجهاء والشفعاء عبيد له مماليك، لا يقدمون على شفاعة حتى يأذن لهم. ﴿قل لله الشفاعة جميعا له ملك السماوات والأرض﴾ والله لا يأذن لأحد أن يشفع إلا فيمن ارتضى، ولا يرتضي إلا توحيده، واتباع رسله، فمن لم يتصف بهذا، فليس له في الشفاعة نصيب.ثم أخبر عن علمه الواسع المحيط، وأنه يعلم ما بين أيدي الخلائق، من الأمور المستقبلة، التي لا نهاية لها ﴿وما خلفهم﴾ من الأمور الماضية التي لا حد لها، وأنه لا تخفى عليه خافية ﴿يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور﴾وأن الخلق لا يحيط أحد بشيء من علم الله ومعلوماته ﴿إلا بما شاء﴾ منها وهو ما أطلعهم عليه من الأمور الشرعية والقدرية، وهو جزء يسير جدا مضمحل في علوم الباري ومعلوماته، كما قال أعلم الخلق به، وهم الرسل والملائكة: ﴿سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا﴾ثم أخبر عن عظمته وجلاله، وأن كرسيه، وسع السماوات والأرض، وأنه قد حفظهما ومن فيهما من العوالم بالأسباب والنظامات، التي جعلها الله في المخلوقات.ومع ذلك ف ﴿لا يئوده﴾ أي: يثقله حفظهما، لكمال عظمته، واقتداره، وسعة حكمته في أحكامه.﴿وهو العلي﴾ بذاته، على جميع مخلوقاته، وهو العلي بعظمة صفاته، وهو العلي الذي قهر المخلوقات، ودانت له الموجودات، وخضعت له الصعاب، وذلت له الرقاب.﴿العظيم﴾ الجامع، لجميع صفات العظمة والكبرياء، والمجد والبهاء، الذي تحبه القلوب، وتعظمه الأرواح، ويعرف العارفون أن عظمة كل شيء، وإن جلت عن الصفة، فإنها مضمحلة في جانب عظمة العلي العظيم.فآية احتوت على هذه المعاني التي هي أجل المعاني، يحق أن تكون أعظم آيات القرآن، ويحق لمن قرأها، متدبرا متفهما، أن يمتلئ قلبه من اليقين والعرفان والإيمان، وأن يكون محفوظا بذلك من شرور الشيطان.﴿٢٥٦﴾ ﴿لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم﴾ هذا بيان لكمال هذا الدين الإسلامي، وأنه

---

(١) تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن عبد الرحمن السعدي ص/٧٣٥

لكمال براهينه، واتضاح آياته، وكونه هو دين العقل والعلم، ودين الفطرة والحكمة، ودين الصلاح والإصلاح، ودين الحق والرشد، فلكماله وقبول الفطرة له، لا يحتاج إلى الإكراه عليه؛ لأن الإكراه إنما يقع على ما تنفر عنه القلوب، ويتنافى مع الحقيقة والحق، أو لما تخفى براهينه وآياته، وإلا فمن جاءه هذا الدين، ورده ولم يقبله، فإنه لعناده.فإنه قد تبين الرشد من الغي، فلم يبق لأحد عذر ولا حجة، إذا رده ولم يقبله، ولا منافاة بين هذا المعنى، وبين الآيات الكثيرة الموجبة للجهاد، فإن الله أمر بالقتال ليكون الدين كله لله، ولدفع اعتداء المعتدين على الدين.وأجمع المسلمون على أن الجهاد ماض مع البر والفاجر، وأنه من الفروض المستمرة الجهاد القولي والجهاد الفعلي.فمن ظن من المفسرين أن هذه الآية تنافي آيات الجهاد، فجزم بأنها منسوخة فقوله ضعيف، لفظا ومعنى، كما هو واضح بين لمن تدبر الآية الكريمة، كما نبهنا عليه.ثم ذكر الله انقسام الناس إلى قسمين: قسم آمن بالله وحده لا شريك له، وكفر بالطاغوت- وهو كل ما ينافي الإيمان بالله من الشرك وغيره-، فهذا قد استمسك بالعروة الوثقى، التي لا انفصام لها، بل هو مستقيم على الدين الصحيح، حتى يصل به إلى الله؛ وإلى دار كرامته.ويؤخذ القسم الثاني من مفهوم الآية، أن من لم يؤمن بالله، بل كفر به، وآمن بالطاغوت، فإنه هالك هلاكا أبديا، ومعذب عذابا سرمديا.وقوله: ﴿والله سميع﴾ أي: لجميع الأصوات، باختلاف اللغات، على تفنن الحاجات، وسميع لدعاء الداعين، وخضوع المتضرعين.﴿عليم﴾ بما أكنته الصدور، وما خفي من خفايا الأمور، فيجازي كل أحد بحسب ما يعلمه، من نياته وعمله.﴿٢٥٧﴾ ﴿الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾ هذه الآية مترتبة على الآية التي قبلها، فالسابقة هي الأساس، وهذه هي الثمرة.فأخبر تعالى أن الذين آمنوا بالله، وصدقوا إيمانهم، بالقيام بواجبات الإيمان، وترك كل ما ينافيه، أنه وليهم، يتولاهم بولايته الخاصة، ويتولى تربيتهم، فيخرجهم من ظلمات الجهل والكفر والمعاصي والغفلة والإعراض، إلى نور العلم واليقين والإيمان، والطاعة والإقبال الكامل على ربهم، وينور قلوبهم بما يقذفه فيها من نور الوحي والإيمان، وييسرهم لليسرى، ويجنبهم العسرى.وأما الذين كفروا، فإنهم لما تولوا غير وليهم، ولاهم الله ما تولوا لأنفسهم، وخذلهم، ووكلهم إلى رعاية من تولاهم، ممن ليس عنده نفع ولا ضر، فأضلوهم وأشقوهم، وحرموهم هداية العلم النافع والعمل الصالح وحرموهم السعادة، وصارت النار مثواهم، خالدين فيها مخلدين.اللهم تولنا فيمن توليت.﴿٢٥٨﴾ ﴿ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم في ربه أن آتاه الله الملك إذ قال إبراهيم ربي الذي يحيي ويميت قال أنا أحيي وأميت قال إبراهيم فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذي كفر والله لا يهدي القوم الظالمين﴾ يقص الله علينا من أنباء الرسل والسالفين، ما به تتبين الحقائق، وتقوم البراهين المتنوعة على التوحيد.." (١)

"[سورة غافر (٤٠) : الآيات ١٨ الى ٢٠]وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع (١٨) يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور (١٩) والله يقضي بالحق والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء إن الله هو السميع البصير (٢٠)الإعراب:(الواو) استئنافية (يوم) مفعول به ثان منصوب (إذ) ظرف في محل نصب بدل من يوم (لدى) ظرف مبني في محل نصب متعلق بمحذوف خبر المبتدأ القلوب (كاظمين) حال من القلوب

---

(١) تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن عبد الرحمن السعدي ص/٩٥٤

«١» ، (ما) نافية مهملة (للظالمين) متعلق بخبر مقدم للمبتدأ (حميم) وهو مجرور لفظا مرفوع محلا (الواو) عاطفة (لا) زائدة لتأكيد النفي (شفيع) معطوف على حميم لفظا، وفاعل (يعلم) ضمير مستتر يعود على الله (ما) موصول في محل نصب معطوف على خائنة.جملة: «أنذرهم..» لا محل لها استئنافية.وجملة: «القلوب لدى الحناجر ... » في محل جر مضاف إليه.وجملة: «ما للظالمين من حميم ... » في محل نصب حال من يوم الآزفة والرابط مقدر أي فيه «٢» .وجملة: «يطاع ... » في محل جر- أو رفع- نعت لشفيع.وجملة: «يعلم ... » لا محل لها تعليلية.وجملة: «تخفي الصدور..» لا محل لها صلة الموصول (ما) .(٢٠) (الواو) استئنافية (بالحق) متعلق ب (يقضي) ، (الواو) عاطفة (من دونه) متعلق بحال من العائد المحذوف أي يدعونهم من دونه (لا) نافية______________(١) جمع بالياء والنون معاملة أصحاب القلوب.(٢) أو لا محل لها استئناف بياني.." [(١)]

"جملة: «ما أصابكم ... » لا محل لها استئنافية.وجملة: «أصابكم ... » لا محل لها صلة الموصول (ما) .وجملة: « (هو) بإذن الله» في محل رفع خبر المبتدأ (ما) .وجملة: «يعلم..» لا محل لها صلة الموصول الحرفي (أن) .وجملة: «التقى الجمعان» في محل جر مضاف إليه.الفوائد١- «فبإذن الله» توحي هذه الفاء أنها رابطة للجواب، ويعترض على ذلك بقول القائل: لا جواب إلا للشرط، ولا شرط في هذه الآية، لكننا نرد هذا الاعتراض بأن قوله تعالى: «وما أصابكم يوم التقى الجمعان» بأن «ما» وإن كانت أدنى إلى الموصولية، فإنها مشربة روح الشرط ومشابهة له، ولذلك كان من المستساغ مجيء الفاء في جوابها وبذلك يتقرر أن الفاء رابطة للجواب.٢- قوله تعالى: «يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم» دليل قاطع على أن الحديث نوعان، حديث اللسان، وحديث القلب وأن المنافق دائما وأبدا يبدي ما لا يخفي ويقول القول في لسانه وهو يعلم زور هذا القول وبهتانه وأنه مغاير كل المغايرة لما يضمر في قلبه، ولو آمن لعلم أن الله يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور.[سورة آل عمران (٣) : آية ١٦٧]وليعلم الذين نافقوا وقيل لهم تعالوا قاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا قالوا لو نعلم قتالا لاتبعناكم هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم والله أعلم بما يكتمون (١٦٧)الإعراب:(الواو) عاطفة (ليعلم) مثل المتقدم في الآية السابقة.والمصدر المؤول مجرور باللام ومتعلق بما تعلق به المصدر المؤول السابق لأنه معطوف عليه.." [(٢)]

"الآيات: (١٣- ٢٠) [سورة غافر (٤٠) : الآيات ١٣ الى ٢٠]هو الذي يريكم آياته وينزل لكم من السماء رزقا وما يتذكر إلا من ينيب (١٣) فادعوا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون (١٤) رفيع الدرجات ذو العرش يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده لينذر يوم التلاق (١٥) يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شيء لمن الملك اليوم لله الواحد القهار (١٦) اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب (١٧)وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع (١٨) يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور (١٩) والله يقضي بالحق والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء إن الله هو السميع البصير (٢٠)التفسير:قوله تعالى:«هو الذي يريكم آياته

---

(١) الجدول في إعراب القرآن محمود صافي ٢٤/٢٣٣

(٢) الجدول في إعراب القرآن محمود صافي ٤/٣٦٥

وينزل لكم من السماء رزقا وما يتذكر إلا من ينيب» ..هو لقاء مع الناس، بهذا العرض الكاشف لقدرة الله، وتفرده بالخلق والأمر، بعد أن شهدوا صورا من مشاهد القيامة، وما يلقى المؤمنون من إحسان ورضوان، وما يلقى الكافرون من خزى وعذاب.. فمن كان من المؤمنين ازداد بهذا اللقاء إيمانا، وتمسكا بما هو فيه، من طاعة وهدى، ومن كان من أهل الكفر والضلال، فليطلب لنفسه النجاة والسلامة، وليعد إلى الله من." (١)

"«إذ» ، ظرف.. بدل من يوم الآزفة.. والحناجر: جمع حنجرة، وهى الغلصمة فى أعلى الزور، والكاظم: المأخوذ من كظمه، أي من مخنقه.. يقال كظم القربة أي ربط فمها، ومنه كظم الغيظ: أي حبسه فى الصدر.والمعنى: وأنذر الناس- أيها النبي- وحذرهم يوم القيامة وقد أزف، وهو يوم عظيم، تختنق فيه الأنفاس، وتضيق الصدور، وتجف القلوب وتضطرب، حتى لتبلغ القلوب الحناجر فى خفقها واضطرابها..وقوله «كاظمين» حال من أصحاب القلوب.وقوله تعالى: «ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع» .. أي ليس للظالمين فى هذا اليوم العظيم، من صاحب أو صديق يعين، أو من شفيع تقبل شفاعته فيهم..قوله تعالى:«يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور.. والله يقضي بالحق والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء.. إن الله هو السميع البصير» .خائنة الأعين: أي نظرة العين تكون عن خلسة، لا يراها الناس، ولا يعلم بها المنظور إليه.وقوله تعالى: «يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور» هو تعليل لما فى الآية السابقة من وعيد للظالمين الذين أنذروا بيوم القيامة، وما فيه من أهوال، وأن الذي سيحاسبهم هناك هو الله سبحانه، الذي يعلم ما يبدون وما يكتمون، لا تخفى عليهم منهم خافية، ولا يرد عنهم بأسه أحد، ولا تقبل فيهم عنده شفاعة من أحد..وقوله تعالى: «والله يقضي بالحق» أي أنه سبحانه- مع بأسه، وسلطانه." (٢)

"لا يقل فى نظر الشريعة نكرا عن الأمر الأول، لأن فى هذا عدوانا على حق الله، وتعطيلا لحدوده! وقوله تعالى:«يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله وهو معهم إذ يبيتون ما لا يرضى من القول»هو تهديد ووعيد لهؤلاء الذين يدبرون السوء، ويؤامرون أنفسهم وأصحابهم على المنكر، فى خفاء، وحذر، بعيدا عن أعين الناس، حتى لا ينكشف أمرهم، وينفضح حالهم، ويفسد تدبيرهم..ولكن أين يذهب هؤلاء الذين أخفوا مكرهم السيء عن الناس؟ إنهم إن استخفوا من الناس فلن يستخفوا من الله، الذي لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء.. فهو- سبحانه- «يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور» ..وهو سبحانه: «معهم إذ يبيتون ما لا يرضى من القول»! إنهم فى سكرة يعمهون.. يحسبون أنهم- وقد استخفوا عن الناس- قد غاب أمرهم عن الله، وأنهم وقد أفلتوا من يد الناس- لن تمسك بهم يد الله! وكلا، فإن عين الله لا تغفل، وإن ما بيتوه من سوء قد سجله الله عليهم، وسيأخذهم به.. «وكان الله بما يعملون محيطا» .وقوله تعالى: «ها أنتم هؤلاء جادلتم عنهم في الحياة الدنيا فمن يجادل الله عنهم يوم القيامة أم من يكون عليهم وكيلا»هو استدعاء لأولئك

---

(١) التفسير القرآني للقرآن عبد الكريم يونس الخطيب ١٢/١٢١٣

(٢) التفسير القرآني للقرآن عبد الكريم يونس الخطيب ١٢/١٢١٧

الذين يتولون الظالمين، ويمكنون لهم من إمضاء مكرهم السيء، وتغطية ما ينكشف عنه، وذلك بالدفاع عنهم، وتبرير أعمالهم المنكرة، والتماس التأويلات الكاذبة لها..." (١)

"قول العجاج:ورب أسراب حجيج كظم ... عن اللغا ورفث التكلمويرجع إلى هذا القول معنى قول من قال: كاظمين أي: لا يتكلمون إلا من أذن له الله، وقال الصواب، كما قال تعالى: لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا [٧٨ \ ٣٨] .وقوله: كاظمين حال من أصحاب القلوب على المعنى. والتقدير: إذ القلوب لدى الحناجر، أي: إذ قلوبهم لدى حناجرهم في حال كونهم كاظمين، أي: ممتلئين خوفا وغما وحزنا، ولا يبعد أن يكون حالا من نفس القلوب ؛ لأنها وصفت بالكظم الذي هو صفة أصحابها.ونظير ذلك في القرآن: إني رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين [١٢ \ ٤] فإنه أطلق في هذه الآية الكريمة، على الكواكب والشمس والقمر صفة العقلاء في قوله تعالى: رأيتهم لي ساجدين، والمسوغ لذلك وصفه الكواكب والشمس والقمر بصفة العقلاء التي هي السجود.ونظير ذلك أيضا قوله تعالى: إن نشأ ننزل عليهم من السماء آية فظلت أعناقهم لها خاضعين [٢٦ \ ٤] وقوله تعالى: قالتا أتينا طائعين [٤١ \ ١١] .قوله تعالى: ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع. قد قدمنا الكلام عليه في سورة البقرة وسورة الأعراف، وأحلنا عليه مرارا.قوله تعالى: يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور. قد قدمنا الكلام على ما يماثله من الآيات في أول سورة هود وفي غيرها وأحلنا عليه أيضا مرارا.قوله تعالى: ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين إلى فرعون وهامان وقارون فقالوا ساحر كذاب. ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة، أنه أرسل نبيه موسى عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام، بآياته وحججه الواضحة كالعصا واليد البيضاء إلى فرعون وهامان وقارون." (٢)

"الناس، ولا يخشون الله: فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين [٩ \ ١٣] .وإفراد الله بالخشية منزلة الأنبياء، كما في قوله: الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحدا إلا الله وكفى بالله حسيبا [٣٣ \ ٣٩] .قال الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه: والعرب تمدح من يكون في خلوته كمشهده مع الناس.ومنه قول مسلم بن الوليد:يتجنب الهفوات في خلواته عف السريرة غيبه كالمشهدوالواقع أن هذه الصفة، وهي خشية الله بالغيب والإيمان بالغيب أساس عمل المسلم كله، ومعاملاته ؛ لأنه بإيمانه بالغيب سيعمل كل خير طمعا في ثواب الله، كما في مستهل المصحف: الم ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب الآية [٢ \ ١ - ٣] .وبمخافة الله بالغيب سيتجنب كل سوء، فيسلم ويتحصل له ما قال الله تعالى عنهم: مغفرة وأجر عظيم [٥ \ ٩] ، (مغفرة) من ذنوبه: وأجر عظيم على أعماله. رزقنا الله خشيته في السر والعلن.وليعلم أن المراد بالغيب مما هو من جانب العبد لا سيده، كما في الحديث في الإحسان: «أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك» ، وهذا الإحساس هو أقوى عامل على اكتساب خشية الله سبحانه.قوله تعالى: وأسروا قولكم أو اجهروا به إنه عليم بذات الصدور.فيه دلالة على أن السر والجهر عند الله وفي علم الله على حد سواء ؛ لأنه عليم بذات الصدور يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور.وقوله تعالى: سواء منكم من أسر القول ومن جهر به [١٣:

(١) التفسير القرآني للقرآن عبد الكريم يونس الخطيب ٨٩١/٣

(٢) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن الشنقيطي، محمد الأمين ٣٨٢/٦

\ ١٠] .وقوله: وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى [٢٠ \ ٧] .وتقدم للشيخ عند كل من الآيتين بيان هذه الآية.." (١)

"وقد تقدم قوله تعالى: قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله الآية [٥٨ \ ١] .وقوله تعالى: ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه [٥٠ \ ١٦] .وتقدم في سورة «التحريم» قبل هذه السورة مباشرة قوله تعالى: وإذ أسر النبي إلى بعض أزواجه حديثا فلما نبأت به وأظهره الله عليه الآية [٦٦ \ ٣] ، ففيه بيان عملي مشاهد بأنه تعالى يعلم السر وأخفى، ولذا قال تعالى هنا:ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير.كما قال في سورة «التحريم» : قالت من أنبأك هذا قال نبأني العليم الخبير [٦٦ \ ٣] .وقال القرطبي نقلا عن أبي إسحاق الإسفرائيني: من أسماء صفات الذات ما هو للعلم منها العليم، ومعناه تفهيم جميع المعلومات، ومنها: الخبير، ويختص بأن يعلم ما يكون قبل أن يكون، ومنها: الحكيم ويختص بأنه يعلم دقائق الأوصاف، ومنها: الشهيد ويختص بأن يعلم الغائب والحاضر، ومعناه ألا يغيب عنه شيء. ومنها: الحافظ ويختص بأنه لا ينسى، ومنها: المحصي ويختص بأنه لا تشغله الكثرة عن العلم مثل ضوء النهار واشتداد الريح وتساقط الأوراق، فيعلم عند ذلك أجزاء الحركات في كل ورقة، وكيف لا يعلم وهو الذي يخلق وقد قال: ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير، (ومن) في قوله تعالى: ألا يعلم من خلق، أجازوا فيها أن تكون فاعل (يعلم) ، وهو الله تعالى، أي: إن الذي خلق يعلم ما خلق ومنه ما في الصدور.وأجازوا أن تكون مفعولا والفاعل ضمير مستتر في الفعل (يعلم) ، ذكرهما القرطبي وأبو حيان، وهو واضح ومحتمل.ولكن الذي تشهد له النصوص أنها مفعول كما في قوله: إنه بكل شيء عليم [٤٢ \ ١٢] : يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور [٤٠ \ ١٩] .وقوله: والله خلقكم وما تعملون [٣٧ \ ٩٦] ، ومن أعمالهم ما يسرون، وما يجهرون. والعلم عند الله تعالى.قوله تعالى: هو الذي جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور.." (٢)

"خائنة الأعين وما تخفي الصدور، فإذا أعوز المدعي شاهدا حلف مع الشاهد كأنه قال: أستشهد بالله الذي يعلم مني صدق دعواي.وكذلك المدعى عليه، إذا عجز المدعي عن البينة وكانت الدعوى متوجهة، ومما يشبه، كما يقول المالكية: فإن المدعى عليه يقول: لدي البينة والشهادة على عدم ثبوت ما ادعى به علي، ألا وهو خير الشاهدين.من هو أكبر شهادة مما عجز عنها المدعي ألا وهو الاستشهاد بالله تعالى، فيحلف على براءة ذمته مما ادعى به عليه.تنبيه.ومن هنا يعلم حقيقة قوله – صلى الله عليه وسلم -: «من حلف بغير الله فقد أشرك» أي ؛ لأن الحالف يقيم المحلوف به مقام الشهود الذين رأوا أو سمعوا، والمخلوق إذا كان غائبا لا يرى ولا يسمع، فإذا حلف به كان قد أعطاه صفات من يرى ويسمع، والحال أنه بخلاف ذلك، ومن ناحية أخرى الحالف والمستحلف بالله يعلمان أن الله تعالى قادر على أن ينتقم من صاحب اليمين الغموس، وغير الله إذا ما حلف به لا يقوى ولا يقدر على شيء من ذلك. والعلم عند الله تعالى.قوله تعالى: فما للذين كفروا قبلك مهطعين عن اليمين وعن الشمال عزين«مهطعين» : أي مسرعين نافرين، «وعزين» جمع عزة، وهم

---

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن الشنقيطي، محمد الأمين ٢٣٦/٨

(٢) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن الشنقيطي، محمد الأمين ٢٣٧/٨

الجماعة، أي: ما بال أولئك الكفار المنصرفين عنك متفرقين، وعليه قول الكميت:ونحن وجندل با غ تركنا ... كتائب جندل شتى عزينوكذلك هنا فهم متفرقون عنه - صلى الله عليه وسلم - جماعات من كل جهة عن اليمين وعن الشمال. تفرقت بهم الأهواء، وأخذتهم الحيرة، كقوله تعالى: فما لهم عن التذكرة معرضين كأنهم حمر مستنفرة فرت من قسورة [٧٤ \ ٤٩ - ٥١] .ونقل ابن كثير عن أحمد - رحمه الله - في أهل الأهواء، فهم مخالفون للكتاب، مختلفون، متفقون على مخالفة الكتاب.قوله تعالى: إنا خلقناهم مما يعلمون." (١)

"خالصا أو مشوبا بشيء من التأمل في مفاسده، وتلك مراتب لا يحيط بها إلا الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور.[٥][سورة النمل (٢٧) : آية ٥]أولئك الذين لهم سوء العذاب وهم في الآخرة هم الأخسرون (٥)قصد باسم الإشارة زيادة تمييزهم فضحا لسوء حالهم مع ما ينبه إليه اسم الإشارة في مثل هذا المقام من أن استحقاقهم ما يخبر به عنهم ناشيء عما تقدم اسم الإشارة كما في أولئك على هدى من ربهم في سورة البقرة [٥] .وعزز ما نبه عليه باسم الإشارة فأعقب باسم الموصول وصلته لما فيه من الإيماء إلى وجه بناء الخبر.وجيء بلام الاختصاص للإشارة إلى أنهم في حالتهم هذه قد هيىء لهم سوء العذاب. والظاهر أن المراد به عذاب الدنيا وهو عذاب السيف وخزي الغلب يوم بدر وما بعده بقرينة عطف: وهم في الآخرة هم الأخسرون.ففي الآية إشارة إلى جزاءين: جزاء في الدنيا معدود لهم يستحقونه بكفرهم، فهم ما داموا كافرين متهيئون للوقوع في ذلك العذاب إن جاء إبانه وهم على الكفر.وجزاء في الآخرة ينال من صار إلى الآخرة وهو كافر، وهذا المصير يسمى بالموافاة عند الأشعري.ولكون نوال العذاب الأول إياهم قابلا للتفصي منه بالإيمان قبيل حلوله بهم جيء في جانبه بلام الاختصاص المفيدة كونه مهيأ تهيئة، أما أصالة جزاء الآخرة إياهم فلا مندوحة لهم عنه إن جاؤوا يوم القيامة بكفرهم.فالضمائر في قوله لهم وقوله: وهم في الآخرة هم عائدة إلى الذين لا يؤمنون بالآخرة [النمل: ٤] بمراعاة ذلك العنوان الذي أفادته الصلة فلا دلالة في الضمير على أشخاص معينين ولكن على موصوفين بمضمون الصلة فمن تنقشع عنه." (٢)

"ووصف: شفيع بجملة يطاع وصف كاشف إذ ليس أن المراد لهم شفعاء لا تطاع شفاعتهم لظهور قلة جدوى ذلك ولكن لما كان شأن من يتعرض للشفاعة أن يثق بطاعة المشفوع عنده له. وأتبع شفيع بوصف يطاع لتلازمهما عرفا فهو من إيراد نفي الصفة اللازمة للموصوف. والمقصود: نفي الموصوف بضرب من الكناية التلميحية كقول ابن أحمر:ولا ترى الضب بها ينجحر (رَحِمَهُ اللَّهُ ١) أي لا ضب فيها فينجحر، وذلك يفيد مفاد التأكيد.والمعنى: أن الشفيع إذا لم يطع فليس بشفيع. والله لا يجترىء أحد على الشفاعة عنده إلا إذا أذن له فلا يشفع عنده إلا من يطاع.[١٩][سورة غافر (٤٠) : آية ١٩]يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور (١٩)يجوز أن تكون جملة يعلم خائنة الأعين خبرا عن مبتدأ محذوف هو ضمير عائد إلى اسم الجلالة من قوله: إن الله سريع الحساب [غافر: ١٧] على نحو ما قرر قبله في قوله: رفيع الدرجات [غافر: ١٥] . ومجموع الظاهر والمقدر استئناف للمبالغة في الإنذار لأنهم إذا ذكروا بأن الله يعلم الخفايا كان إنذارا بالغا يقتضي

---

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن الشنقيطي، محمد الأمين ٣٠٣/٨

(٢) التحرير والتنوير ابن عاشور ٢٢٢/١٩

الحذر من كل اعتقاد أو عمل نهاهم الرسول صلى الله عليه وسلم عنه، فبعد أن أيأسهم من شفيع يسعى لهم في عدم المؤاخذة بذنوبهم أيأسهم من أن يتوهموا أنهم يستطيعون إخفاء شيء من نواياهم أو أدنى حركات أعمالهم على ربهم. ويجوز أن تكون خبرا ثانيا عن اسم إن في قوله: إن الله سريع الحساب [غافر: ١٧] ، وما بينهما اعتراض كما مر على كلا التقديرين.رحمه الله____________(رحمه الله ١) أوله: لا تفزع الأرنب أهوالها.يصف مفازة قاحلة لا ضب فيها ولا أرنب.." [١]

"و (خائنة الأعين) مصدر مضاف إلى فاعله فالخائنة مصدر على وزن اسم الفاعل مثل العافية للمعافاة، والعاقبة، والكاذبة في قوله تعالى: ليس لوقعتها كاذبة [الواقعة:٢] ويجوز إبقاء خائنة على ظاهر اسم الفاعل فيكون صفة لموصوف محذوف دل عليه الأعين، أي يعلم نظرة الأعين الخائنة.وحقيقة الخيانة: عمل من اؤتمن على شيء بضد ما اؤتمن لأجله بدون علم صاحب الأمانة، ومن ذلك نقض العهد بدون إعلان بنبذه. ومعنى: خائنة الأعين خيانة النظر، أي مسارقة النظر لشيء بحضرة من لا يحب النظر إليه. فإضافة خائنة إلى الأعين من إضافة الشيء إلى آلته كقولهم: ضرب السيف.والمراد ب خائنة الأعين النظرة المقصود منها إشعار المنظور إليه بما يسوء غيرها الحاضر استهزاء به أو إغراء به. وإطلاق الخائنة بمعنى الخيانة على هذه النظرة استعارة مكنية، شبه الجليس بالحليف في أنه لما جلس إليك أو جلست إليه فكأنه عاهدك على السلامة، ألا ترى أن المجالسة يتقدمها السلام وهو في الأصل إنباء بالمسالمة فإذا نظرت إلى آخر غيركما نظرا خفيا لإشارة إلى ما لا يرضي الجليس من استهزاء أو إغراء فكأنك نقضت العهد المدخول عليه بينكما، فإطلاق الخيانة على ذلك تفظيع له، ويتفاوت قرب التشبيه بمقدار تفاوت ما وقعت النظرة لأجله في الإساءة وآثار المضرة. ولذلكقال النبيء صلى الله عليه وسلم: «ما يكون لنبي أن تكون له خائنة الأعين»، أي لا تصدر منه.وو ما تخفي الصدور النوايا والعزائم التي يضمرها صاحبها في نفسه، فأطلق الصدر على ما يكن الأعضاء الرئيسية على حسب اصطلاح أصحاب اللغة.." [٢]

"الاختصاص في قوله: والله يقضي بالحق. فالمراد من قوله: والذين تدعون من دونه لا يقضون بشيء التذكير بعجز الذين يدعوهم وأنهم غير أهل للإلهية، وهذه طريقة في إثبات صفة لموصوف ثم تعقيب ذلك بإظهار نقيضه فيما يعد مساويا له كما في قول أمية بن أبي الصلت:تلك المكارم لا قعبان من لبن ... شيبا بماء فصار فيما بعد أبوالاوإلا لما كان لعطف قوله: لا قعبان من لبن، مناسبة.والدعاء يجوز أن يكون بمعنى النداء وأن يكون بمعنى العبادة كما تقدم آنفا.وجملة إن الله هو السميع البصير مقررة لجمل يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور إلى قوله: لا يقضون بشيء [غافر: ١٩، ٢٠] . فتوسيط ضمير الفصل مفيد للقصر وهو تعريض بأن آلهتهم لا تسمع ولا تبصر فكيف ينسبون إليها الإلهية، وإثبات المبالغة في السمع والبصر لله تعالى يقرر معنى يقضي بالحق لأن العالم بكل شيء تتعلق حكمته بإرادة الباطل ولا تخطىء أحكامه بالعثار في الباطل. وتأكيد الجملة بحرفالتأكيد تحقيق للقصر. وقد ذكر التفتازاني في «شرح المفتاح» في مبحث ضمير الفصل

---

(١) التحرير والتنوير ابن عاشور ١١٥/٢٤

(٢) التحرير والتنوير ابن عاشور ١١٦/٢٤

أن القصر يؤكد.وقرأ نافع وهشام عن ابن عامر تدعون بتاء الخطاب على الالتفات من الغيبة إلى الخطاب لقرع أسماع المشركين بذلك. وقرأ الجمهور بياء الغيبة على الظاهر.." (١)

"والمعنى: تصدون عن السبيل المستقيم وتريدون السبيل المعوج ففي ضمير تبغونها استخدام لأن سبيل الله المصدود عنها هي الإسلام، والسبيل التي يريدونها هيما هم عليه من الدين بعد نسخه وتحريفه.وقوله: وأنتم شهداء حال أيضا توازن الحال في قوله قبلها والله شهيد على ما تعملون ومعناه وأنتم عالمون أنها سبيل الله. وقد أحالهم في هذا الكلام على ما في ضمائرهم مما لا يعلمه إلا الله لأن ذلك هو المقصود من وخز قلوبهم، وانثنائهم باللائمة على أنفسهم، ولذلك عقبه بقوله: وما الله بغافل عما تعملون وهو وعيد وتهديد وتذكير لأنهم يعلمون أن الله يعلم ما تخفي الصدور وهو بمعنى قوله في موعظتهم السابقة والله شهيد على ما تعملون إلا أن هذا أغلظ في التوبيخ لما فيه من إبطال اعتقاد غفلته سبحانه، لأن حالهم كانت بمنزلة حال من يعتقد ذلك.[١٠٠، ١٠١][سورة آل عمران (٣) : الآيات ١٠٠ إلى ١٠١]يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين (١٠٠) وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله ومن يعتصم بالله فقد هدي إلى صراط مستقيم (١٠١)إقبال على خطاب المؤمنين لتحذيرهم من كيد أهل الكتاب وسوء دعائهم المؤمنين، وقد تفضل الله على المؤمنين بأن خاطبهم بغير واسطة خلاف خطابه أهل الكتاب إذ قال:قل يا أهل الكتاب [آل عمران: ٩٨] ولم يقل: قل يا أيها الذين آمنوا.والفريق: الجماعة من الناس، وأشار به هنا إلى فريق من اليهود وهم شاس بن قيس وأصحابه، أو أراد شاسا وحده، وجعله فريقا كما جعل أبا سفيان ناسا في قوله: «إن الناس قد جمعوا لكم» وسياق الآية مؤذن بأنها جرت." (٢)

"وما تخفي الصدور، فليس المقصود إعلامهم بأن الله علم ذلك بل لازمه وهو مقتضى قوله: سنكتب ما قالوا. والمراد بالكتابة إما كتابته في صحائف آثامهم إذ لا يخطر ببال أحد أن يكتب في صحائف الحسنات، وهذا بعيد، لأن وجود علامة الاستقبال يؤذن بأن الكتابة أمر يحصل فيما بعد. فالظاهر أنه أريد من الكتابة عدم الصفح عنه ولا العفو بل سيثبت لهم ويجازون عنه فتكون الكتابة كناية عن المحاسبة. فعلى الأول يكون وعيدا وعلى الثاني يكون تهديدا.وقرأ الجمهور سنكتب ما قالوا وقتلهم بنون العظمة من (سنكتب) وبنصب اللام من (قتلهم) على أنه مفعول (نكتب) و (نقول) بنون. وقرأه حمزة: سيكتب- بياء الغائب مضمومة وفتح المثناة الفوقية- مبنيا للنائب لأن فاعل الكتابة معلوم وهو الله تعالى، وبرفع اللام من (قتلهم) على أنه نائب الفاعل. (ويقول) بياء الغائب، والضمير عائد إلى اسم الجلالة في قوله: إن الله.وعطف قوله: وقتلهم الأنبياء بغير حق زيادة في مذمتهم بذكر مساوي أسلافهم، لأن الذين قتلوا الأنبياء هم غير الذين قالوا: إن الله فقير ونحن أغنياء بل هم من أسلافهم، فذكر هنا ليدل على أن هذه شنشنة قديمة فيهم، وهي الاجتراء على الله ورسله، واتحاد الضمائر مع اختلاف المعاد طريقة عربية في المحامد والمذام التي تناط بالقبائل.قال الحجاج في خطبته بعد يوم دير الجماجم يخاطب أهل العراق: ألستم أصحابي بالأهواز حين أضمرتم الشر واستبطنتم الكفر إلى أن قال: ثم يوم الزاوية وما

---

(١) التحرير والتنوير ابن عاشور ١١٨/٢٤

(٢) التحرير والتنوير ابن عاشور ٢٧/٤

يوم الزاوية.. إلخ، مع أن فيهم من مات ومن طرأ بعد.وقوله: ونقول ذوقوا عذاب الحريق عطف أثر الكتب على الكتب أي سيجازون عن ذلك بدون صفح، ونقول ذوقوا وهو أمر الله بأن يدخلوا النار.والذوق حقيقته إدراك الطعوم، واستعمل هنا مجازا مرسلا في الإحساس بالعذاب فعلاقته الإطلاق، ونكتته أن الذوق في العرف يستتبع تكرر ذلك الإحساس لأن الذوق يتبعه الأكل، وبهذا الاعتبار يصح أن يكون «ذوقوا» استعارة.." (١)

"﴿يعلم خآئنة الأعين﴾ أي استراق النظر إلى ما لا يحل ﴿وما تخفي الصدور﴾ أي ما تكنه من خير وشر؛ أو يعلم استراق النظر إلى الأجنبية، وما تخفي الصدور من التفكر في جمالها، والرغبة في نيلها؛ في حين لا يعلم بنظرته وفكرته من بحضرته؛ والله يعلم بذلك كله." (٢)

"الحياة ومشاغل السنين ولا ينغص صفوهم هم طارئ أو غم نازل، وان كل ما تمتد إليه الأعين وتسافر نحوه الظنون من صنوف الملاذ حاضر لديهم ينالونه وهم متكئون على الأرائك متمددون تحت الظلال مما ورد وصفه مجسدا. وذلك كله على طريق الكناية وقد تقدم القول فيها مطولا.٢- تنوين صراط وفيه تفخيم كما تقدم وإيجاز يشير إلى ما عهد إليهم من معصية الشيطان وطاعة الرحمن إذ لا صراط أقوم منه ومن نماذج هذا التنوين في الشعر قول كثير عزة:لئن كان يهدي برد أنيابها العلا ... لأفقر مني انني لفقيروقيل هذا البيت من أبيات المجنون وقبله:دعوت إلهي دعوة ما جهلتها ... وربي بما تخفي الصدور بصيروبعده:فما أكثر الأخبار أن قد تزوجت ... فهل يأتيني بالطلاق بشيروقوله لئن كان يهدي بيان للدعوة التي دعاها عن قصد وحضور قلب وما بينهما اعتراض للتأكيد وإفادة أن الدعوة كانت في السر أي لئن كان يعطي برد أسنانها العليا وخصها بالذكر لأنها أول ما يبدو عند التبسم لأحوج مني إنني لبليغ الفقر حقيق بأن أوصف به لكمال." (٣)

"يروى بخفض حين على الاعراب وفتحه على البناء لكونه مضافا الى مبني وهو يستصبين فإنه مضارع مبني على السكون لاتصاله بنون الإناث وماضيه استصبيت فلانا إذا جعلته في عداد الصبيان وإن كان ما وليه فعلا مضارعا معربا أو جملة اسمية فالإعراب أرجح من البناء وهو واجب عند البصريين لعدم التناسب وإنما قلنا بأرجحية الاعراب لأن نافعا وهو من كبار القراء قرأ «هذا يوم ينفع» بالفتح على البناء لا على الاعراب وأجاب جمهور البصريين بأن الفتحة فيه ليست فتحة بناء وإنما هي فتحة إعراب مثلها في صمت يوم الخميس والتزموا لأجل ذلك أن تكون الاشارة ليست لليوم وإلا لزم كون الشيء ظرفا لنفسه ولهذا قال الفارسي وابن مالك بأرجحية الاعراب، قال في الخلاصة:وقبل فعل معرب أو مبتدأ ... أعرب ومن بنى فلن يفندا[سورة غافر (٤٠) : الآيات ١٩ الى ٢٢]يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور (١٩) والله يقضي بالحق والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء إن الله هو السميع البصير (٢٠) أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم كانوا هم أشد منهم قوة وآثارا في الأرض فأخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق (٢١) ذلك بأنهم كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فكفروا فأخذهم الله إنه قوي شديد العقاب (٢٢)." (٤)

---

(١) التحرير والتنوير ابن عاشور ١٨٤/٤

(٢) أوضح التفاسير محمد عبد اللطيف الخطيب ص/٥٧٣

(٣) إعراب القرآن وبيانه محيي الدين درويش ٢١٩/٨

(٤) إعراب القرآن وبيانه محيي الدين درويش ٤٧٢/٨

"الإعراب:(يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور) الجملة خبر رابع للمبتدأ المحذوف الذي أخبر برفيع الدرجات وما بعده أو هو خبر من أخبار هو الذي يريكم أو هي في محل نصب على الحال أو هي تعليلية لا محل لها. ويعلم فعل مضارع وفاعل مستتر تقديره هو أي الله تعالى وخائنة الأعين مفعول به والإضافة بمعنى من أي الخائنة من الأعين فعلى هذا تكون خائنة نعت لمحذوف أي العين الخائنة ويجوز أن تكون الخائنة مصدرا كالعاقبة والكاذبة أي يعلم خيانة الأعين، وسيأتي مزيد بحث عن هذا التعبير في باب البلاغة، والواو حرف عطف وما عطف على خائنة الأعين وجملة تخفي الصدور صلة ما.(والله يقضي بالحق) الواو حرف عطف والله مبتدأ وجملة يقضي بالحق خبره وبالحق متعلقان بيقضي أو بمحذوف حال أي ملتبسا به.(والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء إن الله هو السميع البصير) الواو عاطفة والذين مبتدأ وجملة يدعون صلة ومن دونه متعلقان بيدعون والعائد محذوف أي يدعونهم من دونه بمعنى يعبدونهم وجملة لا يقضون بشيء خبر الذين وان واسمها وهو مبتدأ أو ضمير فصل والسميع البصير خبر ان لهو أو لإن.(أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم) الهمزة للاستفهام الانكاري أنكر عليهم عدم الاعتبار بأحوال غيرهم والواو عاطفة على مقدر يقتضيه المقام أي أغفلوا ولم يسيروا ولم حرف نفي وقلب وجزم ويسيروا فعل مضارع مجزوم بلم وفي الأرض متعلقان بيسيروا، فينظروا الفاء سببية أو عاطفة وينظروا." (١)

"البلاغة:فن الفرائد:في قوله «يعلم خائنة الأعين» فن الفرائد وهو من فنون البديع والمختص بالفصاحة دون البلاغة لأنه عبارة عن إتيان المتكلم في كلامه بلفظة تتنزل منزلة الفريدة من حب العقد وهي الجوهرة التي لا نظير لها تدل على جزالة منطقه، وعظم فصاحته، وقوة عارضته، وأصالة عربية بحيث تكون هذه اللفظة لو سقطت من الكلام عزت على الفصحاء غرابتها وهي كثيرة في القرآن وقد مر الكثير منها وهي هنا في لفظة «خائنة» فإنها بمفردها سهلة مستساغة كثيرة الجريان على الألسن فلما أضيفت الى الأعين حصل لها من غرابة التركيب ما جعل لها في النفوس هذا الوقع بحيث لا يتاح الإتيان بمثلها ولا يكاد يقع ذو فكر سليم وذهن مستقيم على شبهها، وقد شغلت هذه الكلمة كبار العلماء وأرباب الفصاحة وسنورد أقوالا منها، فقال ابن عباس: «هو الرجل يكون جالسا مع القوم فتمر المرأة فيسارقهم النظر إليها» وقال مجاهد: «هي مسارقة نظر الأعين الى ما قد نهى الله عنه» وقال الضحاك «هي قول الإنسان ما رأيت وقد رأى» وقال السدي: «إنه الرمز بالعين» وقال سفيان: «هو النظرة بعد النظرة» وقال الفراء: «خائنة الأعين هي النظرة الثانية وما تخفي الصدور النظرة الأولى» وقال ابن عباس: «وما تخفي الصدور أي هل يزني بها لو خلا بها أو لا» وقيل «وما تخفي الصدور تكنه وتضمره» .." (٢)

"جاءت هذا الآية متممة لقوله تعالى: ﴿والله بكل شيء عليم﴾ لأن كل شيء له، وهو خالقه، فهو العليم به، له ما في السموات وما في الارض، وان تظهروا أيها المؤمنون ما في قلوبكم او تكتموه عن الناس يجازكم به الله يوم القيامة، فهو ﴿يعلم خآئنة الأعين وما تخفي الصدور﴾ [غافر: ١٩] والمعول عليه في مرضاته تزكية النفوس وتطهير السرائر.روى الامام

(١) إعراب القرآن وبيانه محيي الدين درويش ٤٧٣/٨

(٢) إعراب القرآن وبيانه محيي الدين درويش ٤٧٥/٨

أحمد ومسلم والنسائي عن ابن عباس Bه قال: لما نزلت هذه الآية ﴿وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله﴾ اشتد ذلك على أصحاب رسول الله، فأتوا النبي وقالوا: لقد كلفنا من الاعمال ما نطيق كالصلاة والصيام والجهاد والصدقة، وقد أنزلت هذه الآية ولا نطيقها. فقال النبي: «قولوا سمعنا وأطعنا وسلمنا» فألقى الله الإيمان في قلوبهم وأنزل ﴿لا يكلف الله نفسا إلا وسعها. . .﴾ الآية. فكانت الوسوسة مما لا طاقة للمسلمين به. وصار الأمر الى ان قضى الله تعالى ان للنفس ما اكتسبت من «القول والعمل» .وهذا هو نهج الاسلام الصحيح العادل.﴿فيغفر لمن يشآء ويعذب من يشآء﴾ يغفر بفضله لمن يشاء أن يغفر له، ويعذب من يشاء، وهو تعالى على كل شيء قدير.قراءات:قرأ ابن عامر وعاصم ويعقوب ﴿فيغفر لمن يشآء ويعذب من يشآء﴾ برفع يغفر ويعذب كما هو هنا: وجزمهما الباقون عطفا على جواب الشرط.." (١)

"يوم الآزفة: يوم القيامة، ومعنى الآزفة: القريبة. الحناجر: جمع حنجرة، الحلقوم. كاظمين: ممسكين، محزونين. حميم: صديق. خائنة الأعين: الأعين التي تزوغ وتنظر بخبث. وما تخفي الصدور: ما تكتمه الضمائر. من واق: من حافظ.أنذر أيها الرسول مشركي قومك عذاب يوم القيامة وهوله، حين تصير القلوب عند الحناجر من شدة الخوف. يومئذ ليس لهم صديق ينفعهم، ولا شفيع تقبل شفاعته لهم، والله تعالى لا يخفى عليه شيء، يعلم النظرة الخائنة، والسر المستور الذي تخفيه الصدور. وهو تعالى يقضي بالعدل والحق، فلا يظلم احدا ولا ينسى شيئا، والآلهة المزعومة لا يستطيعون عمل شيء، ﴿إن الله هو السميع البصير﴾ .ألم يسافر المشركون في الأرض، فيروا كيف كان مآل الأمم الماضية!! كانوا أشد منهم قوة وتركوا آثارا عظيمة في الأرض، فاستأصلهم الله بذنوبهم.﴿وما كان لهم من الله من واق﴾لم يكن لهم من ينصرهم ويحفظهم من عذاب الله.وقد تكرر هذا المعنى في أكثر من آية، ولكن بأسلوب مختلف.ولقد نزل بهم ذلك العذاب لأنهم كذبوا رسلهم وجحدوا آيات الله ﴿فأخذهم الله إنه قوي شديد العقاب﴾قراءات:قرأ نافع وهشام: والذين تدعون: بالتاء. والباقون: يدعون: بالياء.." (٢)

"[سورة غافر (٤٠) : الآيات ١٨ الى ٢٠]وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع (١٨) يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور (١٩) والله يقضي بالحق والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء إن الله هو السميع البصير (٢٠). (١) الآزفة: القريبة أو التي تسوق الناس وتزفهم بالسرعة. وهي كناية عن الساعة أو يوم القيامة.(٢) إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين: الكظم بمعنى الكتم والإمساك.ومعنى الجملة إذ القلوب ترتفع من شدة الاضطراب إلى الحناجر فتكتم حلوق أصحابها وأنفاسهم فلا تستطيع خروجا ولا تستطيع العودة إلى أماكنها. وهي بسبيل تصوير حالة الهلع الشديد التي تعتري الكفار.(٣) حميم: صديق مشفق.(٤) خائنة الأعين: ما ينطوي في نظرات الأعين من مقاصد يريد أصحابها إخفاءها فتخونهم هذه النظرات.وهذه الآيات احتوت كذلك إنذارا وتنديدا بأسلوب آخر. فهي تأمر النبي صلى الله عليه وسلم بإنذار الكفار بيوم القيامة القريب الذي يزف الناس فيه زفا ويساقون سوقا وبما سوف تكون حالتهم فيه من الهلع والرعب بحيث يشتد اضطرابهم حتى ترتفع قلوبهم إلى حناجرهم وتكاد أن تسد

---

(١) تيسير التفسير للقطان إبراهيم القطان ١/١٧٢

(٢) تيسير التفسير للقطان إبراهيم القطان ٣/١٨٤

عليهم مجرى النفس ولا يجد الظالمون صديقا مشفقا ولا شفيعا مستجابا مطاعا. وقد أشارت إلى سعة إحاطة الله بأعمال الناس ونواياهم فهو يعلم كل حركة من حركاتهم خفيها وظاهرها حتى ما يدق على المشاهدين مما تنطوي عليه لحظات العيون وتخفيه الصدور من النوايا المريبة.فهو السميع لكل شيء النافذ بصره إلى كل شيء. وهو الذي سيقضي بين الناس بالحق وفق أعمالهم، أما الشركاء الذين يدعوهم المشركون مع الله فليس لهم أي قدرة على شيء أو القضاء في أي شيء أو النفوذ إلى أي شيء.." (١)

"كاظمين كابتين غيظهم لا يستطيعون التفريج عن أنفسهم.من حميم من محب مشفق.ولا شفيع يشفع لهم.يطاع يستجاب له.[سورة غافر (٤٠) : الآيات ١٩ الى ٢٣]يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور (١٩) والله يقضي بالحق والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء إن الله هو السميع البصير (٢٠) أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم كانوا هم أشد منهم قوة وآثارا في الأرض فأخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق (٢١) ذلك بأنهم كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فكفروا فأخذهم الله إنه قوي شديد العقاب (٢٢) ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين (٢٣)١٩- يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور:خائنة الأعين استراق النظر إلى ما لا يحل.٢٠- والله يقضي بالحق والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء إن الله هو السميع البصير:يقضي بالحق يحكم بالعدل.والذين يدعون من دونه من يجعلونه شركاء الله.لا يقضون بشيء لعجزهم.٢١- أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم كانوا هم أشد منهم قوة وآثارا في الأرض فأخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق:فأخذهم الله فأهلكهم واستأصلهم.بذنوبهم بما أسلفوا من ذنوب.من واق من حافظ يحفظهم ويحميهم من عذابه.٢٢- ذلك بأنهم كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فكفروا فأخذهم الله إنه قوي شديد العقاب:بالبينات بالآيات الدالة على قدرة الله تعالى.فكفروا فجحدوا بها.فأخذهم الله فأهلكهم.٢٣- ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين:بآياتنا بمعجزاتنا.." (٢)

"رقم مسلسل/ الآية/ رقم الآية/ مكان النزول/ السورة/ رقم السورة ٦١١٠/ يسبح لله ما في السماوات وما في الأرض الملك القدوس/ ١/ مدنية/ الجمعة/ ٦٢ ٦١١١/ يسبح لله ما في السماوات وما في الأرض له الملك/ ١/ مدنية/ التغابن/ ٦٤ ٦١١٢/ يسبحون الليل والنهار لا يفترون/ ٢٠/ مكية/ الأنبياء/ ٢١ ٦١١٣/ يستبشرون بنعمة من الله وفضل/ ١٧١/ مدنية/ آل عمران/ ٣ ٦١١٤/ يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله/ ١٠٨/ مدنية/ النساء/ ٤ ٦١١٥/ يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها/ ١٨/ مكية/ الشورى/ ٤٢ ٦١١٦/ يستعجلونك بالعذاب وإن جهنم لمحيطة بالكافرين/ ٥٤/ مكية/ العنكبوت/ ٢٩ ٦١١٧/ يستفتونك قل الله يفتيكم في الكلالة/ ١٧٦/ مدنية/ النساء/ ٤ ٦١١٨/ يسقون من رحيق مختوم/ ٢٥/ مكية/ المطففين/ ٨٣ ٦١١٩/ يسمع آيات الله تتلى عليه ثم يصر مستكبرا/ ٨/ مكية/ الجاثية/ ٤٥ ٦١٢٠/ يشهده المقربون/ ٢١/ مكية/ المطففين/ ٨٣ ٦١٢١/ يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم/ ٧١/ مدنية/ الأحزاب/ ٣٣ ٦١٢٢/ يصلونها يوم الدين/ ١٥/ مكية/ الانفطار/ ٨٢ ٦١٢٣/ يصهر به ما في بطونهم والجلود/ ٢٠/

---

(١) التفسير الحديث محمد عزة دروزة ٣٦١/٤

(٢) الموسوعة القرآنية إبراهيم الإبياري ١٠١/١١

مدنية/ الحج/ ٢٢ ٦١٢٤/ يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهانا/ ٦٩/ مدنية/ الفرقان/ ٢٥ ٦١٢٥/ يطاف عليهم بصحاف من ذهب وأكواب/ ٧١/ مكية/ الزخرف/ ٤٣ ٦١٢٦/ يطاف عليهم بكأس من معين/ ٤٥/ مكية/ الصافات/ ٣٧ ٦١٢٧/ يطوف عليهم ولدان مخلدون/ ١٧/ مكية/ الواقعة/ ٥٦ ٦١٢٨/ يطوفون بينها وبين حميم آن/ ٤٤/ مدنية/ الرحمن/ ٥٥ ٦١٢٩/ يعتذرون إليكم إذا رجعتم إليهم/ ٩٤/ مدنية/ التوبة/ ٩ ٦١٣٠/ يعدهم ويمنيهم وما يعدهم الشيطان إلا غرورا/ ١٢٠/ مدنية/ النساء/ ٤ ٦١٣١/ يعذب من يشاء ويرحم من يشاء وإليه تقلبون/ ٢١/ مكية/ العنكبوت/ ٢٩ ٦١٣٢/ يعرف المجرمون بسيماهم فيؤخذ بالنواصي والأقدام/ ٤١/ مدنية/ الرحمن/ ٥٥ ٦١٣٣/ يعرفون نعمت الله ثم ينكرونها وأكثرهم الكافرون/ ٨٣/ مكية/ النحل/ ١٦ ٦١٣٤/ يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبدا إن كنتم مؤمنين/ ١٧/ مدنية/ النور/ ٢٤ ٦١٣٥/ يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور/ ١٩/ مكية/ غافر/ ٤٠ ٦١٣٦/ يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم وإلى الله ترجع الأمور/ ٧٦/ مدنية/ الحج/ ٢٢ ٦١٣٧/ يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون به علما/ ١١٠/ مكية/ طه/ ٢٠." [1]

"الحناجر كاظمين ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع (١٨) يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور (١٩) والله يقضي بالحق والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء إن الله هو السميع البصير (٢٠)." [2]

"فقد رحمته﴾، يدل على أن المعنى الأصلي المراد من استعمال كلمة " التقوى " هو أن يجعل المؤمن بينه وبين ارتكاب السيئات وممارستها حائلا قويا، وحاجزا حصينا، وأن يتخذ للوقاية منها جميع التدابير.ويمضي الحديث في هذا الربع من كتاب الله، في وصف ما أعده الله من العقاب والعذاب لمن دعاهم الرسول إلى الإيمان، فأصروا على الكفر والضلال، ووصف ما ينالهم يوم القيامة من مقت الله وخزيه البالغ، علاوة على المقت الذي يشعرون به آنذاك من أنفسهم نحو أنفسهم، من أعماق الأعماق، وذلك قوله تعالى: ﴿إن الذين كفروا ينادون لمقت الله أكبر من مقتكم أنفسكم إذ تدعون إلى الإيمان فتكفرون * قالوا ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين فاعترفنا بذنوبنا فهل إلى خروج من سبيل﴾، لكن لا سبيل لهم إلى الخروج ولا رجاء، وقوله تعالى: ﴿يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شيء﴾، وقوله تعالى: ﴿إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع * يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور﴾.ولابد من وقفة خاصة عندما حكاه كتاب الله على لسان الكافرين الذين كانوا يكذبون بالبعث والدار الآخرة، ثم لما استقروا في دار الجحيم، ﴿قالوا ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين﴾، فما معنى الموت مرتين، وما معنى الحياة مرتين، وما هو ترتيب الموتتين والحياتين؟.والجواب المأثور في هذا الصدد عن عبد الله ابن مسعود." [3]

"إن الحق سبحانه يكشف فعل الماكرين من أهل الكتاب الذين أرادوا إعلان الإيمان أول النهار كلون من «هدى النفس» لكنه من صميم الضلال والإضلال وذريعة له، ولم يكن هدى من الله؛ لأن هدى الله إنما يوصل الإنسان إلى الغاية

---

(١) الموسوعة القرآنية إبراهيم الإبياري ٤١٨/٣

(٢) التيسير في أحاديث التفسير محمد المكي الناصري ٣٧٣/٥

(٣) التيسير في أحاديث التفسير محمد المكي الناصري ٣٧٨/٥

التي يريدها الله، وهؤلاء البعض من أهل الكتاب أرادوا بالخديعة أن يجعلوا سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم دون أتباع يؤمنون بالإسلام؛ لقد تواصي هؤلاء القوم من أهل الكتاب بأن يكتموا اتفاقهم على تمثيل الادعاء بالإيمان وجه النهار والكفر به في آخره، وألا يعلنوا ذلك إلا لأهل ديانتهم حتى لا يفقد المكر هدفه، وهو بلبلة المسلمين.لقد أخذهم الخوف؛ لأن الناس إن أخذوا بدين محمد صلى الله عليه وسلم لأوتوا مثلما أوتي أهل الكتاب من معرفة بالمنهج، بل إن المنهج الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم هو المنهج الخاتم، وأهل المكر من أهل الكتاب إنما أرادوا أن يحرموا الناس من الإيمان، أو أنهم خافوا أن يدخل المسلمون معهم في المحاجة في أمر الإيمان، وكان كل ذلك من قلة الفطنة التي تصل إلى حد الغباء.لماذا؟ لأنهم توهموا أن الله لا يعرف باطن ما كتموا وظاهر ما فعلوا، إنهم تناسوا أن الحق يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، وتطابق ذلك مع سابق فعلهم عندما خرجوا من مصر، وذهبوا إلى التيه أثناء عبور الصحراء، وادعوا أن الله قال لموسى عليه السلام: «علموا بيوتكم أيها الإسرائيليون، لأني سأنزل وأبطش بالبلاد كلها» . وكأنهم لو لم يضعوا العلامات على البيوت فلن يعرفها الله، إنه كلام خائب للغاية بل هو منتهى الخيبة والضلال، ويبلغ الحق رسوله الكريم: ﴿قل إن الفضل بيد الله يؤتيه من يشآء والله واسع عليم﴾ .وما دام الفضل بيد الله فلن تستطيعوا يا أهل المكر بالمسلمين أن تأخذوا أناسا كما تودون، وبعد ذلك تريدون أن تخدعوهم؛ لأن الفضل حين يؤتيه الله لمن آمن به فلن ينزعه إلا الله.فالحيلة لن تنزع فضل الإيمان بالله مادام قد أعطاه الله، والله واسع بمعنى أنه قادر على إعطاء الفضل لكل الخلق، ولن ينقص ذلك من فضله شيئا، والحق سبحانه عليم بمن يستحق هذا الفضل لأن قلبه مشغول بربه.." (١)

"تطرأ على الفكر، ولم تخرج بعد إلى مجال القول. وهو سبحانه القائل: ﴿وما تخفي صدورهم أكبر﴾ [آل عمران: ١١٨]وما دام هو الحق العليم بما تخفي الصدور فهو قادر ليس فقط على الجزاء بما يفعلونه من عمل نزوعي ولكنه قادر على أن يجازيهم أيضا بأن يفضح الأعمال غير النزوعية الكامنة في صدروهم، وبعد ذلك يقول سبحانه: ﴿إن تمسسكم حسنة تسؤهم وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئا ... ﴾." (٢)

"والحق سبحانه وتعالى يؤرخ للإيمان تأريخا صادقا أمينا، فالقرآن لم يتحامل على أهل الكتاب لأنهم عاندوا رسول الله وواجهوا دعوته وصنعوا معه كل ما يمكن أن يحبط الدعوة ويقضي عليها.إن القرآن يقول: في شأن بعض منهم منصفا لهم: ﴿وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله﴾ وهذا اسمه -كما قلنا - صيانة الاحتمال. فساعة يقول الحق: ﴿وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله﴾ ، ساعة ينزل هذا الكلام، فيسمعه بعض من أهل الكتاب الذين انشغلوا في أعماقهم بتصديق الرسول، ويعرضون قضية الإيمان على نفوسهم، فإذا ما كانوا كذلك ماذا يكون موقفهم وهم الذين يفكرون في أمر الإيمان بما جاء به محمد؟ إنهم عندئذ يقولون لأنفسهم: هذه مسألة في أعماقنا، فمن الذي أطلع محمدا عليها؟ إن ذلك دليل على أن محمدا لا ينطق عن الهوى، وأن الله يعلمه بما في نفوسنا مما لم يبرز إلى حيز الوجود، وما دام الحق يخبره بما لم يخرج إلى حيز الوجود فلابد أنه صادق. فإن كانت الآية قد قيلت بعد أن آمنوا فلن يكون لها هذا الوقع.إذن فلابد أن هذا القول

---

(١) تفسير الشعراوي الشعراوي ١٥٤١/٣

(٢) تفسير الشعراوي الشعراوي ١٧٢٠/٣

تبشير بأن كثيرا من أهل الكتاب يفكرون في تصديق الرسول الله في البلاغ من الله، وهم بصدد أن يؤمنوا. فقول الله ذلك يجعل العملية الإيمانية في نفوسهم مصدقة، لأنهم يقولون: إن الرسول الذي يقول ذلك هو مبلغ عن إله يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور.ويقول الحق من بعد ذلك: ﴿يا أيها الذين آمنوا ... ﴾ .." (١)

"﴿فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جآن﴾ [الرحمن: ٣٩] .فهل معنى ذلك أنهم لن يسألوا؟ لا، بل سوف يسألون ليقرروا ما فعلوا لا ليعلم الله منهم ما فعلوا، فهو سبحانه عليم بكل شيء.وهؤلاء المستشرقون لا يعلمون أن السؤال يرد عند العرب على وجهين، وجه ليعلم السائل، ووجه ليقرر المسئول، وسؤال الحق للناس يوم القيامة ليقرروا ما فعلوا وكان منهم؛ لأن الإقرار سيد الأدلة، وليس سؤال الحق سبحانه هو سؤال من يرغب في أن يعلم فسبحانه عليم بكل شيء، وعلى الإنسان أن يحتفظ بالمقام الذي وضعه فيه ربه، وكذلك كان عيسى ابن مريم. وكذلك يكون سؤال الله لعيسى، إنه لتقريع وتأنيب وتوبيخ من قالوا عن عيسى ما لم يبلغهم إياه.إن عيسى عليه السلام لم يبلغهم ولم يطلب منهم أن يتخذوه هو وأمه إلهين من دون الله؛ لأن عيسى ابن مريم، إنما يبلغ ما أوحي إليه من ربه فقط، ولهذا تأتي إجابة عيسى ردا على أي تزيد من الأتباع: ﴿قال سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق﴾ وساعة نسمع ﴿سبحانك﴾ فلنعرف أنها إجمال التنزيه لله، وهو تنزيه أن يشابهه خلق من خلق الله، فلله وجود، وللإنسان وجود، ولكن إياك أيها الإنسان أن تقول: إن وجودي كوجود الله؛ لأن وجود الله ذاتي، ووجودك غير ذاتي وكل ما فيك موهوب لك من الله؛ لذلك فلا غناك مثل غنى الله، بل غناه ذاتي وغناك موهوب منه سبحانه، ولا أي صفة من صفاتك كصفات الله، فله سبحانه مطلق القدرة والقوة، وعليك أن تأخذ كل شيء يتعلق بالله في نطاق «سبحانه» «وليس كمثله شيء» .وكذلك يكون تنزيه عيسى لربه وخالقه: ﴿سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق﴾ فعيسى ابن مريم يعلم أن الرسول المصطفى من الله ليس له أن يقول إنه إله. ويرد عيسى على ذلك بقضية متفق عليها: ﴿إن كنت قلته فقد علمته﴾ لأن الكل متفق على أن الله يعلم كل ما يبدر من العباد من سلوك وأقوال وأفعال ﴿يعلم خآئنة الأعين وما تخفي الصدور﴾ . والكل يعلم ارتفاع الحق وتنزهه عن أن يوجد له معلوم جديد لم يعلمه من قبل. والكل يعلم - كذلك - أن الله يعلم خفايا الصدور؛ لذلك يقول عيسى: ﴿تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك﴾ ويقرر أن الحق." (٢)

"وساعة ترى «هو» هذه فاعرف أنها ترد وتجيب على ما يمكن أن يقال، فهناك من يقول: أنا سوف أرى تصرفات فلان، ولأنك من البشر فمهما علمت عنه فأنت محدود الإدراك؛ لأنك سترى تصرفات فقط، ولن ترى انفعالات قلبه وتقلبات عقله، ولكن الحق سبحانه وتعالى هو الأعلم؛ لأن الميزان كله عنده، إنه يدرك الظاهر والباطن، وهو سبحانه يقول هنا: «أعلم» وهناك «عليم» ، و «العليم» هو من يرى ظاهر الأمر ويحيط به، لا الخافي منه، أما الذي يرى الظاهر والخفي فهو أعلم.ولذلك كان النبي صلى الله عليه وسلم في مسائل كثيرة يعامل الناس بعلانيتهم، ويترك سرائرهم إلى الله. «وعندما قتل مسلم رجلا أعلن الإسلام، سأله صلى الله عليه وسلم لماذا؟ ، قال: لأنه أعلن الإسلام نفاقا. فقال صلى الله عليه

---

(١) تفسير الشعراوي الشعراوي ٤/١٩٧٠

(٢) تفسير الشعراوي الشعراوي ٦/٣٤٧١

وسلم : أشققت عن قلبه؟ ﴿﴾وسبحانه وتعالى «أعلم» ؛ لأنه يعلم الظاهر والباطن، ويعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور.ويقول الحق:﴿فكلوا مما ذكر اسم الله عليه إن كنتم بآياته مؤمنين." (١)

"ونعلم جميعا أن الإنسان لا يستأذن في إكرام ضيوفه. والمثال: هو إبراهيم عليه السلام عندما جاءته الملائكة في هيئة رجال، وأراد أن يكرمهم فلم يستأذنهم في أن يذبح لهم عجلا، بل جاء به إليهم مذبوحا ومشويا، هذا سلوك من أراد إكرام الضيف بذبيحة فعلا، أما من يريد أن يبحث عن العذر، فهو يتخذ أساليب مختلفة يتظاهر فيها بالتنفيذ، بينما هو في حقيقته لا يريد أن يفعل، مثلما يقال لضيف: أتشرب القهوة أم أنت لا تحبها؟ أو يقال له: هل تريد تناول العشاء أم تحب أن تنام خفيفا؟ أو يقال: هل تحب أن تنام عندنا أن تنام في الفندق، وهو أكثر راحة لك؟وما دام هناك من سأل الرسول: أأخرج معك للقتال أم أقعد، فهذا السؤال يدل على التردد، والإيمان يفترض يقينا ثابتا؛ لأن التردد يعني الشك، وهو الذهاب والرجوع على التوالي، وهو يعني أن صاحب السؤال متردد؛ لأن طرفي الحكم عنده سواء.إذن: فالمؤمنون بالله لا يستأذنون رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا دعوا إلى الجهاد؛ لأن مجرد الاستئذان في الخروج إلى الجهاد لا يليق بمؤمن.وقوله تعالى: ﴿والله عليم بالمتقين﴾ أي: أن الله يعلم ما في صدورهم من تقوى، فهم إن خدعوا الناس، فلن يستطيعوا خداع الله؛ لأنه مطلع على ما تخفي الصدور.." (٢)

"وهذه قمة الصدق في البلاغ عن الله، وكان اجتهاد رسول الله صلى الله عليه وسلم محصورا في الأمور التي لم يصدر فيها حكم من الله، وكان في ذلك أسوة حسنة لنا لنتجرأ ونجتهد.«وقد بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم معاذ بن جبل إلى اليمن فقال: كيف تصنع إن عرض لك قضاء؟ قال: أقضي بما في كتاب الله. قال: فإن لم يكن في كتاب الله؟ قال: فبسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال: فإن لم يكن في سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال: أجتهد رأيي لا آلو. قال: وضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم صدري ثم قال: الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله صلى الله عليه وسلم لما يرضي رسول الله صلى الله عليه وسلم » .والحق سبحانه وتعالى خير الحاكمين؛ لأنه الشاهد الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، وهو سبحانه لا تخفى عليه خافية، ولا هوى له، وهو الذي يصدر الحكم بمطلق عدله وبفضله، وهو القادر على إنفاذ ما يحكم به، ولا توجد قوة تجير عليه، ولا يوجد حاكم بقادر." (٣)

"أي: أنه سبحانه غني عن إخبار أحد بذنوب عباده، فهو أعلم بها، لأنه سبحانه لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء: ﴿يعلم خآئنة الأعين وما تخفي الصدور﴾ [غافر: ١٩]فلا يحتاج لمن يخبره؛ لأنه خبير وبصير، هكذا بصيغة المبالغة.وهنا قد يقول قائل: طالما أن الله تعالى يعلم كل شيء ولا تخفى عليه خافية، فلماذا يسأل الناس يوم القيامة عن أعمالهم؟نقول: لأن السؤال يرد لإحدى فائدتين:الأولى: كأن يسأل الطالب أستاذه عن شيء لا يعلمه، فالهدف أن يعلم ما جهل.والأخرى: كأن يسأل الأستاذ تلميذه في الامتحان، لا ليعلم منه، ولكن ليقرره بما علم.وهكذا الحق سبحانه ولله

---

(١) تفسير الشعراوي الشعراوي ٣٨٩٧/٧

(٢) تفسير الشعراوي الشعراوي ٥١٥٢/٨

(٣) تفسير الشعراوي الشعراوي ٦٢٧٢/١٠

المثل الأعلى يسأل عبده يوم القيامة عن أعماله ليقرره بها، وليجعله شاهدا على نفسه، كما قال: ﴿اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا﴾ [الإسراء: ١٤]وقوله تعالى: ﴿وكفى بربك. .﴾ [الإسراء: ١٧]." (١)

"وهي من الطير كالمعدة للإنسان، ومن الحوض مستقر الماء في عمقه الأقصى.ولهذه الدلالة اللغوية الأصلية، أثرها في معنى ﴿حصل﴾ هنا، فكل ما يعمله الإنسان مستقر في أعماقه، مجموع في صدره، حتى يحين أوان كشفه بعد بعثرة ما في القبور للبعث والقيامة.والتحصيل لما ﴿في الصدور؟﴾ إيذانا بكشف المستور وإظهار المطوى المضمر – جلالة واضحة، لا نخطئها في استعمال القرآن للفظ الصدور:فالشيطان. ﴿يوسوس في صدور الناس﴾ ﴿والله عليم بذات الصدور﴾ .وهو تعالى: ﴿يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور﴾ غافر ١٩.﴿يعلم ما تكن صدورهم﴾ القصص ٦٩.﴿أوليس الله بأعلم بما في صدور العالمين﴾ العنكبوت ١٠.﴿وإن ربك ليعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون﴾ النمل ٧٤.﴿قل إن تخفوا ما في صدوركم أو تبدوه يعلمه الله﴾ آل عمران ٢٩وتدبر هذه الآيات جميعا، يرينا ما في تأويل آية العاديات:"إن معنى حصل، جمع في الصحف، أي أظهر محصلا مجموعا" من جور على المعنى القوى المثير لقوله تعالى: ﴿وحصل ما في الصدور﴾ فليس المقام هنا للجمع في الصحف، وإنما المقام للإنذار بيوم ينكشف فيه ما طوى في الصدور، ويظهر ما تخفي الضمائر، وقد كان الظن الكاذب به أن يظل خفيا مستورا.* * *ويلفتنا هنا أت تأتي آية:﴿إن ربهم بهم يومئذ لخبير﴾ .بعد بعثرة ما في القبور وتحصيل ما في الصدور، فتصل بالمشهد المثير إلى." (٢)

"في الآيتين كلتيهما، إلا للذين ألهلم التكاثر، ما التكرير إلا مبالغة في ردعهم وزجرهم وإنذارهم.ويلفتنا هنا أيضا. أنه قال "تعلمون" ولم يقل: تعرفون. والعلم إدراك الشيء بحقيقته كعبارة "الراغب" في مفرداته، والعربية قد استعملت المادة حسيا فيما هو ظاهر واضح لا لبسفيه. فالعلمة والعلم شق ظاهر في الشفة العليا، وعلمه وسمه، والعلامة: السمة، والعلامة أيضا، والعلم: الفصل بين الأرضين، وشيء منصوب في الطريق يهتدي به. والعلم: الجبل الطويل، والراية، ما يعقد على الرمح.ومن هذا الوضوح المميو في العلامة والعلم، استعمل العلم فيما يعرف معرفة واضحة قوية، فقيل: علم الشيء، إذا أدركه، وهو عالم به إذا انكشف له حقيقته.وفي الاستعمال القرآني للملدة، نرى الله تعالى يوصف بالعالم ولا يوصف بالعارف، والعليم من أسمائه الحسنى، ويسند إليه العلم ولا تسند إليه المعرفة. ويختص الله سبحانه وتعلى بما يكون خفيا، وغيبا، ومضمرا، فهو يعلم ما يسرون ويعلم ما في الأرحام، وما تحمل كل أنثى، ما في أنفسكم، وما في قلوبكم، وذات الصدور، ويعلم ما في السماوات والأرض، وما في البر والبحر، ويعلم سركم وجهركم، ويعلم سرهم ونجواهم، ويعلم السر وأخفى، ويعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، ويعلم ما توسوس به نفسك، علام الغيوب، وعنده علم الساعة، وعلم الكتاب.وحين يسند العلم إلى البشر فهو العلم الكسبي عندما يكون على وجه التأكد واليقين، أو في النذير بيوم لا ريب فيه.وتأتي ﴿سوف

---

(١) تفسير الشعراوي الشعراوي ٨٤٣٢/١٤

(٢) التفسير البياني للقرآن الكريم عائشة عبد الرحمن بنت الشاطئ ١١٧/١

تعلمون﴾ ، في نظائر لآية التكاثر، مثل، آيات: الحجر (٣، ٩٦) والفرقان (١٢) والعنكبوت (٦٦) والصافات (١٧٠) والزخرف (٨٩) ، وفي أكثرها بهذا الإنذار بيوم يأتي، تنكشف لهم حقيقة ما خفى عنهم وما أنكروه أو ارتابوا فيه.." (١)

"الباقي؟ قال: باقي التاريخ، قل: في اليوم الفلاني. أنت الآن ذكرت المكان، وذكرت العمل، فاذكر التاريخ قل: في اليوم الفلاني، من الشهر الفلاني، من السنة الفلانية. فانتبه الرجل فقال: هل أنت تعلم ربك بنيتك؟ الله أعلم بنيتك ﴿يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور﴾ وعند الصيام مثلا إذا تسحر الإنسان وأراد أن يصوم فإنه لا يقول: اللهم إني نويت الصيام من الليل؟ لأن هذا من البدع، بقي أن يقال في الحج هل تقول: اللهم إني نويت العمرة، أو نويت الحج، أو نية القران أو التمتع؟ لا تقل هذا، حتى عندما تغتسل وتلبس الإحرام، لا تقل: اللهم إني نويت العمرة أو نويت الحج، تكفي التلبية لأنك سوف تقول: لبيك عمرة، إن كنت في عمرة، أو لبيك حجا، إن كنت في حج، أو لبيك عمرة وحجا، إن كنت قارنا، فلا حاجة إلى التلفظ بالنية فكل العبادات لا ينطق فيها بالنية، ولهذا قال عز وجل: ﴿هو أعلم بمن اتقى﴾ .﴿أفرأيت الذي تولى﴾ الخطاب في قوله: ﴿أفرأيت﴾ للنبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم، ويجوز أن يراد به كل من يتوجه إليه الخطاب، فيكون المعنى على الأول: أفرأيت يا محمد، وعلى القول الثاني: أفرأيت أنت أيها المخاطب أي أخبرني وكلما جاءت (أرأيت) في القرآن فهي بمعنى أخبرني ﴿الذي تولى﴾ ، أي: عن طاعة الله – عز وجل – وعن الإيمان بالله ورسوله صلى الله عليه وسلم وعن إقامة شعائر الإسلام، ﴿وأعطى قليلا وأكدى﴾ يعني أحيانا يعطي، وإذا أعطى أعطى قليلا، وأحيانا." (٢)

"نظيف من الخنا، مجتمع لا تمنع فيه الشهوات الحلال وإنما تمنع منه الشهوات الحرام، مجتمع لا تختلس فيه العيون النظرات السيئة ولا تتطلع فيه الأبصار إلى ما لا يحل لها التطلع إليه، فالله– تعالى– يقول: إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤلا «١» ويقول: يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور «٢» .وقد وردت أحاديث متعددة في الأمر بغض البصر، وحفظ الفرج، ومن ذلك ما أخرجه الشيخان عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: كتب على ابن آدم نصيبه من الزنا مدرك ذلك لا محالة، العينان زناهما النظر، والأذنان زناهما الاستماع، واللسان زناه الكلام، واليد زناها البطش، والرجل زناها الخطا، والقلب يهوى ويتمنى، ويصدق ذلك الفرج أو يكذبه.وروى الإمام مسلم في صحيحه عن جرير بن عبد الله قال: سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن نظر الفجأة– أى البغتة من غير قصد– فقال: «اصرف بصرك» «٣» .٢– أنه لا يحل للمرأة أن تبدى زينتها لأجانب، إلا ما ظهر منها، لأن الله– تعالى– يقول: ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها.قال الإمام القرطبي ما ملخصه: «أمر الله– تعالى– النساء بألا يبدين زينتهن للناظرين، إلا ما استثناه من الناظرين في باقي الآية، حذارا من الافتتان، ثم استثنى ما يظهر من الزينة، واختلف الناس في قدر ذلك.فقال ابن مسعود: ظاهر الزينة هو الثياب.. وقال سعيد بن جبير والأوزاعى: الوجه والكفان والثياب.. وقال ابن عباس وقتادة: ظاهر الزينة هو الكحل والسوار والخضاب..ونحو هذا، فمباح أن تبديه لكل من ظهر عليها من الناس.وقال

---

(١) التفسير البياني للقرآن الكريم عائشة عبد الرحمن بنت الشاطئ ٢٠٣/١

(٢) تفسير العثيمين: الحجرات – الحديد ابن عثيمين ص/٢٣٩

ابن عطية: ويظهر لي بحكم ألفاظ الآية، بأن المرأة مأمورة بأن لا تبدى، وأن لا تجتهد في الإخفاء لكل ما هو زينة، ووقع الاستثناء فيما يظهر، بحكم ضرورة حركة فيما لا بد منه، أو إصلاح شأن ونحو ذلك، «فما ظهر» على هذا الوجه مما تؤدى إليه الضرورة في النساء فهو المعفو عنه.قلت: أى القرطبي-: وهذا قول حسن، إلا أنه لما كان الغالب من الوجه والكفين ظهورهما، عادة وعبادة، صح أن يكون الاستثناء راجعا إليهما.______________(١) سورة الإسراء الآية ٣٦.(٢) سورة غافر الآية ١٩.(٣) راجع كتاب «رياض الصالحين» ص ٥٨٦ للإمام النووي. [.....]."[1]

"والمقصود من هذا كله أن الكفار يسألون الرجعة وهم وقوف بين يدي الله، كما قال- تعالى- ولو ترى إذ المجرمون ناكسوا رؤسهم عند ربهم، ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحا إنا موقنون «١» .ثم بين- سبحانه- أن تذللهم هذا لن يجديهم، وأن ما هم فيه من عذاب سببه إعراضهم عن دعوة الحق في الدنيا، فقال: ذلكم بأنه إذا دعي الله وحده كفرتم، وإن يشرك به تؤمنوا، فالحكم لله العلي الكبير.أى: ذلكم الذي نزل بكم من عذاب سببه، أنكم كنتم في الدنيا إذا عبد الله- تعالى- وحده، وطلب منكم ذلك كفرتم به- عز وجل-، وإن يشرك به غيره من الأصنام أو غيرها آمنتم، ومادام هذا حالكم في الدنيا، فاخسئوا في النار ولا تؤملوا في الخروج منها، بحال من الأحوال، فالحكم لله وحده دون غيره، وهو سبحانه الذي حكم عليكم بما حكم..وهو- سبحانه- العلي أى: المتعالي عن أن يكون له مماثل في ذاته أو صفاته الكبير أى: العظيم الذي هو أعظم وأكبر من أن يكون له شريك أو صاحبة أو ولد.وجمع- سبحانه- لذاته بين هذين الوصفين للدلالة على كبريائه وعظمته.ثم ساق- سبحانه- بعد ذلك ما يدل على فضله ورحمته بعباده، وعلى وحدانيته وكمال قدرته، وعلى أن يوم القيامة آت لا ريب فيه، وعلى أن كل نفس ستجازى في هذا اليوم بما كسبت بدون ظلم أو محاباة، لأن القضاء فيه لله الواحد القهار. فقال- تعالى-:[سورة غافر (٤٠) : الآيات ١٣ الى ٢٢]هو الذي يريكم آياته وينزل لكم من السماء رزقا وما يتذكر إلا من ينيب (١٣) فادعوا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون (١٤) رفيع الدرجات ذو العرش يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده لينذر يوم التلاق (١٥) يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شيء لمن الملك اليوم لله الواحد القهار (١٦) اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب (١٧)وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع (١٨) يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور (١٩) والله يقضي بالحق والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء إن الله هو السميع البصير (٢٠) أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم كانوا هم أشد منهم قوة وآثارا في الأرض فأخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق (٢١) ذلك بأنهم كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فكفروا فأخذهم الله إنه قوي شديد العقاب (٢٢)______________(١) راجع تفسير ابن كثير ج ٧ ص ١٢٢.." [2]

"والشفيع: من الشفع، بمعنى الانضمام، يقال شفع فلان لفلان إذا انضم إليه ليدافع عنه.أى: ليس للظالمين في هذا اليوم قريب أو محب يعطف عليهم، ولا شفيع يطيعهم في الشفاعة لهم، لأنهم في هذا اليوم يكونون محل غضب الجميع

---

(١) التفسير الوسيط لطنطاوي محمد سيد طنطاوي ١١٩/١٠

(٢) التفسير الوسيط لطنطاوي محمد سيد طنطاوي ٢٦٨/١٢

ونقمتهم، بسبب ظلمهم وإصرارهم على كفرهم.فالآية الكريمة نفت عنهم الصديق الذي يهتم بأمرهم، والشفيع الذي يشفع لهم، والإنسان الذي تكون له أية كلمة تسمع في شأنهم.ثم أكد- سبحانه- شمول علمه لكل شيء فقال: يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور.والمراد بخائنة الأعين: النظرة الخائنة التي يتسلل بها المتسلل ليطلع على ما حرم الله الاطلاع عليه.والجملة خبر لمبتدأ محذوف. والإضافة في قوله خائنة الأعين على معنى من، وخائنة:نعت لمصدر محذوف.أى: هو- سبحانه- يعلم النظرة الخائنة من الأعين، وهي التي يوجهها صاحبها في تسلل وخفية إلى محارم الله- تعالى- كما يعلم- سبحانه- الأشياء التي يخفيها الناس في صدورهم، وسيجازيهم على ذلك في هذا اليوم بما يستحقون.قال القرطبي: ولما جيء بعبد الله بن أبى سرح إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ما اطمأن أهل مكة، وطلب له الأمان عثمان بن عفان، صمت رسول الله صلى الله عليه وسلم طويلا، ثم قال:«نعم» .فلما انصرف قال صلى الله عليه وسلم لمن حوله: «ما صمت إلا ليقوم إليه بعضكم فيضرب عنقه» .فقال رجل من الأنصار: فهلا اومأت إلى يا رسول الله؟ فقال: «إن النبي لا تكون له خائنة أعين» «١» .ثم بين- سبحانه- أن القضاء الحق في هذا اليوم مرده إليه وحده فقال: والله يقضي بالحق....أى: والله- تعالى- يقضى بين عباده قضاء ملتبسا بالحق الذي لا يحوم حوله باطل.والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء.. أى: والآلهة الذين يعبدهم الكفار من________________(١) تفسير القرطبي ج ١٥ ص ٣٠٣.." [1]

"سركم وجهركم ويعلم ما تكسبون﴾ من خير وشر فهو تعالى فوق عرشه بائن من خلقه ويعلم سر عباده وجهرهم ويعلم أعمالهم وما يكتسبون بجوارحهم يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، لذا وجبت الرغبة فيما عنده من خير، والرهبة مما لديه من عذاب، ويحصل ذلك لهم بالإنابة إليه وعبادته والتوكل عليه.هداية الآياتمن هداية الآيات:١- وجوب حمد الله تعالى والثناء عليه بما هو أهله.٢- لا يصح حمد أحد بدون ما يوجد لديه من صفات الكمال ما يحمد عليه.٣- التعجب من حال من يسوون المخلوقات بالخالق عز وجل في العبادة.٤- التعجب من حال من يرى عجائب صنع الله ومظاهر قدرته ثم ينكر البعث والحياة الآخرة.٥- صفة العلم لله تعالى وأنه تعالى لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء يعلم السر وأخفى.وما تأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين (٤) فقد كذبوا بالحق لما جاءهم فسوف يأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزؤون (٥) ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن مكناهم في الأرض ما لم نمكن لكم وأرسلنا السماء عليهم مدرارا وجعلنا الأنهار تجري من تحتهم فأهلكناهم بذنوبهم وأنشأنا من بعدهم قرنا آخرين (٦)." [2]

"معنى الآيات:سبق أن ذكرنا أنه لقبح وفساد الزنى وسوء أثره على النفس والحياة البشرية وضع الشارع عدة أسباب واقية من الوقوع فيه ومنها الأمر بغض البصر للرجال والنساء فقوله تعالى: ﴿قل للمؤمنين يغضوا١ فن أبصارهم ويحفظوا فروجهم﴾ أي مر يا رسولنا المؤمنين بأن يغضوا من٢ أبصارهم أي بأن يخفضوا أجفانهم على أعينهم حتى لا ينظروا إلى الأجنبيات عنهم من النساء ويحفظوا فروجهم عن النظر إليها فلا يكشفوها لأحد إلا ما كان من الزوج لزوجه فلا حرج وعدم النظر أولى وأطيب، وقوله: ﴿ذلك أزكى لهم﴾ أي أطهر لنفوسهم من نوافل العبادات، وقوله: ﴿إن الله خبير بما

---

(١) التفسير الوسيط لطنطاوي محمد سيد طنطاوي ٢٧٥/١٢

(٢) أيسر التفاسير للجزائري أبو بكر الجزائري ٣٦/٢

يصنعون﴾ فليراقبوه تعالى في ذلك المأمور به من غض البصر وحفظ الفرج إنه يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور.وقوله تعالى: ﴿وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن٣﴾ إذ شأنهن شأن الرجال في كل ما أمر به الرجال من غض البصر وحفظ الفرج وقوله تعالى: ﴿ولا يبدين زينتهن﴾ أي مرهن بغض البصر وحفظ الفرج وعدم إظهار الزينة ﴿إلا ما ظهر منها﴾ مما لا يمكنها ستره وإخفاؤه كالكفين عند تناول شيء أو إعطائه أو العينين تنظر بهما وإن كان في اليد خاتم وحناء وفي العينين كحل وكالثياب الظاهرة من خمار على الرأس وعباءة تستر الجسم فهذا معفو عنه إذ لا يمكنها ستره.وقوله تعالى: ﴿وليضربن بخمرهن على جيوبهن﴾ كانت المرأة تضع خمارها على رأسها مسبلا على كتفيها فأمرت أن تضرب به على فتحات درعها حتى تستر العنق والصدر سترا كاملا وقوله: ﴿ولا يبدين زينتهن٤﴾ أعاد اللفظ ليرتب عليه ما بعده من المحارم الذي يباح للمؤمنة أن تبدي زينتها إليهم وهم الزوج، والأب والجد وان علا وأب الزوج وإن علا وابنها لان سفل وأبناء الزوج وإن نزلوا، والأخ لأب أو الشقيق أو لأم وأبناؤه وأن نزلوا، وابن الأخ________________١ غض البصر واحترام النساء بعدم النظر إليهن معروف في الجاهلية وهذا عنترة بن شداد يقول:وأغض طرفي ما بدت لي جارتيحتى يواري جارتي مأواها؟لم يذكر الله تعالى ما يغض البصر من أجله للعلم به وهو: وجود النساء الأجنبيات، وكذا ما يحفظ منه الفرج، وهو: النظر إليه والزنى واللواط.٢ ﴿من﴾ جائز أن تكون زائدة في يغضوا أبصارهم، وجائز أن تكون للتبعيض لجواز النظر إلى المحارم.٣ ورد في الأمر بغض البصر في السنة قوله صلى الله عليه وسلم "إياكم والجلوس في الطرقات فقالوا يا رسول الله ما لنا من مجالسنا بد نتحدث فيها فقال: فإذا أبيتم إلا المجلس فأعطوا الطريق حقه قالوا: وما حق الطريق يا رسول الله؟ قال: غض البصر وكف الأذى ورد السلام، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر" وقال لعلي رضي الله عنه "لا تتبع النظرة النظرة فإنما لك الأولى وليست لك الثانية".٤ قال ابن عطية: ويظهر لي بحكم ألفاظ الآية: أن المرأة مأمورة بأن لا تبدي وأن تجتهد في الإخفاء لكل ما هو زينة، ووقع الاستثناء فيما يظهر لحكم ضرورة حركة فيما لابد منه، أو إصلاح شأن ونحو ذلك فيما ظهر على هذا الوجه مما تؤدي إليه الضرورة في النساء فهو المعفو عنه.." (١)

"هداية الآياتمن هداية الآيات:١- عدم جدوى الاعتذار يوم القيامة هذا فيما لو أذن للعبد أن يعتذر فلا ينفعه اعتذار.٢- تقرير التوحيد وإبطال الشرك والتنديد.٣- بيان إفضال الله على العباد إذ يريهم آياته لهدايتهم ويرزقهم وهم يكفرون به.٤- وجوب إخلاص الدعاء وسائر العبادات لله وحد ولو كره ذلك المشركون.٥- تقرير النبوة، وبيان الحكمة فيها وهي إنذار الناس من عذاب يوم القيامة حيث الناس بارزون لله لا يخفى على الله منهم شيء فيحاسبهم بعلمه وعدله فلا ينقضي نهار إلا وقد استقر أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار اللهم أعذنا من نار جهنم.وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع (١٨) يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور (١٩) والله يقضي بالحق والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء إن الله هو السميع البصير (٢٠)شرح الكلمات:يوم الآزفة: أي يوم القيامة.إذ القلوب لدى الحناجر: أي من شدة الخوف تكون القلوب قد ارتفعت حتى وصلت عند الحناجر.كاظمين: أي لقلوبهم يريدون ردها فلم يقدروا.ما لظالمين من حميم: أي ليس للمشركين من محب قريبا كان أو بعيدا.يعلم خائنة الأعين:

---

(١) أيسر التفاسير للجزائري أبو بكر الجزائري ٣/٥٦٦

أي الله تعالى يعلم العين إذا سرقت النظر إلى محرم.والله يقضي بالحق: أي لكمال قدرته وعلمه يحكم بالحق.والذين يدعون من دونه: أي والذين يدعوهم مشركو قريش من أصنام لا يقضون بشيء عدلا كان أو جورا لأنهم أصنام لا تسمع ولا تبصر.." (١)

"معنى الآيات:بعد بيان الموقف الصعب في عرصات القيامة في الآيات السابقة قال تعالى لرسوله ﴿وأنذرهم﴾ يا رسولنا أي خوف قومك ﴿يوم الآزفة﴾ (١) وهي يوم القيامة القريبة والتي قد قربت فعلا وكل ما هو آت قريب أنذرهم قربها حتى لا يوافوها بالشرك والمعاصي فيخسروا خسرانا مبينا، أنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب (٢) من شدة الخوف ترتفع إلى الحناجر (٣) وهم يكظمونها فلا هي تخرج فيموتوا ولا هي تعود إلى أماكنها فيستريحوا.﴿ما للظالمين﴾ وهم أهل الشرك والمعاصي ﴿من حميم﴾ قريب أو حبيب يدفع عنهم العذاب ﴿ولا شفيع﴾ يشفع لهم وتقبل شفاعته ويطاع فيها لا ذا ولا ذاك يا لفظاعة الحال وقوله تعالى: ﴿يعلم خائنة الأعين (٤) ﴾ يخبر تعالى عن سعة علمه وواسع اطلاعه أنه يعلم خائنة الأعين وهي العين تسترق النظر إلى المحارم، ويعلم ﴿وما تخفي الصدور (٥) ﴾ أي وما تكتمه صدور العباد وما تضمره من خير وشر، ولذا فسوف يكون الحساب دقيقا ومن نوقش الحساب عذب. ﴿والله يقضي بالحق﴾ أي يحكم بالعدل، ﴿والذين يدعون من (٦) دونه﴾ أي والذين يعبدهم المشركون من أصنام وأوثان ﴿لا يقضون بشيء (٧) ﴾ لأنهم لا يسمعون ولا يبصرون.وقوله ﴿إن الله هو السميع البصير﴾ السميع لأقوال عباده البصير بأعمالهم وأحوالهم فلذا إذا حكم يحكم بالحق ويقدر على إنفاذ الحكم فيجزي السيئة بالسيئة والحسنة بعشر أمثالها.هداية الآياتمن هداية الآيات:١- بيان هول يوم القيامة وصعوبة الموقف فيه.______________١- يقال أزف فلان يأزف أزفا قال النابغة:أزف الترحل غير أن ركابنالما تزل برحالنا وكأن قد٢- القلوب: جمع قلب وهو البضعة الصنوبرية الشكل التي تتحرك دائما ما دام الجسم حيا تدفع الدم إلى الشرايين التي بها حياة الجسم.٣- الحناجر جمع حنجرة بفتح الحاء والجيم وهي الحلقوم.٤- أي الله جل جلاله يعلم الأعين الخائنة قال ابن عباس رضي الله عنهما هو الرجل يكون جالسا مع القوم فتمر المرأة فيسارقهم النظر إليها.٥- قال ابن عباس وما تخفي الصدور أي هل يزني بها من سرق النظر إليها لو خلا بها أو لا.٦- قرأ نافع تدعون بالتاء وقرأ حفص بالياء يدعون.٧- من جملتي والله يقضي بالحق وجملة والذين يدعون من دونه قبلها تألف قصر القضاء على الله تعالى قصر قلب أي دون الأصنام. كما أفيد القصر من ضم الجملتين في قوله الشاعر:تسيل على حد الظبات نفوساوليست على غير الظبات تسيل." (٢)

"٢- انعدام الحميم والشفيع للظالمين يوم القيامة.٣- بيان سعة علم الله تعالى حتى إنه يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور.٤- قضاء الله عدل وحكمه نافذ وذلك لكمال علمه وقدرته.أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم كانوا هم أشد منهم قوة وآثارا في الأرض فأخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق (٢١) ذلك بأنهم كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فكفروا فأخذهم الله إنه قوي شديد العقاب (٢٢)شرح الكلمات:أو لم يسيروا في الأرض:

---

(١) أيسر التفاسير للجزائري أبو بكر الجزائري ٥٢٢/٤

(٢) أيسر التفاسير للجزائري أبو بكر الجزائري ٥٢٣/٤

أي أغفل كفار قريش ولم يسيروا في الأرض.فينظروا: أي بأعينهم.كيف كان عاقبة الذين من قبلهم: إنها كانت دمارا وخسارا ووبالا عليهم.كانوا هم أشد منهم قوة وآثارا في الأرض: ولم يغن ذلك عنهم من الله شيئا.فأخذهم الله بذنوبهم: أي عاقبهم بذنوبهم فدمرهم وأهلكهم.وما كان لهم من الله من واق: أي ولم يوجد لهم من عقاب الله من واق يقيهم منه.ذلك بأنهم كانت تأتيهم رسلهم بالبينات: أي بالحجج والبراهين والأدلة والمعجزات.فكفروا: أي بتلك الحجج والآيات.فأخذهم الله: أي لما كفروا أخذهم بكفرهم.إنه قوي شديد العقاب: هذا تعليل لأخذه إياهم." (١)

"هل بلغت عبادي؟ وأنا قائل له: رب قد بلغتهم، ألا فليبلغ الشاهد منكم الغائب، ثم إنكم مدعوون ومفدمة أفواهكم بالفدام....(المسند ٥/٤) ، وأخرجه عبد الرزاق في (مصنفه ١١/١٣٠) ، والطبراني في (الكبير ١٩/٤٠٧) ، وابن عبد البر في (الإستيعاب ١/٣٢٣) - هامش الإصابة - من طرق عن بهز به وصححه ابن عبد البر.وأصله في (سنن النسائي ٥/٤-٥) ، وحسنه الألباني في (صحيح النسائي ٢/٥١١ و٥٤٢) .انظر حديث البخاري عن عبد الله بن عمر الآتي عند الآية (٦) من سورة التحريم.قوله تعالى (فلنقصن عليهم بعلم وما كنا غائبين)قال الشيخ الشنقيطي: قوله تعالى (فلنقصن عليهم بعلم وما كنا غائبين) بين تعالى في هذه الآية الكريمة أنه يقص على عباده يوم القيامة ما كانوا يعملونه في الدنيا، وأخبرهم بأنه جل وعلا لم يكن غائبا عما فعلوه أيام فعلهم له في دار الدنيا، بل هو الرقيب الشهيد على جميع الخلق، المحيط علمه بكل ما فعلوه من صغير وكبير، وجليل وحقير، وبين هذا المعنى في آيات كثيرة كقوله (ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة إن الله بكل شيء عليم) وقوله (يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو معكم أينما كنتم) وقوله (وما تكون في شأن وما تتلو منه من قرأن ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهودا إذ تفيضون فيه وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب) .انظر حديث البخاري عن عدي بن حاتم المقدم عند الآية (١٣١) من سورة آل عمران.قال ابن كثير: (وما كنا غائبين) يعني: أنه تعالى يخبر عباده يوم القيامة بما قالوا وبما عملوا، من قليل وكثير، وجليل وحقير، لأنه تعالى شهيد على كل شيء، لا يغيب عنه شيء، ولا يغفل عن شيء، بل هو العالم بخائنة الأعين وما تخفي الصدور، (وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين) .." (٢)

"يقول: يحشر الله العباد أو قال الناس عراة غرلا بهما قال: قلنا: ما بهما، قال ليس معهم شيء ثم يناديهم بصوت يسمعه من بعد كما يسمعه من قرب أنا الملك أنا الديان لا ينبغي لأحد من أهل الجنة أن يدخل الجنة ولا ينبغي لأحد من أهل النار أن يدخل النار وعنده مظلمة حتى اقصه منه حتى اللطمة قال قلنا كيف ذا وإنما نأتي الله غرلا بهما؟ قال: بالحسنات والسيئات قال: وتلا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - (اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم) .صحيح الإسناد ولم يخرجاه. (المستدرك ٢/٤٣٧-٤٣٨ - ك التفسير، وصححه الذهبي) ، وأخرجه البخاري معلقا بصيغة الجزم

---

(١) أيسر التفاسير للجزائري أبو بكر الجزائري ٤/٥٢٤

(٢) الصحيح المسبور من التفسير بالمأثور حكمت بشير ياسين ٢/٣٠٠

مختصرا وحسن إسناده الحافظ ابن حجر (الفتح ١/١٧٣-١٧٤) ، ووافقه الألباني في (السلسلة الصحيحة ١/٣٠٢) .وانظر سورة الزلزلة آية (٦-٨) .قال ابن كثير: وقوله (إن الله سريع الحساب) ، أي: يحاسب الخلائق كلهم، كما يحاسب نفسا واحدة، كما قال: (ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة) وقال: (وما أمرنا إلا واحدة كلمح البصر) .قوله تعالى (وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع)انظر سورة النجم آية (٥٧) لبيان يوم الآزفة أي: يوم القيامة.أخرج الطبري بسنده الحسن عن السدي (إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين) قال: شخصت أفئدتهم عن أمكنتهم، فنشبت في حلوقهم، فلم تخرج من أجوافهم فيموتوا ولم ترجع إلى أمكنتها فتستقر.أخرج الطبري بسنده الحسن عن السدي (ما للظالمين من حميم ولا شفيع) قال: من يعنيه أمرهم، ولا شفيع لهم.قوله تعالى (يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور)أخرج الطبري بسنده الصحيح عن مجاهد (يعلم خائنة الأعين) قال: نظر الأعين إلى ما نهى الله عنه.." (١)

"أشد من يوم أحد؟ فقال: "لقد لقيت من قومك وكان أشد ما لقيت منه يوم العقبة، إذ عرضت نفسي على (ابن عبد ياليل بن عبد كلال) فلم يجبني إلى ما أردت، فانطلقت وأنا مهموم على وجهي، فلم أستفق إلا بقرن الثعالب، فرفعت رأسي فإذا أنا بسحابة قد ظللتني، فنظرت فإذا فيها جبريل عليه السلام، فناداني، فقال: إن الله قد سمع قول قومك لك وما ردوا عليك، وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم، قال: فناداني ملك الجبال وسلم علي، ثم قال: يا محمد إن الله قد سمع قول قومك لك، وقد بعثني ربك إليك لتأمرني بأمرك فيما شئت، إن شئت أطبقت عليهم الأخشبين، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله لا يشرك به شيئا. فقد عرض عليه عذابهم واستئصالهم فاستأنا بهم، وسأل لهم التأخير لعل الله أن يخرج من أصلابهم من لا يشرك به شيئا، فما الجمع بين هذا وبين قوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿قل لو أن عندي ما تستعجلون به لقضي الأمر بيني وبينكم والله أعلم بالظالمين﴾؟ فالجواب - والله أعلم - أن هذه الآية دلت على أنه لو كان إليه وقوع العذاب الذي يطلبونه حال طلبهم له لأوقعه بهم. وأما الحديث فليس فيه أنهم سألوه وقوع العذاب بهم بل عرض عليه ملك الجبال، أنه إن شاء أطبق عليهم الأخشبين وهما جبلا مكة اللذان يكتنفانها جنوبا وشمالا، فلهذا استأنى بهم وسأل الرفق لهم.وقوله تعالى: ﴿وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو﴾ قال البخاري عن سالم بن عبد الله عن أبيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: مفاتح الغيب خمس لا يعلمهن إلا الله" ثم قرأ: إن الله عنده علم الساعة، وينزل الغيث، ويعلم ما في الأرحام، وما تدري نفس ماذا تكسب غدا، وما تدري نفس بأي أرض تموت، إن الله عليم خبير﴾، وفي حديث عمر أن جبريل حين تبدى له في صورة أعرابي، فسأل عن الإيمان الإسلام الإحسان. فقال له النبي صلى الله عليه وسلم فيما قال له: «خمس لا يعلمهن إلا الله» ثم قرأ: ﴿إن الله عنده علم الساعة﴾ الآية. وقوله: ﴿ويعلم ما في البر والبحر﴾ أي يحيط علمه الكريم بجميع الموجودات بريها وبحريها لا يخفى عليه من ذلك شيء ولا مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، وما أحسن ما قاله الصرصري:فلا يخفى عليه الذر إما * تراءى للنواظر أو تواربوقوله تعالى: ﴿وما تسقط من ورقة إلا يعلمها﴾ أي ويعلم الحركات حتى من الجمادات، فما ظنك بالحيوانات لا

---

(١) الصحيح المسبور من التفسير بالمأثور حكمت بشير ياسين ٤/٢٥٦

سيما بالمكلفون منهم من جنهم وإنسهم، كما قال تعالى: ﴿يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور﴾ وقال ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿وما تسقط من ورقة إلا يعلمها﴾ قال: ما من شجرة في بر ولا بحر إلا وملك موكل بها يكتب ما يسقط منها، وقوله: ﴿ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين﴾ قال عبد الله بن الحارث: ما في الأرض من شجرة ولا مغرز إبراة إلا وعليها ملك موكل يأتي الله بعلمها رطوبتها إذا رطبت ويبوستها إذا يبست.." (١)

"﴿وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلا وكنا نحن الوارثين﴾، وقوله: ﴿فجآءها بأسنا بياتا أو هم قآئلون﴾ أي فكان منهم من جاءه أمر الله وبأسه ونقمته ﴿بياتا﴾ أي ليلا ﴿أو هم قآئلون﴾ من القيلولة وهي الاستراحة وسط النهار، وكلا الوقتين وقت غفلة ولهو، كما قال: ﴿أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتا وهم نآئمون * أو أمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحى وهم يلعبون﴾، وقال: ﴿أفأمن الذين مكروا السيئات أن يخسف الله بهم الأرض أو يأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون أو يأخذهم في تقلبهمفما هم بمعجزين﴾،وقوله: ﴿فما كان دعواهم إذ جآءهم بأسنآ إلا أن قالوا إنا كنا ظالمين﴾ أي فما كان قولهم عند مجيء العذاب إلا أن اعترفوا بذنوبهم وأنهم حقيقون بهذا، كقوله تعالى: ﴿وكم قصمنا من قرية كانت ظالمة – إلى قوله – خامدين﴾، قال ابن جرير: في هذه الآية الدلالة الواضحة على صحة ما جاءت به الرواية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «ما هلك قوم حتى يعذروا من أنفسهم»، وقوله: ﴿فلنسألن الذين أرسل إليهم﴾ الآية، كقوله: ﴿ويوم يناديهم فيقول ماذآ أجبتم المرسلين﴾، وقوله: ﴿يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذآ أجبتم؟ قالوا: لا علم لنا إنك أنت علام الغيوب﴾ فيسأل الله الأمم يوم القيامة عما أجابوا رسله فيما أرسلهم به، ويسأل الرسل أيضا عن إبلاغ رسالاته، ولهذا قال ابن عباس في تفسير هذه الآية ﴿فلنسألن الذين أرسل إليهم ولنسئلن المرسلين﴾ قال: عما بلغوا.وعن ابن عمر قال، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته فالإمام يسأل عن رعيته والرجل يسأل عن أهله والمرأة تسأل عن بيت زوجها والعبد يسأل عن مال سيده»، ثم قرأ: ﴿فلنسئلن الذين أرسل إليهم ولنسئلن المرسلين﴾ (رواه ابن مردويه، وهو مخرج في الصحيحين بدون زيادة قوله ثم قرأ الآية)، وقال ابن عباس في قوله: ﴿فلنقصن عليهم بعلم وما كنا غآئبين﴾ يوضع الكتاب يوم القيامة فيتكلم بما كانوا يعملون، ﴿وما كنا غآئبين﴾ يعني أنه تعالى يخبر عباده يوم القيامة بما قالوا وبما عملوا من قليل وكثير وجليل وحقير، لأنه تعالى الشهيد على كل شيء لا يغيب عنه شيء، ولا يغفل عن شيء بل هو العالم بخائنة الأعين وما تخفي الصدور ﴿وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين﴾.." (٢)

"أي مهما تكنه ضمائركم وتنطوي عليه سرائركم، فإن الله يعلمه فإنه لا تخفى عليه خافية ﴿يعلم خآئنة الأعين وما تخفي الصدور﴾ (نزلت الآية في طلحة بن عبيد الله، قال: أيحجبنا محمد عن بنات عمنا ويتزوج نساءنا، لئن حدث به حدث لنتزوجن نساءه بعده، فأنزل الله هذه الآية. أخرجه ابن أبي حاتم وأخرج جويبر عن ابن عباس: أن رجلا أتى بعض أزواج الرسول فكلمها، وهو ابن عم لها، فكره الرسول ذلك، فقال الرجل: يمنعني من كلام ابنة عمي، لأتزوجنها من من

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير محمد علي الصابوني ٥٨٣/١

(٢) مختصر تفسير ابن كثير محمد علي الصابوني ٦/٢

بعده فنزلت الآية، قال ابن عباس: فأعتق ذلك الرجل رقبة، وحمل على عشرة أبعرة في سبيل الله وحج ماشيا، توبة من كلمته)..". (١)

"قال مجاهد: أراهم الله إياه في منامه قليلا، وأخبر النبي صلى الله عليه وسلم بذلك فكان تثبيتا لهم، وقوله: ﴿ولو أراكهم كثيرا لفشلتم﴾ أي لجبنتم واختلفتم فيما بينكم ﴿ولكن الله سلم﴾ أي من ذلك بأن أراكهم قليلا، ﴿إنه عليم بذات الصدور﴾ أي بما تجنه الضمائر وتنطوي عليه الأحشاء، ﴿يعلم خآئنة الأعين وما تخفي الصدور﴾، وقوله: ﴿وإذ يريكموهم إذ التقيتم في أعينكم قليلا﴾ وهذا أيضا من لطفه تعالى بهم إذ أراهم إياهم قليلا في رأي العين فيجرؤهم عليهم ويطمعهم فيهم. قال ابن مسعود رضي الله عنه: لقد قللوا في أعيننا يوم بدر حتى قلت لرجل إلى جنبي تراهم سبعين؟ قال: لا، بل هم مائة، حتى أخذنا رجلا منهم، فسألناه فقال: كنا ألفا (رواه ابن أبي حاتم وابن جرير﴾، وقوله: ﴿ويقللكم في أعينهم﴾، قال عكرمة: حضض بعضهم على بعض، ﴿ليقضي الله أمرا كان مفعولا﴾ أي ليلقي بينهم الحرب للنقمة من أراد الانتقام منه، والإنعام على من أراد تمام النعمة عليه من أهل ولايته، ومعنى هذا أنه تعالى أغرى كلا من الفريقين بالآخر، وقلله في عينه ليطمع فيه، وذلك عند المواجهة، فلما التحم القتال وأيد الله المؤمنين بألف من الملائكة مردفين، بقي حزب الكفار يرى حزب الإيمان ضعفيه، كما قال تعالى: ﴿قد كان لكم آية في فئتين التقا فئة تقاتل في سبيل الله وأخرى كافرة يرونهم مثليهم رأى العين﴾ وهذا هو الجمع بين هاتين الآيتين، فإن كلا منها حق وصدق ولله الحمد والمنة.." (٢)

"- ١٨ - وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع- ١٩ - يعلم خآئنة الأعين وما تخفي الصدور- ٢٠ - والله يقضي بالحق والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء إن الله هو السميع البصيريوم الآزفة: اسم من أسماء يوم القيامة، وسميت بذلك لاقترابها، كما قال تعالى: ﴿أزفت الآزفة * ليس لها من دون الله كاشفة﴾، وقال عز وجل: ﴿اقتربت الساعة وانشق القمر﴾، وقال جل وعلا: ﴿فلما رأوه زلفة سيئت وجوه الذين كفروا﴾ الآية، وقوله تبارك وتعالى: ﴿إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين﴾. قال قتادة: وقفت القلوب في الحناجر من الخوف، فلا تخرج ولا تعود إلى أماكنها (وكذا قال عكرمة والسدي وغير واحد)، ومعنى ﴿كاظمين﴾ أي ساكتين لا يتكلم أحد إلا بإذنه ﴿لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا﴾، وقال ابن جريج ﴿كاظمين﴾ أي باكين، وقوله سبحانه ﴿ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع﴾، أي ليس للذين ظلموا من قريب ينفعهم، ولا شفيع يشفع فيهم، بل قد تقطعت بهم الأسباب من كل خير، وقوله تعالى: ﴿يعلم خآئنة الأعين وما تخفي الصدور﴾ يخبر عز وجل عن علمه التام المحيط بجميع الأشياء، جليلها وحقيرها، صغيرها وكبيرها، دقيقها ولطيفها ليحذر الناس ربهم، فيتقوه حق تقواه، ويراقبوه مراقبة من يعلم أنه يراه، فإنه عز وجل يعلم العين الخائنة، ويلعم ما تنطوي عليه خبايا الصدور من الضمائر والسرائر، قال ابن عباس ﴿يعلم

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير محمد علي الصابوني ١١٠/٢

(٢) مختصر تفسير ابن كثير محمد علي الصابوني ١١٠/٢

خآئنة الأعين وما تخفي الصدور﴾: هو الرجل يدخل على أهل البيت بيتهم، وفيهم المرأة الحسناء، أو تمر به وبهم المرأة الحسناء، فإذا غفلوا لحظ إليها، فإذا فطنوا." (١)

"غض بصره عنها، فإذا غفلوا لحظ، فإذا فطنوا غض، وقد اطلع الله تعالى من قلبه أنه ود ولو اطلع على فرجها، وقال الضحاك ﴿خآئنة الأعين﴾: هو الغمز، وقول الرجل رأيت ولم ير، وقال ابن عباس: يعلم الله تعالى من العين في نظرها هل تريد الخيانة أم لا؟ ﴿وما تخفي الصدور﴾ يعلم إذا أنت قدرت عليها هل تزني بها أم لا؟ وقال السدي: ﴿وما تخفي الصدور﴾ أي من الوسوسة، وقوله عز وجل ﴿والله يقضي بالحق﴾ أي يحكم بالعدل. قال ابن عباس: قادر علىأن يجزي بالحسنة الحسنة وبالسيئة السيئة ﴿إن الله هو السميع البصير﴾ وهذا الذي فسر به ابن عباس رضي الله عنهما هذه الآية، كقوله تبارك وتعالى: ﴿ليجزي الذين أساءوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى﴾، وقوله جل وعلا: ﴿والذين يدعون من دونه﴾ أي من الأصنام والأوثان والأنداد، ﴿لا يقضون بشيء﴾ أي لا يملكون شيئا ولا يحكمون بشيء، ﴿إن الله هو السميع البصير﴾ أي سميع لأقوال خلقه بصير بهم، فيهدي من يشاء ويضل من يشآء، وهو الحاكم العادل في جميع ذلك.." (٢)

"وما تخفي الصدور﴾. وفي الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «كتب على ابن آدم حظه من الزنا أدرك ذلك لا محالة، فزنا العينين النظر، وزنا اللسان النطق، وزنا الأذنين الاستماع، وزنا اليدين البطش، وزنا الرجلين الخطي، والنفس تمنى وتشتهي، والفرج يصدق ذلك أو يكذبه»، وقد قال كثير من السلف: إنهم كانوا ينهون أن تحد الرجل نظره إلى الأمرد، وقد شدد كثير من أئمة الصوفية في ذلك وحرمه طائفة من أهل العلم، لما فيه من الافتتان، وشدد آخرون في ذلك كثيرا جدا. وفي الحديث: «كل عين باكية يوم القيامة إلا عينا غضت عن محارم الله، وعينا سهرت في سبيل الله، وعينا يخرج منها مثل رأس الذباب من خشية الله عز وجل» (أخرجه ابن أبي الدنيا عن أبي هريرة مرفوعا).." (٣)

"ومع هذا المنهج الصحيح لفهم الأسماء والصفات، فلا بد أن ينضم إليه العناية بآثارها القلبية، والتعبد لله عز وجل ودعائه بها، حتى يتم الإيمان بالأسماء والصفات كما آمن با سلف الأمة الذين جمعوا بين الفهم والعمل، ونظروا إلى كل اسم من أسماء الله عز وجل بأن فيه حقا من العبودية لله عز وجل على العباد يتعبدون لله سبحانه وتعالى به.وهذه الآثار التي يورثها الإيمان بأسماء الله وصفاته يبينها ابن القيم، فيقول: "والأسماء الحسنى والصفات العلى مقتضية لآثارها من العبودية، والأمر اقتضاءها لآثارها من الخلق والتكوين، فكل صفة عبودية خاصة هي من موجباتها ومقتضياتها، عني من موجبات العلم بها والتحقق بمعرفتها، وهذا مطرد في جميع أنواع العبودية التي على القلب والجوارح، فعلم العبد يتفرد الرب تعالى بالضرر والنفع والعطاء والمنع والخلق والرزق، والإحياء والإماتة يثمر له عبودية التوكل عليه باطنا، ولوازم التوكل وثمراته ظاهرا، وعلمه بسمعه تعالى وبصره وعلمه، وأنه لا يخفى عليه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض، وأن يعلم السر وأخفى، ويعلم

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير محمد علي الصابوني ٢/٢٣٩

(٢) مختصر تفسير ابن كثير محمد علي الصابوني ٢/٢٤٠

(٣) مختصر تفسير ابن كثير محمد علي الصابوني ٢/٥٩٩

خائنة الأعين وما تخفي الصدور، يثمر له حفظ لسانه وجوارحه وخطرات قلبه عن كل ما لا يرضي الله، وأن يجعل تعلق هذه الأعضاء بما يحبه الله ويرضاه، فيثمر له ذلك الحياء باطنا، ويثمر له الحياء اجتناب المحرمات والقبائح.ومعرفته بغناه وجوده وكرمه وبره، وإحسانه ورحمته توجب له سعة الرجاء، ويثمر له ذلك من أنواع العبودية الظاهرة، والباطنة بحسب معرفته وعلمه، وكذلك معرفته بجلال الله وعظمته وعزه تثمر له الخضوع والاستكانة والمحبة، وتثمر له تلك الأحوال الباطنة أنواعا من العبودية الظاهرة هي من موجباتها، وكذلك علم بكماله وجماله، وصفاته العلى يوجب خاصة بمنزلة أنواع العبودية فرجعت العبودية، كلها إلى مقتضى الأسماء والصفات"١.____________١ مفتاح دار السعادة لابن القيم "٢/ ١٠٥"..." (١)

"﴿البلاغ﴾(٩٩) - الرسول مكلف من ربه بإبلاغ الناس أوامر ربه ورسالاته، وحساب الناس على الله، وهو تعالى يعلم السرائر والعلن، وهو يعلم ما تخفي الصدور، وما يبيته الإنسان في سره، وسيحاسب كل إنسان على جميع أعماله في الدنيا.." (٢)

"(٦٢) - قال رجل من المنافقين عن رؤساء المنافقين، الذين تخلفوا عن غزوة تبوك، فنزل فيهم ما نزل من القرآن: (إن هؤلاء لخيارنا وأشرافنا، وإذا كان ما يقوله محمد حقا، لهم شر من الحمير) . فسمعه رجل مسلم فقال: إن محمدا لا يقول إلا حقا، ولأنت شر من الحمار) . ثم ذهب المسلم إلى رسول الله يحدثه بما جرى. فأرسل النبي إلى المنافق وسأله، وقال ما حملك على ما قلت؟ فأخذ المنافق يحلف بالله إنه ما قال ذلك. وقال الرجل المسلم: اللهم صدق الصادق، وكذب الكاذب. فأنزل الله هذه الآية الكريمة.فهؤلاء المنافقون يحلفون لكم على أنهم ما قالوا ما نقل عنهم مما يورث أذى النبي ليرضوكم، فلا تخبروا النبي، مع أن الله ورسوله أحق بالإرضاء من المؤمنين، لأن الله لا يخفى عليه شيء، ويعلم خائنة الأعين. وما تخفي الصدور.." (٣)

"والله تعالى عليم بما تظهرونه من استئذان عند الدخول، وما تضمرونه من قصد سيء، وتدخل في شؤون الآخرين، وحب الاطلاع على عورات الناس وخصوصياتهم وهذا وعيد لأهل الريبة الذين يدخلون البيوت للتلصص، واستراق السمع، ومعرفة الأسرار.يتبين من هذه الآية أنها تشتمل على حكمين:الحكم الأول: وجوب الاستئذان حين الدخول إلى بيوت الآخرين المسكونة.والحكم الثاني: السماح بالدخول إلى البيوت غير الآهلة بالسكان، وليس فيها أحد، إذا كان للداخل متاع فيها، وذلك بغير إذن، كالمضافة العامة، والنزل المخصصة للمسافرين والعابرين.والمهم في الاستئذان: هو تجنب النظر إلى ما يؤذي أهل البيت،فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم فيما رواه أحمد والشيخان والترمذي عن سهل بن سعد: «إنما جعل الاستئذان من أجل البصر» .وذلك للبعد عن المضايقات، وتربية الإنسان على الخلق الكريم، والحياء والأدب الجم، ورقابة الله في السر والعلن، فإن الله يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور.غض البصر والحجابلقد نظم الشرع الحنيف العلاقة بين الرجل والمرأة على أساس من الثقة والحياء والاحترام المتبادل، وترك الاسترسال في التفكير بالخصوصيات المتعلقة بكل

---

(١) طريق الهداية مبادىء ومقدمات علم التوحيد عند أهل السنة والجماعة محمد يسري ص/٢٦٥

(٢) أيسر التفاسير لأسعد حومد أسعد حومد ص/٧٦٩

(٣) أيسر التفاسير لأسعد حومد أسعد حومد ص/١٢٩٨

منهما، والتي تحتاج إلى وجود مسوغ شرعي واضح ودائم، وبعيد عن ساحات الحياة العامة والأنظار الشائعة، ليكون كل شيء في وضعه السليم، وفي موضعه الملائم، لذا أمر الشرع بغض البصر من الجنسين، وبستر ما يجب ستره، منعا من التشبه بالبدائيين،." (١)

"وحفاظا على الأعراض والحرمات والكرامات، قال الله تعالى مبينا حكم النظر والحجاب، وذلك من قبيل سد الذرائع ومنع الوسائل إلى الحرام:[سورة النور (٢٤) : الآيات ٣٠ الى ٣١]قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم إن الله خبير بما يصنعون (٣٠) وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها وليضربن بخمرهن على جيوبهن ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن أو آبائهن أو آباء بعولتهن أو أبنائهن أو أبناء بعولتهن أو إخوانهن أو بني إخوانهن أو بني أخواتهن أو نسائهن أو ما ملكت أيمانهن أو التابعين غير أولي الإربة من الرجال أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن وتوبوا إلى الله جميعا أيها المؤمنون لعلكم تفلحون (٣١)«١» «٢» «٣» «٤» «٥» «٦» «٧» [النور:٢٤/ ٣٠- ٣١] .نزلت هذه الآية في رجل وامرأة تبادلا نظرات السوء، زاعمين أنهما نظرا إلى بعضهما إعجابا وإعظاما، بفعل وسوسة الشيطان، ولكن الحقائق أقوى من الوسواس، والله لا تخفى عليه خافية، يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور.لذا أمر الله تعالى نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم أن يقول للمؤمنين: كفوا أو غضوا أبصاركم، فلا تنظروا إلا إلى ما أبيح النظر إليه. والمعنى: قل لهم: غضوا يغضوا. والغض لبعض الأبصار، لتوبيخ من يكثر التأمل في الحرام. ومع غض البصر حفظ الفروج من ارتكاب الفواحش، فإن غض البصر وحفظ الفرج خير وأطهر لقلوبهم وأنقى لدينهم، فإن الله تام العلم بكل ما يصدر عن الناس من أفعال. وهذا تهديد ووعيد.وخلافا للمعتاد في أن خطاب الرجال يتناول النساء، أفرد الله النساء أيضا______________(١) يكفوا من نظرهم إلى الحرام.(٢) وليلقين.(٣) أغطية رؤوسهن.(٤) على صدورهن وما حولها.(٥) لأزواجهن.(٦) أصحاب الحاجة للنساء.(٧) لم يطلعوا.." (٢)

"الواحد الأحد، صاحب القهر والغلبة والقدرة، لا لأحد سواه من ملك أو رسول أو نبي.إن يوم القيامة: هو يوم الجزاء والحساب والعقاب والثواب بحسب عمل كل عامل، من خير أو شر، صالح أو سيئ، ولا ظلم في الحكم فيه على أحد، فلا زيادة في العقاب، ولا نقص من الثواب، وإن الله في هذا الموقف سريع الحساب لعباده على أعمالهم في الدنيا، فيحاسب الخلائق كلهم كما يحاسب نفسا واحدة، كما جاء في آية أخرى: ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة [لقمان: ٣١/ ٢٨] . وهذا نص واضح على أن الثواب أو العقاب على اكتساب العبد وعمله، وعلى إحاطة الله بالأشياء علما.إنذارات من مخاوف القيامةحرص الحق سبحانه وتعالى في قرآنه على تقويم الإنسان وضمان حياة السعادة والنجاة له، فقدم له الإنذارات المتتالية، والتحذيرات المتعاقبة، ولا سيما من أهوال القيامة ومخاطرها، وهو يوم الآزفة، ليبادر الناس جميعا للإيمان، ويتجنبوا الشرك والعصيان، فإن فعلوا حققوا الخير لأنفسهم، وإن تمردوا وعصوا، جلبوا الدمار والهلاك لذواتهم،

---

(١) التفسير الوسيط للزحيلي وهبة الزحيلي ٢/١٧٤٥

(٢) التفسير الوسيط للزحيلي وهبة الزحيلي ٢/١٧٤٦

ولا يغنيهم أي شيء قدموه أو يقدمونه عن الجزاء العادل، والحساب الرهيب عن سوء أعمالهم، وفحش منكراتهم. وإذا كان الأمر خطيرا تفادينا أسبابه، والسبب النافع يحقق ثمرة طيبة، والسبب العقيم يؤدي إلى نتيجة وخيمة، قال الله تعالى واصفا إنذاراته:[سورة غافر (٤٠) : الآيات ١٨ الى ٢٢]وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع (١٨) يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور (١٩) والله يقضي بالحق والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء إن الله هو السميع البصير (٢٠) أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم كانوا هم أشد منهم قوة وآثارا في الأرض فأخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق (٢١) ذلك بأنهم كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فكفروا فأخذهم الله إنه قوي شديد العقاب (٢٢)«١» «٢»_____________(١) أي يوم القيامة، سميت بذلك لقرب وقوعها.(٢) أي ممتلئين غما شديدا، والحناجر: جمع حنجرة وهي الحلقوم.." (١)

"«١» [غافر: ٤٠/ ١٨- ٢٢] .المعنى: خوف أيها الرسول أهل الكفر من يوم القيامة، ليؤمنوا ويتركوا الشرك والضلال، حيث تكون القلوب في ذلك اليوم كأنها زائلة عن مواضعها من الخوف، وترتفع حتى تصير إلى الحلوق، ويكون أصحابها ممتلئين كربا وغما شديدا، ولا يكون للظالمين الكافرين قريب ينفعهم، ولا شفيع يشفع لهم، أو تقبل شفاعته بهم.وقوله تعالى: إذ القلوب لدى الحناجر، قد صعدت من شدة الهول والجزع.وهذا يصور حال الرعب والخوف أو الذعر الذي يكون عليه الكفار يوم القيامة، والله تعالى يعلم النظرة الخائنة، التي ينظرها الإنسان إلى ما حرم الله عليه، أي يعلم الاختلاسة التي تختلس النظر إلى المحرم وتسارقه، ويعلم الله أيضا كل ما تسره الضمائر من أمور خيرة أو شريرة،. وما تخفيه الصدور من الرغبات والنوايا والخواطر.والنظرة الخائنة: هي النظرة الثانية، وما تخفي الصدور: أي عند النظرة الأولى التي لا يمكن للمرء دفعها. وقوله تعالى: يعلم خائنة الأعين متصل بقوله: سريع الحساب لأن سرعة حسابه تعالى للخلق، إنما هي بعلمه الذي لا يحتاج معه إلى رؤية وفكرة، ولا لشيء مما يحتاجه الحاسبون. والله يحكم بالحكم العادل، ويجازي كل_____________(١) أي حافظ يدفع عنهم السوء أو العذاب.." (٢)

"والمعنى: ويسألك الناس عن أمر اليتامى، قل إصلاح لهم خير من تركهم أو ظلمهم. والإصلاح يتناول كل نفع يعود عليهم من: تنمية أموالهم، وحسن تربيتهم، وتوليتهم بعض أمورهم المالية، ليديروها تحت رقابة أوصيائهم، ونحو ذلك.ولذا نكر ﴿إصلاح﴾ ليتناول كل فروعه. ونكر ﴿خير﴾ ولم يقيد بقيد، ليفهم منه أنه "خير" مطلق: يعم الأوصياء والأيتام. فالخير للأوصياء: جزيل الثواب وحسن الذكر. والخير للأيتام: يسارهم وطيب نشأتهم، ليكونوا نافعين لأنفسهم وأمتهم.﴿وإن تخالطوهم فإخوانكم﴾:أي: إن تخالطوهم - في الطعام والشراب والمسكن - تؤدوا اللائق بكم، فإنهم إخوانكم في الدين.والمقصود: الحث على المخالطة، بشرط الإصلاح.﴿والله يعلم المفسد من المصلح﴾:وقد حذر الله المخالطين من الإفساد عند المخالطة لها فيجازي كلا منهما بما يستحقه، فإن الله لا تخفى عليه خافية: ﴿يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور﴾ (ﷺ١).فالمؤمن ينبغي أن يراعي هذا، فيرغب في إصلاح أحوال اليتيم: طلبا لثواب الله، ويرغب عن الإفساد،

(١) التفسير الوسيط للزحيلي وهبة الزحيلي ٣/٢٢٦٥

(٢) التفسير الوسيط للزحيلي وهبة الزحيلي ٣/٢٢٦٦

خشية عقاب الله:﴿ولو شاء الله لأعنتكم﴾:أي: ولو شاء الله لضيق عليكم، بأن لم يجوز لكم مخالطتهم، لترعوا مصالحهم دون مخالطة. ولكنه – سبحانه – رحيم بعباده، رءوف بهم، ﴿وما جعل عليكم في الدين من حرج﴾ (رَحِمَهُ اللَّهُ٢).﴿إن الله عزيز حكيم﴾:أي إن الله غالب على كل شيء: لا يعجزه أمر أراده، وفي جملته إعانتكم ﴿حكيم﴾ فيما يشرعه من أحكام. ومن جملة ذلك: أنه شرع لكم ما تقتضيه الحكمة، وتتسع له الطاقة البشرية: التي هي أساس التكليف. رَحِمَهُ اللَّهُ______________(رَحِمَهُ اللَّهُ١) غافر: ١٩(رَحِمَهُ اللَّهُ٢) الحج: ٧٨." (١)

"وقد ذكروا تفضيلات عن جوهر كل سماء وعن المسافة بين كل سماء وأخرى وبين كل أرض وأخرى.وهذا ونحوه حقيق بأن نكل أمره إلى الله عالم الغيب والشهادة.(يتنزل الأمر بينهن) أي: يجري أمر الله – تعالى – وقضاؤه وقدره – عز وجل – بينهن، وينفذ حكمه فيهن، وعن قتادة في كل سماء وفي كل أرض خلق من خلقه وقضاء من قضائه – عز وجل – وقيل: (يتنزل الأمر بينهن) بحياة وموت وغنى وفقر.وقال مقاتل: (الأمر) هنا الوحي و (بينهن) إشارة إلى ما بين هذه الأرض السفلى التي هي أدناها وبين السماء السابعة التي هي أقصاها (لتعلموا أن الله على كل شيء قدير) أي: أعلمتكم وأخبرتكم بذلك من خلق سبع سموات بعضها فوق بعض ومن الأرض مثلهن: لتعلموا أن الله قادر على كل شيء (وأن الله قد أحاط بكل شيء علما) لاستحالة صدور هذه المخلوقات العظيمة ممن ليس كذلك، بل هي شواهد ناطقة، ودلالات بينة.على أن علمه الواسع قد أحاط بكل شيء – عز أو دق – وهو سبحانه لا تخفى عليه خافية يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور.." (٢)

"(الأكمه): من ولد أعمى.(والأبرص): المريض ببياض الجلد. والبرص: مرض جلدى يغير لون البشرة إلى البياض.(سحر مبين): السحر؛ تمويه وتخييل. به يرى الإنسان الشيء على غير حقيقته.التفسير١٠٩ – ﴿يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم ... ﴾ الآية.لما أوجب الله على عباده – في الآيات السابقة. إقامة الشهادة على وجهها، وحذرهم من شهادة الزور، وأمرهم بتقوى الله تعالى، عقب ذلك ببيان أهوال يوم القيامة، حتى تتمكن خشية الله وتقواه من نفوسهم، ويعملوا بما كلفهم به.والمعنى: واذكر – أيها المكلف – حين يجمع الله الرسل يوم القيامة. فيقول لهم: ماذا أجبتم من أقوامكم حين دعوتموهم إلى توحيدي وطاعتي؟ أهي إجابة قبول؟ أم إجابة رد وإباء؟وبما أن الله تعالى – يعلم جواب الأمم لرسلهم. فالمقصود بسؤال الله إياهم، وهو إظهار أمانة الرسل وحرصهم على تحري الصدق فيما يقولون. ليكون ذلك تنبيها على وجوب تحرى الصدق في الشهادة، والبعد عن قول الزور؛ ولذا قال سبحانه حكاية عنهم:﴿قالوا لا علم لنا إنك أنت علام الغيوب﴾:أي: يقولون للمولى – عز وجل – لا علم لنا بما أجابونا به، أهو موافق لقلوبهم؟ أم مخالف لها؟ وكل ما عرفناه، ظاهر أحوالهم. فمنهم من أظهر الإيمان فعاملناه معاملة المؤمنين، ومنهم من أظهر الكفر فعاملناه معاملة الكافرين.أما أمر

---

(١) التفسير الوسيط – مجمع البحوث مجموعة من المؤلفين ٣٥٧/١

(٢) التفسير الوسيط – مجمع البحوث مجموعة من المؤلفين ١٤٧٧/١٠

القلوب، فهو إليك. إنك أنت علام الغيوب. وصدق الله إذ يقول:﴿يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور﴾ (ﷺ١). ﷺ____________(ﷺ١) غافر، الآية: ١٩." (١)

"أي أوجبها على نفسه، كرما منه وفضلا. وقد شمل برحمته في الدنيا المؤمن والكافر، والبر والفاجر. فلا تغتروا أيها الكفار بما تنالون في الدنيا من رحمته. واعملوا ليوم يجمعكم فيه للحساب والجزاء. كما قال سبحانه:﴿ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه﴾:يؤكد الله تعالى في هذه الجملة: أنه سيحيي الناس ويبعثهم في يوم القيامة؛ الذي لا ينبغي أن يرتاب فيه عاقل.ولا ريب أن تهديد الناس بهذا اليوم العصيب، يعتبر من رحمة الله بالناس. إذ لولا الخوف من عذاب الله يوم القيامة، لعم الفساد في الأرض. واختلت نظم الاجتماع، وأكل القوى الضعيف؛ - ولا وازع ولا زاجر - فصار من رحمة الله التهديد بهذا الجمع، لأجل الحساب والجزاء. كما أنه حافز للمؤمنين على زيادة الطاعة، رغبة في حسن الجزاء.﴿الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون﴾:أي الذين خسروا أنفسهم بإهدار قواهم العقلية، وتعطيلها عن النظر في آيات الله، فهؤلاء، لا يؤمنون بما دعوتهم إليه، من توحيد الله، والإيمان بيوم البعث والنشور.﴿وله ما سكن في الليل والنهار وهو السميع العليم﴾:هذا معطوف على ما قبله. أي لله ما في السموات وما في الأرض، ﴿وله ما سكن في الليل والنهار﴾: أي ما اشتمل عليه الليل والنهار من موجودات. فكل ما طلع عليه النهار وغشيه الليل والظلام، هو في ملك الله وحده. وهو السميع لكل ما من شأنه أن يسمع، العليم بكل ما من شأنه أن يعلم. سبحانه!! يعلم دبيب النملة في الليلة الظلماء ﴿يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور﴾ (ﷺ١)، ﴿ ... يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء ... ﴾ (ﷺ٢). ﷺ____________(ﷺ١) غافر، الآية: ١٩(ﷺ٢) البقرة، من الآية: ٢٥٥." (٢)

"﴿الذين تتوفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم فألقوا السلم ما كنا نعمل من سوء بلى إن الله عليم بما كنتم تعملون (٢٨) فادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فلبئس مثوى المتكبرين (٢٩)﴾المفردات:﴿ألقوا السلم﴾: أظهروا المسالمة والانقياد والإذعان.﴿مثوى﴾: مستقر ومكان إقامة.التفسير٢٨ - ﴿الذين تتوفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم فألقوا السلم ما كنا نعمل من سوء﴾:تسوق هذه الآية مشهدا من مشاهد النهاية لحياة الظالمين المصرين على الكفر، وهو أن ملائكة العذاب حين تقبض أرواحهم وهم ظالمون لأنفسهم بالكفر والعصيان، يستسلمون زاعمين أنهم لم يرتكبوا إثما في حياتهم وأنهم ما كانوا يعملون السوء، فترد عليهم الملائكة قائلة:﴿بلى إن الله عليم بما كنتم تعملون﴾: أي نعم قد عملتم السوء؛ إن الله سبحانه واسع العلم، محيط بكل ما كنتم تعملونه قبل وفاتكم، فكيف تكذبون على من لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء، ومن ﴿يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور﴾. (ﷺ١)ﷺ____________(ﷺ١) سورة غافر الآية: ١٩." (٣)

---

(١) التفسير الوسيط - مجمع البحوث مجموعة من المؤلفين ١١٨١/٣

(٢) التفسير الوسيط - مجمع البحوث مجموعة من المؤلفين ١٢٠٩/٣

(٣) التفسير الوسيط - مجمع البحوث مجموعة من المؤلفين ٦٠٧/٥

"التفسير٥٤ – ﴿إن تبدوا شيئا أو تخفوه فإن الله كان بكل شيء عليما﴾:سبب نزول هذه الآية على ما قيل، أنه لما نزلت آية الحجاب قال رجل: أننهى أن نكلم بنات عمنا إلا من وراء حجاب؟ لئن مات محمد – صلى الله عليه وسلم – لنتزوجن نساءه، وفي بعض الروايات لتزوجت عائشة.والمعنى: إن تظهروا على ألسنتكم شيئا مما لا خير فيه كنكاح أزواجه من بعده أو تخفوه في صدوركم يجزكم الله لا محالة بما صدر عنكم من المعاصي البادية، وبما أخفيتموه من الخواطر والمعتقدات المذمومة، فإنه – سبحانه – كامل العلم لا يخفى عليه ما كان من ماض تقضى وما يكون من مستقبل يأتي: ﴿يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور﴾ (ﷺ١).قال الإمام أبو السعود: وفي هذا التعميم مزيد تهويل وتشديد، ومبالغة في التوبيخ والوعيد.﴿لا جناح عليهن في آبائهن ولا أبنائهن ولا إخوانهن ولا أبناء إخوانهن ولا أبناء أخواتهن ولا نسائهن ولا ما ملكت أيمانهن واتقين الله إن الله كان على كل شيء شهيدا (٥٥)﴾المفردات:﴿لا جناح عليهن﴾: لا إثم عليهن.ﷺ______________(ﷺ١) الآية: ١٩ من سورة غافر.." (١)

"١٧ – ﴿اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب﴾:بعد ما يقر الخلائق بأن الملك يوم القيامة لله الواحد القهار، يجابون من قبل الله على ألسنة الملائكة: اليوم تجزى كل نفس بما كسبته في دنياها، الحسنة بعشر أمثالها إلى ما شاء الله، والسيئة بمثلها، لا ظلم اليوم في محكمة العدل الإلهى، ولا بطء في صدور الأحكام، إن الله سريع الحساب، لا يشغله حساب أحد عن حساب آخر، ولا حساب أمة عن حساب أخرى، فإنه – تعالى – ليس محتاجا إلى تذكر أعمال العباد أو الاطلاع عليها في كتب أعمالهم ، فإنه يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور، وكما يرزقهم في ساعة واحدة يحاسبهم في ساعة واحدة، فكل واحد منهم يتلقى كتاب عمله، ويرى فيه حسناته وسيئاته والحكم الذي صدر له أو عليه ، قال تعالى: ﴿وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا (١٣) اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا﴾ (ﷺ١) كما أنه تعالى ليس محتاجا إلى شهود ﴿يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون﴾ (ﷺ٢). نسأل الله الأمان في ذلك اليوم الرهيب.﴿وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع (١٨) يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور (١٩) والله يقضي بالحق والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء إن الله هو السميع البصير (٢٠)﴾المفردات:﴿يوم الآزفة﴾: يوم القيامة، سمى بالآزفة لقربه، من أزف الشيء يأزف أزفا إذا قرب، فهو من باب تعب.﴿كاظمين﴾: كاتمين مع الضيق.ﷺ______________(ﷺ١) سورة الإسراء الآيتان: ١٣، ١٤.(ﷺ٢) سورة النور الآية: ٢٤.." (٢)

"١٩ – ﴿يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور﴾:أي: يعلم الأعين الخائنة، قال ابن عباس: هو الرجل ينظر إلى المرأة، فإذا نظر إليه أصحابه غض بصره، فإذا رأى منهم غفلة تدسس بالنظر، فإذا نظر إليه أصحابه غض بصره، وقد علم الله – عز وجل – منه أنه يود لو نظر إلى عورتها.وقال مجاهد: "هي مسارقة الأعين إلى ما نهى الله عنه" وهذا أشمل، وكما يعلم الله خائنة الأعين، يعلم ما تخفيه صدور الناظرين: هل يزنون لو خلوا بها أو لا.٢٠ – ﴿والله يقضي بالحق والذين

---

(١) التفسير الوسيط – مجمع البحوث مجموعة من المؤلفين ٢١٧/٨

(٢) التفسير الوسيط – مجمع البحوث مجموعة من المؤلفين ٦٢٢/٨

يدعون من دونه لا يقضون بشيء إن الله هو السميع البصير﴾:والله يجازى من نظر إلى المحارم ومن لم ينظر إليها، ومن عزم على مواقعة الفواحش ومن عزف قلبه عنها.والأوثان التي يعبدونها من دون الله لا تقضى بشى؛ لأنها لا تعلم شيئا ولا تملك، إن الله هو السميع لأقوال خلقه البصير بأعمالهم، فيجازيهم حسب أعمالهم.﴿أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم كانوا هم أشد منهم قوة وآثارا في الأرض فأخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق (٢١) ذلك بأنهم كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فكفروا فأخذهم الله إنه قوي شديد العقاب (٢٢)﴾المفردات:﴿عاقبة الذين كانوا من قبلهم﴾ أي: آخر أمرهم، وعاقبة كل شيء آخره.." (١)

"للحساب، ويخوفونهم يوما يبرزون فيه أمام الحق- تبارك وتعالى- ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة [الأنعام ٩٤] بروزا أمام الله لا حول لهم ولا قوة ولا ساتر ولا وقاية من عذابه لا يخفى على الله منهم شيء.يا حسرتا على القوم الكافرين!! يقول الله- تعالى- بعد فناء الخلق أجمعين، أى: بعد النفخة الأولى: لمن الملك اليوم؟ فيجيب الله: لله الواحد القهار، فالسائل والمجيب هو الله، أو هو على لسان ملك، أو حال الخلائق ناطقة بذلك.اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب فهو لا يشغله حساب عن حساب.تخويف الكفار وترويعهم [سورة غافر (٤٠) : الآيات ١٨ الى ٢٢]وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع (١٨) يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور (١٩) والله يقضي بالحق والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء إن الله هو السميع البصير (٢٠) أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم كانوا هم أشد منهم قوة وآثارا في الأرض فأخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق (٢١) ذلك بأنهم كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فكفروا فأخذهم الله إنه قوي شديد العقاب (٢٢)." (٢)

"هو الأول فليس قبله شيء، إذ هو السابق على جميع الموجودات لأنه مصدرها، وهو الآخر لأنه الباقي بعد فناء خلقه، وهو الظاهر وجوده لكثرة الدلائل المادية والمعنوية عليه، وهو الباطن فلا تعرف العقول ذاته على حقيقتها، ولا تدركها الأوهام وهو بكل شيء عليم،روى في صحيح مسلم من حديث أبي هريرة: «اللهم أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء، اقض عنا الدين وأغننا من الفقر!». هو الذي خلق السموات والأرض «١» في ستة أيام، الله أعلم بمقدارها، وهو القادر على خلقها في لحظة إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون «٢» لكنه ذكر هذه المدة ليعلم العباد التأني والتثبت في الأمور، وليعلمهم أن خلق السموات والأرض أكبر من خلقهم، وليس هو بالهين لخلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس «٣» .ثم استوى على عرشه، واستقام أمره، واستقر على حسب ما يريده مما لا يعلم ذلك إلا هو، وهذا هو رأى السلف، وأما الخلف فيؤولون قائلين: استوى على عرشه بعد تكوين خلقه بمعنى أنه يدبر الأمر ويفصل الآيات، يعلم ما يلج في الأرض ويدخل فيها من نبات وبذور، وإنسان ومعادن وكنوز، وما يخرج منها من زروع وثمار، ومياه وجثث وغيرها، وهو يعلم ما ينزل من السماء من مطر

---

(١) التفسير الوسيط - مجمع البحوث مجموعة من المؤلفين ٦٢٤/٨

(٢) التفسير الواضح محمد محمود حجازي ٢٩٥/٣

أو شهب أو ملك أو آيات، وما يعرج فيها ويصعد إليها من عمل أو ملك أو غيره، وهو معكم بعلمه وقدرته أينما كنتم، والله بما تعملون بصير.له ملك السموات والأرض، لا راد لقضائه ولا معقب لحكمه، وإلى الله وحده ترجع الأمور، يولج الليل في النهار، ويولج النهار في الليل، بمعنى أنه يدخل هذا في زمن ذاك، وبالعكس، ونحن في مصر نرى الليل في الشتاء طويلا بينما يكون النهار في الصيف قصيرا، وفي الصيف يكون العكس، وفي الربيعين يتساوى الليل والنهار، سبحانه من قادر حكيم! وهو العليم بذات الصدور ومكنوناتها التي لا تفارقها يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور «٤» سبحانه وتعالى عما يشركون؟________(١) - الظاهر والله أعلم أن هذه الجمل بيان وتفسير لتمام ملكه ولذا فصلت عن سابقتها.(٢) - سورة يس آية ٨٢.(٣) - سورة غافر آية ١٩.(٤) - سورة غافر آية ٥٧.." (١)

"ها هو ذا الدليل على خطئكم في محبتهم، فأنتم تحبونهم وتحسنون إليهم، وهم لا يحبونكم ويحملون لكم العداوة والبغضاء، وأنتم تؤمنون بالكتب المنزلة كلها ومنها كتابهم، وهم لا يؤمنون بكتابكم، فكيف تحبونهم؟ وإذا لقوكم قالوا -نفاقا-: آمنا وصدقنا، وإذا خلا بعضهم إلى بعض بدا عليهم الغم والحزن، فعضوا أطراف أصابعهم من شدة الغضب، لما يرون من ألفة المسلمين واجتماع كلمتهم، وإعزاز الإسلام، وإذلالهم به. قل لهم -أيها الرسول-: موتوا بشدة غضبكم. إن الله مطلع على ما تخفي الصدور، وسيجازي كلا على ما قدم من خير أو شر.." (٢)

"إن تكفروا -أيها الناس- بربكم ولم تؤمنوا به، ولم تتبعوا رسله، فإنه غني عنكم، ليس بحاجة إليكم، وأنتم الفقراء إليه، ولا يرضى لعباده الكفر، ولا يأمرهم به، وإنما يرضى لهم شكر نعمه عليهم. ولا تحمل نفس إثم نفس أخرى، ثم إلى ربكم مصيركم، فيخبركم بعملكم، ويحاسبكم عليه. إنه عليم بأسرار النفوس وما تخفي الصدور.." (٣)

"ويتناجون أو يتحدثون به فيما بينهم من المطاعن في الدين، وأنه أعلم بضمائرهم، فإنهم إن قالوا: ليتصدقن بشيء من أموالهم، فإن الله أعلم بهم من أنفسهم، وأنه علام الغيوب، يعلم كل غيب وشهادة، وكل سر ونجوى، ويعلم ما ظهر وما بطن، يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، يعلم الله كل ذلك وما أسروه من النفاق والعزم على إخلاف ما وعدوه، فكيف يكذبون على الله فيما يعاهدونه به، وعلى الناس فيما يحلفون عليه باسمه؟! والفرق بين السر والنجوى والغيب: أن السر: ما ينطوي عليه صدورهم، والنجوى: ما يتحدث به الناس فيما بينهم. والغيب: ما كان غائبا عن الخلق.فقه الحياة أو الأحكام:دلت الآيات على الأحكام التالية:١- المعاهدة مع الله توجب الوفاء بالعهد، وهل من شرط المعاهدة التلفظ بها باللسان أو لا حاجة إلى التلفظ، وإنما تكفي النية في القلب؟ خلاف بين العلماء، قال المالكية: العهد والطلاق وكل حكم ينفرد به المرء، ولا يفتقر إلى غيره فيه، فإنه يلزمه منه ما يلتزمه بقصده، وإن لم يتلفظ به. سئل مالك: إذا نوى الرجل الطلاق بقلبه ولم يلفظ به بلسانه، فقال: يلزمه كما يكون مؤمنا بقلبه، وكافرا بقلبه. وروي عنه غير ذلك كما سيأتي.وقال الشافعي وأبو حنيفة: لا يلزم أحدا حكم إلا بعد أن يلفظ به، وذلك يشمل النذور والأيمان والطلاق ونحوها. ودليلهما رواه مسلم

---

(١) التفسير الواضح محمد محمود حجازي ٣/٦١٠

(٢) التفسير الميسر مجموعة من المؤلفين ص/٦٥

(٣) التفسير الميسر مجموعة من المؤلفين ص/٤٥٩

والترمذي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إن الله تجاوز لأمتي عما حدثت به أنفسها، ما لم تعمل أو تتكلم به»قال ابن عبد البر: هذا هو الأشهر عن مالك، وقال القرطبي: وهذا هو الأصح في النظر وطريق الأثرلقول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فيما رواه أصحاب الكتب الستة عن أبي هريرة: «إن الله تعالى تجاوز لأمتي عما حدثت به أنفسها، ما لم تتكلم به أو تعمل به» .." (١)

"غض البصر وحفظ الفرج يطهران النفوس من دنس الرذائل. والمفاضلة على سبيل الفرض والتقدير، أو باعتبار ظنهم أن في النظر نفعا.إن الله خبير بما يصنعون أي إن الله عليم علما تاما بكل ما يصدر عنهم من أفعال، لا تخفى عليه خافية، وهذا تهديد ووعيد، كما قال تعالى: يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور [غافر ٤٠/ ١٩] فهو يعلم استراق النظر وسائر الحواس، والخبرة: العلم القوي الذي يصل إلى بواطن الأشياء.أخرج البخاري في صحيحة تعليقا ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال:قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «كتب على ابن آدم حظه من الزنى، أدرك ذلك لا محالة، فزنى العينين النظر، وزنى اللسان النطق، وزنى الأذنين الاستماع، وزنى اليدين البطش، وزنى الرجلين الخطا، والنفس تمني وتشتهي، والفرج يصدق ذلك أو يكذبه» .وخلافا لما عليه غالب الخطابات التشريعية من دخول النساء في الحكم بخطاب الرجال تغليبا، أمر الله تعالى المؤمنات بغض البصر وحفظ الفروج كما أمر الرجال، تأكيدا للمأمور به، وبيان بعض الأحكام التي تخصهن وهي النهي عن إبداء الزينة، والحجاب، والامتناع عن كل ما يلفت النظر إلى زينتهن، فقال تعالى:وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن أي وقل أيها الرسول أيضا للنساء المؤمنات: اغضضن أبصاركن عما حرم الله عليكن من النظر إلى غير أزواجكن، واحفظن فروجكن عن الزنى ونحوه كالسحاق، فلا يجوز للمرأة النظر إلى الرجال الأجانب بشهوة ولا بغير شهوة أصلا، في رأي كثير من العلماء، بدليلما رواه أبو داود والترمذي عن أم سلمة: «أنها كانت عند رسول الله صلى الله عليه وسلم وميمونة، فأقبل ابن أم مكتوم، فدخل عليه، وذلك بعد ما." (٢)

"ولما علم الله المؤمنين أدب الدخول إلى البيوت وصون الأذن والعين من النظر المحرم، أكده بما يحملهم على محافظته، فقال:٤- وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله، ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أي ما صح وما ينبغي لكم أن تكونوا سببا في إيذاء رسول الله صلى الله عليه وسلم، أو تفعلوا فعلا يضايقه ويكرهه، كالمكث في منزله والاشتغال بالحديث، فكل ما منعتم عنه مؤذ، فامتنعوا عنه، فإنه صلى الله عليه وسلم حريص على ما فيه إسعادكم وخيركم في الدنيا والآخرة، ومن أشد أنواع الأذى ومما هو حرام عليكم أن تتزوجوا أبدا بنسائه بعد مفارقتهن بموت أو طلاق، تعظيما له، ولأنهن أمهات المؤمنين، ولأنه ذنب عظيم كما قال تعالى:إن ذلكم كان عند الله عظيما أي إن إيذاء الرسول صلى الله عليه وسلم ونكاح أزواجه من بعده ذنب عظيم وإثم كبير. وفي هذا تعظيم الأمر، وتشديد فيه وتوعد عليه، ثم أكد ذلك بالبعد عن الإيذاء في الباطن والظاهر فقال:إن تبدوا شيئا أو تخفوه، فإن الله كان بكل شيء عليما أي إن تظهروا شيئا من الأذى أو تكتموه، فإن الله عليم علما تاما دقيقا به، يعلم ما تكنه ضمائركم، وتنطوي عليه سرائركم، ولا تخفى عليه خافية: يعلم خائنة الأعين وما

---

(١) التفسير المنير للزحيلي وهبة الزحيلي ٣٢٢/١٠

(٢) التفسير المنير للزحيلي وهبة الزحيلي ٢١٥/١٨

تخفي الصدور [غافر ٤٠/ ١٩] وهو مجاز كل إنسان بحسب ذلك العلم.ثم استثنى الله تعالى من حكم حجاب أزواج النبي على الأجانب المحارم ونساء المؤمنين والأرقاء، فقال:لا جناح عليهن في آبائهن ولا أبنائهن ولا إخوانهن ولا أبناء إخوانهن ولا أبناء أخواتهن ولا نسائهن ولا ما ملكت أيمانهن، واتقين الله، إن الله كان على كل شيء شهيدا أي لا إثم على أزواج النبي صلى الله عليه وسلم في ترك الحجاب أمام آبائهن." (١)

"في ساعة واحدة.جاء في الخبر: «ولا ينتصف النهار حتى يقيل أهل الجنة في الجنة، وأهل النار في النار» .والخلاصة: ذكر الله تعالى ست صفات ليوم القيامة: وهي كونه يوم التلاق، وكون الخلق بارزين ظاهرين فيه، ولا يخفى على الله منهم شيء، ويظهر فيه الملك التام لله الواحد القهار، وتجزى فيه كل نفس بما كسبت من خير أو شر، ولا ظلم في الحساب الذي هو سريع الإجراء والتنفيذ وتحقيق المطلوب.أوصاف أخرى هائلة رهيبة ليوم القيامة[سورة غافر (٤٠) : الآيات ١٨ الى ٢٢]وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع (١٨) يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور (١٩) والله يقضي بالحق والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء إن الله هو السميع البصير (٢٠) أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم كانوا هم أشد منهم قوة وآثارا في الأرض فأخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق (٢١) ذلك بأنهم كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فكفروا فأخذهم الله إنه قوي شديد العقاب (٢٢)الإعراب:وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين، ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع إذ بدل من يوم الآزفة الذي هو مفعول به ل أنذرهم لا ظرف، لأن الإنذار لا يكون يوم الآزفة. والقلوب مبتدأ، ولدى الحناجر خبر. وكاظمين." (٢)

"حال من ضمير لدى أو حال من أصحاب القلوب. و: من في من حميم زائدة، تقديره:ما للظالمين حميم ولا شفيع. ويطاع جملة فعلية صفة ل شفيع.أولم يسيروا في الأرض فينظروا.. فينظروا إما منصوب على جواب الاستفهام بالفاء بتقدير «أن» أو مجزوم عطفا على يسيروا وكيف في موضع نصب، لأنها خبر كان وعاقبة: اسم كان المرفوع، وفي كيف ضمير يعود على العاقبة. ويجوز جعل كان تامة، فلا تحتاج إلى خبر، فيكون كيف ظرفا ملغى لا ضمير فيه. وكذلك كانوا في قوله: الذين كانوا من قبلهم كانوا هم أشد يجوز فيها الوجهان، ويكون أشد إذا جعلت كان بمعنى «وقع» حالا. وقوة تمييز. وجملة كان واسمها وخبرها مفعول: ينظروا. وكانوا هم أشد منهم قوة جواب كيف.البلاغة:ما للظالمين أي الكفار، فيه وضع الظاهر موضع الضمير للدلالة على اختصاص ذلك بهم، وإنه لظلمهم.أولم يسيروا في الأرض؟ استفهام إنكاري.السميع البصير من صيغ المبالغة.المفردات اللغوية:يوم الآزفة يوم القيامة، سميت بها لأزوفها، أي قربها، يقال: أزف الرحيل يأزف أزفا: قرب إذ القلوب لدى الحناجر ترتفع خوفا عند الحناجر أي الحلوق، جمع حنجرة أو حنجور كحلقوم لفظا ومعنى. للظالمين الكفار كاظمين ممتلئين غما حميم قريب نافع أو محب ولا شفيع يطاع مشفع أي تقبل شفاعته، ولا مفهوم للوصف: يطاع إذ لا شفيع لهم أصلا كما قال تعالى فما لنا من شافعين [الشعراء ٢٦/ ١٠٠] أوله مفهوم بناء على زعمهم أن لهم شفعاء أي

(١) التفسير المنير للزحيلي وهبة الزحيلي ٢٢/٨٨

(٢) التفسير المنير للزحيلي وهبة الزحيلي ٢٤/٩٦

لو شفعوا فرضا لم يقبلوا. يعلم الله خائنة الأعين أي النظرة الخائنة، كالنظرة الثانية إلى الحرام، واستراق النظر إليه، فالمراد الأعين الخائنة: وهي التي تختلس النظر إلى المحرم وتسارقه وما تخفي الصدور القلوب، أي ما تكتمه الضمائر. والجملة خبر خامس للقلوب، للدلالة على أنه ما من خفي إلا وهو متعلق العلم والجزاء.." (١)

"القيامة. وفي الآية إشارة إلى أن الكفار يوم القيامة يشتد خوفهم، حتى لكأن قلوبهم لدى حلوقهم، وفيها تصريح بعدم جدوى شفاعة الأصنام كما زعموا وتأملوا. والقيامة وإن طال زمانها في تقدير الناس إلا أنها آتية من غير أي شك فيها، وكل آت قريب، كما قال تعالى: اقتربت الساعة وانشق القمر [القمر ٥٤/ ١] وقال جل وعلا: اقترب للناس حسابهم [الأنبياء ٢١/ ١] وقال سبحانه: أتى أمر الله فلا تستعجلوه [النحل ١٦/ ١] وقال عز وجل: فلما رأوه زلفة، سيئت وجوه الذين كفروا [الملك ٦٧/ ٢٧] . ثم أعلمهم تعالى بشمول علمه وضبطه ودقته، فقال: يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور أي إن الله يعلم النظرة الخائنة التي ينظرها العبد إلى المحرم، ويعلم ما تسره الضمائر من أمور خيرة أو شريرة، حتى حديث النفس أو خواطر النفس. وهذا يعني أن علم الله تام محيط بجميع الأشياء جليلها وحقيرها، صغيرها وكبيرها، دقيقها ولطيفها، ليحذر الناس علمه فيهم، فيستحيوا من الله حق الحياء، ويتقوه حق تقواه، ويراقبوه مراقبة من يعلم أنه يراه، فإنه تعالى يعلم العين الخائنة، وإن أبدت أمانة، ويعلم ما تنطوي عليه خبايا الصدور من الضمائر والسرائر، أي مضمرات القلوب. قال ابن عباس رضي الله عنهما في هذه الآية: هو الرجل يدخل على أهل البيت بيتهم، وفيهم المرأة الحسناء، أو تمر به وبهم المرأة الحسناء، فإذا غفلوا لحظ إليها، فإذا فطنوا غض بصره عنها، فإذا غفلوا لحظ، فإذا فطنوا غض، وقد اطلع الله تعالى من قلبه أنه ود أن لو اطلع على فرجها «١» . ______________(١) رواه ابن أبي حاتم وابن أبي شيبة وابن المنذر.." (٢)

"وأما الجاسوس المسلم: فقال كبار المالكية: إنه يقتل. وقال الجمهور: لا يقتل، بل يعزره الإمام بما يراه من ضرب وحبس ونحوهما. ودليل الفريقين قصة حاطب، فإن الفريق الأول قالوا: أقر النبي صلى الله عليه وسلم عمر رضي الله عنه على إرادة القتل لولا وجود المانع: وهو شهود بدر. وقال الفريق الثاني: إن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يقتل حاطبا، لأنه مسلم، وروي عن علي رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم أتي بعين (جاسوس) للمشركين اسمه فرات بن حيان، فأمر به أن يقتل، فصاح: يا معشر الأنصار، أقتل وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله! فأمر به النبي صلى الله عليه وسلم، فخلى سبيله، ثم قال: «إن منكم من أكله إلى إيمانه، منهم فرات بن حيان» . ٤- ذكرت الآيات خمسة أسباب لتحريم موالاة الكفار، وهي الكفر بالله تعالى والرسول صلى الله عليه وسلم، وإخراج الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين من ديارهم وأموالهم في مكة، وعداوتهم ومحاربتهم للمؤمنين، وقتالهم إياهم وضربهم فعلا، وسبهم وشتمهم، وحرصهم على كفرهم بمحمد صلى الله عليه وسلم. ٥- حذر الله تعالى من مخالفة نهيه عن موالاة الأعداء بأمرين: أولهما- أنه سبحانه الأعلم بما تخفي الصدور، وما تظهر الألسن من الإقرار بالله وتوحيده. وثانيهما- أن من يوالي الكفار ويسر إليهم ويكاتبهم من المسلمين، فقد ضل سواء السبيل، أي أخطأ قصد الطريق. ٦- قوله سبحانه: تسرون إليهم بالمودة أي بالنصيحة في

---

(١) التفسير المنير للزحيلي وهبة الزحيلي ٢٤/٩٧

(٢) التفسير المنير للزحيلي وهبة الزحيلي ٢٤/٩٩

الكتاب إليهم، هو معاتبة لحاطب، وهو يدل على فضله وكرامته ونصيحته لرسول الله صلى الله عليه وسلم وصدق إيمانه، فإن المعاتبة لا تكون إلا من محب لحبيبه.٧- الذي يفيد الإنسان يوم القيامة هو الإيمان الصحيح والعمل الصالح، أما الأهل والأولاد أو أصحاب القرابات أو الأنساب، فلا ينفعون شيئا يوم." (١)

"عليم، والله بما تعملون عليم ودليل على إحاطة علم الله بالأشياء لأن من ملك شيئا وخلقه، فلا بد من أن يعلمه، كقوله تعالى: ألا يعلم من خلق، وهو اللطيف الخبير [الملك ٦٧/ ١٤] ، وكذلك من ملك شيئا فله حسابه على أفعاله وما يخفيه صدره، ومنها كتمان الشهادة، وصاحب السلطة المطلقة في شيء وهو الحساب، له الإرادة المطلقة في العفو عمن شاء ممن أخطأ، وعقاب من شاء، وذلك كله مقترن بالقدرة المطلقة على كل شيء.وللآية أمثال كثيرة في القرآن الكريم نحو: قل: إن تخفوا ما في صدوركم أو تبدوه يعلمه الله، ويعلم ما في السماوات وما في الأرض، والله على كل شيء قدير [آل عمران ٣/ ٢٩] ونحو: فإنه يعلم السر وأخفى [طه ٢٠/ ٧] يعلم خائنة الأعين، وما تخفي الصدور [غافر ٤٠/ ١٩] .التفسير والبيان:يخبر الله تعالى في هذه الآية أن له ملك السموات والأرض وما فيهن وما بينهن، وأنه المطلع على ما فيهن، لا تخفى عليه الظواهر والسرائر والضمائر وإن دقت وخفيت، وأنه سيحاسب عباده على ما فعلوه وما أخفوه في صدورهم، كما قال ابن كثير فلله ما في السموات وما في الأرض ملكا وخلقا وتصريفا وعلما، وهو العليم بكل شيء، فإن تظهروا ما في قلوبكم من السوء والعزم عليه، أو تكتموه عن الناس وتخفوه، فالله يحاسبكم عليه ويجازكم به، إن خيرا فخير، وإن شرا فشر.وهو يغفر بفضله لمن يشاء من عباده، ويعاقب من يشاء عقابه، ومما يكون عونا على المغفرة توفيق الله عبده إلى التوبة والعمل الصالح، كما قال تعالى: ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلما فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك، وقهم عذاب الجحيم. ربنا وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم، ومن صلح من." (٢)

"بالظالمينثم ذكر هنا مدى سعة علمه وقدرته، فعنده مفاتح الغيب، وهو المتصرف في الخلق أجمعين، وهو القاهر فوق عباده، وهو الحافظ المتوفي، وهو المحاسب خلقه في أسرع وقت.التفسير والبيان:خزائن الغيب ومفاتيحها التي يتوصل بها إلى علم الغيب عند الله، وهو المتصرف فيها، وهو عالم الغيب والشهادة، ولا يعلم بالغيب أحد سواه، وينفذ منها ما يراه في الوقت المناسب لحكمته.والغيبيات التي اختص الله بها خمس،روى البخاري عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «مفاتح الغيب خمس لا يعلمهن إلا الله: إن الله عنده علم الساعة، وينزل الغيث، ويعلم ما في الأرحام، وما تدري نفس ماذا تكسب غدا، وما تدري نفس بأي أرض تموت، إن الله عليم خبير» [لقمان ٣١/ ٣٤] .وجاء في الخبر أن هذه الآية لما نزلت نزل معها اثنا عشر ألف ملك.وفي صحيح مسلم عن عائشة قالت: من زعم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يخبر بما يكون في غد، فقد أعظم على الله الفرية، والله تعالى يقول: قل: لا يعلم من في السماوات والأرض الغيب إلا الله [النمل ٢٧/ ٦٥] .وفي معناها أيضا قوله تعالى: عالم الغيب، فلا يظهر على غيبه أحدا إلا من ارتضى من رسول [الجن ٧٢/ ٢٦- ٢٧] .ويعلم سبحانه حديث النفس، ويعلم السر وأخفى، فقال: وإن ربك ليعلم ما تكن صدورهم وما

---

(١) التفسير المنير للزحيلي وهبة الزحيلي ١٢٤/٢٨

(٢) التفسير المنير للزحيلي وهبة الزحيلي ١٢٧/٣

يعلنون. وما من غائبة في السماء والأرض إلا في كتاب مبين [النمل ٢٧/ ٧٤- ٧٥] وقال: يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور [غافر ٤٠/ ١٩] .." (١)

"والمراد بالسؤال حينئذ تقريع الكفار وتوبيخهم، فلما أقروا بأنهم كانوا ظالمين مقصرين، سئلوا بعد ذلك عن سبب ذلك الظلم والتقصير.والتوفيق أو الجمع بين قوله: فلنسئلن الذين أرسل إليهم ولنسئلن المرسلين وبين قوله: فيومئذ لا يسئل عن ذنبه إنس ولا جان [الرحمن ٥٥/ ٣٩] وقوله: ولا يسئل عن ذنوبهم المجرمون [القصص ٢٨/ ٧٨] : هو أن ليوم القيامة مواقف وأحوالا متعددة، فقد يكون السؤال والجواب في بعضها دون بعض، وقد يكون السؤال لأجل الاسترشاد والاستفادة، وقد يكون لأجل التوبيخ والإهانة.وقال الرازي: إن القوم لا يسألون عن الأعمال لأن الكتب مشتملة عليها، ولكنهم يسألون عن الدواعي التي دعتهم إلى الأعمال، وعن الصوارف التي صرفتهم عنها «١» ، أي الموانع التي حالت بينهم وبين التزام الأحكام الشرعية.فلنخبرن عن علم ومعرفة وإحاطة تامة الرسل وأقوامهم بكل ما حدث منهم، فلا يغيب عنا شيء قليل أو كثير، وإن كان مثقال ذرة من خردل في صخرة أو في السموات أو في الأرض. قال ابن عباس في آية: فلنقصن عليهم بعلم:يوضع الكتاب يوم القيامة، فيتكلم بما كان يعملون.وما كنا غائبين عنهم في وقت أو حال، بل كنا معهم نسمع قولهم، ونبصر فعلهم، ونعلم ما يسرون وما يعلنون، ونخبر العباد يوم القيامة بمنا قالوا وبما عملوا من قليل وكثير، وجليل وحقير لأنه تعالى الشهيد على كل شيء لا يغيب عنه شيء، ولا يغفل عن شيء، بل هو العالم بخائنة الأعين وما تخفي الصدور، كما قال: وما تسقط من ورقة إلا يعلمها، ولا حبة في ظلمات__________(١) تفسير الرازي: ١٤/ ٢٣ [.....]."(٢)

"تفسير قوله تعالى: (قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم.)باسم الله والحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله.وبعد: فقد سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن نظر الفجاءة فقال: (اصرف بصرك) وقد ورد في الباب حديث علي وفي إسناده كلام: (يا علي! لا تتبع النظرة النظرة، فإنما لك الأولى وليست لك الآخرة) وهو حديث ضعيف لا يثبت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم.وقال عليه الصلاة والسلام في معرض بيان غض البصر: (لا ينظر الرجل إلى عورة الرجل، ولا تنظر المرأة إلى عورة المرأة) ، ومن الجهل والقبح والعار أن ترى رجالا ونساء عراة، أو رجالا يسبحون في البحر عراة كما ولدتهم أمهاتهم، وفي الأنهار والترع كالبهائم والعياذ بالله.قال الله سبحانه: ﴿قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم﴾ [النور:٣٠] قد يقول قائل: إن حفظ الفرج آكد من غض البصر؛ لأن عدم حفظ الفرج كبيرة، أما إطلاق البصر ليس من الكبائر عند كثير من العلماء، لأن ابن عباس فسر اللمم بحديث أبي هريرة: (كتب على ابن آدم نصيبه من الزنا مدرك ذلك لا محالة: فالعين تزني وزناها النظر) فقال: ما رأيت أشبه باللمم المذكور في قوله تعالى: ﴿الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم﴾ [النجم:٣٢] مما قال أبو هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: (كتب على ابن آدم نصيبه من الزنا مدرك ذلك لا محالة ...) الحديث، فلماذا قدم الأمر بغض البصر على الأمر بحفظ الفرج، مع أن حفظ الفرج أهم من غض

---

(١) التفسير المنير للزحيلي وهبة الزحيلي ٢٢٨/٧

(٢) التفسير المنير للزحيلي وهبة الزحيلي ١٤٤/٨

البصر؟! صحيح أن حفظ الفرج أهم من غض البصر، لكن النظر هو الوسيلة إلى المحرم.فالفرج لا يتحرك إلا بعد نظر، وكما قال الشاعر: ومعظم النار من مستصغر الشرر فالأمر بغض البصر أمر بسد الذريعة إلى الوصول إلى المحرم، فالزنا جعل له حمى حتى لا يقع شخص فيه، فلا تدخل بيت شخص إلا إذا استأذنت، ولا تنظر إلا إلى الذي أبيح لك، وقد قدمنا أن من الحمى الذي وضع للزنا: مصافحة المرأة الأجنبية، فإنها لا يجوز، والخلوة بالمرأة الأجنبية لا تجوز، سفر المرأة بدون محرم لا يجوز، والغناء الذي يثير الكامن ويهيج على الفاحشة لا يجوز، فللزنا حمى فليبتعد عنه الشخص، ومنه غض البصر.﴿قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم﴾ [النور:٣٠] فيه أن ذكر الرجل يطلق عليه الفرج خلافا لمن كره ذلك من العلماء، فمن أهل العلم من كره أن يقال عن عورة الرجل فرج، وقال: الفرج هو ما انفرج، أي: ما فتح، كما قال تعالى: ﴿أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج﴾ [ق:٦] فقال: إن الفرج مختص بالمرأة، لكن هذه الآية ترد عليه، لأن الله جل ذكره قال: ﴿قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم﴾ [النور:٣٠] .والمقصود أن يحفظوها عن الزنا، وعن اللواط، وعن الاستمناء، وعن نظر الأجانب إليها، وعن نظر من لا يحل له النظر إليها، وبالجملة عن كل ما حرمه الله سبحانه وتعالى عليهم، قال النبي عليه الصلاة والسلام فيما تقدم: (لا ينظر الرجل إلى عورة الرجل) .وقد ورد في الباب حديث محمول على الاستحباب، ألا وهو حديث بهز بن حكيم عن أبيه عن جده قال: (يا رسول الله! إن الله لا يستحي من الحق -وذكر الحديث وفيه:- عوراتنا ما نأتي منها وما نذر؟) يعني: ما هو الشيء الذي يرى، وما الشيء الذي يترك؟ قال: (احفظ عورتك إلا من زوجتك أو ما ملكت يمينك، قال: الرجل يغتسل عاريا يا رسول الله؟! قال: الله أحق أن يستحيا منه من الناس) فمن العلماء من قال: وإن كنت وحدك استحب لك أن تستتر ولا تباشر السماء بفرجك، ولا تكن مكشوفا، وحمل هذا على الاستحباب لا على الإيجاب؛ لأن نبي الله موسى اغتسل عريانا، ولأن نبي الله أيوب اغتسل عريانا، وهذا حيث لا يراهما الناس، لكن الكلام على الاستحباب في شريعتنا، والله تعالى أعلم.﴿قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم إن الله خبير بما يصنعون﴾ [النور:٣٠] ، هذا التعقيب بقوله: ((إن الله خبير بما يصنعون)) [النور:٣٠] لأن للأعين خائنة لا يعلمها إلا الله سبحانه وتعالى، فقد تكون ماشيا مع شخص في طريق ولعينه خائنة وأنت لا تشعر بها، ولا تستطيع أن تضبطه بحال، يسارق النظر وأنت لا تشعر، كما قال سبحانه: ﴿يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور﴾ [غافر:١٩] فختمت الآية بقوله تعالى: ﴿إن الله خبير بما يصنعون﴾ [النور:٣٠] فمهما أخطأت على الناس فإن الله يعلم حالك ويطلع عليك.." (١)

"ثبوت صفة السمع والبصر لله، وتعزيز مبدأ المراقبة له سبحانهقال تعالى: ﴿قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها﴾ [المجادلة:١] ، الآية أثبتت كغيرها ما هو من بدهيات الإسلام: صفة السمع لله سبحانه وتعالى، ﴿إن الله سميع بصير﴾ [المجادلة:١] ، ﴿قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها﴾ [المجادلة:١] ، فهذه الآية مع غيرها من الآيات تعزز مبدأ مراقبة الله عز وجل، وعليك أن تعبد الله على هذا النحو، تعبده عبادة المحسنين، إن لم تكن تراه فإنه يراك، قال تعالى: ﴿الذي يراك حين تقوم * وتقلبك في الساجدين * إنه هو السميع العليم﴾ [الشعراء:٢١٨-٢٢٠] ، وقال سبحانه: ﴿قد يعلم ما

---

(١) سلسلة التفسير لمصطفى العدوي مصطفى العدوي ٢/٣٥

أنتم عليه﴾ [النور:٦٤] ، وقال جل شأنه: ﴿ألا إنهم يثنون صدورهم ليستخفوا منه ألا حين يستغشون ثيابهم﴾ [هود:٥] أي: وهم متغطون بثيابهم.﴿يعلم ما يسرون وما يعلنون إنه عليم بذات الصدور﴾ [هود:٥] .وهذا المعنى قد لقنه لقمان لولده: ﴿يا بني إنها إن تك مثقال حبة من خردل فتكن في صخرة أو في السموات أو في الأرض يأت بها الله إن الله لطيف خبير﴾ [لقمان:١٦] ، وأيضا: ﴿وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين﴾ [يونس:٦١] ، والآيات في باب الحث على مراقبة الله سبحانه وتعالى لا تكاد تنتهي، قال تعالى: ﴿يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور﴾ [غافر:١٩] ، ﴿إنه عليم بذات الصدور﴾ [الملك:١٣] ، آيات لا تحصى ولا تنتهي، تفيد أنك مراقب بدقة وأي دقة، مراقب مراقبة دقيقة من كل صوب ومن كل اتجاه، وكل الحركات منك محسوبة عليك، بل ما بداخلك مطلع عليه ربك سبحانه وتعالى، قال جل جلاله: ﴿ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد﴾ [ق:١٦] ، فأنت يا ابن آدم ضعيف كما قال ربك سبحانه، وكما قال النبي صلى الله عليه وسلم، وأنت عجول، ومع هذا كله فأنت مراقب مراقبة صارمة ودقيقة في غاية الدقة.قال الله سبحانه: ﴿قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله والله يسمع تحاوركما﴾ [المجادلة:١] ، والمحاورة: هي إرجاع الكلام إلى الطرف الآخر، هو يتكلم وأنت تحاوره، أي: ترد الكلام عليه، كما قال الشاعر في وصف فرسه: لو كان يدري ما المحاورة اشتكى ولكان لو علم الكلام مكلمي قال الله سبحانه وتعالى: ﴿والله يسمع تحاوركما إن الله سميع بصير﴾ [المجادلة:١] ، (وقد تلا النبي صلى الله عليه وسلم آية ختامها يشابه هذا الختام: ﴿إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل إن الله نعما يعظكم به إن الله كان سميعا بصيرا﴾ [النساء:٥٨] ولما تلاها النبي عليه الصلاة والسلام وضع إبهامه على أذنه وسبابته على عينه) ، فاستنبط بعض العلماء من هذا الحديث: إثبات السمع والبصر لله سبحانه وتعالى، ﴿إن الله سميع بصير﴾ [المجادلة:١] .." (١)

"حكم لبس النظارة الشمسية بدون حاجةQ نرجو إلقاء الضوء على حكم لبس النظارة الشمسية بدون داع، هل فيه تشبه أو تغيير للخلق؟A ليست تشبها وليست تغييرا للخلق، لكن إذا كنت تلبسها حتى تتابع بها النساء ولا يراك أحد فربك يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، إذا كنت تلبسها لحاجة شر فهي شر، لكن الأصل أنها جائزة لا شيء فيها أبدا ﴿قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق﴾ [الأعراف:٣٢] .." (٢)

"كانوا من أصل أو أصول شتى ﴿فاحشة﴾ الفاحشة هي الشيء الذي تناهى قبحه والمراد بها هنا الطواف حول البيت عراة وكل أمر قبيح يسمى فاحشة، والفحشاء ما اشتد قبحه من الذنوب كالفاحشة.التفسير: ﴿المص﴾ تقدم في أول سورة البقرة الكلام عن الحروف المقطعة وأن الحكمة في ذكرها بيان «إعجاز القرآن» بالإشارة إلى أنه مركب من أمثال هذه الحروف ومع ذلك فقد عجز بلغاؤهم وفصحاؤهم وعباقرتهم عن الإتيان بمثله وروي عن ابن عباس معناه: أنا الله أعلم

---

(١)حوشان الحمود يعتبر خال ابراهيم الراشد واخوانه

عبد العزيز وعبد الله وسليمان

لانه رضع مع امهم المديفري

(٢) سلسلة التفسير لمصطفى العدوي مصطفى العدوي ٢١/٨٧

وأفصل، وقال أبو العالية: الألف مفتاح اسمه الله واللام مفتاح اسمه لطيف والميم مفتاح اسمه مجيد والصاد مفتاح اسمه صادق ﴿كتاب أنزل إليك﴾ أي هذا كتاب أنزله الله إليك يا محمد وهو القرآن ﴿فلا يكن في صدرك حرج منه﴾ أي لا يضق صدرك من تبليغه خوفا من تكذيب قومك ﴿لتنذر به وذكرى للمؤمنين﴾ أي لتنذر بالقرآن من يخاف الرحمن، ولتذكر وتعظ به المؤمنين لأنهم المنتفعون به ﴿اتبعوا مآ أنزل إليكم من ربكم﴾ أي اتبعوا أيها الناس القرآن الذي فيه الهدى والنور والبيان المنزل إليكم من ربكم ﴿ولا تتبعوا من دونه أوليآء﴾ أي ولا تتخذوا أولياء من دون الله كالأوثان والرهبان والكهان تولونهم أموركم وتطيعونهم فيما يشرعون لكم ﴿قليلا ما تذكرون﴾ أي تتذكرون تذكرا قليلا قال الخازن: أي ما تتعظون إلا قليلا ﴿وكم من قرية أهلكناها﴾ أي وكثير من القرى أهلكناها والمراد بالقرية أهلها ﴿فجآءها بأسنا بياتا﴾ أي جاءها عذابنا ليلا ﴿أو هم قآئلون﴾ أي جاءهم العذاب في وقت القيلولة وهي النوم في وسط النهار قال أبو حيان: وخص مجيء البأس بهذين الوقتين لأنهما وقتان للسكون والدعة والاستراحة فمجيء العذاب فيهما أشق وأفظع لأنه يكون على غفلة من المهلكين ﴿فما كان دعواهم إذ جآءهم بأسنآ﴾ أي ما كان دعاؤهم واستغاثتهم حين شاهدوا العذاب ورأوا أماراته ﴿إلا أن قالوا إنا كنا ظالمين﴾ أي إلا اعترافهم بظلمهم تحسرا وندامة، وهيهات أن ينفع الندم ﴿فلنسألن الذين أرسل إليهم﴾ أي لنسألن الأمم قاطبة هل بلغكم الرسل وماذا أجبتم؟ والمقصود من هذا السؤال التقريع والتوبيخ للكفار ﴿ولنسألن المرسلين﴾ أي لنسألن الرسل أيضا هل بلغوا الرسالة وأدوا الأمانة؟ قال في البحر: وسؤال الأمم تقرير وتوبيخ يعقب الكفار والعصاة نكالا وعذابا، وسؤال الرسل تأنيس يعقب الأنبياء كرامة وثوابا ﴿فلنقصن عليهم بعلم﴾ أي فلنخبرنهم بما فعلوا عن علم منا قال ابن عباس: يوضع الكتاب يوم القيامة فيتكلم بما كانوا يعملون ﴿وما كنا غآئبين﴾ أي ما كنا غائبين عنهم حتى يخفى علينا شيء من أحوالهم قال ابن كثير: يخبر تعالى عباده يوم القيامة بما قالوا وبما عملوا من قليل وكثير: وجليل وحقير، لأنه تعالى الشهيد على كل شيء، لا يغيب عنه شيء بل هو العالم بخائنة الأعين وما تخفي الصدور ﴿والوزن يومئذ الحق﴾ أي والوزن للأعمال يوم القيامة كائن بالعدل ولا يظلم ربك أحدا ﴿فمن ثقلت موازينه﴾ أي فمن رجحت موازين أعماله بالإيمان وكثرة الحسنات ﴿فأولئك هم المفلحون﴾ أي الناجون غدا من العذاب الفائزون." (١)

"على أعمالهم، ويلتقي الخلق بالخالق في ساعة الحساب قال قتادة: يلتقي فيه أهل السماء بأهل الأرض، والخالق والخلق ﴿يوم هم بارزون﴾ أي يوم هم ظاهرون بادون للعيان، لا شيء يكنهم ولا يظلهم ولا يسترهم من جبل أو أكمة أو بناء، لأنهم في أرض مستوية هي أرض المحشر ﴿لا يخفى على الله منهم شيء﴾ أي لا يخفى على الله شيء من أحواله وأعمالهم ولا من سرائرهم وبواطنهم قال الصاوي: والحكمة في تخصيص ذلك اليوم مع أن الله لا يخفى عليه شيء في سائر الأيام أنهم كانوا يتوهمون في الدنيا أنهم إذا استتروا بالحيطان مثلا لا يراهم الله، وفي هذا اليوم لا يتوهمون هذا التوهم ﴿لمن الملك اليوم﴾ ؟ أي ينادي الله سبحانه والناس بارزون في أرض المحشر: لمن الملك اليوم؟ ويسكت الخلائق هيبة لله تعالى وفزعا، فيجيب تعالى نفسه قائلا ﴿لله الواحد القهار﴾ أي لله المتفرد بالملك، الذي قهر بالغلبة كل ما سواه قال الحسن: هو تعالى السائل والمجيب، لأنه يقول ذلك حين لا أحد يجيبه، فيجيب نفسه ﴿اليوم تجزى كل نفس بما كسبت﴾ أي في

(١) صفوة التفاسير محمد علي الصابوني ١/٤٠٥

ذلك اليوم يوم القضاء والفصل بين العباد تجازى كل نفس بما عملت من خير أو شر ﴿لا ظلم اليوم﴾ أي لا يظلم أحد شيئا، لا بنقص ثواب، ولا بزيادة عقاب ﴿إن الله سريع الحساب﴾ أي سريع حسابه، لا يشغله شأن عن شأن، فيحاسب الخلائق جميعا في وقت واحد قال القرطبي: كما يرزقهم في ساعة واجدة، يحاسبهم كذلك في ساعة واحدة، وفي الخبر:«لا ينتصف النهار حتى يقيل أهل الجنة في الجنة، وأهل النار في النار» ﴿وأنذرهم يوم الأزفة﴾ أي خوفهم ذلك اليوم الرهيب يوم القيامة قال ابن كثير: «الآزفة» اسم من أسماء القيامة، سميت بذلك لقربها كقوله تعالى ﴿أزفت الآزفة﴾ [النجم: ٥٧] ﴿إذ القلوب لدى الحناجر﴾ أي تكاد قلوبهم لشدة الخوف والجزع تبلغ الحناجر وهي الحلوق مكان البلعوم ﴿كاظمين﴾ أي ممتلئن غما وحسرة شأن المكروب قال في التسهيل: معنى الآية أن القلوب قد صعدت من الصدور لشدة الخوف حتى بلغت الحناجر، ويحتمل أن يكون ذلك حقيقة أو مجازوا عبر به عن شدة الخوف والحنجرة هي الحلق ﴿ما للظالمين من حميم﴾ أي ليس للظالمين صديق ينفعهم ﴿ولا شفيع يطاع﴾ أي ولا شفيع يشفع لهم لينقذهم من شدة العذاب ﴿يعلم خآئنة الأعين﴾ أي يعلم جل وعلا العين الخائنة بمسارقتها النظر إلى محرم قال ابن عباس: هو الرجل يكون جالسا مع الناس، فتمر المرأة فيسارقهم النظر إليها ﴿وما تخفي الصدور﴾ أي ويعلم السر المستور تخفيه الصدور ﴿والله يقضي بالحق﴾ أي يقضي ويحكم بالعدل ﴿والذين يدعون من دونه﴾ أي والذين يعبدونهم من دون الله من الأوثان والأصنام ﴿لا يقضون بشيء﴾ أي لا حكم لهم أصلا فيكف يكونون شركاء لله؟ قال أبو السعود: وهذا تهكم بهم." (١)

"[١٣] ﴿هو الذي يريكم آياته وينزل لكم من السماء رزقا﴾ [غافر: ١٣] يعني المطر الذي هو سبب الأرزاق، ﴿وما يتذكر﴾ [غافر: ١٣] وما يتعظ بهذه الآيات ﴿إلا من ينيب﴾ [غافر: ١٣] يرجع إلى الله تعالى في جميع أموره.

[١٤] ﴿فادعوا الله مخلصين له الدين﴾ [غافر: ١٤] الطاعة والعبادة. ﴿ولو كره الكافرون﴾ [غافر: ١٤]

[١٥] ﴿رفيع الدرجات﴾ [غافر: ١٥] رافع درجات الأنبياء والأولياء في الجنة ﴿ذو العرش يلقي الروح﴾ [غافر: ١٥] ينزل الوحي، سماه روحا لأنه تحيا به القلوب كما تحيا الأبدان بالأرواح، ﴿من أمره﴾ [غافر: ١٥] قال ابن عباس: من قضائه. وقيل: من قوله. وقال مقاتل: بأمره. ﴿على من يشاء من عباده لينذر﴾ [غافر: ١٥] أي لينذر النبي بالوحي، ﴿يوم التلاق﴾ [غافر: ١٥] وقرأ يعقوب بالتاء أي لتنذر أنت يا محمد يوم التلاق، يوم يلتقي أهل السماء وأهل الأرض. وقال قتادة: ومقاتل: يلتقي فيه الخلق والخالق. قال ابن زيد: يتلاقى العباد. وقال ميمون بن مهران: يلتقي الظالم والمظلوم والخصوم. وقيل: يلتقي العابدون والمعبودون. وقيل: يلتقي فيه المرء مع عمله.

[١٦] ﴿يوم هم بارزون﴾ [غافر: ١٦] خارجون من قبورهم ظاهرون لا يسترهم شيء، ﴿لا يخفى على الله منهم﴾ [غافر: ١٦] من أعمالهم وأحوالهم، ﴿شيء﴾ [غافر: ١٦] ويقول الله تعالى في ذلك اليوم بعد فناء الخلق، ﴿لمن الملك اليوم﴾ [غافر: ١٦] فلا أحد يجيبه فيجيب بنفسه فيقول، ﴿لله الواحد القهار﴾ [غافر: ١٦] الذي قهر الخلق بالموت.

[قوله تعالى اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم] اليوم إن الله سريع الحساب. . .

(١) صفوة التفاسير محمد علي الصابوني ٨٩/٣

[١٧] ﴿اليوم تجزى كل نفس بما كسبت﴾ [غافر: ١٧] يجزى المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته، ﴿لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب﴾ [غافر: ١٧]

[١٨] ﴿وأنذرهم يوم الآزفة﴾ [غافر: ١٨] يعني يوم القيامة سميت بذلك لأنها قريبة إذ كل ما هو آت قريب، نظيره قوله عز وجل: ﴿أزفت الآزفة﴾ [النجم: ٥٧] أي قربت القيامة. ﴿إذ القلوب لدى الحناجر﴾ [غافر: ١٨] وذلك أنها تزول عن أماكنها من الخوف حتى تصير إلى الحناجر، فهي لا تعود إلى أماكنها وهي لا تخرج من أفواههم فيموتوا ويستريحوا، ﴿كاظمين﴾ [غافر: ١٨] مكروبين ممتلئين خوفا وحزنا، والكظم تردد الغيظ والخوف والحزن في القلب حتى يضيق به. ﴿ما للظالمين من حميم﴾ [غافر: ١٨] قريب ينفعهم، ﴿ولا شفيع يطاع﴾ [غافر: ١٨] فيشفع فيهم.

[١٩] ﴿يعلم خائنة الأعين﴾ [غافر: ١٩] أي خيانتها وهي مسارقة النظر إلى ما لا يحل. قال مجاهد: نظر الأعين إلى ما نهى الله عنه. ﴿وما تخفي الصدور﴾ [غافر: ١٩]

[٢٠] ﴿والله يقضي بالحق والذين يدعون من دونه﴾ [غافر: ٢٠] يعني الأوثان، ﴿لا يقضون بشيء﴾ [غافر: ٢٠] لأنها لا تعلم شيئا ولا تقدر على شيء ﴿إن الله هو السميع البصير﴾ [غافر: ٢٠]

[٢١] ﴿أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم كانوا هم أشد منهم قوة وآثارا في الأرض﴾ [غافر: ٢١]." (١)

(١) مختصر تفسير البغوي المسمى بمعالم التنزيل عبد الله الزيد ٨٢٦/٦